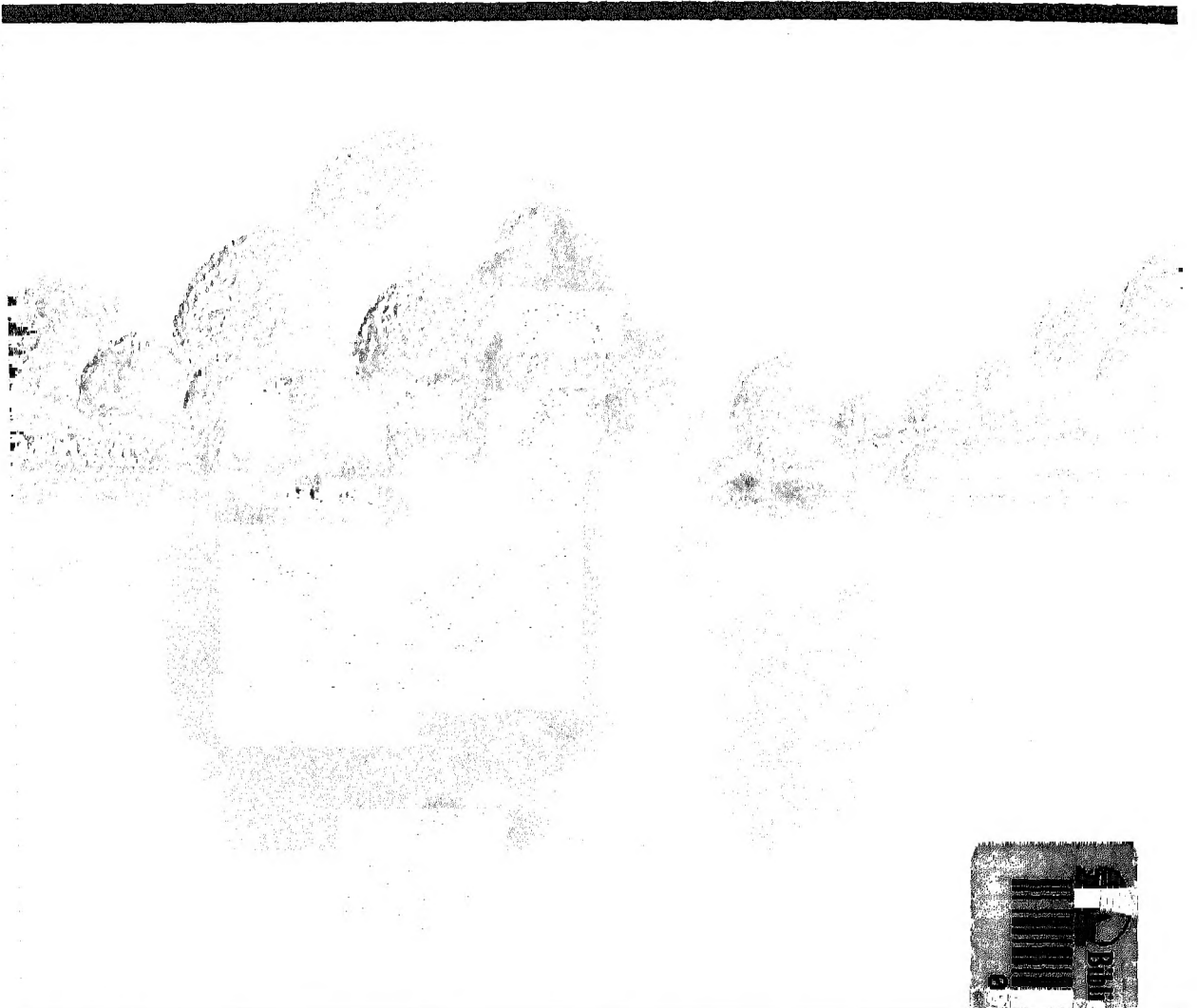


# غَادَةُ السَّمَانِ لَيْلَةُ الْمَلِيحِ



منشورات غادة السمان

رواية



لَيْلَةُ الْمَلِيَّانِ

---

تصميم الغلاف والخطوط : الفنان حسين ماجد  
صورة الغلاف الأخير : المؤلفة بريشة الفنان المصري الكبير هبة عنایت (١٩٨٥) .  
لوحة الغلاف : للمبدع جاك باردو .  
تنفيذ الطبع : مطبعة دار الكتب - بيروت - لبنان


---



غَادَةُ السَّمَانِ

# لَيْلَةُ الْمَلِيَّانِ

رواية

منشورات غادة السمان 

جميع الحقوق محفوظة للمؤلفة

منشورات غادة السمان

ص.ب ١١١٨١٣ بيروت

تلفون : ٣٠٩٤٧٠

٣١٤٦٥٩

الطبعة الأولى

كانون الثاني (يناير) ١٩٨٦

الطبعة الثانية

آذار (مارس) ١٩٩١

## الاهداء

إلى رعايا الحرية في أرض العروبة  
نساء ورجالاً  
الذين رفضوا الشرب  
من نبع الجنون ،  
أو مستنقعات التخدير .  
صحوهم بطولة ،  
وحايتهم لبوصلة الديمقراطية مغامرة  
وعمرهم أضحى مقامرة .  
إليهم ، أينما كانوا ، كيفما كانوا ،  
فهم قومي . .  
وإليهم أنتمي  
غادة



« . . هيراش هيورش هيرة هيشة طيطوش طيطواش عمارش قيروش مرنولش اجب  
يا ناصور واحضر لي في مكاني هذا بالسمع والطاعة لهذه الاسماء ايروش بريش جريوش  
دغرش هيرش وروش زليش مطمارش بحق هذه الاسماء انت واعوانك وخدامك من  
العفاريت واولاد الشياطين بحق شيوش برش برهيوم هوسيه اجبيوا مسرعين لطاعة ما  
سمعتموه بحق اطيش برطيوه طوه . . .

. . . رولش قمارش ازرولش هياريش هواطيش مطيعين لهذه الاسماء هشهبش  
مشهبش زجرتكم وقهرتكم بطر هاروش هواطيس اسمعوا قسمي وشموا بخوري واحضروا  
مجلسي بحق ما به عليكم عزمت وبالاسماء اقسمت وهممت الوحا العجل الساعة . . .  
. . . اهطموش عجروخ اوطيش كناهيش وبحق سر سموه سوه انصرفوا من حيث  
اتيتم غير مطرودين انصرف يا ناصور أنت واعوانك وخدامك بملفقوش مليقوش قوش  
هيا . . .

عزمت عليكم يا معشر الجن والشياطين والعفاريت المتمردين والطيارين وجنود ابليس  
اجمعين وبني شيراح وبني سلاح وراكب الرياح واصحاب السلاح الطائرين في الهواء . . .  
. . . والغواصين تحت الثرى والملوك العلوية والسفلية والهوائية والترابية والنارية  
والمائية .

. . . واصحاب الزلزلة واصحاب الوعود واصحاب الغضب اين ميمون الازرق اين  
برقان اين ابو القاسم صاحب الزلازل اين طحت اين الأحمر اين عوف قائد القياد اين ابو  
القاسم الاصفر اين ابو الوكير الاغير اقسمت عليكم بحق من خلقكم وقهركم وباسم  
التعظيم وآه امية امية اطيش الله خلقكم وقدركم ثم السبيل سيركم انزلوا بخيولكم  
ورجالكم وسيوفكم تبرق وخيولكم تمهمه ونيرانكم تشتعل وانطلقوا اليه والقوا في قلبه

خفقان واشعلوا في قلبه النيران وسيروه مع الريح سيران ومع السحاب ميران واجلبوه . . . . .  
 فان اكل طعاما لا يتلذذ به وان شرب ماء لا يرويه وان جلس بين جماعة لا يجد  
 قراراً ولا هدوءاً ولا اصطباراً وهو ينادي النار النار . . . .  
 . . . يا معشر الخدام التزموا هذا المطلوب بألف عفريت عن يمينه والـف جني عن يساره  
 والـف جني خلفه والـف جني فوق رأسه والـف جني تحته واذا نام نيهوه وان اكل غصغصوه وان  
 شرب شرقوه . . . .  
 . . . بحق ملاخ دملـاخ براخ جولـا هـيلا . .  
 عزمت عليكم يا معشر الجن والابالسة والجنود والعفاريت والـشـيـاطـين ان كنتم في  
 مشارق الارض ومغاربها احضروا سكان الفياقي والمجازر والمقابر والسوق والطرق والبروج  
 والمعروج اين ميمون الغمامي اين ميمون السحابي اين شـمـهـورـش الطيار اين برقان اليهودي  
 اين الملك الابيض المعظم اين الملك الاحمر المعظم اين صاحب العمامة السوداء اين صاحب  
 البغلة الدهماء اين الذي فيه الف رأس وفي كل رأس الف وجه وفي كل فـم الف لسان وكل  
 لسان يسبح الله تعالى بلغات لا تشبه بعضها بعضا . . . .  
 . . . . . علكش بطط هوشل مطيعوش بطريقوش يطفريوش بطبطيقوش مكشلاش  
 الوحا الوحا العجل العجل الساعة الساعة . .  
 احرقه يا ميططرون بحق طحيطمغليلال وبحق آل شلع يعويو بيه بتكه بتكفال بصعي  
 كعي ميمال بمطيعي لك يا آل جل زريال احترق . . .  
 احترق ايها المارد الظالم لنفسه « . . .

يعرف انهم يطاردونه . . .

يحدث حضورهم الذي يزداد اقتراباً ، بالحاسة نفسها التي كانت تنبهه في السجن الى ان الجلاد قادم ليسوقه الى قاعة الاعتراف او النسيان . . الى فتح قطب جراح الذاكرة ، او مسحها في عملية تجميل فكرية ارغامية . . .

يعرف انهم يطاردونه . . .

منذ اكتشفوا انه لم يميت في المقبرة تلك الليلة وهم مصممون على اعادته اليها . . . وهو حين لا يراهم عبر ثقب ستارة غرفة نومه او كسور زجاج النافذة ، يعي حضورهم الخفي الشرير ، كما حضور الاشباح في بيت مسكون بظلمة متحجرة ، تزفر برداً وسط دهاليز الهمسات المبهمة والابواب المنتحبة . . .

ولكنه لا يتحرك الآن في بيته المسكون . . ولا في عتمة السجن . . انه يقود سيارته المهلهلة في الدرب الى المطار ، في وضوح النهار ، وضوح الساعة العاشرة ذات يوم اثنين صيفي ، وضوح القصف ، وضوح شمس السابع من حزيران ١٩٨٢ ، وضوح الذعر والهرب . . . والموت العاري يحوم بين البحر والشهقة ، في المسافة بين السماء والدعاء ، الموت المعدني الشرس يروح ويحييء دوغما قفازات ولا اقنعة ولا اردية شبحية ولا تهاويم مصاصي دماء الخيالات أو الواقع . . . فالسجان ليس قادماً الآن لارغامه على ( التبرع ) بالدم للمرة الثالثة في شهر واحد ، لجريح من ( الفئة الفكرية ) الاخرى تصادف ان دمه ( البيولوجي ) من فئته !

يعرف انهم يطاردونه . . .

الطائرات الاسرائيلية تحوم ، وهم ما زالوا يطاردونه . . . مذعور ، والعدوى انتقلت الى بقايا سيارته التي تركض به مرتجفة وقد دبّت فيها حياة

عضوية قابلة للخلل المفاجيء او تجاوز الذات غير المتوقع . . . وها هي تعدو كحصان فقد  
رشده ، هارب من بيروت ، وكل ما يحيط به يبدو لعينيه راعشاً . بقايا الاشجار المحروقة  
على جانبي الطريق . جثة البحر المزرق الساكنة . اعمدة الكهرباء المقصوفة والممددة على  
الاسفلت المنخور كالقتلى المردة . .

يعرف انهم يطاردونه وان كان لم يلمحهم بعد . . . كهارب تحذير غامضة تسري في  
جسده كلما اقتربوا من كيانه المسور بالذعر . يعود ليحرق في مرآة السيارة ، ومستطيلها  
الفضي المغبر يتحول الى نافذة سحرية يرى عبرها جلاده ومصيره .

لم يستوقفه احد من جنود الحاجز المسلح المألوف في الدرب الى المطار . . لم يجدهم  
هناك ، ولم يحدقوا في وجهه . اكياس الرمل وحدها بقيت عيوناً متراصة ترائية تتأمل بحياة  
الدبابات مغلقة الكوى ، ومدافعها تتحرك ببطء صوب السماء . . .

في يوم كهذا لا احد يستوقفك ليسألك ما اسمك ما عمرك واين اوراقك الثبوتية ومن  
اين أنت قادم وإلى اين . . وتستطيع ان تموت اينما شئت او تقتل من شئت دون ان يزعجك  
احد او يعكر ( مزاجك ) شيء غير الطائرات الاسرائيلية التي تروح وتجيء منذ ثلاثة ايام  
وتقصص كل شيء : الحي والميت والارملة والطفل والملاعب الرياضي والمدرسة ومخزن  
الذخيرة والمستشفى والسجن والسجين والسجان والمناضل والقاتل والراصد والمردود وما  
بينها . اشتعل في رأسه غضب مرير ، انساه ذعره في ومضة وعي حاقد .

( ثمة حمقى يتابعون باسترخاء ترف الاعيهم في اسواق ( السياسة ) ، وخياناتهم التي  
يبررها لهم ( استراتيجياً او تكتيكياً ) كثة محترقون مأجورون ، دون ان يتوقفوا جميعاً لحظة  
ليرقبوا الموت المعدني القادم من الأعلى لتدمير رقعة الشطرنج البيروتية . . . وبادتنا  
جميعاً . . )

مذعور . . لا يدري ، هل ستقتله قذيفة العدو اورصاصة ( الصديق ) . . . مذعور  
حتى النسيان التخديري . . ولولا صلوات زوجته المتحبة الى جانبه وسعال احد طفليه لما  
تذكر اسرته . . انه وحش صغير يركض في الغابة وخلفه تهول الطيور البدائية بمناقيرها  
الحادة وصياحها المرعب ، وتدب الديناصورات وتزحف الافاعي والعقارب والسحالي  
العملاقة والافيال والضفادع الشاهقة لتقتله توابكها نباتات شريفة تتكاثر خلفه بسرعة  
جهنمية وتمد لبلابها المجدول كجبال مشنقة وتتفتح قرب عنقه الازهار اللاحمة باسنائها  
الدقيقة الشوكية ومعدتها المخملية الارجوانية العارية . . وهويكاد يسقط . . . آه . . .



واخيراً شاهدتهم . ها هم يرتسمون داخل المستطيل الفضّي المغبر لمرآة سيارته ، العاكسة للدرب خلفه . . . شعر بشيء من الراحة وهو يقرب سيارتهم السوداء كما تخيلها دائماً في كوابيسه ، تقترب منه بسرعة مجنونة . . . قريباً يقتله حلفاء الامس وينتهي قرع طبول الغابة ودبيب اقدام الوحوش وركض الاشجار المسلحة بالقصب والرماح الخشبية المدببة ، ويتوقف الدخان عن الخروج من عينيّه واذنيه وفمه . تقترب السيارة . تلاصقه . صرخته خرساء . لا يجرؤ على الالتفات . تتجاوزه وهي لا تلوي على شيء في دربها الى المطار . . . تخاطبه زوجته « كفى » للمرة الأولى : ليسوا ( هم ) . انها اسيرة اخرى مذعورة مثلنا . . . اسرع يا خليل . . . بربك اسرع . . .

يبدو مبنى المطار لعينيّه ، والطائرات الاسرائيلية المغيرة في آن معاً . . . في اللحظة ذاتها ، تومض في مرآة السيارة صورة مطارديه ، ويعي يقيناً لا يناقش : لقد وصلوا . . . يلمح رشاشاً مصوباً الى الامام من نافذة سيارة زرقاء تلاحقه . . . يلتفت الى طفليه . وللمرة الأولى في حياته البائسة المسألة يشعر بالندم لانه لا يحمل سلاحاً ولم يفعلها من قبل رافضاً مبدأ العنف . . الولدان نائمان . هكذا الاطفال دائماً . يفعلون ما لا تتوقعه منهم . طوال الليلة السابقة ، وصراخهم الآتي لحظة الاعدام المرتقبة يملأ اذنيه بالحسرة والشفقة على الذات وعليهما ، طارداً امكانية النوم ، وهما الآن يغفوان ، وسيموتان قبل ان يدريا بالأمر . . .

تتوالى الانفجارات . السيارة السوداء التي تجاوزته قبل قليل تنفجر امام عينيّه وتلتهب . اصابة مباشرة . اذن فالطائرات الاسرائيلية تقصف السيارات المدنية ايضاً . لعل الحمقى الذين يطاردونه يبدلون الآن رأيهم . يختبئون مثلاً ، او يصوبون رشاشاتهم نحو الطائرة المغيرة التي انطلقت صوبهم تحصد بمنجلها الناري درب المطار وابنيته ومخلوقاته . . . يسمع رامي وفادي ينتحبان بصوت خافت . اذن استيقظ المسكينان . داخل المرأة ، يرى جلاداً آخر يصوب رشاشه من النافذة الاخرى الخلفية ، مطلقاً النار صوبه لا صوب الطائرات المغيرة .

الزجاج الخلفي لسيارته يتحطم بينما يتجاوز بها لهيب السيارة السوداء المحترقة امامه بمن فيها . . . وكل شيء يحدث بسرعة مجنونة لم تدرك مجالاً لبقية من دعر . . . السيارة الزرقاء ما زالت تلاحقه ، والمسلح يطلق النار ثانية غير آبه لشيء . . . الغضب لا الخوف يستولي على خليل ، يشعر برغبة مجنونة في التوقف في عرض

الطريق ، والتزول الى ( زرق ) السيارة اعزل اليدين كما كان دائماً ، ليقول لهم ( رأيته الصريح ) في الحماقة التي يرتكبونها ، ويمسك فوهات رشاشاتهم ويزيحها باصابعه الى الاعلى . . الى حيث كان يجب تصويب نيرانها . . .  
( رأيته الصريح ) ! . . ضحك بصوت مرتفع ضحكة هستيرية امتزجت بصراخ ولديه وانتحاب زوجته . . ( رأيته الصريح ) ! اليس هذا سبب وجوده هنا ، وموته واسرته هنا ، والجحيم يتدفق ، والنيران تشتعل على جانبي الطريق ، والطائرات الاسرائيلية تغير ، وحلفاء الامس ما زالوا يطاردونه لخلافات تافهة وصغائر عابرة كأن ستارة ختمت بصائرهم عنها . غضبه مسعور مرير السخريّة . . مد رأسه من نافذة السيارة وصرخ بهم كالمعتوه وهو يشير إلى طائرة جديدة مغيرة : انظروا . . . يا ناس يا عالم يا اخوان . . يا بلدي . . .

يخيل اليه ان حامل الرشاش يضحك . يظنونه قد جن . حسناً ، من هو غير المجنون في مسرح اللامعقول العربي هذا ؟ ها هو يواجه جلاده ، وثمة من اضرم النيران في خشب منصة الشنق ، لكن الجلاد ما زال يجدل الحبل ويحيط به عنقه دون ان تحين منه التفاتة الى الآتي لاحراقهما معاً . . ودون ان يرف له قلب امام الحقيقة الممددة عارية تحت شمس حزيران . فليقتل بعضكم بعضاً ايها الاخوة الاعداء ، واغطسوا الى قاع الحقد الصغير وانسوا الجرح الكبير الماضي والآتي .

وفي ومضة شبيهة بالحللم يعي ان الطائرة تغير وتقصف وتحصد ، ووسط جنون الانفجارات ، يرى السيارة الزرقاء تنفجر داخل المستطيل الفضّي المغبر لمرآة سيارته ، وشظاياها تتطاير ، والمقود يخرج من يديه في لحظة انعدام سيطرة كلية . . . ويكاد يعوي ملء حنجرتة ، ملء صمته ، ملء جرحه : « هل فهمتم الآن ؟ . . اللعنة . . . » .

. . لكن طفليه يصرخان كمن بهما مس ، وزوجته انعقد لسانها ، وشخص يقطن جسده ولا يعرفه يتابع الهرولة فوق حصانه الجريح ، ثم يتوقف قرب مدخل المطار . ينفذ الزجاج عن نفسه حين يهبط . يحمل الولدين المذعورين من أوسطيهما كخروفين نجيا من الذبح ويركض بهما والزوجة تهول وتسبق الجميع في الاحتفاء بالبناء الحجري للمطار .

فوجيء حين وجد المطار مزدحماً بالناس . خلف عمود رخامي كوم طفليه الى جانب الاطفال الآخرين الباكين ، واخرج لفاقة ما كاد يشعلها حتى قالت له زوجته بصوت زاجر :

اسرع واحضر الحقائق . . . شهق فأضافت بعذوبتها الآمرة « لقد انتهت الغارة . . .  
اسرع يا خليل قبل ان يعودوا » . . .  
فاسرع .

\*\*\*

نصف ساعة من الهدوء ، واستعاد مطار بيروت حياته المألوفة ! سبعة اعوام من  
التعايش مع الموت علمت الناس متابعة حياتهم اليومية العادية قبل التوقف لدفن موتاهم او  
بكاء احبائهم . . . سبعة اعوام صنعت مجتمعا يبدو من الخارج شبيهاً بقطيع من النمل  
يدوسه عملاق جيئة وذهاباً ، ومن لا تصيبه الضربة القاتلة يتابع دربه ضاحكاً أو باكياً . .  
لكنه يستمر .

في مناخ كهذا تم اجراء المعاملات العادية للسفر . . . ضريبة المطار ام ضريبة الآخرة ؟  
الأمن العام ام بواب السماء ؟ مفتشو الجمارك ام ملائكة الحساب ؟ ساحة المطار الى القارات  
الأخرى ام الى العالم الآخر ؟ . .

ولكن مناخ قاعة المسافرين الزجاجية الجدران كان مختلفاً . . الطائرات جائمة امام  
العيون ، فهل تقلع بهم بعيداً عن هذا الجحيم ؟ ثمة نساء باقيات بلا دموع ، والمرأة  
المجاورة تحكي كيف احتل الاسرائيليون القرية الجنوبية فجر البارحة ، واستطاعت الهرب  
واولادها عبر الجبال . لبنانية متزوجة من فلسطيني يعمل في الخليج . في نبرة صوتها شيء  
ذكره بحقول التبغ فاستل لفافة اشعلها . تتابع حكايتها لا مبالية بأن ينصت احد او لا  
ينصت ( انها مثلي تحارب الموت بالاستماع الى صوتها ، الى ذعرها المتوقد املاً ) .

جاءت لزيارة اسرتها . سيقص الاسرائيليون رؤوس اولادها الفلسطينيين . ما زالوا  
صغاراً على القتال ، وجنود بيغن يفضلون ذبحهم صغاراً . . .

قررت المغامرة في الدرب الخطرة فقد تصل الى المطار وتقلع بها الطائرة . وصلت فجراً  
قبل المعارك الجوية . اففل المطار مرتين هذا الصباح واعيد فتحه . . . بين غارة واخرى  
تتسلل طائرة مغامرة ويحسد الباقون ركاها . . . عليها ان تنتظر حتى المساء ، موعد اقلاع  
طائرة الخليج . . . ستذهب باطفالها الى الحمام للحظات ، هل يمكن ان يتفضلوا بالانتباه  
الى حقيقتي يدها المتورمتين ، الكبيرتين اكثر مما ينبغي لراكب طائرة ؟ سمع خليل زوجته  
كفى تجيب بهلع : « لا ، لا نستطيع . لقد حان موعد طائرتنا . . . فتشي عن شخص  
آخر » .

وجرت اسرتها بعيداً عن حقائب المرأة . سألها خليل : لماذا فعلت ذلك ؟ اجابت بغصة : « لم اعد اتق بأحد . . ما يدرينا ان حقائبها ليست ملغومة . . . بمعرفتها او بدون معرفتها ؟ ما يدرينا انها لن تنفجر ؟ ما يدرينا ان المرأة الهاربة ليست مزيفة او مخدوعة ؟ ما يدرينا » . . . وشعر خليل بنصل ناري من الحزن العميق يخترق قلبه . . وبالحجل . . لقد فقد ثقته بالجميع هو ايضاً . . . بالذين يحبهم والذين يكرههم على السواء . . . لقد تمت خلخلة القلوب ، ودخل الشك محل الوثام . .

صوت المذيعة ينادي على ركاب طائرة لندن . يهرولون نحو السيارة التي تقلهم الى الطائرات محفوفين بتنهيدات الناس وحسدهم . وثمة امرأة مزخرفة بالذهب والمساحيق تصر على الصعود الى ( باص ) الدرجة الأولى لا السياحية . الم يخبرها احد ان الموت ( درجة موحدة ) ؟

المذيعة من جديد . تنادي على ركاب الطائرة المتوجهة الى جنيف . يتقدم جمع مع الوجهاء والانيقات ، ويبدو خليل بلحيته الشعثاء وثيابه المهلهلة كخادم غير وجيه لزوجته الانيقة . . . كاد يشرح للمضيفة حكايته ، ولماذا يسافر هو « خليل الدرع » الفقير الى جنيف وببطاقة حمراء تخص الدرجة الأولى الثرية ، لا ( الدرجة السياحية ) ، لكنها لم تلاحظه ونظرت اليه ولم تره كأنها تكلم شخصية اعتبارية معلقة فوق المصباح المكسور . . . « اسرعوا فقد تتكرر الغارة ، ويغلق المطار من جديد » . انتزع خليل نظراته عن حطام المصباح على الارض وهرول في مهرجان الذعر .

\*\*\*

يبدو الامر مثل لعبة تعذيب عبثية لا متناهية كدهاليز الكوابيس . للمرة الثانية يصعدون الى الطائرة ، وتتحرك بهم فوق المدرج ، ثم يعود بها ( الكابتن ) قبل لحظة الاقلاع ، ويطلب منهم مغادرتها بسبب اغلاق المطار من جديد . حسناً . لم يقل لهم لماذا اغلق . نظرة من النافذة ، كانت تكفي لقراءة ذلك السطر الجهنمي المكتوب فوق الأفق . طائرات مغيرة وانفجارات . . انها الحرب . يهرولون من جديد الى قاعة الانتظار ، ومعركة جوية شرسة تدور امام اعينهم . . . معظم الركاب وقفوا امام الجدار الزجاجي للقاعة ، يرقبون الانفجارات في السماء والافق وارض المطار وهنا وهناك وفوق التل وتحت التل ونحو الجبال العالية . . . وهذه طائرة تحترق وتهوي . . وانفجار آخر اكثر قرباً يكفي ليطيح

بالزجاج كالخناجر في الاتجاهات كلها ، لتغمد في اعناق المتفرجين وصدورهم .. ولكن احداً لا يبالي حقاً ، حتى اطفاله واطفال الجميع وجدوا لانفسهم درباً بين الاقدام لتأمل الاستعراض الناري الملهب .. ماذا يحدث ؟

اهذه شجاعة احياء ام لا مبالاة اموات ؟ هل ألفنا الموت حتى لم يعد ليثير فينا اكثر من شهية التأمل ، ام صرنا نشتهيه ونطارده وندعوه لمسح عيوننا الممزقة برحمة ظلماته ؟ ..

\*\*\*

عبر سحب الدخان ، وطائرات ( الميكل ايست ) الفضية الجاثمة على الارض ، عبر الانفجارات والشهقات والطائرات الحربية المجنونة الزعيق بين كروفر وهجوم وانقضاض ، وجناح الموت الشرس الذي نشر ريشه فوق المراثيات فحجب زرقة السماء وذهب الشمس ، واحال الدنيا الى لوحة كثيفة مرسومة بالرمادي والاسود ، ابصر خليل طائرة ورقية ملونة هاربة من يد طفل تهاجم المشهد ، وتدخل الى الرؤى الحزينة مثل رجل يخطو داخل لوحة ..

الطائرة الملونة الورقية ارتفعت في الجو حمراء زرقاء خضراء بنفسجية ، واضاءت شمس سرية داخلها ، وحملتها رياح خفية الى الاعلى بهدوء ، كما يمشي الثلج على رؤوس اصابعه في دروب السماء .. كانت تتابع صعودها المدهش وسط الطائرات المغيرة القاصفة ... ولم يعد خليل يسمع صوت المعركة ، وبدت ادوات الموت اصغر حجماً من الطائرة الورقية الملونة التي تابعت طيرانها العذب المرهف الصامت والجليل ...

ثوان ؟ دقائق ؟ لا يدري خليل الا ان المعركة الجوية توقفت وطائرة الطفل المجهول الذي تدخل بسلاحه تكبر وتكبر وتتابع رحيلها المبهم الملون .. الناس يتحدثون فيما بينهم عما شاهدوه للتو ، كجمهور يناقش فيلماً مثيراً في فترة الاستراحة ، ودهش خليل لان احداً لم يذكر ( ماركة ) الطائرة الورقية الملونة في معرض الشروح الحربية التي تطوع كثيرون للدلاء بها بعد تحويلهم الى خبراء في الاسلحة والمعارك .. ام تراه لم ينصت جيداً ؟ ...

« كفى » تنبهه الى خطر وشيك : « ماذا لو اغلق المطار ؟ كيف نعود الى البيت والقصف يلتهم الدروب كلها ومنطقة ( الكوكودي ) الملاصقة هدف اساسي ؟ سنجوع .. فلماذا لا نشترى بعض ( السندويشات ) قبل ان .....

يبدو ان كفى ليست وحدها التي وعت المأساة المرتقبة لو ...

ففي اللحظة نفسها توجه العشرات مثله نحو بائع السندويش ، ووجد نفسه في خضم

بشري متلاطم تدب في كيانه الموحد رعشة الذعر من الجوع . . . عشرات الايدي والمناكب المتزاحمة والاقدام التي يطاء بعضها بعضاً ، وتحول الجمع الى حيوان واحد بدائي التكوين يمارس تدميراً ذاتياً لا واعياً وارتفعت صيحة مخيفة : « لم يبق خبز . . . » . . . وسمع النداء وهو يتناول الرغيف الاخير والبائع يقول : « هذا آخر ما لدينا » .

حاصرتهم النظرات الحاقدة ، فصرخ معتذراً بلا صوت : « هذه لطيفي الجائع » . تسلل هارباً الى اسرته ، ورفض الطفلان تناول قسمة واحدة . عادا الى هدوئهما العجيب يتأملان العالم المحيط بهما وهو يزداد توتراً وتشنجاً ، فيثناء بان !

للمرة الثالثة تعلن المذيعة عن اقلاع طائرهم . للمرة الثالثة يتجهون نحو المخرج رقم ٥ ، وهم يرتجفون خوفاً واملاً . . . وسيدة تشاكس : « كيف تقلعون بنا والحالة خطيرة » . . . ويصرخ بها رجل وجيه المظهر خيل لخليل انه يعرفه : « لا احد يرغمك على ركوب الطائرة . من احب البقاء هنا فليبق » .

\*\*\*

صعدوا جميعاً الى الطائرة ولم يرفض احد ذلك . . . حبسوا انفاسهم . تحركت ببطء ثم توقفت عشرة قرون او عشرة ايام اودقائق ، لا احد يدري بالضبط ، ثم انطلقت مجنونة فوق المدرج ولم يطمئن احد حين اقلعت عن الارض بنزق متجهة صوب البحر . . . فقد انفجر الجحيم من جديد ودوت الانفجارات وخشي الركاب من العودة الى ( تعذيب المطار ) ، او من اصابة مباشرة في الجو . . . ومن كل شيء خطر آخر يجهلونه ويعون كهارب حضوره لكن ( الكابتن ) تابع طيرانه وسط الفضاء المملغم لا يلوي على شيء ، وحبس الناس انفاسهم ولم ينس احد بكلمة وتوقفوا عن التنظير للمعركة حين ( دخلوها ) حقاً . . .

رغم كل شيء ، حلق خليل بأسى عبر النافذة البخيلة ، محاولاً عبثاً لقاء نظرة اخيرة صوب بيروت . . . ها هو هارب كأي رعديد ، ووطنه يحترق . . . ولكنهم طاردوه حتى المطار ، ولم يتركوا له اي خيار . . .

الطائرة تحلق فوق قبرص . الركاب يصدقون انهم نجوا هذه المرة . تدب هستيريا مفاجئة . هذه تريد ان تقبل قائد الطائرة ، واخرى تقبل جارة لا تعرفها ، وكلٌ يحدث الآخر وقد تحولوا الى اسرة واحدة ستقتل بعد لحظات على الخروج من باب النجاة لو هوت الطائرة الى البحر مثلاً . . . ولكن ريثما يقع ذلك فالكل سعيد وعاشق ( والانسانية ) تتدفق

من الجميع واللياقات الاجتماعية تصب في كؤوس المجاملات ، والمضيفات يتقدمن صوب الركاب لتتويج الفرحة بالطعام الشهوي وماء النار . . . والرجل وجيه المظهر الذي توهم خليل انه يعرفه يبادل له النظرات . يومض الاسم في رأسه فجأة . لقد عرفه . انه احد جيرانهم المهاجرين منذ زمن بعيد . نديم . نديم الغفير . يتظاهر بانه لم يره ويغمض عينيه مختبئاً خلف قناع النوم . . . لم يكن سعيداً بقدر ما ينبغي لرجل نجا من الموت عدة مرات هذا الصباح . . . ليتني لم انصت لتوسل هذه المرأة وتهديدها والتفاحة في يدها والدموع في عينيهما وقد شهرت علي سلاح طفلينا ، والقمع يطاردني واسرائيل تقصفني . . . وانا مشخن بالوطن . . . ليتني بقيت هناك . . . ومت هناك برصاص ابناء بلدي او تحت ركام قصف الاعداء . . . لوبقيت ، لربما وجدت فرصة للقيام بشيء . . . لربما عدت الى مسقط رأسي وقلبي في قريتي . . . ولكن الدروب كلها سدت في وجهي . . . واهل قريتي انفسهم وصلوا بيتي هذا الصباح مهاجرين لاجئين الي . . . مشخن بالوطن . . . حقائب . . . حقائب . . . وطن مشرد في حقائب . . .

حيوات معبأة في حقائب مهرولة بين القرى والمدن والشوارع والمتاريس وخطوط التماس والسيارات المتفجرة والابنية المتهاوية وقتال الاخوة الاعداء في الجبهات الجواله عاماً . بعد عام تحت القصف والمطر والحزني المرير . . .

حقائب . . . حقائب . . . حقائب هاربة من الجنوب الى بيروت . . . وحقائب هاربة من بيروت الى المنفى . . .

حقائب التقت على الرصيف امام مدخل بيتي ، وكلنا مسرع كسارق نشل عمره من جيب القدر وهو هارب به . . . حقائب حقائب . . .

( انزلوا حقائبهم من السيارة الى البيت ، وكنت خارجاً بحقائبي من البيت الى سيارة هرب اخرى . . . بعد الـ « اهلاً وسهلاً » صرخت بهم : لماذا لم تبقوا هناك ؟ وسألوني : ولماذا لا تبقى هنا ؟ . . .

كانت الحكاية طويلة طويلة . . . حكايتي وحكايتهم ، حكاية الحصار التي عانوا منها وعانيت ، وشجار ذوي القربى الذي يمهّد الدرب لحصار العدو ، لذا اكتفينا بالعناق الصامت . . . لا هم قالوا لي ان احداً لم يساعدهم حقاً على الصمود بغير النظريات والحماسيات اللغوية ، ولا انا قلت لهم انني قضيت الاعوام الاخيرة في معارك مع الذين

كان يفترض ان اصمد واياهم الآن هنا . . . لكنني اكدت بمرارة وانا اودعهم : ليتكم ظللتم هناك . . . وكرروا : لماذا لا تنظلي انت ايضا هنا ؟

وكدت أفعل لو لم تذكرني كفى بأن المسلح الذي اخطأني البارحة حين اطلق علي النار قام بجولة استطلاعية حول الشرفات والنوافذ ، قبل دقائق ، وانه ليس وحده . . . ولعل الوصول المفاجيء لاسرتي من الجنوب لعب دوراً انقاذياً في التعتيم على حقائب هربي التي تراكمت قرب حقائبهم وتكدس على الرصيف عشرات منها محشوة ببراعم الأمل وجثته ، بالدموع والحقد والذكريات والرفض . . . وبيعض الخبز والياب . . آه مشخن بالوطن . . . مشخن بالوطن ) .

يأتيه صوت المضيفة : . . . شاي ام قهوة يا سيدي ؟ ( سم يا سيدي )  
تجاهلها وظل متظاهراً بالنوم .

\*\*\*

استرخت كفى في مقعدها الوثير سعيدة كما لم تكن منذ زمن سحيق . . تعرف ان زوجها متظاهر بالنوم وهذا افضل لهما . فادي ورامي نائمان وقد عافا الطعام . الطائفة خلفت قبرص وراءها قبل لحظات ، وها هي تخلق بها وبأسرتها في الدرب الى حياة جديدة .

( حياة جديدة ؟ هل ثمة شيء كهذا ؟ هل في مقدوري انا - او اي شخص آخر - إيقاف عربة عمري فجأة لاقول : هذه ليست دربي . . وسأصوب مسارها ناسية عمري الذي مضى في درب « خاطئة » طوال الاعوام الماضية اللعينة ؟ هل سأنسى يوماً طفلي وداد التي تنائر لحمها الغض وتفتح البائع المتجول ودمه ، ودم بقية الاطفال لحظة انفجرت القديفة التي كانوا يلعبون بها « الكرة » بعدما وجدوها في « البورة » وخلفها لهم شجار لعين بين « تنظيمين محليين » ؟ هل في مقدوري ان انضو عني جراحي كما يخلع المرء ثوباً بالياً ؟ هل تشفى حقاً كدمات الروح ؟ حسناً . لقد سنحت لي الفرصة اخيراً لمغادرة الفخ الذي تعثرت فيه ايامي ، بينما ترتع شقيقتي مع ازواجهن بالبحبوحة والامان في اقطار العالم الراقية . . وانا ساقطة في مدينة موسخة بالانفجارات . العنف . شبح الفقر ، قوافل البؤساء . القلق . خيالات الامل . الزجاج المحطم . الاحباب المتناثرة اسلاؤهم . . ووداد التي لن تعود . وزوجي الخارج من سجن الى آخر دون ان يدري بالضبط لماذا واين ، ومن ضد من ، ومن مع من ، ولماذا . . . آه ذلك الاحق الذي كنت اعشق ،



والآن لم اعد اعرف شيئاً . . احببته بجنون ذات يوم لانه رائع لا يقول الا الصدق ، كما علمه والده القروي . ولم اكن ادري ان مبرر حبي له سيتحول يوماً الى مبرر يؤسي معه ! . . والمصائب كلها التي تعرضت لها واسرتي ، كانت نتيجة مباشرة لاصرار هذا الاحمق على قول الصدق او ما يتوهمه صدقاً اينما كان كيفما كان . . . . مطالباً بـ « حريته في الحوار » ! الاحمق ! من يحاور متراساً ؟ من يحاور خبراء تعذيب وامراء طوائف السادية ؟ . . .

انها لم تخلق لذلك كله منذ البداية . .

. . . ولكن . . كان ما كان . . وها هي الآن تخطو خطوتها الاولى في ارض الحلم ، في مقصورة الدرجة الاولى بطائرة متجهة صوب اوروبا . جنيف . . جنيف بالذات . . الرجل اللطيف في المقعد خلفها ساعدها على وضع حقيبة يدها في المكان المخصص لذلك ، وبدا في عينيه ذلك البريق الذي اشتاقت الى وجهه وكادت تنساه : بريق الاعجاب الرجولي الفحل المسكوب في قالب التهذيب ( الجتلماني ) . تعبت من بيروت وعالمها الخشن المتوحش الخاوي من اي عزاء .

( الاثرياء لطفاء ، ينامون جيداً ويأكلون جيداً ويجدون بالتالي الوقت والمزاج لتذوق امرأة جميلة مثلي ورعايتها . . الناس الذين تضمهم هذه المقصورة هم الذين أتمنى ان يحيطوا بي وأعيش معهم بقية أيامي ) .

صحيح انها باعت كل ما تملكه من حطام الدنيا لتغادر بيروت ، بما في ذلك حليها ومجوهراتها الثمينة التي تلقتها من ابويها واهلها الاثرياء هدية زواج - قبل ان تأكل نيران الحرب معظم اموالهم - ، لكنها استطاعت الحصول على مقاعد لاسرتها ، واضطرت لشراء بطاقات الدرجة الاولى حين افهموها ان مقاعد الدرجة السياحية محجوزة كلها مقدماً لاسبوع . . منذ الليلة الاولى للاجتياح . واستطاعت اخيراً جر زوجها الى « الطريق الصحيحة » ، طريق النجاة ، حيث يتفرغ لاسرته ولبناء مستقبله قبل فوات الاوان . . شكراً للحمقى الذين حاصروه وقرروا تصفيته وهم يتوهمونه شخصاً خطراً . . لولاهم لما استطاعت جره من « سويسرا الشرق » التي تحترق بالجميع الى « سويسرا الغرب » التي تنتظرها بسلامها الآمن المستقر ، وما تبقى من اسرتها بعد مصرع وداد .

( آه وداد . تراني انسى غصتي بها ، تلك الطفلة التي قتلت بيد عربية وحمالة رعناء لا تغتفر ؟ وكيف اتوهم انني سأنسى او اغفر ؟ اول البارحة ، بل قبل ذلك بيوم ، بالضبط

بعد ظهر الجمعة يوم بدأت الغارة الاسرائيلية الاولى على « المدينة الرياضية » ، احضرت جاري مساء اشلاء طفلتها ندى بعدما قتلت في باص المدرسة على طريق خلدة . . . بكيت معها طويلاً . بكيت بفصة على وداد وبكت هي على ندى ، ووعيت ان طعم الموت ليس واحداً حقاً ، ومصرع الحبيب على يد العدو موت له معنى ، ومصرعه على يد « اهل البيت » موت عبثي . . . ندى شهيدة . . ووداد ضحية . . ولكن يجب ان اغادر ارض الاحزان تلك وانسى . . . يجب ان انسى اذا كنت قد صممت على امتلاك حياة جديدة ) .

وهي قد صممت بكل نبضة في شبابها على ذلك . .

وجه انيق يتلصص عليها من مقعده الامامي . . . تعرف وجهه . .

(يا الهي . . انه نديم الغفير . . . نديم الثري المحظوظ المقيم في العواصم الاوروبية كلها مرة واحدة . . . نديم جارنا الذي المحه يزور ابويه العجوزين المصريين على البقاء في البيت العتيق وبيروت المقبرة . . ما اغرب الناس ) . . .

تبسم له . تذكر انها جميلة تشتعل سحراً ، وشيء ما في نديم يذكرها بشهواتها المنسية الى مقابض الابواب الذهبية والظائرات الخاصة والصالات المرمرية ومعاطف الفراء ، والاقراط الماسية ، والـ « كريدت كاردز » والـ « اميركان اكسبريس » و « الكافيار » والـ « بيلون » و « الكريب سوزيت » والـ « لانغوست » وكل ما يوحي به حضور نديم الغفير . . توقظ زوجها غير النائم ، المعذب بصحوه السري وهي تهتف هامسة قدر الامكان : « انظر من معنا في الطائرة . . الاستاذ نديم الغفير » . . . يلتقط نديم كهارجها الممتلئة نداءً مسحوراً كأغاني عرائس البحر ، ويقف في مقعده متأهباً للذهاب اليها وتحية زوجها ! . . .

وما يكاد يضع سيجاره الضخم بين شفثيه حتى تدخل المضيئة من جديد جارة عربية الشراب مفسدة تلك ( اللحظة المباركة ) . . لكن بطاقة نديم تستقر بين اظافرها الحمر الطلاء - بعدما شارك الركاب ( اللطفاء ) في نقلها من يد الى اخرى - ، مكتوبة بماء الذهب ، تحمل مجموعة ارقام هاتفية وعناوين مكاتب عدة توحى بالوجاهة ، وعبرة مختصرة بحبر اخضر :

« سيسعدني اتصالكم بي » .

يصمت خليل . تتورد كفى سعادة. لقد ظننها اثرياء . انهم ( مثله ) من فئة ركاب مقصورة الدرجة الاولى وهم بالتالي يستحقون ضيافته بجدارة . . يكشر خليل في محاولة

بائسة للابتسام . . لو يعرف كم هم فقراء مذعورون . المستقبل امامهم ستارة سوداء مسدلة . طفلاه يرفضان تناول الطعام لا تعففاً او بطراً ، ولكنها لم يشاهدا من قبل هذه البيوض السوداء المرعبة كالنمل الميت الملقبة بالكافيار ، ولا يقدمان على التهامها - رغم الجوع - خوفاً من عضاتها ! . . اما ثيابه المهلهلة ، فليست من قبيل نزوات الاغنياء . . انها حقاً افضل ما يملك ! . . .

يغمض خليل عينيه من جديد ، كأن جفنيه ستارة يسدها بينه وبين العالم الخارجي ويختبئ خلفها ليظوف في مسرح احزانه .

( الناس الذين تضمهم هذه المقصورة هم الذين اكره ان يحيطوا بي ، او اعيش معهم بقية ايامي . . ولكن . . ها انا داخل « كبسولة » واحدة ونديم الغفير ، الرجل الذي احتقر كل ما يمثل من « لاقيم » . . الرجل الثري الناجح ، المغترب الساطع ، الذي يبيع كل شيء . . . الاسلحة والنساء والشعوب والطائرات والنفط و . . . نديم الغفير الذي يقصفون بيت ابويه وبيتي وبيوتنا جميعاً بأسلحة يبيعها هو وامثاله - ومن وراءهم - للاطراف كلها . . .

ورفاق المقصورة لهم كلهم وجه نديم الغفير . . . والمقصورة ستظل تبني بنا في الفضاء بأبدية مديدة من الازلال لي . . . كأنني منذ الخطوة الاولى التي غادرت فيها بيروت ، وضعت قدمي في المكان الخطأ ، وجالست الذين كدت ادفع حياتي ثمناً لأنني طالما وقفت ضدهم ) . . . .

تهتف كفى مستشارة : انظر يا خليل . . اننا نظير فوق ( المون بلان ) اعلى قمم الالب . . .

حدق في المساحة البيضاء الشاسعة ، وشعر انه يركض وسط الثلوج ممزق الثياب ، وحيداً ، يعوي ويسقط والانهارات تغطيه . . . والثلج يسد منافذ جمجمته ويحشوفمه . . . ثلج وظلام . . . . وهو ابن الرمال والشمس . . آه ثلج وظلام . . . .

« وجدت عجزاً تعقد الماء بالماء وتعقد النجم بالسما وتعد البحر بحيتانه وتعقد التاجر بميزانه قاطم لاطم بحق من قال للسماوات والارض اثنا طوعاً او كرهاً قالتا أتينا طائعين عقدت ذكرك يا نديم الغفير عن كافة المخلوقات من ذكر وانثى عقدة يهودية نصرانية مجوسية لا يجلها جن ولا جنية ولا إنس ولا إنسية » .

استنشقت دنيا الغفير رائحة البخور وسرت رعدة شماتة في جسدها الممتلىء نصف المترهل حينما ذكر الفلكي وطفان اسم زوجها . . . وبدا المكان مغارة خرافية من الظلال والتهاويم ، حتى انها حين غادرت الغرفة واغلقت الباب خلفها ، دهشت لوجود رقم فوق بابها . . . . . وبعدما تجاوزت الدهليز ، توقفت امام المصعد الذي انفتح على مصراعيه فجأة . . . كانت تتوقع بعد تلك الجلسة جبلاً تسلقها وغابات بدائية تقطعها .

ها هي الآن في ردهة الفندق السويسري الفاخر . . . تغادره وتجد نفسها في احد شوارع جنيف ، ومقابل الفندق ما زال ذلك البناء الشاهق منتصباً حيث كانت تعمل منذ ثمانية عشر عاماً قبل ان تتحول الى زوجة مليونير . . . ايام كانت تدرس وتعمل وتقرأ الكتب وتشاهد المعارض وتنصت للموسيقى وتحصي نقودها عدة مرات قبل التورط في شراء رف جديد لمكتبها ، ايام كانت تفتش في الصحف عن اشياء اخرى غير عناوين ( العلماء الروحانيين ) و ( الفلكيين ) ايام كانت تلتقي مع « قراء الثقافة » لا « قراء الفناجين » . . . صوت يناديها من الشرفة القريبة بالطابق الأول . يا إلهي كيف نسيت ان ليلى السباك تقطن هنا ، في ( شارع البوديه ) المقابل للباب الخلفي للفندق؟ ترى هل شاهدتها تغادره ؟ ماذا ستقول للست « ليلى سبوك » كما ينادونها هنا بدلاً من ليلى السباك ؟ . . .

اختفت ليلى عن الشرفة . . ها هي الى جانبها تقول بأسلوبها الخاص المتأرجح بين ذروة اللؤم والبراءة ، وتجاهل العارف والسخرية : « عرفت انك قادمة للتبضع من حيناً . .

سأرافقك الى السوبر ماركت » . . . اذن شاهدت ( اللثيمة ) سيارتها المتوقفة هناك ، ورصدها كما تفعل اية صديقة لدودة بعد عمر من المحبة والشماتة المتبادلة . . ولكن ، هل جاءت لتقول لها فقط - دون ان تقولها - انها شاهدتها قادمة من الفندق اياه ؟ ام انها تضرمر امرأ آخر اكثر ازعاجاً ؟

تأملتها دنيا بحسد حائر . . لا ريب انها في الاربعين من عمرها على الاقل . . . مثلها تقريباً . . لماذا تبدو اللعينة اصغر سناً ؟ لأنها مطلقة سعيدة معشوقة ؟ . . . لأنها نحيلة ورشيقة وكل ما فيها يرقص حرية . . شعرها الطويل ونظراتها اللامبالية شبه الساخرة ؟ « معذرة . . يبدو انك في حيناً لشأن آخر . . . » .

اكذت دنيا : لا . . ابدأ . . نديم يصل مساءً من بيروت ، وقد جئت لانتقاء بعض اشياائه الصغيرة المفضلة من طعام وشراب . سيزورنا بعض اصدقائه . . . ( حسناً لن اذكر لها شيئاً عن الحفل الكبير في بيتنا الليلة . . . لا اريد ان ادعوها . . ربما كنت اغار منها . . . ربما ) .

هل كانت ليلى ساخرة حين اكذت برصانة : « الحب الزوجي يتغذى بحنان الزوجة . . وطعامها » .

سألت دنيا في اهتمام مفتعل محاولة تبديل ايقاع الحديث : وانت ماذا تفعلين هذه الأيام ، منذ تركت عملك كموظفة ؟ سمعت انك انخرطت في حقل العمل الخاص . . . الديكور على ما اظن . . .

ردت ليلى : انا الآن متفرغة لرغيد الزهران . لقد كلفني امر الاشراف الكلي على حفل « ليلة المليار الاول » . . . تعرفين ما اعني . . الديكورات . . الطعام والشراب . . . توجيه الدعوات . . .

شهقت دنيا وعجزت عن اخفاء دهشتها . نعم . انها تعرف جيداً ما تعنيه ليلى . . مليون فرنك سويسري من الربح الخالص على الأقل أو أكثر . . والمزيد من العلاقات العامة في عالم اصحاب الملايين . الخبيثة ( عملتها ) . . ظنتها تطارد زوجها نديم تمهيداً لهجر الحبيب امير النيلي ، واقلقها ذلك ، ولم تكن تدري ان نديم هو ( الواجهة ) فقط والوسيلة للاقترب من رغيد الزهران . ولماذا الساقية اذا قدرت على تملك النبع . نبع الذهب : رغيد الكبير . . . انه ( ضرب ) العمر . . . ( وها هي ليلى قد « عملتها » كما نجح من قبل زوجي نديم . . ولكن ليلى كانت دوماً رجلاً بمعنى ما . . الا فيما يتعلق بالغالي امير ) . . .

لم توفر دنيا الضربة الاخيرة في نقطة الضعف الوحيدة المعروفة عن ليلي وسألتها : ما رأي امير النيل بعملك الجديد هذا ؟

لقد اصاب السؤال مقتلاً . هذا واضح ، لأن ليلي لم تجب بغير الصمت او بعبارة مرادفة للصمت : دعينا نسرع . . . بدأ المطر يهطل وسنفسد تسريحة شعرنا .

ودنيا تعرف مدى لا مبالاة ليلي بتسريحة شعرها او طيات سروالها ( الجينز ) الذي فاجأت به الحضور ليلة رأس السنة . . . والنساء متبرجات مرتديات افخر الثياب الحريرية والمخملية والحلي والتيجان المربوطة الى تسريحات شعر باهرة . . . يومها دخلت ليلي وحيدة ، بشعرها الاسود الكثيف الذي مشطته الرياح وزينته زخعة مطر ، وقد ارتدت بنظون ( الجينز ) وفوقه معطف قصير من فراء الفيزون الاسود المضيء ( البلاك دايمند ) سارعت الى خلعه لتبدو في قميصها السبور واصابعها العارية من المجوهرات مثل طالبة هاربة من المدرسة . . . وقد احاطت عنقها بسلسال حديدي دقيق تدلى منه قرش اثري عتيق مثقوب استقر بين نهديه . . .

في تلك الليلة لاحظها رغيد الزهران . . . وبدا شديد الاهتمام بذلك القرش العتيق ، وتطوع زوجها نديم الغفير بصفته احد رجال رغيد ومساعديه بارتداء نظارات القراءة ومحاولة ترجمة الحروف نصف المسوحة عن القرش الفريد ، كما تطوع للمهمة عدد كبير من اثرياء الحفل . . . التهموا بنظراتهم القرش الطريف ، والصدر الناهد الشهوي الذي يحمله .

الشيطنانة . . . لقد عرفت - رغم فقرها النسبي - كيف تحطف اضيواء السهرة ، وتقطف الاهتمام وتطفئ بريق ملايين الدولارات المسكوبة في حلي النساء . . . بقرش واحد عتيق تصعب قراءة كلماته الطلسمية في الضوء الرومانسي لذلك الحفل الوجيه . . . واين حدث ذلك كله ؟ في بيتها هي . . . لقد دعتها لتساهم في ( ترطيب ) جو الحفل ، فالمطلقات نصف الفقيرات ضرورة للرجال المسنين الذين تمرض زوجاتهم عادة ليلة حفل رأس السنة . . . ولكن اللعينة استطاعت ان تكون نجمة الحفل . . . بقرش واحد فقط لا غير . . . ( انه الحظ . . . الحظ يا سيدنا الشيخ وطفان . اذن اصطادت رغيد الزهران . . . رغيد شخصياً . . . اكبر سمكة قرش في عالم المال ، اصطادته بقرش ا ) .

الله يا دنيا . . . رغيد يريد دعوة اصحاب الملايين والمليارات للاحتفال . . . بحصوله على ملياره الأول ، وليلى ستولى امر الحفل ، وتحصد مليونها الاول مقابل خدماتها . . . الله يا دنيا ، وهي التي كانت تحشى على زوجها منها ؟ زوجها نديم ليس اكثر من سردينه صغيرة

في بحر رغيد . . . وصار على نديم ان يخشى الآن منافسة ليلى بدلاً منها .  
الله يا دنيا . .

( لقد حققت اللعينة ما تصبو اليه دوغما وساطة رجل . انها امرأة تعرف كيف تتمسك بأخطائها مباشرة ، وهذا هو الصواب فيما يبدو . . اما انا فقد عملت خادمة لرجل تمارس الآن ليلى مهنته ببساطة . . عملت خادمة لـ ( قيس ) بدلاً من قطف الثروة مباشرة . . ولكن لا . . يوم تزوجت نديم كنت احبه . ثم . . ثم لم اعد اذكر . . كأنني لم اكن اقصد ان افعل ما فعلت . . كأن ايامي كلها كانت غلطة املائية ) . . .  
وصلتا امام باب « السوبر ماركت » . قالت دنيا فجأة : يا الهي . . لقد نسيت « بيكاسو » عند الحلاق . . يجب ان اعود لاصطحابه ، وسيعود سائقي فيها بعد لشراء ما يلزم من طيبات . . .

- ومن هو بيكاسو ؟

- انه كلبى الحديد . . هل نسيت ؟

فهمت ليلى الذكية معنى تشاوف دنيا بثرائها وكلبها المترف وسائقها . . بعد عمر من الصداقة اللدودة بين النساء يصبح لكل كلمة بريئة مدلولها الشبيه بوخز الدبابيس . . . .  
ردت ليلى الضربة بسرعة ، ساخرة من ( امتلاء ) جسدها دنيا وترهلها وقالت : يا الهي . . وانا نسيت موعدى في نادي اللياقة الجسدية ( الفيتنس كلوب ) . . .  
وقبل ان تفترقا بسرعة امام باب « السوبر ماركت » لتمضي كل في درب مختلفة ، قالت ليلى موجهة الضربة القاضية : واليوم ايضاً يوم الاثنين . . والشيخ وطفان يستقبل الزبائن في الفندق . . ما رأيك في ان اذهب اليه لطلب تعويذة تجلب الحظ ؟ ام انك لست من زبائنه ؟ . . .

اذن تعرف اللعينة انها تذهب اليه ! . . . وقد هبطت من شرفتها لتفهمها ذلك . . . كم تمقت تلك الحرة المتعجرفة وتتمنى لها الشر . . . .  
وقبل ان تفترق ( الصديقتان ) ، قبلت كل منهما الاخرى بحرارة على وجنتيها عدة مرات ! . . .



يعرف أنهم يطاردونه . .  
يحدث حضورهم العدواني بالحاسة نفسها التي تنبهه الى سقوط مفاجيء في أسعار هذه  
الأسهم أو تلك ، وارتفاع مفاجيء في قيمة الذهب والدولار والين والبايت والمارك  
والدينار وعمليات هذا الكوكب كله . .  
تغادر السيارة مكتبه الفخم في قلب جنيف التجاري ، متجهة نحو الضاحية حيث  
قصره الذهبي .  
لا يتأمل نهر الرون البديع . لا يحدق في أشجار البحيرة وبعجها ومراكبها ، ولا يطبق  
( المناظر الطبيعية ) . .

يعرف أنهم يطاردونه . .  
ثمة من يرغب في قتله . .  
إنها نتيجة منطقية : رجل يمثل ثرائه ، سيحتفل بعيد امتلاكه له ( المليار الأول ) من  
الدولارات بعد أسابيع . . من لا يشتهي قتله غيلة ، غيرة على الأقل ؟  
استرخى فوق نخل سيارته الرولزرويس ، وتناول كأساً من ماء النار ثم اغلق الباب  
الصغير المذهب . حلق في قبة سائقه المائلة قليلاً ، وزجره طالباً منه أن يحسن ارتداءها . .  
حلق في الرأس الحليق لحارسه الشخصي فلم يجد فيه ما يستحق الزجر رغم شهيته لذلك .  
كثيرون يرغبون في قتله . . بدءاً بسائقه هذا ، مروراً بأعز أصدقائه وربما حراسه وانتهاء  
لرجال الذين دمرهم اثناء صعوده الى القمة ، وداسهم كدرجات السلم واحداً بعد آخر  
ملفاً بعضهم في السجون وبعضهم الآخر في المصححات أو المقابر أو البيوت الفقيرة التي تلهج  
سنة أصحابها باللعنات عليه . . . والنساء . . . نسي النساء أيضاً . . كثيرات تتراكم  
وههن بعضها فوق بعض مثل رسوم على « البلكسيجلاس » الشفاف طبقة فوق أخرى ولا  
من هذا الكوم المرعب غير وجه له عشرات العيون والافواه المتقاطعة والشهقات

..  
لهم يكرهني ، حتى كلاب حراستي . . . تبادلني كرهاً بكره . . . كرهاً علنياً من  
بكره سري من جانبهم . . هل من صيغة أخرى للحب ؟  
وانا استمتع بمباهج الكراهية دونما خجل وامارس طقوسها الوضيعة بكل فخر . . لم  
ج وانجب اولاداً كي لا اضطر للتظاهر بحبهم . . . وانا الآن نادم ، ليتني انجبت  
داً أمارس واياهم الكراهية المتبادلة دونما ارتباك . . فأنا ثري استطيع ان اكون وحشاً



دون ان احاضر عن الانسانية ، وداعراً دون ان أحاضر عن الفضيلة ، ووغداً دون ان أتشدق بوفاء الصداقات الابدية . . والفارق ليس كبيراً جداً بيني وبينهم كما يحلو لهم ان يتوهوا . . كل ما في الأمر ، انني قادر على الاعلان عن مخاليبي ما دمت أحمل دفتر شيكات اوراقه قادرة على حمل رقم مليار دولار ) .  
يعرف انهم يطاردونه . .

يتمنى لو يعرف اسم قاتله . . طالما استحلف الشيخ وطفان ليقراً في كرتة الزجاجة الشفافة اسمه . . طالما احضر له الزنجار والزرنينج الاخضر والزنجفر والكافور والسنبل البغدادي وقلب ديك أزرق ولبان ذكر وبزر ريحان وبخوراً ليكتب له اسم قاتله ، لكن الساحر اللعين - او الجني الذي يملكه - يسخر منه باستمرار ولا يكتب له في المسدل الا اسمه : رغيد ، ولانه يحب نفسه حتى العبادة ، ولا يمكن ان ينحرفها ، فقد وظف وكالة تحريات للتأكد من ان أحداً من الذين يقتربون منه لم يحمل اسم رغيد يوم مولده . .  
ورفع قناع الاسماء المستعارة عن شهادات ميلاد معاونيه جميعاً قديمهم وجديدهم ، مقيمهم وعابريهم بدءاً بنديم الغفير وانتهاء بهاني وعبد الغفور وانطوان وحتى خادمه نسيم . . وساحره نفسه ايضاً . . ولم ينس شريكه الحالي صخر الغنمالي وشقيقه والشركاء كلهم من السابقين واللاحقين . . . ولم يلح في الافق حتى الآن اي « رغيد » سواه . . .  
ثمة من يرغب في قتله . . . وهولن يجعل المهمة سهلة . . . إنه يشتبه ان يقتل سكان الكرة الارضية كلها لحظة موته . . . وهولم يخف ذلك يوماً ، لكنهم جميعاً يعتبرون قوله هذا نكتتهم المفضلة . . .

حينما يقول الثري حماقة ما يُعتبر ( اوريجينال ) ويضحكون لحفة دمه . حينما يقولها فقير يعتبرونه وقحاً وسمجاً . آه كم يكره الفقر .  
( اذا كنت وحشاً فأنا من صنعهم ) !

السيارة تتوغل في الغابة المجاورة لقصره ، ويرى بحيرة ليमान تتوهج بذهب الغروب الذي أشعل قمم الاشجار . . إنه لا يحب المناظر الطبيعية الا حين تلونها الشمس بلون الذهب . . . يكره البحيرة ويحب الذهب . . . يكره الاشجار لانه لا يستطيع ان يمشي فوقها ويدوسها بقدميه ويحب العشب . . .

( ذلك البستاني اللعين يجب ان أطرده . . . لقد زرع شجرة خلصة في حديقة قصري المحظر زرع الاشجار او الازهار فيها أو كل ما يعلو عن الارض غير العشب . . لقد ادعى

البستاني ان الشجرة انبثقت وحدها ولم يطاوعه قلبه على قصها وهي صغيرة هكذا . . وادعى ان الازهار البرية تنبت وحدها في الربيع وسط العشب ، على الرغم من مقصاته وماكانت « حلاقة » الخضرة ، وكل ما ازوده به من أدوات حديثة لحفظ صفاء عرق العشب ، ونسله الذي يجني رأسه بكل خشوع حين أدوسه . . ذلك السائق السويسري اللعين ايضاً ، ضبطته مرة وقد أدخل طفلاً الى حديقتي وأخفاه في بيت البستاني . . . وهو يعرف ان ادخال الاطفال ممنوع لانني امقتهم . . قال انه ابنه ، وتحدث عن عيد ميلاده الذي يصادف ذلك النهار ، وغير ذلك من الاعذار التافهة التي يتذرع بها البشر العاديون السخفاء للتهرب من اداء واجباتهم بدقة ساعة سويسرية ) .

يتهدد رغيد مشمئزاً . . يمس زراً عله يرى في التلفزيون ما ينسيه تفاهة البشر . . يرى الحرائق تملأ الشاشة . . منظر لطيف ، يرى القصف ، ومعركة جوية ، وموتاً وذعراً ونيراناً تلتهم الابنية . . وانفجارات مروعة . . والمذيعة الفرنسية تتحدث بأسى عما يدور في بيروت معلنة مصرع أحد زملائها المصورين في المعارك هناك .

( كنت اعرف انني ابيعهم بضاعة جيدة . بضاعة ممتازة للاطراف كلها . سيزداد عدد زبائني . . تجارة السلاح أفضل من تجارة اللحوم . . كنت اظن امور الغذاء اكثر اهمية من السلاح . . فجميع الناس يأكلون ثلاث مرات على الاقل كل يوم ، ولكن يبدو انهم في هذا الزمان يقتلون اكثر من ثلاثة اشخاص في اليوم ، وعدد الذين لا يأكلون غير وجبة في اليوم يتزايد . . فأشعلها ايها القدر تحت الشعارات كلها ، والغايات كلها فاضلها وحقيقتها نبيلها ووضعها . . اشعلها حرباً اينما كانت وخراجها عندي ، وستتحول الجثث المحروقة وآهات الارامل ، والسواد حول عيون الاطفال الى ذهب براق . . يصب في بركة سباحتي ) .

يمس الزر ثانية ليسكت التلفزيون ، مطمئناً الى ان كل شيء على ما يرام بالنسبة اليه ، فيسمع المذيعة تعلن عن إقفال مطار بيروت الدولي بعد ان دارت معارك طاحنة فوقه بين الطائرات السورية والاسرائيلية . . وقصفت اسرائيل الطائرات الجاثمة على أرضه ، باستثناء طائرات قليلة تمكنت من الاقلاع قبل وخلال احتدام المعارك . .

اللعة . اذن لن يعود نديم الغفير من بيروت الليلة ؟ وستأخر الصفقة الكبيرة التي أرسله من أجلها ؟ اذا لم يأت ذلك الوغد سباحة من بيروت عبر البحر المتوسط والانهار ، سيسلخ فروة رأسه ويلقها الى جانب جلود بقية

حيوانات مجموعته .

تضيق انفاسه . كيف يجمع ملياره الثاني اذا كانت الامور ستمضي في ايقاع بطيء كهذا ؟ يمس زراً يفتح النافذة الى يمينه ، ثم يسارع الى اغلاقها خوفاً من رصاصة . . ويقبع مطمئناً داخل سيارته المصفحة ضد الرصاص ، بينما تفتح له أبواب قصره بعد لحظات من الاجراءات الامنية ، ثم تغلق خلفه . . الأسوار المحيطة بحديقته مكهربة لابعاد المواشي عن املاكه الخاصة ، لكن مشهد الاطفال الذين يتكهربون بها ، ويتلقون صدمة موجعة غير قاتلة أمر ممتع حقاً . . تلك الدهشة المتوجعة التي تبدو في عيونهم لحظة مس السور ، تذكره بنظرات الجميلات لحظة يتلقين أمر الطرد من فراشه بعد أن تمسه يد الرعشة مباشرة . . يدخل الى قلعته الذهبية ويشعر بالأمان . . يجبها هكذا ، ضيقة النوافذ ، نصف معتمة ، محشوة بالكنوز والأسرار ، ويبكاء الصبايا العذراوات لحظة تنفيذ عقد شراء البكارة ولحظة الطرد . . ولكن عددهن يتناقص كثيراً هذه الايام ، صارت العذراوات من القطع النادر ، ومن يدري ، فقد يضطر الى استيرادهن عما قريب ! . . يستقبله خادمه اللبناني نسيم ويقول : اتصل بك الاخ سري الدين . . . عدة مرات . .

- من هو سري الدين ؟

- ألا تذكره ؟ انه الطالب الذي تبرع لك بكليته منذ عام . .

- تعني الذي اشتريتها منه بنقودي . . . فلماذا اذكره ؟ هل تتوقع مني ان اذكر كل بائع اشتري منه حاجة ما ؟

- معذرة . لعلك تذكر انه كان فقيراً وباع كليته ليدفع اقساط الجامعة ونفقات علاج امه لا ليؤسس تجارة بئمنها . . لقد نفذت نقوده وأمه ما تزال تتعذب بعد اخراجها من المصح . وهو يتوسل الي منذ ايام كي تمنحه دقائق يكلمك فيها . . السرطان يا سيدي يفترس أمه . . انه موجه . .

- لست طبيباً ، فلا تزعجني بهذا الأمر ثانية .

- وقد انهارت صحة المسكين منذ تبرع - أعني باعك - كليته . لم يعد يملك ما يكفيه للعناية بنفسه بعد العملية كما ينبغي . . . نفقات علاج أمه ، وأقساطه الجامعية وأدويته ، اعادته أكثر فقراً مما كان عليه قبل العملية . . .

جلس رغيد على مقعد حريري مذهب المقابض ، واسترخى بنشوة حين لامست

أصابه الجلد البراق ، الدافئ البارد ، للذهب ، واجاب بكثير من اللامبالاة : هذا ليس شأني لانني لست جمعية خيرية . لقد عقد سري الدين صفقة ، وككل عملية بيع وشراء الخسارة ممكنة كما الربح . . . وقد خسرت تجارة صاحبك . . .

- اخشى ان يضطر لبيع مذكراته الى « شارلوت بارنز » . . . تعرفها تلك الصحافية الاوروبية المتخصصة بنشر فضائح العرب . . . انها تلاحقه منذ أيام ، وصحيفتها تغريه بمبلغ كبير . . . أخشى ان يضعف امام اغرائها يا سيدي . . تذكر كم كانت أصداء مقالها عن حياة الشيخ صخر الغنمالي سلبية . . .

هرولت السحب المعتمدة داخل عيني رغيد ، أما بقية ملامح وجهه الصخرية فلم تفصح عن ومضة قلق لولا ارتجافة في الشفتين شبيهة بإبتسامة سخرية ، ام تكشيرة حقد ؟ لم يدر نسيم ، لكن صوت رغيد جاء كعادته بارداً محايداً لا يعبر عن موقف عاطفي : « لا تقلق . . ثق بي وسيكون كل شيء على ما يرام » . . لا يدري نسيم لماذا شعر بقلق غامض . عبثاً حاول ان يستعيد في خاطره صورة رغيد كعجوز مريض مضحك ، متزوج من اعجابه بساحره ، يأكل وحيداً طعامه الخاص بالريجيم في غرفة المائدة ( الطقوسية ) الفخمة الأصولية ، ثم يتسلل ليلاً الى برادات المطبخ ويقف أمامها وهو يلتهم الطعام الشهي سراً وبسراة . فكر بذعر : كون الرجل عجوزاً مريضاً طريف العادات لا يعني بالضرورة انه غير مؤذ .

فعاد يسأله مرتاباً : ماذا تعني يا سيدي ؟

كرر رغيد ببطء : لا تقلق . . ثق بي وسيكون كل شيء على ما يرام . .  
- كما تشاء . . .

- هل عاد الشيخ وطفان من الفندق ؟

- وصل قبل قليل ، وطلب مني عدم ازعاجه ، وإبلاغك انه سينفذ مضمون مذكرك . . ناولته اياها لحظة دخوله . . .

- هل عاد نديم من بيروت ؟

- الاستاذ نديم ؟ سألت عنه منذ نصف ساعة وقالت زوجته انه لم يصل بعد من بيروت . . .

- ثابر على الاتصال به كل نصف ساعة ، واذا وجدته قل له ان يحضر حالاً . . . والحق

بي الى بركة السباحة ، ولا تنس احضار « دواء الضغط » كالعادة . . .

- ولكنني لست انا الذي ينسى الدواء . انا احضره اليك باستمرار وانت تنسى ابتلاعه . .

- « الحقني » به . . كلما نسيت اركض خلفي . مهمتك ان تتذكر . اني ادفع لك راتبك مقابل استئجار ذاكرتك أيضاً . .

- ولكن . . .

- هل علينا تكرار هذا الحوار كل مساء . . . هيا اغرب عن وجهي .

كظم نسيم غيظه ، وتذكر فقره ، واسرته ، ومدينته التي تحترق ، وحاجته الملحة الى عمله ، فجاء صوته كزفرة بركان : أمرك يا باشا .

واخيراً قالها « يا باشا » . للمرة الأولى يسمعها منه . لقد نجح في إذلاله . داسه كالعشب ، وقص أشجار كبريائه . امتلأ قلبه غبطة . . كم هو ممتع ايلام اولئك الحمقى الصغار الذين يمتقونهم ويتوهمون انهم يخدعونهم . .

نهض عن مقعده . اتجه صوب الهاتف . . . لم يلحظ ان نسيم كان يرهف السمع عبر الباب . . ولم يسمع نسيم ما قاله رغيد في المخابرة الهاتفية الخاطفة نصف الهامسة . . . ولكن خيل اليه انه سمع اسم « سري الدين مختار » ام تراه كان واهماً ؟ استولى على قلبه ذعر غامض ، فرغيد لا يؤجل شيئاً ، وهو يعرف غلط الاعمال الشريرة التي يتحمس لأدائها . . . أم تراه يبالي في شكوكه ؟ يكاد يفقد صوابه في هذا القصر المذهب الرهيب ، بين تعاويد الساحر في جناحه الخاص ، ووحشية رغيد الناعمة الملمس في الجناح الآخر . . . لا طفل في هذا البيت . لا امرأة حقيقية ، وانما بضائع تعبر السبيل بين الباب والممر فالباب ، في المسافة بين الرعب والدموع ، بين الفقر والشراسة الكسول . . . وهو يركض خلف الجميع ليكنس بقايا الدموع والكحل والكلمات التي لم تقل ، وروائح البخور المعشقة في الزوايا تحول المكان الى معبد ذهبي تقدم فيه ضحايا بشرية في عبادة وثنية وحشية الطقوس . . .



« عزمت عليكم يا معشر الجن والأبالسة والجنود والعرافيت والشياطين إن كنتم في

مشارك الأرض ومغارها احضروا سكان الفيافي والمجازر والمقابر والسوف والطرق والبروج  
والمعروج اين ميمون الغمامي اين ميمون السحابي ، اين شمهورش الطيار اين برقان  
اليهودي اين الملك الأبيض المعظم اين الملك الأحمر المعظم اين صاحب العمامة السوداء اين  
صاحب البغلة الدهماء اين الذي فيه الف رأس وفي كل رأس ألف وجه وفي كل فم ألف  
لسان وكل لسان يسبح الله تعالى بلغات لا تشبه بعضها بعضاً . . .

بعينين مغمضتين يتلو الشيخ وطفان تعاويذه التي حفظها ( عن ظهر قلب ) من كتبه  
العتيقة بعدما مارس المهنة زمناً ما . . .

عامان ؟ ثلاثة اعوام ؟ لم يعد يذكر . . . صوته يعلو ويخفت وهو ينادي اتباعه  
وأعوانه ، يمس كأفعى تارة ، ويزجر كأسد تارة اخرى . . . لحظة بعد لحظة ، يشعر كأنه  
يقادر جسده الأرضي ، ويستحيل الى حضور هوائي . مائي . ناري . تتعاقب تقمصاته .  
يهب عبر السهول والجبال والمحيطات غترقاً حاجز المكان والزمان ، ويتدفق سيالات روحية  
كهروطيسية جبارة تتحرك طليقة في الكون بسرعة السنوات الضوئية ، وقد تجتاح روحاً أخرى  
وتعطبها . . .

« علكش بطط لهوشل مطيعوش بطريقوش يطفريوش بطبطيقوش مكشلاش السوحا  
الوحا العجل العجل الساعة الساعة . . .

. . احرقه يا ميظروق بحق طحيطمغليلال وبحق آل شلع يعو يو بيه بتكه بتكفال  
بصعي كعي ميمال بمطيعي لك يا آل جل زريال احترق . . .

احترق ايها المارد الظالم لنفسه . . . احترق . . . احت . . .

لا يلدرى ماذا دهاه . انه يتلثم وعبثاً يلفظ عبارة « احترق ايها المارد الظالم لنفسه . . .  
احترق » . كأن في خصمه الذي ينوي احراقه قوة روحية خاصة خارقة تصد الكيد عنه  
وتصفّحه . . كأنه يستعصي على الابداء . . . عبثاً يتابع قراءة تعاويذه التي لم تعد تعني  
كلماتها ونصها ( الحرفي ) الكثير له ، بل صارت بمثابة نوطات موسيقية تساعد على شحذ  
اوتاره الداخلية ، وضبط ايقاعها ، وشحنها بالتسارع والقوة لتتطابق موجاتها ويلتقي بثها  
وقوى كونية طليقة اخرى . . . ويسخرها . لكنه عبثاً يعاود تركيز طاقاته ، ويطلق كهاربه  
لتحويل ذلك « المارد » الى رماد . . فعضلات لسانه تتشنج ، والشوك ينمو بسرعة فوق  
حباله الصوتية . . والم حاد ينشب مخالبه في عينيه وهو يحاول عبثاً التركيز على صورة لا مرئية  
داخل كرتة الشفافة . . . ولم يعد في قدرته الاستمرار . . . وكأنما أعاده الألم الجسدي الى

حقيقته المادية الأرضية ، غطى وجهه يديه وأغلق بهما الجمرتين الملتهبتين اللتين لا يدري أية قوة زرعتهما في موضع عينيه . . . تأوه وسأل كرتة : ما سر هذا الرجل العجيب الذي يستعصي على سحري ؟ للمرة الأولى يستعصي انسي على سحري . . .  
 الكرة المسحورة لم تجب . . . عادت كتلة زجاجية ميتة كأشياء الغرفة الباقية الهامدة . . .  
 واشتعل فضول الساحر . . . كيف يحدث ذلك له . . . ما السر ؟ . . .  
 من يصفح ذلك « المارد » الذي توهمه مجرد أرضي بائس آخر ؟ من يتدخل بينهما ؟ . . .  
 ( اعطاني رغيد صورة رجل وقال : هذا خصمي الاعظم والواحد . . . اريد ابادته . . .  
 شعرت بالدهشة وانا أحرق في الصورة . . . كانت تمثل رجلاً عادياً يشبه اي رجل عربي في اية مدينة وقرية . . . رجلاً مألوف الوجه كأنني أعرفه منذ زمن بعيد . . . كل ما في ملامحه لا يلفت الانتباه ، لكنه في الوقت ذاته يذكرني بمن عرفت في وطني . . . برفيقي في المدرسة الذي نسيت اسمه ، ببائع الكعك بالسمسسم الجوال ، اسكافي الحلي ، خادم الجامع ، اخوتي وأبي وأهلي . . . غمرني غم مفاجيء ، واستيقظ رجل نائم في داخلي وقال « لا » وعاد الى نومه . . .

- من هذا الرجل ؟

- لا اعرف ! . . .

غريب أمر رغيد الزهران اليوم . لماذا يخفي عني سرّاً صغيراً كهذا ، وهو الذي باح لي بأساء أمراء وحكام يريد ازاحتهم من درب ( مشاريعه ) بالسحر او الكيد ؟  
 - من هذا الرجل يا باشا ؟ ما اسمه ؟  
 ناديته يا باشا تحبباً ، فهذا اللقب يروق له رغم انه ليس مصرياً ولا من سلالة الباشاوات . . .

كرر الاجابة ذاتها : لا اعرف . كل ما أعرفه هو انه خصمي . . .

- ما دمت لا تعرف من هو بالضبط ، لماذا تريد ان تؤذيه ؟

- لانه عدوي الاول . . . وأحدنا يجب ان يموت .

- ماذا تعرف عنه ؟

- كل شيء ، ولا شيء .

- يا باشا ، ما اسمه ؟

- ما الفرق ؟ ألا ترى انني قصصت صورته من احدى الصحف الصادرة في بيروت ؟

- ولماذا لم تحتفظ بالاسم وقصصت الصورة من دون الخبر ؟  
 - اسمه لا يهم . له ملايين الاسماء . . وملايين الوجوه . . كلما قطعنا رأساً نبتت  
 موضعه العشرات الافعوانية . . كم أمقته . .  
 - ما حكايته ؟

- تقول الصحيفة انه مفقود ! . .  
 - شاب مجهول صغير مفقود في بيروت . . ماذا يقلقك في الأمر يا باشا وانت في قلعتك  
 الحصينة في سويسرا ؟ ربما كان المسكين قد خطف أو ذبح والتهمت الكلاب بقاياها . . .  
 ربما هاجر الى اوستراليا ولم يبلغ أسرته . . ربما . .  
 قاطعني رغيد : لا . . امثاله لا يهاجرون ولا يموتون . . انه موجود في مكان ما يكيّد  
 لي ويحكك المؤامرات ضدي . . حتى ولو هاجر ، فلن يفعل شيئاً آخر هناك . . وسيعود . .  
 أضجرتني ، وعهدي به خارق الذكاء . . صارحته : تعرف ان سحري أقل فعالية اذا  
 لم استعن بالحسابات الفلكية لاعرف الابراج التي تتحكم هذه الأيام بأهوائه . . . اريد  
 كالعادة اسمه واسم امه وتاريخ مولده . . . صورة في صحيفة لا تكفي لتحقيق مرادك على  
 أكمل وجه . .

لن أنسى كيف ارتجفت شفتا رغيد واحتقن وجهه وهو يبوح لي باسم خصمه . .  
 ودهشت ، فالاسم مألوف وشائع جداً . . لكن تاريخ مولده صعبني ، اذ كيف يفوق سن  
 ذلك الشاب الصغير آلاف الاعوام ؟ . . .  
 حين عزمت على صورته كنت اظنني أقدم خدمة هينة عابرة لرغيد ، بل خيل الي انها  
 احدى مداعباته .

ولكن قوة خارقة تصفح ذلك الشاب المجهول الذي زلزلني . . .  
 آه كم انا منهك . . . انفاسي تضيق . . . وذعر غامض يجتاحني . . . انني خائف . .  
 خائف كما كنت مع الناس من زمان ، قبل ان آنس لصحبة الجان . . . )



حين احتوت المياه الذهبية رغيد ، شعر برعشة خارقة من النمط الذي لا تقدر النساء



على منحه اياه . . . انه هنا يضاجع الذهب شخصياً ، الذهب المائي الدافئ ، الذهب الصولجان والترباق . . الذهب الذي طليت به بركة سباحته ، تلك التحفة المعمارية التي ساهم بنفسه في التخطيط لها . . . وشاهدها تنمو امام عينيه كطفل ذهبي لم يجب سواه . . . كان مهندس يريد للبركة شكل نجمة البحر الخمسة الاذرع ، فطالبه بأن يكون عدد الاذرع ثمانية ، وان يجعلها مقوسة . .

( خشي المهندس من ان يصير للبركة شكل الاخطبوط الذهبي . اكدت له : هذا هو المقصود بالضبط . . . أريد بركة مطلية بالذهب لها شكل الاخطبوط . .

- ولكن ، لماذا الاخطبوط لا نجمة البحر ، او حصان البحر اذا شئت . . .

- وهل انت ضد الحب ؟ سيكون بوسع ضيو في العشاق الاستمتاع بضيافتي بصورة

افضل . . . سينفرد في كل ذراع عاشقان ، تخيل ثمانية ازواج من العشاق ، وانا في المنتصف ، في موضع الرأس ارقب جبههم المذهب وأباركهم . . . أليس ذلك لطيفاً ؟ . .

بدت الدهشة على وجه المهندس . لم يكن يعرفني رومانسياً ، ولم يصدقني . كان على حق في ذلك . من قال له انني اسمح لامرأة بتدريس ذهب بركتي او الهبوط اليها ؟ . .

يستطعن ان يسبحن خارجاً في البركة الاخرى الممرية التي تتوسط الحديقة من الناحية الاخرى . . . اما هنا ، فلا . . . صحيح انني لا ارفض الجمع بين عشقتين في سريري في

آن ، لكنني ارفض ان تكون « الحبيبة - الذهب » احدهن . . . اني مخلص في عشقي للذهب ، لا اشرك به حبيبة اخرى . . . ولن ادع اية انثى ، حتى « بوديريك » او سواها

من سيدات الـ ١٠/١٠ ان تجرني إلى خيانة الذهب على مرأى من بريقه ووجهه وعظمته . . . فكر المهندس طويلاً بصمت ثم افسد علي متعة افكاري وقال : ولكن

الادوية المطهرة في ماء البركة قد ( تأكل ) معدن الذهب . .

- سنعيد طلاءها كل ستة اشهر . . . كل يوم . . لا يهم . . .

- ما رأيك ببعض التماثيل والتحف الفنية لتزين زوايا البركة ؟ . . تماثيل نساء جميلات

وأطفال و . .

- لا أريد نساء ولا أطفالاً . اريد تماثيل مذهبة تمثل العملات النقدية . . اريد تماثلاً

للدولار وآخر للفرنك السويسري فالمارك فالين فسواها . . . ثمانية تماثيل ذهبية ، تمسك بها انحناءات ( اذرع ) البركة الثمانية . .

- والسلم ؟

- اريده من الذهب الخالص . . . واريذ ان تأتي الازياء من قاع البركة وجوانبها ليتأجج بريق المياه وينعكس على الجدران ظلالاً حية متحركة كأنها ارواح ذهبية استحضرتها كلما حركت جسدي في الماء . . . اريد ان يكون لون ( الموكيت ) المحيط بالبركة ذهبياً ، وقماشه غزير الريش كالعشب . . . المقاعد اريدها مذهبة ، والمساند من ( البروكار ) الدمشقي المذهب . . . اريد حديقة نباتاتها من الذهب تحيط بالمقاعد بين الاذرع الثمانية للبركة ، وقبة زجاجية شفافة تغطي المكان ، زجاجها ضد الرصاص ومرشوش بطبقة رقيقة من رذاذ الذهب ( السبراي ) بحيث تبدو الدنيا عبر نوافذ كوكباً خرافياً من ذلك المعدن الحي الراعش الباهر الجاذبية لي وللملايين سواي . . . واريذ قاعدة ذهبية لتمثال سأحضره بنفسي . . . قال المهندس مرتبكاً : وكيف تحمي هذه الثروة الذهبية من السرقة ؟ ستكون بركتك غنية مثل « فورت نوكس » . . .

- فليكن بابها شبيهاً بأبواب البنوك المصفحة ، وحدي اعرف الصيغة السرية لفتحه . . .

قال المهندس مازحاً : وهل تريد باب هذه التحفة المعمارية من الذهب . . .

قلت له : من الداخل ، أريده مطلياً بالذهب . . .

لقد انفق رغيد ثروة خرافية لتحقيق حلمه ، ولكنه ليس نادماً . . . هنا فقط ، داخل هذا الرحم الذهبي المياه والجدران يشعر بالامان . . . يعوم وسط البركة ، ويعلم رأسه وتتموج المياه مع حركات جسده تحت الماء فيبدو الاخطبوط حياً ، تتوسطه عينا رغيد ، تدوران في محجريها تحملان بفريسة الغد . . .

كم يجب ان يسترخي هنا . . . هنا لا يعود جسداً نصف مترهل تفترسه الشراة . . . ضغطه الشرياني لم يعد مرتفعاً . قلبه لا يهدد بالتوقف . قامته ليست قصيرة . لم يعد رغيد الزهران . لم يعد في الستين من عمره . ليس مصاباً بالسكري الى جانب امراضه الاخرى . عيناه ليستا مهددتين بالعمى . لم يشتركلية رجل آخر ولا يعيش بأعضاء مستعارة . وليس بحاجة الى سيجاره الضخم العريض كإعلان عن فحولاته المتعددة ، او كبديل عن عصا المارشالية بينما هو يقود جيشه الهائل من المرتزقة والمخصين والحمقى المخلصين الذين هم في درهم ليصيروا خصياناً .

هنا لم يعد له زمان ولا مكان ولا تاريخ . . . انه الزمان والمكان والابدية . لم يعد الابن الشاطر للتاجر الميسور سامي الزهران المهدد بالافلاس رعباً من قوانين التأمين وعبد

الناصر ، لولا تولى الابن مقاليد الامور في الوقت المناسب . . . هنا يتجاوز كل شيء الى حقيقة : العظمة الكلية المتجاوزة لتفاهات البشر كلهم من حب وألم ومرض وموت . . . وفي محرابه هذا يمجّد الشيء الوحيد الذي يقطنه ويستولي عليه : الكراهية . الكراهية المقطرة للآخرين لانهم لا يستحقون بحماقتهم غير ذلك . . . هنا لا يعود بحاجة الى ساحره . . ولا يعي صلته . . لا يشعر بقصر قامته الذي يجعله يحيط نفسه بمساعدين قامتهم تميل الى القصر ( قدر الامكان ! ) ، ولا يدعو الى سهراته متزوجاً بامرأة فارعة الا مضطراً ، لكنه لا ينتقي لفراشه غالباً الا « الزرافات » . هنا لم يعد هارباً من وطنه الاصلي لحظة اطل شبح التأميمات . . هذه البركة وطنه ، ومنها يمارس عداوته الحاقدة على الثورات العربية وشماته بمعظمها . . هنا لم يعد رغيد الاعزب ، لانه متزوج من بركته وسيجاره ، ولماذا يتزوج وزوجات الآخرين طوع يديه ، وبناتهن احياناً . . . هنا لا يرتجف ليلاً خوفاً من البرق والرعد ما دام عاجزاً عن شرائها وتطويعها . رائحة فمه ليست كريهة . جراحه لا تتعفن هنا قبل ان تشفى . . هنا يستعيد ذاته المنهوبة من قبل عالم متوحش ربه منذ صغره على دروس القسوة ، فحفظ الدرس جيداً وهو المؤهل له بقسوة داخلية فطرية . . هنا يرجع عنصراً فريداً الى جانب العناصر الأخرى المائية ، الترابية ، الهوائية ، النارية . . هنا ينتمي الى العنصر الاكثر جبروتاً ، العايب بأقدار الرجال منذ اقدم العصور : الذهب . . الذهب المترعب فوق قمة العناصر الأخرى . . والكل يسجد له . .

حتى امير النيل وامثاله من « الراديكاليين » الذين يقضون عمرهم في التبشير بشرويه والاعلان عن كراهيتهم له ، هم اسرى حضوره الدائم المهيمن سلباً او إيجاباً . . (آه كم احب هذا المكان . . هنا اشعر بالامان الكامل . . بالسطوة المطلقة والحرية المطلقة والبهجة اللامتناهية ، وبنشوة الابحار في محيطات الذهب ، نشوة لم أعرفها في مرافئ أجمل النساء ومجاهل أعماقهن . . هنا أحس بنشوة العافية النضرة . . . )

يدخل نسيم فجأة ، وهو يحمل صحناً من الذهب تتوسطه كبسولة الدواء .  
يصرخ به رغيد كمن سقط فجأة عن شجرة عالية : أيها اللعين . . لماذا جئت . . لماذا تضايقتي . . .

- أحضرت لك كبسولة الدواء يا سيدي . .

- أي دواء . .

- دواء ارتفاع الضغط . .

- ضغط من ؟

- أنت . . انت طلبت مني ألا أنسى . . .

- اغرب عن وجهي أيها اللعين . . .

كم يكره نسيم . يزداد كراهية له يوماً بعد آخر ، وهو لذلك يزداد تمسكاً به ويزيد له راتبه . . نسيم ، ذلك الوغد الصغير الذي يتوهم انه يخدعه وهو لا يدري أنه كشف سره . . يعرف انه يتابع دراسته في جامعة جنيف سراً . . ويعرف انه يتلمذ على يدي عدوه البغيض أمير النيلي . . وخبروه يعلمونه بكل زيارة يقوم بها للجامعة أو الى أمير متسللاً متوهماً ان سيده لا يدري . . .

لو يدري نسيم أنه لم يحتفظ به لأمانته ، ولا لرفضه اللجوء الى العنف - كما في تقرير مخبريه - وانما لصلته بأمر . . انه ببساطة يستطيع عن طريقه ابلاغ أمير بما يتوهمه سراً خاصاً . . . يضلله . . كم يكرهه . . ذلك المتعجرف المطارد المنفي من بلده . . وكم فرح حين نجا أمير من محاولة اغتياله : لو مات لخسر فرصة تعذيبه ثانية وثالثة . . . هذه المرة سيؤله عبر ليل . . . وفي المرة الثالثة سيجد اسلوباً آخر . . . المهم ألا يموت دفعة واحدة ، كي يقتله مرات عديدة .

( صار له وجه رجل ميت . . كان يحدق في التمثال ، ويقرأ على قاعدته توقيع والده الفنان مفيد النيلي ، وتاريخ نحته « خريف ١٩٥٦ » واسم التمثال « المناضل » ، ثم عبارة اخرى ممحاة كان النحات قد خطها فيما يبدو ثم بدل رأيه . . وكنت قد عرفت حكاية هذه العبارة ، واعرف ان أمير يعرفها ، لكنني اريد ان اسمعها من فمه . . أريد ان ارى وجهه وهو يموت خيبة وقهراً . . . يومها طلبت منه ان يزورني لأنني ارغب في اصدار مجلة عربية جديدة أسخرها لقول الحقيقة ! صمت وتخلت وجهه خلف الهاتف ، وانسكبت دهشته من السماعه بين يدي . . . وعرفت أن صنارة الدهشة قد نجحت في صيده وستقوده الى . .

جاء . استقبلته في وكري الذهبي المفضل ، في بركة السباحة . . كان واضحاً انه لم يصدقني . لم يصدق انني سأصدر مجلة لقول « الحقيقة » اجعل منه رئيساً لتحريرها . . جاء ليعرف ماذا اريد بالضبط منه . . حذق فيما حوله مذهولاً فغاضباً ، وجلس على المقعد الذهبي الذي قدمته له وجلست امامه ، وقبل ان يفتح فمه سارعت وتحدثت بالنيابة عنه : تريد ان تقول ان هذا الذهب يكفي لاطعام جيع العرب وتعليمهم ولا يحق لي

احتكاره . . .

- تقريباً . . .
- وتريد ان تقول انك لا تصدق حكايتي عن المجلة التي انوي اصدارها واعرض عليك رئاسة تحريرها . .
- تقريباً . . .
- وتريد ان تعرف السبب الحقيقي لدعوتي اليك ، ورغبتني في لقاءك . . .
- تقريباً . . .
- خصوصاً وانك في كل ما تكتب خصمي ، وتقف ضدي وضد كل ما امثله . .
- بالتأكيد . .
- حسناً . . سأدعك تتأمل المكان جيداً ، وستكتشف وحدك - إذا كنت ذكياً حقاً -

سبب وجودك هنا . . .

تركته ، وخلعت ( البرنس ) الابيض المطرز بخيطان الذهب وهبطت الى البركة في ثوب استحمامي الذهبي الخنون ، وحين توسطت أذرعها الثمانية شاهدتني ينهض عن كرسي دھوله ، ويدور ببطء في المكان مثل فريسة تفتش عن درب للهرب . . لا بد لي من الاعتراف بتوقد ذهنه ، بسرعة تجاوزه صدمة الذهب ، ورغم الاضاءة المنسكبة على وجهه نهرأ من النار ، تعلقت نظراته بالشيء الوحيد الذي يبدو ناشزاً في المكان . . . انه التمثال الذي طلبت من مهندسي ان يوضب له قاعدة ذهبية ، وأحضرتة بنفسني من سجنه في كهوف القصر ، بعدما سجنته داخل أحد الصناديق زمناً طويلاً . . . وقد سوره المهندس وفقاً لاوامري بقضبان الذهب لا لحماية فحسب ، بل ليبدو سجيناً في قفص يليق به . . . أمير يدور حول التمثال . صار له وجه رجل ميت . . . وسعدت بالمشهد وتحركت في مياهي بعنف ونشوة فارتجفت أذرع البركة . ونظر إلي بحقد لكنه لم يقل شيئاً . . . ضايقتني قدرته على الصمت . اردته ان يتوجع بصوت عال ، ليزداد استمتاعي باللقاء ، فقررت استفزازه : والدك نحت هذا التمثال . . . أليس كذلك ؟

- ربما . . .

- بالتأكيد . . . لا أحد ينحت مثله . . . واي خبير فني مبتدئ يستطيع ان يؤكد ان

التمثال هو الأصل . .

-ربما . . .

- ماذا يمثل هذا التمثال ؟

- « المناضل » . . أليس ذلك ما كتبه عليه صاحبه الذي نحته . .
- نعم . . ولكنك تعرف ان هذا التمثال هو لجمال عبد الناصر . . . أي شخص أمي يلقى نظرة عليه سيقول لك ان هذا هو عبد الناصر . .
- حسناً . . وماذا بعد ذلك ؟
- ما هي الكلمات المحيية على قاعدته . . ماذا كتب والدك ثم ندم عليه ومسح حروفه بإزميله ؟
- لا أدري . . .
- انك تدري وتتجاهل . . . الناس كلها تعرف الحكاية . . لقد اعجب والدك بعبد الناصر ، يوم أمم القتال في عيد الثورة ، في يوليو ١٩٥٦ ، وربما قبل ذلك ، لكنه بالتأكيد نحت التمثال وكتب على قاعدته الاهداء له ، ورفض بيعه رغم فقره لانه قرر ان يهديه للأجيال . . .
- لا أدري . .
- لقد سمعت الحكاية بالتأكيد فلماذا تتجاهل وتتستر على جرحك وعيوب أمثالك من ( الثوريين ) ؟ . . . لقد غضب والدك فيما بعد على ممارسات عبد الناصر اللاديمقراطية وقهره ان الثورة لم تكرر الحرية ، بل ورثت الممارسات القمعية التي كانت تدعي انها جاءت لتزيلها . . .
- . . . . .
- وذات ليلة كلها غضب وقهر ، محا الاهداء عن قاعدة التمثال احتجاجاً على طرد رجل من عمله واعتقاله من قبل زوار الفجر تعسفاً . .
- . . . . .
- وهكذا حوضر والدك في رزقه . . وطرد بدوره من المجلة وكاد يتهم بالتجسس والعمالة . واضطر الى بيع التمثال كي يتابع تعليمك ، وقد تصادف ان الرجل الذي اشترى التمثال كان والدي ! . . .
- . . . . .
- ومات والدك بعدها بأشهر قهراً وكمداً . . وبعد وفاته تم تكريمه ومنح وساماً ، وبالطبع تم تعليقه على تابوته . . .
- . . . . .
- لقد فعل والدك مع عبد الناصر ما فعله بيتهوفن مع نابليون . . . لقد اعجب بيتهوفن

في البداية بنابليون كممثل للثورة الفرنسية ، فكتب السيمفونية الثالثة واهداها اليه ، ثم كرهه فيما بعد حينما نصب نفسه امبراطوراً ، متحولاً في نظره من ناثر الى طاغية ، فسحب الاهداء واسمى السيمفونية ( هيرويكا ) اي « البطولة » . . . ونابليون لم ينتقم من بيتهوفن . . . اما عبد الناصر فقد انتقم من والدك . . .

- لم يكن عبد الناصر الذي انتقم ، بل بعض الاجهزة وقد اخفوا الخبر عنه . . .  
- انت تعرف ان ذلك ليس صحيحاً . . . ولكن المفكر الوجداني الكبير أمير النيلي لن يرضى الاعتراف بهذه الحقيقة المرة . . . وحتى اذا كانت ( أجهزة ) عبد الناصر هي التي اقدمت على قتل والدك قهراً وفقراً ، فذلك لا يعفيه من المسؤولية . . .

- . . . . .

- شعاراتكم جميلة وممارساتكم بشعة . . وانت تلعب مع الجماهير دور الطعم البراق . . . تجرهم الى الموت عبثاً من أجل أوهام . . .  
للمرة الأولى اراه غاضباً . اشتعل وجهه بالدم الفائر ، وبدا ذلك واضحاً رغم الاضواء الذهبية المنسكبة عليه ، وقلت له اشياء كثيرة . . . أشياء واشياء ولكنني فشلت في استفزازه ثانية أو جره إلى نقاش مباشر . . . ذلك اللعين يعرف كيف يحمي جراحه في بشر السرية والكتمان . . )

دخول نسيم من جديد قطع عليه متعته البالغة في تذكر بقية الحكاية . . .  
صرخ رغيد غاضباً : ماذا تريد ايها اللعين . .  
- الطباخ يقول ان العشاء جاهز . . هل تريد ان احضر لك ابرة « الانسولين » الى هنا ؟ . .  
- اغرب عن وجهي ايها اللعين . . . اخرج من هنا . . انك تحضر دائماً في الوقت الخطأ . . كأبناء طبقتك جميعاً ! .

\*\*\*

خرج نسيم ، ولكن رغيد تابع صراخه : اوغاد . . حقى . . غوغائيون . . لا تفهمون شيئاً عن براعة التوقيت . . .  
( كان والذي خبيراً في التوقيت يوم اشترى تمثال عبد الناصر . . . ولكن التمثال لم يحمه من زحف شبح التأميمات لقد اشتراه لا حباً بعبد الناصر ، وانما خوفاً منه . . ولم

يزايله الخوف حتى بعد شرائه . . . والحق يقال ان والد أمير النيلي لم يبعه الا بعدما أبدى  
والذي شهية للحصول عليه . . . ومبلغاً خرافياً ثمناً له . . . فقد كان مفيد النيلي فقيراً منذ  
أيام الملك ، لم يكن من زبائن البلاط ولا رساماً للحاشية وحتى لو كان مصرياً واتيحت له  
الفرصة لما فعل ذلك . . . ومع ذلك فهرة الذين أحبههم وقتلوه كمداً ، وهذا أقل عقاب  
يستحقه هو وامثاله من عشاق (الثورات) . . . أما أنا ، فأتقنت توظيف التمثال في الوقت  
المناسب . . . وجمعت المليون الأول بفضله وكنت ما أزال شاباً يعمل تحت جناح والده . . .  
كانت الفكرة بسيطة : ما دام والدي مدعوراً من عبد الناصر ، فهذا معناه ان بقية التجار  
والانرياء مدعورون أيضاً . . . وهكذا صيبت بمعونة فنان نصف موهوب آلاف النسخ عن  
التمثال . . . وأرسلت بائعاً جوالاً الى مكاتبهم يعرض على كل منهم شراء نسخة ( يزين )  
بها مكتبه . . . لم يبق ثري سوري واحد في الشهر الاول للوحدة ، الا واشترى نسخة  
صدرها في مكتبه ودفع ثمنها باهظاً . . . لم يجرو أحد على الرفض . . . ظنوا أن ( مدير  
مبيعاتي ) هو أحد أفراد المخابرات ، وان شراء التمثال ضريبة مفروضة ، ولم يجرو أحد على  
الرفض . . . وانتشرت تماثيل عبد الناصر في سوريا . . . وحصلت على مليوني الذهبي  
الأول . . . وحين قتل صانع التماثيل ومدير مبيعاتي - رحمهما الله - في حادث سير  
« غامض » ، مات السر معهما ، ولم يسمع به أحد الا حين رويته للمرة الاولى لأمر في تلك  
الزيارة التي لا أشيع من استحضارها في ذاكرتي . . . صحيح ان الكاميرا السرية صورت  
لي على شريط الفيديو كل ما دار وقد شاهدته عشرات المرات حتى سئمته ، لكن شريط  
الذاكرة لا يفقد روعته . . . وكلما استعدته كلما طربت له وازددت نشوة . . . )  
يدخل نسيم ، فيصرخ به رغيد قبل ان يفتح المسكين فمه : اغرب عن وجهي . . .  
اخرج حالاً . . . اللعنة عليك وعلى أمثالك . .



( اني قلقة . . . ماذا لو لم يحضر ؟ ) . . .  
تدور دنيا بين ضيوفها الوجهاء ، وقد سمعت للتونبا اغلاق مطار بيروت . . . وتتابع  
لقوس الضيافة الفاخرة ، يواكبها فريق من الخدم أحسنت تدريبه . .



( ترى هل أفلعت طائرته أم انه سيبقى هناك مع والديه في البيت العتيق ، ويقتل مطموراً معها ، بعد ان تحولا الى ما يشبه الجذرين الهرمين اللذين يشدانه ابدأ للعودة معرضاً حياته للمخاطر ؟ . . والمهمات الخطرة كلها التي تتطلب تنفيذاً في بيروت هل يذهب نديم اليها طمعاً في المال حقاً ، ام رغبة غامضة في الالتصاق بذلك المكان الذي ما زال يحن اليه سرّاً وينفي بشدة هذا الامر ؟ . . . لماذا يصصر على بقاء حضوره حياً بين صحبه وجيرانه هناك ؟ لماذا يصصر على احاطة نفسه بالذين يعرفهم في بيروت ، يدبر لهم المهن والوظائف ، ويرسل الهدايا باستمرار الى الباقين الراضين الهجرة . . . السجائر المفضلة لهذا . . . الساعة الالكترونية التي يدعي ذاك انه لم يجدها في بيروت . . . ثياب لطفل رفيق الدراسة المولود حديثاً . . . خاتم هدية رواج لرفيق الطفولة . . . الثياب الفاخرة لتبخر بها امه في ذلك الحي الفقير ، والكل يسألها من اين هذا وتقول بفخر : ابني نديم . .

يريد ان يظل اسمه حياً هناك ، كأن حياته هنا مستعارة ) . . .

تبتلع كأساً من ماء النار . صحيح انها عاهدت نفسها على التوقف عن ذلك ، امام الناس على الأقل ، بعدما صار أمر ادمانها موضع سخرية المدمنين الاكثر سرية منها ، ولكنها تحس الليلة باضطراب بالغ . . .

( هل انا حقاً قلقة لغياب نديم ، ام انني قلقة من عودته ؟ هل انا خائفة عليه ام خائفة منه ؟ هل جعلتني زيارتي السرية للشيخ وطفان أعني الى اي درك هويت ، ام انه مقر عملي القديم . . . وتلك اللحظة البائسة المشحونة بانبيارات منجم العمر المنسي الدهاليز ، حين وقفت في منتصف الشارع ، اتأمل الى يميني الفندق الفاخر ، مقر الشيخ المؤقت حين يغادر مقره الدائم في قصر رغيد لقضاء حاجات الناس ، والى يساري المبنى الشاهق الآخر يوم كنت استيقظ في السابعة صباحاً كمعظم الناس وأهرول لاكسب رزقي ، وكنت شابة وسعيدة ومفعمة بالآمال والحيوية والطموح . . آه ماذا فعل النجاح بنا ؟ . . . ما هذا السقوط المروع الى القمة ؟ ما الذي دمرني ؟ وكيف انتهيت امرأة حاسدة حاقدة مفعمة بالخوف والغيرة تلجأ إلى السحرة والجان لتحتمي بهم ، بعد ان كنت شابة عاملة سعيدة تلطخ الاصابع الزيتية اصابعها بدلاً من وجهها وترسم ، وتنفق راتبها في شراء قماش اللوحات بدلاً من قماش الثياب ؟ . . كيف انتقلت من رصيف العمل الى رصيف الفندق السري ؟ . . ماذا فعلت بك الدنيا يا دنيا ؟ ماذا فعل الثراء بك وبنديم ؟ كيف تركته يطلق على اصابعك رصاصة من ذهب ؟ ) . . .

تدور دنيا بين ضيوفها ( ضيوف ام ضيوف زوجي الذي وقته اموال ، ولن يضيع دقائق منها في تحيتي وسؤالني عن اوجاع روحي ، وانما سيذهب من الطائرة الى فراشه مروراً بحفل الكوكبيل الذي يراني فيه عرضاً كأني مدعو آخر غريب ، ولا يشكرني كما يشكر ابي مستخدم آخر ) . . يدون اليوم مسرورين بها . المضيفة المبتسمة الصامته هي الزوجة المثالية في اجواء كهذه . فلتعترف : انها تمقتهم . آه كم تمقتهم . لقد امضت اعوامها الأخيرة مع اشخاص لا يربطها بأحد منهم شيء حقاً . لم تفتح مرة قلبها لأحد منهم . لم تقل كلمة كانت تشتتني قولها ، ولم تمس اداة اللغة ولو مرة في معرض التواصل ، وانما تقول ما يفترض قوله لتسهيل تحصيل فواتير نديم ، وتوقيع عقود عمله . لم تجلس واياه منذ قرون في مقهى على شاطئ البحيرة المقمرة . ( لست رومانسية ، ولا افتقد حقاً المقهى والقمر والبجع والقبلات الملتهبة . افتقد الجوهر . افتقد الحوار . . اينما كان ذلك اننا نتكلم ولا نتحاور ) ، الوقت يتورم ويترهل وهي تهول ولا تفعل شيئاً . ترافق زوجة ثري الى السوق ، او الى المستشفى بعد تحديد موعد للقاء طبيب شهير او الى ( سمسار ) البيوت لشراء فيلا ، وتدعو آخر الى العشاء واسرته او عشيقته او احدي ( نجومات ) العشق وفقاً لمزاج الزبون ومقتضيات العمل . . . وها هي الآن تقطن تلك الفيلا الفاخرة ، ( المتواضعة بالنسبة الى قصر رغيد ) ، فوق تلة الاثرياء المشرفة على « كيه غوستاف آدور » ومدينة جنيف ، وبحيرة ليمان تحت اقدامها . . وفي اعماقها طائر يرتجف محتضراً . .

ضيوفها يتحدثون اليها بشراة وهي تهز رأسها بلطف كالدمية المزينة الصماء ، ونظراتها معلقة باللوحة التي تنصدر الجدار خلفهم ، والتي تمثلها قبل لقائها بنديم . . . لقد كانت اللوحة آخر ما رسمت ، وعلى غرار الفنانين العظماء كلهم الذين كانت تعجب بهم وتحاول ان تحذو حذوهم ، في ذلك الزمان الغابر ، رسمت نفسها في ( سلف بورترية ) مجسدة في لوحها كيف ترى ذاتها ، بل وكيف ترى الذات التي تتمنى ان تكونها . . .

ما اعظم الفارق بين وجهها الآن ، ووجه فتاة اللوحة . . . الفارق بينهما ليس السن وحده ، ليس ثمانية عشر عاماً بل ثمانية عشر قرناً من الانحطاط . . . اين تلك النظرة في العين الحادة الشرسة المفعمة عزماً وتصميماً على الخلق ، من نظرة عينيها التي تواجهها في المرأة الملاصقة للوحة ، نظرة امرأة ليس لديها ما تفعله في الحياة ، خائفة ، حائرة ، خائبة ، محتبسة تحت قشرة من الرياء الامومي لأوممة لا تكفي وحدها ملء حياتها ، والاخلاص الزوجي بفعل الكسل والدعر لا الحب . . .

هذه اللوحة ، اهدتها لنديم في لحظة حب جارف قبل زواجهما ، ايام كانت موظفة صغيرة في ذلك المبنى الشاهق ، تعمل وتتابع دراستها للفن وعينها على الوطن ولحظة العودة ، وكان هو مهاجراً جوالاً في اوروبا ، يتأبط فقره وسحره وحب الكاذب للفن وشبابه الفياض ويبحث عن الثروة ، طائراً بين بيروت والغرب . . . حملت اللوحة اليه بنفسها الى المطار لحظة وداع غابرة ، اهدته اياها وهي تهديه نفسها وحقيقتها ، فعاد بعدها في اليوم التالي ليتزوج منها ، دون ان يتوقف لحظة بعد زواجهما عن طيرانه المحموم خلف طائر الفرصة الذهبية . . .

( واقتنص الطائر واضاعني ) . . .

هل كان ضرورياً ان يحمل اليها اللوحة من بيروت في رحلته السابقة « ليفرحها بها » - على حد تعبيره - وذلك خوفاً عليها من الحريق ؟ . . . ومن يومها اشتعل الحريق في اعماقها ، واللوحة تخاطبها حين تشمل ، وتسألها ماذا فعلت بها كما تسألها الآن ؟

( ما الذي فعلته بتلك الشابة الصغيرة التي كتبتها ورسمتها ذات يوم ؟ ) . . وجهها في اللوحة ، ووجهها في المرأة الملاصقة للوحة ، وجهان مختلفان لامرأتين لا تمت احدهما الى الأخرى بصلة . . ايها وجه اعماقها ؟ ام انها ايضاً امرأة ثالثة تجهلها ؟

ابتلعت دنيا كأس ماء النار الخامسة ، وأحد كبار ضيوفها يروي لها حكاية عن عظمته وخلوده ، وحماسة كل من حوله ، ولولاه لانهار العمل ولأفلست المدينة ولسقط كوكب الارض من مداره ، وهي تهز رأسها مؤكدة وتبتسم ( معجبة ) ، فتزداد سعادته بالمستمعة المثالية الصامتة . . .

( آه لم اعد ادري هل اكره نديم ام احبه . هل اتمنى لو يعود او يموت . هل ستكون حياتي بدونك افضل أم انني ألفت الكسل الوجداني وتحولت الى جزء من هذا الوحش الملون الخرافي المهرول تثاؤباً الملقب بالمجتمع الراقي ؟ . . وحش بآلاف الرؤوس المصفقة الشعر المدهونة بالزيوت والعمود والوجوه القادمة من تحت اصابع خبراء المساج والزينة ، والالسة التي تقول ما لا تعني ولو تأملت معظمها جيداً لشاهدت كيس السم المختبئ تحت فرعها . . آه كم امقت المرأة ، وامقت لوحتي المجاورة لها . . وارى فيها امرأتين لم اعد اعرفهما . . من أنا الآن حقاً ؟ ماذا ارغب في ان افعل لو كنت حرة حقاً ؟ هل بوسعي ان اطبق اختيارات الحرية ودروبها المتشعبة بعد الآن ؟ اما زلت احب نديم ؟ وان لا ، فلماذا تتناوب نوبات الغيرة الغامضة ، وتوصلني الى بائعي الوهم والسحرة ، واتوهم انه يضاجع

كل ما هو سواي . . ليلي ورغيد وكلبنا بيكاسو والخادمة وسائقه . . ؟  
وان كنت احبه ، لماذا تشتعل روحي بالحياة والمرارة حين ينتفض عني تخدير الزحام  
المذهب ، وابقى وحيدة مع احزاني الغامضة تأمل لوحتي ، ويتصاعد في روحي عزم على  
تحقيق امر نسيته ، وشهية الى مد جسوري مع بشر احببتهم ذات يوم ولم اعد اراهم لانهم  
فقرءا وبيتنا لا يدعو غير الاغنياء ؟ ولماذا افشل كلما نويت ان ابدل واقعي المخزي كما  
يتراءى لي احياناً ؟ ولماذا حين اقرر ان افعل شيئاً ما بحياتي الذاهبة هدرأ كمياء المطر الليلي  
فوق ارضفة المدن واسفلتها ، ابتلع كؤوس ماء النار ، ومع كل كأس ابتلعها تتزايد نغمتي  
على ما فعله بي نديم ، ذلك الشخص الخطر ، الذي يلعب دور الصعلوك المنبوش الشعر  
مدخن ( الغولواز ) مع الفنانين ، والثري مدخن السيجار المتقن ( السشوار ) مع  
الاثرياء ، ويرتدي ( الصندل ) مع اليساريين ، ويحمل ( الكلاشن ) مع الثوار ، ويغني  
( الموال ) مع ضيوفنا العرب البلديين ، وينشد الاوبرا مع شريكه الايطالي ، ويتحدث عن  
( فون كارايان ) مع صاحب المصانع الالماني ، ويلتهم ( الكتشاب ) مع الحساء امام الزبون  
الاميركي ، ويرتدي العمامة والجبّة مع البعض ، ويتلو ( ابانا الذي في السموات ) مع  
البعض الآخر ، ويختار السبت يوماً لعطلته حين يبرم الصفقة مع يهودي . . . كيف استطاع  
ان اعرف ما اذا كنت احبه او لا احبه وانا لا اعرف اي الوجوه وجهه . . . وماذا يخفي تحت  
هذه الاقنعة كلها . . ام ان هذه الاقنعة هي تقمصات متعددة لوجهه الحقيقي ، وليست له  
وجوه خارجها ، ولا وجه مستقلاً تحتها ؟ . .

ومع انتهاء الزجاجة الاولى من ماء النار اكون قد انتعشت ووضعت برنامجاً لحياتي ،  
للعودة الى ينابيعي وقومي وعملي واصولي ، في مجموعة من البنود وعلى رأسها الاقلاع عن  
ادمان ماء النار . . . واثام سعيدة . . ثم اصحو في الصباح والصداع يمزق رأسي ودوار  
( الهانغ اوفر ) يشلني وطلبات الاولاد تطاردني والمسؤوليات والواجبات والمواعيد . . .  
وابتلع اقراصاً أللم بها اعضاء جسدي بعضها الى بعض وارثقها مثل بقايا دمية مزقتها اسنان  
الكلاب ، واجد نفسي من جديد مجرد ( برغي ) صغير في ماكينة جهنمية طاحنة . . . مجرد  
سمار صدىء اذا لم يتابع دورانه داخل تلك الآلة الضخمة المتشابكة . انكسر . . .  
واتابع . . . واتابع . . . واطفو . . . واغرق . . . واتذكر . . . وانسى . . .  
وأحار . . . واتأكد من انني امقته . . . لقد عبث بحياتنا معاً . . . باعنا للصنم  
الذهبي . . . لرب الآلة . . . لا خلاص لي الا باختفائه . . . بموته . . . اللعنة عليه . . ليت

لا يعود .. ليته يحترق في طائرته .. )

يفتح الباب . يدخل نديم متهللاً ، مرحباً بمدعويه ..

تركض دنيا لترتمي على صدره وهي تقول : « كم أنا سعيدة لأنك هنا » ..

سمعت صوتها ، ولم تكن تدري هل هي كاذبة ام لا .. ولم يكن ينصت .. قبلها برتبة لقاء فرشاة الاسنان بالشفيتين ولم ينظر اليها بل نظر الى صدى القبله على وجوه زوجات الآخرين ، وانخرط بينهم وحكايا مغامرات يومه الطويل والقصف واغلاق المطار ونجاته على الطائرة الاخيرة تندفق نهراً من التظارف المتشاوف ..

\*\*\*

وصول نديم جدد شباب الحفل ، وقصره عنقود اضاء ..

مغامرته البيروتية واخباره ( الطازجة ) اثارت ضيوفه ، وكل يحسب ارباحه او خسائره على ضوء ما استجد من الاحداث .. كفة الارباح ترجح هنا ، والجو متعش والسرور ينشط ماساً بعصاه السحرية معظم الوجوه .. وحفل ( الكوكتيل ) سيكون حديث الاوساط ( الراقية ) ..

لم يبق ثري من ( عرب سويسرا ) لم يحضر .. جاءوا من زوريخ وغشتاد ومونترووسان سيرج ومونتانا وانترلاكن وسواها ، وحتى من مراكز تجمعاتهم في فرنسا على خط الحدود الذي لا يبعد اكثر من نصف ساعة عن جنيف .. من فيرني وانماس وسان جوليان وآنسي .. و .. ووزراء سابقون ولاحقون .. ملكات جمال سابقات ومطلقات وزوجات وسكرتيرات وعابرات سبيل حاملات ..

زعماء ( تقاعدوا ) ومعهم نصف خزينة بلدهم ، رجال اعمال غامضو المهنة والدخل قذفت بهم موجات بحر النفط في السبعينات الى شواطئ اوروبا .. متطفلون .. مفلسون لم يشع امرهم بعد ، يحاولون صيد فرصة نجاة بصنارة الاجواء ( العهرية ) الراقية . طبقة من محترفي « الغربية للغربة » لضرورات الوجاهة الثرية ، او « الغربية للهرب » من غضبة قومهم وعقاب شعوبهم .. وبعض نجوم « الادب » و « الفن » من الفقراء او الاغنياء ، تأكيداً لرقى هذا الجمع الكريم واحتضانه للثقافة والفكر .. وقد ينصتون بعد العشاء لفواصل من المقطوعات الشعرية بينما تروح افكارهم بعيداً ، والنساء ( الديكوريات ) ينشدن « آه يا سلام » ، وكل تناوه لألف سبب وسبب لا علاقة لواحد منها بالشعر والنقد

الادبي . . . وبالتأكيد ليس في الحفل فقير كادح - باستثناء الخدم من غير الزوجات - ، او مفكر جاد او مناضل اصيل ، وان كان لا يخلو من بعض ( الرموز ) النضالية الخاوية من صدق الممارسة ، والتي تمتطي طائفة النضال لتمارس بهلوانياتها السلطوية والمالية والشعائرية وحتى النسائية . .

في لحظة وعي حادة ، ومض ذلك كله كضربة برق شطرت رأس دنيا بالصداع وهي تتأمل الضيوف بذهول كأنها تراهم للمرة الاولى . . كأنها لا تدري ماذا تفعل هنا . . كأنها سقطت سهواً داخل هذا البيت من كوكب آخر .

( امير النيلي ، اول من وقف الى جانبي وشجعني كرسامة لا يمكن ان يدعى الى مكان كهذا . . الذين احببتهم حقاً واحترمتهم يرفضون الحضور حتى لو دعاهم نديم . . . وزوجي مضيف مثالي ، لا يحب ازعاج ضيوفه بدعوة من يقلق الخاطر . . وفي الغربة كما في الوطن ، نقسم نحن العرب الى « ابناء الست » و « ابناء الجارية » ، والاختلاط غير مرغوب به الا من موقع الهيمنة . . وجارنا شحن سيارته « الرولزرويس » من بيروت ليتجنب الفقراء هناك ومضايقاتهم . . هنا يحس بالأمن وهو يستقلها بعيداً عن مغالب الجياع وانبايهم التي عبتاً يقتلعونها لهم . . آه كيف انتقلت الى هنا . . كيف انزلت من عالمي العتيق . . كيف ) .

نديم يتأمل ضيوفه بفخر . . منذ ثمانية عشر عاماً كنت يا نديم تشمل لسماع اسمائهم . تنلصص على صورهم في صفحات المجتمع ( المخملي ) والذهبي ببعض المجلات والصحف ، وتتسكع امام ابوابهم . . بعضهم رجوته عملاً فرفضك ، وهو بالطبع لا يذكر اسمك او وجهك العتيق الذي كان نحيلاً . . وبينهم من يرجوك الآن خدمة . خنت وغدرت واختلست واحنيت هامتك ومؤخرتك ومددت جسدك جسراً ليعبر عليه رغيد الزهران في المطر من عتبة الكازينو الى عتبة السيارة ، رغيد وصخر الغنمالي وامثالهما . . تخلّيت عن كل خاسر الى غالبة . . وعن كل صديق قتيل لتلتحق بالعمل وقاتله . . كانوا لا يبالون بك ، وتعلمت اللعبة بسرعة وصرت لا تبالي بغير ذاتك . . دوغما حقد او ضغينة او عداوة دائمة او صداقة دائمة ، بل مصلحة دائمة . تخلّيت عن صخر الغنمالي لتلتحق بخدمة صاحب المليار الآخر رغيد الزهران دوغما كراهية للأول او محبة للآخر . . بل على العكس ، كان اعتراضك ان لصخر الغنمالي بقايا قلب ناشطة تفسد الصفقات والعمولات اما رغيد فلا تشوب عملية استئصاله لقلبه شائبة . صرت رجل اعمال ( عربياً كبيراً ) ،

ومفتاحاً من مفاتيح ذهب العرب ، وغلاماً للخارجين من بلادهم لعرض ثرائهم وفحولتهم في الغرب ونشر لوائها عالياً في الأرض . .

صرت واحداً من مجتمع العرب الاثرياء في اوروبا والمهجر ليمتد . . المتحد حقاً في وجه كل محاولة لمس استقلاله عن كل ما يدور في الاوطان العربية من مأس ، الا من زاوية مسها للثروات سلباً أو إيجاباً . . مثناً مليون عربي؟ مئة وخمسون مليوناً؟ ثمانون بالمئة اميون؟ تسعون؟ متوسط دخل الفرد منخفض؟ . . بيوت التنك؟ . الخيام؟ . . التشرذ؟ . الجوع؟ . هذه تفاصيل تصلح لاهتمام كاهن او مصلح اجتماعي . . وانت من فئة رجل الاعمال ( البيزنس مان ) المتعامل مع الواقع من زاوية اخرى . . زاوية الارصدة السرية في البنوك وهموم البورصة والصفقات والمباهج التي يجب ان يكافأ عليها رجل يمارس مهنة صعبة كهذه تتطلب تفوقاً كتفوقه . . أنت البيروقي ابن الاسرة المتوسطة الحال الذي يجسد اسطورة التفوق ، في الحي كله . . صرت ضيفاً دائماً في الطائرات الخاصة الراحلة الى مدن الشقراوات والثلوج . . بثروات العرب المنهوبة . . تواسي احياناً الاحزان المذهبة لاصحابها وهمومهم المرفهة وداخل رأسك كومبيوتر يحسب ارباح توظيفها لمصلحتك . يدخل الخادم قائلاً بصوت نصف هامس : رغيد بك الزهران يريد ان تذهب اليه

الآن . . .

يرن اسم رغيد الزهران وسط القاعة كسقوط سبائك الذهب من السقف واحدة بعد اخرى فوق ارض رخامية . . الف سبيكة لكل حرف من اسمه . . رغيد الزهران . . . يسمع الجميع الاسم ، بصوت عال كالعاصفة . . . يخشعون ، وكلهم فقير في حضرته . . هم اصحاب ملايين فقراء ، ملايين فقط لا مليارات ، وهو صاحب المليار المرشح للتكاثر . . . فالنقود تتناسل بسرعة وكثرة كالفقراء دون ان يدري المرء من اين تمطره بها السماء ، وفوائد الارصدة المجمدة في البنوك تتوالد بنسب اكبر من نسب توالد الفقراء وتنبت كما براعم الادغال الاستوائية ، وكذلك ارصدة الاموال المتحركة على اجنحة الاسهم النارية المالية الطالعة في سماء ليلهم كنجوم لا يرون غيرها . .

رغيد الزهران . .

يركعون جميعاً على الارض في حضرة الاسم وقد طارت في الجو غمامة ذهبية مخدرة . . وينشدون : هلولويا . .

رغيد الزهران يريد نديم؟ يا للشرف العظيم . لا حاجة به للاعتذار من ضيوفه .

يفادهم دونما وداع ، والكل في وضع الركوع ينشد هلولياه . . . مجدوه . . . حتى دنيا . .  
تركع وتتذكر بغصة انها كانت عشيقته لعدة ليال . . ترى هل يدري بذلك زوجها نديم  
ويتجاهل ؟ اهذا جزء من اخلاق المهنة وموانيق هذه الغابة الذهبية ؟



يتوج خليل يؤسه بسيجارة . .  
لم يقل احد كلمة منذ دقائق . . منذ ضمتهم غرفة الفندق بعد ذلك اليوم الطويل  
الطويل . . ارتقى كل فوق مقعد او سرير يحرق بذهول في الحمال وهو يصف حقائبهم  
ويغادر الغرفة . . . لا يستطيع ان يصدق ان ذلك حدث في يوم واحد . . وانهم هذا الصباح  
بالذات غادروا بيوتهم وبيروت وهربوا من موت الى آخر ، وعبروا نفق احزان الوطن تحت  
رصاص الصديق فقصف العدو ، فطائرة تتسلل بهم عبر معركة جوية كما في الافلام الحربية  
الرديئة لمبالغاتها . .

والشمس لم تغب بعد . . الشمس ذاتها التي كانت تشرق على ذلك الرعب كله ،  
تسطع الآن فوق ذلك البهاء الذي يطالعه من النافذة . . ويردد مذهولاً « كله في يوم  
واحد . . ما زلنا في اليوم ذاته . . الاثنين » . ينظر عبر النافذة دون ان ينهض عن مقعده :  
ثمة بحيرة خارقة السحر والهدوء ، غارقة بين الازهار الوادعة والخضرة الهادئة وسكينة تتفجر  
من المراثيات كلها . . ايكن ان يكون ذلك كله قد حدث في يوم واحد ؟ واليوم ما زال هو  
الاثنين ٧ حزيران ١٩٨٢ ؟ ومنذ اسبوع واحد ، في مثل هذه اللحظات كان يستعد للقاء  
موته حين سرى في الزنزانة نبأ تصفية جماعية تنتظرهم ، فالمكان ضيق والزبائن  
يتزايدون ؟ .

\*\*\*

يتوج خليل ذهوله بسيجارة . . . .  
( نكهة أقل ، ونيكوتين أكثر . . هذا ما انا بحاجة اليه ) . .  
. . . يحرق مذعوراً فيما حوله . . فالفندق فاخر بأكثر مما ينبغي لفقر مثله . . وهو يحتل



جناحاً خرافى البذخ . .

حسناً . يعرف انه قروي الأصل ابن شجرة ، لا يفهم شيئاً في الفنادق الفخمة البيروتية ناهيك عن السويسرية . . . وكفى ابنة اسرة بيروتية عريقة ( بنت عيلة ) ، مدللة لم تذق قسوة الحياة الا منذ عشقته . . ولعنت تلك الساعة . . وهي بلا ريب تحسن اختيار الأشياء ( لا الازواج ! ) . . ولكن ، ادارة الفندق لن ترضى بشجرة العائلة بديلاً عن الفاتورة . . الارقام ؟ . لم يتعلم في الجامعة غير الارقام . . لقد درس ادارة الاعمال ، لكنه تعلم الكثير من جمع الارقام الصغيرة قرشاً فوق الآخر لدفع الاقساط وثمان الكتب ولقمة الصباح ، وسيجارة الفجر التي يتوج بها بؤسه كلما وجد الى ثمنها سبيلاً . وكل ما يعرفه الآن هو انه لا يملك قرشاً واحداً ، ولا يدري كيف ولماذا هو هنا ، والى اين يمضي ؟ . . كفى دبرت كل شيء . . . جوازات السفر . . التأشيرات . . بطاقات الطائرة . . بينما كان هو مشغولاً بحفظ رأسه وسط تلك الشبكة العنكبوتية ، المعدنية الخيوط ، المتأججة ناراً ، التي وجد نفسه ساقطاً في دوامتها . . يكتوي بنارها ويهوي من متاهة الى اخرى . . يتوج بؤسه بسيجارة . .

وكفى تمددت على الفراش مسترخية كمن يدخل حلماً ممتعاً . . .  
رامي ، الطفل العذب يكتشف باب الحمام ثم يغادره بعد قليل حاملاً كأساً من الماء يقدمه اليه بصمت حنون . . اسلوب الاطفال في الحب الصامت يهزه حتى قاع روحه . . لا يحب الحب الفصيح على طريقة زوجته . . منذ عاد هارباً من موته ، ورامي وفادي ، يغمرانه بمحبة خارقة العذوبة . . يعاملانه كما لو كان طفلهما . . اثناء تنقله بين سجن وآخر ، كان يؤرقه هاجس مرعب : ان يعود الى بيته ، فلا يعرفانه . . ويسألا امهما بحياد : من هذا الرجل ؟

ويوم عاد ، لم يقل احدهما انه يحبه ، وانما واجهاه بذلك الحب المتقشف القروي ، رامي قدم له كأساً من الماء وفادي غطاه بورقة كلينكس حين تمدد مرهقاً . . . لم يرثا شيئاً عن امهما رغم خوفه عليهما من اجوائها واسرتها والخالات الثرائيات ، ورشواتهن الثرية لاقتناص الحب الطفل . . لم يرثا شيئاً من ملامحها الجسدية او النفسية . . الشعر الكستنائي ، والعيون الزرق ، والبشرة يباسمينية البياض لم تنتقل اليهما منها . . . يتأملها . . . كم هي جميلة . . . كاد ينسى ذلك . . .

يتوج بؤسه بسيجارة . . .

لم يقل احد كلمة منذ ضمتهم الغرفة بعد ذلك اليوم الطويل الشاسع الممتد على افق ابدية العذاب والقهر . .

الولدان يستعيدان حيويتهما ، ويدخلان في مرحلة اكتشاف الغرفة والحمامين الملاصقين لها ، وخزائنها الشاسعة والصالون والتلفزيون والبراد الصغير في الزاوية ( الميني بار ) وازرار الراديو والنور الملاصقة للفراش وجمال الستائر ، والتلفون الحديث الخالي من القرص المزود بنواقيء تحمل الارقام ، وخشب الورد المرقط الذي يغطي بعض الجدار والابواب وحاملة الحقائق المخملية المتزلقة .

يخرج خليل من كابوسه ، وتمعن كفى دخولاً في حلمها متقلبة فوق المخمل الفاخر لغطاء السرير . . الولدان يدخلان مرحلة القفز والشجار كالعادة . . .

يتوج بؤسه بسيجارة . . .

يشعر بأن يحمل المقعد من الشوك . . . يتذكر من جديد فقره ، ورغم انه عاهد نفسه على السكوت في ليلتهما الاولى ، لكن خوفاً غريب المذاق يملأ فمه وهو يرى الحقائق المكومة في جانب الغرفة لما تفتح . . . وهي كل ما يملكان في هذه الجنة . .

- كفى . . الفندق .

- ما به ؟

يقول بقلق : جميل جداً ، فاخر

تكرر باسترخاء : جميل جداً . . فاخر فعلاً .

يتمشى صوب الباب ليطالع لائحة الاسعار الملصقة قرب الارشادات لاستعمال سلم النجاة في حال حريق . . وما يكاد يقرأ عبارة « ١٥٠٠ فرنك في الليلة » حتى يشب في رأسه حريق ، ويقرر الهرب عبر سلم النجاة . . من اين يأتي بما يقارب الثلاثة آلاف ليرة لبنانية كل يوم ايجاراً لجناح فندق ؟ هل جنت كفى ؟

الصبيان يتعالى صخب شجارهما المعتاد : تنهض نحوهما لتهدئة الخواطر وقد فارقها بعض ذهولها . . هو لم يعد يقوى على الصمت . يسألها من جديد : كفى . . الفندق . . .

- ما به ؟

- فاخر . . لا تملك ايجاره . . يجب ان نجد مكاناً آخر غداً . . غرفة اخرى . .

تعبس . يحاول استرضاءها : اعني شقة صغيرة من اجل الولدين . . سيختنقان في غرفة مغلقة . .

تجيب بهدوء من اعد خطة محكمة : الولدان يذهبان غداً الى مدرستها الداخلية ريثما ندبر امورنا . .

- مدرسة داخلية في سويسرا ؟ هل لديك فكرة عن الاسعار ؟  
- اجل . . واحمل في مظروف مستقل نفقاتها لهذا الصيف ، وبالفرنك السويسري . .  
لقد بعث بمجوهراتي كلها واستدنت من صهري وراهنك عليك . . . الولدان سيدرسان في الفصل الدراسي الصيفي ( سامر سكول ) استعداداً للتكيف مع البرامج التعليمية هنا ،  
والعام الدراسي المقبل اول الخريف .

اذن خططت لكل شيء . . منذ سبعة اعوام وهي تخطط لهذا اليوم . .  
منذ انفجرت الحرب عام ١٩٧٥ توسلت اليه ان يهربا مع الهاربين . . قال لها : « انا  
شجرة . هنا ولدت . هنا اموت . لا اهاجر . مغادرتي لقريتي الى المدينة هجرة مريرة  
تكفيني . . ولم اخترها . قررنا والدي » .

وها هو اليوم في هجرة اخرى لم يختارها ايضاً . .  
- وماذا نفعل في الخريف حين يحين موعد دفع اقساط جديدة ؟  
- غداً تستلم عملك . . . الصيف طويل والله كريم يفتحها في وجوهنا . .  
- عملي ؟ اين ؟

- في المطعم الشرقي . حملت لك رسالة توصية من صهري الكبير الى مدير المطعم شفيق  
أبي عاطي صديقه الحميم . : ستعمل محاسباً او معاوناً له ، ريثما نجد ما يليق بنا . .  
اذن اختارت له مهنته ايضاً . .

ولكنه لا يجزؤ على ان يقول لها شيئاً . . . لقد قضى الاسبوع الاخير هارباً من بيت  
صديق الى آخر . . ريثما يدبران امر هربه من بيروت . . لقد فعلت ما بوسعها . . صحيح  
انها فعلت ما كانت تتمناه منذ اعوام ، لكنه هذه المرة لم يكن في موقع يسمح له بالرفض . .  
بل بالتوسل ! . . .

وها هو بدلاً من شكرها يكاد يقرعها . . لقد انفقت كل ما تملك من حلي الاسرة  
ومجوهراتها لتنجوبه وبأسرتها . . يخترقه حس حاد بالندم . . .

\*\*\*

يقترّب منها ويضمها اليه . . يا لجسدها الحار الشهي . . لقد نسي طعمه . . لقد  
انقضى زمن طويل منذ المرة الاخيرة . . ثلاثة اعوام . . ربما اربعة اعوام . . لا يدري ما

الذي اصابه منذ ذلك اليوم المشؤوم .

( كنت ابدل الكتب في واجهة مكتبي كعادتي في بداية الاسبوع قبل استقبال زبائن الكلمة . اذكر بوضوح انني كنت افرش على طول واجهتي وعرضها نسخاً من الكتاب الجديد للمناضل امير النيلي . . حسناً ، هو كاتب ، وانا اجدّه مناضلاً . . كل حرف لديه ينادي بالحرية والديمقراطية . . كاتب لم ينجح في شرائه احد . . انه منحاز حقاً إلى الفقراء ، لا إلى فقراء طائفة معينة أو نظام معين . منحاز حقاً إلى العروبة ، لا عروبة لبنان وحدها بل عروبة العرب كلهم ، وبينهم من يتشدد بها ولا يمارسها . منحاز إلى العروبة بمعناها الأصلي ، لا بمعنى القمع البوليسي والارهاب وقطع اوصال الأرض والبشر واعناقهم وارزاقهم كما يحدث في بعض الاقطار . . لم اكن يوماً موهوباً في الكتابة ، لكنني « مبدع قراءة » . . أرفض بيع كتاب أو منشور لا يحترم انسانيته مهما كان سوقه رائجاً و ( موجته ) عالية . . . كان يوماً خريفيًا باهراً من تلك الأيام التي تطلق فيه الطبيعة سراح الرياح وقطرات المطر بعد طول سجن صيفي . . . وتأني سحب محملة بضياء رمادي فضي الزخم . . يوم تنفس فيه رائحة الحرية ، ويستيقظ في قلبك شوقك لكل ما تلوكه من شعارات تحرم عليك ممارستها . . دخل مسلحان إلى مكتبي . . حسناً هي دكان ، لكنها في النهاية مكان عملي ورزقي وكرامتي وكنت سأفعل الشيء ذاته لو كنت بائع سندويش فلافل أو بائع كتب . .

لقد طردتها !

حاولا ارغامي على بيع منشور ، بعد ان ادفع لهما سلفاً ثمن النسخ فرفضت وطردتها حتى قبل ان اقرأ اسم المنشور والجهة التي طبعته والافكار التي تحمله . . لم يكن في مقدوري ان ارضى يوماً بأساليب القمع للترويج حتى للحرية نفسها . . لم يكن في مقدوري ان ارضى بالاساليب الفاشية وسيلة لنشر افكاري او افكار حلفائي او الذين أوّمن بهم . . وتصادف ان كان المنشور يخص ( اصحابي ) . كنت لا اعرف كيف اعبر لغويًا عن ذلك الشعور بالمهانة حتى المرض العضوي حين ينتهك شخص ما حريتي . . وكان امير النيلي يتقن ذلك في كتبه . . لو سألتني احد : ما هي حريتك ؟ لما عرفت ماذا اقول . . ولكنني اعرف دائماً حينما يمسه احد بسوء او يحاول سرقتها مني . . واظن ان هذه هي حال البسطاء مثلي مع الحرية .

قلت للمسلحين : لا اريد ان اعرف اسم المنشور الذي تطالباني بتمنه سلفاً كالخوة ،

وتطلبان مني بيعه . . وأنا قد اؤمن بكل حرف فيه ، ولكنني لا اؤمن بهذا الاسلوب في إقसार الناس على اقتنائه . . وارفض دفع الخوة لاصدقائي قبل اعدائي . . وارفض ان يسرق حريتي حليفي قبل خصمي ، وارفض هذه الدروب التي تجروننا اليها . . .  
وانهالا علي ضرباً بأعقاب الرشاشات التي دفعت الشعوب العربية ثمنها كي يضرب بها العدو لا الصديق . . هكذا صرخت بعد الضربة الاولى فتزايدت الضربات . . قلت لهم : العدو هناك . . وهرولت نحو خارطة احتفظ بها على جداري : انهم هناك . . ادلكم عليه . . يبدو انكم نسيتم . . .

وتابعوا ضربي حتى حينما قررت ان ادلهم عليه ونحن على الرصيف امام باب الدكان كمن يرشد سائحاً ضيع دربه . . وانهرت على الرصيف . . .

صحوت في المستشفى وعظامي المحطمة ليست وحدها التي تؤلمني . . كان في داخلي شيء قد انكسر . . شيء يبكي بصمت مرتجفاً بلا عزاء . . ومنذ ذلك اليوم فقدت شهيتي للحياة والحب والشمس والنساء . . ولم امس زوجتي ولم اعد ألحظها هي او اية امرأة اخرى . . ولم اعد اذهب الى حلقة الرفاق حيث نتحدث عن الوطن والحرية والمصير ونخطط لغد افضل ، لعمل فعال كل في حقله . . ولم اعد ادخن النارجيلة في مقهى الروضة الشعبي على شاطئ البحر . . ولم اعد ألحظ شروق القمر . . ولم اعد احب الموسيقى ولا اطرب للغناء . . شيء واحد لم استطع ان اتوقف عنه . . قول الحق كما اراه . . الشهية الى حوار بعيداً عن اعقاب ( الكلاشن ) ، واعقاب السجائر التي يزرعها في لحملك اولئك الذين طالما زرعت قضيتهم في روحك . .

اجل ! لم اتوقف عن ذلك ، بل ازدددت جنوناً . . ادمنت تنفيذ وصية ابي :  
« لا تقل الا الحق » حتى نسي ان بوسعي ان اصمت احياناً . . كنت لا اصمت .  
لا اختار التوقيت . لا اختار الاذن التي اهمس فيها دواخلي . اقول الشيء ذاته للجميع ، واصادق من اراه جديراً بصداقتي حتى لو كان في دربه الى المشتقة او واقفاً يدخن سيجارته الاخيرة امام الجلال . . وهكذا كسبت اصدقاء لا احبهم ، واعداء لا اكرههم ، ووجدتني محسوباً على فئات لا احترمها ، مرفوضاً من جهات تربطني بها قناعات فكرية وتفرقت اساليب الممارسة . . وهكذا تنقلت بين سجن وآخر . . وانا في اغلب الاحيان لا اعرف من هو سجاني ، وأحاول ان استشف ماهية ورطيتي من لهجة جلادي . . لكن الجلادين جميعاً ينطقون لغة مرتزقة واحدة . . وصعب ان تميز بين جلاد ( جماعتك ) وجلاد الجماعة

الآخري . . . وبين سجن وآخر ، وشجار وآخر ، وقصف وآخر ، ونقاش وآخر ، كنت التقي زوجتي كمن يتفقد صديقاً نصف منسي ، واقبل اولادي قبلات اللقاء والوداع مرة واحدة ، وارم مكتبي المنسوفة وأبيع كتب امير النيل ريشا يأتي احد اولئك الرجال المشابهين كأنهم رجل واحد ، ويقول لي اتبعني فأتبعه ، وتكرر الاسطوانة ذاتها في الاقيبة المختلفة . . . من يملك ؟ ممن تقبض ؟ ما نشاطك ؟ ما جماعتك ؟ تخريب ؟ متفجرات ؟ سرقات ؟

وعبثاً أقول لهم انني لم افعل شيئاً بعد استحق عليه العقاب او الشئ . . . لم يتركوا لي وقتاً لأفعل شيئاً . . . وصرت احسهم جميعاً ، الصديق والعدو مؤسسة واحدة ذات فروع عدة في الاحياء المختلفة ، تحمل الشعارات المختلفة ، ومهمتها الوحيدة ، اختراع التهم لنا والمحاکمات والعقوبات والاعدامات كي لا يتبقى لنا وقت نفعل خلاله شيئاً له معنى وجدوى وكي لا يتبقى في حنجرتنا كلمة من تلك الكلمات القديمة التي طالما صرخنا بها في المظاهرات الحاشدة او في عزلة غرفنا . . . صرخات كثيرة لم يسقَ منها في حنجرتي غير عبارة واحدة : الحرية . . . الحرية . . .

وذا ليلة ، ساقنا الجلاد الى المقبرة لاعدامنا هناك تنفيذاً لخاطر عبقرى تعب من نقل الجثث ورميها في الشوارع وتحت الجسور وفوق التلال ، وقرر توفير الجهد على نفسه وعلى اهلنا بإعدامنا في المقابر بحيث لا تعود ثمة حاجة لجمع اوصالنا المقطعة ونقلها الى البرادات والتعرف عليها ثم البكاء عليها ونقلها الى المقابر في مواكب وعرقلة سير رجال المخابرات بجنازات ضحاياهم . . .

تلك الليلة كنت حقاً لا اعرف سجين من انا . . . ولماذا عذبت . وماذا كانوا يظنونني . ولماذا انا في دربي الى الموت ، وهل يحدث ذلك لي كجزء من ضمن صفقة جماعية لقتل اشخاص من طائفة معينة او لارهاب اشخاص آخرين يجري اعدادهم لمهمة ما . . . او لخلق مناخ ارهابي يرفع اسعار الدولار ريشا يتم احدهم صفقة بورصة ما . . . لا ادري غير انني كنت في مثل هذه اللحظة منذ اسبوع ، أو شهر او عام او قرون ، مع الهبوط الأول للظلام ، والشوارع خاوية ، ارتجف شبه معصوب العينين في الشاحنة المحشوة بنا . . . ورائحة عرق الذعر وكل افرازات الخوف البشرية تفوح من دربنا . توقفت الشاحنة . انزلونا . لم يكونوا بحاجة لضربنا كي نركض الى المقبرة . . . كنا بشوق الى تلك اللحظة . . . شاهدت قبري في الظلام وقرأت اسمي مكتوباً على شاهدته بحروف من نور

بهي ، بل بحروف من النيون الفاقع الضوء البشع كما على ابواب الكباريات  
الرخيصة . . . ثم انهرت ولم اعد احس بشيء . . . ولم اسمع اصوات اطلاق الرصاص  
الذي حصد كل من كان حولي ، لاني حين صحوت وجدتهم قتلى .  
صحوت . تحسست جسداً ساقطاً فوقى كان بارداً وثقيلاً وحاولت ابعاده عني والذعر  
أنشب مخالبه في عنقي وبدأت اختنق . . كان نصف متخشب . . تذكرت فجأة كل ما  
كان . . اذن اغمي علي قبل لحظة الاعدام ، وسقطت قبل انهمار الرصاص . .  
ونجوت . . نجوت ؟ . .

آه كيف انطلقت راكضاً من المقبرة ، متعثراً بقدمي اللتين نسينا طعم المشي ناهيك عن  
الركض . . كانت الانفجارات تدوي لحسن حظي ولا احد يلوي على شيء . . . ومشهد  
شيخ مثلي مغسول بالدماء طالع من المقبرة لا يستوقف احداً والكل هارب من موته في موجة  
قصف عشوائي دورية . . ولم اع كم انا خفيف ومرعب الا حين قرعت باب بيتي وفتحت  
زوجتي الباب ولم تعرفني . . . لم تميزني وظنتني سارقاً وكادت تصرخ وتجمع الجيران وعلى  
رأسهم المخابرات متعددة المشارب المتدسة فيما بينهم ، لو لم أغلق فمها ببقايا قوة لا ادري  
من اي شيطان اتتني : اسكتي يا امرأة . . انا زوجك . . انا خليل . . ) .



عزمت عليكم يا معشر الجن والابالسة والجنود والعفاريت والشياطين ان كنتم في  
مشارك الارض ومغارها احضروا سكان الفيافي والمجازر والمقابر والسوق والطرق والبروج  
والمعروج اين ميمون الغمامي اين ميمون السحابي أين شمهورش الطيار اين برقان اليهودي  
اين الملك الابيض المعظم اين الملك الاحمر المعظم اين صاحب العمامة السوداء اين صاحب  
البغلة الدهماء اين الذي فيه الف رأس وفي كل رأس الف وجه وفي كل فم الف لسان وكل  
لسان يسبح الله تعالى بلغات لا تشبه بعضها بعضاً . . .  
. . علكش بطط لهوشل مطيعوش بطريقوش يطفريوش بطبطيقوش مكشلاش ألوحا  
ألوحا العجل العجل الساعة الساعة . . .  
. . احرقه يا ميظرون بحق طحيطمغليال وبحق آل شلع يعوي يويه بتكه بتكفال

بصعي كعي مبال بمطيعي لك يا آل جل زريال احترق ... احد ... اح ... آ . . .



« يا له من وغد ... سأقتله » ... صرخة دوت بصمت في أعماق نسيم وهو يرمي بصحيفة الصباح « جورنال دي جنيف » على الأرض ، وفيها نبأ مقتضب عن مقتل طالب عربي يدعى سري الدين مختار ، اجتاحتها سيارة مجهولة .

حوالي الظهر ، اي قبل نهوض رغيد من النوم بقليل ، وصلت صحيفة « تريبون دي جنيف » وفيها النبأ ذاته مع مزيد من المعلومات حول الحادث ، وصورة سري الدين مهشما قرب الرصيف . القاتل لم يتوقف ، وأمه المريضة ترجح انه قذف بنفسه تحت عجلات السيارة ، لضائقة مادية وصحية . والبوليس يفتش عن السيارة الجانية . . « ياله من وغد ... أصدر امراً فقتلوا سري الدين بينما هو يسبح في بركته الذهبية هائلاً . يجب ان يقتله شخص ما » ... ونسيم يتابع توضيب صينية الافطار الذهبية لرغيد ، كأى سفرجي مطيع . . الاواني كلها من الذهب ، وقد اعد الشاي .

( لماذا لا أضع فيه بعض الديتول الخاص بقتل جرائم « الحمامات » وساخاتها ؟ ليس رغيد جرثومة وسخة ؟ . انها لجريمة ألا اقتله ، ويجب ان يعاقبني القانون عليها . . . ترك رجال مثله احياء يجب ان تكون تهمة توجه لمن حوله . . لمن يعدون له طعام إفطاره مثلي ، ويعلفونه بقية النهار ، ويركبونه فوق ظهورهم ويركضون به ، ويلملمون ثيابه وفوضاه ونساءه من غرفة نومه ، ويعنون بتنظيم امور قذاراته كلها . . سري الدين دهمته سيارة في حادث ، أم تمت تصفيته ؟ ولماذا قتل في الضاحية القرية لقلعة الذهب هذه ، في الدرب بين محطة القطار ومدخل القصر ؟ هل ثمة من واعدته على اللقاء؟ ضرب له موعداً في القصر ، وأعد له قاتلاً في سيارة يترصده ؟ . . حادث سيارة ؟ ام اغتيال سريع قبل ان تنتقل القضية الى الصحف ، وتنشرها شارلوت بارنز او تبتز رغيد ريثما يقتلها بدورها ؟ لماذا يموت الناس الذين يكرههم رغيد في حوادث مفاجئة باستمرار ؟ ) .

يحمل نسيم الافطار الذهبي الى رغيد ، ولا ينسى جريدة الصباح ، وبصقة على وردة الشوك الصفراء التي تخدش اصابعه كلما اعدّها في إنائها الصغير ، ولكن رغيد يجب ان



تتوسط صينيته ، وتبدو مثل قنفذ ذهبي صغير جارج . . كأن هذا الخدش الصباحي البسيط والدامي أحياناً هو تحية الصباح من رغيد الى نسيم الى الناس جميعاً .  
استغفر الله يا رجل . . لعله لم يقتله . . لعلها مصادفة . . لعل سري الدين فقد صوابه ، وجاء ليلاً الى مقر رغيد للقاءه عنوة وقد اعماه اليأس والغضب والمذلة ، فداسته سيارة مسرعة ثملة . . تابع تمثيل دور السفرجي ريثما تنفذ خطتك وتنال شهادتك الجامعية . . تذكر ذلك في بيروت واخوتك كلما طردكم المالك من بيته . . انت ابن الاسرة المهجرة من منطقة النبعة ، التي لم يجد عائلها السائق سقفاً يحميه واولاده العشرة وقطعتهم في الليلة الاولى ، فخرج في الليلة السابعة على الناس شاهراً لا سيفه بل ( مفك براغي ) الاطارات . .

( كسر أبي قفل الباب الموصل للبيت الخاوي بـ « مفك براغي » سيارة التاكسي التي يعمل سائقاً لها ، ودخل واسرته وكلنا يرتعد إرهاباً وخجلاً . . . ويوم عودة المالك من جزر الباهاماس حيث يقطن ومطالبته لنا بيته ، غمرنا خجل وقح ، وبادرناه برفضنا غير المنطقي . . حسناً . . انت تملك البيت ، ولكن لماذا ينام البيت خاوياً وننام نحن على الرصيف ؟ اي وطن هذا الذي يسمح بنوم البشر في سرير الوحل بالحدائق العامة ، وثمة بيوت خاوية مختومة بشمع اللامبالاة والسفر المترف ؟ أنا محتل لبيتك ؟ ولكنك انت محتل لحقي في الحياة الكريمة ، ومحتل لفرصتي في العمل التي يفترض ان تكون متكافئة وفرصتك . . . كلمات . . كلمات رد علينا بأقصى منها : انا كادح عصامي جمعت كل قرش بعرق جبيني ، واشترت هذا البيت بعد اغتراب وعذاب سنوات . . كلمات . . كلمات . . منه ومننا ، تذوب كلها تحت وقع نظرات الجيران الكارهة لحضور أسرنا الفقيرة المهجرة في مبنى الأثرياء . . إخوتي الصغار يلعبون كالوحوش ويخدشون غملاً آذان الجيران . . . انها القطيعة والاذلال اليومي الصامت ووحده ناطور المبنى يصادقنا ثم يطرد لأجل ذلك وتموت قطننا « فلة » يوم طرده . . وانا اذهب الى الجامعة مشيعاً بالنظرات الكارهة واللعنات ، واعود منهكاً من عملي الليلي في المطعم وعبثاً اخفف عن امي وقع القطيعة الاجتماعية التي تخنقها . . هي التي الفت صحة الجارات والاهل واولاد الحي . . كان ابي قد ( احتل ) الطابق العاشر . . وامى المصابة بمرض القلب نخجل ركوب المصعد ، كي لا تبقى تحت حصار النظرات العدوانية داخل صندوق صغير مغلق ، في مرمى كهارب الكراهية والاحتقار طوال الفترة التي يستغرقها وصول المصعد من الطابق الارضي حتى

التاسع على الأقل حيث الجارة الاخيرة . . . وهم يحقدون فيها ويغرسون في جسدها اسياخ نظرات البغض الفتاك . . في المصعد تكون قريباً جداً من الآخرين ، لا تستطيع ان تهروا وتتجاهلهم وانت لا تلوي على شيء كما في الشارع او على السلم . . المصعد هو الحصار . . ويوم حدث لها ذلك للمرة الاولى مع سيدة الطابق التاسع الثرية التي بصقت ولم تقل شيئاً ، ذكرت لي انها احست بوجع غامض في صدرها وبالمصعد يهبط ويهبط تحت الارض بدلاً من ان يصعد ، ويهبط بها في بئر بلا قرار . . ولم تعد تجرؤ على دخول المصعد . . . وبعد سنوات من الذل وجدتها ميتة بالسكتة القلبية على السلم امام باب الطابق التاسع . . . بالضبط ، فوق العتبات الاولى التي توصل الى العاشر بعد منعطف المصعد . . .

والذي يعتذر عاماً بعد آخر من المالك . . . لقد اقسم في العام الأول على دفع الايجار ومغادرة البيت حين يستطيع تأمين ثمن غرفة واحدة . تنازل المالك عن الايجار والحق على ان يغادر بيته وهو يدفع لنا ما يعادل الايجار !! . . . لكن الاعوام تتلاحق . . والمصائب تتكاثر . . . والفقر يتفاقم . . . والاقساط المدرسية ترتفع . . ومستوى المعيشة ينخفض . . . ومسلحون يسلبون ابي سيارته لاستعمالها في تحرير « وطن سليب » . . . ويذهب الى احد رؤسائهم طالباً سيارته ، فيأسف الثاني بصدق لأن الذين « عملوها » يتسترون بشعاراتهم ويسرقون سيارات الناس مستغلين حبههم للقضية . . انه لا يعرفهم . . . غريبون . . . قتلة اندسوا بين الشوارع . . اين الغربال ؟ . . . مرض ابي وانهار . . يعمل يوماً وينهار يومين . . ينشط يوماً ويقعده الغم عامين . . يذوي . . . هو ايضاً لا يجرؤ على ركوب المصعد مثل امي . . . وعبثاً نجد فكاً من ( الدور ) العاشر القاتل . . . وينصحن البعض ، باحتلال بيت آخر اكثر فخامة له بئر ومولد كهربائي في الدور الأول او الثاني ، خصوصاً وان المياه ووقود المولدات والكهرباء مقطوعة عن الاغنياء والفقراء معاً ، والبؤس يعم . . والجولات تتوالى . . الحروب تتلاحق . . قذيفة تدمر نصف الطابق الذي نحتل ولكننا نخجل من احتلال بيت آخر بعد سرقة ما تبقى من اثاث هذا البيت وبيعه كما فعل سوانا حين اصبحت الاخلاق ترفاً لا يقدر الفقير على ممارسته . . ونقطن الغرفتين الباقيتين . توقفنا عن العيش بكرامة وضاعت احلامنا في مغادرة الفقر الى العدالة ، وانتشر الظلم ، وتوقفنا حتى عن الحلم لكننا لم نستطع التوقف عن النمو . . صرنا عشيرة من الشبان ، رغم النظرات الكارهة ، كبرنا وازدهرنا اسرة من العمالة

المتفجرة صحة كورود المستنقعات ، وانا رب الاسرة ومعيها قبل ان أبلغ سن الرشد . . . سنتت القانون الاول للبيت : العلم . كلنا يتعلم . يتعلم في الجامعة ، يتعلم صنعة ، لكنه يتعلم . ممنوع العمل ( مرتزقة ) في المليشيات براتب . مسموح بدون راتب . . . ممنوع الانضمام الى الميليشيا السائدة التي تدفع ، وحين تهزم نبدل ( معتقداتنا ) وننضم الى الميليشيا المنتصرة ونقبض منها ، وهكذا على التوالي . . انجح يوماً . . أفضل يوماً . . . نأكل يوماً ونجوع اياماً وموارد الرزق تضيق وبيروت تحتق وأنا لا أجد عملاً يوم تخرجي من الجامعة غير عملي الاصلي كنادل في مطعم . . . الكل يضحك حين اذهب بحثاً عن عمل واقول لهم انني احمل شهادة في « الدراسات الانسانية » . . . حتى نديم الغفير ، جار صديقي ضحك طويلاً من ( اختصاصي ) . . . كان يحاول اقناع صديقي بالعمل سفيراً لثري في جنيف ، ورفض صديقي مغادرة بيته ، وتوسلت اليه ان يأخذني بدلاً منه . . سأتابع دراستي هناك وسأسكن مجاناً وأكل مجاناً وأحول الى أبي واخوتي راتبي الشهري بأكمله . . . قلت ذلك بصراحة لنديم فقال : شرط ان « تعملها » سراً . فالثري الذي ستعمل عنده لا يحب « المثقفين » اذا ضبطك تدخن الحشيشة سيضحك ، تشم الكوكايين يشجعك ولا يشاركك ، أما اذا ضبطك طالباً جامعياً في « كلية الدراسات الانسانية » يا ويلك . . ) .

آه يا وبلي الجرس يقرع وصوت رغيد يدوي في المطبخ عبر « الانترفون » : . . . « اين افطاري يا ابن . . . » .

يعيد نسيم تسخين الشاي والحليب . يهرول . حين يضع الصينية الذهبية امام وجه رغيد المتورم نوماً ورخاء يتذكر وجه زميله الجامعي سري الدين في الصورة ، المهشم على قارعة طريق الليل . . . ويشعر بالندم لأنه كان واسطة الصفقة . . كان يقصد خيراً . . لم يكن يدري انها ستجر الى هذه المأساة . . إنه حقاً صغير مندفع وغرير وبلا تجربة كما قال له أمير النيلي . . يتأمل رغيد حاقداً . انه في الستين او اكثر لكنه يبدو في الخمسين بوجهه المستدير المرفه المتورد وصلعته الشبيهة بوجهة طفل مدلل وعينيه الخضراوين المشاكستين . سألته رغيد : ألم تصل صحف أخرى ؟ . . ألم تصل جريدة « لاسويس » . وصرخ نسيم بلا صوت : « تريد أن ترى صورة الجثة في الصحف كلها ؟ ألن تكفيك صورة واحدة ؟ ذات صباح . . سأقتلك . . سأخفك في سريرك . . في بركتك الذهبية . . سأخفك . . » . ولكن صوته جاء يقول : أمرك يا سيدي ، سأحضر بقية الصحف فور وصولها .

- هل حملت الافطار للشيخ وطفان ؟  
 - لم يقرع الجرس بعد .. انه لا يصحو في وقت محدد كما تعرف ..  
 - ابلغه حين يستيقظ انني اريد ان اراه ...  
 ( سأبلغه انني سأقتلك ولن يحملك مني ساحر ولا ابليس ولا ملاك رحمة ... مع امثالك لا تجوز الرحمة .. )

ينهض رغيد بقامته الممتلئة القصيرة ، ويمضي نحو الحمام في مشيته الغندورة ، شبه غدر بالرضى عن نفسه ... ويسمع نسيم وهو يغادر غرفته صوتاً معيناً قادمًا من الحمام ... ويكاد يجن .. ( إنها كلية سري الدين ما تزال تعمل في خدمة ذلك الوغد ... وسري الدين مات .. ولن أراه ثانية ... آه كيف أواجه أمه ) ...

\*\*\*

يعود نسيم الى المطبخ جالساً تحت مولاه الجرس ... لحظات ويأتيه صوت الساحر مرتجفاً كشبح عبر الاترفون : نسيم . تعال . يضغط زراً ويسأل : هل تريد افطارك يا سيدي الشيخ ؟  
 - لا . أريد شيئاً آخر .. احضر حالاً .

يمضي اليه عبر الدهاليز الطويلة للقصر نصف المعتم ، والجدران تغطيها لوحات عتيقة لوجوه اوروية ومشاهد قنص وصيد واسترخاء ومرح وسط غابات وجبال وبحيرات ذات طبيعة سويسرية منقوشة فوق سجاد يتدلى على الجدران .. صور غريبة عن عالمه ... ليست بشعة ولكن مكانها في المتاحف أو في بيت لا يقطنه .. انها تلهب حسه بالغربة ، وتلك النوافذ الضيقة التي زودها رغيد بقضبان حديدية مطلية بالذهب تذكره بأنه سجين .. سجين لقمة العيش محاصر بالغربة العسيرة والوطن العسير ، محاصر بالاذلال هناك وهنا ، وبالحوشة والثلوج والطقس البائس والشوق الى اخوته .. آه متى ينجز اطروحته وينال شهادته ويغادر هذه القلعة الذهبية الرهيبة ؟ لا . ليس قديساً . فكر مرة بسرقة احدى اللوحات او التحف أو صنوبر ذهبي من احد المراحض ، وبيعها ، والانفاق على اقساطه واقساط اخوته بعيداً عن هذا التعذيب اليومي .. لن يلحظ رغيد وسيشتري هو عامين من عمره ... ولكن لم يستطع ... لا يدري لماذا لا يقدر على السرقة ... إنه يؤمن حقاً بـ « الاخلاق السامية » بالرغم من كل شيء - وربما بسبب كل شيء - ولم يفكر يوماً بغير

الحوار كوسيلة تبديل إلا اليوم حين شاهد صورة سري الدين . . . ان خنق رغيد بين يديه يختصر المراحل . . ويقصر دورة عذاب الفقراء . . . ولكن ، بالمقابل ، سيحل مكانه « رغيد » آخر كما قال أمير النيلي ، وستظل الماكينة الجهنمية تدور وتطحن اجساد الفقراء امثاله . . . لا . . . قطع رأس رغيد لا يجدي ما دام كذب الحرباء الذي ينمو ثانية بعد قتله . . لا بد من تعطيل ( الماكينة ) بأكملها . . ولكن كيف ؟ كيف ، ومعظم الذين يدعون محاولة تعطيلها ، يحافظون عليها فيما بعد حين يمتلكونها ، وتظل الماكينة تطحن الفقراء ولكن تحت شعارات جديدة ؟ . كيف ؟ .

يقرع باب الساحر . . . ويدخل . . . يراه في فراشه ، نحيلاً ، صغير السن نسبياً ، لم يجتج الشيب لحيته وشعره الكث الا قليلاً ، شاحباً ، لا يخيف قطه . . فقط حين يحدق فيه ، تسري في جسده رعدة طفولية . . للشيوخ وطفان عين بنية ، وأخرى خضراء . . ام انه واهم ؟ يقولون ان احداً لا يجروء على التحديق في عينيه طويلاً ، وهو لن يفعل على اية حال ! . . .

- صباح الخير شيخ وطفان .

- صباح الخير يا ابني . . . هات ورقة وقلماً واكتب . . . انني بحاجة الى بعض

الاشياء . . .

دوماً يميل عليه طلباته . لا يعطي احداً كلمة مكتوبة بخطه الشخصي . هل يخاف من السحر المضاد ؟ يكاد يضحك بصوت مرتفع ولكنه لا يجروء على اغضابه . لا . لا يخاف من سحره وعفاريتة ، لكنه منذ أكلت اليه مهمة احضار المواد السحرية الأولية وجد فرصة إضافية لمغادرة قلعة الذهب بحجة التفتيش عنها - وبعضها يستحيل الحصول عليه في جنيف - أو بحجة المرور بالمكتب وتوصية كابتن الطائرة الخاصة او المضيف بتأمينها من بلد المورد . . . وبصفته أمر الصرف في هذا المجال ، فقد استطاع مرة توفير مبلغ من ثمن بزر الكرفس والزنجبيل أرسله قسماً مستعجلاً لشقيقه الثالث الذي التحق بالجامعة اللبنانية أول هذا العام . . . ثم أنبه ضميره على هذا ( الاختلاس ) أو ( السرقة ) وهاجمته الكوابيس رغم ان المبلغ زهيد وينقذ شقيقه من الالتحاق بـ ( ميليشيا ) لا يؤمن بها تحت ضغط الفقر والحاجة . . على اية حال لم تهدأ نفسه الا حين أقسم لها في عتمة الليل ألا يكررها ، وان يعيد المبلغ حين « يسهلها » الله . يعرف ان مليار رغيد لن يتأثر بدرهمات . . ثم ان المليار بأكمله مسروق أصلاً . . ولكن . . .

ينهض الشيخ من فراشه فيبدو مربعاً بعض الشيء . . . قامة شاهقة وعباءة تنحدر عن كتفيه الى الارض يضع داخلها جسده النحيل فيبدو مثل شبح قام للتو من تابوته . . . له بالتأكيد عين بنية واخرى خضراء ، ولكن تلك قضية تخص عالم « البيولوجيا » والطب الذي يجده امراً عادياً ، لا عالم العفاريت والارواح .

- اني جاهز يا سيدي . .

- سجل عندك : جوزة طيب . اوقية فلفل أسود . اوقية فلفل ابيض . اوقية زنجبيل . اوقية لسان عصفور . اوقية اهليج . اوقية عود قرح . اوقية عود صليب . اوقية سنبل بغدادي . اوقية بهمن أحمر . اوقية لبان ذكر . اوقية بزر ريحان . اوقية بزر كرفس . اوقية بزر رشاد . اوقية بزر فجل . اوقية بزر بصل . اوقية حبة سوداء . عسل نحل صافي . هذا كل شيء ؟

- نعم .

- الا تريد طعام الافطار ؟

- ليس الآن . . . . سأدعوك حينما يحين الاوان .

- « الباشا » يريد ان يراك .

- سأدعوه حينما يحين الأوان . .

يغادر الغرفة . اوقية لسان عصفور . . . هذه وحدها تؤمن له اجازة يوم كامل . . . سيقول انه ذاهب لصيد العصافير وقطع ألسنتها ، وسيفرم بعض القطع المشابهة من مؤخرة الخنزير . . . وسيقضي يومه في مكتبة الجامعة لانجاز المزيد من اطروحته . « بركاتك يا سيدي الشيخ » . . . ان مهنة « معاون ساحر » ليست رديئة لشخص مثله لا يخاف العفاريت . . . حسناً . انه لا يجرؤ على استبعاد امكانية وجود قوى كونية لم يحط العلم بها بعد . . ولكنه لا يخاف العفاريت الشعبية ، ربما لكثرة ما ألفها . . إنها الخلفية لحياته منذ طفولته ، امه تهدده بأن يأتي الجنى ويخنقه ، وجدته تحذره من سكب الماء الغالي على العتبات كي لا يحضر العفاريت ( كنت في العاشرة من عمري حين ضببطني أُمِّي أبلل سجادتنا الوحيدة بالماء المغلي . ضربتني فاعترفت : كنت اسكب الماء المغلي فوق العتبة لا السجادة وفعلت ذلك لاحضار عفاريت نلعب معهم وإخوتي . سمت بالرحمن وسألتنى بذعر : هل حضر « الاسياد » ؟ هل شاهدتهم ؟ لم اجب ) .

جوز طيب . فلفل . زنجبيل . اهليج . بزر ريحان . كرفس . عسل . . . الى

آخره . . هذه الوصفة صرت أعرفها . . يبدو ان الشيخ صخر عاد يطلبها رغم اصابته بالقرحة . فالمطربة الشهيرة « إياها » تغني الآن لعرب جنيف ، وكلما حضرت يزدهر زبائن « الوصفة » ، وكلما رحلت تزدهر اوجاع قرحاتهم الهرمة ، والرصيد المالي لاطبائهم الاجانب . . . أم ان رغيد يحضر ( شبويته ) لصغيرة مسكينة يبيعونها له ذات بعد ظهر او تباع نفسها ؟ . هذا ليس شأنه . . لن يسقط في فخ البطولات الجانية . . يجب ان ينهي دراسته بنجاح ويعود الى وطنه . . الدراسة أولاً . هذا هو القانون الذي سنه لنفسه ولاسرتة الصغيرة ويجب ان يتذكره باستمرار . انه عابر سبيل في قلعة الذهب . . عابر سبيل في حياة الساحر . . عابر سبيل في حياة سري الدين مختار وموته .  
ورغيد . . ليتة يستطيع . . ليتة يستطيع الامتناع عن قتل ذلك الوغد . . الرغيد .  
جرس الباب .

موعد وصول باقة الازهار اليومية المهداة الى رغيد . كل يوم باقة جميلة ضخمة ، يبعث بها الى نفسه لأن احداً لا يحبه حبه لنفسه . . انه يكرهها مزروعة في حديقته . يكرهها حية ، ويحبها هكذا مقطوفة الاعناق في دربها الى الذبول . . يحمل الازهار الى غرفة المكتبة كما تقضي التعليمات ، ويعود الى موضعه في المطبخ بانتظار اوامر مولاه الجرس وسيد الانترفون . . الطباخ الألماني وصل ، وهو كعادته يشتم بلغة لا يفهمها نسيم . يفتشونه كل صباح ولا يدخل ملكوت القصر الا حاملاً نصف ثيابه . . . رغيد تأكد من ان نسيم لا يفقه كلمة ألمانية واحدة ، والطباخ لا يعرف سواها . . هكذا لن يكون بوسعهما الحوار معاً . . . اذ لا يمكن ان يجتمع اثنان دون ان يتآمرا عليه ! . . .

\*\*\*

هموش مدقهر قشوش طهيش فنش مهر صيعي هول يا كليم يا متكلم يا هيت يا ليت أنوا منه نهى منه هيا يا أبا نوخ أنوخ بندخ توكل يا رماح وانت يا صباح أجب يا شمعون واطمس على العيون وانت وخدامك يا ميمون الطيار بحق النار والنور والظل والحرور بالله العزيز الغفور اجب يا شمعون واطمس على العيون وانت وخدامك يا ميمون الطيار أجب يا شمعون وانت يا زيتون وانت يا ميمون وافعلوا ما امرتكم به ألوحا العجل الساعة . . .

\*\*\*

غرفة مكتب رغيد وحدها من دون القصر تتمتع بنافذة شاسعة من الزجاج المضاد للرصاص . . ليس حباً بالمناظر الطبيعية ، ولكن رغيد يجب ان يرصد من حوله من سارقين ومتأمرين وقتلة . . . قصره الخاص لا يدخله الا نسيم والطباخ الألماني والسائق وعاملات التنظيف اللواتي يتم تبديلهن باستمرار ويعملن تحت رقابة نسيم في اوقات محددة ولكن متباعدة لأسباب أمنية ! وثمة بناء آخر لحراسه ولمستخدميه الآخرين في أقصى الحديقة يفصله عنهم جدول مائي عميق غير رقراق يشبه الخنادق المحيطة بالقلاع المحاصرة في العصور الوسطى . . . ويستحيل عبوره سباحة . . وثمة جسر ضيق يربط الضفتين ، له باب حديدي مكهرب يقفل ليلاً ولا يفتح الا من جهة القصر . . فيحضرون حين يشاء سيده لا حين يختارون . . . ولا درب اخرى بينهم غير الجسر الضيق الذي يحرسه ليلاً محترف أخرس جاء ومعه كلابه المرعبة المدربة التي تمقت البشر جميعاً ، او تبدو كذلك حين تكشف عن أنيابها . . .

نديم يجلس متحفزاً مثل كلب صيد جاهز لتنفيذ اوامر سيده ، ويطفئ سيجاره في حضرة سيجار رغيد ، ويخيل الى نسيم وهو يدخل بالقهوة انه يهز بذيله ويرأسه كما تفعل الكلاب حين يلاطفها سيدها برضى ورغيد يقول : اني راض عنك . لقد نفذت المهمة بأسرع مما توقعت . . . يغادر نسيم الغرفة وقد اشتعل غضباً وشكوكاً . . بينما يقول نديم : ولكنني قلت على أمني وأبي . . . لقد أصابت بيتها شظية في الجولة الماضية . . . كرر رغيد عبارته المألوفة : لا تقلق . . . ثق بي وسيكون كل شيء على ما يرام . . . يتساءل نسيم بمرارة : هل كانا يتحدثان عن مصرع سري الدين ؟ ( تعقل يا رجل . . . ربما كانا يتحدثان عن رحلة بيروت أو مشاريع أخرى . . ان أعمال رغيد لا تخصي . . شركات . فنادق . . . مصارف . . . مدارس . . مدن سياحية وكل ما لا يخطر بالبال . . . تعقل يا رجل واستغفر ربك . . . )

وصار نسيم يدمدم : قل أعوذ برب الناس .

وظل يكرر: « من شر الوسواس الخناس » . . مرات عديدة . . ثم أمسك برأسه بصورة سري الدين مهشماً تشتعل داخل عينيه ، وكاد ينهار ، وانتحب بصمت ( سأقتل ذلك الوغد . انه يحاصرني بالحقد والقهر . . في مرآة قسوته ترسم امام عيني في كل لحظة



شروور عالمي العربي . . إنه يهدد حياتي بإرغامه لي على قتله . . اني محاصر بفقر أسرتي  
الفاحش وبثرائه المدقع . . محاصر . . . ) . . .

\*\*\*

رغيد يستقبل الشيخ صخر الغنمالي امام مدخل القصر ، رغم انزعاجه من قامته  
المديدة ، وهويصافحه ، ويسير الى جانبه نحو غرفة مكتبه . نديم يزحف خلف ( وحشي )  
المال محاذراً مضايقتها حتى بصوت تنفسه او حفيف قميصه الحريري . . كأنه يسبح تحت  
المياه الخطرة الى جانب سمكتي قرش هائلتين . . .

حين يستقران فوق المقاعد الوثيرة الـ ( شسترفيلد ) ، يشهر رغيد سيجاره بفخر من  
يعلن عن فحولة ذكوره الثرية ، ويقابله الآخر بشهر سبعة تشع جواهر حباتها وذهب  
خيوطها المطهمة بالماس .

شيء ما في حضور الشيخ صخر يشيع بهجة ودية دافئة ، عكس حضور رغيد البارد  
العدواني . . . وجهه وسيم ببشرته الابنوسية ، وأنفه المعقوف كالصقر ، وشفتيه  
الشهوانيتين المكتنزتين ، وليس في خديه الجميلي الاستدارة ما يفصح عن سنه الخمسيني ، أو  
اوجاع قرحته . . وشعره الفاحم متقن الصباغ ، يلتمع بحيوية حين يكون في زيه الأوروبي  
بدون العقال كما هو اليوم . . . وأصابه تعبت بحبات سبخته الثمينة : ثروة ( مضمومة )  
في منخبط ذهبي اطرافه مطعمة بالماس ، يرميها تارة ، ويمسك بها أخرى بكثير من اللامبالاة  
الثرية . . يشعل لفافة ( بولاعته ) المذهبة المطعمة بالاحجار الكريمة باللامبالاة نفسها ،  
فيخيل الى ناظره انه سيرمي بها في المنفضة كما لو كانت عود كبريت تم استهلاكه ! . . .  
نديم يتأمل عيني صخر الجذلتين . لا احد سواه يعرف انه مصاب بعمى الألوان ، لا يميز  
اللون الاحمر بوضوح ولا الاخضر . . لا الدم ولا الاشجار والواحات . لقد رافقه يومها الى  
الطبيب واقسم على كتمان السر ، والبوح بالسر لرغيد ليس خطيئة بل واجباً . . لكنه في  
هذه اللحظة نادم لأنه فعل ويكاد يحن الى ايام عمله وصخر . إنه مرح . صريح . مباشر .  
بشري . التعامل معه مريح واقل تعقيداً من التعامل ورغيد ، ولم يره يوماً يحمل ضغينة  
لأحد . . يتنهد نديم وهو يحرق في سيده السابق وتومض داخل رأسه كالبرق لحظة ندم  
مشحونة بالذكريات . . . اجل . . . كانت الحياة معه اكثر مرحاً وطراوة ، وحكاياه وحرمة  
المتنقل وعشيقاته واولاده الذين ينسى باستمرار عددهم لم تكن لتخلو من الطرافة . وعلاقاته

مع الصحافيات الاجنبيات اللواتي يصطدن حكايا مبادله طمعاً بثروة صغيرة كانت خاتمها لا تخلو من الضحك في غرفة نومه .. لا عنف .. لا قتل ... بل جذل دائم وكرم متأجج في مناخات الحياة الرعدة و (لا في أون روز) ...

يعزي نفسه : لكن التعامل ورغيد مريح .. مريح حقاً . صخر محترف حياة ، وصياد نساء ، والنساء يعشقن المال ، اذن هو ايضاً كذلك ... يحبهن ويحتقرهن في آن ، فالنساء بالنسبة اليه زوجات او عاهرات ، ولكل ثمنها في (سوبر ماركت) اللذات . لا يعترف بوجود المرأة العاملة او الرسامة الفنانة الجادة فكلهن حريم والباقي تفاصيل ... والعاملات الناجحات مسترجلات وهن بالتالي على خانة الرجال .

اجل ، صخر نواصي المزاج ، ولا يعبأ كثيراً بصفقة اضافية رابحة او خاسرة ، اما رغيد فيحب المال لذاته ومعه ضاعفت ثروتي عدة مرات ، فهو يتقن جمعه ، ولا يضيع لحظة واحدة أو صفقة عابرة ... لا يضيع اكثر من عدة كلمات في المجاملات ثم يدخل في صلب الموضوع كما يفعل الآن اذ يخاطب صخر دونما مقدمات : أريد المطار ...

- هلال يرفض

- لماذا !

- يكرهك !

- لماذا ؟

- تعرف لماذا ... لألف سبب وسبب ...

- لا أذكر سبباً وجيهاً لكرهيته ...

- الحكاية قديمة .. دوماً تتشاجر لأجلك ... وقد قاطعني طويلاً يوم اعطيتك (التزام) المدرسة الكبيرة الرسمية ... وغيرها ... وغيرها ...

- لماذا يكرهني ؟

- يعتقد انك أفسدت حياتي ...

- هذا المطار اريده ... لقد وعدت اصدقاءنا المشتركين بأنني سأحصل على الالتزام .. سأنفذه بإتقان كالعادة ... ستكون فخوراً به أوكد لك . وستتقاسم بضعة مئات الملايين ...

- هلال مصرّ هذه المرة ... وصل البارحة للعلاج ، ولا اريد الشجار واياه ثانية ... يكاد يكرهني بسبيك ..

- ولكن ...

- يعتقد انك جررتني الى درب النساء والخمرة والميسر ولذائد الدنيا المحرمة ...  
- لم افعل .. أنت هكذا .. لكنني ارشدتك الى بعض المفاتيح .. يضحك صخر تلك  
الضحكة الطفولية التي لما تفارقه ، ويردف معابثاً : تقصد ان البذور كانت موجودة ؟ حسناً  
ولكنك ساهمت في تنميتها وسقيتها بعضاً من ماء النار ...

نديم يفهم الاشارة ويسارع الى تقديم كأس من ماء النار للشيخ صخر ، لا يرفض  
الرجل ذلك .. بل يشكو مثل شحاذ سرقوا حذائه : اتخذنا التعديلات اللازمة فور وصول  
أخي هلال ... أخفيانا كل رجس في القبو ... الخمرة الى الصناديق ... النساء الى  
الفنادق ..  
يتنهد رغيد فرصة الانشراح : إليك مقدار جوزة من هذه الوصفة .. حضرها ساحري  
خصيصاً لك .. : تناولها قبل اللقاء بساعة ، وستكون لك قوة عشرة أحصنة ... انها وصفة «سحر  
الخصب» .

- اني بحاجة اليها فعلاً ... تلك الصحافية الحسنة شارلوت بارنز ما تزال تطاردني .  
تتظاهر بالحب ، وأتظاهر بالغباء ، هي تريد فصلاً تكتبه لمؤلفها عن الاثرياء العرب ، أو  
شيكاً كي لا تذكرني فيه كما فعلت في صحيفتها ، وانا اريد الحب والحب فقط ... لن  
أشقى يوماً من الشقراوات ... السمرء ممنوع ان تخطو إلى فراشي بعد ان تتجاوز الثامنة  
عشرة من عمرها ... أما الشقراوات فالضوء اخضر أمامهن حتى سن الثلاثين ...

- ما رأيك بـ « ليلي سبوك » ؟ اليس جميلة ؟

- وهل هي امرأة ؟ انها مسترجلة ، تعمل بهمة الرجال .. لا أطيق المسترجلات ...  
ثم انها عجوز طاعنة في العمل ... كل سمرء تتجاوز سن الثامنة عشرة هي متقاعد في  
نظري ...

يشرب صخر وتتورد وجنتاه ويشاركه نديم الشراب تهدياً ... هكذا تقضي أصول  
التعامل مع اولياء نعمته ... أما صداعه فقضية جانبية ، سيداوها فور عودته الى المكتب  
بشجار مع احد موظفيه ... ومعاونيه ...

يتدفق صخر في حديث النساء ويستفيض : ابني نجم أحضر صديقه ... كانت جميلة  
وشهية فاستعرتها منه مقابل استيلائه على حصاني الأبيض ... وزوجتي الجديدة ، هل  
تعرف انها هجرتني ؟  
- هل يضايقك ذلك ؟

- لا أدري ... افتقد الاولاد فقط ... حملتهم وعادت بهم الى أهلها في بلدنا ..  
 تعرف انها ابنة ابنة عمي ؟ ...  
 - تقريباً ... أعني ، كنت اظنها الزوجة قبل الاخيرة ...  
 - بل الاخيرة فالزوجة التي لا تنجب غير ( محسوبة ) .. وابني الكبير من ابنة ابنة عمي  
 ما زال صغيراً ... صبي في الثالثة عشرة من عمره يذهب إلى المدرسة هناك .. المدرسة التي  
 عمرتها أنت .. تذكر ؟ سبحان الله ، لقد ساعدتك في الحصول على الصفقة ، ولم اكن  
 ادري انني أربح مدرسة لابني ..  
 - الى جانب عدة ملايين فرنكات ..  
 - انفقتها على جانين ... وجينا لولو وريتة ملكة جمال الكون ..  
 - قبل ربع قرن .....  
 يضحكون ... رغيد لا يضيع وقته هدرأ .. يلتقط لحظة الصفاء ويحولها الى طعم  
 قائلاً : حاول اقناع شقيقك بأنك ستقطع علاقات العمل معي ... وصفقة المطار هي  
 التعويض .. وتسريح بإحسان ..  
 يؤكد صخر : سأحاول ....  
 يحدق في ساعته وينهض ملدوغاً وقد أبعد كأس ماء النار بذعر ... ويقول : حان وقت  
 الصلاة ... اغفر يا رب لعبدك الحقير .. اريد الوضوء .. عن اذنكم ... لست ثملاً .  
 لم اشرب شيئاً بعد ... ويشهد نديم على ذلك بشدة ، ويفرش سجادة الصلاة على أرض  
 المكتب ، ويعدلها صخر صوب القبلة التي تشير اليها ساعته الذهبية المصنوعة في سويسرا  
 خصيصاً للأثرياء العرب وتضم بوصلة تشير صوب القبلة .. فيطالعه مبنى الخدم ويسد  
 عليه درب القبلة .. يقول لرغيد مؤنباً غامضاً : كيف تعمر جناح الخدم والموظفين صوب  
 القبلة ؟ هل يريد مني مهندسك اللعين ان أصلي باتجاههم ؟ ... سأذهب لأصلي في مكان  
 يصون كرامتي ....  
 يغادرهما شبه غاضب .. وريثما يصل الى الباب يكون قد نسي سبب انزعاجه واستعاد  
 مزاجه المرح ، فيضم اليه رغيد ، ويسأل نديم خدمة : ابني صقر بحاجة الى مرافق  
 مترجم ، هل تعرف شخصاً - سواك - يمكن الوثوق به ؟  
 يقولها ساخراً وينفجر ضاحكاً بتلك القهقهة الخاصة الايقاع التي تغطي المدينة ثم  
 يقطعها فجأة قبل الذين يشاركونه اياها .. رغيد يقول له نصف هامس : كلمة سريعة قبل

ذهابك . . لدي وسيلة لاقناع هلال بشأن المطار .

يعرف نديم ان عليه ان ينسحب ويتنظرهما امام الباب . . نصف ساعة . . ساعة . . ما الفرق ؟ هذا جزء من المهنة . يغادران الغرفة بعد زمن قصير ، وصخر يطلق قهقهته الخاصة ، ويؤكد : لن يرضى هلال بأي عرض . . . النقود لا تعني له شيئاً . . انه يعيش في بلادنا كبقية الفقراء او متوسطي الحال . . . ورغيد يطبق بشفتيه على سيجاره بصرامة ولا يقول شيئاً ، ولا يشارك صخر ضحكاته التي يظل يطلقها حتى يبتلع جوف سيارته المخملي . . ولوحته المصنوعة من الذهب الخالص تضيء تحت شمس سويسرا البخيلة ، وترسل سكاكينها اللامعة المتلاحقة داخل عيني نسيم وميضاً موجعاً ممزقاً بينما هو يغلق الباب خلف موكب الضيف .

( رغيد ونديم . . ايها أقتل ، المحرض أم الاداة ؟ ترى هل جاء نديم البارحة ليلاً إلى القصر للاشراف على التنفيذ ؟ ) . . . .

\*\*\*

رغيد يتنهد بارتياح ويخرج من جيبه سبحة الشيخ صخر ويقول متتصراً : صادرتها . . أمحتها . . .

نديم لا يدهش للسرقة . يعرف هوايته هذه ، وقد شاهد مجموعته الفاخرة منها . . وكلها مسروق . . بل انه يمارس ذلك بنفسه حين يغيب رغيد عن المسرح . . . في حضور رغيد لا يدخل السيجار ولا يسرق ( المسابح ) ولا يغازل النساء ، وانما تتعطل حياته ، ويتكرس وجوده لأداء اية خدمة له . . . سيطرته عليه مطلقة . . مع رغيد لا هم له غير ارضائه . . . لا زوجة له ، لا موقف اخلاقياً من الاشياء . . . .

يراه احياناً رجلاً من ذهب ، وهو يزحف خلفه ليللمم التبر المتناثر . . . ويثري . . . ( حتى يوم الملمت بعض الذهب المتناثر فاختلست ذلك المبلغ الكبير ، خفت وكنت حقاً أنوي إعادة المبلغ . . . لكن رغيد الذي لا تفوته شاردة مادية ولا واردة ، وضع يده على السجلات في الوقت المناسب . . . وقدم لي المبلغ « هدية » ، واحتفظ بالاوراق المزورة « تذكارات صداقة ، ذهبية » كما اسمها . . . حذرتني دنيا يومئذ :  
« اعد له النقود وخذ الوثائق . . ألا ترى انه يستطيع ان يزج بك في السجن متى

شاء ؟) ...

رغيد يسأل ، ودماغ نديم يعود صفحة خاوية كسبورة ممسوحة جاهزة لاستقبال سطور  
اوامر جديدة : هل تظن اننا نستطيع تأمين مرافق لابن الشيخ صخر ...

- بالتأكيد يا باشا

- شخص نثق به نحن ، لا هم ...

- حاضر ... يا باشا

- شخص لا يفهم الكثير عن الصفقات المالية ...

- بالطبع ... يا باشا

- لا أريده ان يتحول الى طرف ويعقد الامور ..

- صواب ... يا باشا

- أريده من النمط الذي يمكن ان يطرد بعد شهر مثلاً ...

- موجود ... يا باشا

- وان يتجسس لصالحنا .. أعني يثرثر دون ان يلحظ أحد أو هو نفسه انه جاسوسنا ..

- مدهش ... يا باشا

- اريد ان اعرف ما يدور بين صخر وتوأمه هلال .. وبين صخر والاسرة في وطنه ...

- سنعرف .. يا باشا

- لم اعد واثقاً من قدرته على تأمين الصفقات ..

- آه ..

- لم يعد قومه يحترمونه .. انه مبذر ومهذار ومكشوف الفضائح اكثر مما ينبغي لرجل من

اسرته ...

- بالفعل ...

- وهم ليسوا حمقى كما يحلو لبعض الناس التوهم . كانوا أقل خبثاً واكثر شهامة من  
بعض العرب .. هذا كل ما في الامر .. وقد تنبه معظمهم للفضائح التي يثيرها البعض في  
الغرب .. وفي الوطن ... والأموال المهدورة ... وصارت مهمتنا اكثر صعوبة ...

... أكثر صعوبة

- وصار علينا ان نفكر باسترضاء هلال ... الأخ الصالح .. وذلك اكثر صعوبة ..

هلال رجل يستحيل شراؤه وليس كشقيقه التوأم صخر ... صخر ايضاً ليس للبيع ، لكن

المرء يستطيع النفاذ الى أعماقه عبر نقاط ضعفه الكثيرة المنتشرة كالثقوب في شخصه . . أما هلال ، فلا . . انه اكثر صعوبة .

- اكثر صعوبة يا باشا . . .

- وعلينا التفكير بوسيلة لتلميع صورتي امامه . . . كأن اقوم بعمل انساني ما نحيطه بهالة دعائية . . . كأن انقذ امرأة جميلة من الموت بكل فروسية وشهامة . .

- سنجدها وننقذها . . .

- وعلينا تلميع صورتي على الصعيد العام . . العملي . . . كأن نبني جامعاً نقدمه هدية لهم . . جامع صغير في المطار . . للمرة الاولى مطار له جامع ، يؤمه المصلون ، لا سوقاً حرة فقط ، ومطعماً وبنكاً وغير ذلك من شؤون الدنيا الفانية . . . سجل الفكرتين عندك .

- سجلت

- كي تظل الاعمال تتدفق يجب ان يحبني الناس . انتهى عصر الرجال الفاسدين امثال صخر . سيكون علينا من الآن فصاعداً ان نتعامل وامثال هلال . . وذلك يتطلب صورة جديدة لشخصيتي . . . صورة الرجل المحسن الشهم المحبوب . . .

- انهم يحبونك بالطبع . . وسنزيد في حبهم لك ان شاء الله . .

- اصمت ولا تملقني !

- حاضر يا باشا . .

- لكل انسان نقاط ضعفه باستثنائي طبعاً . .

- طبعاً . .

- وعلينا ان نكتشفها في هلال . .

- ضروري . .

- من تقترح كجاسوس . . أعني كمرافق لابن صخر . .

.....

- أريد شخصاً مناسباً الآن . . .

- حاضر . . انه موجود يا باشا

- اسمه ؟

- خليل . . خليل الدرع - ان لم تخني الذاكرة - لبناني عمره بين الثلاثين والخامسة والثلاثين ، صاحب مكتبة . قروي الأصل . جامعي وطني وليس حزبياً كما سمعت من

أبوي ، لكنه كثير المتاعب والمشاكل مع صحبه . فقير ومتكبر ، لكنه صار مؤخراً يتمسح بالاغنياء فيما يبدو ، ويركب مقصورة الدرجة الاولى بالطائرة وثيابه المهلهلة وأظافره الوسخة غير المقلمة وساعة يده العتيقة الرخيصة تشي به . . من الواضح انه يحاول التمسح بالاغنياء بحثاً عن فرصة ، في البداية ، شاهدت هندام زوجته وظننتهما أثرياً في الحرب . . . . . وحين جاءت المضيضة بالطعام ، ولم يعرف كيف يستخرج صينية الطعام المخفية داخل ذراع المقعد أدركت انه يركب مقاعد الدرجة الأولى للمرة الأولى . . . زوجته اكثر حذقاً اذ قالت للمضيضة بصوت عال متعجرف سمعته بوضوح : « ارجوان تسحبي الصينية ، لأنني اخشى كسر أظافري » . . حسن تخلص . بنت أصل . لولم أذكرها لخشيت الرجل ، ولظننته مدسوساً لاختطاف الطائرة او شيء من هذا القبيل . . . كان والدها تاجراً ثرياً ، البيتموني . .

- سليم البيتموني ؟

- نعم . . المرحوم سليم البيتموني . .

- هل مات المسكين ؟

- اجل . . جاءت الحرب والتهمت ثروته فمات قهراً . . .

- المسكين . . أعرفه . . ونصحته منذ زمن بعيد بتهريب أمواله ومغادرة بيروت . . منذ جاء عبد الناصر الى الحكم قلت لأصحابي كلهم : هذا رجل جاد . . ستكون له اخطاء كثيرة ، لكنه نزيه الكف وقد يستعصي على الشراء . . إنه الزلزال . . سينتقل من مصر إلينا ، ومن قطر الى آخر وسيلتهم أموالنا . . . . . انها قضية زمن لا اكثر . . والذي رحمه الله حدس ذلك ، منذ شاهد صورته وسمع خطبه يوم تأميم القنال . . . لقد مرض . . . لم يعد يعرف كيف يعمل . . كان يكفي ان يسمع باسمه حتى يرتفع ضغطه وتسوء حساباته ويخسر الصفقات . . استلمت اعماله وهي على شفير الهاوية . . . هربت بما تبقى لنا من أموال . . وتعرف بقية الحكاية . . .

- سأفتش عن خليل الدرع . . او اي بديل مشابه . .

- لا . . أريد صهر البيتموني بالذات . . . ابنته تستحق شرف حضور سهراتنا . . .

واهتمامنا . . . ورعايتنا . مسكين والدها فقد كان شريفاً ، يخاف ايذاء غلمة . . . فانهى به الأمر مفلساً بالطبع . . . اتصل بهما الآن . . .

- لا أعرف عنوانها . . التقيتها البارحة في الطائرة .



- إعرفه .. اكتشفه ..  
 - حاضر .  
 - هذا كل شيء الآن .. بالمناسبة ، هل احضرت لي أفلام ( فيديو ) جديدة ؟ ...  
 - نعم يا سيدي ... صورناها في الاستوديو الخاص ، بمعاونة المصور الجديد ...  
 شاهدت جزءاً قبل حضوري ستدخل السرور على قلبك ...  
 - قد نحول خليل الدرع الى قسم الفيديو بعد انتهاء مهمته مع ابن صخر الغنمالي ..  
 ومن يدري ، فقد يصلح لمستقبل باهر ما ... مثلك ..  
 يتمتع نديم حين يشبهه رغيد بذلك ( الصعلوك ) ويسأل : هل تأمرني بشيء آخر ؟  
 - لا .. تستطيع الانصراف ..  
 وحين بلغ نديم الباب الخارجي ، قرع جرس « الانتفون » وصدرت الاوامر اليه  
 بالعودة الى حضرة رغيد ، فأطفأ سيجاره الذي كان قد أشعله وهو في دربه الى الباب الخارجي  
 وعاد بأذنين متدليتين كأي كلب مطيع ..  
 - نسيت ان أسألك أما زلت قلقاً على والديك ؟  
 ( اللعنة ... لماذا يدير اصبعه في جرحي الذي أحاول نسيانه ؟ ) ...  
 تابع رغيد بلهجة شبة ساخرة : لن يصيبهم الا ما كتب الله لهم ! .. فاطمئن ..  
 غادر نديم القصر وفي فمه مرارة شبيهة بطعم الذل سرعان ما ذابت في طعم سيجاره  
 الفخم .

\*\*\*

« ... قدوس قدوس إلهاً جبار أجلياً جليلاً أشمخ طلماً خطاً محطاً يابطميناخ ...  
 ... شملاه همطمهيل يا موخ مدوخ قيمطارخ أرخ أرخ بياخذاء أشمخ حامونين  
 يشتهون النهاريش مطوش يوطوش طوش اللهم اني أسألك بحق هذه الاسماء العظيمة التي  
 تكلم بها الملك عسيائيل الموكل بالنور ...  
 ... وألقينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة كلما اوقدوا ناراً للحرب أشعلها  
 ابليس وجنوده توكل يا ابليس والقي بين صخر ابراهيم الغنمالي وهلال ابراهيم الغنمالي  
 العداوة والبغضاء وفرق بينهما بحق شفشي شفياً دملاخ قال يا ليت بيني وبينك بعد  
 المشرقين ألوحا العجل الساعة راب وغنم والهزيل ومصدع وشبيط وعمير وسالف وقدار  
 وسمعان رأس الماكرين بأسرهم وما هي إلا فرقة ودمار ... » .

\*\*\*

حين غادر رغيد جناح ساحره توجه الى القاعة الخاصة بالفيديو والتلفزيون تصدرها شاشة كبيرة لعرض الافلام السينمائية أيضاً . تبعه نسيم متلصصاً . . . لم يجروا من قبل على اقتراف ذلك ، لكن موت سري الدين المفاجيء شحنة بجنون ملتهب من غط لم تألفه نفسه المسألة . ماذا يصورون لهذا الوغد الرغيد ؟ أفلاماً جنسية خاصة به تقدمها زوجات مساعديه ، وليس بينهن امرأة لم تمر يوماً بغرفة نومه ؟ أم الصغيرات اللواتي يمتعه شراء حق المرور في غاباتهن البكر قبل اي عابر آخر ؟ . . . أم تراهم يصورون له عمليات القتل التي يأمر بتنفيذها ، ليلتذذ بمشاهدة وجه الضحية وهي تتجرع غصات الذعر والموت ؟ . . . هل سنرى الآن وجه سري الدين وعجلات السيارة تصدمه في موضع الكلية التي اعطاها لرغيد ، فوق قطب الجرح نصف المندمل ، يطير عن الارض ويهوي ممزقاً مثل دمية انتهت دورها في مسرح الدمى ، فقطع صاحب المسرح خيوطها ورمى بها إلى الليل والنسيان ؟ . . . هل سنرى وجهه يتهشم ؟ . . .

رغيد مستقر في مقعده الملكي وشريط الفيديو يدور والصور تتلاحق على الشاشة ، والأصوات . . . ورغيد يقهقه احياناً بصوت مرتفع . . . مرزمن طويل ، ورغيد يبذل ( الكاسيتات ) بين آن وآخر ونسيم يلهث على الارض مختبئاً خلف المقعد الاخير في الصالة ، والدهشة تسري رعدة في جسده حتى ليكاد يشهق . . .

يخيل الى رغيد انه سمع شيئاً . . يلتفت بعد ان يكون نسيم قد غادر القاعة لا يلوي على شيء . . . يهرول الى المطبخ . . الطباخ الالماني منكب على اعداد صلصة ما كما لو كانت وصفة طبية . . . يركض اليه نسيم شبه باك ويقول له : « اعرف انك لن تفهم حرفاً مما اقول ، لكنني سأجن اذا لم أقل شيئاً لانسان . . . ارجوك . . انصت ولو لم تفهم . . ما الفرق ؟ » . . يتوقف الطاه عن العمل ويتأمل نسيم . نظرتة محايده ووجهه متحجر القسمات . . .

يتابع نسيم والدموع تتدفق من عينيه : « هل تستطيع ان تصدق ما يشاهده هذا الرجل ؟ انه يشاهد رجالاً آخرين ييكون قهراً وفقراً ويروون خيالاتهم . . . يأتون ( بالمقطوعين ) في اوروبا ، الخائين في اوطانهم من السذج والثوار المطرودين والمناضلين الصغار المقهورين والهاربين المنفيين والكادحين المخدوعين الباحثين عبثاً عن الثروة فاللقمة . . . الفقراء العرب . . الطلاب الرافضين لانظمتهم القامعة . . . يأتون بهم ، وكل يروي قصة عذابه مقابل مبلغ مغر من المال . . . ومن يرفض يتم استدراجه للكلام

وتصويره وتسجيل الشريط دون ان يدري . . يصطادونه في لحظة ضعف انثوية او ( خرية ) او ( رفاقية ) ويتم التصوير الرديء احياناً . . لكنه يتم . . . انها هواية هذا المجنون . . . يريد ان يشمت بالثوار والمناضلين وبالانظمة التقدمية العربية وغير التقدمية . . وبعضها يمنحه للاسف مادة دسمة لافلامه . . . يريد ان يشمت بالاخوة الاعداء . . بالثوار المتخاصمين الذين يقتل بعضهم بعضاً دون ان يلتفتوا للعدو القادم بالزلازل . . ويستمتع بمشاهدة مبادئ الذين يتشدقون بالمبادئ السامية ، ويبيعون شعورهم في حمامات الدم ليسبحوا هم سرّاً في حمامات الذهب . يريد ان يثبت ان كل ما حدث على الارض العربية منذ ايام عبد الناصر كان خاطئاً لمجرد انه ضايق والده وصحبه التجار الكبار . . وضيق على الاقطاع . . . لقد اخبرني أمير بذلك كله من قبل وظننته يبالغ . . انه بالتأكيد على حق . هذا رجل لا يعرف غير متعة الشماتة . . الشماتة بعرب اوربا الاثرياء كلما سنحت الفرصة . . والشماتة بعرب اوربا الفقراء والشماتة بالمغتربين وبأهل الوطن وبالعرب في كل مكان . . . يلتقطونهم له من الشوارع . . والحانات . . والمعامل . . والارصفة . . والكليات وابواب السجون والمستشفيات وما اكثرهم . . هل تصدق انه كان يرقب للتو سري الدين وهو يفصل نديم على ثمن كليته ؟ آه سأقتله . أقسم لك انني سأفعل . . هل تصدق انه يحتفظ بتمثال شبيه بعبد الناصر في غرفة السباحة المذهبة ، وانه يخاطبه ويشتمه ويروي له يوماً بيوم أخبار مآسي بعض العرب ولا مبالاة بعضهم الآخر ، ويقرعه صارخاً مؤنباً شامتاً ؟

« لو وضعت يدك في يدنا لحكمنا العالم ، لكنك اخترت الحمقى الفقراء والجماهير ، فقتلوك حزناً وخيبة » . . . هكذا سمعته مرة يصرخ وصوته يثقب الزجاج المرشوش بـ ( السبراي ) الذهبي . . . ومرة انه لانه لم يتقن القمع ، ولم يعرف كيف يستخدم النظام البوليسي كما نجح في ذلك بعض ورثته . . . رغيد يريد قتل كل فقير . . . وسرقة اعضاء كل شاب . . . يمتص دماءنا . . . سيطلب منك ذات يوم ان تطبخ له كبدي . . قد ينصحك بذلك ساحره المجنون . . من يدري » . . .

ينهار نسيم على المقعد ويدفن وجهه بين يديه ويكي . . يد الطاهي الالماني على كتفه . . . كهارب حنان تسري منها الى الجسد المرتجف . . . يحس نسيم بدفء التواصل الانساني . . . ثمة شريان غامض يمتد احياناً بين الدورة الدموية لانسان وآخر . . . شيء يتجاوز اللغة وربما عرفه الانسان قبل ان يعرفها . . شيء لا يمكن تزويره . . شيء لا اسم له

يحسه قادماً من حضور رفيقه عبر يده الممسكة بكتفه . يرفع نسيم وجهه نحوه ، والدموع تلتفح ملامحه . . . ويتناول الطاهي خرقه المطبخ القذرة ، ويمسح بها وجهه نسيم ببطء وعناية ، ثم يعود الى طنجرته .

\*\*\*

في الليل ، نهض نسيم من كابوسه محموراً والدموع تغطي وجهه . . لقد جاءه سري الدين والدم يسيل من عينيه ترافقه أمه . قال له شيئاً لم يفهمه ، وحين ءلفحه فوجيء بأن اصابع يده سلاميات هيكل عظمي . . لم يكن قد استيقظ جيداً حين انفجر جنون مسعور في رأسه : سأخونك رغيد بهاتين اليدين . . استطيع . . لا استطيع . . سأسأله عن الحقيقة على الاقل . . . سأهدده بالقتل اذا فشلت في قتله . . يجب ان افعل شيئاً . . اي شيء . .

يصعد السلم وهو لا يدري بالضبط ما الذي ينوي ان يفعله . . يصل الى غرفة رغيد ، لا ضوء . يدير مقبض الباب ببطء وهو يعرف سلفاً انه مقفل . سيستيقظ رغيد وينهض ليستطلع الأمر ، ولكل حادث حديث ، يتابع ادارة مقبض الباب . يفتح بيسر ! يدهش ثم يغمره دعر مفاجيء . انه ليس مقفلاً . يمضي بهدوء شبح نحو الفراش وقلبه طبل مسعور يقرع في غابة . يجد السرير فارغاً . يتلفت حوله كمن يتجول داخل كابوس . لا يرى رغيد في الغرفة . لم يكن ممكناً ان ينام فيها دون ان يوصد اقفاها الثلاثة . يغادرها خائفاً . ترى هل ينام في مكان آخر مجهول غير فراشه خوفاً من محاولة اغتياله ؟ هل ينام كمصاصي الدماء في سرداب ما داخل قلعة الاسرار هذه ؟ أم انه يزور ساحره ؟

يسمع صوت انتحاب بشري . من يبكي ؟ اللوحات ؟ الساحر ؟ يتبع الصوت حافي القدمين . يتجاوز غرفة وطفان عبر ممر البخور والتمتمات والتعاويد ، والنواح المنتحب قادم من مكان آخر . . . من الاعلى . . . يلاحقه . . .

يجد نفسه أمام الغرفة المذهبة ، المحرم على احد دخولها ، التي تعتلي القصر وتحتل طابقه الاخير .

رغيد كان قد اعلن عن رغبته بأن يدفن فيها . . وكرس ثروته وقفاً لكل زائر لها ، شرط دخوله حافي القدمين صامتاً بمحي الرأس وفي وضعية الاحترام كما تزار قبور العطاء والامكنة

المقدسة جميعاً ! . . . كان يظنه مازحاً حين اعلن اهداء ميدالية ذهبية تصك عليها صورته ، تمنح تذكراً لكل زائر . . . وبذلك لا يرث ثروته الطائلة الا ضيوف القبر ! . . .  
الباب ليس مغلقاً جيداً ، وشعاع من الضوء يتسرب عبره . يقترب مرتجفاً ويحدق .  
وسط القاعة الشاسعة يشاهد رغيد راکعاً امام التابوت الذي أعده لنفسه متصدراً المكان ،  
ومصاييح خاصة ( سبوت لايتس ) تشعل ذهب التابوت ، وثمة عتمة نسبية مسدلة فوق  
الممر البضاوي الرخامي الطويل والضيق ، الذي يفترض ان يمشي الزوار عليه تباعاً فيما بعد  
حين يزورونه ! . . . لقد سمعه مرة يتناقش ومحاميه وطبيبه عن كيفية دفنه ، ممدداً في  
التابوت ، او اقفاً فيما يشبه الخزانة الذهبية الشفافة الباب . . . يذكر ان طبيبه قال شيئاً عن  
صعوبة الاحتفاظ بالجثة واقفة عمودياً ، وفضائل تمديدتها . . . وأصر رغيد على ان يظل واقفاً  
ليرمق الناس من عل ، محاميه اقنعه بأنه لن يرمق احداً يومئذ ، وهم سيرمقونه ، وبالتالي  
الوضعة الافقية أفضل ، لكي يضطر الناس الى احناء رؤوسهم حين يلقون على قبره نظرة  
التعظيم . . .

وها هو رغيد ينتحب امام قبره بصوت عال كطفل مذعور . . . والتابوت فارغ . . . وهو  
يرتقيه تارة ويتمرن على التمدد داخله ، ثم يغادره ليتابع انتحابه .  
تتحجر يدا نسيم .

لم يكن بمقدوره قتل رجل وهويكي ، او يصلي ، او يأكل ، مهما كان وغداً .  
ينفض رغيد ويمشي فوق ممر الزوار متأملاً التابوت عن بعد ، ممثلاً في ( بروفة ) موته دور  
البطل والمتفرج معاً ، مختنقاً بدموعه المدارة . .  
نسيم يعود الى غرفته مصعوقاً ، متخسباً كجثة ، في فمه طعم الجنون ، وقد استيقظ  
تماماً من نومه ، ليرجع الى فراشه .  
يتساءل بذهول وهو يلف الاغطية حوله كرحم : هل انا قادر حقاً على القتل ؟ هل كنت  
قادراً على قتل رغيد ؟

\*\*\*

. . . برهتية برهتية كيرير ترقب ترقب برهش برهش غلمش غلمش خطوط  
قلنهود قلنهود برشان برشان كظهير كظهير غوشلخ غوشلخ برهيولا برهيولا بشكليخ بشكليخ  
قزمز قزمز انغلليط انغلليط قبرات قبرات غياها غياها كيدولا كيدولا شمخاير شمخاير

شمخاير شمخاير شمهاير شمهاير بكهطهونية بكهطهونية . . . . .

\*\*\*

يتقلب نسيم في فراشه نصف محموم . . . يحاول ان يستعيد هدوءه وتماسكه . . وعقله . . العقل هو ما يؤمن به . يجب ان اغادر هذا المكان قبل ان اقتله . . يجب ان استرجع ذاتي . . . اتذكر قراري القديم . . ان اقف واخوتي خارج جيل ينتحر بجداره او يتخدر بجداره او يقتل وأخاه بمأساوية شكسبيرية . . . او يضحي وتهدر تضحياته وتكوم الجثث في دهاليز المستشفيات جنباً إلى جنب . . جثث الابطال والخونة . . جثث القاتل والمقاتل والسارق والمسروق . .

( ذهبت الى المستشفى للتعرف على جثة صديق بعد معركة طاحنة في شوارع بيروت . . . كانوا قد كوموهم جميعاً بعضهم فوق بعض في عمر المستشفى ، بعدما امتلأ براد الجثث وأسرة الجرحى ولم تعد المستشفيات تستوعب نهر الاموات المتدفق من الشوارع . . . بحثت عن صديقي طويلاً ، فقد كانوا مكومين هكذا ، القاتل الى جانب القتيل أو فوقه أو تحته . . بدوا لي جميعاً ، اولئك الاخوة الاعداء في حالة عناق . . . كانوا في الموت متعانقين ، متشابهن ، وعلاقة جدلية تربط موت احدهما بالآخر وتقود اليه . . . ثمة خلل ما لا اعرف تسميته جعلهما يتعانقان امواتاً بدلاً من التفاهم احياء . . . وحين شاهدت صورهم في الصحف في اليوم التالي ، سقطت ثانية تحت وطأة الاحساس العبيث ذاته . . . )

يجب ان اظل واقفاً خارج دائرة العنف ، في ورطة الوطن وفي ورطة المنفى . . . خارج جيل لم يعد ينفع شيء في اصلاحه ، ولا اريد ان تنتقل إلى عدوى أمراضه وسيزيفيته وساديته وماسوشيته واتقانه لعنف الهدر والتخدير ، وخارج زمن يكاد يحولني الى قاتل قبل ان ابلغ السادسة والعشرين من عمري . . ولكن ، هل بوسعي ذلك ؟ هل يمكن رسم خندق بين جيل وآخر ، وعام وآخر ، وزمن وآخر ؟ . . .

المهم ان اغادر هذا القصر الملعون قبل ان اقتله . . ليتني أستطيع . . ليتني لا أستطيع .

● ● ●

( لماذا لا اعترف ببساطة انني ما زلت احبه ؟ الاحزان كلها التي سببها لي ، الحيات والمصائب ، وما زال دمي يشتعل لذكرى تلك الايام المتوهجة . . ما زلت اسيرة جسده القروي الخشن الذي يتقن التجوال في المغاور . . . يتحسس الجدران الرطبة والصخور في ظلمة النسوة ، ويتقن ملاحقة الانهار الباطنية حتى ينابيعها . . وبضربة واحدة تنشق الصخور وتتفجر المياه الحارة القادمة من جذور الكوكب وترتجف المغاور بالزلازل الملون . . . وتنهمر الألعاب النارية الكاوية ) . . .

غادرت كفى مدرسة ( كوليدج دي ليفار ) في ضاحية ( فرسوا ) وقد خلفت اولادها في عهدة مدير القسم الداخلي الذي تمته سويسرياً ، فوجدته غريباً مثلها : ايطالياً . . . وقعت الاوراق . دفعت الرسوم . طلبوا منها وثائق اضافية ، شهادة صحية وشيء من هذا القبيل ووعدت بتأمينها . . صدمت قليلاً بمناخ المدرسة . كانت تتوهم المدارس الداخلية السويسرية حلم العلم والانضباط ، وفوجئت ببعض مظاهر الفوضى ، ومراعاة الاهل الاثرياء . سارعت الى التاكسي متلهفة للوصول الى الفندق ، حيث خلفت خليل نائماً كوسادة . الصخب كله الذي اثاره رامي وفادي لم يوقظه ، ولا دخول الجرسون حاملاً طعام الافطار ، ولا اخراج الحقائق الى التاكسي . لم توقظه ليودع الولدين . سيرهما في عطلة نهاية الاسبوع . انه لم ينم منذ اسبوع على الاقل ، ولن يصحوق قبل ذلك فيما يبدو . . . على النقيض منه ، استيقظت هي باكراً متوردة ، متأججة حيوية ، متأهبة لملاقاة حلمها الكبير : مغادرة بيروت العنف والعيش وما تبقى من اسرتها في مكان آمن مرفه .

التاكسي يقطع طريقاً خارقة الجمال في درب العودة من « فرسوا » الى جنيف ، وكفى تتأمل البحيرة مبهورة بجمالها وتمنى لو كان خليل الى جانبها يستمتعان معاً . . كم تفتقده . مضحك ان تفتقد امرأة زوجها ولكن هذا ما تصنعه بيروت بها وبسواها ، بين سجن وآخر ، وخطف وآخر ، وشجار وآخر . لقد انقضت اعوام منذ « المرة الاخيرة » ، ولم تعد تطبيق صبراً . . بل انها صارحته بذلك قبل اعتقاله الاخير .

( اشتعلت بذلك الاحساس الكاوي الارعن الذي لا شفاء له في نظري عبر الفلسفة او العلم او التصعيد الى اهداف اخرى سامية او سائر المعارف العلوية التي نصحني بها خليل ليعدني بها ! . . هاجمته مفترسة . . كنت ارتجف ، ولم اعد ارى بوضوح ، تنحت هذه الحاسة وافسحت مكانها لسواها . استسلمت لذلك الجموح بلا رادع ، ولم الرادع ؟ أليس زوجي مثلاً ؟ . . )

... صرخ بي مداعباً : كفى يا كفى ...

انشبت اظفاري في كتفيه وحاولت الالتحام بذلك القروي الخارق .. وفاحت رائحة حريق السنديان ممزوجة بالصعتر البري ، وعطر ازهار الليمون ، والتبغ ، والبهارات ، والورود الاستوائية بدأت تزفر أنفاسها الحارة ، وقد تفتحت تويجياتها مرتجفة في ظلمة ليل يتعرق تنهدات ... تابع تهربه المازح : «ماذا تفعلين؟ هل تحاولين اغتصابي؟» ... كنت قد تجاوزت ارض الكلام ، ودخلت فوهة البركان ، اسبح في موجات الحمم النارية وانهار « اللافا » ، فعجزت عن الاجابة وتابعت ابحاري نحو قاع البركان حيث تغلي الحمم وتقذف العناصر الجامحة في كل اتجاه ...

رمى بي زوجي الى الارض كعذراء تدافع عن شرفها ، وصرخ غاضباً : انت لا تحبينني ...

وهبت الرياح الباردة من فمه ، وتدفقت عاصفة صقيع خرافية من عبارته .. وهطل فوقي مطر مثلج وزمهرير وصفعت وجهي حبات البرد المتحجرة وانا ابكي في غابة تجلدت اغصانها واحرق الصقيع خضرتها « اجل .. انت لا تحبينني » ...

- انت احمق ... ماذا تسمي تدفقي اليك ؟

- انت تعشقينني ولا تحبينني ..

- عدنا الى « الكلامولوجيا » لنخفي عجزنا عن العمل .. انك في الحب كما في السياسة .. هل كنت تريد محاضرة حول ممارسة الحب ؟ ..

- انت قلتها : في الحب كما في السياسة ... ولكن هذا القول هو ضدك ... ويشهد لي ...

- ماذا تعني ؟

- اعني ان الرقة في الحب مرادفة للديمقراطية في السياسة .. وانا محروم من كليهما ...

- ربما كنت محروماً من الديمقراطية، ولكنك لست محروماً من الرقة في الحب وغير الرقة .. انت ترفضني ...

- انا ارفض عشقك ، واشتهي حبك ..

- عدنا الى التنظير الشفهي هرباً من الممارسة ... كيف اعشقتك ولا احبك ؟

- الحب هو ان تفهمي جرحي ، تتحسسيه بحنان .. الحب هو ان تكوني صديقتي



- ايضاً . . . العشق هو ان تحاولي امتلاكى حياً او ميتاً . . . سعيداً أو تعيساً . . .
- لا افهم . . .
- نحن حليفان ولسنا صديقين . . . حلفنا وليد مصالح مشتركة : الاولاد .
- الاسرة . . . صداقتنا لم تولد بعد . . .
- لا افهم . . .
- لم تحبيني في اي يوم . . . لقد عشقتني عشقاً جارفاً . . . رغبت في امتلاكى .
- لا افهم . . .
- لقد تحدثت اسرتك الثرية واصهرتك ووالدك ومجمع التجار البيروتي بأكمله لاجل انمام صفقتك التجارية الخاصة : امتلاكى . . . لم تخرجي عنهم ، بل تابعت تقاليدهم المهنية حين لم تأبهي لمصالح احد أو رأي أحد في إبرامك لشراكة تستهينها . . .
- انت مجنون . . .
- انا احبك . . . اي انني اكلف نفسي عناء فهمك ، وآبه لما تفعلينه بنفسك ولو من اجلي . . انا اشعر بالحنان نحوك لان والدك اسماك « كفى » ، فقد كنت البنت السابعة لتاجر يشتهد صبيّاً واحداً في الاسرة غير اصهرته . . . منذ صغرك كبرت نصف مرفوضة .
- كان على والدتك ان تنجب صبيّاً ، وكنت فرصتها الاخيرة . . وفوت عليها الفرصة ، فلم تبالح في حنانها نحوك او كرمها . . كنت دوماً الفتاة التي جاءت بالنيابة عن شقيقها . . وهو ما لا يغفره مجتمعتك بالذات . . . القرويون الفقراء امثالنا يفضون لولادة البنت كأهلك ، ثم يقولون : تأتي ويأتي رزقها معها . . ثم يحبونها كالصبي . . . الثري يظل يشعر بالغصة كلما شاهد تجارته تزدهر وامبراطوريته تنمو بلا وريث . . نحن لا نشعر بهذه الغصة الكاوية طويلاً ، اذ ليس لدينا ما نورثه لأولادنا غير الفقر والشقاء . . . اجل . . شعرت بالحنان نحوك . . احسست انني ساحة معركة . . تريدان ان تحديهم . : تثبتي انك صلبة كصبي . . انك لم تخرجي عن طاعتهم حقاً حين تزوجتني ، بل اثبت لهم انك قادرة على العصيان كصبي . . قوية كصبي . . اني ارى فيك وجه والدك اليتيموني الكبير . . .
- وأنا ارى فيك الغباء وقلة الوفاء . . .
- وانت خاسرة من النوع الرديء . . . لا تعرفين كيف تواجهين الخسارة . . وجهك هذه الايام شبيه بوجه والدك والنيران تلتهم دكاكينه وعقاراته واحداً تلو الآخر . . .
- انت حقير . . لقد ضحيت بأسرتي لاجل الزواج منك . .

- هذا غير صحيح . . . لقد غمروك بالهدايا والمجوهرات بعد الزواج . . .  
عوضوك عن ثمن الشقة التي كان يفترض تقديمها اليك كهدية عرس أسوة بأخواتك  
الست . . . ولم يقطعك احد منهم . . قاطعوا صلتك بي ، فكانوا يزورونك حين اغيب  
عن البيت . .  
- انت حقير . . . بدلاً من شكرهم لرعايتي وانت تتشرد بين سجن وآخر عاطلاً عن  
العمل مهملاً لاسرتك حارماً اطفالك من المال والامان . . . تتمرد وتشكو ؟  
- تدعين حبي ، وتلعين دور الزوجة المظلومة المحرومة . . . هل سألتني مرة واحدة  
بماذا احس نحو ما يدور في وطني ؟ بماذا افكر حين ارى القمع ؟ اي ذعر يجتاحني وانا ارى  
العدو يلتهمني والصديق يهملني والحليف يضربني ؟  
- انت تعرف انني لا احب السياسة . . .  
- هذه ليست ( سياسة ) . هذه حياتنا نحن . . هذه الامور تقرر هل سينسف بيتنا ام  
لا ؟ هل ستجدين ثياباً لاطفالك ام لا ؟ . . هل سيبقى لنا وطن ؟ وهل ؟ ام اننا سنصير من  
سكان الارض المحتلة ؟ . . انت تفكرين بالسفر لا بالوطن . . الهرب يشغل بالك ،  
ومستقبل اطفالي يشغل بالي . . . في ظل اي عَلم سيتفتح شبابهم ؟ هل يكتب القتال عليهم  
كما كتب علينا الاقتال الذاتي للعين ؟ . .  
- انت تعرف انني لا احب العنف . . . وامقتة في اشكاله كلها . . لكن ذلك لا يعني  
انني لا احبك . لو لم احبك لتخليت عنك منذ زمن بعيد دونما لوم اجتماعي . . .  
- ستتخلين عني يوم تشفين من لعنة جسدي ، ويوم تقنعين بأني لن أكون مطية لتحقيق  
احلامك . . . انا اداة في حياتك ، وانت لا تحبينني لذاتي وانما لما يمكن ان تفعله بي . . .  
تريدني حصاناً يمضي بك الى ارض اللذات والثراء . . . لا تفكرين لحظة واحدة  
بالتساؤل : هذا الرجل ، ما الذي يعذبه ؟ من هو حقاً ؟  
- وانت هل فكرت مرة بما يعذبني ؟  
- تعذبك شهية الرحيل الى الحلم ، وتعذبني شهية البقاء في الوطن بأي ثمن . . .  
- ما امهرك في حقل التنظير . . . ان انبهارك بمهارتك اللفظية في رسم الحقائق كما  
تشتهي يجعلك تقفز من فوق جثة ابتنا . . وداد . . وانا اتحاشى ذكرها رأفة بك  
وبنفس . . . نعم . . اريد ان ارحل لأحي ما تبقى من اولادنا من الموت . . . أهذا وطن  
الذي تدعون انكم تعيدون خلقه ايها الرجال المتوحشون ؟ ابتك قتلت إثر شجار بين

رفاقك من اجل « كيفية » تحرير فلسطين .. فلبنان .. كانت لكل منهم نظرية مختلفة ...  
وداد الطفلة ابنة الخمسة اعوام دفعت الثمن ... قتلت لا من اجل تحرير فلسطين ولبنان  
بل من اجل خلاف على كيفية تحريرها .

- ان شمتك بالشوار اعظم حتى من حزنك على ابتك .. انك حقاً ابنة طبقك ...  
- ها انت تسحب من جديد الى قلعة الكلمات والتنظيرات . انتم مجموعة من  
المزورين الهاربين .. تهربون من مواجهة جسد المرأة التي تحبون ، وتهربون من مواجهة  
العدو الذي تكرهون ... وتهربون من الصدق الى البلاغة ... تذكر يا خليل .. طفلتنا  
قتلت لانكم لا تعرفون الحوار الا في معرض الهرب من الحقائق ... وتزويرها ...

- لا تحاربيني بسلاحي .. وتمعني غرس اظافرك في جرحي . تعرفين حرقة قلبي  
لمصرع وداد ... وتعرفين حرقة قلبي من اجل الحرية والديمقراطية شرط ممارستها في ظل  
الحوار .. وبالاحرى لاستحالة ممارستها في غير ظل الحوار ... تعرفين ان السبب  
الاساسي لمناعبنا كلها هي قولي « لكلمة الصدق » كلما خيل الي انني وجدتها ..

- عدنا الى المحاضرة ... كنت اذكرك بمصرع وداد لاقول لك انني لا اريد لرامي  
وفادي ان يقتلا خصوصاً واننا على الارجح لن ننجب بعدهما ونحن على هذه الحال ...  
- في البداية تبيين جرحي .. والان رجولتي .. حسناً .. انت مسؤولة عن مصرع  
وداد .. انت التي تركتها تلعب في الشارع وذهبت الى الحلاق ...

« ما اسخفك ؟ هل تعني ان كل امرأة تذهب الى الحلاق يجب ان تساق الى المحكمة  
بتهمة الشروع في قتل اولادها ؟ ..

- من يسمعك يظنك خريجة نقابة المحامين لا كلية البنات الخاصة بتعليم بنات الاغنياء  
فنون التدبير المنزلي واللغات والبيانو ...

- كوني بنت رجل غني لا يلغي حقني في الدفاع عن النفس ... لم يعد في مقدور أم  
تقطن بيروت ان تسجن اولادها داخل البيت اكثر مما فعلت ، كي تخلي الشوارع للعب  
الكبار .. لعبهم يطول سنوات لكنهم لا ينظفون الملاعب من البقايا ... فيأتي اطفالنا  
ويلعبون ببقايا دمي الكبار .. كان ذلك ذنبها واولاد الجيران .. لعبوا بقنبلة غير متفجرة  
في البوارة المجاورة .. فانفجرت بهم ...

- تستعملين ذكراها لتنفيذ مخططك ...

- ليست خطيئة ان ادافع عما تبقى من اطفالي .. هذه المدينة لم تعد صالحة لنمو الاطفال

ولا الافكار ولا النضال . . . ليست جريمة ان اشتهي الرحيل واسرتي كما فعل  
الآلاف . . . لن اسمح لك ولاصحابك بقتل المزيد من اطفالي بعد احتلال ملاعبهم  
وتخليف الالغام بين دماهم . . . )  
يتوقف السائق امام الفندق . يسألها : هل تريدان الذهاب الى مكان آخر ؟ . . .  
نفهم تأنيبه المهذب . نسيت انها جالسة في تاكسي وعليها ان تنصرف . تقرأ الرقم في العداد  
بصمت . تدفع بصمت . . . تغادر السيارة محاولة تخليف كابوسها فوق المقعد الخلفي  
وتصفق الباب بسرعة كي لا يلحق بها ويرافقها بقية يومها .



استيقظ خليل فوجد نفسه ممدداً على فراش في غرفة فخمة . اين انا ؟ ومضى السؤال  
وتدفق الجواب شللاً من الاحداث المروعة .  
تذكر البارحة . الهرب . درب المطار . القصف . الطائرة . جنيف . هل يمكن ان  
يكون ذلك كله قد حدث البارحة فقط ؟ . . . كل ما يعرفه هو انه نام ونام ، وشاهد فيما يرى  
النائم كفى تنهض وترتدي ثيابها ، ورامي وفادي يتصاحكان ويلتزمان افطاراً ، وحقائب  
تخزم ، « جرسون » يدخل وآخر يخرج ، وكل في ثياب رسمية ، وهو يطفو ويغرق . . .  
يرى ولا يرى . . . يفتح فمه ليقول شيئاً ثم يتلاشى . . . يحضر ويغيب ويتقلب وكل عضوفي  
جسده مشلول بإرهاق لا يقاوم .  
تطلع إلى ساعة يده . إنها الثانية عشرة والنصف . كشف الستارة فطالعت شمس لعوب  
من خلف حجاب شفاف . هل يمكن ان يكون قد نام طويلاً هكذا ؟ ولم لا يفعل ؟ انه لم ينم  
منذ سبعة أيام . . . بل منذ سبعة اعوام . . . نهض متثاقلاً ، وحرق عبر النافذة ، ولم  
يتملك نفسه فشهو وهو يرى المشهد الباهر الجمال الذي طالعه . شاهد بحيرة  
خرافية البهاء ، وبجاً ابيض يسبح فوق صفحتها الهادئة بأعناق طويلة مثل شاربات  
استفهام راکضة فوق الماء . ونافورة عملاقة تشق زرقة الفضاء مثل نهر ينبع من هذا السحر  
الارضى ليصب في السماء . . . واشجاراً متعددة الالوان . . . وازاهير . . . ومراكب ملونة

الاشرعة وتللاً في الجانب الآخر مزروعة بالخضرة ، بذلك اللون المركب المتدرج الخضرة الذي يحتوي عشرات الالوان الخضرة . . وبأبنية حمر القرميد . . هل يقطن هذه البيوت بشر مثله ؟ لهم اطفال ؟ يحدقون عبر هذه النوافذ في الجمال المحيط بهم كله دونما شهقة او حس بالذنب او بالذعر او الحيرة ؟ غمره شعور لا يصدق بالاسى ، شعور شبيه بالغثيان امام ذلك الجمال المذهل كله الذي يستعصي على الملامسة او الاحتواء . . . شعور كأنه الغيرة او الغصة امام المستحيل . . ذكره المشهد بجسد كفى . . . وشعر بالذل . . . ها هي تتحول الى رجل البيت ، تأخذ الأولاد الى المدرسة ، وتنفق من نقودها الخاصة ، وهو ينام في فندق فاخر لا يملك اجرة ليلة واحدة فيه كآية غانية لا تصحو قبل الظهر . . . ها هو ينتهي حيث كان يخشى : رجل فقير تنفق عليه زوجته الثرية . . . لقد مشى في درب معاكسة ، درب النضال ، فرماه الرفاق على عتبة بيته خطاماً وطاردوه حتى المطار .

سيرتدي ثيابه ويذهب للتفتيش عن عمل ، سيتوج بؤس يومه بسيجارة . يعود الى الطاولة لالتهام سيجارة ، فيجد رسالة ( التوصية ) بشخصه البائس الى جانبها . . . تركتها له كفى حيث لا يمكن الا ان يراها : قرب سجائره . . .

سيذهب الى المطعم مسرعاً . سيدأ عمله اليوم . هل تتوهم تلك الحمقاء ان محاسباً شريفاً يمكن ان يكسب ثروة في أي مدينة في العالم ، ام انها تحاول ان تدفعه الى اداء ( الاعمال ) الجائبة الاخرى المهينة التي تدر نقوداً ؟ المصائب كلها التي حدثت له لا توازي مصيبة ان تنفق عليه امرأة يحبها او لا يحبها . . . صهرها كتب رسالة التوصية ؟ صهرها الثري مصاص الدماء الذي اغتنى في الحرب من تجارة الزجاج والرز والطحين والبانزين والسبيرتو والفاليوم ومصاييح الغاز ومولدات الكهرباء البيتية وكل ما جعلته ويلات الحرب ضرورات اضافية للمواطن المسكين ؟ . حسناً ، سيذهب الى عمله ولو كان ابليس شخصياً هو الذي وقع الرسالة بنفسه . . . المهم ان يستلم عمله اليوم . . الليلة . . اذا لم يكن المطعم بحاجة الى محاسب ، فسيعمل جرسوناً او ماسحاً للاحذية . . اي شيء باستثناء ان تنفق كفى عليه نقود آل البيتموني . . .

حين غادر الفندق من الباب الآخر ، لم يلمحها وهي تخطون نحو المصعد مطرقة الرأس . .

\*\*\*

استقل التاكسي ، وقرأ للسائق العنوان المكتوب على خطاب التوصية .  
 ( ها انا ذاهب الى مكان اجهله ، في مدينة لم أطأها من قبل ، لأستلم عملي في اليوم الأول لوصولي ، وقبل ان اتناول لقمة واحدة . . . انها سياحة الفقراء . . . ) . . . دهمه جوع شرس ، وتذكر انه لم يخلق ذقنه ، وانه يرتدي ثياب الهرب اياها نصف الممزقة ، والسيارة تركض به في شوارع هادئة كنوم الاطفال ، نظيفة وخالية من النفايات والفقراء . . . الرفاهية تغلف الأشياء بهالة شفافة ذهبية من الاسترخاء الرغد . . . تتدفق من أناقة سائق التاكسي ، وعافية العابرين ، والجمال المصقول للعابرات والعجرفة في نظرات الكلاب المدللة ، وتوثب الاطفال ، وخلفية ثرية تحتضن الجميع في صورة واجهات باذخة المعروضات يضيء زجاجها نظافة . . تهول السيارة فوق جسر « المون بلان » . . تمضي وعشرات منها في صمت هادىء مرهف ، لا بوق يصرخ ، ولا عصبية مكهربة تشع من الوجوه . . ونهر « الرون » ينزل في القاع مخفواً بتهديدات الازهار والبط والعشاق والسواح والبجع الابيض واشجار الافق . . والشمس تسبغ بركتها على المراثيات ، والمدينة تتعري تحت وقع اصابعها الذهبية الدافئة . . . صبايا مرميات على مقاعد الحدائق العامة والارصفة نصف عاريات ، وعجائز ما زلن يطاردن البركة البرونزية ، والسيارة تغادر ذلك المهرجان لتدخل شارعاً جانبياً والسائق يتوقف امام مطعم وجيه المدخل . . صمق خليل حين تذكر انه لا يملك فرنكاً سويسرياً واحداً ، لكنه مديده الى جيبه على اية حال تمهيداً لشرح الحال للسائق . . فوجىء بقطعة ورقية من فئة الخمسين فرنكاً .

( تلك المرأة الخطرة تفكر بكل شيء . . بالتفاصيل كلها ما دام الامر يروقها . . . خمسة اعوام وهي تلعب دور الزوجة المغلوبة على امرها المستسلمة كي تهرب من حمل اية مسؤولية . . اما الآن ، فهي ربان باخرة الرحيل الذي لا يغفل عن التفاصيل . . . ولا تفوتها شاردة في خطتها النابوليونية لغزو . . سويسرا ) . . .

يدفع باب المطعم ويدخل . يواجهه جرسون جرمانى يشير الى ساعته ويقول : « لا نقدم الطعام هنا بعد الواحدة والنصف ظهراً . آسف » .  
 لم يبد آسفاً ، بدا شامتاً ومهذباً . قال خليل : لست هنا للاكل . اريد ان ارى شخصاً .

وشهر الرسالة ، وتابع دربه الى الصالة الشاسعة شبه المعتمة ، كملجأ للغارات ، والشموع تصدر الطاولات ، ام ان هذه هي « الاضاءة الرومانسية » ؟ كاد ينسى . صارت

الشموع في نظره تحمل مناخات القصف وانقطاع الكهرباء وبؤس الحرب وبكاء  
الاطفال . . . وصارت الاضاءة الساطعة على طول سقف لم تحترقه القذائف هي « الاضاءة  
الرومانسية » ! تأمل المكان بنظرة شاملة . .

زبائن قلائل كانوا يرشفون قهوتهم ، وطاولة اخرى يواجه احد افرادها فاتورة  
الحساب . . يتجه نحو ركن العمال ، وطاولة الفواتير ، والموظف الجالس خلف ماكينة  
الجمع بلا طرح وصندوق المال . . . الموظف عربي الملامح يتحدث الى شخص آخر يقف الى  
جانبه . . خيل الى خليل انه شاهد الشخص الواقف في مكان ما ، وارتعش شيء في  
اعماقه ، وكاد اسم يطفو فوق صفحة ذاكرته ، ثم ضاع كل شيء كالفقاعات حين لاحقه  
الجرسون الجرمانى مرتاباً : ماذا تريد ايها السيد ؟

امسك خليل بالرسالة كطوق نجاة . . داهمه حس مفاجيء بالذل . . ( ها انا غريب  
في مدينة لم ارها من قبل ، جائع ، وقادم للتفتيش عن شخص لا اعرفه ليمنحني عملاً  
اكراماً لرجل امقته وامقت عشيرته وكل ما يرمز اليه ) .

جمع الاطراف المقضومة لشجاعته ، وتجلد كي يأتي صوته غير مرتجف ، لكنه لم ينطق  
حرفاً بالفرنسية منذ زمن بعيد . . منذ ايام الجامعة ، فلم تسعفه الكلمات بغير الاسم  
المكتوب على الرسالة : السيد شفيق أبي عاطي . أريد أن أرى السيد شفيق أبي عاطي .  
أحمل له رسالة . .

وانفجر الثلاثة ضاحكين كما لو القى بنكتة . . قال الموظف الجالس خلف الصندوق  
مداعباً : هذا صعب الآن . .  
- ارجوك . . يجب ان اقبله . .

وعادوا الى الضحك ، ولم يكن في مزاج يساعد على المشاركة . تجهم قلبه ، وتجمع  
الحزن والقهر في حلقة سحباً مألحة كالدمع السري . . . وتحالف الجالس خلف الصندوق  
والجرسون الجرمانى على معايبته : انه مجهول الاقامة الآن ، لكنك تستطيع ان تحاول لقاءه في  
مكان آخر اذا كنت مصراً . .

تجلد وكرر : اريد مقابلة السيد شفيق من فضلكم . .  
- مستحيل ، واذا نجحت في ذلك ورجعت الى هنا . . . صرت مليونيراً . . .  
يكرر مهذباً يائساً :  
- أحمل له رسالة يجب ايصالها باليد . . .

اهانه الجرمانى بكل تهذيب فقال : اذهب وفتش عنه ولا تعد الى هنا ، لأنه لن يعود الى هنا . . .

تقدم منه الرجل الذي خيل إليه أنه يعرفه حاسماً الموقف المربك ، ونوبة العبث التي دهمت رفيقه ، وقال : السيد شفيق مات . . .  
يردد مصعوقاً : مات . . . مات . . .

( الوغد . . . مات كي لا يقدم خدمة لفقير مثلي . . اعرفهم اولئك الناس ، انهم مستعدون للموت من اجل ضمان موتك . . والآن ماذا افعل ؟ فواتير الفندق الفخم . . . والاولاد في المدرسة ) . . .

تابع محاوره : اجل مات منذ شهر . . الناس يموتون ايضاً في جنيف . . حتى الاثرياء منهم . . .

- مات . . . مات . . .

- هل انت احد اقربائه . . .

أشار الى ثيابه شبه الرثة ، التي اتسعت عليه بعد نحوله ايام السجن والاعدام والهرب من المقبرة وسأل ببساطة : وهل يدعوك ذلك ؟  
- لماذا فجعلك موته اذن ؟

« لأن موته قد يعني موتي أيضاً » . . . لم يقلها ، صمت وانسحب معتذراً .  
كان الزبائن قد بدأوا بالانصراف ، ولحق به الرجل المألوف الوجه بعدما ودع رفيقه الجالس خلف الصندوق وسأله : هل أنت عربي ؟

- اجل

- هل لديك مانع اذا حدثتك بالعربية . . .

كادت الدموع تتابع صعودها من حنجرتة الى عينيه . . .

- اهلا بك يا اخي . . .

- هل تستطيع ان اقدم لك خدمة ؟

- كنت أحمل رسالة توصية للمرحوم بخصوص ايجاد عمل . . .

- إني اسف . . .

- شكراً لك . لكنها ورطتي . . .

- لكل ورطته الحقيقية او الموهومة . . لكن ورطة البحث عن عمل حقيقية . . اعاني



منها باستمرار بين عمل وآخر . . كلما طردت . . .

تأمل كل منها محدثه على ضوء الشموع ، فلم ير الكثير . كانا قد توقفا قرب السلم الذي يقود الى الضوء والخارج . الهاجس في صدر خليل تحول الى صوت اخرس « اعرف هذا الرجل . . . كأي اعرفه . . . » . . . بعفوية ، خاطب رفيقه :

- اسمي خليل الدرع وذلك لا يعني شيئاً طبعاً . . .

- اسمي امير النيل ، ولست اميراً إلا في الفقر . . .

- امير النيل ؟ . . انت امير النيل . . .

- بكل غرور وتواضع . . . وذلك لا يعني شيئاً طبعاً لأحد . . .

( . . ضربت لأجله . . حملت حروفه وطفقت بها بين الخنادق والمتاريس والسجون والاخوة الاعداء وكذت اقتل وانا اروج كلماته كمدمن مهووس . . وقرأت سطره أكثر مما قرأت ابجدية جسد زوجتي ، ولأمت عذابه أكثر مما تحسست جراح وداد الممزقة . . .

تجول في بيتي ، وزارني في سجن ، واقتحم احلامي ، وخرجت كلماته من حنجرتي في ليالي القصف والانكسار ، وشاركني قهوتي وطعامي ، وغسلني صوته كلما اتبحت لي فرصة نعمة الاستحمام ، وبركة الفراش التنظيف . . . وخطط دون ان يدري للسنوات الاخيرة من حياتي ، وها انا اقف امامه كأني غريب آخر . . كم هو موجه حب القارئ لكاتبه الذي لا يدري عنه شيئاً . . . كم هي مخزنة تلك الغربة بين انسان يعرف الآخر بكل وله ، وآخر يجله ببراءة فتاة . . . كم هي خطيرة ومدمرة تلك الصلة الانسانية من طرف واحد ، بين الكاتب وقارئه . . . الكاتب يعشق قراءه « بالجملة » ، كما لو كانوا شخصية اعتبارية خرافية لها عشرات آلاف الوجوه ، والقارئ يعشق كاتبه بصورة حية مباشرة شخصية . . . ولكنني احمق . . . انا اعشق الافكار التي تصادف انها تحمل اسم امير النيل وكان يمكن ان تحمل اي اسم آخر . . . ولأني للافكار ، لا لهذا الرجل الغريب الواقف امامي ) . . وبالرغم من هذه القناعة العقلية امتلأ قلب خليل بمرارة طفلة ونقمة غامضة شبيهة بالحب الاخرس الجارف . . . تابع امير: تبدو متضايقاً . . هل تقبل دعوتي لفنجان قهوة ؟ هز خليل رأسه موافقاً .

حين خرجا الى الرصيف ، تأمل خليل صاحبه وفوجئ به . . . إنه اصغر سناً بكثير مما كان يتوقع . . . واكثر وسامة من صوره . . . تصوره في الخمسينات من عمره ، وفوجئ به في اوائل العقد الرابع . . . بسيط الملبس . . شاب الحركة ، قوي البنية دوغما سمنة . . .

يبتسم بسهولة وبساطة ، فتشتعل عيناه بعسل طفل وتضيء أسنانه المتناسقة . . . وجهه يضيء بود غير مصطنع ، واهتمام حقيقي بالآخر . . .  
( ها انا اتأمله وهو يفعل الشيء ذاته . . لم اخلق ذقني . سيلحظ الهالات السود المحيطة بعيني . سيقرا خطوط الهم المبكر على جبيني . اعرف انه لن ينجعل بي وانا في ثيابي المهلهلة هذه . . انه - في كتبه على الاقل - صديق الرجال الذين يشبهونني والذين لا يميزهم شيء حقاً . ليسوا الاكثر وسامة ولا الاكثر نجاحاً ولا الاكثر قوة . . انهم الاكثرهما ) . . .  
جلسا في المقهى وجهاً لوجه صامتين . توج خليل بؤسه بسيجارة ، وحين جاء الجرسون سأله امير : ماذا تأكل مع قهوتك ؟

إذن يبدو جائعاً .

- لست جائعاً . . اؤكد لك . .

- سندويش جبنة ؟ دجاج ؟

- لست جائعاً . . .

خاطب امير الجرسون : اربع سندويشات جبنة ، واربعة سندويشات دجاج . . واربعة

زجاجات ليمون . . وفنجان قهوة لي . . .

وانفجر الرجلان ضاحكين طويلاً . . . ثم صمتا طويلاً . . .

توج خليل بؤسه بسيجارة جديدة ، مترقباً الظهور المبارك للطعام . . لم يلحظ احداً في المقهى . . لم يتأمل الديكور . . . استولى الجوع عليه فجأة ، ورفع رايته فوق الحواسيب الباقية كلها . . . والافكار . . . والاحزان . . . وحين وصل الطعام بعد عدة دهور او دقائق بدأ التهامه دون خجل من امير . . . شعر بأنه يفضل ان يأكل كالوحش هنا على مرأى من انسان يفهم جوعه على أن يأكل بالشوكة والسكين الفضية في مطعم الفندق الفاخر ثم تدفع كفى الحساب من بقايا ثروة آل البيتموني . . وحين انجز وجبته ، تدفق الدم في عروقه ، واستعاد قدرته على المحبة والكراهية والرفض والاعجاب وملاحظة زبائن المقهى وحضور امير المربك الذي لم يوجه اليه اي سؤال شخصي . . . كأن يسأله : هل تقرأ ؟ هل تعرف انني كاتب مشهور ومفكر عربي كبير ؟ هل قرأت لي ؟ متى ستسجد امامي اعجاباً ؟ هل سترجوني ان اتصور معك او اوقع لك تذكراً على كتابك او قميصك او انقشه وشماً فوق لحم صدرك او مؤخرتك ؟ هل ستقول لي انني رائع وانك سعيد بملامسة يدي حين تصافحني ، اليد التي بها اكتب ؟ او كأن يتخذ الحوار منحى آخر يقود طبعاً الى جوهر الموضوع : « عبقرية » ، ومدى اعجاب الآخر به . . كأن يسأله : ما حكايتك ! قص علي حكاية

فشلك لأروي لك حكاية نجاحي العصامية وعظمتي وسر نجوميتي . . .  
ولو سأله امير في تلك اللحظة عن حكايته ، لما نطق بحرف واحد من الحوار الذي طالما  
تخيله واياه . . . كأن يتم على هذا النحو . . .

(-لماذا؟)

- مشرد بسبيك !

- كيف ؟

- رفضت رفع كتبك عن واجهة المكتبة لعرض صحفهم ومناشيرهم . . .

- اين ؟

- في بيروت . . حيث نقاتل بوحشية من اجل السلام . . . ويقمع كل منا الآخر كي  
تسود الحرية والديمقراطية ! .

- متى ؟

- منذ فجر المتطرفون والمغامرون والعملاء تناقضاتنا ، تحقيقاً لمكاسب ذاتية سياسية او  
شخصية . . وتلهي كل منا بالتهم الآخر ، ونسينا لماذا حملنا السلاح اصلاً . . . حتى بلغ  
بنا الأمر حد الاقتتال في ظل طائرات تقصفنا جميعاً دون ان نلتفت اليها . . .

- ثم ؟

- نفدنا عكس ما تخطه في كتبك . . وفعل البعض ذلك مستشهدين بتفسيرهم الخاطئ  
لاقوالك . . واجتهادهم الشخصي المنبثق عن كلماتك وأمثالك . . . مارسوا القمع تحت  
شعارات الحرية . . والاعتقال تحت شعار التحرير . . . وكرسوا الرياء والتفرقة وتزوير  
الحقائق وقهر الناس وسرقة ارزاقهم واعمارهم بحجة الضرورات التكتيكية وصادقوا  
العدو واهانوا الصديق بحجة الاستراتيجية . . .

- ثم . .

- ثم صحونا . . واذا المتاريس تمتد من الشوارع الى داخلنا . . . خطوط التماس  
تسللت الى اعماقنا . . . توحشنا فصار المرء يخطف ذاته ويذبحها على الذكريات . . . ولم  
يعد القصف وحده مأساتنا . . تحول كل منا الى قذيفة تنطلق نحو هدف عشوائي وتصيب  
من احبابه مقتلاً قبل اعدائه . . صرنا نحن القصف العشوائي ، وكل منا شحنة متفجرات  
متحركة صوب الآخر لتفجيريه . . كل منا صاروخ حي موجه ولكن للدمار . و«الخراب  
الجميل» الذي تمنيناه بداية لبناء اجل ، تحول الى خراب عام ودائم ومطلق .

- ولكن ..  
- الكوابيس التي توهمناها ولدت حُلماً انتهى زمنها ... سقطنا في الحلقة المفرغة ،  
وعاد الحلم ليلد كابوساً فكوابيس جديدة ... لقد صادروا الحلم وزوجوه القمع ،  
فكانت الكوابيس نسلهما الاكيد ) ....  
ظل الرجلان صامتين حتى سأل امير صاحبه : فنجان قهوة؟

- لا شكرا ..  
اخرج امير قلماً ، ومزق قطعة من محارم الورق الخاصة بالمطعم وكتب عليها رقماً  
هاتفياً ، اعطاه لخليل وهويقول : اتصل بي اذا رغبت ... علي ان امضي الآن ... آسف  
لما حدث لك ... اتمنى لك التوفيق ..

ونفض بسرعة .. دفع الحساب ، وابتلعه زحام الشارع ...  
ظل خليل جامداً في مكانه ... هل كان هذا حقاً امير النيل نفسه ام ... ؟  
هل كان يحلم ؟ هل بدأ يمشي في ارض الهذيان ؟ ( لقد اطعمني دون ان يحاول  
ادهاشي ، او يجعلني ادفع الفاتورة تملقاً واعجاباً .. انه لم يعرف انني اعرفه .. ولا يدري  
انه مدين لي بشيء .. )

غادر المقهى . وجد نفسه في شوارع لم يرها من قبل .. كيف يذهب الى الفندق ؟  
سيسأل عن الدرب ويوفر اجرة التاكسي . ولكن كيف يسأل وهو لا يعرف اسم  
الفندق ؟ ...

احس بالدعر لبرهة ، ثم هدأت روحه حينما اخرج علبة الثقاب التي لمها من الغرفة مع  
سجائره ، ووجد عليها اسم الفندق وعنوانه ...  
استقل التاكسي وتوج بؤسه بسيجارة ، وتظاهر بأنه لا يعرف قراءة اللافتة الحمراء المثبتة  
لصق « المنفضة » محذرة من التدخين ...

من حق السائق هنا ان يحافظ على رثتيه لمباهج عطلة نهاية الاسبوع ، اما هو فكان عليه  
ان يكون ميتاً منذ اسابيع ، وقد انجزت ديدان المقبرة التهام رثتيه ... النيكوتين اكثر رحمة  
بهما من مصيرهما الأول . السائق العجوز يلتفت نحوه مرتاعاً مشيراً الى لفافته كما لو كانت  
رشاشاً . يمثل .. ستعيش الى الابد يا صديقي السائق !

\*\*\*

التقى بكفى في ردهة الفندق خارجة من « صالون الحلاق » . . . بدت خارقة الجمال والرفاهية ، بشعرها الكستنائي الذي شذبه في تسريحة عصرية ، والزرقعة الداكنة لعينيها الموروثة من جدته اناضولية يقال انها كانت ابنة لأحد الباشاوات . . . قامتها الفارعة المحكمة الاستدارات ، وثيابها الانيقة . . .

تحسس لحيته خجلاً ، وسارع بها الى المصعد فوق الموكيت الباذخ الذي يغطي الردهة والممرات والغرف . . . ما كاد يمس زر المصعد حتى انتفض تحت وقع لسعة كهربائية خفيفة لكنها موجعة قليلاً . . . وتثير الذعر كثيراً . . . ها انت في مكان يفيض جمالاً وامناً كأنه ردهة الاستقبال الى الجنة ، وفجأة تأتلك تلك اللسعة المنبهة للألم والدهشة معاً . . . وربما الرعب الذي يبدأ في الانتشار فوق المراثيات كلها وانت تتساءل : اية لسعات تخفي تلك الاشياء المخملية الارجوانية ، كأن تجلس على المقعد اللوثر القاني الحمرة وتستريح مغمضاً عينيك متمتعاً بالرغد الثري ، ثم تنهض لتجد ثيابك ملطخة بالدم . . .

تسأله كفى : ماذا حدث ؟

- طردت بكل احترام . . اهنت بكل تهذيب . . .

- ماذا تعني ؟ الم تقابله ؟

- كان ذلك صعباً .

- ستعود غداً . . هل تركت له الرسالة ؟ هل سجلت رقمك الهاتفي ؟ سيتصل بك

بالتأكيد . . .

قال وهما يغادران المصعد: لن يتصل بي ولن التقيه ولن اجد عملاً . لقد مات . . .

شهقت : مات ؟ اللعنة عليه . . كيف يفعل ذلك بي ؟ . . .

انفجر خليل ضاحكاً ببعض الشماتة . . اولئك الاثرياء يجدون الموت شيئاً خارقاً ،

يتوقفون امامه طويلاً في طقوس تثير اشمئزازه . . البسة خاصة . . طعام . . . بكاء . .

عويل . . ولا احد يبكي الفقيد حقاً . انهم يكون كون الغني ممكن الموت وقابلاً للفناء . . .

يكون موتهم الآتي ، ولأن حياتهم تبدو لأعينهم ثمينة جداً ، فإن عويلهم شديد

الضراوة . . .

يفتح باب الغرفة بالفتاح ، ثم يمسك بالمقبض ويدفعه . . يقفز من جديد مكهرباً ،

وتنفجر ضاحكة بدورها : لديك حساسية مفرطة ضد « الستاتيك إلكتريسي » .

- ومن هي « الستاتيك إلكتريسي » ؟

- الكهرباء السكونية .. « الموكيت » يولد حقلاً كهربائياً وجسدك يمتصه بشراهة وحين تمسك بأداة معدنية يصير جسدك مثل سلك .

- اني مصاب بحساسية نحو شيء آخر . نحو المكان ككل .. الغربة تكهربني . . . مثل جلاد الوطن !! . . .  
تعد له حماماً ساخناً .

مغطس شهبي ، ماء ملون وفقاعات ورائحة عطرية وتقول له : لماذا لا تغسل عنك سنواتك الماضية ؟

- وماذا عن الآتية ؟ انني بلا عمل . . .  
- ستندبر شيئاً .. لا تخف .. المهم اننا غادرنا مطار الموت احياء . . . اعني بيروت الجهنمية ..

بدت سعيدة حقاً ، تتحرك مثل فراشة مطلقة السراح ، ينهار هو داخل مغطس الحمام مثل حجر ثقيل قذفت به العاصفة الى حيث لا يدري .. يسترخي ويغمض عينيه .. منذ متى لم يحظ بحمام كهذا ؟ . . . احس بالشفقة على جسده .. دله ، واعتني بوجهه مزياً لحيته ثم تأمل الوجه الذي طالعه وبدا له مألوفاً بشعاً نصف منسي .

( تلك الحمقاء .. كيف تجدني وسيماً ؟ كم انا بشع ! ) جاءه صوتها وهي تتحدث على الهاتف . ثمة آلة اخرى في الحمام الى جانبه ، فكر بأن يرفعها وينصت الى ما تقول ، ومن تكلم .. لكن دهشته لوجود آلة هاتف اخرى اضافية داخل الحمام غلبته .. اولئك الاثرياء يعرفون حقاً كيف يدللون انفسهم .. يشفقون على اقدمهم من عناء الذهاب الى الغرفة المجاورة للرد على الهاتف . . . وهو الذي لم يشفق على قدميه من عذاب الفلق حرصاً على كتب امير النيلي في واجهة مكتبته .. هذا غير صحيح .. لقد كان حريصاً على كرامته . . . انها قضية مبدأ .. كل شيء في النهاية قضية مبدأ . ولكنها لن تفهم ذلك .. (لماذا لم تخبرها بلقائك وامير ؟ هل كان حقاً امير ؟ حسناً . انك تخشى منها . تعرف انها تكرهه وتعتبره مسؤولاً عن دمارك : تجده سم افكارك وافسد صعودك على سلم الوجاهة والثراء . والآن ، هل ستصل به وتطلب منه مساعدتك في ايجاد عمل ؟ من لك سواء في هذه الجنة المكهربة ؟ ) . . .

يغادر الحمام . يجدها متهللة سعيدة .  
- هيا بنا لشراء ملابس جديدة لك . . . يعبس . يذعن . يعرف انها ورثت عن امها

عادة تفتيش جيوبه وتجنب الاستجواب المباشر . معها يبدأ الامر دوماً بنوبة تحجب مفاجئة ، انها مرحلة الترغيب . واذا لم يقر لها بسر رقم هاتفه مكتوب على ورقة مهمة او عنوان مجهول ، تنتقل الى مرحلة الترهيب . . . يفكر بسؤالها عن هاتفها الخاطف وهو في الحمام ، ثم تغمره اللامبالاة . . . لعلها تشكو كعادتها من امر ما . . . احد اضرار التلفزيون لا يستجيب للمسة . . . احد المصاييح لا يضيء كما يجب . . . اكثر مما ينبغي او اقل . . . مقبض النافذة الحديدي قاس . . . او شيء من هذا القبيل . . . تفاصيل . . . تتوقف دوماً عند التفاصيل الصغيرة لمظهر الاشياء . . . لا تتعامل مع الجوهر وربما لا تعي وجوده . . . وهي لذلك سعيدة ، ومرشحة باستمرار لحزن مفاجيء . . . تسأله : كم الساعة ؟ يحدق في ساعته ويحجب : انها الثانية عشرة والنصف . . . تردد : غير معقول . غير ممكن . ساعتك متأخرة . . . اصلح وقتها . . .

يحمل الامر ويظل صامتاً . يغادران الفندق . يتأمل البحيرة ، وتأمل واجهة الدكان الملاصق للفندق . تشده من يده قائلة : انه باهظ الثمن ، لكنه يناسبك . في المخزن ، يشاهد عربياً ثرياً يشتري دزينة من القمصان الحريرية بالألوان كلها ودزينة من البزات بإشارة من اصبعه والبائعات الجميلات يحطن به مشجعات مدلات .

يغادران المكان بعد ان انفقت ثروة صغيرة لتجعله يبدو كأحد اولاد الاغنياء المرفهين . يشعر بالخجل وهو يرفل في حرير القميص الفاخر والسروال المخملي وقد كسته بمال آل البيتوني . . . ينسى كل شيء عنهم جميعاً حين يرى مهرجان الحياة تستقبلها جنيف به . . . ها هما مقابل الجسر الذي عبره في دربه الى الطرد قبل قليل . . . يقرأ اللافتة : ( كي دي مون بلان ) . . . يعبران الجسر الى الضفة الاخرى وسط مظاهرة حيوية باهرة . . .

الثياب الخفيفة ، والاجساد التي تمتص اشعة الشمس بشراة . . . ابتسامات يتبادلها الغرباء السعداء . . . نظرات تفيض لطفاً وتهذياً . . . مع الرفاهية يصير اللطف تقليداً متبعاً كأنه سعادة فائضة الى الخارج . . . خيل اليه ان الناس في تظاهرة الرصيف يحملون لافتات كتب عليها عبارات مثل : « ايتها الحياة . . . احبك » او « حمصي بشرتي ايتها الشمس وتقدم يا حبيبي » . . . او « انا ثري ووسيم . من يطاردني » او « تملقوني . انا مدهش » او « شابة وفقيرة . مطلوب ثري عجوز » وهذه الكوكبة من السائحات العربيات في ثيابهن الوطنية يحملن لافتات مثل . . . « املك مائة وخمسين مليون دولار . . . بعدد فقراء شعبي » او « متى يشتري ابي جنيف ؟ » او « خذوا ثروتي وامنحوني حريتي » او شيء من هذا

القبيل . . . يصلان الى رصيف يتسع متحولاً الى حدائق عامة باهرة الجمال . . . والدفع يرقص في فرحة الاطفال شبه العراة وتفتح الازهار . . . وهذه صبية باهرة الحسن أم مخلوقة نورانية تطير؟ شفاقة البشرة شعرها ضوء متموج تهب كالريح العابرة وتسري بين الناس وفي قدمها حذاء له عجالات . . . وعلى اذنيها سماعتان وشريطان ومذياع صغير سعيد بملاصقة الصدر المتوثب . . . لها موسيقاها الخاصة ، ورقصتها العذبة الطائرة ، ونضارتها الطفلة كعصفورة نادرة . . . ما اجل المرأة حين تكون طفلة ومجهولة وليست زوجتك . . . يتذكر وداد ويغص . . . كانت تلعب ببقايا الرصاص الفارغ فوق طحالب المزابل على انغام القصف الذي يوجه للعدومرة وللصديق الف مرة . . . كان يطمح الى منح وداد وطناً صالحاً للنمو ، فانفجرت بها قذيفة كتبت عليها عبارة : من اجل الحرية والديمقراطية ، نسيها احبابه في غمرة قتالهم العايب . . . يتطلع الى كفى بحنان . . . يلومها ولا يلومها . . . لم يعد يدري . . . تقترح : هل استطيع دعوتك الى فنجان قهوة ؟ . . . كوكا كولا ؟ ماء معدني ؟

المقهى جزء من رصيف الحدائق مسور بالازهار . . . يجلسان . . . يرق صوته وهو يهمس «سأخذ ما تطلين» .

- « ارجو ان تحضر لنا زجاجتي كوكا » تقولها بفرنسيتها الراقية . . . اما هو فينطق الفرنسية بلهجة عربية قروية . . . يتوج متعته المنغصة بسيجارة . . . يشرب الكولا من زجاجتها مباشرة كعادته دون ان يمس الكوب الفاخر ونظراتها تزجره . . . سيظل قروي المسلك في بيروت او في جنيف . . . شجرة عتيقة الجذور .

تنتشر في المكان موسيقى عذبة آتية من بعيد . . . ثمة فرقة موسيقية تعزف للناس مجاناً في الحديقة العامة . . . يتأمل الاطفال ، يرفلون في العافية والموسيقى ويتذكر ولديه رامي وفادي . ربما كانت كفى على حق . من واجبه ان يؤمن لهما مناخاً انسانياً للنمو . . .

ولكن . . . هل مناخ الغربة صالح للنمو مهما كان مرفهاً وباذخاً ؟ هل قطع طفليه عن وطنها عملية انسانية ؟ بالمقابل هل تركهما يقتلان هناك اكثر انسانية ؟ يأتيه ذلك الصوت من اعماقه كأنه صوت امير : « الحلول الفردية لا تجدي . . . تهرب بطفليك . . . وماذا عن بقية اطفال المدينة والقرية والوطن والعالم العربي ؟ » اللعنة . . . لماذا لا يقدر على انزالهم عن كتفيه ليستريح كما فعل عشرات آلاف المواطنين سواء ؟ لماذا يتملكه خجل حقيقي كلما نجح



في تحقيق خلاص فردي مهما كان صغيراً؟ . . لقد بدأ الامر بالكوايس ، وقال لنفسه اصبر ايها الرجل ، انه مخاض الحلم ، ولكن الحلم انجب من جديد قبيلة من الكوايس ووجوه مقنعة ترقص هوجاء متوحشة بدائية في كرنفال بهيمي للسرقة والنهب والارهاب والطائفية ، كرنفال يحمل شعارات الحلم ويستر بها . . كفى تقول شيئاً ما وتضحك . يضحك بصورة آلية دون ان يسمع . . لقد اعتاد هذا النمط من الحوار معها . . يترك لها ابتسامته ويعود حيث كان . . . الى الكرنفال المتوحش . . والقتل . السرقة . سفك الدماء . ظلم المساكين والابرياء . . وكل ذلك تحت شعار تحريرهم . . . كيف ؟ كيف سقطنا في تلك الحلقة المفرغة . . كابوس . حلم . كابوس . حلم . يغرق . يطفو . يغرق . يطفو . كرنفال من الكوايس ، وهم الذين كانوا يطمحون لصنع مهرجان حياة كذلك الذي يتدفق امامه ويشحنه بالغصات . . يتأمل زجاجة الكوكا كولا . . يتذكر التظاهرة التي خرج فيها بعد هزيمة حزيران . . كان ما يزال شاباً صغيراً في الثامنة عشرة من عمره . . . اقسم يومها الا يدخن لفافة اميركية . . الا يشرب الكوكا كولا ولا يرتدي الثياب المستوردة وشاركه الرفاق ذلك . . . كان الغضب عظيماً والمأساة فادحة والصحو شعراً . . ماذا حدث ؟ كيف تحولنا الى مجموعة من السفاكين ، يغتال كل منهم صاحبه لأنه يخالفه الرأي في كيفية تحقيق الهدف ؟ لماذا هذا الشجار المرير على اختيار الطريق والكل يدعي انه ذاهب الى مكان واحد ؟ . . . كيف انتهى به الامر ، هارباً ، طريداً ، مهاجراً ، يشرب الكوكا كولا في مقهى رصيف بحداثق جنيف ووطنه يحترق ؟ . . .

تأتي نحلة . تقف على فوهة زجاجة الكوكا كولا . تعلق . تحوم وتدور حول اطراف الفوهة ثم تهوي الى داخل الزجاجة كأنها تحدرت او تسمنت . . . تسقط الى القاع . . يظنها ماتت . . . تنتفض . تقف على قدميها من جديد وتحاول التحليق . تنفض جناحيها وتمشي في القاع كأنها تكتشفه ، تقترب من الجدار الشفاف محاولة الخروج وتكتشف انها سجينه اسر مخادع شفاف ، ويراه خلف عبارة كوكا كولا المكتوبة بحروف كبيرة على الزجاجة ، تحاول التحليق وتعلو وترطم بالجوانب وتسقط ثم تحاول من جديد في محاولة يائسة للعودة الى الفوهة من حيث اتت . . . يتأملها مثل عراف يحدق في كرتة الزجاجة ، ويحزن لسقوطها المتوالي ويدهش لمحاولتها المستميتة للتحليق من جديد كل مرة وهي تصدر ازيزاً يشبه الانتحاب والشتائم . . .

تدفع كفى الحساب ، ويغادران المكان ، وعينه على زجاجة الكوكا كولا ، ويرى ان

النحلة ما تزال تحلق داخل سجنها متابعة محاولاتها المستميتة للنجاة .

\*\*\*

- كم الساعة ؟

- الثانية عشرة والنصف .

- ساعتك معطلة . . . اشارت بيدها الى ساعة ذهبية بديعة تتوسط زقاقاً طويلاً مسقوفاً بالزجاج الشفاف . كانا قد وصلا الى عمر « جاليري دي جان مالبيزون » .

انها الخامسة والنصف والشمس ما زالت مشرقة . . ترى هل تغيب عن المدن السعيدة ايضاً ؟ يجلسان الى مقهى الرصيف ( إسكال ) في الزقاق الضيق بعد طول تجوال . . . اضبط ساعتك ، وحركها . . لعلك نسيت ان تملأها . .

إذن هي الخامسة والنصف . وساعته حرنت عقاربها وتوقفت مشيرة إلى الثانية عشرة والنصف . هل كان ذلك هو لحظة اقلاع طائرة المنفى ؟ . . . هل يصدق ان تلك الاحداث كلها بدأت صباح البارحة فقط ؟ هل يصدق انه منذ تسع وعشرين ساعة كان ما يزال يطأ ارض وطنه ؟ بل منذ ثلاثين ساعة اذا حسب فارق التوقيت بين القارتين . . . وهل سيقضي وقته هنا يحصي الساعات بدلاً من الايام ؟ . . . يسترخي في مقعدة مشفقاً على فرحة كفى من كهارب يؤسه . . . تلك المسكينة ماذا تفعل مع رجل مثله ؟ ركبها حب التملك ، فكسته بهيكل الحلم ، ثم تحطم الحلم وبقي الاطفال . . والعادة . . والتكرار . . تزوجا قبل الحرب بزمن ما ، وحين رزقا بفادي وقررا الطلاق جاءت الحرب ونسيا الشجار . . . وجاء رامي ، ولحقت به وداد ، وهدأت الاحوال قليلاً فعادا الى حديث الطلاق . . . لكنها لم يتمكنوا من متابعته كما ينبغي بين اعتقال وآخر . . . صبرت ، حتى انهكه الزمن ونخله عالمه فالتقطته وجاءت به الى بر النجاة . . بر نجاتها هي . . ولكن ماذا عنه ؟ . . . لقد الفت صمته الطويل ولم تعد تبادره بالكلام الا نادراً . . ام انها مشغولة عنه بالتجسس على حلمها الذي تقمص مدينة ؟

مهرجان الحياة يتابع تدفقه في الزقاق . . يتأمل شاباً في مطلع الثلاثينات من عمره ، يرتدي الثورت ويضم اليه فتاته وهما يتطلعان الى واجهة الصيدلية المواجهة « فارماسي برينسيبال » . . .

كم هو شاب ومتوثب ووجهه خال من سطور الهم . . كأنه ليس في مثل سنه . . كأنه

ابنه . . . يتبادل وحبيبته قبله . لا يلتفت اليهما احد من العابرين غير العرب . . . يتأمل الدكان الآخر الذي اشتعلت واجهته بالأضواء والماس والذهب . . . ينشق بابه عن مجموعة من السيدات العربيات المحجبات وصاحب الدكان يلحق بهن مودعاً حتى الشارع وزوجته متهللة الوجه . . . ها هن يتبضعن الماس والزمرد والكنوز . . . ويعرفن دوماً شك عن ظهر قلب اسعار اونصة الذهب وقيراط الماس . . . هل يبنهن من تعرف ان اسرائيل ابتلعت جنوب لبنان في ثلاثة ايام ، وانها البارحة ظهراً كانت تفترس اطراف بيروت وتدمر مطارها ؟ انه صامت لانه لا يجزؤ على ان يبوح لكفى بما يعتمل في قلبه . . . ويستطيع ان يقرأ نظرة الحسد في عينيها . يعرف انها تتمنى لو كانت مكانهن ، تتمنى لو لا تسمع كلمة عن بيروت ولبنان والوطن العربي . . . لا شيء غير اسعار الذهب والماس شرط ان تقدر على الشراء . . . اجل انها تعشقه ولا تحبه . تجده بالغ الوسامة ، وهو يعرف انه ليس كذلك ، تتوهمه قاسياً و ( حمشاً ) وتناديه مدللة ( يا واد يا ثقيل ) وقلبه يذوب اسى لأشياء اخرى كثيرة غير النساء ، وتحلم بطعم فحولته القروية التي ذاقتها في سنوات الزواج الأولى وادميتها ، وتحاول عبثاً اعادة الشاب الى صباه . . . ها هي تتدفق حيوية وسحراً ، وتشهق اعجاباً بين حين وآخر ، وترمق ما يدور باهتمام بالغ ، واعين الرجال العابرة ترمقها بإعجاب متبادل . . ( انها جميلة حقاً . . . وانت احمق حقاً . . . تأمل مهرجان الحياة هذا ودع نفسك تنزلق في مباهجه . . . لقد فشلت في تحقيق حلمك ، فلماذا لا تشاركها حلمها ؟ جرب قليلاً . . . ) طلب كأساً من ماء النار وابتلعه . . . سرى دفة في اوصاله . . . شجعتة كفى على تناول جرعة اخرى ولفافة اخرى ولكنها لم تشاركه ليس حرصاً على الفضيلة ، ولكن خوفاً على وجهها من التجاعيد ! . . . بدأ ينصهر في ايقاع الجمع المتوهج حياة . . . لم يعد متفرجاً . . . يسمع صوتاً موسيقياً عذباً تصدره اجراس لطيفة . . . يلتفت . . . يرى الساعة في آخر الزقاق وهي تعلوه كتاج تفرع ست دقائق وقد انفتح احد ابوابها الباهرة النحت وخرج موكب من الدمى المذهبة متحركاً فوق درب ضيقة محددة ، محفوقاً بالموسيقى والاضواء متجهاً نحو باب آخر في الطرف الثاني للتحفة الممتدة على عرض الزقاق . . . . . يبطء ثري باذخ يمشون في دربهم ثم يغيبون داخل الباب الآخر ويغلق الباب خلفهم . . . . . شعر بأنه احدى تلك الدمى المذهبة في المهرجان الآخر للزقاق ، دماه المتحركة بشرية موسيقاها تنبع من الاصوات المزققة غزلاً وشهقات اعجاب شجية . . .

هذه قافلة من الشابات والشبان الاوروبيين يحملون على ظهورهم ذلك الكيس الخاص

بعده السباحة الفتية ويمشون بحيوية ضاحكة . . . يوم كان في مثل سنهم كان يمشي في المظاهرات . .

وفوجيء خليل بمشهد نادر وهو يتأمل الشبان والشابات السائحات ، ثمة رجل يتبعهم ويرتدي مثل ثيابهم . . . القميص القطني . . الشورت . . الصندل . . . ويتدلى على ظهره الكيس الخاص بالترحال الكشفي ، الذي يضم على الأرجح عدة نوم ونظافة واكل كاملة . . . ولكن الرجل كان في السبعين من عمره على الاقل ، ولم يكن يبدو عليه الجنون ( لقد سرقوا شبابنا منا ) . تابع العجوز بأنظاره الحاسدة . . كان يبدو سعيداً ، ولحم ساقيه المترهل يرتجف لكل خطوة ، لكنه يخطوها مرحاً ولو كان في دربه الى قبره ! . . . شعر خليل بالخلج امام هذا العجوز الرائع المتوهج شهية لمعانقة مباهج الكون المجانية البريئة ، والمصر على تذوق متعة الحياة حتى اللحظة الاخيرة . . كاد يأتيه ذلك الصوت اللعين من اعماقه ليسأله : « ولكن ما هي المتعة الحقيقية للحياة ؟ » فأسكته برشفة اخيرة من كأس ماء النار ، والتهم شفتي زوجته في قبلة شرهة ، شراة جائع بعد سنوات عجاف . . . سمع صوته مخنوقاً بالشهوة ، كالحشرة ، يقول : هيا بنا الى الفندق يا كفى . . .

\*\*\*

. . . باهرة الحسن ، ممددة فوق زرقة الافق . . . تهب رياح حارة وتنفخ في قاربه . . . يبحر . . ترف طيور البحر البيض وتأتيه اصواتها كاللهات . . . يتابع ابحاره . . . موانئ العاج والبهار . . . مقالع الرخام والمرمر الدافئ . . . صلابة الطراوة . . . تنفخ الريح وينشر القارب شراره ليحتوي الافق ، ويتسارع ابحاره . . . يعلو ويهبط فوق الامواج . . . ينزل بين الاعشاب البحرية ويمضي في كهوف الشيطان المسحورة . . . رطبة دافئة هي اغاني عرائس البحر وصداها فوق جدران المغاور . . . يسرع المركب ، يعلو ويهبط في دربه الى المرفأ . . . آه المرفأ . . . يحاول ان يرمي بمرساة فلا يستطيع . . . كأنما صدئت السلاسل . . . يبذل جهداً بالغاً . . . يتصبب العرق منه ، ويعلوهاته ولا يستطيع . . . لا يستطيع . . . يتذكر مباهج المرفأ . . . قرع الطبول . . . نهر النيران الحنون . . . الزلزال البهيج في قوس القزح . . . ولا يستطيع . . . يأتيه صوته ذليلاً : إني آسف . . . لا يجرؤ على اشعال النور . لا يجرؤ على رؤية خيبة وجهها . . .

تنهره : حاول ثانية . . .

يضمها اليه ، فتغرس في صدره كتلتا الاسلاك الشائكة في موضع صدرها ، جرس الهاتف يرن . لايجد صوتاً يرد به . . . مهزوم امام ابواب جسدها المدينة . . . مهزوم امام قلاعها الشهية . . مهزوم وقد استحالت امرأته الى جديلة اسلاك شائكة . . .

ترد على الهاتف بهدوء يدهشه . . . تزقزق : « اهلا » استاذ نديم . اجل ، سألت عنك ولم اجدك فتركت عنواننا . . . صحيح ؟ هذا لطيف حقاً . . . آه . . .

كنا ننتزه قليلاً . . . ماذا ؟ حسناً سأقول له ، وانا واثقة من ان اللقاء سيسعده هو ايضاً . . وانا بالطبع . . . الليلة ؟ . . . آسفة ، غيرمممكن . . . اننا مرتبطان . . . حسناً . الى الغد ، مع السلامة » .

تغلق سماعة الهاتف وتقول بسطوة الاقوى ، الأمر النهائي : هذا نديم . اتصلت به حين كنت في الحمام ولم اجده . يريد ان يراك . . . يرانا . . . ذكر شيئاً عن عمل ما قبل ان اطلب شيئاً منه . . . غداً تكلمه . . . هكذا اتفقنا . . .

لم يجب . . . كان عرق بارد يغسله مثل رجل محموم ، ومناجم تنهار فوق رأسه وهو يركض في الدهاليز وعبثاً يجر جسده المتعب ، الخاوي مثل طليقة فارغة داخل مسدس صدى . .

اضاءت النور . . . ثم ضغطت زراً ثانياً فتوهجت شاشة التلفزيون . . . تطلع الى ساعته وكانت تشير الى الثانية عشرة والنصف . . وتطلع الى التلفزيون فامتألت الشاشة بساعة تشير عقاربها الى السابعة والنصف تقريباً ، وعقرب الثواني يدور مرتجفاً ويصمت . . . اذن غادر بيروت منذ يوم وليلة وبعض اليوم ليأتي الى بر الامان ، يرمي بأطفاله في مدرسة داخلية دوغما وداع ويفشل في امتلاك جسد زوجته . . يتوج بؤسه بسيجارة . .

تمام السابعة والنصف . تختفي صورة الساعة الصامتة بعقربها النابض كشریان ، وتتدفق موسيقى متوترة تغطي خارطة القارات ، ثم يطل وجه المديعة . . وجه مريح وذكي النظرات ، لا يشبه وجه زوجته او بعض مذييعات بلاده بتبرجهن المفرط ، وبأقراطهن الملونة المتدللة كزينة اشجار عيد الميلاد . . هذه انسانة ، تستمع اليها ، بدلاً من التحديق في وجهها الاحتفالي متسائلاً : لماذا تبتسم والمدينة تحترق ، ولماذا تتدل على انقراض قذيفة ؟ . . .

لبنان النبأ الأول .

تظل كفى مسترخية في السرير ، ويقفز خليل متوتراً . . .

يكشف الستائر عن النافذة ، فيتدفق ضوء النهار الطويل . .

تتحدث المذيعة عن القصف الاسرائيلي المستمر لليوم الخامس على التوالي منذ بدأ بعد ظهر الجمعة ٦/٤ بقصف المدينة الرياضية ومخيم صبرا . . . وتعرض شريطاً وثائقياً نادراً قام مندوبهم بتصويره وقتل وهو يحمل الكاميرا وجرح مساعده . . . تذكرت كفى طفلة الجارة التي احترقت في باص المدرسة بعد ظهر ذلك اليوم المشؤوم وسعدت بحظها الذي نقلها واطفائها من ذلك الجحيم وشكرت في سرها اولئك الحمقى الذين حاولوا اغتيال زوجها الذي لا يصلح لشيء - لكنهم يجهلون ذلك - فلولاهم لكان اقتلاع سنديانة قريته بيديها اسهل من اقتلاعه من وطنه . . .

تتجمع الدموع في حنجرة خليل وهو يرى اسرائيل تقصف ، والشوارع التي يعرف ويجب تتحول الى حرائق وخرائب . . . يرى جانباً من المدينة الرياضية . اهذا برج البراجنة ام مخيم شاتيلا ؟ . هذه طريق بئر حسن ، اوتوستراد خلدة والناعمة . يعرف انها تغير ايضاً على سيارات المدنيين في الشوارع . . يعرف طعم ذلك . صيدا مطوقة . . جحافلهم تزحف . قلعة الشقيف تم احتلالها .

( ماذا افعل هنا ؟ ماذا فعلوا بي ؟ ماذا فعلت بنفسي ؟ ماذا فعل كل منا بصاحبه ؟ كيف كيف نامت نواظيرنا عن العقائد ؟ . . )

وتؤكد المذيعة اغلاق مطار بيروت الدولي في الساعة الواحدة بعد ظهر اليوم السابق - الاثنين - بعدما اقلعت منه طائرات قليلة حتى الظهر . . . تفرح كفى . . اذن نجوا من ذلك الجحيم على متن الطائرة الاخيرة . .

خليل يصمت ( اذن اغلق المطار ولم يعد في مقدوري العودة . . كان يجب ان اكون هناك بدلاً من هنا احارب فوق تلال جسدها وعيشاً اغرس راياتي . . كنا نستعد ليوم كهذا . . . وها انا سجين هذه اللجنة المكهربة ) . . .

السيجارة المنسية ابدأ بين شفثيه تستحيل الى رماد يتساقط فوق ملاءة الفراش رماداً متناثراً كبقايا انسان احرق حياً . . ولا يدري لماذا يتذكر الطيران المحموم للنحلة داخل زجاجة الكوكاكولا في المقهى . .

تنهره كفى : لماذا تصر على نثر رمادك فوق السرير والارض وكل مكان . . خذ

المنفضة . . . تناول المنفضة ، وخيل اليه ان احد اعقابها يحمل صورة وجهه ! . . .



« . . . باسم قاهر جليل هليخ ملخي هملوخي هملوخي اجب ايها السيد طحيطمغليل بالذي ذلت له الرقاب وخر له الشم الباذخات وعنت الوجوه وهو الله الحي القيوم مالك السموات والارض وقيومها اسألك بحق هذه الاسماء وهذه الآيات ان تسخر لي روحانية صخر الغنمالي حتى يكون طوع يدي ويقضي حاجتي . . . » .

يجلس رغيد في حضرة الساحر كالطفل . . . انه يؤمن بالارقام والمنطق والكومبيوتر التي يستخدم عشرات منها في مكاتبه ، يؤمن بالفيديو وجداول اللوغاريتمات وبالتلكس والرشوة المادية والنسائية ولكنه ما زال يرتاح لتأييد الساحر . . . والدته كانت تذهب الى البصائر ( المنجم ) في مسقط رأسه بتلك المدينة العربية الجميلة الحجرية الابنية . . . ووالده كان يذهب اليه خلسة . . . والوزراء ورجال الحكم كانوا يتسللون الى بيته تحت جناح الظلام في ذلك الزمن الغابر . . . وقيل له ان النظام تبدل والزمان تحول لكن ( الجدد ) ما زالوا يذهبون الى المنجم . . . تبدل الزبائن وبقيت الطقوس . . .

قال رغيد للشيخ وطفان من غير ان يجرؤ على التحديق في وجهه : ارجوك ان تعقد لي لسان شقيقه التوأم هلال . . انه يريد بي شراً ويحول بين الناس والخير . . . اريد تعمير مطار لهم وهو يريد هم على الدواب . . ارجوك يا سيدي الشيخ . . . « ارجوك يا سيدي » عبارة لا يقوها الا للساحر . . وحتى في لحظات لقائه والملوك والامراء والثوار والمرتزة ورؤساء الدول لم يكن في حاجة الى استعمالها . . . وحده ساحره يخيفه ويؤمن بمقدرته . . .

« . . . سم حم . . . صم بكم بكم عمي فهم لا يبصرون اللهم كما ربطت افواه الاسود عن دنيا ان تربط ألسنة الخلق عن رغيد الزهران .

. . . شقيوش شقيوش شردلوش شردلوش ليطوش ليطوش قاطوش قاطوش شانوش شانوش كيلموش كيلموش ماينوش ماينوش هيدبوش هيدبوش شانوش . . خرفيدوس . . ناريوش . . امسك لسان هلال الغنمالي الوحا العجل الساعة .

... حطم ٩٢١١٩ وله اليوم تختم على افواههم اللهم اختم على لسان هلال الغنمالي ... »

- ارجوك يا سيدي الشيخ ، اريده مريضاً ... زد في مرضه فهو الآن هنا في جنيف ..  
جاء يستشفى ... دع الطب لا ينفعه في شيء ...  
- احضر لي بيضة وقطراناً ومداداً اسود ومثقاباً للبيضة ... سأكتب عليها ما يلزم يوم السبت أو الثلاثاء واثقبها واجعلها على احجار ثلاثة حتى يسيل جميع ما فيها وأنا اعزم عليها ٣١ مرة ، ثم دع نسيم يدفنها في قبر لا يزار ..  
- ارجوك يا سيدي الشيخ .. الآن ... اعزم الآن

« ... عزمت عليكم ايتها الارواح المتوكلين بالامراض ان تمرضوا هلال الغنمالي بحق هذه الاسماء والقلطريات بحق بعضكم على بعض وبحق ما انتم في طاعته وبحق لجش ولويش وشويش وبحق ابك لش حلاش افعلوا ما تؤمرون به الوحا العجل الساعة .. »  
- المزيد يا سيدي الشيخ ، المزيد ...

- يوم الاربعاء بعد صلاة العصر احضر لي قطعة من اللحم النيء ، واسم والدة هلال الغنمالي ، وسأكتب عليها ما يلزم ونجعلها في نار دائمة الوقود ... تذكر ان تحضر لي اسم والدة هلال الغنمالي ..

- المزيد يا سيدي الشيخ .. المزيد ... يريد حرمان الناس من العلم والحضارة والنور ... لا يريدني ان اشيد المطار ..  
- عد الي يوم الخميس في ساعة الزهرة او ساعة المشتري وسأكتب لك ما يلزم لعقد الالسنه وجلب الزبون ...

« .. تغياب سيغاب سليوب هيطوب ططوب سطيوب طاطوب ...  
... يا اهيا شراها ادوناى اصباؤت آل شدى القوى الطابقة هورب النور الاعلى الذي اذا نظر اليه جبريل الملك العظيم خضع وتواضع لعزة هذه الاسماء كذلك يخضع ويذل ويتواضع كل من يرى رغيد الزهران الوحا الوحا العجل الساعة الساعة ... »  
تندفق الدموع مدراة من عيني رغيد .. يبكي كطفل بين يدي ساحره كما يبكي امام موته الآتي المرتسم في قبره ، بينما تناول ساحره ورقة خاصة شفافة كجلد بشري مقدد وكتب فوقها : « هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون لا يتكلمون الا من اذن له الرحمن وقال صوابا افمن هذا الحديث الآية اللهم اني اسألك بحق سوسم دوسم براسم طراسم كراسم



وبحسن حسنك وبنور وجهك وببساط رحمتك والسبعة والثمانية بأسرارها المتصلة منك وباسمك المكنون ويطاه يراطه وبكاه بركاء وبما عقد به السنة الموتى والبهايم وبما عقد الله السباع عن دنيا والياس ٣ سنين و ٧ اشهر وبما عقدت به المطر فلم ينزل من السماء على الأرض اسألك اللهم ان تعقد عن حامل كتابي هذا رغيد الزهران السنة الخلق والشر من كل انثى وذكر فلا يتكلمون الا بخير ويصمتون ويحق سلسال رؤوسهم كالجال والسنتهم كالبرادع صفا صفا وله برعا اللهم انك سددت فم المساء بالكواكب وسددت فم الكواكب بالشهب اللهم اني اسألك ان تسد افواه الخلق والبشر من كل انثى وذكر عن رغيد الزهران حامل كتابي هذا لا يتكلمون الا بخير او يصمتون » . . .

عبر ابخرة البخور ، طوى الساحر الورقة بطريقة خاصة وناولها لرغيد قائلاً : لا تفتحها ولا تقرأها ، واحملها معك في حلك وترحالك . . .

- سؤال اخيرا سيدي الشيخ . . هل حضر احد من جماعتي اليك في الفندق ؟ هل اعرف احداً ممن زارك ؟

- هذه اسرار الجان لا ابوح بها للإنسي . حاجات الناس اقصيها ، فأنا لست اكثر من واسطة بين البشر والقوى الخفية . . لست محققاً لأعرف ما اذا كان احدهم ظالماً حقاً او مظلوماً . . . يحاسبون على نياتهم وافعالهم امام خالقهم . . .

- الا يمكن ان تلازم القصر هنا وتنقطع عن الذهاب الى مقرك السابق في الفندق ؟ . . سأدفع لك ما تشاء . . سأحضر لك ما تشاء ، وتنقطع لتحويل المعادن كلها الى ذهب . . . - سأفكر بالأمر . . .



غادر امير المقهى وهام على وجهه وقد خلف على منضدتها شاباً آخر سيجوع بعد ساعات . . . . وقد قذف به الوطن الى اللجنة الموعودة . . . ماذا كان اسمه ؟ خليل الدرع ؟ ما الفرق . . . كل يوم ينزف الوطن ويرمي بهم الى الغربة نهراً من الهدر . انه بالتأكيد ليس من فئة الاثرياء الهاربين بكنوزهم من وهج الثورات التي يخشونها . . . ولا من ابناء الباشاوات . تراه من اولئك المغامرين الباحثين عن الثروة والمغامرة بين فتات موائد بعض

الاثرياء العرب الذين اتخذوا من اوروبا وكراً وملجأ ، اولئك الذين وطنهم المال وجواز سفرهم دفتر شيكاتهم وبيوتهم طائرات خاصة تنقلهم بين غرف نوم متناثرة في ارجاء الأرض ، لا قضية عامة تشغلهم ، ولا خاصة غير ان يصير الثري اكثر ثراء . . . هل هو قادم للتمسح بهم ؟ هل هو مرشح قواد لراقصة او مطربة ؟ لا يبدو ذلك على وجهه الصارم ، وسيفشل في ذلك حتى لو حاول . ليست لديه ( الموهبة ) ، ويفتقر الى ( خامة وغد ) . . .

ام تراه من تلك الفئة التي قررت ببساطة ان ثمة حياة افضل في مجتمعات اخرى غير بلادهم ؟ . . . شاب متعلم ، مرهف ، ضعيف امام قسوة الحياة ، جرب محاولة التبديل في وطنه وفشل وركب الطائرة هارباً بعد المحاولة الأولى . . .

او لم يكلف نفسه عناء التجربة ، وانما قرر ان ما تبقى من عمره على هذا الكوكب لا يزيد على نصف قرن ، وهوزمن اطول بكثير من ان يقضيه في البؤس ، وقل بكثير مما يلزم لتطوير وطنه . . . فيمم وجهه شطر الغربية اثر خيبة ذاتية صغيرة ضخمها ودفنها في قبر وبني حولها ( تاج محل ) جديداً ؟ . . . اليس ذلك ما فعلته تلك المجنونة الغالية ليل السباك ؟ الم تقرر ان الوطن العربي مفصل على قياس الرجال ، وهي كفتاة متعلمة متخرجة من ارقى الجامعات الاوروبية لن تعود للعمل في الوطن . . . معظم القوانين هناك تعاملها كمواطنة من الدرجة الثانية ، وكلما ارادت جواز سفر مثلاً كان عليها ان ترافق شقيقها المعنوه الى دائرة الشرطة بصفته ولياً لأمرها ، هي الاستاذة الجامعية . . . وهو المعنوه المتنقل بين البيت والمصح . . . وسيكون عليها مرافقة زوجها بعد شقيقتها ، لاجراء المراسيم ذاتها في كل حفل . . . لن تنجح الا اذا رضى ذكور العائلة ، ولن تنال قسمة من رغبة النجاح الا اذا وافق ذكور المجتمع على ذلك . . . فقررت ان تتزوج اوروياً وتبقى في الغرب . . . حيث تستطيع على الاقل ان ترث زوجها في حال وفاته ، بدلاً من طردها من البيت اذا لم تنجب ذكراً لاستيلاء ذكور العائلة من اشقائه على جني العمر المشترك . . .

اجتاز امير جسر « المون بلان » وتابع دربه نحو ( كي ويلسون ) مشياً على الاقدام صوب بيتها . . لماذا لا يستطيع ان يتأمل جمال البحيرة وحسن الصبايا العابرات بدلاً من الغرق في بحيرة افكاره ؟

لماذا يكتب باستمرار ، بصورة خاصة حين لا يكون ممسكاً بقلم ، ولا جالساً خلف منضدة وانما ماشياً في درب جميلة تحذر الناس عادة بمهاجها عن كل شيء ؟ لماذا يظل يكتب

داخل رأسه ، يكتب دراسات وابحاثاً وعرائض احتجاج يوقعها باسمه ملايين المرات عن ملايين الصامتين المخدرين ؟ لا . لا يبدو ان خليل من فئة ليل . . . لا تبدو غربته شاعرية وجودية . . . كان شبيهاً بشخص سقط سهواً في المطعم والمقهى ، مثل غلطة مطبعية اقترفتها الحياة بحقه . . يتذكره مدعورا ومكهرباً بالذل والقلق .

تراه من الفئة الثالثة ، التي حاولت البقاء في الوطن والتبديل رغم سياط القمع وقوى التشريد وقهر الناس في رزقهم وكراماتهم ؟ خليل هذا ، هل ( اشتغل بالسياسة ) كمحترف ؟ لا يبدو عليه ذلك ايضاً . . . ام انه كان يتجراً على قول رأيه فقط ، وتلك جريمة لا تغتفر ؟ ينبذه بعض مجتمعه المقموع خوفاً من زيادة سياط القمع على الجميع بسبب امثاله ، يحاول اهله اسكانه قبل اعدائه . . ثم يسجنه مجتمعه بالقطيعة ويسوره في قفص الرفض لسلوكه الشاذ ، قبل ان تسجنه سلطات ما في دهاليزها . سيواجه الحصار من قبل الاهل قبل اجهزة القمع . . . تراه مشروع مناضل ، جرحته الخيبة ، وقتله جوعه الى الديمقراطية والحرية اللتين يتناقص او كسجينها يوماً بعد آخر في فضاء معظم الوطن العربي ، هرب ليس طمعاً بالنقود والاثراء بل لأنه - بكل بساطة - فقد طاقته على الاحتمال ؟ . هل انهارت احلامه ويش من التبديل نحو الاقل رداءة فقر الهرب من الطوفان حاملاً بؤسه وحلمه معه ؟ .

ام انه طالب علم يفتش عن مورد رزق اضافي ؟ المأساة انهم لا يعودون بعد ذلك الى الوطن . . معظمهم لا يعود . يتفرنجون ويبقون في اوروبا ويتزوجون وينجبون اولاداً لا ينطقون كلمة عربية واحدة . . . انه يحاول تحذير طلبته دوماً من مصير كهذا ، ولكن . . . هل هو مشروع مثقف قادم للارتزاق و ( الاستزلام ) لمن يدفع اكثر ؟

أم تراه عنصراً فعالاً في احدى شبكات المخابرات العربية ، يجرب الاندساس بين شبكات المناضلين العرب ؟ هل كان يتجسس عليه شخصياً ؟ هل قرروا إعادة الكرة بعد محاولة اغتياله السابقة الفاشلة وأحسنوا اختيار تنكر جلاديه الجديد ، كفقر متعب ؟

ام انه جلاد سابق مطرود من عمله ، ومرتزق هارب من غضب زبائنه السابقين واولادهم واحفادهم ؟ . . . ما الذي قذف به الى هنا ، اللقمة ام البطر ؟ القمع ام شهية الرفاهية ؟ . . . اهو من فئة المناضلين الهاربين ؟ ام من فئة القامعين الهاربين من القمع الجديد البديل ؟ هل هو جلادي الخاص المرتزق ؟

لم يعد المرء يعرف شيئاً . . . يتجاوز حديقة « مون ريبو » وينعطف في الاتجاه المعاكس

لحديقة « بيرل دي لاك » ليمشي صعوداً صوب فندق الانتركونتيننتال وحي ( البودية ) . . .  
يهاجمه سرب من ملايين البعوض مثل غيمة تحيط برأسه ، يحاول ردها عن وجهه بيديه ،  
فتزداد كثافة . . . تقطع عليه تدفق افكاره ، ولحظة يكف عن الكتابة داخل رأسه  
تختفي ! . . . لا . . . لا يعتقد ان ذلك الشاب الغريب خليل الدرع ، من الجواسيس  
والارهابيين ، ولكن المرء لم يعد يعرف شيئاً حقاً هذه الايام . . المفاجآت كلها ممكنة . . من  
كان يصدق ان امرأة رائعة مثل ليلي تقبل بالعمل مع وغد هورغيد الزهران ؟ . . بل انها كما  
قليل له تحاول جهدها لتفوز برضاه ، وهي التي كانت تحتقر امثاله . . .

منذ ثماني عشرة سنة ، هربت من بلادها كي لا تتزوج من النسخة المحلية عن رغيد  
الزهران ، وحلمت لنفسها بمصير آخر ، وهي اليوم تحاول جذب انتباهه وامثاله ؟ انه لم  
يفتحها بالامر . . . ينتظر ان تتبلور الامور . . . صبره طويل ، اطول من عمره . . . صبره  
يمتد على عشرات الاعوام ، بل ومئاتها . . . وحين يخطط لوطنه يرى الاشياء من ضمن هذا  
المنظار ، فلماذا لا يترك ليلي تقرر مصيرها بهدوء خلال العام المقبل على الاقل ؟

سحابة اخرى من البعوض تهاجمه وتحيط برأسه تدخل الى انفه ، وتحاول احتلاله ويكاد  
يشرق بها ثم يحبس انفاسه . . . كالهالة . . . بعوض البحيرة هذا ، لماذا لا يصورونه في  
البطاقات السياحية ؟ لماذا لا يشرق الناس به حينما يتلمظون باسم جنيف كالحلم الشهى  
المستحيل ؟ . .

( لا تكن جاحداً . لا تفتش عن العيوب في كل مكان غير وطنك ، ولا تنظر الى مكان  
مدهش كهذا بعين السخط ، وتأمل ذباب وطنك بعين الرضا . . . تستطيع ان تحب  
وطنك من غير ان تتحامل على الاوطان الاخرى . . . لو لم تمنحك جنيف ملجأ هادئاً لكان  
جلاد بلدك قص رأسك وتناوله طعاماً للافطار . . . لولا امنها لذبحك الجلاد الجوال . . .  
ولما وجدت مكاناً تخط فيه سطورك دوغماً خوف ، وتكتب وتكتب ، وناشرك يتوسل اليك  
تخفيف ( الدوزاج ) ويشطب لك البعض ويفرض نشر الآخر . . . لكن كتبك تتناسل  
وتتكاثر كالاطفال العرب ، ولم تعد غريباً حقاً ولك في معظم البيوت الفقيرة موضع . .  
قلب . . . بحجم غلاف كتابك ) . . . . .

يصل الى حي ( البودية ) الهادىء . كأنه مكرس للطبقة العربية البورجوازية من غير  
اصحاب الملايين . . لاصحاب الملايين حي آخر وللفقراء نسبياً احياء كالمكان الذي يقطنه  
في ( السيرفيت ) . وكما في الوطن كذلك في الغربة . . كأن مجتمعهم هنا صورة بدائية مصغرة

مفصلة على عشائهم هناك .. يصعد السلم مشياً ...  
( هل انا ذاهب حقاً لعيادة ام ليلي المريضة ، ام انني اتخفى خلف اللياقات الاجتماعية التي لم آبه يوماً بها ؟ ) .

انها تقطن في الطابق الأول ولا حاجة به لدخول ذلك التابوت الخشبي الحضاري الملقب بالمصعد . كم يفتقد هذا المكان . يرن الجرس . منذ زمن بعيد لم يزرها . يرن ثانية . لم يتشاجرا ، ولكن كلا منهما انحسر داخل صدفته ، فقد كان اي حوار سيقود الى قطيعة ، فتجنبها معاً .. يرن الثالثة ... تفتح ليلي الباب مضطربة ... وتعود راكضة الى الداخل وهي تقول : اعذرني ... امي .....

يدخل ... يتجه صوب غرفة الأم ... يعرف المكان جيداً ويفتقده . يجد الجدة ممددة في فراشها ، شاحبة وبلا حراك ، الحفيدة امام النافذة ، مرتبكة ونصف مذعورة .. يسألها بالفرنسية : ميريام .. ماذا حدث ؟ ... تقول : لا ادري . لم تكن امي قد وصلت بعد .. ناديتي جدتي . كانت تلهث شاحبة ، احتضنتها ، وصارت تقول لي اشياء بالعربية وانت تعرف انني لا افهم العربية وهي لا تنطق كلمة واحدة بالفرنسية ، وبدت متوجعة ، وحاولت ان اركض الى الهاتف لاتصل بأمي او بالاسعاف لكنها تمسكت بي بقوة خارقة وكادت تجرح يدي ... وتابعت كلامها وكأنها تؤنّبني لذنب اجهله ، مثل مجنونة معذبة . خفت وخيل الي ان هذه ليست جدتي حقاً او انني لم اعرفها ، وحاولت التملص منها ولم استطع وصرت ابكي واصرخ وهي تصرخ في وجهي كأنها غاضبة مني او تريد ان انقل لامي وصية او لعنة وتلفظ اسمها واسمي واسماء اخرى كثيرة لا اعرفها ، لعلها اسرتها في وطنها ... ثم انهارت بين يدي صامتة .. وصلت امي ... حدث ذلك كله بسرعة خارقة ... منذ دقائق ...

امير ينحني فوق فراش الجدة ... وجهها مسترخ كالشمع ... لا نأمة ... لا ومضة .. التجاعيد مسترخية . في عينيها نظرة شبيهة ببريق مصباح انطفأ .. نظرة .. انحسرت الى دهليز سري في الداخل ... هل يمكن ان تكون ماتت ؟ .. تناول يدها بين يديه ليحس نبضها .. شاهد الوشم الازرق على ذراعها . للمرة الأولى يلحظه ، كأنه رسالة بدوية من الصحراء لم يحها شيء .. تدخل ليلي هامة : الطبيب قادم .. اتصلت بالاسعاف ايضاً ...

تظل يد امير ممسكة باليد الهامدة .. كأنها ماتت وانتهى الأمر ... لم تبرد بعد لكنها

ماتت . . لا يجرؤ على ان يقول ذلك ، ولعل ليلي حدسته وهي تتلمس وجهها الفاتر المسترخي . . . يظل يحرق في الوشم الازرق . . . يتذكر ان ام ليلي لم تزر احداً هنا يوماً ولم تُزر وظلت تستميت لانكار الغربة وتجاهلها ولم تتحدث الى جارة ، وظلت معتصمة ببيتها لا تخاطب بائعاً ولا تمشي في شارع . . . ولا تصادق اجنبية لانها لا تعرف الفرنسية ، ولا تصادق عربية لانها لا تريد ان تعترف بأنها غريبة . . . ملتصقة بابنتها في صمت حزين ، قائمة على تربية حفيدتها مريم حتى سن الثانية حين تم الطلاق بين ليلي وزوجها الفرنسي . . والغريب ان مريم كبرت وهي لا تنطق العربية ، فقد عاشت مع والدها حتى المراهقة في باريس ، وعادت الى امها بعد موته منذ اشهر . . . هذه هي ليلي ، قوية لا تأبه لعواطفها امام قناعاتها ، لم تشأ ان تنشأ مريم ممزقة مثلها ، تمتتها فرنسية فقط كوالدها ، دون ان تورثها وشم الجدة ، وغصات الغربة والالانتهاء في قلبها هي . . . فتركتها له يربيهما لوطن واحد . . وصل رجال الاسعاف . احدهم تحسس المريضة . اضاء مصباحاً صغيراً في عينيها . انصت الى قلبها ، ثم اسدل جفنيها بلا مبالاة روتينية وغطى وجهها .

خرجت مريم راکضة نحو الشارع ولحق بها فريدريك ، صديقها المراهق السويسري الذي كان جالساً في الصالة بهدوء مهذب وهو يناديها : ميريام . . . ماري . . ولمح امير وجه الفتاة الهاربة وظلمة ما خلف الباب تغيبها ، وخيل إليه انه شاهد على ذراعها وشماً ازرق بدوياً كوشم جدتها . . .

اقترب من ليلي مواسياً . قالت بأسى كأنها لا تسمعه : انا التي قتلتها . . . وظلت تكررهما وهو يقول اشياء تقليدية نصف غبية . . .

- العوض بسلامتك .

- انا التي قتلتها .

- كلنا على هذا الطريق .

- انا التي قتلتها .

- اني آسف . . لا ادري ماذا اقول . . .

- انا التي قتلتها . . انا التي قتلتها . . .

انفجرت باكية وهي تردد العبارة ذاتها في هذيان محموم . . .

( اوصلت ليلي الى البيت بعد سهرة ممتعة . اخرجت مفتاحها ، وقبل ان تدخله في

القفل همست حارة كـرغيف طازج : قبلي . الآن . امتلكني هنا . على السلم .

ارتبكت . لم يحدث ان قبلت امرأة امام بيتها . كنت ارى ان ذلك يحدث في الافلام  
الاميركية وطالما شاهدت العشاق يتبادلون القبلات امام الباب والتاكسي ينتظر العاشق  
وعينه على العداد ، والاب يراها ولا يبالي . . . لكنني لا استطيع ان اكون في وضع حميم  
مع امرأة ، في مكان غير حميم . . . صارت تشاكس كطفلة . . . « ارجوك قبلي  
الآن . » . . . تناولتها من شعرها الاسود الطويل الممتد حتى اقاصي الليل ، وابتحرت على  
ثغرها الى جزيرة الفرح الاستوائي . . وفجأة ، فتحت امها الباب . ابتعدت وقد انسكب  
المطر البارد فوق رأسي ، وغمرني خجل عميق مذعور كما لو عدت مراهقاً . . . ليلي بدت  
لامبالية . . . الام لم تقل شيئاً . . لكنها رمقت ابتها بنظرة كلها دهشة . . دهشة طفلة  
مفعمة بالحزن ، مثل فتاة صغيرة اكتشفت ان امها المعبودة غانية رخيصة . . . بدت ليلي  
متماسكة وناضجة كأمر قاسية ، وبدت امها مضطربة مذهولة كطفلة ! . . .

ظلت الام مسمرة لشوان او سنوات لا ادري ، ودمدمت انا ببعض الكلمات  
معتذراً . . . لعلي قلت : ستتزوج . . . المعذرة . . . آسف . . . او شيئاً من هذا  
القبيل ، اما الام فانسحبت . . . واغلقت ليلي الباب وجرتني من يدي هامة : تعال نتمشي  
قليلاً . عدنا الى الليل . . . والارصفة . . . والقمر السويسري الفاحش الجمال في  
اطلالاته النادرة . . . قالت ليلي نصف ساخرة : رافقتي امي الى الغربية حفاظاً  
على «سمعتنا» يوم قررت العمل هنا وهجر الوطن .

- ردة فعل طبيعية . . .

- قالت لي انني اعاني من عقدة العظمة والتفوق ، وان اقامتي في اوربا نزوة ستقضي  
لنعود معاً دوغماً فضائح . .  
- وجهة نظر . . .

- لكنني تزوجت فرنسياً كما تعرف . . . ووجدت هي نفسها في مكان تعجز عن تحديد  
موقعها فيه وموقفها منه . فرفضته . باختصار . . . رفضته حتى جنون المكابرة . . .  
سجننت نفسها في هذه اللعبة الملقبة بالبيت ، على امل يوم العودة الى الوطن . . . رفضت  
الانضمام الى « الجالية العربية المغتربة هنا » ، فهي عابرة سبيل في دربها الى الوطن ولا تريد  
الاعتراف بغير ذلك . . .

- وانا مثلها . . .

- وصبرت طويلاً داخل قوقعة عزلتها الوحشة وغربتها الخالصة . ولم تكن تغادر

البيت الا الى الحدائق العامة ، وتقضي ساعات في اطعام العصافير ، تحمل اليها فتات الخبز ولا تخاطب سواها . . .

. . . كرهت زوجي لمجرد انه ليس عربياً ، وسعدت بطلاقي منه ، وبكت طويلاً يوم عادت اليها مريم واكتشفت انها هي ايضاً لم تعد تعرف العربية . كان امراً بائساً ان لعب دور المترجم بين امي وابنتي . . . وذات يوم اعلنت امي انها ستذهب بها في اجازة الصيف الى الوطن ، لتقابل اخوالها واسرتها ، وربما تتزوج عربياً . . . ترجعت ذلك لمريم فسخرت من الزواج بعربي معلنة عزمها على الزواج من فريديريك امام جدتها ، التي لا تعرف الفرنسية لحسن الحظ ، ام تراها تفهمها وتتجاهل ؟  
- لا ادري . . لكنني مرتبك جداً لما حدث . .

- مرتبك ؟ لو شاهدت وجهها يوم ذهبت ميريام للمبيت مع فريديريك في بيته . . .  
- وانت ؟ هل سمحت لها ؟

- ولم لا . . . هل تريدها ممزقة مثلي بعضها عربي وبعضها الآخر غربي ، يتشاجران طوال الوقت ؟ . . انها فرنسية ، فلتعش مثلهم !

- انني مرتبك جداً . . لا ادري كيف سأواجه امك بعدما حدث . . .  
- ايها العربي الهزلي . . انها تعرف اننا عاشقان وانني اقبلك وتقبلني ، فلماذا لا تقع الكارثة الا اذا شاهدوا ذلك يحدث ؟ لماذا يفرضون علينا السرية الارغامية ؟ . .  
- هذا تبسيط مبالغ به في النظر الى الاشياء . . .

- اجل ! ولكنك انت ايضاً تمارسه . . . كقولك لها مثلاً اننا ستزوج . . .  
- المعذرة . تعرفين حكاية زواجي واولادي الخمسة . . . هي لا تعرف . ستظنني أهو معك .

- اعرف الاسطوانة . زوجتك مثل صديقة . لا حب بينكما ولا تفاهم ، لكنك تشعر نحوها بالجميل فهي سيدة فاضلة تحسن تربية اولادكما وتصبر على تشردك ولن تجرح الاولاد بالطلاق الى آخره . . . .

- ارجوك يا ليلي . . . كانت امسية خارقة العذوبة ، فلا تبالغي بإفسادها ، كما تبالغين باعتبار امك « الرمز » لكل ما تكرهينه هناك . . .

- انت تؤكد باستمرار انني « مثقفة فضفاضة الانتباه » وانني اسبب لنفسي ألماً بالغاً وادمر حياتي . . . وان الانتباه حاجة لا ترف . . الا ترى انك انت ايضاً فضفاضة الانتباه



الزوجي ؟ ...

- هل انت جادة في رغبتك بالزواج مني ؟

- انا جادة في رغبتى بأن ترغب انت في الزواج مني !! .. وقد اقبلك بعد ذلك او

ارفضك ...

ظللت صامتاً ووجوه اولادي تتألق داخل رأسي في ضوء القمر ... ولم تبادل كلمة واحدة حتى اوصلتها ثانية الى البيت .

قالت بإصرار كما في المرة الأولى : قبلي . هنا . الآن . امام الباب ... لن تكررهما امي ثانية ...

- وانا ايضاً لن اكررها ثانية !

وركضت هارباً وضحككتها المشاكسة تلاحقني ونظرة امها تشلني ) ...

لا تزال ليلى تنتحب وتكررين لحظة واخرى عبارة واحدة : انا التي قتلتها .. انا التي قتلتها .

لم يتركها امير بعد ساعات الا وقد مددها في فراشها كالطفلة ، وملأ جوفها ببعض الاقراص المخدرة المنومة ... واستمع واياها بصمت الى موسيقى جريك وشومان وبرامز التي تحب .. ولم يجرؤ على وضع شريط عربي من تلك التي فوجيء بوجودها ، فلطالما سخرت ليلى من الموسيقى العربية كلها . ( لعل احدهم نسيها هنا ) ... ثم انصرف على رؤوس اصابعه ... وحده ان مريم لن تعود الليلة فهي تقيم وفريدريك منذ اسابيع قبل ان يتفقا على الزواج بزمان ...

هبط السلم مشياً ببطء ... والوشم الازرق للجددة يرقص امام عينيه ، ولملمس يدها الداوية نصف الباردة كملمس رمل الصحراء في ليل شتائي ما يزال بين يديه ... حين غادر باب المبنى ، توقف تحت الشجرة يلتقط انفاسه ويحدق في النجوم التي كانت تبدو ثقوباً مضيئة في ليل بلا نهاية ... تطلع الى غرفة ليلى وفوجيء بالنور يضاء فيها ... وصوت موسيقى باخ تتوقف فجأة بعدما كان قد ادار اسطوانتها قبل ان يغادر . اذن لم تنم ليلى حقاً .. دخلت كعادتها في الصمت ... جمد في مكانه ... وبعد قليل جاءه صوت ام كلثوم في اغنية قديمة شجية ... من كان يصدق ان ليلى تحتفظ باسطواناتها ، وتستمع اليها سرّاً ؟ ...

كان لديه كثير يقوله لليلي ... عن علاقتهما ، وبالتحديد عن علاقتها هي برغيد .

لكن الجدة قالت كل ما لديها الليلة . . . بصمت . . . بضربة واحدة من يدها المضمخة بالوشم البدوي الازرق . . . هل ستدفن هذه اليد في مقبرة ( الجراند ساكونكس ) ؟ . . . وهل ستهدأ عظامها هناك ؟ وهل يتساءل الناس بعد ذلك عن سر اشباح الموتى في المقابر ؟ لماذا لا يرقد الاموات ويدعون الاحياء بسلام ؟ ربما لأن الاحياء لم يدعوهم يموتون في سلام . . . ترى هل شبح الميت هو ببساطة ضمير القاتل المثقل مرتسماً على شاهدة القبر المستطيلة كتلفزيون الابدية ؟

ترى هل ستظل تلك اليد العجوز تصفع ليلى في احلامها والوشم الازرق يتوهج في ليل الكوايبس ؟ . . .

ألن يخرج شبحها كل ليلة من مقبرة ( الجراند ساكونكس ) صارخاً في وجه ليلى ، طالباً العودة الى البادية ؟ . . . هل كان موتها هدية العرس لمريم وفريدريك ؟ وهل سيكون في مقدوره يوماً أنه ينسى ذلك المثلث الجهنمي : الجدة ، ليلى ، مريم ، حتى لو نسي يوماً حبه العميق لليلى المتناقضة المتوهجة ؟

وهل يستطيع الامتناع عن التساؤل : ماذا قالت الجدة بالعربية لحفيدتها التي لا تفهم غير الفرنسية ؟ . . . لن يدري احد ذلك . .

ترى هل تستطيع مريم ان تتابع حياتها من غير ان تتساءل عما صرخته في وجهها تلك الجدة ، وهي تمد يدها ذات الوشم البدوي وتشير بإصبع الاتهام لحظة احتضارها ؟ . . .



اعدت كفى نفسها للعشاء (الانتيم) كما سماه نديم . . مرت بصالون الحلاق لاعادة تصفيف شعرها (كودي بين)، وارتدت ثوباً ازرق يكشف مفاتها ويبرز زرقة عينيها. حينما ترتدي لوناً كهذا ، يعرف خليل انها ذاهبة الى الصيد للايقاع برجل ما بصنارتها الزرقاء . هذا ما فعلت يوم صارت تتردد على مكتبته ريثما جرت به بحبل ازرق الى بحارها . . خليل ما يزال يرتجف قهراً بعد الزيارة الارغامية لبائع الملابس ، لشراء زي رسمي (معاصر) للسهرة ، لا كثيابه العتيقة التي قررت كفى انها لا تصلح لشخص يحاول شق دربه الى الشراء وبداية حياته من جديد مع اشخاص (محترمين) من اهل القمة . . .

شيء آخر يعذبه بينما التاكسي يحملها الى فيلا نديم ، الساعة الآن هي الثامنة الا الربع كما اكدت كفى ، وقد فاتته نشرة الاخبار التلفزيونية في قناة (السويس رومان) وتبدأ في السابعة والنصف ، كما ستفوته في القناتين الفرنسيتين (تي إف ١) و (فرانس ٢) في الثامنة . . صحيح انه قضى صباحه يقرأ في الصحف كل حرف عن لبنان ، ويفتش عن مواعيد بث الاخبار التلفزيونية ، واستطاع مراقبة (الفلاش) الاخباري في الواحدة ظهراً رغم الحاح كفى بتأجيل ذلك والذهاب الى أحد المطاعم قبل موعد اغلاقه كي لا تفوتها وجبة طالما حلمت بها في مطعم « لوباتو » . الراسي على ضفة البحيرة ولكنه يتحرق لسماع اخبار بلاده ، كأنه خلف كيانه هناك ، وجثته تتحرك وحيدة في المنفى . . . قرب الـ « جاردان انجليز » وساعة الأزهار .

سيكون همّ الليلة محاولة العودة قبل العاشرة والنصف ، للاستماع الى نشرة الاخبار . . . هل استطاعوا احتلال الجنوب حقاً ؟ خلدة ؟ ماذا يريدون ؟ ( كم انا مضحك . . . لقد اعلنوا على الملأ ما يريدون ، ويغن يؤكد كل يوم بحروف مكتوبة بتشكيلات الطائرات المهاجمة القاصفة . . هل ثمة من يستطيع متابعة أكل الخيار المملح على الشرفة والتأكيد بأن تلك المذابح الماضية والآتية كانت نتيجة سوء تفاهم لا أكثر ؟ ) .

. . . انه حزين وخجل لأنه هنا ، وسط ذلك المساء المشع ، والنهارات الطويلة المغسولة بالترف وهناء العيش ، وقومه يذبحون هناك . . وقريته ، هل تم احتلالها ؟ هل قصفت السنديانة العتيقة . . . رفاقه . . دنياه . . مكتبته . . قبر وداد وامه ؟ . . . وها هو ذاهب الى بيت رجل يحسده في بيروت اهل الحي جميعاً - ولا يحترمونه - طمعاً في إيجاد عمل ، كي يظل طفلاً في المدرسة الداخلية السويسرية وتشتري كفى ساعة (بباجه) وولاعة (كارتيه) وتايور (تيد لايدوس) وماكياج (ايف سان لوران) وحذاء (شارل جوردان) ، وبقية (القطاعات المترفة) التي قضت يومها تحوم حول واجهاتها وتجبره معها وتخطط لمستقبلها معاً : هي والبضائع ! . . وهو ذاهل عن ذلك كله ، كمن غادر فخاً يسقط في فخ من نمط آخر . . .

فيلا «الجوهرة» . . .

حديقة . سلم رخامي . باب خارجي من الخشب المحفور ينم عما بداخله . كفى ترن الجرس . صوته موسيقي رخيم . ينشق الباب عن خادمة في ثياب خاصة ، ودنيا من

المتحف الفاخرة . . . يدخلان ، لا ينظر احدهما إلى الآخر . . . كفى تتأمل السجاد العجمي ، لمباديرات (الجالية) المضاء البهية الألوان ، ولها اشكال نباتات الفطر . . المقاعد الخشبية التي حفرتها يد فنان ولونتها ، كريستال الثريات ، المزهريات (السيفر) الفاخرة ، مقابض الابواب الذهبية ، تحمل الجدران . . . ثم تشهق شهوة وغيرة وغصة ويسمع خليل صوتها شبيهاً بفحيح افعى . . . لا يلتفت . . . منذ دخوله جذبته عينان لامرأة في لوحة تنصدر الجدار ، فاتحه نحوها غافلاً عن كل شيء آخر . . زيتية تمثل شابة في بداية عشريناتها ، حلوة القسمات ، في عينيها نظرة تصميم وتحد وامل دونما تشنج أو صرامة . . او غنج . . وجه انساني كثيف الحضور ، وقد أكد الرسام ذلك حين رسم العنق والكتفين بلون ضبابي شاحب مؤكداً حضور الروح الوثابة الايجابية وغياب مادية الجسد . . . حلق في الشفتين ، اهذه ابتسامة التفاؤل أم الثقة بالنفس التي تتجاوز التفاؤل الرومانسي ؟ دخل نديم بعد برهة ، كأنما ترك لضيوفه فسحة من الوقت لالتقاط الانفاس والاعجاب بهذا المتحف الصغير ، ترافقه سيدة اربعينية الملامح في ثوب اسود تزينه ماسات اشتعلت هنا وهناك ، عند الصدر والعنق والاذنين والاصابع .

قدمها نديم اليها : زوجتي دنيا . . .

تأملت كفى مجوهراتها باعجاب وحسد بالغين ، وشدت على يدها بحرارة وهي تصافحها . . . اما خليل فتعلقت نظراته بالعينين الحزيتين في الوجه نصف الذابل ، ( حملها بحنان وركض بها بسرعة ووضع رأسها تحت (الدوش) وغسل عنه اكداً طبقات الماكياج بيديه ، ثم ابعد شعرها عن جبينها ووجهها وامسك بعنقها بين راحتيه وشاهد الوجه المميز لفتاة اللوحة بعدما مرت به عاصفة الزمن ، وتركت بصماتها فوق كل شيء : الخدين والشفيتين والعينين . . . وحتى تلك النظرة المتوثبة ، تحولت الى شعاع اسود حزين بعيد الغور . . . لكن شيئاً ما لم يتبدل حقاً . . . صافحها صامتاً وهو يقول : اهلاً سيدي دنيا . . .

نديم لا يضيع وقته . . . يخاطب خليل وكل يستقر في موضعه : دعوتكما قبل وصول بقية الضيوف . اريد ان اتحدث اليك حول عمل (بيزنس) على انفراد . . .

زقزت كفى : قلت ان العشاء «انتيم» . . .

اجابت دنيا : وهذا يعني ان عدد المدعوين لن يفوق العشرين شخصاً . . ولن

ينقص . .

ضحكوا لقولها كما لو كان نكتة . . . وبدأ كل منهم يتأمل الآخر بامعان مثل قطع من قشط الشارع التقى تحت الشجرة . . . وكل يدور حول صاحبه بعينه وهو جالس في مقعده بكل (تحضر). تأملت كفى دنيا وحسدتها (كم هي انيقة وثرية ومخطوطة . . . ماس وزوج ناجح ومدعش المظهر والهندام وبيت فخم كالمتحف واستقرار في أكثر مدن الدنيا استقراراً) . . .

تأملت دنيا كفى وحسدتها (كم هي شابة ونضرة وجميلة ، لعلها لم تتجاوز اواخر عشريناتها . . . وزوجها شاب صغير وسيم ويبدو مرهفاً . . ما تزال اختيارات الحياة مفتوحة امامها) . . .

تأمل خليل دنيا في جلستها الانيقة ، واللوحة التي جذبتة على الجدار خلفها ( انها هي ، فتاة اللوحة . . . انها هي وليست هي . . . كان في مقدوري ان احب فتاة كهذه ، ذكية النظرة وجادة وحنوناً ، لكن الشمس اختطفتها ودارت الأرض عشر مرات قبل ان تستعيدها . . . وحدث ذلك كله قبل ولادتي . . . لقد غُذِرْتُ ! . . . لو كانت اصغر بعشرة اعوام ، وأقل وزناً بعشرة (كيلوات) لـ . . . ) .

قال نديم : تعال يا خليل نخرج الى الشرفة . . . الطقس جميل . . ستحدث . . . استدار نحو السيدتين وقال وقد انحنى برأسه بهذيب (جتلماني) سحر كفى : معذرة من السيدتين .

راقبتهما كفى يمسيان جنباً إلى جنب ، نديم وزوجها . . . ( يا للفارق . . . نديم بسيجاره الضخم المتصعب كرمح ، وزوجي بسيجارته المنكسة المنسية بين شفثيه كراية مهزومة نصف محترقة . نديم اكثر رشاقة ولياقة ، حسناً ، انه أقل طولاً من خليل لكن الطريقة التي يحمل بها جسده مختلفة . . إنه يمشي كمن يحمل باقة زهور يفخر بها ، وزوجي يمشي كمن يحمل معولاً ورفشاً في مقبرة . . . نديم يرفل في حلته ، ويبدو جسده منسجماً مع حرير القميص ، وجلده متعاطفاً ومسترخياً داخل شرنقته الشمينة، اما خليل فيبدو في زيه الأنيق كمن يتشاجر وثيابه ) . . . تلحظه وهو يرفع أكمامه متضايقاً تارة ، ويزيح ياقة القميص عن عنقه تارة اخرى ، وهما في طريقهما الى الشرفة . اللعنة . انه فج وستحاول ان تصقله ( كنا نشترى الثياب الفاخرة . لم يقدر عملي . لم يعرف مغزى ان انفق نقودي على ثيابه بدلاً من شراء ثياب لي اشتهيها . كمادته حول كل ما اغمره به من رعاية الى تهمة وقال : انك لا تشتريين لي الثياب حقاً . انك تشترينها لنفسك وترغميني على ارتدائها

كي ينسجم مظهري والدور الذي تلعبينه في الحياة . . . انك ببساطة توظفين نقودك في مظهري ، آملة في الريح .

— اعرف انني لن اسمع منك كلمة شكر مهما فعلت لأجلك . . . ما رأيك بربطة العنق هذه ؟

— تعرفين كم اكره ربطات العنق . . لا ادري لماذا تعني هذه الخرقة الشيء الكثير . . . كأن قدرة المرء على الاحتفاظ بخرقة ثمينة نظيفة يحيط بها عنقه هي صك ولاء للقطيع ) .  
يتواريان وراء الباب . . . تنتهد كفى ، تشاركها ذلك دنيا وفي قلب كل منها تتماوج عوالم من الأهواء والاسرار . . .

يبدأ الضيوف بالتوافد . . . تشتعل كفى سعادة بلقاء «عليه القوم» الذين حرمت عشرتهم الناعمة منذ غادرت بيت والدها للعيش مع خليل . .  
( انها غلطة . هذا الزواج غلطة فادحة . . . هكذا صرخ والدي . وقفت خلف الباب انصت لحوارهما وقالت امي : انها البنت الصغيرة المدللة . . لقد كرهتها يوم ولادتها وكنت قد شبعت من البنات فأسميتها كفى ، ثم احببتها حباً يفوق كل حد وافسدتها بدلالك . . صارت عنيدة . . . تريد امتلاك ما يحلو لها . . .

— بعد ليلة الدخلة ، سيدخل الفقر من الباب ويهرب الحب من النافذة . . .  
— انه شاب ، ومتعلم ، سنساعده وسيعمل معك ويجمع ثروة . . . صهرنا الثالث لم يكن بأفضل منه وهو اليوم من كبار التجار . .  
— خامته مختلفة . . خليل يبدو لي غير قابل للمصقل . . . انه فقير ومتغطرس في آن . .  
— الا تلاحظين بأي جفاء يقابلنا ، بدلاً من الزحف على السجادة الكاشاني امامنا لاننا قبلنا باستقباله في بيتنا ؟ . . ) .

عادا من الشرفة . ترى هل اتفقنا؟ ما هو العمل؟ كم الراتب؟ الأرباح! عمولة؟ نديم يبدو لا مبالياً سادراً في استرخائه المزهو الذي يسحرها ، وخليل يبدو متوتراً محتقن الوجه . . . تنساه وهي تتحدث الى عليه القوم من الزوار ، وقد قطفت اعجاب الوافدين واحداً بعد آخر بقوامها المشوق وزرقة عينيها وملاحمها الشرقية التي تزيد زرقة عينيها حلاوة وغرابة . . . بالإضافة الى جمالها المصقول الراقى . الشعر المقصوص في تسريحة عصرية . الثوب (الموضة) . الجوارب . الحذاء . . هذه ليست جميلة فحسب ، بل (بنت اصل) يسعد الجمع حضورها كعضوة في اتحادهم السري فازت بكرسيها عن جدارة . . . ثم انها

تعرف اصول مخاطبة الناس ، وقد عرف احد المدعويين والدها المرحوم البيتموني الكبير مما عزز مكانتها وتوجهها ملكة للسهرة . . . خليل جلس صامتاً وهي فضيلة يجبها ثرثارو السهرات ، مما جعله احد اقطاب السهرة بمعنى ما . . . فكان كل يحمل كأسه ويقف أمامه ليحدثه واسراب الذباب تخرج من فمه وخليل يصمت متجلداً نصف مبتسم ، والطرف الآخر يسأل ويحجب في الوقت ذاته ثم ينسحب بعد ان يؤكد انه سعيد جداً بمعرفته وبحوارهما !

النساء احببته ايضاً . . . انه خشن الوسامة . . . (بروت) . . . صامت وهادئ . . . انيق . . . غامض النظرات ، ثم انه شاب صغير . . . فحل جذاب ! . . . هذا على الاقل ما تتوهمه تلك الثرية نصف الثملة التي تروي له نكاتاً جنسية تضحك لها وهي تمسك بيده اثر كل نكتة ، بينما كفى تتألمها بفرح ورضى . . . ها هو زوجها يتعلم اخيراً كيف يتصرف في المجتمعات الراقية ، ثم تنقل نظراتها منه الى نديم . . . آه نديم . . . كم هو وسيم . . . داهم خليل حس مفاجيء بالهشاشة . . . ( لقد كنت دوماً قلعة حصينة . . . وهم يحاولون اختراقني . . . لقد كان في داخلي رقعة صغيرة نظيفة احتفظت بها لنفسني ، وهم يريدون تملكها ايضاً . . . وكفى حليفهم ، تعرف نقاط ضعفي ولحظات سقوطي وتحسن توظيفها وتسمي ذلك حباً ! ) . . .

سيدة اخرى تحدثه . . . كؤوس تروح وتجيء . . . وجوه تطفو وتغرق . . . وجوه النساء هنا كلها متشابهة ملونة بالمساحيق والشهوات . . . لا يدري لماذا يخيل اليه ان هن جميعاً الوجه ذاته والتعبير ذاتها مع تبديلات سطحية هنا أو هناك . . . تتعالى الهمهمات والموسيقى والضحكات . . . تهب روائح العطور ويزداد بريق المجوهرات . . . يأتيه صوت كفى مشرقاً وهي تروي حلقة احاطت بها حكاية هربها على متن الطائرة الاخيرة التي اقلعت من بيروت . . . اجل الطائرة الاخيرة . . . وفي مقصورة «الدرجة الأولى» التقينا بنديم . . . لم تنس التأكيد على الجزء المتعلق بمقصورة (الفيرست كلاس) . . . وكانوا يستعيدون حكايتها بين شهقات الاستحسان والخوف . . . آه . . . أو لالا . . . بيروت ؟ (سوفاج) . . . متوحشة . . . كيف استطعت البقاء هناك حتى الآن ؟ سيدة متحضرة مثلك جميلة مثلك ، ناعمة مثلك ، تبقى بين الوحوش في بيروت ؟ أو لا لا . . . أو لا لا لا لا لا . . . لم يبد ان احداً يهمه مصير بيروت ، واطفالها وبشرها . . . تساءل بغصة : « اليس لبقية العرب اطفال ؟ أعني إذا كانت فلسطين لا تهمهم ولا يعينهم ان تكون عربية ام لا ،

وليذهب لبنان الى الجحيم وليقلع شوكة بيديه ، حسناً هل يستطيع من يغسل يديه من العروبة ان يغسلها أيضاً من الانسانية ؟ أم ان الامرين يتلازمان جدلاً ؟  
( وقفت انا خليل فوق البيانو الكبير . خلعت حذائي الفاخر الذي يؤمني ، وربطة عنقي التي تخنقني ، حاملاً بيدي مصباح ( الجالية ) بعدما كسرتة على طرف البيانو وشهرته كاهراوة صارخاً بالجميع : تتحدثون عن بيروت كأن الأمر لا يخصكم ولا يد لكم فيه . . انتم جزء من الموجة التي استغلت جوعنا لسرقة حريتنا ، واستغلت جوعنا الى الحرية لسرقة لقمتنا . . لقد ساهمت في تدمير بيروت لخلق نموذج تخوفون به شعوبكم وتصرخون : انظروا عقاب الذين ركبوا رؤوسهم وتدخلوا في أمور السياسة !! انظروا جزاء الأولاد الملاحين المشاكسين ! هيا بسرعة عودوا الى اعمالكم الصغيرة واحضان زوجاتكم واتركوا لنا امر حمايتكم والا كان مصيركم كمصير بيروت وأهلها ) .  
لم يسمعه احد لأنه لم يقل شيئاً ، فقد ظل واقفاً في موضعه يتسم بهذيب كلما توقفت السيدة عن الكلام . . يقهقه معها حين تقهقه . . تحطم فجأة شعوره الدائم بالهيمنة على نفسه ، وحين تأمل الظلام الداكن خلف النوافذ داهمه هاجس بأن قبلة تكمن داخله ، وستفجربه في اية لحظة ويتطاير اشلاء توسخ ثياب الحاضرين ووجوههم . .  
— تفضلوا الى المائدة . . .

كفى ضيفة الشرف . تجلس متألفة مزدهرة ، كمن عاد الى قبيلته بعد طول غياب . . . يجلس محرجاً ، خائفاً من مجموعة السكاكين والملاعق والشوك الفضية المحيطة بصحنه ، وهو لا يدري بأنها يبدأ كي لا يبدو متوحشاً . . .  
( ارمي بالادوات الفضية عن المائدة . اشمر الكمين عن ساعدي ، واختطف الدجاجة الجذابة من صحنها الفضي الكبير ، احتضنها براحتي يدي ، وادفن فيها وجهي متوحش الشراهة وانا اقضم وابتلع والهث ولا ارفع رأسي عنها الا لأبصق العظام الصغيرة على السجادة الفاخرة او في صحن جاري او على صدرها فوق العقد الماسي بالضبط أو على سيجار نديم ) يتناول الملعقة عن الطرف الخارجي لصف العساكر الفضية التي تحف بصحنه ، ويغمسها في الحساء كما تفعل كفى ، ويتلع محتوياتها محاذراً اصدار أي صوت . يحترق لسانه ، يتوجع ، لكنه يتسم لدنيا بكل تهذيب قائلاً : كم هي لذيدة يا سيدي . انك طاهية ماهرة . تبسم دنيا بتكشيرة مسكينة الرياء مشابهة وتقول : شكراً لك يا سيدي . كم انت لطيف . ( المسكين . يظن ان من واجبه ان يتملقني ولكنه لا يحسن ذلك . الا يعرف



ان سيدات المجتمع مثلي لا يطبخن الطعام بأيديهن للضيوف او حتى للأولاد ؟ كان عليه ان يمضي الى المطبخ ليقبل الطاهية ويشكرها . . لماذا لا اجرؤ على ان اقول له ذلك ؟ كيف تحولت الى شريط تسجيل تقليدي لا يفصح عن دواخلي ؟ مسكين خليل . . هو وزوجته المبهورة بحالنا . . زوجان آخران يأتي بهما نديم ، ليطعم بدمهما الشاب حلقتنا الداوية المفترسة ، المحتاجة كل يوم الى عملية «نقل دم حي» يشعل دورتنا الدموية الثلجية ، دم جديد ، فضيحة جديدة ، مغامرة جديدة ، وكلاهما مشروع احتراق . . لكن سيتم استهلاكهما قريباً . ويلفظونها جميعاً . . يتجاهلونها في الطريق الى المصح أو المستشفى أو المطار . . قلائل هم الذين يكونون أكثر افتراساً ممن حولهم ، وينجحون في جمع ثروة تضمن دخولهم اعضاء دائمين في «نادي القتل المرح» الذي تشكله . . كفى قد تنجح . . تبدو مستمتعة حقاً بممارساتنا الوضيعة والرفيعة كلها ، ام تراها الصدمة الأولى وفرحة الاكتشاف ؟ خليل ، ليس من السهل ان يحسد المرء ما يخفيه خلف صمته الهادئ ، لكنه يبدو مرهقاً . . وهذه نقطة ضعف لا تغتفر في عالمنا . . سيأتي يوم وينكسر كما بدأت أنا انكسر) . .

بعد العشاء شرف السهرة صخر الغنمالي وابنه صقر بمرورهما لشرب فنجان قهوة ، فقد كانا مدعوين في مكان آخر وهما ذاهبان الى حفل آخر . . قدم نديم اليهما خليل وكفى ، واشتعلت عيناهما اعجاباً بها فلم يلتفتا طويلاً إلى خليل . . ولم يمكثا طويلاً . . وقد رافقهما نديم الى الباب مودعاً ، فقال له صخر : انه يفي بالمطلوب . . هل انت واثق انه ليس جاسوساً وانه (نظيف) ؟ . .

— (انظف) مما ينبغي . . .

— وزوجته اجمل مما ينبغي . . لرجل مثله . . واكد الابن رأي الوالد : والدي على

حق . . .

اذن اعجب صخر الغنمالي بها . . عاد نديم الى الغرفة يتأملها بعين جديدة . . . التقت نظراتهما . . شعرت برغبة حارة جارفة في احتضان نديم . . كأنها ستحبه . . . بل تحبه . . (لم اخن زوجي من قبل . . كان ذلك على اية حال متعذراً في بيروت التي تفور برجال فقراء يطيلون شعورهم ويقصرون في مجال الاستحمام والاناقة . أه نديم . تلك الوسامة المصقولة ، الابتسامة الشهية . الجسد الواعد بخبرات المتعة . الشعيرات الفضية التي تتوج سواد شعره ، وتزيده جاذبية في عيني . . هذا رجل خبر الحياة ومفاتيح اجساد

النساء .. كم دنيا محظوظة بزواج كهذا ... بل انها تهمله ... المسكين بحاجة الى حنان امرأة مثلي ورعايتها .. ولم ار زوجته طوال السهرة تبتسم له او تداعب وجهه الشهوي أو تمسك بعنقه وتلصق شفثيها بغمازتيه وتلهبها انفاسه ورائحة عطره وضمة ذراعه .. آه ليتني زوجته بدلاً منها ) .

كفى تتأمل دنيا بحسد . ها هي على الشرفة ، تحدث زوجها الممل خليل ...

\*\*\*

دنيا لم تجد خليل مملاً حقاً . وجدته مرهفاً كما حدثت .. اشعل لفافتين بعفوية ، وقدم لها احدهما : ربما تدخين نوعاً آخر ...

منذ زمن بعيد لم يقدم لها احد سيجارة مشتعلة على طريقة الفنانين والبسطاء اللامبالين بالاصول . شعرت بشيء حميم يقربها منه . امتصت دخانها كأنه حريق ماض تمنح إليه وأجابت : ادخن أي نوع حينما أكون بحاجة الى لفافة . أي دائماً ...

ضحكا . قال : انها لوحة مدهشة .. اعني صورة الفتاة .

— انها صورتي منذ ثمانية عشر قرناً وقد رسمتها بنفسني ...

— ترسمين ايضاً ؟

— لم اعد افعل ذلك للأسف . لا يمكن لأحد ان يرسم (ايضاً) . انه يرسم او لا يرسم ، وإذا رسم لا يفعل شيئاً آخر . العمر لا يتسع للرسم ولسواه معاً ... وهكذا ، منذ تزوجت توقفت عن الرسم .

— هذا مؤسف حقاً ...

— ربما في نظرك ... اما الاكثريه فترى انني نجوت من فخ الفن بزواج مزدهر .. قالتها ساخرة بمرارة .. سرت بينهما حرارة مصارحة ودية لا تنشأ عادة الا بين رفاق طائفة ما ، أو في المطارات أو (المنطقة الحرة) حيث يروي القلب لغريب آخر حكاية عمره دونما حرج ...

قال خليل وقد نبض فيه حبه لأثار شيء فيها لا يعرف اسمه : الأجل من فتاة اللوحة ، اليد التي رسمتها . الفتاة قد تذوي ، لكن الابداع يبقى ، والمرأة قد تنكسر على بلاط الزمن كإناء ، لكن الطاقة على الخلق قد تزدهر مع الزمن ... من المؤسف انك توقفت عن الرسم أياً كانت الاسباب ...

احسنت بسعادة منسية . هذا انسان يهيمه حقاً ان يرى لوحة ما دون ان يفكر بشرائها او يسأل عن ثمنها ، بل هو يفكر بمصير راسمها (الفنان) . . كم تفتقد هذا النمط من البشر الذين كانوا صاحبها قبل الزواج . . ( لم يلحظ احد من جماعة نديم وصول اللوحة . . احدهم فقط سخر مرة من نظرة عينيها قائلاً انها ترعبه في الظلمة لأنها تحديق مثل ساحرة . . . وحين ثملت ، وقلت للصحب الساهرين انني «ارتكبت» ذلك ورسمتها بنفسي ، قيل لي في شهقة اعجاب مزيفة تقطر لا مبالاة : صحيح يا عزيزتي ؟ هذا لطيف حقاً . هل تتقين حياكة الكانافاه ايضاً ! . . وقالت اخرى : ياقا ثوب فتاة اللوحة حلوة ، هل تعرفون ان «موضتها» رجعت ؟ ) . . كانا يتحدثان كأن احدهما يعرف الآخر منذ زمن بعيد . . .

همست بمرارة وهي تتأمل جنيف تشتعل في القاع مرجأ من النجوم : اننا لا نحقق دوماً احلامنا . . . ثمة رياح تعبت بحياتنا . . الا تؤمن بالقدر ؟  
 — اجل . وبضرورة عدم الاستسلام له قدر الامكان . . .  
 — هل انت قادر على تنفيذ ذلك ؟ أم انك تكرر عبارات امير النيل ؟  
 — تعرفينه ؟

— كان أول من وقف الى جانبي يوم اقامت معرضي الفضيحة . . .  
 — يا إلهي كيف نسيت ؟ قرأت منذ زمن بعيد شيئاً حول ذلك . انت دنيا ثابت ، التي اقامت معرضها العاري لصور الرجال وتمثيلهم . . . انت المتحدية الثائرة على التقاليد التي لا تفهم لماذا رسم الرجال للنساء عراة فن ، والعكس فضيحة ؟ . . .  
 — انا ولست انا . . . كأن الزواج من نديم مهنة ايضاً . . . لعل الزيجات كلها كذلك . . . مهنة قبل ان تكون علاقة عاطفية . . .

بدت له حزينه وهشة واحس برغبة في أن يروي لها حكايته . . يلتصق بها ، يتعانقان ويرتجفان رعباً في الظلمة من عالم يسحقهما دوغاً رحمة ، وينكل بنقاط ضعفهما . . .  
 وبدت له كفى عبر زجاج الشرفة وهي تنهض في الضوء ، وترمي الحضور بنظرة عشق جماعية ، سعيدة مبهورة ، وقال لدنيا : افهم بالضبط ما تعنين . . . هذا مروع حقاً إذا كان المرء لا يحب «مهنته» . . .

— هل انت راض عن مهنتك الآتية مع ابن الشيخ صخر الغنمالي ؟  
 تلعثم ، وقبل أن يجيب ، دخل إلى الشرفة فجأة صبي جميل خاطب دنيا بالفرنسية دون

ان يلتفت اليه ثم انسحب بسرعة . . .

— هذا ابني باهر . انه للأسف لا يتكلم العربية كابنتي . . . لقد ولدا وكبرا هنا . . .

— الا تذهبين بهما الى الوطن في زيارات ؟ . . .

— لا وقت لدينا لغير العمل هنا ، وقضاء الصيف غالباً في «المادي مايوركا» أو «ماريبا» وفقاً لضرورات (البزنس) . . . في (نيس) أو (كان) ايضاً . . .

— اليست له جدة في بيروت او اخوال تبعثين به اليهم ؟

— لاحظت غلطتي (اعني غلطتنا نديم وانا متأخرين) . . . كانت ظروف العمل المتلاحقة تسرق عمرنا . . . ذهبت به منذ عامين . . . بل ثلاثة . . . كره المكان . منذ اللحظة الأولى صعقته وساخة المطار ، وهجوم الحمامين الفقراء علينا من اجل اللقمة ، وكره بيروت وقذارة شوارعها وشراسة اهلها وجنون معاركها . . . نحن نمتلك بيروت الحلم ، ولذا نجبها كيفما كانت . . . اما اولئك الاطفال فلا يعرفون عن وطنهم غير صورته الراهنة البشعة . . .

كاد يقول لها : انتم مسؤولان على اية حال . . . فهو في النهاية سيبقى غريباً بلا وطن . . . ثم سكت . اليس ذلك هو ما يفعله الآن بأولاده ؟؟ . . .

بادرته بالقول : ابني باهر هو ابن الماكينات . والده التلفزيون ورفاقه الألعاب الالكترونية . . . (انتلفجين) . . . (اتاري) . . . ان يقضي أوقاته في الحرب داخل الغرفة . . . المعارك تجري على الشاشة وهو يحركها بازرائه جالساً على مقعده خارج رقعة الموت . . .

كاد يقول لها : « صبي في مثل سنه ، الا يفترض ان يتحدث لغة بلاده ويخوض معركة حقيقية بعد سنوات كأي شبل في وطن يحترق ؟ » .

لكنه سكت في اللحظة الاخيرة وقد تذكر ان حاضره باهر هو مستقبل اولاده الآتي . . . وامتلاً غماً قطعه دخول نديم وهو يخاطبها شبه مؤنب : بدأ الضيوف بالانصراف . . . سارعي لتوديعهم . . .

سقطا في بثر ، وهرولت هي الى الداخل وبقي خليل على الشرفة ، ولا يدري لماذا خيل اليه انه لمح في عتمة الغابة فتاة اللوحة وهي تركض بين الأشجار . . .

\*\*\*

حين غادرا السهرة في سيارة نديم الفاخرة بعدما رفع سائقها قبعته وهو يفتح لكفى الباب ، قالت منتشية : هذه هي الحياة ...  
 همس بحزن : هذا هو الموت ! ...  
 وتذكر النحلة الساقطة داخل زجاجة «الكوكا كولا» في المقهى ، وهي تستميت للخروج من عنقها الضيق ، وجناحها ينكسران على الجدران الصلدة ... وامتلات دهاليز اذنيه بأزيزها الشبيه بصيحات استغاثة بشرية .

\*\*\*

استيقظ على اصوات زقزقة العصافير ... لم يحدث له ذلك منذ دهور .. منذ كان طفلاً يستضيفه جده في القرية ... تطلع الى ساعته وكانت ما تزال تشير الى الثانية عشرة والنصف .. ساعة غرفة الفندق تشير الى السادسة فجراً ... يجلس امام النافذة ويزيح الستارة قليلاً ، بما يكفي ليرى عبر النافذة من غير ان يتدفق النور ويزعج كفى . لا يريد ان تستيقظ الآن ... يريد ان يكون وحيداً ليفكر بمأزقه ، وبحلول اخرى ...  
 على الرصيف تتحرك عربة خاصة صغيرة تتقدمها مكانس آلية ، تنظفه بالماء والصابون ... ووسط الشارع شاحنة تنظيف اخرى . تذكر بغصة شوارع القمامة في بيروت ، والرائحة الكريهة لاحتراقها فوق الأرصفة . هكذا تمنى وطنه ذات يوم ... نظيفاً ، هادئاً ، يصلح لحياة الاطفال والعصافير ... ولكن .. كان ما كان ... ولم يعد عطر البحر يفوح من ليالي بيروت ..  
 تتقلب كفى في فراشها وتسأله : ماذا تفعل ؟ عد الى النوم . ما زال الوقت مبكراً ..  
 — لا أشعر بالنعاس ... سأمشي قليلاً ...  
 — لن ادعك تمشي قليلاً أو كثيراً ... ستجد عربياً وتتحاوران وتخترع شجاراً ولنلقى المتاعب من جديد ... عد الى النوم لتستلم عملك وأنت في ذروة لياقتك ..

.... —

— لم تقل لي شيئاً البارحة عما اتفقتم عليه ...

.... —

— لماذا غضبت وقاطعتني ليلاً ؟

.... —

— الأنني اطفأت التلفزيون لاريحك واستريح من مشاهد دمار بلدنا ؟ الم تتعب من مشاهد العنف والخراب وجثث القتلى ؟ . . . لقد استرحنا من ذلك الى الابد ، فلماذا لا تريد ان تستريح وتريح ؟ . . . امقت العنف والدمار والقتل كما تكرهه كل ام . . تركنا لكم المدينة لتفضلوا بتحرير فلسطين فحررتوها من اهلها وارزاقها وابنيها . . . وها هي اسرائيل تكمل المهمة . . .

لقد نجحت في استفزازه . صرخ بها : لم يكن هذا بالضبط ما حدث . هذا اراده بعضهم ان يبدو كما لو كان يحدث كي تقول غبية مثلك كلاماً كهذا . . .

— كلامولوجيا . . . لا اسمع منك شيئاً آخر ، والجثث تتكوم وئمة من يحاول اقناعنا بأن طريق القدس يجب ان تمر من بيروت وطرابلس وغيرها . . وعلى اشلاننا . . . دعونا نعيش . . . لستم (جديين) مع قضيتكم . . .

— المؤسف انكم جديون مع قضيتكم . . وهي المثابرة على استغلالنا او تدميرنا بالوسائل كلها . . . بما في ذلك دفع الأخ الى قتل اخيه ، او دفعهما الى الانتحار . . .

— كلامولوجيا . . . تعبت من حديثك عن الحرية والسلام والرخاء والنضال ، وكل يوم يعودون الى الحي بشاب قتيل تندبه النساء . . .

— ان مستقبل الشعوب لا يبنى بعشرة ايام أو عشرة اعوام . . . ما اتحدث عنه قد لا يتحقق الا لاولادنا واحفادنا . . . ولكنه لن يتحقق ابداً إذا لم نفعل شيئاً . . . لعلنا اخطانا في التكتيك ، لكن استراتيجية النضال لا غبار عليها . . .

— كلامولوجيا . . . تكتيك . . استراتيجية . . . دع اطفالك يكبرون في مكان انساني . . . دعنا من بيروت اللعينة وذكرياتها المقيتة . . .

— هذه ليست ذكريات مقيتة . قد تكون مؤلمة ، ومفجعة ، ومتوجة بالاختفاء . . . لتتعلم منها لا لتتصل من وطننا . . .

— كلامولوجيا . . .

— النضال كالزراعة لا كتصنيف الشعر . . . نحن نزرع . . . قد تواتي الريح وقد تهب العاصفة . . . قد تمطر برداً وسلاماً وقد يحرق الصقيع البراعم . . . بذرة تموت ، اخرى تنحيا . . هذه يطأها أحد خطأ ، واخرى يقصفها ذلك ظلماً ، وتلك تقتلها العوامل الطبيعية أو اهمال الناس . . . المهم ان نزرع وان نستمر . . . سيأتي يوم تزه فيه جهود آلاف الطيبين والمخلصين الذين تعذبوا وربما استشهدوا .

— كم انت مضجر . . انت وامثالك . . تتحدثون مثل آلة محشوة بشريط تسجيل كله  
كليشيهات . . شاهدتكم تحملون المعاول وتحولون الحقول الى مقابر . . . دعني من  
الكلامولوجيا . . .

— لن تفهمي يوماً ما أقول لأنك لا تصغين . . لكم دينكم ولي ديني . . .  
عاد الى فراشه هرباً من مزيد من النقاش ، وتظاهر بالنوم . . . سألته : ماذا اتفقت  
ونديم ؟

انها مثابرة لا تستسلم بسهولة . حسناً ، سيقول لها : سأعمل سكرتيراً لابن الشيخ  
صخر الغنمالي . . . الراتب معقول ، ويقول نديم ان (الشاطر بشطارته) والفرصة سانحة  
للحصول على عمولات كبيرة . .

لم تبد عليها الدهشة . كأنها كانت تعرف . كأن مخبرة هاتفية ما تمت بينها وبين نديم  
دون معرفته . . من صالون الحلاق مثلاً . . . كأنها منحازة اليهم . . .

ظلت صامته . . شعر بأن فتوراً ما يسري في سلوكها نحوه . . . لقد اعتاد تدليلها له ،  
غضبها عليه فحاررتها ، ودموعها . . . هزته لامبالاتها وخافته من نفسه . . . ترى هل يهمه  
امرها اكثر مما يجب الاعتراف به أمام ذاته ؟

ضمها اليه ، تأمل حسنها النضر وشعاع الضوء المتسلسل من انفراجة الستارة يغسلها  
وتبدو وسط العتمة النسبية للغرفة مصنوعة من مادة بلورية مشعة . داعب شعرها وهمس :  
أرجوك . دعينا لا نتشاجر في الغربة . . . ألا نستطيع ان نكون اصدقاء ؟ . .

— وهل نحن أكثر من ذلك ؟ هل انت قادر على غير ذلك ؟  
قالتها بلؤم ، بلهجة تعريض تتقنها النساء حين يتعمدن السخرية من فحولة  
رجالهن . . .

اخترقه الألم مثل نصل سكين ، وشعر بأشجار الكراهية السود تنمو على ضفتي  
الجرح . . . فكر بأن ينتزع خاتمه الزوجي من إصبعها ، ويصرع لاحضار ولديه من  
المدرسة ، ويعود بهما الى بيروت . . . ولكن اما زالت ترتدي ذلك الخاتم الفقير ام انها تستحي  
به ؟ . . تأمل يدها المسترخية . . لم يجد الخاتم ، بل وجد خاتماً آخر ماسياً في موضعه . .  
صعقته المفاجأة .

— كفى . . من اين لك بهذا الخاتم ؟

ضحكت عابثة وقالت : سرقتة !

قفز ملسوَعاً : تمزحين ؟

— لا أمزح . سرقتك .

— من اين ؟

— من حمام الضيوف في بيت دنيا . . .

— كيف ؟

— اظنها نسيتها . . دخلت بعدها لاغسل يدي ووجدته . . اخفيته في صدري بقية

السهرة . . .

— الم تخشي من العقاب ؟

— بلى ، لكنني استمتعت . . كان قلبي ينبض ، وغمرتني نشوة خاصة . . .

— يا لك من وضعية . سنعيده اليها الآن . . .

— لو كانت بحاجة اليه ، لتنبهت الى اختفائه . . . انظر كم هو جميل ، وماسته كبيرة

وفريدة . . . انه شبيه بـ ( السوليتير ) الذي اهداه صهري الى اختي منال . .

نفض وارتندي ثيابه ، وغادر الفندق لا يلوي على شيء . . . سأله البواب في زيه

الرسمي الانيق : هل تريد ان استدعي لك تاكسياً يا سيدي .

— لا . ارجو ان ترشدني الى ( المحطة ) . .

— آه . . الكورنافان . . . هذا سهل . . . مسيرة دقائق . . . تنعطف ، ثم تصعد في

هذا الشارع . . . شارع الألب . . . بعد عدة دقائق من المشي تجد نفسك في ساحة

كورنافان . المحطة تتوسطها . . .

مشى وهواء الصباح البارد يحنو على حريقه . . مربحية « جرينزويك » ، وقطع شارع

« الباكيه » ، صاعداً في شارع « تالبيرغ » وإلى يساره خميلة باهرة الأزهار . تنفس طويلاً

وعميقاً كمن يكتشف رثيته للمرة الأولى ، ثم سارع الى اشعال سيجارة كأنه لم يألف هواء

نقياً كهذا . . . على الرصيف الثاني ميني سيارة ، في قاعدتها مكنسة عملاقة تتدفق عبرها

المياه وتشطف الرصيف وتلمعه . . . تذكر ثانية اكوام القمامة فوق ارصفت بيروت المتوجة

بالجثث وامتلاً غماً . وصل الى المحطة . لاحظ دقة اضواء اشارات المرور والتكريم الخاص

للمشاة . . ( هذه مدينة يستطيع ان يفكر المرء فيها من غير ان تدهسه سيارة او تقتله

رصاصه طائشة من شجار فوري يتحول الى معركة ، ومن غير ان يشرد فيتخطى حاجزاً

طياراً يطلق عليه النار بتهمة عدم الامثال ) . . حسناً . . . ليعترف : انها مدينة رائعة ،



ذنبها الوحيد انها ليست مدينته ، وانه ليس سويسرياً . . . انها حصيلة جهد وعمل وحروب ككل وطن آخر ، وهو لا يستطيع ان ينتقي الوطن الأكثر أمناً على الأرض ليقضي فيه أيامه هارباً من وطنه لأنه ليس وطناً حراً ديمقراطياً انسانياً . . . قال لها ذلك عشرات المرات . . . قال لها ان النازية احتلت معظم اوربا خمسة اعوام على الاقل ، بين ١٩٤٠ - ١٩٤٥ ولكن الناس في هولندا وبلجيكا وفرنسا لم يحترفوا الهجرة بل مارسوا المقاومة . . . وألمانيا ظلت تقصف لندن شهوراً ، وكان اهلها ينزلون الى الملاجئ ولا يركبون البر والبحر هارين الى بيروت مثلاً . . كيف وجد نفسه هنا؟ . . . تذكر بغصة انه لم يهرب من اسرائيل ، كان هارباً من شيء آخر حين هاجم عساكر بيجن وطنه . . .

الم يكن دفعه الى السفر والآلاف من امثاله جزءاً من الخطة لتفريغ الوطن من المدافعين وتشيت شملهم والهائم بالشجارات الصغيرة تمهيداً لاسقاطه ؟ وتسهيل ابتلاعه ؟ . . . عفا الله عما مضى . . . ولكن ، هل يمكن لعربي ان يشهر سلاحه بعد اليوم في وجه عربي آخر ؟ . . . بالتأكيد لا . . . لا يمكن ان يتخيل امكانية حصول ذلك في أي يوم بعد الآن . . . يشتري تذكرة الى ضاحية «فرسوا» . . . الرصيف رقم ٤ . . . الساعة ودقيقتان موعد اقلاع القطار . . . يدهشه ان ذلك يتم بكل دقة . . . يستيقظ في نفسه شوقه المجنون العتيق الى الدقة واحترام المواعيد في المرافق العامة كجزء من احترام انسانية المواطن العادي . . . ربع ساعة . . . يهبط في محطة ريفية . كلها ازهار وورود في احواض جميلة لعابري السبيل ، لا في قصور الوجهاء وحدهم . . .

يسأل عن موقع المدرسة . يرشده احدهم اليها : عشر دقائق من المشي في درب صاعدة بين الاحراش ، والمنعطف الثالث الى اليمين . . . يمشي في الجنة ، ماء البحيرة الخرافي الجمال عند المنحدر ، والخضرة الشفافة تارة ، الدامسة تارة اخرى . . . هدوء مدهش الصمت والاسترخاء ، لا يشبه ذلك الهدوء التابوتي الذي يسود الاحياء في بيروت بعد ساعات القصف الطويل . . . انه هدوء الانتقال الى هدوء أجمل ، لا هدوء ما قبل عاصفة القصف التالية . . . يرى ابنية المدرسة وملاعبها . . . القرميد اللطيف الحنون فوق المنشآت الصحية الشرفات والنوافذ . . .

يتأمل ملعب (الفوتبول) القريب الذي لم يشاهده طفلاه الا في التلفزيون - في فترات البث النادرة بين انقطاع كهربائي وآخر - ولكن كرة القدم هي لعبتهما المفضلة ، وطالما مارساها ببقايا القنابل والشظايا المكورة وعلب التنك الصغيرة الفارغة . . . فكيف يبخل

عليهما بهذا الملعب النظيف الآمن المرسوم بدهان جديد يوحى بعناية فائقة بالتفاصيل كلها؟ .. تدفق الاطفال الى الساحة قبيلة من الحيوية والصخب الضاحك المتأجج .. ينطلقون (الشورت) النظيفة البيضاء والثياب الخاصة بالرياضة .. اليس الطقس بارداً بعض الشيء؟ لا يبدو ان الاطفال يشاطرونه رأيهم ، يركضون كالعفاريات المحببة ، واستاذ الرياضة الشاب يهرول معهم وبينهم والكرة تنشط طائفة بين الاقدام وتنشب معركة صغيرة ، ويصفر الاستاذ ، وتعلن هدنة .. لا ، بل ضربة جزاء .. يفتش عن طفليه ، حارس المرمى لا بد وأن يكون فادي .. تلك هوايته .. والآخر يجب دور الهجوم .. هذا طفله .. بل هذا ... بل ذاك .. يا له من احمق ، ومن قال له ان طفليه بين اللاعبين؟ .. كاد يتجه نحو مبنى الاستقبال ليسأل عنها بعدما طالت وقفته على الرصيف الضيق القروي ملتصقاً بسور من الاسلاك الشائكة قرب شجرة باسقة متأملاً ذلك المشهد الصباحي الانيس الجميل لاطفال يلعبون دون دعر وينمون بحرية .. لكن الكرة تدرجت صوبه ، وصبي يطاردها لاهثاً مبتسماً حتى اقصى الملاعب .. يمسك بها وهو يلحق شفته بلسانه منتصباً ويرفع رأسه ، فيرى وجهه بوضوح .. انه ابنه رامي .. تسمرف في مكانه .. انغرس سور الاسلاك الشائكة في لحمه .. لم يجد صوتاً يناديه به ، بل انه اختبأ خلف الشجرة كي لا يلمحه الطفل .. رامي ركض بالكرة مشغولاً بها عن كل شيء ، وخليل ضم إليه الاسلاك الشائكة كما لو كانت جسداً حياً وتوأم عذاب وانفجر يبكي .. بكى كما لم يفعل من قبل .. بكى لأنه عاجز عن انتزاع طفليه من هذه الجنة كذئب الغابة .. يعرف الكلمات كلها التي تقال ضد موقف كهذا .. ( لا جنة خارج ارض الوطن .. يجب ان نصنع الجنة بأيدينا لاطفالنا كما فعلت الشعوب الأخرى .. هذه جنة مستعارة لا نستحقها لمجرد اننا ندفع ثمنها من نقود بقية فقراء الشعب العربي .. هذا حل فردي ذاتي وهو بالتالي مرفوض .. ) ولكنه يعرف أيضاً انه سترك طفليه هنا في أمان .. وتناقضه مع ذاته سيعذبه الى الابد .. ويعرف انه للمرة الأولى في حياته يرضى بممارسة لا تتفق وقناعته العقلية والضميرية .. اهذا ذل الابوة ، ام انه يأتي وقت يضعف فيه اقوى الرجال ؟ ( لقد كنت قلعة حصينة ، وتم اختراقى ) .. بكى خجلاً وقهراً ومرارة .. بكى في حضن الشجرة ( لم أبك كذلك منذ مصرع امي المطلقة .. كانت في القرية حين زnr الاسرائيليون بيت الجيران لنسفه في عملية انتقامية من أهله الذين يأوون الفدائيين .. انهارت الجارة والتف حولها الجيران مواسين ، فركضت امي لتخرج لها نارجيلتها وتبغها ، والجنود

الاسرائيليون يمنعون الأهالي من الاقتراب وقد ضربوا طوقاً حول المنزل حرصاً على سلامة (!) أرواح أهل القرية . . لا احد يدري كيف اندفعت امي النجيلة من بين بنادقهم راکضة لتلبية رغبة الجارة ، باحضار نارجيلتها ، وما كادت تطأ العتبة حتى انفجر المكان بها وضاعت بين الغبار والانقاض على مرأى من الجميع ) . .

\*\*\*

عاد خليل الى الفندق ، وكانت كفى تتناول طعام الافطار والخاتم الماسي يلتصق في اصبعها وتتأمل البحيرة والبجع . . . لم تسأله اين كان وإنما بادرت به : اتصل بك نديم . الشيخ صخر وابنه بانتظاركما . كلمه الآن ليمر بك . . بالمناسبة ، لدينا دعوة للعشاء الليلة . . .

— . . . . .

— أرجوك يا خليل دعنا نستمتع بالحياة . . . أتوسل اليك . . دعنا ننسى بيروت . . أكره العنف . . أكره المسلحين جميعاً وأتمنى لهم الشر ، كالذي أصابني على ايديهم . . حتى امهات المقاتلين يصلين ليخرج الله اولادهم من ورطة الموت على رصيف الحي بدل ارض فلسطين . . فكيف تريد مني ان لا أفرح لأنني غادرت بيروت ، بؤرة العنف الأولى على هذا الكوكب ؟ أرجوك . . تكفيننا خسارة امك . .

— لم تكوني تحبينها . .

— وابنتنا وداد . . .

صمت واجماً . . . يستطيع ان يقول لها : انت سارقة . . لكنه لا يستطيع القول انها لا تحب ابنتها . . وانها منذ مصرعها تبدلت كثيراً . . كثيراً . . المرأة التي تزوج لم تكن هكذا . . . كان فيها بعض من ذلك ، بعض البذور ، وكانت تقف على مفترق طريقين . . . مصرع وداد جعلها تتركه وتركض مسعورة في الدرب الأخرى . . . وحيدة . .

— ما هذا الدهان الأخضر الذي يلوث ثيابك الجديدة ؟

— انه دم اخضر . . . او دموع شجرة . . ما الفرق ؟

— لا فرق إذا بدلتها الآن وسارعت لاستلام عملك ! . . .

حين بدل ثيابه ، لم ينسَ محرمة الورق الصغيرة التي تحمل الرقم الهاتفي

لأمير . . . كان ينقلها من جيب إلى آخر كأنها تعويذته الخاصة . . . او طلقته الاخيرة . .  
هذه المرة حذق في الارقام ودونها داخل ذاكرته رغم صعوبة ذلك ، وكان واثقاً من انه  
لن ينساها ما دام قادراً على تذكر اسماء اولاده . . .

عشرات المرات فكر بالاتصال بأمير . . . وتراجع . . ان مجرد اعجابه به ليس سبباً  
لطلب المساعدة . . وللرجل همومه الخاصة واجزائه كأني مواطن آخر . . . ليس سراً ان  
سلطات بلده تريد رأسه ، واسرته ممنوعة من السفر ولم ير أولاده منذ اعوام . . . كون أمير  
مشهوراً لا يعني انه ملكية عامة ، وكونه معجباً به ليس فاتورة تستوجب التحصيل . . . لديه  
حاجة عميقة للكلام معه واستشارته ، ولكن من قال ان كاتبه المفضل يصبح بالضرورة طبيبه  
النفساني ؟ . . من يدري انه لا يقاسي من اوجاع سرية لا طاقة لسواه على الصبر عليها ، ولا  
يمكن ان يطلع عليها اي مخلوق آخر ؟ تراه اصبح كاتباً لطول ألفته مع الكتمان ، وإذا كتب  
فليحرص على سرية الجزء الباقي الأعظم من جبل الجليد الذي لا يطفو منه فوق المياه السرية  
العميقة المظلمة غير العُسر الأعلى السطحي . . . ؟

ثم ان الناس جميعاً يهاجرون بحثاً عن الرزق وسعيّاً وراء الأمان ، فلماذا يطارده هو  
وحده ذلك الحس بالذنب ؟

( اتابع سيري في طرقات العالم ، حاملاً كرة ارضية اكبر حجماً مني على كتفي والدم  
يقطر منها تاركاً على الاسفلت خطاً مرسوماً بحمرة العذاب . . لا احد يلتفت نحوي غير  
زوجتي التي تبصق على وجهي . . امشي وامشي حتى اصل الى مدرسة ولدي في « كوليدج  
دي ليمار » لاصطحبها معي ، في دوراني المعذب ، اقف خلف شجرة كبيرة كصدر الأم ،  
اترصدهما كالذئب محاولاً اختطافهما من ملعب لكرة القدم مفروش بالشاش والقطن المعقم  
تفوح منه رائحة السبيروتو . . يضحك الولدان راكضين ، يصفر الحكم ، وتكبر الشجرة  
وتتدلى من اغصانها اسلاك شائكة تحول بيني وبينها . . انظر الى يدي فأجد اصابعي وقد  
تحولت الى اسلاك شائكة . . انزل الكرة الأرضية عن كتفي مهزوماً ، ادحرجها الى وسط  
الشارع حيث تمر شاحنة كبيرة تطحنها ، وانطلق راكضاً وأنا اعوي كذئب حزين الى قصر  
الشيخ صخر لاستلام عمل جديد آخر ، غير حمل الكرة الأرضية ليل نهار ) . . .



- صرخت السيدة «عنبرة» مذعورة : ابني الصغير يا سيدي الشيخ . . اتوسل اليك . .  
 — ماذا قال الاطباء ؟
- لا يعرفون . . قالوها بعد شهر وهم ينقلونه من آلة تصوير شعاعية الى اخرى . . .  
 تكسرت عظامه الرقيقة بين النقالة والابرة الملونة وتخطيط الرأس والقلب . . وهو لم يتجاوز  
 الثانية عشرة من عمره . . .
- تأمل الساحر وطفان ذلك الصبي المرمي امامه ، جميلاً كأمه ، وقد لف وجهه ذبول  
 مبكر . . وتاه في شبه اغماء . .
- اين كان يوم اغمي عليه للمرة الأولى . . .
- في المدرسة الداخلية في اميركا . . ارسله والده اليها ، فهي واحدة من افضل  
 مدارس العالم كما قال . . . واخوته الكبار تعلم معظمهم هناك . . اعني اخوته من الزوجات  
 السابقات للشيخ . . هذا اصغر ابنائه . . انه المدلل الاثير لديه . .
- هل كنت معه يوم اصيب بهذا العارض ؟
- لا . . . كنت هنا في جنيف . . .
- حين قضيت الاجازات معه ، هل لاحظت شيئاً ؟
- لم اقص الاجازات معه . . والده يريد ان يكبر شاباً عصرياً . . يكتشف العالم منذ  
 حدثته ويلتقي بالناس . . وهو لذلك يقضي اجازاته بعيداً عنا في مخيمات (كولوني دي  
 فاكونس ) . . كان للمرة الاخيرة في (ايل دي مان) . .
- وركبه العارض من جديد ؟
- تتحسن حاله تارة وينهار اخرى . . .
- اريد المجرمة . . . قولي لهم ان يوضبوها . .
- جاهزة . . .
- تناولها الشيخ وطفان ، ورمى فيها بالبخور والكزبرة ولبان ذكر ، وتناول يد الصبي  
 برفق وبدأ يتلو آيات قرآنية ، الفاتحة ، آية الكرسي ، وأدعية اخرى ، قرأ طويلاً حتى كاد  
 صوته يغيب كما لو كان آتياً من كهف نائية ، لا من جسده الناحل ، وكان صوته يأتي «عنبرة»  
 ثم يغيب . . . بعد ذلك بدأ بتلاوة تعاويد غامضة . . .
- « . . . اقش اقش قشياموس قشياموش قشياموش يرقاش يرقاش ارقاش ارقاش انه من  
 سليمان . . . . . بحق من تجلى للجبل فجعله دكا وخر موسى صعباً . .

... اطع يا ميمون يا ابا نوح والبس الكف وفرق الأصابع ...

... ان كان به نظرة ففرق لي خنصره وان كان به طربة ففرق لي الوسطانية وان كان به سحر ففرق لي السبابة وان كان به ريح ففرق لي الابهام وان كان به عارض فقم بكفه على رأسه واصصره بارك الله فيكم وعليكم ...

خيل الى عنبرة ان يد ابنها ارتفعت باكملها نحو رأسه ، ام تراه تضايق من رائحة البخور فحاول ابعادها عن انفاسه ؟ ... ثم صار الصبي يتشاءب ، وظنت ان النعاس داهمه في الغرفة شبه المظلمة وصوت الشيخ الرتيب وهو يقرأ او يتلو ويهمس لكن الشيخ قال ان مرضه من الجان ، والثأوب علامة ، ولا بد من طردهم .. وجاء صوت الصبي من أعماقه مختلفاً بعض الشيء عن عادته فقال الشيخ ان هذا صوت (الذي) يسكنه ، فهل هذا ممكن ام تراه مذعوراً بدل الذعر صوته لا أكثر ؟ كان يئن طالباً امه ، يشج ويقول انه يريد ان يبقى معها ...

قال لها الشيخ : سأطرد العارض منه ... وكتب على ورقة بعض الطلاسم واحرقها مع البخور : « هسيس هسيس .. عسيس عسيس ... شلشال شلشال ... اخرجوا ايها العارض السوء الفارس والوجع الطارق والعين والنظرة عن جثة براك ابن عنبرة » ...

— ارجوك يا شيخ وطفان ... طمئني ...

— سيراً من «الرياح الأرضية» ويقوم معافي بإذن الله ... » ... دملبخ .

العفوش . اين ميمون السحابي اين ميمون السياف ... الخطاف ... الأحمر .. اين الذي كانت اعينهم تحت اجنحتهم ...

... اجيبوا وعجلوا والبسوا الكف وفرقوا الأصابع وارفعوا الكف الى الرأس واصرعوا هذا العارض الظالم لنفسه المتمرد على هذه الجثة الآدمية الى الأرض بغير اذية ولا ازعاج العجل العجل الوحاح الساعة الساعة ... » .

وانتفض جسد الصبي فسارع الساحر الى كتابة ن مقلوبة بين عينيه وهو يتمتم : « حبستك بنون والقلم وما يسطرون » ...

ثم كتب على جبهته فوق النون : « ذام ابحر وقفوهم انهم مسؤولون .. » .

ثم كتب على ظهر يده : « بلودهش بلودهش » وعلى اخمص قدميه العبارات ذاتها ..

همس لعنبرة : لا تخافي ... ساستنطق الجني ..

— ما اسمك ... قبيلتك .. دينك .. لماذا تتعرض لهذا الآدمي ..

— أمي . . . النجدة أمي . . دعوني اهرب . . . جاء صوت الصبي غريباً ، كأنه صوت مخلوق آخر يحتله حقاً ، أم تراها ابخرة اللبان والكزبرة والورق والحبر الأسود المتصاعدة من المجرمة ازكمت صدره وبدلت صوته؟

— لا بد من استنطاقك قبل اطلاق سراحك . .

صرخ الصبي : ارجوك . . دعني وشأني . . .

— لن ادعك قبل استنطاقك . . « انطق بحق قوله . . . . وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا انطقنا الله الذي انطق كل شيء وانطق النملة لسليمان بن داود عليهما السلام وانطق الألسن بعد بكهما . . وانطق عيسى في المهد صبيّاً وتكلم بأشمخ شماخ العالي عن كل براخ الله العلي العظيم تكلم بحق بهش هنش هيلوش أرميوش شلها شيت طهش . ان كنت مسلماً فقل السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وان كنت نصرانياً فقل حياكم الله وان كنت يهودياً فقل سلام على خيم وان كنت افرنجياً نيراً فنيراً انطق ولا تخف انك من الآمنين . . . »

وظل الساحر يكرر : « انك من الآمنين » . . .

وصرخ الصبي بعد حين : ارجوك ان تدعني . . لن افعل شيئاً بعد اليوم . . .

— هل تهبني هذا المصاب . . .

— اهبك . . . قالها الصبي لاهتاً كمن يحتم ثقل على صدره . . . وكررها كمن يريد الخلاص من الساحر ويخوره بأي ثمن ، ام صدرت عن جني يقطنه حقاً؟ . . تساءلت عنبرة وتابع الساحر :

— تعاهدي الا تعود اليه ابداً . . .

— اعاهدك . . .

وجعل الساحر يده في يد الصبي وجاء صوته : « قل العهد فاحفظه عن ظهر قلبك . . . عهد الله يلزمني وغلظ ميثاقه . . . وبالأمانة والعهد التي اخذها نبي الله سليمان بن داود على جميع الجن والملوك وبما جاء على خاتمه من اسماء الله تعالى وبما تدين به لرب العالمين انك لا ترجع لهذا الآدمي براك بن عنبرة ولا تعرض له لا ظاهراً ولا باطناً لا في ليل ولا في نهار لا في يقظة ولا في منام ولا في أكل ولا في شرب ولا في مشي ولا في وقوف ولا في نطق ولا في سكوت ولا في قيام ولا في قعود . . . لا انت ولا اهلك ولا احد منهم ولا من جندك ولا عشيرتك فإن تعديت ونقضت . . .

.... تكن مطروداً من قبائل الجن اجمعين وعليك اللعنة الى يوم الدين وبحق طنغور  
طنغمر طيغاطه طاسه طشة طهشره حنجروشة فإن عدت وخالفت هذه الأسماء وجب عليك  
القتل والحرق ...

.... اشهدوا ايها الملوك الأرضية من الحاضرين ... « كرر ورائي : « وحق أوف  
أوف » . كرر الصبي والعرق يتصبب منه : « وحق أوف أوف » ..  
— «أوش أوش اني لا اعود ابداً» .

سكت الصبي فقال الساحر : كررها ايها الجنى الشرير والا عذبتك ... قل «أوش  
أوش» .

— « أوش أوش » .

— « اني لا اعود ابداً » .

— « اني لا اعود ابداً » ...

وانفجر الصبي باكياً هارباً الى حضن امه ، وفتح الساحر الباب والنوافذ تسهيلاتاً للخروج  
العارض !

تنفس براك ملء صدره ، وما لبث ان راح في اغفاء عميقة ...

غادر الساحر وطفان الغرفة ترافقه عنبرة .

قال لها : سينام بسلام ... لقد انتهى الأمر ...

— هل سيعاوده العارض ؟

— لا اظن ذلك ... ولكن ، على سبيل الاحتياط ، هل يمكن ألا ترسلي الصبي الى

مدرسة داخلية ؟

— سأفعل بالتأكيد ... ولكن لماذا ؟

— اريد ان يبقى الى جانبك اطول وقت ممكن .. حضور الأم يطرد الجان ... لا

تتركه لرعاية المربيات ، واقضي الاجازة الى جانبه ...

وليكن له رفاق من ابناء الفاضلين ... واشرفي بنفسك على كل صغيرة وكبيرة في

حياته ...

— لا يسعدني شيء اكثر من ذلك ...

— قولي لوالده ، هذه نصيحة الشيخ والا فقدتما هذا الطفل الرقيق ...

— سأفعل ... على أية حال ، هذا ما فعلته صيتة زوجة صديقنا الشيخ صخر



الغنمالي . . . حملت اولادها وعادت بهم الى الوطن . . . وهم الآن يدرسون في مدارسنا . . . وتقول ان احوالهم تحسنت منذ العودة الى الوطن . . .

— هذه نصيحتي يا ابنتي . . .

قدمت اليه كيساً صغيراً من المخمل الزيتي . . وهمست بامتنان : ارجوك ان تحتفظ بهذه تذكراً مني . .

— لا يا سيدة عنبرة . . . لقد غمرني فضلك . . .

— ارجوك يا سيدي الشيخ . . .

— لولاك لما كنت هنا . . . انت ارسلت في طلبي من بيروت . . . اني مدين لك بحياتي ونجاتي . . .

— ارجوك . . . طلبتك لأنني الفت ورع اسرتك منذ صغري . . . أمي كانت تزور المرحوم عمك أيام كان الاصطياف في بيروت وجبالها ممكناً . . . .

وكنت ارافقها واراك كثيراً . . . الا تذكرني ؟ . . . انا بنت الشيخ التي امها لبنانية من بيروت . . . واحمل اسم جدتي « عنبرة » هل تذكر ؟ لقد اعتدت عليكم . . . ولما صار الذهاب اليكم خطراً ، اسعدني انك تفضلت بقبول دعوتي وشمل فضلك اهلي وأصحابي . . .

( هل اذكرك ؟ بل هل نسيك ؟ وكيف ينسى الرجل المرأة الأولى والاخيرة التي احب في حياته القاحلة ؟ كيف ينسى حتى ولو كان ساحراً ! ) .

— انت بركة في حياتنا . . . ارجوك ان تبقى لتناول العشاء . . .

ظل الشيخ وطفان متماسكاً . بذل مجهوداً خارقاً ليأتي صوته هادئاً خافتاً كعادته : لا استطيع . علي ان اسارع للعودة الى الفندق . ثمة صحافي ينتظرنني . . . انني اعد (الأوروسكوب) لمجلتهم . . .

— ماذا عن الغد ؟ هل تستطيع تناول الغداء معنا . . .

— معذرة . . . علي ان اعود الى قصر رغيد الزهران . .

— سمعت انك تقضي اوقاتك بين قصره والفندق . . .

— انه اعزب ووحيد . . .

— إنه لا يطمئن لسواك . . . هكذا سمعت . . .

— ثقة الناس نعمة من الله . . . الى اللقاء يا سيدي ، ولا تنسي نصيحتي : طفلك في

حاجة اليك فلا تحرميه حضورك والا احتله الجان . . . رافقته عنبرة الى السيارة . تنهد منهاكاً حين ضمته (الرولز رويس) الفاخرة وعنبرة تمدق في وجهه كأنها تنتظر منه كلمة اضافية . ( ألا يمكن ان يقول المرء لأُم ببساطة : ابنك مريض بسبب الاهمال العائلي ؟ وهل من الضروري طرد الجان واحراق البخور والاشجار لافهامها هذه الحقيقة البسيطة ؟ ولكن كيف ، وهو ليس واثقاً حقاً من عدم وجود الجان ؟ . . . حسناً . . . في البداية لم يكن واثقاً . . . ولكنه لطول ما ناداهم ، صار يخيل اليه انه يراهم حقاً . . . يخاطبهم حقاً . . . يعايشهم ولكنه احياناً حائر كزبائنه جميعاً ) . . .

حدث الأمر بسرعة . .

كانت عنبرة ما تزال واقفة امام باب السيارة المفتوح . السائق ابتعد من دربها . دست في يد الشيخ وطفان بشيء مخملي صغير وهي تشكره . ارتجف حين لامست يدها الندية اصابعه . لا . لا يريد منها اجراً ولا ثواباً . انه مدين لها بحبه ، وبرعايتها له . لها وحدها يفعل أي شيء دوغماً مقابل . يمنحها شمس عينيه ، بل ويمارس التفكير المنطقي بعيداً عن الجان لأجل مصلحة طفلها أو أي آدمي تحبه .

حاول التملص من قبضتها الرقيقة ، وإعادة « الشيء المخملي » اليها . . . ولكنها انحنت فجأة على يده وهي تقسره على قبول هديتها وقبلتها . . . قبلت يده مرة واحدة ، قبله محمومة كشهقة طويلة ، واحس بوقع شفيتها على يده كالجرم الكاوي .

كان قد اختزن حبها الطفل العتيق في دهايز اعماقه ، وكفنه بالغبار والمسافات والطلاسم حتى كاد ينساه ، ويألف النسيان ، ويعتاد الاقامة داخل دوره الفاتر معها : دور الساحر . . .

ولكن تلك القبلة المفاجئة احرقته يده ، وايقظت في صدره رجلاً كان يتوهمه قد مات . . .

وفوجيء بالدموع تتجمع في عينيه بسرعة سحب استوائية ، هو الذي لم يبيك منذ دهور . . . وحدث ذلك كله بسرعة ، بسرعة خاطفة كما في الحلم واغلقت عنبرة باب السيارة عليه ، وتحرك به السائق ، وركضت راجعة الى الليل . . . فترك دموعه تتدفق بصمت في العتمة وتهمر حتى شفتيه ولحيته . .

احتضنه مقعد المخمل والحرير ، فأحسه حقلاً من الصبار الحاد الاشواك . قبلتها على يده ما تزال محرقة كاوية ( هل قبلتني امتناناً وعرفاناً بالجميل ، ام ان في نفسها بعضاً مما في

نفسى نحوها ؟ هل احببتي ذات يوم ، حباً صامتاً مكسوراً ، حب جميلة مندورة للزواج من ثري معمر ولا تملك لقدرها رداً ؟ هل لاحظت من زمان الفتى المختبىء داخل قشرة معاون الساحر ، فالرجل المعذب الوحيد ، كمنلة بين أرجل الديناصورات المتقاتلة ؟ ( .. ) تمنى لو كانت امامه .. ربما وجد الجرة لسؤالها عن معنى تلك القبلية المفاجئة المتدفقة اليه من مغاور الزمن .. لكنها احسنت اختيار التوقيت الخاطف ، وخلفته وحيداً مع حيرته ، ومع الكيس المخملي الذي دسسته في يده .. فتحه ، واخرج ما فيه ، فطالعت في ضوء الشارع الخافت حبة كبيرة من الزمرد تشتعل خضرتها كأنها غابات مقطرة طيلة عصور في جوهرة ! امسكها بين اصابعه ، وتوجع كما لو كانت جرة لا تحفة او ثروة .. توجع بعمق .. اذن هي هدية العرفان بالجميل لا اكثر .. والقبلية كذلك .. نعم .. لا .. آه لن يدري .. مع النساء لا يدري شيئاً .. كل ما يدريه ان تلك الزمردة تبعث في نفسه حزناً عميقاً كاوباً ( ماذا دهاني ؟ منذ ثلاثة اعوام كنت لا أجد ما اسد به رمقي . وها انا اليوم انتقل من حرير الى حرير الى زمرد الى ماس الى ثروة في البنك . ومن قصر الى قصر الى فندق له فخامة القصور . وكل ذلك لأنني ركعت لملك الجن اخيراً ، وقبلت التحول من شاعر الى ساحر .. وتخلت عن حلمي وتزوجت من امكانياتي المحدودة .. ونسيت عروس الشعر ونسيت عنبرة او توهمت ذلك ، وتزوجت عروساً من الجن .. ثم انهم احرقوا كل شيء .. احرقوا كل ما حولي ، وكل ما احببت وكرهت ، ولم يتركوا لي خياراً آخر غير الكتب الصفراء العتيقة ) .

توقفت السيارة امام باب الفندق . هبط السائق وفتح له الباب باحترام .. وجد الصحافي في انتظاره ملهوفاً : نكاد (نغلق) العدد .. ارجوك .. رئيس التحرير سيخرب بيتي .. لقد ارتفعت مبيعاتنا منذ قبلت استشارة النجوم عن طالع ابراج الناس .. انها موضحة العصر حتى في اوروبا .

- انها حرفة عتيقة تناقلها اجدادي وتوارثناها . انا الأخير في الأسرة بعد عمي ..

- ووالدك ؟ ..

- جرب مصيراً آخر .. رافق جيش الانقاذ عام ١٩٤٨ لتحرير فلسطين .. قتل هناك

لم يعد ولم تعد فلسطين ..

- إخوتك ؟

- إخوتي ايضاً جربوا مصيراً آخر غير السحر .. برقان وكنعان وغيلان .. كلهم جربوا

شيئاً آخر.. . كانا قد دخلا الى المصعد المزدحم . فصمتا . شيء ما في قلبتها اعاده الى ماضيه واهله وحقيقته ، وشعر بحاجة للحديث عنهم ربما ليؤكد لذاته انه كان ذات يوم شخصاً آخر . . وله اسرة وماض وقلب كالناس جميعاً . ويتعذب . . ضايقه صمت المصعد فتحول الى ذئب صغير يعوي حزناً ولم يلحظه ركاب المصعد ، ولا الصحافي . تابع عواءه ، وتحت وقع نظراته ذاب حديد المصعد فغادره وقفز فوق قرص القمر ذئباً مستوحداً يطلق صرخاته ويعدو على غير هدى في قلب الظلمة وقلب الريح وقلب الأسى والنسيان . .

كم هو تعيس ووحيد ومذعور . . وفي اعماقه تقطن عذابات سنوات غامضة قلقلة ومشوشة أيقظتها عنبرة بقبلة على يده . . كم احبها بصمت وهي ترافق امها اليهم من زمان . . وكـم تألم بصمت يوم تزوجت كأماً ثرياً لكنه لم يقل شيئاً فهو رجل ضعيف . . منذ طفولته وهو اكثر إخوته الخمسة ضعفاً ، وحتى اخته « ودعة » كانت اقوى مراساً . . ماذا سوى ان يعود ذئباً صغيراً ، يقفز عن قرص القمر الى الذرى الصقيعية وهو يعوي في وجه العواصف ويبيكي ، ويخافه ركاب الطائرات . .

توقف المصعد . غادراه .

حين ضمهما جناح الساحر عاد الصحافي يسأل بحكم العادة من غير ان يتوقع جواباً او يبالي بوظفان حقاً ، فهو شخصياً لا يؤمن بالفلكيين . . لكن القارئ هو الملك . . ويريد القراء هو الحاكم . .

- واخوتك ؟ اخوتك الذين جربوا مصيراً آخر ، ماذا حدث لهم ؟ اين هم الآن ؟ اين اهلك ؟ من انت حقاً ؟ . .

ضربه السؤال كصاعقة . صمت الساحر وقطب ، فانهمر الشرر من عينيه العجيبتين ، اليسرى الخضراء واليمنى البنية ، وسرت رعشة خوف طفولية في عروق الصحافي . . وسكت . . اجابه وطفان فجأة : كان لي اخوة . . وماتوا جميعاً وارلادهم .

بعدها ، لم يجروا على طرح مزيد من الاسئلة الشخصية ، ومضى بعد نصف ساعة حاملاً ( الاوروسكوب ) ، لم يقل خلالها غير عبارات مثل : « حاضر » ، « نعم » ، « الى اللقاء » .

\*\*\*

غادره الصحافي وبقي السؤال معلقاً في فضاء الغرفة : واخوتك . . أليس لك

إخوة؟ .. ( لقد غادرت ارض الآدميين الى دنيا السحر لأنسى .. لا نسيان فيما يبدو .. )  
 لماذا لم أجبه؟ لماذا لم ابك قليلاً وأرسله حكايتي لأرتاح .. اقول له : « ابي راح مع  
 العسكر » .. اكررها حتى الهث .. وتأخذني غيبوبة .. وانشج واروي له كيف جربنا جميعاً  
 مصيراً آخر وفشلنا .. كأنني لم انس . كأنني امشي في دروب الجان ، وقلبي النازف ما زال  
 معلقاً فوق شبح باب بيتنا المحروق في بيروت .. اركض مع العفاريت وروحي تهيم في ذلك  
 الزمن الغابر ..

كأنني اذكر الشجار بين جدي وأبي قبل ذهابه للحرب في فلسطين ، وكنت دون العاشرة  
 من عمري ، ام ان أمي هي التي روت لي الحكاية وتولى خيالي الطفل تركيب مشاهدتها ؟  
 ( صفع جدي والذي صارخاً : اللعنة عليك يا بهجت .. لم تخلق للحرب ، بل  
 للسحر فلماذا تعاند ؟ كان يدين الانس له بالطاعة لا الجان وحدهم . تلقى والذي الصفعة  
 وظل صامتاً .. وتابع جدي : انظر الى أخيك نجدت .. انه معاوني رغم انك الأخ  
 الكبير .. انت تسخر من حرفتنا المقدسة ، وتقضي اوقاتك عاطلاً عن العمل ، ونحن  
 نعمل ونعيل اسرتك .. لديك اربعة صبيان وبت ، من يربهم اذا مت ؟ .. من يربي  
 غيلان وبرقان وكنعان ووظفان وودعة ؟

- لست عاطلاً عن العمل ..  
 - كل من لا يعمل ساحراً في اسرتنا هو عاطل عن العمل .. انها حرفة تناقلناها أباً عن  
 جد ، وستبقى في اسرتنا ، وانت تقرأ الكتب كلها باستثناء كتب الاجداد الموروثة ..  
 - تعني تلك الكتب الصفراء ؟ لا تستطيع قراءتها . لا أو من بجداولها ..  
 - هذا ليس سحراً .. إننا نخدم الله والناس ..  
 - وانا ايضاً اخدم الناس ..  
 - انت اطفائي .. الا نخجل من مهنتك ؟  
 - بعض الناس يشعل النار في بيوت الناس .. ولا بد لأحد من اطفائها .. ثم انك  
 طالما قلت ان الابراج النارية تهدد اسرتنا . والارواح غير الحليفة تتآمر لاحراقها .. وها انا  
 اعمل اطفائياً ..

تجاهل جدي لهجة السخرية في صوت ابي وتابع غاضباً يوبخه :  
 - وزوجتك ؟ واولادك ؟  
 - افعل ذلك من أجل اولادي .. اذا لم اقاتل انا فسيكون عليهم ان يفعلوا ذلك ، واذا

لم يفعلوا انتقلت المهمة لاولادهم . . لا مناص يا أبي . . هل دمعت عينا جدي غضباً ام حزناً لحظة وداعه ؟ لم ندر . . عانقته امي وبكت فبكينا ) . .  
 أتذكر . . اتذكر وقلبي لا يشفق علي . . اتذكر انني لم أر تلك النظرة الدامعة في عيني جدي الا ليلة ابلغنا ( والدكم قتل في فلسطين . ستتزوج امكم من عمكم الشيخ نجدت . . هذا افضل حل لنظل نقيم معاً من غير ان تأكلنا ألسنة الناس وغضب الاسياد .  
 لم تعترض امي . . اظنها كانت تعيسة وتكره عمي نجدت بعيني الخضر اوين الخبيثين ، لكنها لم تعترض . لم تجرؤ . . قال جدي : هذا أفضل للاولاد ولك . ولكن لم يكن حقاً « افضل حل لنا » . . كنا نكره عمنا ولا ندرى بالضبط لماذا . . اظن اننا كنا نحسد كراهية امي له ، وخشيتها منه . . لم يرزقا باولاد ، وكان يضربها في البداية حين يتشاجران وتلتصع عيناه ببريق اخضر داكن شرير يذكرني بالخضرة التي تنمو على المقابر . . وكانت تبكي موت ابي الذي ينعتة عمي بالفساد السكير . كانت بالتأكيد تحب ابي . . تحتفظ بصورته : العينان البينتان الواسعتان . الشاربان القادران على حمل صقر . .  
 لماذا اعذب نفسي بالذكرى ؟ ) . .

نهض الساحر وطفان ، ووقف امام النافذة ، وحلق في البحيرة الجميلة ، ثم في زجاج النافذة الابيض . . لا جدوى . . ثمة ليال تهاجم المرء فيها الذكريات من غير ان يدري ما الذي حاجها ؟ . . السمات الاولى للصيف ؟ . . الدفء المفاجيء يهاجم ساحراً يلتصق ببرد الاشباح وصقيع الجثث الحية المعذبة ؟ فليعترف انه اللقاء مع الجميلة عنبرة تلك السيدة التي اخرجته منذ عامين او ثلاثة من جحيمة ، بعدما احترق بيته واشفق عليه جيرانه وآووه عندهم اياماً ريثما يصحو من الصدمة التي جاءت لتتوج عشرات المصائب الأخرى التي حلت بأسرته ويمعظم اسر وطنه الحزين : مصرع اخوته الثلاثة . . انتحار امه ، ثم حريق البيت بكل من تبقى من أسرته . كانوا فقراء ، مصائبهم تنافس مصائبه ، لكنهم جيران منذ خلق البؤس . .

( عدت الى البيت في وقت متأخر نسبياً ، وعرفت ان عمي سيزجرني فأنا عبد لديه . . فكيف اغيب اليوم بطوله ؟ كنت التقى صديقاً شاعراً قلما يأتي من قريته ليزور بيروت . يعمل مدرساً في احدى القرى الجبلية ، ويفضل الاقامة هناك وكتابة الشعر والنقد . يكره بيروت ويحبها . . كشأن معظم الناس معها . . له وحده كنت أكشف سري : احب الشعر . . واحب عنبرة التي تزوجت منذ أعوام ثرياً عربياً كأما اللبنانية قبلها . . ليلتها

ودعني صديقي لأنه سيهجر الشعر ولبنان ويهاجر ! . . حين وصلت الى حينا وجدت رجالاً  
يمنعون الاقتراب من المكان . . وخيل الي في الظلام انني اسمع اصوات انفجارات وان  
الدخان ينبعث من بيتنا ، وقد تهاوت بعض جدرانها . . توسلت اليهم ان يدعوني  
امضي . . قلت لهم : هذا بيتي . . اقطن هناك . .  
- هل تحمل سلاحاً ؟

- لا . . انا وطفان حصرم وبيتي في آخر الزقاق . . فتشوني فوجدوا في جيوبي قصائد  
وشهقات . . ومع ذلك لم يسمحوا لي بالمرور .

قالوا ان المنطقة مطوقة بسبب اشتباك محلي ، ورصاص القنصر سيصرعني قبل ان اصل  
الى بيتي او الرصيف الآخر . وهمت على وجهي في الشوارع ، والمطر يطاردني من رصيف  
إلى آخر . ثم احتमित بمدخل أحد الأبنية الى جانب كلب اعرج والبرد يخترق عظامي . لا  
ادري لماذا لم افكر بالذهاب الى اي نزل لقضاء الليلة . وكنت كلما للممت بقايا قوتي ، اعود  
الى منطقة بيتي محاولاً اختراق الحصار . . والمسلحون يطردونني ، ويتركون سواي يمر  
بالسيارات المدججة بالاسلحة . . ومر نهار ، وبعد الظهر هدأوا ، فانسحبوا ، وبدأت  
الوجوه تمتد من النوافذ ، وسيارات الاسعاف تعول . . وشعرت بالرغبة في الهرب وعدم  
الذهاب لتفقد بيتي . لا أدري لماذا شاهدته فيما يشبه الرؤيا والنار تلتهمه ، في لحظة بين  
الحلم والحقيقة . لم يحدث لي ذلك من قبل : ان يحتلني يقين بأن ما يشبه الوهم الذي عبر  
خاطري هو إطلالة خارقة تتجاوز فهمي المنطقي البارد للأشياء . . هل انا حقاً وريث اسرة  
تتمتع بحواس متميزة لا ينفى عنها العلم الحديث ويسميها البسطاء : السحر ؟ لم يكن ثمة  
وقت للتأمل في طاقات الدماغ البشري الغامضة . . بل ارغمت نفسي على الذهاب الى  
بيتني ، وللأسف صحت الرؤيا . . اتى عليه الحريق وعلى الاطلاق يهطل المطر موحشاً  
متوحشاً . . وعرفت انهم جميعاً احترقوا قبل ان يخبرني احد . . كانت الصور تتدفق من  
ثقب سري داخل رأسي لم اكن اعياه . . لم اجد الباب ، وانما حدثت موضعه . .  
وكالمجنون ركضت بين الحطام من غرفة الى اخرى . . كل شيء احترق . . لا احد في  
الدار . . ركضت نحو الخزانة الحديدية شبه السرية ، المغطاة بأكوام الخشب ، لإخفائها  
عن انظار السارقين ، وجدت الخشب محروقاً . . وصرت انبش الركام والرماد والهباب  
المبتل بمياه المطر . . نبشت طويلاً كمن يحفر تلاً تكدست العصور فوقه والازمان حتى  
وصلت الى القاع ووجدت الخزانة الحديدية مطبقة وغير مقفلة ، لا قرش داخلها ولا ورقة

نقدية ، لا شيء غير كوم من كتب السحر العتيقة الصفراء . . تلفت حولي فلم أجد في الدار المحروقة شيئاً آخر غير الرماد والحطام . . لا شيء غير الكتب الصفراء . كتب السحر كنت امقتها ، لكنني لا ادري لماذا لم امزقها ، بل حملتها كجثة بين يدي وركضت بها وانا اعرف انها كل ما تبقى لي . . وومض في رأسي خاطر مربع هل احترقوا حقاً كما في الرؤيا ؟؟ . . قرعت باب الجيران فوجدته مفتوحاً وهم يرقبونني مشفقين : هل احترقوا ؟ - اجل يا ولدي . . رحمة الله عليهم . . لم ينبج احد . . عمك نجدت واختك ودعة واولاد اخيك . . البيت عتيق والنار سريعة . . حدث كل شيء بسرعة لا تصدق . وانهرت . .

صحوت ، فوجدتهم وقد مددوني في فراش سوده الهباب ، وقال جارنا الفران معتذراً : دخان الحريق يا ولدي سود بيوت الحي كلها . . لم تبق وسادة غير رمادية . . لم يبق شيء ابيض . . - ماذا حدث ؟

- كالعادة . خلاف بين « المقاتلين » على افضلية المرور . . ويقال انهم كانوا في درهم صوب الجنوب واحدهم اصر على ان الدرب من اليمين والآخر على أنها من اليسار ، ويدعي صبي الدكان انه سمع شجارهم فقال ان الدروب كلها توصل الى المكان الذي يقصدونه شرط ان يتابعوا المسير . . ولم يقتنعوا . . المهم انهم تشاجروا كالعادة فيما بينهم دون ان يعرف احد بالضبط ما السبب ، واطلق احدهم رصاصة ، فرد الآخر باطلاق قذيفة « آر.بي.جي » اخطأت سيارتهم واصابت البيت ، فالتهب بسرعة فائقة . . كان اهلك في الطابق الثاني فيما يبدو ، وانهار بهم وسط أتون النار . . الذين حاولوا انقاذهم من أهل الحي ما زالوا يعانون من الحروق في ايديهم ووجوههم . . ثم انهم لم يستطيعوا الاقتراب بسرعة لأن « المقاتلين » تابعوا المعركة فيما بينهم فهربنا كلنا الى الملاجئ . . - والمجرمون ؟

- كالعادة . . تابعوا المعركة طوال الليل ، وجاءت النجدة للفريقين ، ولعلمهم الآن يجددون المطاردة في حي آخر . . بعدما دمروا نصف بيوت حينا وزجاجنا واعصابنا ونوم اطفالنا . .

- اللعنة . . احرقوا اولاد اخي اليتامى الثلاثة وهو الذي مات لأجلهم . . مسكين برقان .



... -  
 - اللعنة .. كلما جرب واحد مصيراً آخر قتله الاصحاب قبل الاعداء ..  
 - اذكر اسم الله يا ابني واهداً ..  
 - واختي المسكينة ودعة ما ذنبها .. احترقت .. اللعنة .. اقسم بأن أكون  
 ساحراً .. ولن أجرب مصيراً آخر بعد اليوم ..  
 - استرح يا ابني ..  
 - لقد قدمت اسرتنا ما يكفي من الضحايا .. وكنت اتشاجر وعمي المسكين للانضمام  
 الى صف الضحايا ..  
 - نم يا ابني .. الصباح رباح ..  
 ولم يكن الصباح رباحاً ، بل عذاباً .. صحوت مع الفجر على اصوات قصف  
 الاقتتال المحلي .. امتلأ قلبي كرهاً لكل عنف في هذه المدينة ، ولكل ما يتحرك ..  
 قتال .. قتال .. موت .. دمار .. جثث) .

\*\*\*

غطس الساحر رأسه تحت صنوبر الماء وقلبه ينبض ويتضخم ويملاً جوفه ويكاد يفيض  
 من حنجرتة ويمنع عنه الهواء ويخنقه .. ( وجاءني رسول السيدة عنبرة .. وجد البيت  
 محروقاً .. قال له الكواء : المسكين مقيم في بيت الفران .. عائلة طيبة تخدم الناس بأبخس  
 الأثمان .. وقررت الا اكرر خطيئة اسرتي الطيبة الحمقاء .. بشقيها : السحري  
 والنضالي .. سأكون وريث البشاعات التي زرعوها في صدري كلها لمجرد انني مسلم  
 وضعيف .. سأهرب من الخوف الى السلطة ) ...  
 اخرج رأسه من تحت المياه الباردة .. كان ثقيلاً ، عليه ان يسند يديه .. جلس الى  
 الطاولة وحمله بين يديه .. كانت الكرة الشفافة امامه .. حاول ان يشج بوجهه عنها .. لم  
 يستطع .. شاهد داخلها شقيقه الاكبر يصرخ ، وامه تنتحب .. كان ذلك عام ١٩٦٨ ..  
 لا يملك الا ان يتأملها داخل كرة السحر الشفافة ..  
 (غيلان ارجوك الا تذهب .. تكفيني مصيبي بوالدك .. لقد قدمنا الى فلسطين  
 شهيداً وانتهت حصتنا ..  
 - لم تبدأ بعد .. ارجوك ان ترضي عني يا امي .

- سيفغضب عمك ..

- لو ضربني بالسوط لما ابهت له .. إني ذاهب .. فدعيني اودعك بالفرح لا بالدموع .. دخل عمي غاضباً : سنتنضم الى الفدائيين ؟ سنرى ما سيقوله جدك .. ومضى .. ولم يقل جدي شيئاً .. وجدوه في فراشه صباح اليوم التالي ميتاً بالسكتة .. وذهب اخي غيلان .. وقيل لنا انه شهيد .. وقيل انه ما زال حياً وقد يقرع الباب ويعود يوماً ما .. ولم تبك امي .. كأنها استهلكت حصتها من الدموع .. وحتى يوم تزوج اخي الآخر برقان لم تبك فرحاً .. وحين رزق بأولاده لم تبد عليها المبالاة ، كأنها غسلت يديها من اسرة النحس تلك ويوم اكتشفت انه ( فاسد ) كأبي وشقيقي غيلان ، وانه ( يشتغل بالسياسة ) ، ويفضل عمله كسائق تاكسي على مهنة الاجداد السحرة لم تقل كلمة .. عمي كان قد بدأ يشيخ ولم نعد نخشاه وكنت اعمل مساعداً له على مضض ، ولكن علاقته بالجان والجيران ظلت طيبة ، وظل ينق على الاسرة بأكملها ، كما هي تقاليدنا .. وكان اخي برقان يتحفنا كل عام بفم جديد جائع ، ويأتينا من وقت الى آخر حاملاً رشاشه ومضروباً وثملاً حتى هربت زوجته وخلفت لأختي ودعة ثلاثة اطفال عليها ان تتبناهم .. وقيل لنا انه حائر ، ينتقل بين التنظيمات المختلفة ، يتشاجر ، ضيع الهدف وسقط في التناقضات .. كان بائساً وشرساً وكنت احبه ، وتحدثت سرّاً .. جرب مرة اقناعي بمرافقته الى التنظيم .. قلت له انني حائر فاعترف لي بأنه هو ايضاً اضحى حائراً .. قلت له انني جبان ، اخاف ، ولم اعد افهم شيئاً واحاول ان اجد في الشعر خلاصي فسخر مني .. وعاد مساء وقد تشاجر ورفاقه وسيبدل موقعه .. ثم اختفى عدة ايام ، هارباً من البيت وعاد الينا مثقوباً بالرصاص ومكوماً فوق سيارته التاكسي امام الباب .. كانوا يتظرونه واعدموه ..

حمله اهل النخوة ، وكان ما يزال الدم حاراً يسيل منه . ادخلوه الى البيت وسمعت امي احدهم يقول انه مات . كنت واقفاً بالقرب منها حين لطمت رأسها بكلتا يديها وابتقتها فوقه كأنه كرة مقطوعة تخشى ان تندرج . صرخة واحدة شبيهة بصوت حيوان يشن شهقتها .. صرخة لا انسانية .. صرخة مذبوحة مخنوقة كأنها قادمة من مكان بعيد بعيد .. كان وجه اخي برقان مشوهاً وقد فجره الرصاص ، ومشهد جثته يدمي القلوب .. وامي تحددق بلا صوت وعلى شفيتها صرخة خرساء ومعلقة .

ساد هدوء رهيب والرجال يقفون امامها بارتباك حاملين اليها جثة طفلها الرجل ،

ويتظنون ان تكسر مهابة الموقف بصراخ نسائي نادب . لم تبك . كأنما قررت الا يبصر القلب ما تراه العين ، رحمة بالعقل . ام تراها وعت عبثية الاشياء حتى التحجر ؟ سرت في المكان كهارب حزن يتجاوز برهته الاصوات ، كأن نساء المدينة استهلكن حصتهن من البكاء لقرون ، وتجاوزن تلك المرحلة المترفة للحزن البوحي . اقتربت من الرجال وانا انشج وابكي ، ولكن امي ظلت تمثالاً من الملح ، وسرت عدوى مهابتها المكسورة الى الرجال الذين وقفوا بالجثة بين ايديهم منكسي الرؤوس كأنهم يلامسون جوهر الموت للمرة الأولى . .

آه كيف أنسى تلك النظرة في عيني امي ؟

بعد دقائق رهيبة من الصمت المتكشف الحزن ، بدا الخجل على وجوه الرجال الذين يحملون جثة برقان ، كأنهم هم قتلوه ، او شاركوا بمعنى ما في قتله . . كأن كل حي في بيروت مجرم بمعنى ما . . لم تكن نظرة امي عدائية ، لكن بدت على حامله امارات حس غامض بالذنب مشوب بالرغبة في الهرب . . كأن جثة برقان صارت ثقيلة . . ثقيلة . . لها وزن جميع القتلى الذين سقطوا في بيروت مجتمعين . .

وحينما تحركوا لتمديد جثته فوق الفراش استعداداً للهرب من مناخ يتجاوز الحداد المألوف ، فتحت امي شفيتها وقالت لهم شيئاً خافئاً . .

أرهفنا السمع وكلنا يتوقع بداية هادئة لسيمفونية بكاء مجنونة ، ولم نكن نريد منها اكثر من ان تصرخ قليلاً وتبكي بكاء تقليدياً ليأخذ الموت مجراه عادياً مكرراً نصف رتيب ، لكنها فاجأتنا بما لا يخطر ببال ولا يمكن ان يحدث الا في بيروت . . قالت للرجال بهدوء وهي ما تزال ممسكة بخرقة التنظيف المنزلي : « ألا ترون ان الدم يسيل منه ؟ ستوسخون لي الفراش . . ضعوه فوق ارض الشرفة . . » . . ولن انسى تلك النظرة الخارقة التي اطلت من عيني امي . . نظرة بيضاء مرتدة الى الداخل ، الى الفراغ المطلق أو المجهول السكوني ) .

\*\*\*

آه سيأتي الليل ، وسأكون وحيداً . . وستهاجني تلك الصور كلها ، الا اذا عزمت وقمت بطقوسي الليلية للرحيل نهائياً الى ارض الجان . . ولكن هل اجرؤ ؟ لماذا قبلت عنبرة يدي ، الصقت شفيتها بجلدي وكسرت طلسم النسيان ؟

في بداية عملي كساحر كنت بعد ان يمضي اصحاب الحاجات ، ارتجف ذعراً وخوفاً ، واعرف انه سيأتي الليل من جديد ، وسأكون وحيداً ، وسأذكر واتذكر وقلبي لا تأخذه رافة بي . . وسأحرق في كرتي السحرية ، وستظل امي المسكينة التي اشقيناها جميعاً . . تلك المرأة المرصودة للعذاب البطيء ، حتى قررت الانسحاب . . وكنت اهرب الى عروس الجن واحيا في متع دنياها ، وهي التي تتقمص كل مرة آدمية مختلفة الجسد ، فلماذا جاءت عنبرة تزرع الاضطراب في روحي من جديد ؟

( بعد مصرع اخي برقان ظلت امي صامته مدة اسبوع ، لا تكلم احداً ، ولا يستطيع احد محاصرة نظراتها الزائغة النائية . . حتى اطفال اخي لم يحركوا وتراً في وجهها المتصلب المزرق كوجوه الجثث . . تبدو وكأنها ماتت وتخلت عن روحها ، خلفتها تهيم في عوالم اقل بؤساً وانتهى الأمر . . بقي ان تتخلص من هذا الجسد الذي تحول الى سد يحول بينها وبين الهرب . .

قال اهل الحي انها جنت ، ولم يلمها احد . . مصيبتها كبيرة في اولادها الثلاثة وزوجها . . ومقتل برقان ولما تنقض اعوام قليلة على مصرع ابنها العريس كنعان حين رافق عروسه لزيارة اسرتها في الجنوب ودهست دبابة اسرائيلية سيارة الركاب التي كانوا يستقلونها . . ولم يعيدوا الينا يومها بقايا الجثة فقد كانت معجونة بالحديد ، وبجنائزير الدبابة التي دهستهم لضرورات غطرسه غزو جنوب لبنان ١٩٧٨ . .

وقال عمي ان عفريتاً شريراً يحتلها وان مصرع ابي واخوتي غيلان وبرقان وكنعان لا يرر شرورها بل هو عفريت يحتلها وسيستنطقه ويطرده بالقوة حتى ولو اضطرو الى جلدتها . . وبدأ يحضر البخور الخاص بالجلسة ، وتحفز بعض اهل الحي للحضور والمشاهدة وقال بعضهم الآخر ان مصائبنا المتلاحقة هي عقاب الله لنا على عبثنا بالقوى الخفية . .

وفجر اليوم التالي ، سمعنا صراخ امي ، وفاحت رائحة الكاز ولحم بشري : احرقت المسكينة نفسها . . شاهدت وجهها وسط ألسنة النيران وقد استعاد تعبيره الانساني المعذب ثم تحول الى فحم وبقايا) .

الرحمة ايها الليل . . ايها الرياح الآتية من دهاليز الماضي . . الرحمة يا اشباح الاحباب دعوني وشأني ، واخرجوا من كرتي السحرية ومن كرة عيني الفانية ومن دوري الدموية . . اشفقوا على شاعر اضطرتة قسوة الحياة للعب دور الساحر ، فاستغرق فيه ولم يعد واثقاً من

قدرته على لقاء نفسه . . لقد دخلت الى المرأة ، خطوت الى وسطها وانتهى الامر . . ولم اعد اعرف كيف اغادرها لاعدود الى دنيا الناس . . كأنني بدأت اتلاشى وسط ضبابيات بخوري . . الرحمة يا عنبرة ، ايتها الطالعة من احلامي العتيقة الممزقة ، دعيني انسى انني كنت انتمي الى اسرة ، وكنت شاباً ، شاعراً وعاشقاً واحبك . . وتلك الثروة التي جمعتها خلال عامين فقط ، لم يعد في مقدوري ان استمتع بها . . كأنني صرت حبيس المرأة . . ولم يبق امامي غير التوغل في ارض الجان ، بعدما خلفوني خرقه على شاطئ الحريق . .

آه ما جدوى الشهرة والسطوة والقوة وانا بائس ومذعور ووحيد ومقتلح من تربتي اهيم مع البخور في فضاء الجان ! . . آه سيأتي الليل وسأرجع وحيداً . . مذعوراً . . اقوى الرجال يرتعد في حضرتي ، واجمل النساء يبكين متوسلات . . يركع لي الحكام ، ولكنني مع الليل اعود مذعوراً وحيداً ارتجف لوقع خطي فراشة . . وانهار لوقع خطي الظلام الآتي . واهرب الى اول انثى تتقمصها عروس الجان . . امضي الى « شارع برن » نصف متنكر ، لالتقطها عن الرصيف ، وازرع في جسدها احزاني ، واغادرها بصمت . . او أضربها لأحرر من جسدها الجنية التي تقمصتها لأجلي . . والليلة لا استطيع الخروج الى غارتي الليلية للتخدير . . عنبرة تحاصرني بتلك القبله البريئة المختلسة في قلب المساء الدهري الحزين . .



يمشي نسيم وريح جنيف الصيفية الباردة تلسعه ، وفي اعماقه بركان ( . . . وكل ليلة اقسم قبل ان انام على قتله ، وكل صباح اسعى لخدمته كالكلب الدليل . . . متى تنبت انيابي ومخاليبي بما يكفي لتدمير وحش خرافي اسمه رغيد الزهران له آلاف الوجوه ويقيم في آلاف القصور ويتحكم بأرزاق الناس ومصيرهم خلف بحار وبحار . . . ويذلني وسواي في رزقي وكرامتي ، ويعرف انني ضعيف لأن وطني ينهار فيمعلن في قهري . . لن اقدر على ذلك قبل ان انجز شهادتي واقف على قدمي واسرتي . . مضحك انت يا نسيم . . رب اسرة يتجاوز تعدادها العشرة افواه واقساط ، وانت لما تتجاوز الخامسة والعشرين من عمرك وتريد رأس رغيد الزهران ، ولا يكفيك رأسه المقيم في القصر بل تطلب رؤوسه كلها المتناثرة في قلاع الأرض والمتعددة الملامح والاسماء والاقنعة ) . . .

كان نسيم يمشي شبه مهرول في احد اروقة جامعة جنيف ، وحين انعطف متجهاً نحو المكتبة التقى بالدكتور امير النيلي الذي لم يلحظه . . . سارع خلفه وهتف بفرح حقيقي :  
دكتور امير . . صباح الخير . . كم انا سعيد لرؤيتك . . .  
- اهلاً نسيم . . كيف استطعت الهرب صباحاً هذه المرة من عنكبوتك الذهبية ؟  
- الفضل للساحر . . مطالبه تتكاثر ، وتزيد فرصى للهروب من الشبكة المذهبة وحضور بعض المحاضرات . . وجلب المراجع لاطروحتي . .  
- كيف عملك عليها . .  
- بطيء جداً . . عنكبوتي الذهبية تزداد جنوناً . . .  
- المهم ان تنجز اطروحتك قبل ان تزدردك . . .  
- كدت اقتله بيدي منذ ايام . . تصور . . انا نسيم البارد المنطقي العقلاني المولع بالحوار التضادى من موقع المخالف . . . كدت اعود رجلاً ذا هراوة قادماً من قلب الغابة . . .  
- هل تريد ان تروي لي ما حدث ؟  
- ليس الآن . . لديك اعمالك ، وعلى ان انجز شيئاً سريعاً في المكتبة .  
- عظيم . . اذن عملك مزدهر . . . الباقي تفاصيل . . .  
- بل اعمال الساحر مزدهرة . . ويبدو انه سيتنقل من البخور والعقاقير الى مرحلة الضحايا الحية . .  
- ماذا تعني ؟  
- يريد عصفوراً أزرق له تاج . . بالأحرى حمامة زرقاء لطقوسه . . جئت لافتش في المكتبة عن اسم طائر كهذا ان وجد . . من اين اجد عصفوراً أزرق يحمل تاجاً . . .  
- لماذا لا تحضر حمامة بيضاء نصبغها معاً بالأزرق ؟ . .  
ضحكا ، وسرت الروح المرحّة غير المفتعلة للأمير وتسقلت الى الدورة الدموية لنسيم .  
تابع استاذة وصديقه امير : على اية حال ، ارجو ان تنجز اطروحتك قبل ان ينتقل من التضحيات بالحيوان والحمام الى الانسان . . وقد تختار العفاريات والجبان . .  
ضحكا طويلاً ، واشفق نسيم مما سينقله الى امير من اخبار ليلي . . يعرف ان الضحكة ستموت عن شفتيه ، ولكن لا مناص . .  
همس نديم كجاسوس : آسف لما سأنقله اليك من اخبار السيدة ليلي فقد يؤمك . لا

اريد ان العب دور « ياغو » الواشي ، لكنني اعرف مدى ثقتك بها وحبك لها . انها تتردد باستمرار علينا . . اعني . . على رغيد . مكالمات هاتفية عديدة في اليوم . .  
 - غريب . انها منذ البداية لم تذكر لي شيئاً عن صلتها برغيد . . .  
 - وأنت ، هل ذكرت لها شيئاً عني ؟ هل قلت لها انني تلميذك وجاسوسك ؟ سأخسر عملي إذا كشفت ليل سري لرغيد .  
 - ليل تعرف صلتك بي وطالما شاهدتك في بيتي . واذا كانت قد انضمت حقاً اليهم ، فذلك يعني انك قد تخسر عملك يا صديقي . اني آسف حقاً . لا اثق بالنساء عادة . يبدو انني كالرجال الحذرين جميعاً ، بالغ الحماسة حين احب .  
 - حسناً . ليكن ما يكون . لن اخفي شيئاً عنك على اية حال . في الزيارة الاخيرة حدث امر غريب . لقد باعته قرشاً بمبلغ يوازي ثروة . . قرشاً فلسطينياً قديماً . . هل تصدق ذلك ؟

- اكمل . . .

- وتحدثنا عن مشاريع مشتركة . « ليلة المليار » ، حفلة كبيرة يعتمزم اقامتها بمناسبة حصوله على ملياره الأول ، وهي التي ستعقد السهرة برمتها . انه مهتم بمكتب الخدمات الذي أسسته وقد زودها ببعض الزبائن الاثرياء وزكاها عندهم منذ زمن لا بأس به فيها يبدو . . والغنمالي بينهم ، ووعدوا بالمزيد . بدا سعيداً كطفل بالقرش العتيق ، وحين مضت حملة ودخل به الى بركته المذهبة . . . تعرفها . . . صار يرغي ويزبد في وجه تمثال « المناضل » كعادته . . ثم فعل شيئاً غريباً . . . حاول ارغام التمثال على ابتلاع القرش ! . . . لم اكن اقصد التلصص ، لكنني كنت احمل اليه ادويته . . . هل يمكن لانسان ان يدفع ثروة صغيرة ثمناً لقرش عتيق يغيب به تمثالاً ميتاً ؟ . . .  
 صممتاً طويلاً . كاد امير يقول « القرش ما زال جديداً ، والتمثال ما زال حياً » لكنه امسك في اللحظة الاخيرة .

انه يكره كثيراً ( القفلات ) الخطابية ، حتى ولو كانت صحيحة ! . . . وبدأ نسيم يتلثم ويكرر بعض ما سبق ونقله من معلومات . . . اكّد من جديد : ليلة المليار الاسطورية . . . ستولى الاعداد لها . .

- سبق وقلت لي ذلك . . .

- غازها وتمنعت بلطف بالغ كأنها تؤجله ولا تطرده . .

- هذا غريب .. انه لا يتعامل الا مع العذارى والصبايا .. وزوجات موظفيه . وهي  
في الاربعين ...  
- اظنها ايقظت فيه شهية حب التملك .. للرجال ! هذه السيدة تدير اعمالها  
كرجل ..

- . . . . .

- ومن زبائنها صخر الغنمالي . . . من المفترض انها انجزت له ولرغيد تحفة ديكورية  
ما . . . لم اكن اعترم استراق السمع ، ولكن ليست للاذن جفون تسدها كما تفعل بعينيك  
حين لا تريد ان ترى . . .  
- اكمل . . .  
- هذا كل شيء . . .

تمالك امير النيل نفسه وقال بلهجته المرححة المحببة : حسناً . وانا احمل لك معلومات  
تهمك وساحرك . . . الحمام الازرق ذو التاج موجود فعلاً ، وله تاج حقاً . . اسمه « حمامة  
الملكة فيكتوريا المتوجة » . . . وهو حمام بديع اللون يتوج هامته ريش ازرق خرافي  
التضاريس ، اطرافه بيضاء كالدانتيل . . موطنه الاصلي في غينيا الجديدة . . . والآن  
تستطيع الدخول الى المكتبة والعمل ساعتين على اطروحتك ، والعودة بهذه المعلومات بعد  
تلفون سريع للخطوط الجوية تستعلم منها عن ثمن بطاقة الطائرة الى استراليا . . . حيث  
يعيش طائرک الآن . وتستطيع ان تختفي اسبوعاً بحجة السفر الى هناك لاجتماع الطائر . . .  
وساقوم بتأمينه لك هنا في جنيف من اصدقاء يحترفون تربية الطيور ويعرفون ولعي بها . .  
- الهرب من عنكبوتي الذهبية ليس سهلاً . . . سيفتش عن تأشيرة الدخول الى  
استراليا في جواز سفري . . . قبل ان يصرف لي فرنكاً واحداً من راتبي . . . انه مذهش  
البخل والاسراف في آن . . . بخيل على الفقراء ومسرف مع الاغنياء ثم انني خائف منه .  
هنالك لحظات اشعر فيها انني مراقب وانه يعرف صلتي بك . ويعرف انني طالب في كلية  
العلوم الانسانية احضر اطروحة عن « حقوق الانسان العربي » ، وانني خريج الجامعة  
اللبنانية فرع العلوم السياسية . . . وانه يعرف كم امقته . آه ليتني اقدر على الانصراف الى  
عملي الاكاديمي سبعة ايام متوالية . . . انني اضطر احياناً الى اعادة المراجع للمكتبة قبل  
انجاز العمل عليها . . يحين الوقت ولما تسنح لي الفرصة لمطالعتها كما ينبغي . . . دراسة  
الفقراء الغرباء عذاب . . . يشعر المرء في بلده انه اقوى ، ربما لان حاجته الى النقود



تتضاءل . . .

- اكتب لي قائمة بالكتب وساستعيرها لك باسمي من المكتبة . . .

- كم انا شاكر لك . . . لا ادري كيف ارد لك جميلك . . . لولاك لما استطعت

المثابرة . . .

- انتم رفاقي واولادي والشكر علامة اغتراب . .

حين انصرف نسيم ، غاضت الابتسامة عن وجه امير . سار هائماً على وجهه . . . .  
مشى طويلاً صوب البحيرة والاشجار . . . دوماً هو هكذا . . . يفكر بصورة افضل حين  
يمشي ، ولو كان بوسعه لفرد جناحيه ولطار مع تلك العصافير التي يحب . . المشي لديه بديل  
بائس عن الطيران . . . فكر بها ، بتلك الغالية ليلي . . . ما الذي تفعله به وينفسها ؟  
ماذا دهاها منذ حاولوا اغتياله وفشلوا ؟ بدلاً من ان تزداد تعلقاً به فرحاً بنجاته ،  
صارَت تتصرف كما لو مات وانتهى امره . . . غريب حقاً امر النساء . . . يتمسكن بك  
لاسباب تبدو لعينيك مبررات للفراق ، ويهجرنك لامور كنت تتوهمها وقوداً اضافياً  
للحب . . .

( - اني متزوج . . .

- احبك . . .

- لدي اولاد . . .

- احبك . . .

- واحبهم جميعاً . . .

- احبك . . .

- لن يكون في مقدوري الزواج منك في اي يوم . . . لا استطيع طعن ام اولادي التي

وقفت الى جانبي في كوارثي ورعت الاولاد . . . انا مدين لها ، واحترمها . .

- احبك . . . امور تافهة كهذه لن تقف بيني وبينك ) .

يركض الشريط فوق عينيه ، ويأتيه صوت ليلي ، عاشقاً لا مبالياً متوهجاً بحب حارلم

يذوق لطمعه مثيلاً . . . مزيج خارق من النضج والحرارة الاولى . . . معها نسي فقره . . .

نسي يؤسه . . . نسي مرارة الغربة . . . ازدادت طاقته على العمل . . معها سطر اجمل كتبه

وأفضلها . . . والآن ، ماذا حدث ؟

القرش الفلسطيني العتيق الذي اهداه لها كان اثنى ما يملك . . انه قرش اعطاه اياه

رفيق نضال كان يحمله مع قروش اخرى كثيرة ضاعت في الطريق يوم الهرب وكان صبيّاً صغيراً . . . قرش مثقوب صدىء كتب على وجهه الأول : « فلسطين - ١٩٤٦ » بالعربية والانكليزية والعبرية . . . وعلى وجهه الآخر كتبت قيمته « ١٠ ملات » باللغات الثلاث نفسها . . لكن ١٠ ملات لم تكن حقاً قيمته . . ظل يحمله عاماً بعد آخر كتعويذة . . . في برد المعتقالات وصقيع بيوت التشرد واعوام القهر تمسك به واحتضنه داخل يده كمن يمسك بقلبه داخل راحته . .

كان اسم فلسطين المنقوش بالعربية والانكليزية والعبرية فوق القرش نصف المسوح يشتعل كالجمرة التي تكوي يده وروحه وكيانه . . . كبر وهو يرى العرب يسمونها « اسرائيل المزعومة » ، ومعظم ما يدور ينذر بـ « بلاد العرب المزعومة » . . لكنه لم يفقد يوماً الأمل . . ولن . . .

يقول نسيم ان رغيد غازها ؟ وعجب لذلك ؟ لعلها هي ايضاً عجبت للامر . . المسكينة . . . إنها لا تدري ان جسدها تحول الى ساحة معركة بينه وبين رجل آخر . . . لعلها لا تدري ان والده النحات مفيد النيلي هو صاحب تمثال البركة . . . وانه حاول شراء الابن بعد تمثال الاب وفشل . . . وها هو يشتري المرأة التي يحب . . . والقرش . . . لقد اخبرته بالتاكيد انه هدية منه ، فاشتره ليؤله لا ليكرمها . لقد سمع بحكاية ليلة رأس السنة ، واستعمالها للقرش في موضوع الاثارة . . . وتألم . . . ولم يعاتبها . . .

( لقد اخطأت . كان علي ان اخبرها بتفاصيل علاقتي ورغيد ، والبواعث الحاقدة التي تتحكم بلعبة الشطرنج الذهبية الشاسعة التي يكاد يحولها الى حجر من احجارها . كان علي ان اروي لها تفاصيل تلك الزيارة ، ورفضتي العمل رئيساً لتحرير مجلة يصدرها تكون مركزاً لتدجين المثقفين الفقراء المشردين في الغرب الذين قد تضطربهم لعنة اللقمة الى الاستزلام والدفاع عن الشيء ونقيضه . . تمهيداً لنقل الشجارات العشائرية والطائفية الى الجالية العربية في كل مكان ) . . .

ولكن هو الفقير اللاجيء الملاحق المرفوض ، لم يشأ ان يبدو مغروراً حين ( يتبجح ) امام امرأة مثلها قائلاً : رغيد الزهران . . . صاحب المليار يكرهني حتى الخوف ، ولن يريجه غير شرائي . . . فانا في نظره لست رجلاً واحداً . . . انني تيار قد ينمو ويجرفه كما حدث مرات عديدة في التاريخ من قبل وسيحدث . . . رجال مثله يرفضون الحوار معي او الاعتراف بانسانيتي ، ولن يريجهم غير شرائي بأي ثمن . . . ذلك يضمن له انني تحولت الى

تابع .. تابع باهظ الثمن او بخس الثمن .. لا يهم .. تلك فوارق كمية لا نوعية .. رجال كرهيد لا يريهم حتى ان يمدحهم شخص ما مجاناً ... فذلك يعني انه ما زال حراً في تفكيره وبالتالي ما زال حراً في رفضه بعد حين ، وقت اكتشاف حقيقته ... شراء الجميع ضروري ، الانصار والاعداء ، النصير كي يتحول الى عميل ، والعدو كذلك . لقد وجده رغيده صامداً ، فجرب قهره وشراء بعضه .. ليلى ... وطعنه في الصميم ...

( اجل . كان علي ان اخبرها ... ) ..

لماذا لا يذهب اليها ويصارحها ببعض الامور ويتحدثان ؟

منذ محاولة اغتياله ونفورها منه ، لم يجرؤ على مفاقتها بأي شأن يثير الشجون ... واليوم يشعر بأن يد امها العجوز المشومة تمتد امام وجهه وتمنعه من مضايقتها واثارة المزيد من احزانها .. حسناً . سيذهب اليها في مكتبها الجديد في شارع الرون .. سيبارك لها بالعمل الجديد ، واذا كان الجو مناسباً ربما يدعوها الى الغداء ويتحدثان بصراحة ... آه ، لا يستطيع ان يدعوها . جيوبه شبه خاوية ... ولا يملك ما يذرعه .. لقد ساعد زميلاً لنسيم عجز عن دفع اقساطه ... اولئك الطلاب العرب المساكين يكافحون لكسب العلم ، وسواهم يكافح لتبذير امواله ... كان يظن ان ليل تفهم ذلك كله وتتحمسه ... كيف انقلبت عليه هكذا ؟ ... تلك الصبية التي كانت صرخة احتجاج حية ، تخرج في كل مظاهرة احتجاج تراها في الشارع قبل ان تسأل لماذا ... تلك التي كان الرفض مهنتها .. كيف تبدلت ؟ لقد بذل جهداً خاصاً لايخراجها من غربتها الذاتية الوجودية ( الفضاضة ) وتوعيتها على الجذور الحقيقية لتلك الغربة في الوطن .. لقد ( غربت ) نفسها وكان موضعها هناك .. لقد استبدلت معركة ملموسة مع بني قومها لتبديل واقعهم الاليم ، بمعركة وجودية شبحية مع ضباب المدن الاوروبية وطقسها ... كافح ميلها الى الغربة الفولكلورية الشعاعية واعاده الى اسبابه الحقيقية على الأرض ... ارض الوطن ... علمها ان تركز رفضها المشتت ، وعداوتها المبعثرة .. وأفهمها اولويات النضال : ان الكفاح من اجل اطفال بلادها أهم من الكفاح لأجل اولاد الفقمة . والحرب ضد بيغن اهم من الحرب ضد البدانة ، والخروج في تظاهرة لاجل العرب الذين يذبحون في الارض المحتلة هو الاصل لامرأة عربية مثلها ، لا الخروج في تظاهرة ضد اساءة معاملة الكلاب في احد الفنادق الخاصة بها في ضاحية جنيف كما كانت تفعل يوم التقاها للمرة الاولى ... كان يظن انه

كسبها . . انها كسبت نفسها . . ضمن على طاقاتها الخلاقة ولم يرض ان تتحول الى ساقية مهدورة في كؤوس الثملين . . وقف الى جانبها علناً وعرض نفسه للسخرية مراراً آملاً بأن تكسب القضية ثائرة مبعة مثلها ، ضالة مثلها ، حبيبة مثلها ، معذبة مثلها . .

فماذا فعلت ؟

ارتدت معطفاً من الفراء الذي كانت ترفضه في الماضي ، وذهبت للاحتفال بمحاولة اغتياله ، وعهرت القرش الرمز ، وتعرفت الى الرجل الذي يمثل نقابة ذابحي شعبه ومحاولي قتله ، وها هي اليوم تنافس نديم وامثاله لتكون أحد مساعديه . . .

توقف أمير امام المبنى الفخم الذي يضم مكتبها ، وتأمل رقعة شطرنج من الذهب والماس ، حجارتها من الفضة والذهب في واجهة دكان المجوهرات . من اين لها بالمال لاستئجار مكتب فاخر كهذا ، فوق الدكان الشهير؟ . . . ظل يتأمل الشطرنج وهو يفكر بها . . ولم يدهش حين شاهدها داخل واجهة تاجر الحلي . . . ها هي ليلي الحلوة بشعرها الاسود الطويل وقد تحولت الى بيدق ذهبي فوق رقعة الشطرنج . . .

شاهدته يحدق بها ، فرفعت يدها وحيته صارخة : « بونجور » امير . الم تمت بعد ؟ . ما الفرق . . انت بحكم الميت . اما انا فقد اخترت الاقوى . . .

« - ان اختيارك له سيجعله الاقوى . . . لا تضعني . . . كيف بعته القرش الذي لا يقدر بثمن ؟ » . .

لم يقل لها ذلك . خاف الا تسمعه عبر زجاج الواجهة . . . وخاف ان يظنه المارة مجنوناً يتحدث ويبادق الشطرنج . . . سيكون صعباً شرح ذلك للبوليس السويسري اليقظ ! . . .

كان متحمساً للصعود اليها . لا يدري لماذا خائنه قدماء ومشتا به الى المقهى المقابل لمكتبها ( احبها اكثر مما كنت ادري ، اخشي غضبها ، ولا اريد ان اتصرف برعونة واخسرها نهائياً . من الافضل ان اجلس قليلاً في المقهى وارتب افكاري . ماذا اريد ان اقول لها بالضبط ؟ هل جئت لتتساجر ؟ ما جدوى ذلك ؟ اهدأ ايها القلب الاحق ودع المنطق يكتب مقالة او اطروحة في الخيانة والحب ) . . .

دوماً يسخر من نفسه . يريجه ذلك . منذ هجرته انكسرت بعض صلابته ، لكن لم يفقد تماسكه .

( - اصفعها ! . . )

قالها بسام ببساطة وتابع : كف عن التفكير المنطقي بأسباب هجرها لك . مع النساء  
يفشل استخدام المنطق لأنه لا منطق منطقياً هن . اصفعها وستركع . . . .

— ليتك تواجه حياتك بالاسلوب الذي تريدني ان اواجه ليلي به . . انت يا بسام هارب  
من كل شيء . . لم تصفع يوماً وجه الحياة بقرار واحد ، وتريدني ان اصفع ليلي ؟  
— ماذا تعني ؟

— أعني ان تحضيرك للدكتوراه منذ بدأت الحرب اللبنانية هو حجة للهرب . . وانت  
تعرف ذلك . محام ناجح مثلك ناضج مثلك مارس المهنة مدة عشرة اعوام ، يترك كل شيء  
فجأة يوم اندلاع الحرب اللبنانية عام ١٩٧٥ مدعياً انه يريد متابعة دراسته للدكتوراه . . .  
اليس ذلك هرباً ؟ اهكذا تصفع الحرب اللبنانية ، ومآسي الوطن ، ام اننا لا نصفع الا  
النساء ؟

— انا حر . . . قررت انني راغب في الحصول على الدكتوراه من جامعة كامبردج . . .  
لقد حلمت دوماً بالدراسة هناك . .

— اربعة اعوام في كامبردج . . ولم تنجز عملك فأبعدت . . وظللت تتنقل من  
جامعة الى اخرى ، وتنفق مذكراتك ، وتحشى من انجاز عملك كي لا تواجه لحظة  
الاختيار : العودة الى الوطن او الغربة . . انك تفضل ان تقطن الانتظار والغبار .

كان المطر يتدفق ، ومعه تدفق غضبي وحزني على غير هدى كالسيل . . . قلما افقد  
اعصابي مع انسان احبه . . . لا ادري ماذا دهاني حين نصحني بأن اصفعها . . . كان  
غضبي يتصاعد في حنجرتي متحولاً الى كلمات قاسية : اسمع يا بسام . . . تريد ان  
اصفعها لأنك جبان . . . تهرب من الزواج كي لا تخونك زوجتك . تهرب من الحب خوفاً  
من المسؤولية . تهرب من الجنس خوفاً من الأمراض . تهرب من الحياة خوفاً من الموت .  
تهرب من بيروت خوفاً من القتل والختطف والقتل ولا تلاحظ انك تحولت الى ميت حي .  
توهمهم يترصدونك ويريدون قتلك لمجرد انك كنت احد اصدقائي تجالسي وتحضر بعض  
حلقاتي ولقاءاتي . . . انك مذعور ، لقد توقفت عن ممارسة أي نشاط منذ ثمانية أعوام  
ونسيت العالم . . . فلماذا لا تصفع حياتك وتواجهها بدلاً من ان تطلب مني صفع  
ليلي . . .

بدأ بسام يجمع ثيابه القليلة في حقيبة صغيرة . عرفت انه سيمضي . شعرت بنخجل  
بالغ . تحول غضبي كله الى اسف نادم مخلص . قال بحزن : لقد انقلبت عليك اكثر مما

ينبغي بإقامتي معك . . . غضبك المبالغ به سببه انني اضايقتك في بيتك . المعذرة . اني ذاهب .

توسلت اليه : ارجوك الا تذهب ، وان تقبل اعتذارى .  
- لقد قسوت علي لان علاقتك ولىلى تأزمت منذ اقامتي معك . اعرف انني احق ومفلس ولا اصلح لشيء ، ولكنني لم اقصد الوقوف في درب صلتكما . . . لم يعد لديكما اي مكان للقاء . انت تحشى امها وقلما تزورها . وهي لا تحبني ولا تترتاح لوجودي . ولستما من المراهقين الصغار لتكون الحانات مسرحاً لغرامكما . . . لقد افسدت كل شيء وسامضي . .

- لم تفسد شيئاً . الاشياء صارت تفسد من تلقاء نفسها في هذا الزمن الرديء . ليلي لم تتبدل وحدها ، بل هي رمز لعالم يتبدل . رمز التخلي عن القضايا . انني احترمك لانك رفضت العمل ورغيد حين حاول شراءك كما حاول شرائي . . اما هي فبديلت كسواها من احبابنا الكثر . . . اعتقد انني لا اتألم بسببها وحدها . انها تذكرني بهم جميعاً مرة واحدة . تذكرني بذلك الكاتب التزيه الذي ظل دهرأ يقف ضد خط سياسي معين لاحد اصحاب الجلالة ، ثم ذهب اليه منذ عام لامتداح ( جلالته ) وكرر هذه العبارة في مقالته خساً وعشرين مرة . . وتذكرني بذلك الشاب الذي كان درعاً لنا ، فصار مخبراً لهم . . . وذلك الاذاعي الذي كان ضد احد الرؤساء ، فتحول الى ملحق صحافي في بلاط « فخامته » . . . وتلك المجلة التي كرست نصف ايامها ضد ما يمثلها احدهم والنصف الآخر لنشر مذكراته بكل فخر . . . هذا مؤلم . . . ما جدوى ان اصفع ليلي ، والغدر يصفعنا كل لحظة ، « كل شيء يتغير ، ويتساقط الواحد منا تلو الآخر » (

ولكنه ، وهو جالس هكذا في المقهى والذل يقطر من احزانه ، شعر بصدق انه يتمنى ان يصفع ليلي . ان يصعد اليها ليصفعها ويمضي . . . هل بدأ هو ايضاً يتبدل ؟ . . .



في غرفة المكتبة استرخى خليل وشعر للمرة الاولى بشيء من الامان ، فقصر الغنمالي عالم من التناقض الهدياني .

صحيح ان الشيخ صخر احسن وفادته منذ استلم عمله قبل ايام ، وابنه الشيخ صقر يبدو مسروراً به كدمية جديدة لما تكتشف او تكسر ، لكنه منذ وصوله الى هذا القصر البديع على ضفاف بحيرة ليمان وشعور غامض بالاضطراب يغمره . . . فالرجال في الحديقة يقطعون الاشجار ، من الساحة الامامية ، والشاحنات تحمل الرمل وتفرغه فوق العشب وبقايا الجذوع ، لأن الشيخ صخر شعر بالغربة ويريد ان يصنع صحراء لناقته وربما يضرب فيها خيمة الى جانب قصره . . . تبدو الملامح الاولى لصحرائه العبية مثيرة للاشفاق وسط بحار الخضرة والماء والمطر الصيفي الاوروبي والشمس السويسرية الشحيحة ، وتبدو الناقة التي احضرها بطائرته الخاصة - لأنه اعتاد شرب لبنها - مسكينة وذواوية وتائهة . . . قالوا انها ليست المرة الأولى . . . الناقة السابقة كانت تمرض باستمرار فيأتون باخرى تموت وتستبدل . . . وهكذا . . . ثم قرر الشيخ صخر في لحظة مزاجية صنع صحراء لناقته ولنفسه . . .

شقيقه التوأم الشيخ هلال لم يبد راضياً عما يدور ، وكان يصيح مؤنباً : الاتخافون الله ؟ ما هذا الهدر . . . لن اسمح بالمزيد من ذلك . هذا القصر يجب ان يباع ، للموا فضائحكم وحرمةكم وعودوا الى الوطن . . . سترك يارب . . . اليست لديكم اهتمامات اخرى ؟ الاتلون بما يحدث في أي مكان . . . هل سمعتم بما يدور في لبنان ؟ الاتخافون امتداد النار ؟ كانت هذه العبارة اول ما سمعه خليل وهو جالس في الردهة هذا الصباح بانتظار صقر . . . وفوجيء بدخول الاب صخر متهللاً ضاحكاً مثل طفل مرح يؤنبه والده . . . حين مر به الشيخ هلال رمقه باحتقار كما يفعل كل يوم ويتجاهله ، بينما استقبله صقر ببشاشة : اهلا بك . . . يا عمي هلال هذا خليل الدرع من لبنان . . . سكرتيري الحديد . . . لم يصافحه العم واكتفى بهزة من رأسه ( لماذا ألومه ؟ يظنني مثلهم . . . السكرتير اللبناني الذي يدبر المخدرات والنساء وموائد الميسر في صالات التخدير . . . ولكن أأست في الدرب لأكون كذلك ؟ ولماذا اتصرف كالعدراء المرائية التي تبتلع كأس المخدر متظاهرة بالجهل بمحتوياتها ، ثم تندب عفافها صباح اليوم التالي ؟ انا سكرتير امير النيلي ام سكرتير صقر الغنمالي الدونجوان عاشق الحياة « الكيف » كما افهمني نديم بكلمات مهذبة ؟ . . . وهل اظنه بحاجة الي مشروع ترجمة الموسوعة الاميركية الى العربية وقاموسي وبستر واكسفورد ام انني قادم ملء ارادتي لاستلام عمل ارفض ان تلصق بي تهمة ؟ ) . . . فقط حين ضمته جدران غرفة المكتبة شعر بشيء من السلام يغمر نفسه وسط الكتب

البدیعة التجلید العمیمة الفائدة ، وقد حفرت اسماء هذه الكنوز بحروف مذهبة على عارضتها . . . قرأ : كتاب الكامل للمبرد . دیوان الحماسة . الاغانی للصفهانی . المنقذ من الضلال . تهافت الفلاسفة للغزالی . مقدمة ابن خلدون . مروج الذهب للمسعودی . الأحكام السلطانیة . قوانین الوزارة وسیاسة الملك للماوردی . الامتاع والمؤانسة لابی حیان التوحیدی . یتیمة الدهر للثعالبی . لسان العرب لابن منظور . طبقات الامم لصاعد الاندلسی . عجائب المخلوقات للقزوینی . العقد الفرید لابن عبد ربہ . تاریخ دمشق لابن عساکر . العمدة لابن رشیق . . . وغيرها . . . كتب جمیلة وثمينة قرأها فیما مضی ، او بعضها وأحبها . . . وأحس بالانس فی حضرتها . . . لعل الشیخ هلال أهداها لاسرة شقیقه ( الضال ) تثقیفاً لهم . من المؤسف ان هلال یحتقره سلفاً ویعقته وإلا لكان الحوار بینهما ممكناً . انتابته لحظة حماس . . . یا لها من كتب جمیلة .

التراث ضرورة اساسیة لكنه سیهدیهم ایضاً كتب امیر النبیلی وكتباً اخرى معاصرة لا یتستطیع ان یتذكر الآن اسماءها . . .

لاحظ صقر ان خلیل یطیل النظر الى الكتب . غمرته رغبة فی ادهاشه ، فاقترب من الرف الکبیر وضغط القلم فی ید تمثال ادیب یزینه فتحرك جدار الكتب باکمله وانفتح آلیاً بیطء فتكشفت الخزانة عن بار یحتوی عشرات من زجاجات ماء النار ، واما الكتب المرصوفة المجلدة فقشرة دیکوریة ملصقة الى خشب باب البار ولا كتب . . . فقط اغلفة كتب وعناوینها ! . . . وما کاد الباب ینشق حتی اضاءت الخزانة تلقائياً ، واذا بجدارها الداخلی مرایا عدیة متداخلة فی مثلثات ذات تشکیل خاص بحیث تبدو الزجاجاة فی المرأة وجوهاً متعددة لمئات من اوعية ماء النار الکریستالیة . . . نعم . نجح فی ادهاشه . لم یکن یدری ان بذخاً كهذا ممکن حقاً . . . وان لم یر شیئاً بعد . . . قال ببساطة : لم ار شیئاً كهذا من قبل . . . مدهش . . .

ضحک صقر جذلاً وكشف له عن سر : شاهده والیدی فی احد مکاتب رغید الزهران . . . صممت له للی سبوك سراً . . . لديها مواهب کثیرة هذه المرأة - الرجل . ورغید الزهران یطریها . . .

— ومن هورغید الزهران ؟

ضحک صقر حتی انقلب حقاً على قفاه فوق المقعد المخملی الوثیر وقال : لم تسمع برغید الزهران . . . یجب ان یسمع والیدی بذلك . . . سیطرب لك حقاً . . . سیحبك لمجرد انک لم



تسمع برغيد الزهران . . ثم ان رغيد الزهران الذي لم تسمع به هو الذي دبر لك هذه الوظيفة . . . وتوسط لاجلك عبر نديم . . .

- حسناً . . . ؟ ومن هي للي سبوك . .

وقهقه صقر من جديد : ولم تسمع بها ايضاً ؟ اين تعيش ؟

( انهض عن مقعدي ، واصفع الشاب العشريني صقر على خديه واقول له : انا اعيش

في قلب الجرح مع شعبي ولكن قل لي انت اين تعيش )

لم يتحرك خليل . . ولم يجب . صار يقول الصدق الذي نصحه الوالد به ، ولكن بكلمات بلا صوت . فتابع صقر معاتباً : للي سبوك عجوز في الاربعين ، وهي المرأة الوحيدة التي تحصل على نقود منها دون ان يلمسها احدهما . . حسناً . . انها رجل لا امرأة ، وان كانت تبدو كذلك احياناً . . لديها « مكتب خدمات » اسسته خلال الاشهر الاخيرة ونجحت . وهي نشيطة حقاً ولديها اتصالاتها هنا ومعارفها . . . وتبلي كل شيء سريعاً وبدقة . . . درست المحاماة وعملت في الامم المتحدة ثم انصرفت لعمل حر . يقال انها من اصل عربي . . . لكنني لا اظن ذلك . . انها امهر من ان تكون عربية . . انها بالتأكيد اجنبية ، وميزتها انها تفهم العربية ، مما لا يضطري الى محاورتها بالفرنسية او الانكليزية . كان ذلك سيربكني لان لغتي الاجنبية محدودة . . الا تعرف انني خريج جميع كليات سويسرا . . طرداً ؟ . . . . .

وغرق من جديد في ضحكته الخاصة التي تنتهي غالباً بشهيق يشبه الاختناق تتوقف بعده فجأة . . . شاركه خليل الضحك . . . آه لو كان والده يملك النفقات لمتابعة دراسته اذن لاستطاع اكتساب العلم في افضل الجامعات . . . لقد كان عليه دوماً ان يعمل ويدرس في آن معاً . . . وحين انهى دراسته الجامعية في بيروت شعر بأنه خارج من سباق ( الماراثون ) ، لكنه ظل يحلم بيوم يقدر فيه على متابعة علومه . . . وهذا الشاب يباهي بطرده من المدرسة . . ظل صامتاً . . ضحك صقر لسبب سري هذه المرة ، وقال : انك قليل الكلام . . هذا امري سري . . لا احب سماع غير صوتي . . . انني مغرم بنفسي ، بكلماتي ، بضحكتي ، الا تراني جميلاً . . .

( لكمته وقلت له انه تافه ومغرور ويجب ارساله فوراً الى معسكر تدريبي وارغامه على حفظ خارطة وطنه العربي ومعرفة النسبة المرتفعة للذين يعانون الجوع والفقر والمرض والقمع والامية فيه ) .

خليل صامت ، وصقريتابع مزهواً : صحتي ممتازة . . . بصري حاد كالصقر ، ولست مصاباً بعمى الالوان كوالدي . . .

ضحك خليل كما يفرض عليه واجبه . . . تابع صقر : لا امزح . . . لاحظنا انه لا يميز الالوان جيداً . . . تدخل راقصة في ثوب احمر فلا يميز لونه . رافقناه الى الدكتور بايال الشهير فقال انه مصاب بعمى الالوان . . انه عاجز عن رؤية اللون الاحمر . . .

( هذا مؤكد ، ولا يحتاج لشهادة طبيب ) . . . ظل خليل صامتاً وتابع صقر : لذا الغينا رحلة اسبانيا . . ما جدوى مراقبة لعبة مصارعة الثيران وابي لا يرى خرقة المصارع وريش اسهمه . . ثم علمنا ان الثور ايضاً لا يرى الاحمر وان ما يهيج هو حركات المصارع لا لون القماش التي يحمل . . هل كنت تعرف ذلك من قبل ؟  
- لا . . . بالتأكيد لا . . . .

- هذا رائع . . لا احب الذين يعرفون اكثر مما اعرف . . هل تعرف التزلج على الثلج ؟  
- لا . . .

- عظيم . . . سترافقني الى قصرنا الشتوي في « غشتاد » هذا الشتاء وسأعلمك ذلك . . ثم تنتقل بين شاليهاتنا في « سان موريتز » و « كورتينا » . . لمتابعة دروسك في التزلج !  
- اشكرك .

- هل تعرف التزلج على الماء ؟  
- لا .

- مدهش . . سترافقني الى قصرنا الصيفي في « مونترو » واعلمك ذلك . .  
- اشكرك . .

- هل تعرف كيف تركب الحصان ؟  
- لا . . .

- هذا رائع . سنذهب الى قصرنا في ضاحية « ونتورث » قرب لندن واريدك اسطبلاتي وخيولي واعلمك فن ركوبها . .  
- اشكرك . .

- هل تعرف كيف تقود طائرة هليكوبتر ؟

- لا ..
- ساعلمك ذلك الآن ...
- لا ارجوك .. اخاف ...
- هذا يجعل الامر اكثر متعة لي .. هل تعرف كيف ترضي حريماً بأكمله في ليلة واحدة ؟
- لا ...
- بمعونة الله ، ومعونة عقاير الشيخ وطفان سيسهل عليك ذلك .. والدي في الخمسين ويدعي انه في الاربعين لكنه ينجح في ذلك كابن العشرين ..
- برفو ...
- هذا ما كنا نظنه حتى نزلت قرحته لكثرة ما تناول من عقاير ...
- سلامته ..
- هل تعرف لعبة البوكر ؟
- لا
- ماذا تعرف اذن ؟
- اعرف التدخين . هل تسمح ...
- تفضل . هذه سيجارة حشيش .. من صنع بلدك .
- تناولها خليل منه بذهول . لم يجرب ذلك من قبل .
- سر صقر بذلك .. كان السكرتير السابق قد طرد قبل ان يستلم عمله لانه رفض ذلك .. وكان نديم قد زود خليل بهذه المعلومات ايضاً وسواها ، وهو منذ استلم عمله يتوقع الاسوأ بكثير ... وما بيده حيلة .
- قال صقر : سأخذك الى بيت الحريم .. كنا نحفظ بمعظمهن هنا ، والدي وانا ، شراكة فيما بيننا وبعض اخوتي وضيوفنا لاننا نؤمن بالتأمين والاشترابية ، وحين وصل عمي هلال اضطررنا لنقلهن سريعاً الى عدة شقق مفروشة هنا وفندق هناك .. كم تعبنا .. شاقة هي حياتنا ! شاقة ومتعبة ... لولا السونا والمساج لانهرت !
- سلامتك .
- دخل الشيخ صخر غرفة المكتب فانسحب خليل بشكل تلقائي نحو الشرفة ، ولحق به صقر ضاحكاً فرحاً ، بينما تبع هلال شقيقه التوأم الى غرفة المكتبة ، وبدا انها يتابعان شجاراً .. وكان الشيب يشتعل فوق صدغي الشيخ هلال الذي قال : حتام هذا الضلال ؟

البلد كلها تعرف انك تصبغ شعرك وشاربيك . . وتدور بحريمك المتنقل وبعض عشيقاتك . . . هذه الصحفية الاوروبية شارلوت بارنز نشرت فضائحك في الصحف . . . وحاكمنا غاضب حقاً . . انت تعرف نزاهة كفه وحرصه على الاخلاق . . ثمة من يترجم له ما تكتبه شارلوت بارنز وسواها عن تبذيركم .

- لانني لم ادفع لها . .

- اعرف ذلك . . . انها حقيرة ، لكن ذلك لا يبرر حقارة افعالك . .

- انني ادفع الزكاة . . والضرائب . . وبعد ذلك ، انا حر بمالي انفقه كما اشاء . .

- لست حراً في ايداء الجماعة . اسلوبك في الانفاق مذبحة جماعية !

- انا حر ما دمت لا أخالف القوانين .

- انت تخالف روح الشرائع . سيبدل الناس القوانين لتطال أشخاصاً أمثالك .

- أنا حر . .

- لست حراً . الموبقات التي تقتربها تؤذيك وسواك في آن .

- ان الله غفور رحيم .

- الناس لا ترحم ولا تغفر . لقد تعبوا من امثالك . واذا لم نقومك بانفسنا ، سيفعلون

هم ذلك . لقد لوث اسم الغنمالي بالعار ! . . .

- ارجوك يا اخي ان تصون لسانك . . نحن توأم ، لكنني راض بمعاملتك لي على انك

الاخ الكبير ما دمت سبقتني للخروج الى الدنيا بثوان . . .

وكعادته ، نسي الشيخ صخر سبب غضبه وتابع مازحاً : في الحقيقة انا اقول لصاحباتي

انك اكبر سنأ مني بعشر سنوات . . انك تبدو كذلك على اية حال .

وانفجر صخر ضاحكاً ضحكة شبيهة بتلك الهستيرية التي يمارسها صقر بجذل . . .

خليل وصقر استمرا في تدخين اللقافات بهدوء على الشرفة ، وكانت اصوات الشجار

تأتيهما كما لو من بئر بعيدة الغور . .

انفجر هلال : لا تستطيع الاستمرار هكذا . . لن يكون بوسعك تحويل سويسرا الى

صحراء لمجرد انك مشتاق وعندك لوعة . . عد الى وطنك يا اخي وكفانا فضائح . . . دع

بقية اولادك يلتحقون بالمدارس والجامعات . .

- لماذا الفضائح ؟ انكح بالحلل . . وما ملكك ايماني . . النساء في الدنيا زوجات

فاضلات او عاهرات . . واعامل كلاً كما تستحق . .

- لا تكفر . . . لا تنجىء بشاعة افعالك خلف المقدسات . . . لماذا تراوغ ؟ لم يعد احد  
يجهل حقيقة ارتباطاتك . صفقاتك ، وثرائك . . . الحاكم مهتم بما تفعل . . . ويعتبرك من  
الاسباب المباشرة للتدمير الشعبي ، الصحف الغربية تلهج بفضائحك ، واولادي الذين  
يدرسون في جامعة كامبريدج يدعون انك لست قريباً ، والتشابه في الاسماء صدفة . حتى  
اولاد اخيك صاروا ينجلون من سلوكك . . وابنك الاكبر يرفض ان يزورك ويدعو ان  
يهديك الله بعد كل صلاة . . عيون الناس كلها تفتحت على صفقاتك غير السلائقة  
وشريكك رغيد .

- وتلك المدرسة الرائعة التي عمرها رغيد الزهران . . . الا تعتبرها سبباً مخفياً ؟ . . .  
اعني ، افهم ان تكره تورطنا ، اعني تورطه ، في صفقات السلاح وسواها . . ولكن ماذا  
عن خدماتنا الانسانية الكثيرة وعلى رأسها المدرسة ؟  
- في الحقيقة ، حتى هذه الصفقة تحوم حولها الهمسات . . . يقول العمال ان تلاعباً خطيراً  
كان يجري بمواد البناء ومواصفات الاعمدة من حديد وخراسانات . . .  
- اقسم لك انني لم آت هذا المنكر . . . بعض اولادي الصغار تلامذة فيها . . . ابني  
عبد الله يدرس فيها . .

- اعرف انك بريء واصدقك لكنني اخشى ان يكون الامر قد تم دون علم منك . . .  
انك وغد صغير ولم اقطع الامل في اصلاحك قبل قطع رأسك لاصلاحه . . .  
- هل تعاكس صفقة المطار بسبب هذه الشائعات المغرضة ؟  
- هذا احد الاسباب . . . لكنه سبب مهم جداً . . تصور مطاراً ينهار فوق رؤوس  
الناس . . . وارضاً تحسف تحت الطائرات .  
- انك تبالغ . . . لم يحدث هذا من قبل لاي من تعهداتنا ورغيد . . . انه ماهر في  
الحسابات . .

- لعله مثلاً يحسب لانهار المطار بعد عدة اعوام . . . بحيث ينحي باللائمة على صاعقة  
أو عاصفة أو هزة أرضية أو إهمال المستثمر أو شيء من هذا القبيل . . .  
- انك تبالغ . . .

- اني حريص على وطني وعلى ابناء بلدنا . . كنت مثلي ، ثم تبدلت منذ عام  
١٩٧٣ . . . جاءت الأموال وذهب صيف لبنان . هناك كنتم تستترون إذا بليتيم  
بالمعاصي . . . في اوروبا سقط برقع الحياء . . انا ضد هدر المال العربي . . . المال للناس

كلهم يا اخي . . . انك تسرق اموال الفقراء . . .  
 - انني لا اسرق ، لكنني انفق مما يرزقني الله به . .  
 - التبذير سرقة . . . فلا تقحم الله في سوء تفسيرك للرزق الحلال . .  
 قال صخر مبدلاً الحديث : طمئني ؛ كيف صحتك . .  
 - في تحسن والحمد لله . . . افكر بالعودة للاستشفاء في مستشفياتنا . . يبدو ان اطباءنا  
 العرب اكثر مهارة مما كنا نظن . . لقد دفعت ثروة في عيادة ذلك الطبيب البريطاني ثم  
 مستشفاه ليقول لي ما قاله لي الطبيب ابن البلد منذ المعاينة الاولى . . .  
 - بارك الله باولاد البلد . .  
 - آه . . . لقد تذكرت شيئاً . . اريد تحويل مليون استرليني الى المستشفى الذي عولجت  
 به في لندن . . . ولا بأس في تحويل مليون آخر الى بلدية لندن لتحسين الحديقة العامة التي  
 يطل المستشفى عليها . . . هل تظن المبلغ كافياً ؟  
 - بالتأكيد لا . . . هل تريد ان يقولوا ان العرب بخلاء ؟ ماذا عن الكرم الحائمي الذي  
 اشتهرنا به . .  
 - حسناً . . لنضاعفه ونسارع بتحويله بالاسترليني . .  
 - سيفعل ذلك خليل . . السكرتير الجديد لابني . . .  
 سمعه خليل وقرر بجنون  
 ( سأحول المبلغ لمنكوبي حرب العرب في لبنان التي هرب منها معظم العرب حتى  
 الآن ) . . . كانت اللفافة الاخيرة قد انتهت ، وصحوه ايضاً . . . اذناه صارتا مرهفتين  
 تسمعان كل حرف . . . ورأسه يعوم مقطوعاً في الغرفة يتنصت . قال صقر : لندن . . . آه  
 تذكرت لندن . . . عندي موعد هناك . . سنسافر الآن يا خليل . . .  
 - لا أستطيع . . . ليست لدي تأشيرة دخول . . .  
 - لفاة اخرى وتنسى التأشيرات . . .  
 - اعطها لموظف الشرطة في المطار وقت دخولنا لينسني . . وليس لي انا . .  
 ضحك صقر وقال : سنؤمن لك التأشيرة . . . اتصل مع لي سبوك في مكتبها وقل لها  
 انني اريد تأشيرات . . . .  
 - ليست لدي بطاقة اقامة في سويسرا . . جئت بتأشيرة سياحية ولن امنح تأشيرة  
 بسهولة فأنا لبناني . . . لا احد يريدنا فوق ارضه . . . كل سفارة ترى جواز سفر لبنانياً

ترمي به في وجوهنا . . . يظنوننا جميعاً ارهابيين او مهربي حشيش . . . ولكن . . .  
 - لم تعد لبنانياً ولا عربياً . . . جنسيتك الآن « جيت سيت » فأنت سكرتيري . . .  
 - وهل لهذه الدولة جواز سفر؟ . . . دولة الـ «جيت سيت»؟  
 ضحك صقر طويلاً كأي حشاش سعيد وقال : هذه الدولة تملك العالم كله . . . هيا  
 اتصل بللي سبوك ودعها تنجز اقامتك واجازة عملك وتأشيرات دخول الى الاقطار الاوروبية  
 كلها . ستتجول قليلاً . . . ولكن من الافضل ان تذهب اليها بنفسك فقد يكون توقيعك  
 على بعض الأوراق ضرورياً . . . هذا عنوانها في شارع الرون . . . اذهب الآن . . .  
 وسأكلمها هاتفياً واعلمها . . . انك قادم من قبلي . . . قل لي هل سافرت من قبل إلى  
 هذه البلدان ؟  
 - لا . هذه رحلتي الأولى خارج لبنان . . . اعني زرت من قبل بعض البلدان العربية ،  
 وذهبت في رحلات سياحية الى بوخارست وموسكو ولينغراد . . .  
 - هذه ليست رحلات رفاهية . هذه رحلات الفقراء . ساعلمك كيف يكون الرحيل  
 الى النعيم والملاذات . سجل عندك اسماء الدول التي سنبداً بزيارتها . بالمناسبة ، لماذا لا  
 نصطحب معنا السيدة الجميلة زوجتك ؟  
 - لانها . . . لانها حامل . . . في شهرها الثاني .  
 لا يدري لماذا كذب ، ربما للمرة الأولى في حياته .  
 اجاب صقر : ذلك لا يضايقيني على الاطلاق .  
 - قد يضايق ذلك الطفل !  
 - خذ ، هذه الدفعة على الحساب .  
 ودس في يده بمبلغ كبير لم يمس مثله دفعة واحدة من قبل .  
 وغادر خليل المكان سريعاً ، ماراً بالصحراء الاصطناعية الصغيرة ، حيث مهمة  
 الرجال منع العشب من النمو . . .  
 ولمح الناقة من بعيد . . . . بدت له نقطة بنية ، تحتضر على ورقة خضراء . . .

\*\*\*

لم يلمح امير ، خليل الدرع ، الذي هبط في شارع «الرون» من احدى سيارات  
 « الرولزرويس » الخاصة بآل الغنمالي ، ولولمحه لما دهش هو الذي لم يعد يصعقه شيء . . .

يقيم المطعم ، وجائع المقهى الرث الثياب يتحول في أيام إلى رجل مرفه المظهر يرفع السائق قبعته حين يفتح الباب له ؟ « كل شيء يتغير ، ويتساقط الواحد منا تلو الآخر » . . كان يرددها امير لنفسه بأسى ، ولم ير خليل حين وقف مذهولاً أمام واجهة بائع المجوهرات الخارقة البذخ والاسعار . . ثم يسارع صاعداً إلى مكتب « للي سبوك » كما تسميها البطاقة النحاسية ، كأنه هارب من رقعة الشطرنج الذهبي اياه .

كان امير ما يزال جالساً في المقهى ، يرشف قهوة باردة ، وثمة حزن موجع يثقل على صدره ، على الجانب الأيسر بالذات . وجع يشتد شيئاً فشيئاً ويمتد افغوانياً إلى كتفه الايسر فذراعه . .

للي تفعل ذلك ؟ . . هي من دون الناس جميعاً تتحول ببساطة الى للي سبوك ؟ ذلك مؤشر خطير . اصيلة مثلها ، مخلصه مثلها ، لا مبالية بالثراء والمظاهر مثلها ، تتخلى عن القرش المثقوب ؟ إذن فالخطة المحكمة الحلقات لتكفير الناس بمقدساتهم بدأت تثمر ثمرة هيداً لمرحلة الاستسلام البائس لواقع الاشياء لا لحقيقتها الأصلية . وهذا بالضبط ما يفجعه . كأنه لا يبكي ليلى ، بل يبكي عشرات الرافضين المرتدين مثلها الذين لا يعرفهم . لن تكون سهلة محاولة تبرير انتقال اساليب القمع وكبت الحريات من بعض اليمين الى بعض اليسار ، وذلك القمع للحريات الديمقراطية الذي يمارسه معظم الذين دافع عنهم وخط النظريات لهم ، فكفر الناس بأساليبهم في الممارسة والتطبيق . . . وهربوا مرتدين . . هذا يهرب الى السحر ، وآخر الى المال ، وثالث الى الغربة ، ورابع الى التخدير . . . ثمة قناص في غير بيروت ايضاً ، يترصد قلب كل عربي منتظراً لحظة ضعف تتسلل عبرها رصاصة لامرئية . . .

لا . لن يدع اليأس يتسلل اليه او الى حروفه . . . لن يدعهم يحققون سحرهم الشرير ، حين ينقلب الأخ ضد اخيه بعد سلسلة من الاحقاد الهشة والتناقضات الهزلية ، ويقتل قابيل هابيل ثم ينتحر ، والعدو يتظاهر بالاستنكار لوحشية ما يدور في بيانات لفظية رخوة لا تردع ولا تمنع . . .

ما دام الظلام دامساً هكذا ، فلا بد له من اعادة اختراع النار من جديد . . . نعم . انه متهم بالتفاؤل ، وهذا غير صحيح . انه يجد ان التفاؤل مهنة جادة تتطلب كدجا . . . وقد اختارها . . .

سيحدث الى ليلى . . . بالود العتيق ذاته قدر الإمكان . . صحيح انه يتمنى ان



يصفعها ولكن ما جدوى ذلك ؟ ألا يتمنى عدوه رغيد سلوكاً كهذا منه ؟ أليس خلاف الحلفاء امضى سلاح في يد عدوه ؟ . . . لا . . . لن يدع مشاعره الخاصة الجريح وشهوات الانتقام الوضيعة تستولي عليه . . . وإذا قتل ذات يوم كائنات حياً ، فلن يكون ذلك ليلى أو أي حليف آخر سابق . . . سيضرب قلب العدو الأصلي . . . ولن يدع الاضاعة «السيكاديليك» للأحداث الدراماتيكية في «ستيريو العروبة» تضيع تركيزه عن مائدة العدو : الهدف الأصلي ونبع الشرور والأحزان . . .

ها قد عاد الى كتابة فصل في مؤلفه السياسي الشعاري الرومانسي ، او صفحة لمجلة . . . الكتابة داخل الرأس عادة رديئة ، لكنها تساعده على الاسترخاء قليلاً ، تخفف اوجاع الجانب الأيسر من صدره وذراعه اليسرى التي بها يكتب .

حسناً يا هاملت العربي ، كفك تأملاً ، اصعد الى ليلى العامرة وجابهها ولا تكن ضعيفاً كقيس ولا تطلب ناراً . . . بل اطلب توضيحاً . . . لماذا تبدلت هكذا بعد محاولة اغتيالك ؟ صحيح ان الذين حاولوا قتلك لم يكونوا اعداءك الأصليين ، بل اعداء مستجدين تشاركهم في الاستراتيجية وتحالفهم في التكتيك مصرراً على الحرية والديمقراطية كشرط اساسي في كل خطوة . . . ولكن ، ما شأن هجرها لك بذلك ؟ كاد حبيبها يقتل ونجا . هذا كل شيء . . . لا . . . هذا بعض من شيء . .

( ها أنا جالس انظر لهجرها ، ومركبها غادر سواحي منذ اشهر . لعل بسام كان على حق حين نصحني : اذهب واصفعها . انه بالتأكيد لم يقصد ذلك عملياً ، لكنه كان يلفتني الى أهمية مغادرة مرحلة التنظير الى الفعل . حسناً . انني ميال الى التنظير ، وتلك غلطة لا تغتفر حين لا أفعل شيئاً آخر بينما العدو يتفد وأنا اتعفن . . . لقد ظلمت بسام وأسأت فهمه . كأنني المرادف الفصيح لصمته . هو سقط في السلبية الصامتة ، وانا في البيغائية . لقد رفض بسام العمل ورغيد يوم عرض عليه المنصب ذاته الذي عرض علي . رفض رغم فقره ، وذلك ، وسخرية الصبح من إقامته في بيتي دونما عمل غير حفظ الموسوعة البريطانية غيماً !! . . . » اذهب واصفعها » . كأن المسكين يلمح حقيقة ، وهي انني ميال للتنظير وغير فعال في زمنا ) . . .

حين دخل امير مكتب ليلى ذهل لفخامة الديكور أولاً ، ولأن السكرتيرة حاولت منعه من الدخول الى غرفتها ثانياً ، فلدى الست للى ضيف هام ولا تريد ان يضايقها احد . . . وحين خرجت سكرتيرة (الحراسة) لقضاء حاجة ، لم يستطع كبح جماح يده التي فتحت الباب

بطيء ، ونظراته التي التهمت المكان ووجه ليلى . . . لاحظ انها لا ترتدي الثياب السود حداداً على امها ، ولكن ذلك لا يعني شيئاً بالضرورة . وجهها مطلي بالمساحيق الفاقعة الألوان . للمرة الأولى يراها هكذا ، وعندها لا تمس غير الكحل . شعرها مصبوغ بلون كستنائي محمر ، كما هي الموضة . كاد لا يميزها . . . كانت مشغولة عنه ، غارقة في عملها تدون شيئاً على ورقة امامها . تطلع الى الضيف الهام وميز فيه «جائع المطعم» نفسه . . . في اللحظة ذاتها ، بفعل حاسة سرية ، رفعت ليلى رأسها عن اوراقها وشاهدته . . . لم تتحرك من مكانها ، وقالت بفتور :

امير . . . اهلاً بك . .

— مرحباً ليلى . . كنت ماراً مصادفة ف . .

تابعت ليلى بلهجة ساخرة : فكرت بأن تمر بي مصادفة أيضاً ونتحاور مصادفة عن امر هام . . لكنني كما ترى مشغولة . . زيارتك مقبولة والحوار مؤجل . . . صبعق خليل . لم يدهشه الحضور المفاجيء لأمر . . . ولا الألفة المفترطة في تعاملها بقدر ما ادهشه ان الست ليلى تتحدث العربية وانها ليست اجنبية رغم انها استقبلته وكلمته بالفرنسية ، ففضى الدقائق الاخيرة مكافحاً للتركيز على تحسين لغته الفرنسية في مواجهة هذه المحامية السويسرية الذكية . . التي ادعى صقر انها من اصل عربي وتحسن اللغة . قدمته اليه ليلى : السيد خليل الدرغ ، سكرتير صقر بن صخر الغنمالي . . . صافحه امير مرحباً : اهلاً بك يا خليل . . . تذكرني ؟

وكأنما اطلقت المفاجأة لسانه ام تراها بقايا سجائر الحشيش : اذكرك ؟ وكيف لا يذكر المرء سبب خرابه ؟ بدأت متاعبي يوم قرأتك واعجبت بك ، وازدهرت يوم رفضت رفع كتبك عن واجهة دكانى لاستبدالها بجريدة (الرفاق) ، تنفيذاً لتعاليمك عن الممارسات الديمقراطية . . . وتأزمت لأنني دعمتها بوصية أبي : قول الصدق دائماً بأي ثمن . فعلها هو فطلقته امي وزوجتان بعدها . . وفعلتها فمورست ضدي الاشكال القمعية الأخرى كلها . . اعرفك ؟ انت دائي فكيف انساك . . . زوجتي وجدت رقمك الهاتفي في جيبى ولم اجرؤ على الاعتراف لها بأنني شاهدتك . . ما كانت ستصدق تلك المصادفة . .

ضحك أمير وليلى ودهش خليل . . لم يكن يداعب احداً . . كان يعني ما يقول . . قاطعه امير محاولاً ايقاف تدفقه . من الواضح انه لا يعرف شيئاً عن ليلى ورغيد وصخر وميولهم السياسية والفكرية . ولا يدري ان ليلى كانت حليفة وانتقلت الى معسكر الخصم ،

وانه قد يفقد عمله بسبب هذه المعلومات التي ستحملها بالتأكيد الى رغيد فصخر . . . وقال  
اول ما خطر بباله : آه زوجتك . . اعرف ذلك . . لقد اتصلت بالرقم - رقمي - وسألت  
عن اسم صاحبه ثم سألت إذا كنت موجوداً عندي فأخبرتها بأنني لم أرك ولا اعرفك  
فشتمتني . . حدث ذلك في صباح باكر ما . . . لعله اليوم . .  
اردف خليل بود حقيقي : وها لعنتك الحبيبة تلاحقني حتى هنا . . . ستغالك زوجتي  
كما حاول سواها . .

— هل عرفتم بالامر في بيروت؟

— بيروت وحدها هذه السنوات مفتوحة الاذنين والعينين والجرح ، في حين تغط معظم  
المدن العربية في شخير تاريخي يدعمه بعض الاعلام . .  
تدخلت ليل : ارجوكما . . . لا اريد سماع حديث السياسة . . لقد تخرجت من كلية  
العذاب هذه ، واعلنت انسحابي من المتاهة . . . قال خليل متحمساً : رغبتك لا  
تكفي . . المتاهة لن تسحب من حياتك . . انها مفروضة علينا ، إذا لم نكافحها  
ابتلعتنا . . .

قالت ليلي بصوت ناء كالمنومة : لقد ابتلعتكما وانتهى الأمر . . اما انا فقد غادرت المتاهة  
قبل فوات الأوان . . . وانت يا استاذ خليل تبدو احد تلامذته المتحمسين . . . وقد حفظت  
كلماته ايضاً وتستعيرها . . . لماذا لا تزوره في بيته وتتابعان حفلة (الكلامولوجيا) هناك . . .  
— وانت ايضاً تستعيرين عبارة زوجتي في السخرية منا ؟ . . صرت قانعاً من امر  
مخجل : النساء الجميلات لا يصلحن للنضال لأنهن يعتبرنه زينة . . . لم تنضج المرأة العربية  
بما يكفي لتمارس عملاً جاداً أو نضالاً جاداً . . .

— قبل قليل كنت جالساً أمامي بخشوع لأنني أوهمتكم وسواك انني اجنبية . . . والآن  
حين عرفت انني عربية ، شجعتك حضور استاذك على مهاجمتي وعلى التعميم . .

— معذرة . . كنت افكر بزواجتي . .

— هل هي رديئة الى هذا المدى ؟

— لا ادري . . . ربما كانت مذعورة . . .

فقد امير فجأة شهيته لـ (حوار مكاشفة) مع ليلي ، ربما لأنه وعى ان حضوره قد  
يتسبب في خسارة خليل لعمله ، وربما لأن ليلي لم تعد نفسها . . صارت تنكر للغتها الأم ،  
ولأصلها ، وللوشم البدوي الذي لن ينساه في يد أمها . شعر بأنه يريد الهرب من شعرها

المصبوغ ومساحيقها ومظهرها الجديد وباطنها الغامض المذجج بالقسوة اللامبالية . . قال  
 بسرعة : معذرة . افسدت عملكما . سأراكما في وقت آخر . .  
 انسحب بسرعة ، بينما ليل تقول بلا مبالاة : تستطيع ان تبقى إذا شئت ! . .  
 لحق خليل به الى ردهة السكرتيرة ، وسأله هامساً : لا ادري ماذا يدور بينكما ، ولكن  
 هل تريد ان انصرف الآن ؟  
 - لا . . انا الذي يجب ان ينصرف . .  
 - هل انت متعب ؟ مريض !  
 - لا . .  
 - تبدو كذلك .  
 - ابدو فقط . قل لي ، هل انت مرتاح في عملك ؟  
 - لا . . الا اذا كانت مهمة تدليل طفل في الثانية والعشرين من عمره تعتبر مهنة . . .  
 صرت سكرتيراً لصقر بن صخر الغنمالي كما ذكرت لك ليلي . . تعرفهما ؟  
 - للأسف نعم . . .  
 - ما رأيك بعلمي . . .  
 صمت أمير . . . بدا صمته دهنراً وشعر خليل بالخلج والمهانة ، لولا مداعبة امير وصوته  
 الذي عاد مرحاً ، قائلاً : لنقل انك وجدت عملاً كمربية اطفال !! . . .  
 ومضى امير وهو يدمدم بلا صوت عبارة بيتس « كل شيء يتغير ، ويتساقط الواحد منا  
 تلو الآخر » . . .



ثمة نار موجعة تسري في جسدها كاوية منبهة . . . ( لم اعد اطيع صبراً . . . الا  
 يعرف الرجال ان ذلك يحدث لنا ايضاً ؟ ) . . .  
 تحار . . . ماذا تفعل امرأة جميلة مثلها ، تشتعل شهوة وحياة حين يعجز زوجها عن  
 تلبية حاجاتها النارية لمدة خمسة اعوام متوالية ؟  
 ماذا تفعل اية امرأة نهمة الى الحب ، وجسد زوجها مجاعة قحط ؟ . . .

هل ثمة رجل يعلن الصيام الجنسي لمجرد ان الظروف العقلية والمزاجية لزوجته عطلت لديها حاسة التجاوب ؟ أم ان المجتمع الذكوري اخترع لهم (سوبر ماركت) اللحم الاسمر والأبيض والمورد والزنجي ، لارضاء تلك المشاعر البركانية دوماً عقاب يذكر (والرجل لا يعيبه) ؟ . . .

وهي ماذا تفعل ؟ وقد اجبت حياة الكسل المترف في الفندق الفاخر شهواتها ، والفراش الكبير يحتل نصف مساحة الغرفة ، وزوجها يتقلص حين ينام الى جانبها مثل غملة صغيرة تختبئ تحت الوسادة . . . متزوجاً من همومه وهواجسه السياسية . . . هل تملك الا ان تحب نديم ، ذلك الرائع الشهي المعتنق الخبثات ، بابتسامته المحببة الأسرة ، وحيويته المتأججة التي تعيد اليها ذكريات النشوة شبه المنسية حية . . . يوم قتل وداد ، توهمت انها ماتت معها . . . ولعلها فعلت . . . . . ويوم ضرب زوجها وصار ضيفاً دائماً لسجون الاصدقاء والأعداء ، توهمت ان جسدها دخل مرحلة الثلج والرماد . . . ولكن الحياة فيما يبدو تشبه دولا بـاً قذفه طفل عن حافة المرتفع ، انه يستمر في الدوران ، مرتطماً بالصخور تارة ، وبالأزهار اخرى . . . لكنه لا يتوقف الا بالموت . . . والشهوات كذلك . . .

مع نظرات نديم وهمساته الهاتفية المسروقة غادرت الرماد الى الجمر . . . وعاد جرح مباحها مفتوحاً ومتأججاً . . . منذ اللقاء الأول في الطائرة خطف اعجابها . . . حسناً ، كانت من قبل تراه من بعيد ، وتحسد اسرته لثرائه ولمكانته كما يحسد المرء فكرة مجردة . . . في الطائرة ارتدت الفكرة جسداً يثير الشهية الى التأوه الطويل المخنوق كمواء قطط شباطية ذات مساء في شارع مسدود . . . انه رجل قوي وهي تحب الرجال الاقوياء اصحاب السلطة . . . شيء ما في حضورهم الجسدي يخترقها بنشوة السطوة . . . كأنها بامتلاكها لهم تمتلك بعضاً من قوتهم وتشاركهم الامساك بعضا السلطة المثيرة . . .

يوم احبت خليل بدا لها قويا ومنيعاً مثل قلعة . . . كان يتهرب منها ، ويلاقئها ببعض اللامبالاة ، فاشتعلت رغبتها في تطويعه . . . طوقت قلعتة بالاعلام الزرق لعينيها ، واحتلتها ، ووجدته حصاناً برياً في سهوب النشوة لا يشق له غبار . . . ثم استحال خليل الى صحراء من الذبول والاحزان والخيبيات تارة ، وكتلة نارية من الحماس تارة اخرى ، لكنها مهدورة في مجالات بعيدة (عامة) . . . ولما كانت هي (ملكية خاصة) ، تم ختم ملذاتها بالشمع الأحمر، ونسي الجميع كل شيء عن متعتها وجسدها ، وهي على رأس الجميع . . .

ها قد عادت روحها تعلن العصيان . . . وذاكرتها تتعري من اردية النسيان ، لتذكر انها كانت دائماً امرأة مصنوعة للحب . . . والحب وحده . .

هل كان في مقدورها ان تقول لا ، حين هتف نديم يطمئنها الى مثابة زوجها على عمله ، وقد لا يعود قبل وقت متأخر هذه الليلة ، فهل ترغب في تناول طعام الغداء معه ؟ . . . لم يقل ما إذا كانت زوجته ستحضر ام لا ، في البيت أم اين ، ولم تسأل . . . قالت : «نعم» . . كانت ستقول «نعم» لو سأها أي شيء آخر دوغما استثناء . .

مر بها في الفندق . ما كادت تهبط الى قاعة الاستقبال (اللوبي) ، حتى فوجئنا بوصول خليل . . اللعنة عليه . جاء لاحضار جواز سفره من اجل التأشيرات . . . والاقامة . . واجازة العمل . . . ارسلت به ليلي السباك لاحضاره والعودة ثانية . . . قال نديم برباطة جأش : ارسلني رغيد الزهران لابلغكما دعوته اليوم الى العشاء سينتظركما في الثامنة والنصف . . كنت سأكتب لك مذكرة بذلك واتركها مع موظف الاستقبال ، لكنني حظيت بلقاء السيدة كفى في ( اللوبي ) . . . الى اللقاء مساء . . .

انسحب ولم يرف له جفن . كانت ترتجف . . ترى هل صدق خليل الاكذوبة ؟ . . . قال خليل : ما هذه الدعوة ؟ بدولي اشبه بمذكرة جلب منها الى دعوة للعشاء . غمرتها الفرحة حين تذكرت الدعوة : ونسيت مخاوفها من زوجها ، وربما لم تعد تبالي بذلك حقاً : رغيد الزهران . . . سنراه ، وتتذمر ؟ . . . الم تسمع به ؟ لم نلق مدعواً في سهرة نديم لم يتحدث عنه . . انه الأعظم . . . امرك عجيب حقاً . . .

لا يدري لماذا تذكر امير . . . ربما لأن امره اكثر عجباً . . . ذلك رجل لا يهادن ولا ينحني للعاصفة . . ولا يدري لماذا لم يجزؤ على ان يذكر لها لقاءه به . . . تماماً كما اخفت عنه حقيقة امر لقائها بنديم . . . انه ليس بالاحق . . . ونديم ليس بالرجل الذي يحضر لابلغ رسالة كأنه موظف صغير . . . لديه عشرات الناس يقومون عنه بالمهمات التافهة . . . هل يمكن ان . . . لا . . . غير ممكن . . .

انفجر شيء داخل رأسه . . . واقتنع كما يحلو للرجال غالباً بأن ذلك غير ممكن . . . لعل نديم كان ماراً في دربه من هنا . . . لعله يحمل دعوات رغيد الزهران بنفسه . . . اجل ! (ذلك) بالتأكيد غير ممكن . . . لا . . . ان الزوج ليس آخر من يعلم ، انه ببساطة لا يريد ان يعلم أو يصدق . . .

وذلك بالطبع يحدث للرجال الآخرين فقط .. وليس له ..



- اريد ان ابوح بسر لك يا سيدي الشيخ وطفان ..
- هات ما عندك ... سرّك في أمان ..
- يوم اشتريت هذا القصر القلعة ، قيل لي ان كنوزاً ذهبية دفنت فيه .. في حديقته أو اقبيته ... حرام وكفر ترك الذهب واهماله وحرمان الناس منه ... بذلت كل وسيلة لاكتشافه وتكريمه وفشلت .. هلا ساعدتني ؟
- بكل تأكيد ..
- وهلا شرفت مائدتني هذا المساء بحضورك ؟ ... دعوت عدداً قليلاً من الأصدقاء تعرفهم جميعاً .. بالاضافة الى رجل وزوجته من لبنان ... اسمه خليل الدرع ... هلا كشفت لي برجه ليسهل تطويعه ؟
- سأكون بحاجة لاسم امه وتاريخ ميلاده ، لأعرف «وقفه» ... وهل يخضع للابراج النارية أم الترايبية أم الهوائية أم المائية والله أعلم ...
- مكتوبة على هذه الورقة ... لكن المحامية استخرجتها من جواز سفره .. ارجو ان تكون المعلومات صحيحة .
- سنرى ..
- بشأن العشاء ؟
- قد انضم اليكم فيما بعد ... والآن ساهتم بأمر الكنوز المدفونة ..

\*\*\*

« ... اجيئوا واحضروا يا زوينة الرياح ويا صلعة الأرض ويا طاوس ويا كراكيل ويا ميمون ويا شمروال الطيار ويا جليثايل ويا عامر هذا المكان ، ان كان في هذا المكان خبية او دفين من ذهب أو فضة فاطهروها بحق القادر المحيط رب الجيوش ...

... اظهروا المال الذي في هذا المكان بحق ويل لكل همزة لمزة الذي جمع مالا اجمعوا

المال الذي في هذا المكان بحق ن والقلم وما يسطرون وبيوم الحشر والنشور الا ما شققتم هذه الأرض أو الحائط أو العامود أو التنور واطهروا المال الذي في هذا المكان اجبيوا يا زوبعة الرياح ويا صلعة الأرض ويا طارش ويا كراكيل ويا ميمون ويا شمردل ويا جلجياثيل ويا عامر هذا المكان بحق كهيعص حم عسق وبحق سورة التغابن وبيوم الحشر والنشور الا ما شققتم هذا الارض أو الحائط أو العامود أو التنور واطهروا ما فيه من المال او الدفين أو الخبية من فضة أو ذهب او نحاس وافعلوا ما تؤمرون به بحق هذه الاسماء عليكم ومن يزغ منكم عن امرنا نذقه من عذاب السعير .

اجبيوا من قبل ان يرسل عليكم شواظ من نار ونحاس فلا تنتصرون او نلعنهم كما لعنا اصحاب السبت وكان امر الله مفعولاً الوحا العجل الساعة . . . » .

وفاحت رائحة بخور : لبان ذكر . شمع خام . سندروس . سخاطر هندي . حب قرطم . . وكان الساحر يغذي شعلتها بشعيرات هدهد ، وشعر خنزير . .

ازكمت الرائحة نسيم ، وقد دخل الى الساحر حاملاً صينية الشاي بالياسمين . . . كان قد شاهد لتوه نشرة الاخبار في التلفزيون ، وكانت بيروت تحترق . . والساحر جالس خلف كرته السحرية الشفافة يحدق داخلها بهدوء منوم . . . شعر نسيم برغبة خارقة في تحطيم الكرة الزجاجية ، وجر الساحر من لحيته الى الشاشة الزجاجية للتلفزيون ليرى عبرها وطناً يحترق وبشراً يدمرون ويقهرون . . . واخوته . . . ما مصيرهم ؟ وهذا الساحر ، اليس له اسرة ؟ اخوة ؟ وطن ؟ أهو حقاً ينتمي الى عالم الجان ؟ اخوته الاشباح والأرواح ؟ وهو اداة مسخرة في يد رغيد ، ولخدمة الناس - كما يتوهم ؟ . . . اليس انساناً من لحم ودم ؟ اليس له مسقط رأس ومسقط قلب ، أما من دمة في عينه ، شهقة في حنجرتة ، شهوات في قلبه ، الا تهاجه الكوايس مرأت ؟ هل يحلم ؟

نظر اليه الساحر شذراً كأنه يقرأ أفكاره . فكر نسيم غاضباً ( حسناً . انا اؤمن بالتخاطر ، وبقدرة بعض الناس على قراءة افكار الآخرين عبر حاسة تتجاوز اللغة . . . لعل هذا الرجل يملك تلك المقدرة او لا يملكها . . لكن تلك الحاسة يجب ان تخضع لمساعدة العلم ، لا ان تسيرها الخرافات المتوارثة ) . . .

قال الشيخ وطفان بصوت يشبه ايقاع ريح الخريف : قلبك يا ابني مشحون بالعاصفة . . . انصحك بالصلاة قبل ان تنام . . . وسرت رعدة برد في أوصال نسيم . . . ( انه بالتأكيد قادر على قراءة الافكار . انه



بالتأكيد يملك قوى تبدو خارقة . لكن العلم يفهم بعضها ، ويحاول الاحاطة ببعضها الآخر . . هذه القدرات عمرها عشرات آلاف السنين . . . وعلم الباراسايكولوجي ما زال يجوب في اعوامه الأولى نسبياً . . . وريننا تكشف الاسرار كلها ، سأظل ارتعد من وقت إلى آخر ، حين تمس روعي كهاربه الغامضة التي اعياها احياناً تحترقي وتسبر قاع نفسي وتعري خواطري وربما اسراري . . . ) .

كرر الشيخ وطفان : قلبك يا ابني مشحون بالعاصفة منذ ايام . . . احذر العنف يا نسيم . .

هرب سريعاً من الغرفة ( هل يمكن ان يكون قد قرأ شهيتي الى قتل رغيد ؟ ) . . . ارتجف ، واحس بأنه وحيد ومحاصر وبحاجة الى الحنان . . ولا يدري لماذا تذكر امه .



انعقد لسان كفى حين شاهدت قلعة الذهب . وحتى خليل سقط في وهدة صمت مذهول غاضب ، وبدا بيت نديم لعينيهما فقيراً يستحق جمع التبرعات ! الترتيبات الأمنية قبل الدخول خلقت جواً من الرهبة قطعه سائق التاكسي بتلاوة بعض الشتائم واللعنات . . ثم انبسطت لعينيهما ، الحديقة الشاسعة التي يشتعل عشبها ذهباً في اضاءة خاصة خلابة . . . فالباب الكبير المذهب المثقل بالنحت والتماثيل . . فالخدامان الراكعان امام المدخل ، وفي يد كل منها اسفنجة مبللة بالماء المعطر لمسح احذية الداخلين كي تصبح جديرة بملامسة قدسية معبد الذهب ! ذهل خليل ولم يفهم لماذا يركع الرجلان هكذا في ملابس مضحكة ، الا حينما ارشد نسيم كفى الى رفع قدمها كي يتسنى للراكع مسح اخص الحذاء . حين جاء دور خليل اجفل . الخادم الثاني رفع له قدمه بنفسه ، ولاحظه نسيم مرتبكاً يقول للخدام : « استغفر الله يا اخي . . . سأفعل ذلك بنفسي إذا كان ضرورياً » . . تضايقت كفى من زوجها (الجلف) ، وراقبته باحتقار وهو يخلع حذاءه بنفسه ويفسد الطقوس الراقية بمشاركته في العملية التي بدا على وجهه التقزز العميق منها . فرح نسيم به ، لاحظته ، واحسه قريباً منه ، والتقت نظراتهما في ومضة تفاهم كأنها تعارفا منذ اعوام . . نظرة تشبه المصافحة العميقة الود .

نسيته كفى ثانية وهي تخطو الى حلمها ، كأنها تخطو داخل عالم احد اعلانات السجائر المقرونة بعالم خرافي من الترف والبذخ . . . انتشت ، وتلفتت حولها : اهذا بيت ام متحف اللوفر؟ أهذا قصر ام قلعة وهمية شيدها جني الف ليلة وليلة ؟ أهذه غرف أم مناجم ؟ سقطت في دوامة البذخ الاسطوري ، وصارت تتحسس الطنافس والستائر الحريرية شبه حاملة . . واستيقظت حين قادها نسيم الى حلقة من الجلوس تضم صاحب القصر وبقية المدعوين : نديم ودنيا . انحنى باحترام لابتسامة رغيد الماكرا ، وخضرة عينيه الشبيهة بالدمن في المقابر وصوته يعلن بكل فخر : انا رغيد الزهران . اهلاً بكم في بيتي المتواضع . لا يدري خليل لماذا تذكر اسطورة الرخ ، واحس بانه سقط سهواً في كهفه المرعب ، وصحا من مرحلة الدهشة الرافضة ، وقبل ان يدخل ثانية في مرحلة الغثيان عاجله رغيد بكأس من ماء النار . . ومن يرفض شيئاً من يد رغيد بك ، ساء كان أم علقماً ؟

دخل نسيم ودار على الحاضرين للمرة الثالثة بكؤوس النار ، وكان رغيد حريصاً على تجنب الكحول احياناً ، لا بسبب مرضه بالسكري ، بل لرغبته في ان يشمل الجميع ويظل هو صاحباً . التقت نظرات نسيم بعيني دنيا ( لا تخافي . لن ابوح بسرك لزوجك . اجل ، لمحتك خارجة من غرفة نوم رغيد ، لكن ذلك لا يهمني ولعل زوجك لا يجهله . . . ما يحيرني هو اني لمحتك ايضاً خارجة من بيت امير النيل ؟ ما لعبتك ؟ عالمها مختلف فهل انت حائرة ام جاسوسة ؟ ولماذا تمتدين بينها كجسر مستحيل ؟ . . لا توفيقية بينها . . . فهل تختارين ام تهارين ؟ ) . . . ناول الكأس لكفى ( كم انت جميلة يا سيدتي . سراك قريباً في غرفة نوم رغيد بك بالتأكيد . . . زوجات الموظفين هن «خصم» ، في أعمارهن . . . انهن المسنات الوحيدات اللواتي يشرفن السرير ، ولعل السبب لا يرجع الى شهوة الجسد بل السلطة . . . انه يمتلك الرجال ونساءهم ) . . .

قدم الكأس لنديم ، فخليل الذي بدا كغريق ( ايها اللبناني الشقي ، اية رياح قذفت بك الى هنا . . انا وانت ، ماذا نفعل هنا ووطننا يحترق ؟ . . لا تبدو مستمتعاً لا مبالغياً كنديم . . . هل هي لعنة اللقمة التي قذفت بك الى هنا مثلي ؟ ) . . . بعد الكأس الثالثة ، وصلت المدعوة الأخرى : ليلي السباك . تتقن دوماً اختيار توقيت حضورها .

بدت كفى متوهجة الجمال حين اعلن رغيد اعجابه بحسنا ، وسعادته بلقائها وهي ابنة صديقه القديم المرحوم البيتموني . . . ولم يبد فرحه بلقاء خليل بعدما زودته ليلي (هاتفياً وفورياً) بمعلوماتها عن ولاته لأمير النيل ( نديم يجهل ذلك فيما يبدو . النساء اكثر قدرة على

التجسس ونبس الاسرار ) ابدى اعجابه ايضاً بالخاتم الجديد في يد دنيا ، وهو الذي يلحظ التفاصيل حين يتعلق الأمر بالذهب والماس . . وقالت له دنيا معذرة : لقد سرق الخاتم الذي قدمته لي هدية . . . سرق من وسط بيتي في حفل عشاء . . شهقت كفى في دهشة بدت حقيقية حتى تعجب خليل من قدرتها على التمثيل وقالت : ذلك الخاتم البديع الذي كنت ترتدينه ليلة السهرة سُرق ؟

— اجل .

— من اخذه ؟ الخادما ؟

— لا ادري حقاً . لست واثقة . سأسأل الشيخ وطفان .

— من هو الشيخ وطفان ؟

— الم تسمعي به ؟ انه ساحر حقيقي . . له قوى خارقة حقاً . . كل من تعامل معه يؤمن بذلك . . تدخل خليل : لبعض الناس قوى خارقة اثبت العلم حقيقة وجودها ، وبطلان علاقتها بالشعوذة وبالسحر . انها تتدرج كلها تحت لواء علم جديد هو « الباراسايكولوجي » ، ولدى الناس جميعاً طاقات خارقة اذا ركزوا على تنميتها ، وكتب هذا العلم تملأ اليوم المكتبات ويجدون فيها التفسير لمظاهر كثيرة مدهشة طالما نسبها البشر الى السحر . . كنت في مكتبي احرص على ترويحها وارفض بيع كتب السحر . قاطعه نديم دوغما اعجاب بمحاضراته العلمية : الشيخ وطفان يقيم معظم الوقت في القصر هنا . الباشا يؤمن بطاقاته وسحره ، وسترون انه كفيل بكشف الفاعل . . . ذعرت كفى التي تؤمن بالمنجمين (البرّاجين) منذ طفولتها ، كما اسرتها والجيران والاجداد ، وقال رغيد لدنيا : سينضم الينا بعد العشاء لكنه مشغول الآن باستخراج بعض الكنوز . . والخاتم غير (حزان) ، وسرقته مناسبة لاهديك شيئاً جديداً .

سرت دنيا بذلك ، أما كفى فكادت تطير فرحاً ، وتنكب على يد رغيد لتقبلها . ليلي ظلت صامتة وهادئة ، مثل امرأة منومة مسحورة . . بل مثل امرأة آلية برجعت نفسها ذاتياً . . على التدمير . لم تبد حياة مثل دنيا . . . ولا سعيدة مبهورة مثل كفى . وتساءل خليل : ماذا تفعل هذه المرأة هنا ؟ ما الذي تفعله بحياة امير ؟ تذكر الألم البالغ الذي اخفاه امير بصعوبة في مكتبها ، ولا مبالاتها ، وغمرته نقمة عدوانية تجاهها ، تجلت في تجاهله لها حين خاطبته وسأله عن موعد سفره وصقر . كررت السؤال بالهدوء ذاته ودون ان ترفع صوتها ، فتنبه رغيد لها وصمت الجميع فاضطر للاجابة : ذلك يتوقف عليك وعلى

سرعتك في انجاز التأشيرات . . . قالت ليلي ساخرة : هل انت متلهف للسفر ؟

— لا ادري . .

تدخل نديم قائلاً : وكيف يتلهف للسفر رجل لديه زوجة فاتنة مثل كفى . . قالت كفى وقد نهد صدرها بلا مبالاة شهية : انا راضية . . . إذا كانت ضرورات عمله تفرض ذلك . سأله رغيد بلهجة محايدة وهو يشهر سيجاره الضخم فيسارع نديم الى اطفاء سيجاره : كيف وجدت عملك يا خليل ؟

— لا بأس . . صقر شاب طيب القلب . . . ( لم يتابع فيقول : انه مدلل وتافه ومدمن ) . .

قال نديم : اظن ان سفركما متعذر قبل رحيل الشيخ هلال . . . هل تعرفه . . . أجاب خليل : اجل . . . شاهدته هذا الصباح وكان يتشاجر وشقيقه . . لم اقصد التلصص ، لكننا كنا على الشرفة ولم يلحظانا . . .

سرّ رغيد بالمعلومات السريعة الوصول وشجع خليل : استمر يا صديقي . . . لا تشعر بالخرج لأنك سمعت ما سمعت . . . الشيخان صديقان عزيزان علي ، ويهمني ان افعل ما يعزز صداقتهما . . لا احب شجار الاخوة . . .

— انك محق ، خصوصاً وقد كنت انت موضوع شجارهما . . . احاط رغيد كتف خليل بذراعه في هيمنة مزورة المودة ، بينما نهض خليل تلقائياً ، واعتذر رغيد من ضيوفه قائلاً : تابعوا حواركم البهيج ولا تشغلوا بالكم بهوم العمل . . . اما نديم ، الذي مهمته الأولى تلبية اوامر رغيد فقد شعر بالغبطة لنجاحه السريع في توظيف جاسوسه والحصول على تقرير منذ الزيارات الأولى . . وغمرت قلبه بهجة تحولت الى فيض من اللطف والعواطف صبها مطراً من الحنان فوق رأس كفى وجسدها . . .

— كم انت جميلة الليلة يا سيدة كفى . . اليس كذلك يا دنيا ؟

قالت ليلي التي سبق ولاحظت اهتمام رغيد بها : انها حقاً كذلك . . . ( عيناها جميلتان ، لكن الغباء يقطر منها . غباء ممزوج بدهاء نسائي صغير . انها سردينة متواضعة وشهية سرعان ما يتم التهامها في موائد عالمنا ) . . .

حين جلسوا الى مائدة العشاء ، فرض (البروتوكول) جلوس خليل الى جانب دنيا ، واسعده ذلك . . . ثمة شيء حزين في هذه المرأة يقربها منه ، شيء مكسور ورافض له طعم خيبة الأمل والرماد ، ام انه واهم ؟

كفى ظلت صامته في الدقائق الأولى للعشاء وقد صعقتها حقيقة مدهشة في نظرها : ادوات المائدة كلها من الذهب شبه الخالص ، وخلف كل مدعو يقف خادم لتدليله ( أم لمنعي من سرقة ملعقة ذهبية تذكراً ) . مناخ مرفه تتأجج فيه الشهوات . . وهي تتبادل نظرات الاعجاب ونديم ، وعصافير الشوق تطير من عينيها اليه في وهج الذهب . . وحين قدم اليها لفافة بين طبق وآخر ، احست انها تخطو ثانية داخل اعلان السجائر المترف إياه ، واحتلت مكان فتاة الاعلان ، وتقمصتها وارادت ثيابها ونظرة العشق المتدفقة من عينيها إلى رفيق الصورة - وهو بالتأكيد نديم - والخليكوبتر خلفهما واحدى العواصم الاوروبية تشتعل بالمباهج والاضواء تحت اقدامهما وهما يستعدان لتبادل قبلة في ثياب مفرطة البهاء . . وقررت ان تبدل سجائرها في الغد لتبنى سجائر الاعلان ، ولتكون في كل لحظة فتاته المعشوقة المرفهة ونجمة مجتمعة القمة . . وهب نسيم الليل في الاعلان ، فسوت شعرها !

رغيد انصرف الى طعامه الخاص بحميته من مرضي الضغط والسكري ولكن الاطباق المعدة له بدت شهية اكثر من اطباق بقية المدعوين وقد اولاهها الطباخ عناية فائقة . . وما دام رغيد قد صمت متلذذاً بكل لقمة ، متفرغاً لمتعته ، فقد خيم الصمت على الجميع معظم الوقت باستثناء بعض الحوارات الجانبية التي تجرأ بعضهم على تبادلها . .

ليل اخفت امتعاضها باتقان . . فالمعلومات التي حملتها الى رغيد حول الصلة بين امير وخليل أضحت عديمة الجدوى بعدما نجح خليل في المهمة التي جند لها له نديم كعميل سري ، وحمل قبل دقائق الى رغيد بعض الاسرار التي يتلفه لمعرفة . بدأت تفكر من جديد بعمل تيز فيه نديم . . انها الحرب بينها وبينه ، وبينه وبقية المعاونين . . وهي حرب يذكيها رغيد بنجاح ، ايماناً بمبدأ . . « فرق تسد » . . لا شيء يريجه غير « حرب المعاوين » فيما بينهم ، وهو يذكيها كلما هدأت ، لأنهم اذا لم يكرهوا بعضهم بعضاً ، فسيتفرغون لكراهيته . . ثم ان اذكاء جو التنافس فيما بينهم سيجعلهم يعملون اكثر ، لا مقابل ما يدفعه لهم فحسب ، بل مقابل احقادهم الصغيرة المتبادلة . . بل ان رغيد يذكي بين موظفيه ومعارفه نار الاحقاد الطائفية والحزبية والسياسية بحيث صاروا منقسمين فيما بينهم كأهل لبنان المقيمين فيه ، وربما اكثر . . ورغم انها لاحظت تلك اللعبة ، تجد نفسها اسيرتها كمن ينزلق ببطء داخل مستنقع رمال متحركة ، ولم يعد يملك لسقوطه شيئاً . .

خليل شعر بالاشمزاز امام ذلك الهدر كله (هذا بلذخ لن يغفره التاريخ) والتبذير الوقح . . تذكر الفقر في بلاده ، والحصار التمويني ، والمجاعات في العالم ، وغص

بطعامه ، وحاول ان يكون مهذباً تمشياً مع واقع الاشياء . . سأل دنيا في محاولة لخلق حوار مائدة ضمن الاطار المتعارف عليه .

- الطقس لطيف . . أليس كذلك ؟

- أجل . جنيف رائعة هذا الشهر . انها بصورة عامة ناعمة الدفء صيفاً ، لكنها لا

تطاق شتاء . . البرد فيها متوحش . .

- اولادك ، هل ألفوها . . .

( يا الهي . كيف تورطت في قول شيء تافه كهذا ؟ لقد اخبرتني من قبل انها عاشا هنا حياتهما كلها . لماذا يحدثها كما لو كانت غريبة ، وقلبه يطير شوقاً الى مغادرة هذا القصر معها وشارع الغربية المذهبة فيه الى حيث يستطيعان ان يقولوا شيئاً حقيقياً من القلب . انه بحاجة الى ان يشكو احزانه لمن يفهمها ، لأنني تتدفق حناناً وألماً وغربة . . وهي تبدو له كذلك ، وليست مثل زوجته كفى السعيدة في سراقق الاحزان المرفهة هذا ، ولو لم تكن رقيقة ومتأللة ومتساعمة لما فتحت له قلبها ) ، وهمست كمن يعري مأساته : لم يولد لي احد هنا بالمعنى الحقيقي . لقد حملت بالطفلين في بيروت ، فقد كنا ما نزال نزورها في العامين الاولين من زواجنا . . كأننا حملنا ابني وابنتي معنا من بيروت . . ولدتها هنا ؟ صحيح . . وتلك مصادفة جغرافية ، وقلما زرنا بعد ذلك ارض الوطن . والغريب اننا بعدها لم نرزق بولد هنا . . لقد اصابنا العقم . . راجعنا الاطباء أولاً ثم السحرة ولم يملك أحد لنا شيئاً . .

كان صوتها قد أصبح خافتاً جداً ، وهمس خليل : هذا غريب . . .

- ليس غريباً . . معظم اصحابنا المهاجرين اصابوا بالعقم . .

كاد يبوح لها بسر . بأنه اصاب هو ايضاً بالعجز في الوطن يوم ضربوه وصادروا حريته وقمعوه كعصفور في طائرة مخطوفة . . لكنه قال لها : رزقك الله بولدين . . هذه نعمة . .

كانا يهملسان ، بينما تدور حوارات اخرى ثنائية خافتة بين الآخرين ، فلم يلتفت اليهما أحد . . نديم كان مشغولاً بغزل العيون والهمس مع كفى . . ورغيد كان يستجوب ليلي عن اسم أم خليل ويرجه ليتأكد من عدم وجود خطأ فيما نقله لساحره . . وتابعت دنيا بعدما تلفت حولها واطمأنت لانشغال الجميع : اولادنا غرباء عنا . . ربما لاننا لم نجد يوماً الوقت الكافي لمصادقتهم . . لقد انشغلت بمساعدة نديم منذ السنوات الأولى لزواجنا ، ولم اذكر اولادي الا بعدما تأكدت من نجاح نديم في عمله . ابعدني ذلك عنها حتى تعلقا بمريبتها الزنجية اكثر مني . . واعترف لك بأنني طردتها ذات يوم غيرة منها رغم إخلاصها !

- ماذا تعنين ؟

- كانوا يحبونها كأم .. وتوهمت انها هي التي تدفع بهم الى كراهيتي فطردتها .. بعدها كرهوني اكثر ، وترسخ بعدهم عني . تصور .. ابنتي في السادسة عشرة من عمرها ، قالت لي الليلة انني أغار منها وأحسدها لأنها شابة جميلة وستزوج من رجل تحب .. كل ذلك لأنني عارضت زواجها من رفيق صفها العربي الفقير نسبياً ، فوالده موظف عادي في الأمم المتحدة . وانت تعرف ان الزواج لا يبني على الحب وحده ...

- بالتأكيد .. لكنه أيضاً لا يبني على تحالفات المصالح وحدها ..

- وحين قلت لها انني أمها التي انجبتها ومن سواي تهمة مصلحتها ، اجابت : انت وسيلة انجاب في نظري .. وقد انتهت مهامك نحوي .. منذ زمن طويل .. بل انها عرضت بي وقالت انها تفضل الزواج صغيرة على انشاء علاقات جسدية كرفيقاتها وغيرهن قبل الزواج ! ولامتني لأنني لم أعلمها لغتها الأم . قالت انها معجبة بالحضارة العربية ، وانني حولتها الى مستشركة بدلاً من مواطنة .. كم تعذبني هذه الفتاة . انها في سن مبكرة جداً ، فكيف أدعها تتزوج لبنانياً فقيراً والبلد على كف عفريت ؟

- .....

- وقد آلني حقاً هذا الحوار .. كنا في دربنا اليكم لنحضر الى هنا فاضطرت للسكرتير ومتابعة العناية بهندامي .. صديقها يغذيها بالتمرد . انه طالب جامعي في العشرين من عمره ، يعلمها اللغة العربية والحب معاً على حد تعبيرها .. تقول انها هنا بلا جذور .. انه يسمم أفكارها ، وهي طفلة تعبت بحياتها ..

كاد خليل يقول لها : « اننا جميعاً نعبث بحياتنا » ولكن اقلقته كلماتها .. لم يفكر يوماً قبل الآن كيف ستكون صلته باولاده هنا ، وهو المشغول عنهم بالنضال في الوطن ، والمشغول عنهم الآن بجمع المال لاقساطهم المدرسية في الغربة .. ( حوارنا يقربني منها ، لأنه يقربني من ذاتي وجرحي . هذه المرأة البيضاء السمينة كنز من التجارب والمشاعر ثم انها ليست بدينة بقدر ما توهمت في المرة الاولى ، ولا مترهلة . أراها اليوم اصغر سناً وارتاح لصحبته وحدها من دون بقية زبائن الاحزان المذهبة .. لماذا يشكو الأثرياء أكثر من الفقراء ؟ ) .

بعد العشاء ، أصدر رغيذ اوامره بحمل القهوة الى ( تراس ) البركة الذهبية .. تحت انظار التمثال .

بعدما اعلمته ليلي بالحوار الحميم بين خليل وأمير النيل ، ازداد اهتمامه باستخدامه وإيلا في آن . . كانت ليلي أول من بدأ الحوار : هل قررت موعد ليلة عيد المليار الأول ؟ لم تسمعها كفى . . كانت تحرق في البركة الاخطبوطية الذهبية الكوكب غير مصدقة ما ترى .

ودنيا شاهدت ظلها في البركة المذهبة وتساءلت بغصة : أيها حقيقي ، أنا ، أم ظلي في الماء ؟ . خليل لاحظ التمثال منذ الوهلة الأولى فقد بدا ناشزاً وفي غير موضعه وسط ذلك الحشد من التماثيل الذهبية . .

أجاب رغيد : بالتأكيد . . قريباً جداً . .  
- ما رأيك في تعيين كفى مساعدة لي ؟ ما دام زوجها سيسافر ، قد تجد المهنة مسلية ومربحة . .

(لماذا لا يدعون زوجتي الحمقاء وشأنها ؟ من هي بالضبط ليلي هذه ؟ ما الذي يمكن ان يربط أمير بامرأة مثلها ؟ يجب ان أسأل دنيا ) لو لم تكن ليلي واثقة من سرور رغيد بالفكرة لما اقترحها . . لقد اقترحها نظراته الخفية المعجبة بابتنة الاصل ، بنت البيتموني . . ولعل سر اعجاب رغيد بليلي هو انها تقرأ افكاره وتلي رغباته قبل ان يقولها . . وانه راض عنها ومنجذب إليها لا كساحة حرب ضد أمير فحسب ، بل لأنها مفيدة حقاً . .

شعر نديم بالغضب . . ( سيكون لقاءها اكثر صعوبة . . هذه الخبيثة ليلي سارعت الى تجنيدها قبل ان تتاح لي الفرصة لذلك . . بدأت اخاف من منافستها لي . تتنازع علي بقدرتها على قراءة الأفكار . . فيها شيء من الشيخ وطفان ، شيء غامض يحبه رغيد . . ثم انها مصرة على النجاح . . منذ افترقت عن أمير ، تبدلت بصورة جذرية . . كنا ندعوها للسهرات للترفيه عن كبار السن بطرافتها وفرادتها ، وها هي تكشف يوماً بعد آخر عن مواهب رجالية « بيزنمانية » . . لقد استطاعت وحدها ان تحظى بعقود عمل مع العملاقين في آن معاً : رغيد الزهران والشيخ صخر الغنمالي . . هذا لم يحدث لاحد من قبل . . والشيخ صخر معجب بها ، حائر في أمرها ويتوهمها اجنبية متزوجة سابقاً من عربي تارة ، وعربية متزوجة من أجنبي تارة أخرى ، وهي لا تؤكد ولا تنفي شيئاً . . حسناً . . ساضرب انا ايضاً ضربتي ، واثبت لرغيد انه لا غنى له عني ) . .

اخرج من جيبه احدي الصحف وقال لرغيد : هذه نسخة نادرة . . احدي صحف



بيروت حملها هارب عن طريق قبرص وصل إلى جنيف هذا المساء .. فيها خبر قد يهلك ..

- لا شيء يهمني في بيروت .. غير وصول شحنة الامدادات التي تعرف ..  
تدخلت كفى : كم انت طيب القلب .. تشحن المعونات والمساعدات الطبية لهم؟  
رمقت دنيا كفى بنظرة ذات معنى ، لكن رغيد بدا مسروراً . انه يحب الاطراء  
والتملق ، ويعرف ان كفى ليست ذكية بما يكفي لتكون ساخرة .. الحمقاء تعني ما تقول ،  
وهذا يسره .. ( هذه امرأة يحب معظم الاذكاء والاثرياء حضورها في سهراتهم ، فهي  
توفر عليهم ضرورة التنبه للملاحظات الخبيثة الجارحة .. انها صادقة في اعجابها بذهبهم  
وكنوزهم ، وتخترع لهم فضائل موهومة .. يحب كثيراً ان يبدو بطلاً في انظار الناس ..  
كهذا مثلاً ) .. والتفت الى تمثال عبد الناصر . وسألته كفى المتنبه لكل ومضة في عينيه ،  
قائمة على خدمة مزاجه بكل سعادة : لماذا تحتفظ بهذا التمثال هنا ؟ إنه ليس من الذهب .  
وحده ليس من الذهب ، هل تحبه الى هذا المدى ؟

انتفض نديم ، وتقلصت دنيا داخل جسدها وكلاهما يعرف مدى كراهيته لصاحب  
التمثال وحدقت ليلي في الأرض المذهبة مطرقة ، بما يشبه الخجل وقد طار امام عينها قرش  
مثقوب وظل معلقاً في الفضاء . وأجاب رغيد متنشياً : طبعاً احبه يا كفى .. كنت صغيرة  
جداً في ذلك الزمان او لعلك لم تولدي بعد .. ولكنني احبه لأنه احد الاسباب الاولى  
لسعادتي في الحياة : لنجاحي وراثي .. المليون دولار الاول جمعته بفضلله .. حدث ذلك  
في الايام الأخيرة للوحدة بين سوريا ومصر .. كان يدعي انه ينوي توحيد العالم العربي وبدأ  
بسوريا .. قال ابي طارت الثروات والاملاك المتبقية هناك واطل شبح التأميم .. طمأنته .  
كان قد اشترى هذا التمثال من فنان عربي فقير اسمه مفيد النيلي .. هل سمعت به ؟  
- لا .. سمعت بشخص آخر من آل النيلي .. أمير النيلي .. ولا أحبه .

- هذا جيد .. وهل سمعت بجمال عبد الناصر والوحدة ؟  
- تقريباً .. ولا اميل اليه . يقال انه كان ديكتاتورياً وخرب التجارة والارزاق .. هل  
ارغم مفيد النيلي على نحت تمثاله ؟

- لا لم يرغمه . نحته المسكين عام ١٩٥٦ بكل ما في قلبه من عشق مخلص لعبد الناصر في  
ذلك الزمان حين خدع الناس كلهم تقريباً باستثناء امثالنا . اشتراه والذي منه خشية لا  
حباً ، فصار ملكاً لنا وحملته الى دمشق واستأجرت منزلاً صغيراً في حي « السبع بحرات »

قرب شارع بغداد . . وجئت بـ « فنان » من نمط آخر . . وطلبت منه ان يصنع له قالياً ويصب عنه تماثيل كثيرة من الجبس . . لم نهتم بأن تكون مادتها من النوع الذي يدوم طويلاً لأنني لم اتوقع ان تطول الوحدة والحاجة الى هذه التماثيل هناك ، ثم وظفت قمع اجهزة عبد الناصر للناس وحرمانها لهم من مجرد الشكوى ، وصرت أبيعها لهم ! كان موظف المبيعات يذهب الى مكاتب كبار التجار والأثرياء واصحاب رؤوس الاموال ويقترح عليهم شراءها بثمان باهظ جداً بالنسبة لتكاليف صنعها . . ألف دولار للتمثال . . حسناً . . لم يكن يشهر مسدساً على رؤوسهم ، لكنه كان يفهمهم بصورة غير مباشرة ان ثمة رغبة رسمية في حضور هذه التماثيل داخل مكاتبهم . . وبادرة « حسن نية » ستؤخذ بعين الاعتبار من قبل الاجهزة . . وقبل ان تدري بنا الاجهزة ، بعنا ألفاً وخمسمائة تمثالٍ ثمنها مليون دولار ونصف المليون ، اي اكثر من مليون دولار ربحاً صافياً لي . . . تضايق التجار طبعاً لكن احداً منهم لم يجرؤ على التذمر ، بل انهم تبنا الامر فيما بعد ، بل وتظاهروا بأنهم بحثوا عن التمثال طوعاً ، بل وحباً بصاحبه . . وقد زاد الأمر في مخاوفهم وربما احقادهم ، ولكن ما ذنبي اذا كانوا قد أذعنوا ؟ ثم ان التجارة شطارة . .

وضحكت كفى ملء قلبها : فعلاً . . والذي كان يقول ذلك ايضاً . . ما احلى حكاياك . . لم يجرؤ نديم على التأثوب رغم انه كان قد سمع القصة للمرة الالف . . واسترسل رغيد قائلاً : آه . . رحمه الله صديقنا البيتموني . .

سأل خليل وقد بدا متوتراً ومستفزاً : هل النحات مفيد النيل هو والد امير النيل ؟ - أجل ، هل تعرفه ؟

لا يدري لماذا لم يسارع الى الانكار : نعم قليلاً .  
ومضى في رأسه خاطر : هل نقلت ليلي الى رغيد خبر اللقاء في مكتبها ، وما قاله له ؟ نظر اليها ، ووجد عينها بابين موصدين .

نهض ومشى صوب التمثال . لاحظ وجود قرش مثقوب صدء الى جانبه خلف القضبان الذهبية ، كتب على وجهه الاول فلسطين ١٩٤٦ بالعربية والعبرية والانكليزية ، مديده وتناوله دوغما استئذان وقلبه ، فقرأ على وجهه الثاني ١٠ ملات . قال : هذا قرش لا يقدر بثمان . ما حكايته هو الآخر يا استاذ رغيد ؟

أجفلت ليلي حين فتح الباشا فمه ليتكلم ، لكنه قال : حكايته في السهرة القادمة . . لكل سهرة اقصوصة لطيفة . . والمسلسل لا ينتهي . .

شردت ليلي ( لماذا يهول أمير الامور ، ويحول القرش العتيق العادي الى قضية ، ويأتيني الى مكتبي وفي عينيه أحزان عظيم يوم ابلغ بمندبل ديدمونة ؟ حتام تطول لعبة الصمت والحدق بيتنا ؟ كيف اقول له انني صرت امرأة اخرى ؟ ألم يفهم ؟ ) ..  
عاد نديم محاولاً التقاط طرف خيط الحوار الذي اضاعه لحظة شهر جريدته كسيف في « حرب المعاوين » يوجه به ضربة الى رضى رغيد المتنامي عن اسلوب ليلي في العمل : انظر يا باشا الى هذه الصورة في الجريدة البيروتية التي حدثتك عنها .. قالت كفى متملقة :  
باشا ؟ .. كم يليق بك هذا اللقب .  
اطرق خليل وجهه خجلاً من سلوك كفى .

اخرج رغيد من جيبه نظارة ذهبية الاطارات وضعها على عينيه ، حدق في الصحيفة وقرأ قليلاً ثم رفع نظراته الى نديم ، وسرت كهارب تفاهم صامت ربما هي وليدة ( طول العشرة ) ورغبة نديم في إرضاء سيده بأي ثمن ..  
وأعلن رغيد : بحرية الزهران ..

نطق بالاسم ، وصمت قليلاً كأغما ليدرس وقعه الموسيقي وجرسه .. لم يقل أحد شيئاً وإنما بدا الفضول في العيون المتطلعة الى ما جاء في الصحيفة عن سيدة او طفلة تدعى بحرية الزهران يبدو أن أمرها يهيم وتحمّل اسمه وقد تكون قريته ..

تابع رغيد : بحرية الزهران . فتاة فقيرة مهجرة ، اصيب المبنى الذي تقطنه واسرتها ومئات المهجرين - على ذمة الجريدة - وطار بقبيلة تفرغية .. تحطم المبنى بأكمله على رؤوس الناس كما لوداسته قدم جني .. البنت نجت ، كانت فيما يبدو خارج المبنى ، قادمة للاحتفاء به او راجعة الى بيتها ويبدو انها حين تهدم البناء رأته ، ووجدوها تركض كالمجنونة حول الانقاض .. المسكينة .. يقال انها انهارت وفقدت النطق وفقدت كل اسرتها في الدنيا ..  
هذا كل ما ترويه الصحيفة .. هل تظن انها قريتي ؟

- ربما .. بل بالتأكيد .. انظر الى صورتها البديعة .  
- اذن يجب ان أساعدها .. سأحضرها الى سويسرا للمعالجة من الانهيار العصبي والخرس . وهتفت كفى معجبة : يا لك من انسان نبيل كبير القلب .. بارك الله في امثالك ..

سر رغيد بها .. هذا هو بالضبط الانطباع الذي يريد ان يتركه عند الاكثرية المتوسطة الذكاء مثلها .. اذن فكرة تلميع صورته اعلامياً ليست رديئة .. وقد تساهم في توفير

المناخات الملائمة لآعماله وتعهدهاته .. ولكن ، هل تنطلي الكذبة على هلال ؟ سيحاول ولن  
يخسر شيئاً .. سيحاول ..

تأملت كفى صورة الفتاة وقالت : انها خارقة الجمال .. أعني ، بعد القصف والجوع  
وبدون ماكياج وتصفيقة شعر .. وتبدو حلوة إلى هذا المدى ؟

قال نديم : سأتولى امرها .. سأبعث برسول من مكتبنا في قبرص او اثينا لجلبها ..  
تدخلت ليلى : سأعد الاوراق الخاصة بتأشيرة الدخول الى سويسرا .. السفارة مغلقة  
الآن في بيروت كما تعلمون .. ربما أضطر لاجراء معاملة تبني يمكن إلغاؤها فيما بعد طبعاً ..  
ضايق نديم ان تحتطف منه الكرة ، فقال : انجزت ذلك كله هذا الصباح .. جواز  
سفرها في انتظارها في قبرص وعليه ختم خروج من لبنان ، وتأشيرة دخول الى سويسرا بصفة  
سائحة .. انها في الثامنة عشرة من عمرها وليست قاصراً ..

ردد رغيد : قريبي المسكينة اليتيمة بحرية الزهران ..  
وبدا كأنه صدق كذبه ، اذ ارتجف صوته ..  
وترقرقت الدموع في عيني كفى وقالت : يا لك من محسن كريم ..  
أسعده كلامها ..

شعر بأنه ثمل بمجده وروعه . فأكد انه سيقم لها حفل استقبال كبير بوصولها ، ولن  
يتخلى عنها حتى تشفى ( هو الرائع العظيم ) ! واشتعلت في قلبه أحقادها على موجات التبديل  
في العالم العربي التي كادت تطيح بثرائه ، وغمرته موجة من الشفقة على الذات الممتزجة  
شماتة نحو الآخرين وقال : الذين يتباكون اليوم على لبنان ويدعون حبه هم سبب  
مصائبه ..

قال خليل بأسى وقد ومض في عينيه برق المحارث وفاحت رائحة الزعتر البري  
والتبع : لقد احتلت اسرائيل جنوب لبنان .. سقطت صيدا .. و ..  
قاطعه رغيد : لقد قاسى الجنوبيون زمناً طويلاً من الانفلاش الفلسطيني ، وعانوا في  
صيда من التجاوزات والممارسات البشعة .. لقد استعبدوا الجنوب باسم تحرير  
فلسطين .. سيتخلص الناس منهم الآن ..

تابع خليل متجاهلاً : واسرائيل تقصف بيروت بجنون تمهيداً لاحتلالها كما يبدو ..  
- بيروت رهينة الفلسطينيين المسلحين واعوانهم .. واهل بيروت لا يتوقون الى شيء  
توقهم الى التحرر من المافيا الفلسطينية المدججة بالسلاح .. انكما محظوظان لهربكما على

الطائرة الأخيرة كما فهمت من نديم ..

اشتعل دم الغضب في عروق خليل ، وقرر مناقشة رغيد بأي ثمن : ولكن هذا المنطق غير صحيح .. والصورة التي ترسمها خاطئة والتعميم لا يجوز هكذا ..

تدخلت كفى : بيروت جحيم .. ما زلت اشعر بالدهشة كلما ضغطت زر الكهرباء هنا ، فأضاء نوراً .. أو أدت صنوبر الماء فتدفق الماء حقاً لا النمل .. ما زلت ادهش حين ارى الناس يمشون في الشوارع هنا ليلاً .. لقد نسينا طعم الحياة والسلام .

حتى في الملجأ لم يكونوا ليدعونا في سلام . مرة والقصف يهز الدنيا دخل الى الملجأ مسلحان وسرقا من الجميع كل ما يملكون . نهبنا والقصف جردنا من كل مقاومة اوردة فعل .. كان مشهداً مضحكاً .. لم يضحك احد .

تجاهلها رغيد وتابع بلؤم شامت : المسلحون واعوانهم ينصبون السلاح الثقيل فوق سطوح البيوت والجوامع والكنائس والمستشفيات والمدارس التي تعج بالمهجريين المساكين ، وبالقرب من دور الايتام والعجزة .. سلوكهم يعبر عن لامبالاة حقيقية بحب الناس الذين احاطوهم بالعطاء .. واستخفاف بأرواحهم وممتلكاتهم وبالثمن الذي تدفعه المدينة واهلها .. سيخلفون بيروت أرضاً محروقة .. سيفعلون ذلك بكل مدينة تحتضنهم .. ستكشف الايام لكم ذلك .

احتقن وجه خليل ، وفتح فمه ليجيب ، ولكنه فوجيء بنظرات نديم ولبلى ودنيا المحذرة .. ونظرة نسيم الذي كان يدور بالقهوة على الضيوف ، وقد تصادف دخوله وعبارة خليل الاحتجاجية الاولى . نظرة نسيم المتواطئة اطمأن الى تحذيرها فصمت .

(أقذف برغيد الى بركة الذهب .. . اقفز فوقه لاستمتع بخنقه ببطء ، واضغط بيدي على رأسه لابقه تحت الماء واصرخ به : ماذا عن الثروات التي تنفقونها لانعاش تناقضاتنا ، واحياء الطائفية والعشائرية وبث روح التفرقة وافتعال قتال ؟ .. يطفو رأس رغيد فوق الماء صارخاً : أرأيت ؟ كلكم اراهابي عاجز عن الحوار .. لماذا لا ترد على كلماتي بمثلها ؟ ها انت تخنقني بعد محاكمة فردية قررت بعدها اني خائن وها انت تنفذ بيدك حكم الاعداء .. كل انسان لديكم خائن او بطل .. شهيد او قتيل وغد .. كلكم ينادي بالديمقراطية شرط ان يضع المسدس في رأس خصمه لحظة الحوار ..

- ماذا عن الخطيئة الاصلية في فلسطين ؟ طرد شعب آمن من وطنه وتشريد مليون انسان ، ثم التخلي عنهم .. ثم ترشيح بلادنا العربية قطراً بعد آخر ليكون فلسطين اخرى

تبتلعها اسرائيل ؟ .. ماذا تريد ان نفعل ؟ نتاجر بمقدساتنا لنجمع المليون الأول ، لنهاجر ونضرب في الارض حاملين الوطن داخل حقبة ، لينبت اطفالنا كالطحالب غرباء بلا جذور ؟ .. ماذا سوى ان نقاوم ؟ .. اخطاء ؟ من الطبيعي ان تكون ثمة اخطاء ما دما نعمل وكلنا متخلف ، لكننا لن نتقبل السماتة من قلب حاقد .. ستتقبل النقد من موقع الوطنية لا الخيانة .. نتقبله من امير النيلي لا من رغيد الزهران ..

- لقد حول الفلسطينيون بيروت الى مدينة بائسة وعشقوا حكمهم لها .. وعلموكم احتقار الديمقراطية وحرية الكلمة ، وعودوكم على بيع اقلامكم واصواتكم ..  
- انهم لم يختاروا بيروت .. وجدوا انفسهم فيها .. ثم ان لغة التعميم مرفوضة ..  
ثم انهم لم يجعلوها بائسة .. كانت كذلك .. هل تعرف شيئاً عن مئات آلاف الفقراء فيها ، وحزام البؤس الذي كان يزور تخمتها .. ولم نبعهم اقلامنا ... معظمنا لم يفعل ..  
كنا نعني حقاً ما نقول .. وما زلنا ..

- ها انت تحاول قتلي لمجرد انني ابدت رأياً مغايراً لرأيك ... أليس ذلك ضد ما ينادي به نبيكم أمير النيلي ؟

- حسناً لعل اخطأت في محاولة قتلك ، ولعل اخطأت في عدم انجازه .. سأفكر بالأمر ..

- اليس هذا ما تمارسونه فيما بينكم انتم الاصدقاء ؟ لست غاضباً منكم .. اعرف ان هذه طريقتكم الوحيدة للحوار ..

- لا تطلب منا حواراً بالشوكة والسكين ، وانتم تحترفون ابادتنا ..  
بين جملة واخرى اغطس رأس رغيد تحت الماء غاضباً مقهوراً ، واصرخ : الآن اخترت توقيت السماتة بي وانا مشرد وضعيف ومقهور ووطني يجتاحه العدو .. سأقتلك .. فيك شيء يثير الشهية الى العنف والتدمير .. سأقتلك في بركتك الذهبية ، في موضع رأس الاخطبوط منها ، على مرأى من ذهبك ، وتمائلك ، والتمثال السجين المحاط بالقضبان الذهبية ) ..

لم يقل خليل شيئاً وكان ما يزال جالساً في مكانه يرقب نفسه في البركة وهو يخنق رغيد ... أما كفى فكانت فيما يبدو تسرد حكاية مصرع ابتهاج وداد في معرض الاعتذار عن الجملة الاعتراضية التي قالها زوجها مخالفاً فيها بعض الشيء آراء الباشا المصيبة دائماً ..  
تكهرب جو المكان ، كأن رغيد وعى بعض ما يدور في رأس خليل .. لم يكن مبتلاً ، ولم

يسقط في البركة ولم يشارف على الاختناق ، ولم يصرخ خليل في وجهه ، فقط تسارعت انفاسه . . كان ذلك كافياً ليلتقط رغيد موجته ، وتسري في عروقه متعة الشماتة . ( هذا نائر آخر مكسور القلب والجناح ، فأدر سكينك في جرحه يا رغيد وأهنه واستمتع بلذة الكراهية . . انها أطيب مذاقاً من لذة التمجيد والاعجاب التي تأكلها من الصحن الأزرق في عيني كفى . . . لذة الكراهية حريفة الطعم والمذاق ، تشبه طعم المقوي الجنسي الذي يزودك به الشيخ وطفان ولها المفعول ذاته . . انها تنشط همتك وتصلق مواهبك العملية ) .

تبدو غبطة مفاجئة على وجه رغيد . . ليلي تهوّل خلف كرة الانسراح التي غادرت الملعب ، تلتقطها وتعود بها بسرعة وتقذفها بين يدي رغيد قائلة : إذن ستنضم كفى الى فريق الاعداد للحفلة العظيمة ، ليلة المليار الاول يا باشا . .

تذكر رغيد ملياره ، فانتشى وقال : ستسعدني مشاركة كفى . ومن يدري . قد تصلح بحرية للمساعدة . . واذا وجدت السيدة دنيا فسحة من الوقت للمشاركة . . سيسعدني ذلك . .

أجابت دنيا بجفاء : بالتأكيد سأفعل . .

اضافت ليلي : ليلة المليار ستكون ليلة العمر يا باشا سيتحدث فيها الناس عن مآثرك . .

قال نديم : سنشيد جامعاً وكنيسة في تلك المناسبة يا باشا . .

- سيأتي الاثرياء من أطراف الارض قاطبة . . . شرط ان يمتلكوا ملياراً فما فوق . . وقد ندعو بعض الفقراء من اصحاب مئات الملايين مثلاً . .

يردد الكورس : بالتأكيد يا باشا . .

- سأدعو فقراء آخرين من أهل الفكر والقلم الهاريين من بلاد لا تعرف قيمتهم . . سندعو أمير النيلي مثلاً . . و . .

( ارتجف خليل غاضباً بصمت صارخاً بلا صوت : ستدعوه لتشتت بفقره . . انك تثير الشهية الى العنف حقاً ) .

تساءل رغيد : لن يتسع القصر للضيوف . . ماذا سنفعل يا ليلي . . ؟

- حجزت منذ الآن الفندق الضخم المجاور باكملة لمدة خمسة ايام لضيوفنا يا باشا .

- انك موهوبة يا عزيزتي . . ساترك لك التفاصيل كلها . .

- الطعام سيأتي على متن طائرات خاصة مبردة . . . الفاكهة ستحضر من اقطار الارض كافة .

تدخلت كفى متحمسة بطفولة كأنها تعد حفلة عيد ميلاد احد اولادها : سنزين البيت بالورق الملون والازهار والبالونات يا باشا .

قالت ليلي : رغيد بك مصاب بالحساسية من الازهار . . انه مرهف ، وغبارها يسبب له السعال . . ولذا اوصيت معامل « فان ستيف وآربلز » على ألف زهرة مذهبة لتزين المكان . .

- هذه فكرة مدهشة . . تعرفين كم احب اللون الذهبي . .  
ودخل الساحر فجأة ، وانتهت حفلة المزايدة على ربح رضى ( الباشا ) ، وصمت الجميع . .

كفى ذعرت قليلاً حين صافحته ، وحقق في وجهها بعينه العجيبتين ، عينه اليمنى بنية واليسرى خضراء . . لم تر من قبل انساناً كهذا ، لكل عين لون مختلف . . وجسده الشبحي الشاهق القامة ، المخفي تحت عباءة طويلة كأنما تركض داخلها الرياح والشهقات والاشباح . .

- بركاتك سيدي الشيخ وطفان . .  
صافحه خليل ، وحقق في وجهه . لا يدري لماذا وجده لا يشبه الصورة التقليدية للساحر . . بدا له مدعوراً وخائفاً !! . . تبادلا نظرات طويلة ، وصار خليل واثقاً ان الرعب وحده يطل من عينيه ، وظل يتأمله محاولاً عبثاً اختراق قناع اللحية ومعرفة هذا الرجل الغامض مثل جدار صلد بلا نوافذ ولا ابواب . . .  
لقد شاهده من قبل لكنه لا يذكر متى واين . . انه واثق من ذلك . . وكلما حاولت ذاكرته الامسك بصورة من الماضي انزلقت كسمكة زئبقية .

وقفت دنيا في حضرته ، وحتى رغيد . . دنيا كانت واثقة من انه لن يبوح بسرها الى زوجها : انها جاءت له لربطه عن كل انثى سواها . . فهو لا يبوح بالاسرار . كان واضحاً : كلهم يخافه . . كلهم دون استثناء . . خليل كان وحده ممتلئاً بالدهشة ، كمن التقى بشخص لا يعرفه ، ولكنه سبق ان شاهده في احلامه مرات عديدة . . في قلبه شهية لمعرفة المزيد عنه بعدما سمعهم في السهرات يتحدثون عن مآثره . . تراه يعرفه حقاً ؟ اين شاهده ؟ انه واثق من انه شاهده ، ربما في زي آخر ، ولكن اين اين اين ؟



جلسوا قليلاً فيما يشبه الخشوع ، واعتذر الساحر عن عدم البقاء طويلاً ، فهو الليلة متعب . جاء لتحية الضيوف القادمين من لبنان ، وسينسحب .

( كيف لم يلحظ رغيد ان ضيفه خليل هو صاحب الصورة التي طلب مني تدمير صاحبها وفشلت ؟ . ثمة سحر غامض قوي يحمي هذا العادي الذي يشبه الجميع )

بكل تهذيب حياهم ومضى مخلفاً على كرسيه حضوراً بارداً مرعباً . . واجوبة غامضة على اسئلة كفى الطفولية : ما حقيقة السحريا سيدي ؟

- السحر حقيقة ما دمت تؤمنين بها . . وانا ساحر قادر لانكم تؤمنون بسحري . . سري ؟ انتم سري .

قالت دنيا : يجب ان يرتاح الباشا . . لقد اطلنا السهرة فمعذرة . .

ودعهم رغيد بحفاوة خاصة لكفى ، وهمس في اذن نديم : الشخص الذي سيتولى احضار بحرية من بيروت ، لماذا لا يتولى ايضاً تنظيم سلسلة جديدة من حوادث السيارات المتفجرة ؟ . . لقد اثبتت فعالية خاصة . . ما تكاد سيارة تنفجر وتقتل مئات الضحايا حتى تزايد طلبات الفئات كلها على السلاح ، وكل فئة تظن ان الاخرى فخختها . .

- حاضر . أمرك يا سيدي . .

حين غادروا المكان ، لاحظ خليل اجراءات الخروج المشددة الامنية كما في الدخول إلى قلعة الذهب . لكنه بعد حوارهِ ورغيد - من جانب واحد - لم يدهش لذلك . . انه هو ايضاً يشتهي قتله بيديه من النظرة الاولى لكنه لا يريد سرقة شيء .

في طريق العودة ، اشتعلت عواطف كفى مجدداً في السيارة الجديدة الفارغة التي تناسب دنيا صامتة من الفخامة والهدوء الفاخر . . تذكرت سيارة زوجها المتهترئة الكثيرة الضجيج .

غصت وهي تتأمل نديم يقود سيارته بيد ، ويتحدث على التلفون بالاعرى . .

حياة اخرى هي الوجهة . . حياة تحبها بقدر ما تمقت عالم سيارة خليل . . ما اروع نديم وعالمه . يا للحيوية والسطوة . . إنها تحبه . . تحبه . . سعيدة بحضوره وبحضور الهاتف في السيارة ! . . . قال لها مباهياً : التلفزيون أمامك . . تستطيعين الاستمتاع به اذا اردت . . والبار الى جانبه . فكرت بغصة ( دنيا امرأة محظوظة بزواج مثله . لكنها لا تعي ذلك كما هو واضح . ليتني مكانها )

ضغطت الزر التلفزيوني ، وعلى الشاشة الزجاجية بدت بيروت تحترق . . لم ترفع الصوت . .

وحولت نظرها عن الصورة الى النافذة الزجاجية للسيارة ، وكانت تعادل في حجمها شاشة التلفزيون ، وصارت تتأمل مباحج سويسرا وهي تركض في الدروب الآمنة المضاءة .. وتتخيل حصتها من تلك السعادة الآتية كلها ..  
وتسمرت نظرات خليل على الشاشة ، وطفرت دموع الذل من حنجرتة الى عينيه ..  
مسحها في الظلمة بصمت هادئ مطبق .. سألتة كفى : كم الساعة ؟ قال : الثانية عشرة والنصف .

- متى تصصح ساعتك ؟  
أطبق شفتيه بأحكام وقال بلا صوت : لن اصححها انها بالتأكيد صحيحة .  
اهملته وقالت مخاطبة نديم : يا له من ساحر مرعب .. أليس كذلك ..  
دمدم نديم : انه بالتأكيد ساحر مرعب .. مخيف ..

\*\*\*

( آه كم انا خائف .. مذعور .. الرعب يلتهمني .. تحدث لي اشياء لم اعد افهمها .. لم اعد أحكم حواسي ولا دماغي .. ثمة لحظات تفلت فيها الخيوط مني كما حدث لحظة شاهدت خليل ) ..  
حرق الساحر وطفان من النافذة . سيارة الضيوف تغادر المكان . هدأت روحه قليلاً ( اشعر بأن اعدائي يطاردوني الى هنا .. يرتدون اجساد وجوه مألوفة .. يتقمصون اشخاصاً يمكن ان أحبهم ، خصيصاً للايقاع بي .. آه ماذا يحدث لي ؟ .. لقد جمعت ثروة والآن لم اعد اذكر لماذا ، وما حاجتي الى النقود وانا منفي هكذا في ارض الجان .. كنت سعيداً .. في البداية على الاقل يوم كنت دجالاً .. لقد فوجئت بوجودهم ، وبانني عبثت بقبور يقطنها حضور ما .. ثم صادفتهم ، وعاشرت نساء الجان .. فماذا حدث لي فجأة .. هل عنبرة جنية من قبيلة مضادة ، تقمصت جسد الحبيبة القديمة وجاءت تعبت بي ؟ ولماذا عاودتني الكوايس منذ دست في يدي بالحجر الشرير الاخضر المسحور على هيئة زمردة ؟ ..

وان لم تكن عنبرة من الجان ، فكيف اختفت هكذا فجأة ؟ ..  
لقد جمعت كل ما تبقى لي من شجاعة ، وهتفت اليها في بيتها وقيل لي انها سافرت .. هتفت ثانية فلم يجب احد .. ذهبت اليها فوجدت القصر موصداً والغبار مكوماً على

النوافذ ومقابض المداخل، والعنكبوت الجهنمي يتكاثر ويتناسل امام عيني حتى لم يبق من الدار خلال دقائق غير مستعمرة عناكب عملاقة تزحف فيها الافاعي والديدان والعقارب ، وهرولت هارباً والتماثيل تركض خلفي وتزأر . . . واليوم يتقمص عدوي المارد جسد وجه مألوف عادي مسكين هو خليل . . . كأن الجني الذي ينوي تدميري يتقمص ذاكرتي . . . آه كم انا مدعور . . . خائف ) .



سمعت دنيا صوتاً يناديها . . . كانت بين النوم واليقظة . ارهفت السمع . ( اني واهمة ) . . . ما كادت تغطس في بركة النوم من جديد حتى عاد الصوت النسائي المألوف يناديها . . .

نهضت من فراشها . . . الزوج نائم في غرفته المجاورة . . . منذ زمن بعيد وكل منهما ينام في غرفة مستقلة . . . نظرت الى ساعتها : انها الرابعة والثلاث فجراً . . . عاد الصوت يناديها هامساً كما لو كان طالعا من بئر عميقة . . . مشيت كالمنومة فوق الموجات الصوتية ، ثم لحقت بالصدى ، ووجدت نفسها واقفة امام لوحها . . . اللوحة التي رسمتها بنفسها لصبيبة كانتها ذات يوم . . . قالت لها صبية اللوحة : دنيا . . . اصبح نومك ثقيلاً ، وكنت تصحين لسقوط ريشة عصفور قرب فراشك . . .

..... -

- يبدو انك اكثر من الشراب كعادتك . . لا اذكر انك كنت تذوقين الخمرة . . .

..... -

- جسدك مترهل . . . لماذا لا تعملين كما كنت من زمان ؟ . . .

..... -

- ماذا تصنعين بنفسك وبى ؟

..... -

- حدثت دنيا مذهولة . . .

هل يمكن للوحته ان تخاطبها حقاً ، ام تراها حاملة ؟ هل بدأت تدخل في مرحلة الوسائس والكوايس ؟ . . . اهذه نهاية ادمان الخمرة ؟ . . .

شعرت بوجع يشبه الخدر في ركبتيها . . . لم تعودا تقويان على حملها . . . انهارت فوق المقعد المواجه للوحة . . . احست بأنها تختنق . . . مدت يدها ، وخلعت عن عنقها سلسالها الذهبي التحيل والماسة الصغيرة التي تتوسطه . . . وضعتة الى جانبها فوق الطاولة . . .

اللوحة تناديا : دنيا . . . هل عدت الى النوم ؟

- لا . . . ولكنني ايضاً لا اصدق ما يدور . . .

- تظنين انك نائمة او مجنونة ؟

- بالتأكيد . . .

- لست نائمة . . . انت للمرة الاولى منذ اعوام صاحية حقاً . . . ولست مجنونة في هذه

اللحظة ، لكنك كنت كذلك طوال الاعوام الماضية منذ فراقنا . . .

- هذه مزحة سمجة . . . من يحاول ايهامي بأن اللوحة تكلمني ؟

تلفتت حولها . . . لعلها ابنتها التي تعلن كرهها لها قد دبرت لها تلك اللعبة العابثة . . .

نهضت الى غرف الاولاد ، فالزوج . . . الكل غارق في نومه ، واللوحة تناديا من

جديد . . . تأملتها ، فشاهدت شفيتها تتحركان حقاً ، وملامح وجهها كذلك واهدائها

ترتعش . . . ويدها تشير مهددة خارج اطار اللوحة .

عادت اليها : حسناً . . . ماذا تريدين . . . لنفترض انك انت التي تنطقين حقاً ، لماذا

تضايقيني ؟

- اضايقك ؟ . . . لقد دمرت حياتي ، وتعتين لانني اضايقك ؟

- كيف ؟ انا دمرت حياتك ؟

- اجل ! . . . كنت صبية حرة ، حية ، ممثلة آمالاً . . . كانت الموهبة هي التي تندفق في

عروقي لا الخمرة . . . انظري ماذا فعلت بي ، واية عبودية أرزح في اغلالها . . . انظري

ماذا فعلت بالصبية التي كنتها ذات يوم . . .

- ماذا فعلت ؟ كنا فقراء ، وصرنا اغنياء . . .

- لم نكن فقراء حقاً . . . كان في مقدوري ان اعمل واعيل نفسي . . . وكنت سأعمل

شيئاً احبه واحترمه . . . هذه هي الحياة . . .

- ولكنني اعمل . . . .
- كنت اتمنى ان تكون مهنتي معرفة الحقيقة وخدمة الحق ، فوظفتني لطمس الحقائق .
- وازهاق الصدق . . . ورفع راية الباطل عالياً في كل حق . . .
- لم يحدث ذلك بالضبط . . لقد تزوجت . . .
- اتسمين هذا زواجاً ؟ انت موظفة في مؤسسة مالية تسمينها زواجاً . . . انت موظفة
- استقبالات . . . سكرتيرة علاقات عامة . . .
- غير صحيح . . . انا ام اولاده . . . انا اسرة . .
- كنت اداة انجاب كما قالت لك ابنتك هذا الصباح . . لقد كنت الممر وانتهى
- الامر . . .
- انها فتاة فاسدة . . لم احرمها يوماً من شيء . . .
- حرمتها صحبتك في الطفولة ، وصداقتك في المراهقة . فكرهتك . . وابنتك لا يجبك
- ولا يكرهك ، انه مقيم داخل علبه تلفيزيونه . . . مقيم داخل عالمه الوهمي : العباب
- الانتلفزيون . . . والاتاري . . . يغادرها احياناً الى اقربائه الآخرين داخل الفليبرز ،
- يركض كالكرة المجنونة بين النقاط الملونة . . . دماه الآلية اقرب اليه منك . . هل لاحظت
- مجموعة الناس الآلين ( الروبوتس ) التي يفخر بها ؟ هذه اسرته الحقيقية . . .
- ولكنني مشغولة منهكة . . . لا اجد لحظة فراغ واحدة . . .
- انت منهكة لانك تمارسين ما تكرهين . . هل تحبين حقاً اولئك الناس الذين يحيطون
- بك ؟
- لا . . . لا حوار حقيقياً بيننا . .
- لكنك تكرسين وقتك لارضائهم . . ترتدين الثياب التي تعجبهم . . . تشتترين الحلبي
- التي سيحسدون . . . تقضين نصف يومك عند الحلاق ، وتبدلين شعرك الاسود الى لون
- آخر لأن الشعر الاسود ليس موضحة الموسم . . . تحتنقين برائحة تلك المواد الكيميائية التي
- تحيل سواده الى بياض ليتم صبغه باللون الذي يرضي زمرك . . .
- انني مضطره لمسايرة الوسط الذي اعيش فيه . .
- الخطأ هو في اختيارك له . .
- لم اختره . . . هذا عالم الاغنياء . . .
- الخطأ هو في عدم اختيارك لعالمك الحق . .

- لقد وقفت الى جانب زوجي ... وهذا عالمه ..  
- لقد شجعتة .. فخسرتة .. في هذا العالم لا صداقة ولا محبة .. خواء ... خواء  
... نحيف ...  
.....  
- وبدلاً من الهرب الى العمل ، الى حقيقتك الاولى تابعت الهرب الى امام .. الى  
... الخمرة ...  
.....  
- تشعرين بالوحدة والغربة ... محرومة من الود الحقيقي مع زوجك او اولادك ...  
او صحبكم ... واذا وجدت صديقاً يريحك حضوره مثل خليل ، لا تجدين له وقتاً في  
زحامك الزوجي ...  
.....  
- طلقيه ...  
- فات الاوان ... لقد الفت حياة الكسل المزدحمة بالهرولة ... حسناً .. لأقل انني  
الفت كوني ثرية ..  
- طلقيه .. الم تسمعي بانسان يبدأ حياته من جديد ؟ انت محسودة لكنك فاشلة ...  
تكرهين حياتك هذه ، فغادريها .  
- لا اقدر .. ليس في مقدور أي انسان ان يقرر انه اخطأ دربه منذ أكثر من ثماني عشرة  
سنة ... وانه سيعود الى النقطة التي بدأ فيها الخطأ ليصحح مسيرة حياته ...  
- طلقيه ...  
- لا اقدر .. لم اعد صغيرة بما يكفي لأبدأ من جديد ... ولست بعد كبيرة بما يكفي  
لأنسى ..  
- طلقيه ...  
- حسناً ... وماذا لو طلقته ؟ هل الغي اولادي من سجلات المواليد واقول : كانوا  
غلطة مطبعية ؟ هل امسك بالممحة وامحو عن عمري ثمانية عشر عاماً وزوجاً واولاداً كما  
يمحو الفنان خطأ رسمه بالقلم الرصاص خطأ على لوحته ، وقرر العودة عنه ..  
- اذن لا امل لنا ؟ الا يمكنك تصحيح مسارها بعض الشيء ؟  
- لا اظن ذلك .. فدعيني في سلام ...

اطبقت اللوحة شفتيها ، وهطلت من عينها اليسرى دمعة واحدة فقط . . . تماماً كما كانت تفعل دنيا حين تبكي يوم كانت صغيرة . . . وطالما سحر العشاق بتلك الدمعة اليتيمة المضحكة تنحدر من عين واحدة . . . كأن عينها الأخرى قدت من صخر ولا سبيل للدموع اليها . . . واعادت فتاة اللوحة يدها الى الداخل ، واسترخت اصابعها في الوضعية التي كانت عليها . . .

نهضت دنيا وعادت لتمدد في فراشها ، واشاحت بعينيها عن خيوط الفجر الاولى الصيفية المبكرة . . . حين كانت صغيرة كانت تحب الفجر ولا تمقته كالיום ونحب ان ترى الاشياء في ضوءه على حقيقتها . . . فاذا راقصها حبيب في ( ستيريو ) ما ، عادت اليه صباح اليوم التالي وحاولت رؤيته في ضوء الشمس . . . ( راقصني ودع . . . كان فقيراً وشاعراً وسيظل كذلك . . . طرت معه فوق غيمة وردية ، وبدأت المحسس النجوم ، وحين قطفها ونثرها في شعري احسستني اميرة العشق المتوجة . . .

صباح اليوم التالي ذهبت الى الستيريو . كان بابه مقفلاً . ظللت جالسة امام بابه حتى الظهر ، حين اتى موظف يحمل مفاتيحه تمهيداً لتنظيفه . قلت له انني نسيت كتابي في الداخل ولدي امتحان ملح . . . توسلت اليه ان يدعني ادخل لاحضاره . . . سألني اين كنت اجلس وقال انه سيحضره لي ، ورفض السماح لي بالدخول . . .

لحقت به ، وكان يرفع الستائر ، وانهمرت الشمس مطراً مضيئاً يغسل الاوهام . . . بدت المقاعد الوثيرة - التي كانت في الليل كفراش الازهار - عتيقة وموسخة ببقع الحمرة والقيء واشياء اخرى فيها ما يذكر بفراش مومس . . . اما المصابيح التي كان نورها الملون «البسيكاديليك» كواكب معلقة راقصة في مهرجان كوني، فقد كان الغبار يكسوها والاسلاك البشعة تتدلى في ( الفضاء الكوني ) سابقاً ، وحين حدثت في مقعد ليلتنا السابقة ، شاهدت الصراصير تركض فوق كلمات الشعر التي تساقطت من شفاهنا وجيوبنا . . . وانطلقت هاربة كالمجنونة وصوت الموظف يقول غاضباً : لاكتب هنا يا آنستي . . . لم اجد شيئاً . . .

اما انا فقد وجدت شيئاً . . . واضعته . . . قررت ليلتها ان حباً لايقوى على الحياة الا في الستيريو ، وسط الانوار الاصطناعية وضبابات الاوهام ليس حباً . . . ورفضت لقاء ودع الا خارج المرقص . . . فهجرني وكتب قصيدة رائعة ورسمت لوحة جيدة وافترقنا ) . . . آه كنت احب التحديق في الحقيقة مهما كانت جارحة ، فلماذا لم اعد اجرؤ اليوم على

التحديق في حياتي الحالية ووجهي السابق ؟ . . . .  
استيقظت دنيا ويد تهزها . . . انه نديم وقد ارتدى ثيابه واستعد للخروج . . . نهضت  
مرهقة . قال : نسيت ان أبلغك البارحة . . لدينا ضيوف الليلة . . ستة اشخاص على  
العشاء الساعة التاسعة الا ربعا . . صرخت في وجهه : نسيت ان تقول « صباح  
الخير » . . .

- كففتنا عن ذلك منذ زمن طويل توفيراً للوقت . . هل نسيت ؟  
- وهل تظنني ادير مطعماً هنا ؟ . .  
- طبعاً . . هذا جزء من شراكتنا . . ماذا تبدل ؟  
- اليس من حقي ان اعرف اسماء الضيوف ؟  
- ما الفرق ؟ انهم قادمون لضرورات العمل . . .  
- الم تلحظ اننا بلا اصدقاء . . اعني اصدقاء نستمتع حقاً بصحبتهم ، لا اصدقاء  
« ننتفع » بصداقتهم . . .

- هذه مساوئ المهنة . . . حين قررنا جمع ثروة ، كنا نعرف ذلك . . .  
- لم اكن اعرف مدى قسوة ذلك . . ماذا لو مرضنا ؟ لو اصابتنا مصيبة ؟ لن نجد  
صديقاً حقيقياً يواسينا . . .

- لا وجود لشيء كهذا على اية حال . وسيواسينا مالنا وثوراؤنا . . .  
- لم أعد اطيع الاستمرار هكذا . . بدأت اكرهك واكره نفسي . .  
- تكرهيني منذ زمن بعيد . . منذ وظفت رجل الوكالة لملاحقتي وعرفت انني  
اخونك . . فلماذا افتعال الدراما الآن ، وانا مشغول . . .  
- لقد دفعت بي الى احتقار نفسي . . .

- لانك ذهبت الى الشيخ وطفان في الفندق لا يذائي ؟ يدهشك انني اعرف ذلك ؟ انا  
ايضاً وظفت جاسوساً يتبعك . . . هذا جزء من حياتنا كزوجين ثريين . . والآن ، انا  
ذاهب ، كوني جاهزة في الثامنة والنصف فقد يأتي احدهم مبكراً . . .  
- لا يهبك شعوري . . . .

- دنيا . . ماذا دهاك . . . تتصرفين وكأنك رابعة العدوية وقد غرر احدهم بها . .  
كانك رجعت طفلة . . . منذ ثلاث عشرة سنة لم يدر بيننا حوار كهذا . . . يوم قررت



تطليقي بعد أعوام قليلة من زواجنا ثم بدلت رأيك ورجعت من اجل الاولاد على حد زعمك . . .

- بعدما توصلت الي كي اعود . . هل نسيت دموعك؟  
- ما الفرق . ذلك كله جزء من ماض بعيد بعيد . . انت الآن في الاربعين . . . هل نسيت ؟ . . .

- مأساتنا اننا حليفان ولسنا حبيبين ولا حتى صديقين . . .  
- يعرف كل منا صاحبه اكثر مما ينبغي ، والى المدى الذي يجعل الحب مستحيلاً . . .  
كلانا بشع . .

- لست بشعة الى هذا المدى . . .  
- انت اكثر بشاعة . . حصلت على المال والآن تريدان التنصل من دفع الثمن . . .  
قالها ، وغادر الغرفة غاضباً وصفق الباب خلفه . . .

لا . . لن ترضخ . . . وقد لا تستطيع بدء حياتها من جديد لكنها ستسعى لتصحيح مسارها بعض الشيء . . هذا ممكن . . غير ممكن . . ممكن . . غير ممكن . . لماذا تشاجرت وزوجها ؟ ما جدوى ذلك ؟ انه الحلم . . تذكرت الحلم دفعة واحدة . . . تلك اللوحة ، منذ دخلت بيتنا كادت تدمره . . . تسلفت الى احلامي وحولتني الى امرأة عدوانية تتشاجر وزوجها كلما وجدا وقتاً لذلك . . . ياله من حلم . . صارت تحاور اللوحات في احلامها . . . انها بداية درب الجنون . . .

تدخل الخادمة وتقول لها : وجدت سلسالك هذا في الصالون فوق الطاولة يا سيدتي . . .

صعقت وهي تتناوله منها . . . نهضت من فراشها مضطربة . التقت بابتها في الممر . من زمان لم تقل لها ابتها صباح الخير . منذ طردت المربية ! . انها عادة تتحاشى اللقاء بها . ما بالها هذه المرة تبدو كأنها تعمدت ذلك وتمسك بيدها وعلى وجهها امارات الحزن والخوف لتقول : لست انا التي عبثت بلوحتك . . اقسم لك . . اعرف انك ستهميني ، لكنني لم افعل . . . لوحتك هذه هي الشيء الوحيد الذي يخصك واحبه . . .  
- ماذا بها . . . اللوحة ؟

- ثمة من رسم لها دمة تحت عينها اليسرى . . ليست رديئة ولم تشوه اللوحة . . .  
ولكن . . .

- ماذا ؟ ماذا تقولين ؟

- اقسم لك انني لم افعل ذلك .. لو فعلت لاعترفت فأنا لا ابالي بغضبك .. لكنني اقول لك الحقيقة .. تعرفين كم احب الحقيقة ... والصدق .... وربما لذلك اكرهك احياناً ، ولكن ليس الى حد تشويه تلك اللوحة الجيدة .

دخلت دنيا بصمت الى غرفة الحمام واقفلت الباب وراءها ... تنهدت بارتياح حين انفردت بنفسها . غسلت وجهها بالماء البارد ، وصداع اليم يمزقها ... اللعنة على الخمرة ، وصباحات ما بعد الخمرة ... وذلك الشعور البائس بالاغياء والغثيان والصداع والانهييار .. ليتها تقدر على وضع رأسها بأكمله تحت الماء البارد ، ولكنها تحشى افساد تصفية شعرها .. ضيوف المساء قادمون ، والزحام على اشده عند الحلاق في عطلة نهاية الاسبوع .. اكتفت بغسل وجهها بالماء البارد ثانية ( حسناً . ربما لم تكن ابنتي هي التي عبثت باللوحة .. لعلني كنت ثملة ورسمت لها دمعة . ام ان الحلم بدأ يتداخل والحقيقة في حياتي المشطورة ؟ لا . لا يمكن ان يكون ذلك كله قد حدث .. انها الاعيب ابنتي .. ولكن ، كيف افسر وجود سلسالي الذهبي هناك ؟ وهل سرقة ابنتي ايضاً من داخل الحلم لتضعه هناك ؟ ... ام انني مشيت في نومي حقاً وتركته قرب اللوحة وفعلت ذلك كله دون ان ادري ؟ ) ... ظلت تفتش عن تبرير منطقي للأشياء ، وومض في رأسها خاطر ... ماذا لو ان ما حدث البارحة ، حدث حقاً دون ان تكون قد تحركت من فراشها ، والسلسال نسيته في السهرة قبل ذلك ؟ ... تمنى لو يكون خليل قريباً منها . تروي له ما حدث .. خليل او امير .. أي صديق معني بثقوب الروح ... غريب ما وقع في بيتها ، ولكن ، الا يمكن لهذه الأشياء ان تحدث في عالمنا ؟

والعجيب انها وجدت علة الأصباغ مفتوحة ومبعثرة دون ان تذكر انها لمستها .. ولكن ، الم تكن تؤمن من زمان بوجود قوى خفية في الإنسان ذاته قادرة على مخاطبة النبات وربما شحن الجمام بالحياة ؟ هل يمكن ان تكون قد حركت الريشة حقاً بشحنات عذابها وقهرها ، ورسمت الدمعة دون ان ترسمها ؟ ولو شاهد احدهم الريشة لحظتها لتوهم ان شبحاً يحركها ؟ اهذا ما يحدث احياناً للشيوخ وطفان حين تتحرك الاشياء في الفراغ تحت نظراته ؟ أحقاً ان هذا الكون هو فقط ما نحيط به حين نحدق في الاشياء بنظرة سطحية سريعة عابرة ، ونحن نتسابق في الدرب الى الذهب ، راكضين كالحمير خلف جزيرة ذهبية ؟ آه ... صداعها ... ويجب ان تعد قائمة الطعام للمساء ... لا وقت للتفكير بهذه

الأشياء .. لا وقت للاحساس .. لا وقت لشيء .. (اين انت يا بيكاسو، يا كليبي اللطيف . يا صديقي الوحيد؟ .. بيكاسو .. تعال يا حبيبي .. رافق صديقتك الممزقة نصفين الى صالون التجميل فهي ما تزال مشغولة بمحاولة تنحيف ردفها عن هموم العالم واسراره ... وبعده الى الحلاق ، حلاقي فحلاتك ... فالخياط .. فالقهى ... فالحلاق .. فالمساج ... لا وقت للحزن .. لا وقت للفرح .. لا وقت للتأمل .. لا وقت للصداقة .. لا وقت للذكرى ... لا وقت للموت .. لا وقت لشيء .. اسرع يا بيكاسو .. اسرع )



اخرج صقر من جيبه علبة ذهبية . تناول منها كيساً صغيراً وورقة من فئة المائة دولار ، وخليل يحدق متسائلاً . لم يجب عن التساؤل الصامت بغير تلك الضحكة الهستيرية صمت بعدها فجأة . سكب بعض محتويات الكيس فوق الجريدة . حدق خليل فرأى خبراً عن بيروت وصورة لبعض دمارها وكومة صغيرة من مسحوق ابيض فوق لهيب الحريق في الصورة ... قسم صقر المسحوق الأبيض الى قسمين فأربعة مستعيناً بطرف ورقة المائة دولار . ثم مزق الورقة ، ولف جزءاً منها بشكل انبوب دقيق (كالشاليمو) . وضع طرف الانبوب فوق الربع الأول من المسحوق الأبيض وقرب وجهه من الطرف الثاني للانبوب وادخله في منخره الايمن وتنفس بقوة في شهيق مسموع ... رفع (الانبوب) ثانية ليضعه فوق الربع الثاني وكرر الشيء ذاته ، بعدما ادخله هذه المرة في منخره الايسر ... فرك انفه بشدة ، واغمض عينيه بنشوة ..

وسأل خليل : هل شممت الكوكايين من قبل ؟

— لا ...

— هذا رائع .. كونك لا تعرف شيئاً يسعدني . سأعلمك واثقفك ...

— ولكن ...

— هيا شم ما تبقى .. خذ ...

كاد خليل يرمي بالمسحوق اللعين في وجهه ويركض هارباً بالجريدة ليقرأ اخبار

بيروت .. لكنه تذكر اقساط الأولاد ، والاجرة الباهظة لجناح الفندق ، ونقود كفى التي  
اوشكت على النفاد ، وتذكر انه قادم اليوم متحياً الفرصة لطلب سلفة على راتبه .. فنفذ  
الأمر ، وشم .. ضايقته المادة الغريبة في انفه ، فصار يفركه . قال صقر : حذار .. لا  
تعطس ..

قاوم خليل رغبة ضارية في السعال والعطس ما لبثت ان تبددت وحل محلها شعور عميق  
بالمخدر في انفه ، فحنجرته .. وساوره بعض الضيق وهو يتلع لعابه مع احتجاجاته  
الخرساء ..

رشفا القهوة بصمت ، وبعد دقائق شعر خليل انه في صحة ممتازة .. وانه سعيد  
وقوي ونشط ، كأنه غادر الثالثة والثلاثين مقلعاً في مركبة الزمن الى الوراء .. وها هو في  
الثالثة والعشرين .. خامره مرح دافئ ، وصار قلبه يرقص في صدره كعصفور فرح  
بطيرانه .. وغمره شعور بديع بالحرية واللامبالاة ..

سأله صقر : هل استطعت الاقلاع ام انك بحاجة الى المزيد ..

— انني اظير ..

— لم يعد هذا المقدار يكفيك للطيران ..

— انها المرة الأولى بالنسبة لي .. لا تنس ذلك ..

اعاد صقر الكرة ، ثم قرع الجرس وطلب فنجاناً آخر من القهوة ..

حلق خليل عبر النافذة ، وشاهد الشجرة كأنه لم ير شجرة من قبل .. ذلك الجذع  
البديع ، الأوراق الخضر التي تومض تحت اشعة الشمس مثل آلاف المرايا التي ترسل اشارات  
سرية الى كواكب اخرى ..

امسك بالعلبة الذهبية التي اخرج منها صقر مسحوق النسيان الأبيض ، وركزها تحت  
اشعة الشمس وبدأ يرسل نورها فوق الحائط المجاور .. فالسقف ..

سأله صقر : ماذا تفعل ؟

— ابعث رسائل بالشفرة ..

— ماذا تقول فيها ؟

— S.O.S النجدة ..

— وماذا ايضاً ..

— يا سكان الكواكب الأخرى .. أنا قادم .. جهزوا الوليمة ..

ضحكاً معاً هذه المرة . . . وبدا ان صقر سعيد بصحبته . . . واقل تأثراً منه بمسحوق  
الفرح ، اذ جره من الكوكب فجأة الى الأرض وسأله : تبدو اصغر سنأ . . . اقل من  
الثلاثين . .

— انا خالد . . . ازلي . . . سرمدي . . ويظل عمري عشرين سنة . . .  
— الك اولاد حقاً ؟ . . .

كاد يصفعه . . أهذا أو ان الحديث عن الاولاد ؟ . . تذكر شيئاً نسيه ، واحس بأنه  
قادر على الوقاحة والجرأة والعنف فأجاب : اجل . . . وهذا يذكرني . . . انني بحاجة الى  
سلفة . . . لا املك فرنكاً سويسرياً واحداً . . .

اخرج صقر من جيبه مجموعة من الأوراق النقدية . . . ركز خليل نظره بصعوبة  
عليها ، وقرأ على واحدة منها رقم ألف . . . عشر اوراق او عشرون ورقة من فئة الألف  
فرنك . . . مديده واخذها قائلاً : انني بحاجة اليها كلها . . . اليس معك المزيد ؟ ضحك  
صقر ضحكته المستيرية ، وافرغ محتويات جيوبه كلها ، فأخذ خليل المال كله الذي يحمله  
دون تردد ، والعلبة الذهبية ايضاً وأعاد لصقر الكيس الصغير المليء بالمسحوق الأبيض  
وحزمة من المفاتيح . . وعلبة دواء . . واحتفظ بما تبقى كله . . . .

دخل صخر فقال الابن : ارجوك يا ابي . . انا مفلس . . النجدة . . .  
— كنت البارحة كذلك ايضاً . . . وانجذتك . .

— مدد يا ابي . . . مدد . . .

— لا احد يقول لي شيئاً آخر . . . نسائي واولادي وأصحابي . . . لا احد يطلب مني  
شيئاً آخر . . . لا أحد يأخذ مني قرحتي مثلاً . . .  
قال خليل بجرأة معاباً : لماذا لا تجرب الشيخ وطفان . . .  
— هذا ما فعلته بي عقاير الشيخ وطفان . . .

سمع هلال وهو يلحق بهم عبارة : الشيخ وطفان ، فسأل خليل : هل هو حقاً كما  
يقولون ؟ قادر على شفاء المرضى . . . انت شاب عصري ومتعلم . . . ماذا تقول ؟  
— اقول ما قاله لزوجتي : انا ساحر قادر لأنكم تؤمنون بسحري . .

قالها وهو يقلد صوت الشيخ ، فانفجر الجميع ضاحكين الا الشيخ صخر الذي قال :  
لا حرمة لشيء عند ابناء هذا الجيل . . .  
تدخل هلال : كذب المتجملون ولو صدقوا . . .

قال صخر متحدياً : هذه ليست آية قرآنية . عبارة المنجمون غير مذكورة في القرآن .  
 ألح هلال : ثمة اشارات كثيرة الى السحر وتذكر يا خليل ان تزودني بها . . .  
 دمدم خليل : نعم نعم . وانسحب صقر مسرعاً ، ولحق به خليل . . حين غادرا  
 الغرفة قال له الأول : انها حقاً المرة الأولى لك مع مسحوق النجوم هذا . . . الآن  
 صدقتك . . . كيف جرؤت على تقليد صوت الشيخ وطفان ؟  
 — كدت اقلد صوت والدك ايضاً . . . وعمك . . . واجدادك . .  
 — هيا بنا نغادر هذا المكان قبل ان تفضحني . . .  
 اخرج صقر من جيبه علبة دواء ، وابتلع قرصاً دونما جرعة ماء واعطى آخر لخليل  
 الذي قال : متشكر . . . لست مريضاً . . .  
 اقلع صقر بسيارته واصر : وأنا لست مريضاً . ابتلعه . . .  
 فابتلعه واكد : ولكنني لست مريضاً . . .  
 — حسناً سأعترف . انا مريض بحب الحياة . . وهذا دوائي . . . انه يجعل الحياة  
 تتأجج في جسدي . .  
 — ولكنها كذلك . . انت في الثالثة والعشرين من عمرك . . . او اقل . .  
 — ذلك لا يكفي . حبوب التنشيط تفعل فيك ما تفعله انت بالسيارة حين توسع قليلاً  
 فوهة تدفق البنزين . . ويزداد الاحتراق في علبة الانفجار . . .  
 تأمل خليل يده ، وفوجيء بعروقها زرقاء ونافرة وخيل اليه ان حشرة ما تمشي فوقها  
 تحث جلده ، وحاول طردها ثم نسيها . . .  
 صقر يقود السيارة بسرعة خارقة . . وخليل لا يشعر بالخوف كعادته بل بالنشوة . وهو  
 الذي يكره الذين يحولون الشوارع الى حلبة سباق . بل ويتمنى لو يوقفهما شرطي سير ليسخر  
 منه وربما يضربه ! . . . أهذا ما فعله المخدر به ؟  
 — هل انت جائع ؟  
 — لا . .  
 — حسناً لنذهب الى مطعم ولا نأكل . . فالآن موعد الغداء . . .  
 ذهبوا الى المطعم العربي الذي كان يفترض ان يعمل محاسباً فيه وطرده . . .  
 ( الجرسون ) المتعجرف لم يظل كذلك حين شاهد سيارة صقر الفخمة . . . بل استقبلهما  
 باحترام بالغ ، وفتح لهما الابواب ، ومد الراحتين ليمشيا فوقهما إذا لم ترص احديتهما عن

لملمس (الموكيت) ، ولم يبد على وجهه انه تذكر خليل . ولماذا يتذكره . وهو الذي كان مجرد عاطل آخر عن العمل جاء يتوسل لقمة حلالاً وطرد ؟ ... شعر خليل بحزن عدواني ، ( لماذا يحتقر ابناء الطبقة الفقيرة بعضهم بعضاً ، ويبادرون الثري باحترام لا يستحقه دائماً ؟ أم أن هذه هي مهنة الفقراء في المجتمعات الاستهلاكية ؟ ) ...

شربا ماء النار ، وطلباً طعاماً لن يأكله لأنها لا يشعران بالجوع .. لكن صقر انب (الجرسون) حين تأخر في احضاره ، وزجره وقرر شراء المطعم كي يطرده .. ثم ضجرا ، وقال صقر : ما رأيك باقتحام بيت ؟

— فكرة جميلة ...

— واغتصاب سيدة ...

— اترك هذه المهمة لك ..

— ولكنك ستراقبنا ...

— ليس من عادي التلصص !

— ارجوك ان تفعل .. انه يمتعني .

— حسناً سأفعل اذا كان ذلك بعضاً من مهنتي ! ...

— ماذا لو كانت السيدة صديقتي الراقصة الفرنسية التي استأجرت لها ورفيقتها شقة

فاخرة ؟

— الذي تعرفه خير من الذي تتعرف عليه ...

ضحكا ...

سأله خليل : هل تعني ذلك حقاً ...

— اجل ... انه يروقني ... فكرة الاغتصاب تثيرني ...

— ولكنك تعرفها .. وهي تعرفك ...

— لن تعرفني حين ارتدي ذلك القناع المكسيكي .. ولن تجرؤ على ان تتذكرك فيما

بعد ... سنلهو قليلاً ...

غادرا المطعم . لاحظ خليل ان يديه كانتا ترتجفان وهو يدفع الحساب ... قلبه يقرع

مثل طبل افريقي في غابة .. المدينة استحوالت غابة ويتمنى لو يحمل رمحاً ويركض بين

الاشجار حتى شاطئ النهر ، يقتل الفهود التي يلقاها في دربه ثم يركب تمساحاً يقله الى

الشاطئ الآخر حيث اشجار التفاح والأفاعي ... يراقص افعى ، ويعصر تفاحة بيده ،

يخمرها تحت الشمس المحرقة ويسقيها لافعاها الزرقاء العينين الناعمة اللسان . . . يتوقف صقر في مرآب تحت ذلك المبنى الفخم الذي طالما مر به خليل وتساءل من جدير بأن يقطنه ويطل من نوافذه . . . وهو يقطنه . . . خليل شخصياً يمتلكه الآن ، ويتحرك نحو النافذة المشتهاة ، الحرية الساتر يزيجها ويطل منها ليتأمل مشهد البحيرة ويجعها ومراكبها وسابحاتها وطيورها وخضرها وازهارها . . كم الحياة حلوة ومثيرة . . .

يستخرج صقر من الصندوق الخلفي للسيارة قناعاً لوجه شيطان ، يرتديه ، ويعطي قناعاً آخر لخليل . . ثم يستخرج سكيناً ومسدساً ، فيجفل خليل ، ويسارع صقر فيقطعه في صدره ، في موضع القلب تماماً بالسكين ، ويغور نصلها داخل مقبضها ويضحك صقر: انها لعبة . . . يستعملونها في السيرك . . وبدلاً من ان يدخل نصلها في صدرك ، يعود الى غمده . . . وكانت معظم السكاكين التي هاجمنا العدو بها كهذه . . . سلاح فاسد لرجال حمقى ) . . كاد يغرق في الحزن ، لكن صقر شهر عليه المسدس ، وضغط الزناد ، فغسل الماء وجهه وانتعش ضاحكاً وقد استعاد طفولته . قال صقر . . . « هذا الآخر دمية ايضاً . تعال نلهو ، ما رأيك بهذا المسدس الآخر ؟ » شهره واطلق عليه النار . كاد ضجيج الطلقة وصداهها في المرآب يصم اذنيه ، ويغمى عليه ذعراً ، نظر الى صدره حيث اصابته الطلقة فشاهد بقعة سوداء محروقة ولكنه لا يتزف . . ضحك طويلاً . . بجذل : انه مسدس صوتي فقط . فلنهرب قبل حضور الناس والشرطة .

توجها نحو المصعد . ارتدى خليل قناعه وتمنى الا يكون المصعد خالياً من الناس . . شعر برغبة عابثة في ان يخيف شخصاً عاقلاً (أو يتوهم نفسه كذلك ) وأن يضحك طويلاً . . . لسوء الحظ لم يلتقيا بأحد في المصعد أو الممشى . . .

فتح صقر باب (الشقة) بمفتاحه الخاص بهدوء لص ، وتسلا الى الداخل . . . كانت مارلين في دربها الى الصالة حين فاجأها صقر . . . اغلق فمها ، وتولى خليل ربط يديها الى وراء بزناز ثوبها المنزلي الذي انفتح عن كوكب اشقر الحسن كالعنب الأبيض الشفاف النضر لحظة القطاف . . . ثم تناول منديلاً عقصت به شعرها واحكمه فوق فمها . . . لم يصدق خليل انه يفعل ذلك ، لكنه كان يمارسه باتقان ، كأن المسحوق حوله الى رجلين ، احدهما يعبث كطفل متوحش والآخر يرقبه كمن يرقب فيلماً مسلياً .

حين سمعت تيريزا الجلبة ، تقدمت من الدهليز ، فصوب خليل مسدسه الى رأسها ، وكان صقر يهدد صاحبته بسكينه . . . قالت تيريزا بصوت هادئ : ماذا تريدان . لا



تؤذيانا وسنعطيكما كل ما معنا . . .

لم يجب أحدهما بكلمة .

لم يلتفت صقر صوب تيريزا وانما صفع مارلين وجرها من شعرها صوب الغرفة الأخرى . صرخت متوجعة بصوت خنقه الذعر .

. . . لم يشعر خليل بالمتعة وهو يرى نظرة رعب حقيقية تطل من عيونها . .

وغاب صقر ومارلين في الغرفة الأخرى وترك الباب مفتوحاً . . . وشاهدها خليل مرمية على الفراش، مملكة من البياض المذعور، عبثاً تقاوم ، وتنهار اسوارها وتفتح ابوابها للغزاة . . . وكان ما يزال يسدد مسدسه المائي الى رأس صاحبته المذعورة التي حاولت الهرب فصفعها . . (لم اصفع مخلوقاً من قبل . اي وحش يقطني ، تكفيه ذرتان من مسحوق ابيض ليستيقظ ؟ ) وغمره خوف مفاجئ من نفسه ، ومنها . . . ماذا لو هربت حقاً واتصلت بالبوليس ؟ . . اهذه نهايتك يا خليل ؟ اهذه نهاية الصمود ؟ . .

بعد الف سنة ، وربما ثانية واحدة ، بعدما انفق صقر شهقاته ومارلين دموعها ، رفع القناع عن رأسه وانفجر ضاحكاً . . . وانفجرت الراقصتان في بكاء هستيري ، طرب له صقر لكنه صرخ في مارلين مؤنباً : « ايتها الحمقاء . . الم تميزي اسلوبي في امتلاكك ؟ لم أعد ارجب فيك بعد اليوم » ثم التفت وقال لخليل : الآن دورك . . . إذا احببت . .

— اشكرك . . في مناسبة اخرى . . سأترككم الآن . . .

ضحك صقر تلك الضحكة الضائعة بين شهقة الجذل والموت ، وقال : احب الرجل الذي يعرف متى ينسحب . . . ستتابع لهونا قليلاً ، فلتيريزا حصتها ايضاً قبل ان اتخلص منها . . تصور . . مارلين لم تميزني . . وانت يا خليل لن اكون بحاجة لحضورك بقية اليوم . . احضر غداً باكراً . . حوالى الساعة الثانية عشرة ظهراً . . . خلع خليل قناعه وترك مسدسه وغادر المكان . . .

في مرآة المصعد ، خيل اليه ان القناع ما زال يغطي وجهه ، فقد شاهد فيها وجه شيطان . . وسمع ضحكته . . ومن جديد عادت الحشرات السود الصغيرة تركض تحت جلد يده . . .

وغادر البناء وهو يركض مذعوراً وشعر بأنه فقد اعز ما يملكه الرجل والمرأة معاً . . . مرت به سيارة مسرعة لمح فيها زوجته كفى جالسة الى جانب نديم : امعن النظر ،

لكن السيارة كانت قد اختفت .. انها سيارة نديم ... انها اوهام الكوكابين .. لا .. نعم .. لا .. نعم .. نعم ..

\*\*\*

تهدت كفى بدلال غصن تعب من ثماره ، واشتاق للمسات القطاف .. والريح المجنونة والمطر العابت وعناق العاصفة ...  
( هل كان ضرورياً أن نهدر الوقت في الجلوس على الشرفة والتهام الطعام وشرب ماء النار تحضيراً للجو ؟

ألا يعرف انني (جاهزة) منذ خمسة اعوام ، انتظره منذ غادر خليل جسدي ولم يعد ، يحتاجني طوفان الجوع الى المحارث والزرع والسنايل وليالي الحصاد وعدوبة الشهقة على حد منجل الحب ... لو جرتني من يدي في الطائرة الى المقعد الخلفي ، لارتميت امامه مدينة بلا اسوار ترحب بالقاتح ...

صحيح ان الطعام كان شهياً ... وشرفة فندق الـ ( بيل فو ) تعطي امواج البحيرة الخرافية الجمال .. صحيح ان ماء النار يسهل الأمور ، كالحوار اللطيف ، وكلمات الحب الهامسة التي تدغدغ الغرور .. ولكنني تعبت من مرحلة (التعبئة) ... والمناورات .. متى نقدم على المعركة (بالذخيرة الحية) ..

— متى يعود زوجك ؟

— لا ادري ...

— ماذا ستقولين له ؟

— لا ادري ...

— ستقولين الحقيقة ؟

— ربما ...

— ارجوك الا تفعل ذلك ... انه الآن يعمل معنا ... اعني مع شريك الباشا الشيخ

صخر وابنه . لا نريد ان تتدخل العلاقات العاطفية في شؤون العمل ...

— حسناً لن افعل ..

ها هو يوضب خط الرجعة .. يمد رأسه من خلف المتراس ثم يحجم .. ما الذي

يخيفه ؟ .. وهل عليها ان تجره من مستنقع التفاصيل الى لب الموضوع ؟ .. متى ينتهي من

كتابة أهوامش المملة بالفاكهة والحلوى والقهوة ، وبدأ بخط تلك العبارة التي استيقظت في قلبها حية نضرة ، كأنها نامت اعواماً ، ثم فتحت عينيها على وقع أنفاسه . . . أهو حقاً مرتبك ، أم يتظاهر بذلك ؟ احتراماً لها ؟ تراه يتظاهر بالبراءة ليوهمها انها الأولى والآخرى والحادثة فريدة في حياته ولن ينسى إلى الابد؟ . . . ليكن ما يكون ، انها مشتعلة ، ملتهبة ، ولن تستجوب الاطفائي عن اوضاعه العاطفية . . . حسب ان يطفىء ناراها . . .

بعد ساعة ونصف ، غادرت كفى غرفة النوم الفاخرة في الفندق وقد زادت ناراها اضطراباً . . . كان نديم رجلاً من القطن . . . أنامله ماهرة في العزف . . . أنفاسه تعرف اين تطلق صفاراتها . . . لكنها كانت بحاجة الى شيء آخر لم يعد يملكه . . . ما زالت تحبه . . . لا تريد ان تفقد هذا الاحساس الجميل ، وستمنحه فرصة اخرى . . .  
تحب صورته في خاطرها ، وكان عليه ان يكون في حجمها . . . ولم . . .

\*\*\*

حين انزلها نديم امام موقف التاكسي ، كي تستقل سيارة مستقلة تحملها الى الفندق تهند بارتياح . . . هذه المرأة الرهيبة بحاجة الى فريق عمل يرضيها . . . في جسدها مجاعة ، وهو منك . . . انها ما تزال « جوهرة خاماً » لما تصقل . . . الخبرة التي اكسبه الزمن اياها لم تعوضه معها عما سرقه الزمن منه . . . وعى للمرة الأولى انه تقدم في السن حقاً ، ولم يعد في مقدوره ارضاء فتاة عشرينية تطل على ثلاثيناتها بزخم شرس . . .  
ولكن رغبته فيها تعاظمت . . . لن يهزم أمام اسوارها المرمية . . .  
هل آن الأوان ليلجأ هو ايضاً الى الشيخ وطفان ؟

\*\*\*

تمدد خليل فوق مقعد الحديقة العامة (الجرانج) ، والغروب بدأ يهبط فوق المدينة ، ودمه يهبط في عروقه بعدما اصطخب طويلاً داخل تلك الأوعية المسكينة كبحر هائج في مضيق . . . انتهت مرحلة الطيران والهياج والقوة ، والمياه تنحسر عن الصخور والشيطان والمضيقات مخلقة جثث الاصداغ والقتلى وطيور البحر الصريعة وبقايا المراكب . . .  
لقد هام على وجهه طويلاً . . . كان يحس بقوة خارقة تنفجر من أعماقه ، ونشوة خاصة تلفه . . . طاف في جنيف القديمة وازقتها الحلوة ومشى حتى متحف الاثنية ثم مشى طويلاً من

متحف الى آخر ، ومن جنة الى اخرى ، ودخل معرضاً فنياً ، واستمتع بأصوات التماثيل وحفيف الأشجار في ريح اللوحات ، ومشى ومشى حتى وجد نفسه في هذه الحديقة ، فطاف بورودها النادرة حوضاً بعد آخر ، ولكل حوض اسمه المدون الى جانبه ، ثم تذكر الجثث المكومة في بيروت مجهولة الهوية وبلا اسماء ، تدفن بالجملة في قبور جماعية لا يزيد احدها في اتساعه عن الحوض الخاص بالزهرة المسماة (وردة ماري كالا)، فلعن عالماً تعمّر بعض اقطاره البيوت للورود وتحيطها بالزجاج والشاش خوفاً عليها من البرد ، ولا تجد الجثث في اقطار اخرى قبراً ، ولا اهلها بيتاً . . . وذلك كله يحدث على كوكب واحد . . .

تلك اللحظة دامهم هبوط مفاجيء والشمس تتلو فعل الندامة إثر يوم آخر من المذابح والأحزان شهدتها في أماكن كثيرة ، والغروب يرمي عباءته الرمادية فوق الجراح والافراح معاً . . . ودامهم حس مفاجيء بالبرد والخوان . . . بدأ يرتجف . . . غادر الحديقة التي حان وقت اغلاقها ليرتمي على مقعد آخر على الرصيف المقابل للحديقة لصق البحيرة ، وقد ودعه لدى خروجه سنجابان جميّان يطارد أحدهما الآخر فوق شجرة سامقة كأشجار الاساطير بدت اغصانها العليا تمتدة في السماء . . .

ولكنه الآن جائع . . . ومتعب . . . يرتجف برداً وفي اعماقه خواء بائس وعطش مرير . . . استعاد احداث نهاره ، فشعر بخجل حقيقي يزرن صدره . هل يمكن ان يكون قد فعل تلك الحفارات كلها ؟ . . . تحسس النقود في جيبه فوجدها . . . إذن فعل كل ما فعل . . . اللعنة ! . . .

دخل غرفة الهاتف للمرة العاشرة منذ الظهر . . . هذه المرة استطاع ان يتذكر الرقم الهاتفي لامير . . . ( ارجوك يا الهي دعه يتحدثني . . . ليكون في البيت . . . ليكون هاتفه غير معطل . . . ليت الرقم (يعلّق) . . . هذه جنيف ايها الاحق ، والهواتف تعمل ) . . . جاءه صوت امير . . . انهار كمن ادخل رأسه وكثفيه في اطار النجاة وصار في مقدوره الاستسلام لترف اغماء . . .

— ارجوك يا امير . . . هل استطيع الحضور . . .

— بالتأكيد . . . كنت اتوقعك . . .

— هل انت وحدك . . .

— لا غريب عندي . . . سجل العنوان . . .

التاكسي . شوارع . وقوف . عداد . نقود . مصعد . جرس . . . يرن الجرس عدة

مرات دون ان يلحظ ان الباب مفتوح على مصراعيه . . . وصوت يصرخ من الداخل :  
ادخل . . ادخل .

\*\*\*

«لقد تأخر خليل . . .» . . .

تدور كفى في غرفة الفندق الفخمة . . انها قلقة ، فالنقود تكاد تذوي ، ولا امل في  
مساعدة نديم بعدما حدث اليوم . . . لن تكون بينهما علاقة حب في أي يوم . . تعرف  
بغريزتها الانثوية ان رجلاً مثله لن يغفر لها لأنها لم تستمتع . . ولم تتظاهر بذلك . . .  
لقد اوقفته على الجدار مثل تلميذ كسول في درس الحب . . . فوجئت ، فلم تحسن  
التصرف . . . لم يكن في مقدورها بعد خمسة اعوام من المجاعة ان تخفي خبيثتها بمائدته . . .  
كانت تظنها عامرة . . وإذا بها حافلة بكل ثمين ، باستثناء الطعام . . .  
انها الآن مفلسة . . ذكروها اليوم في الفندق - بكل تهذيب - بضرورة دفع الفاتورة . .  
بالاحرى ، تركوا لها الفاتورة مع المفتاح ، وعبارة لطيفة تتوجها ، تقول ما معناه ، «ادفعي  
أو ارحلي الى السجن» . . . دفعت . . . وتبقى القليل . . ما لا يكفي لأكثر من أربع  
ليال . . . ( ذهب السكرة وجاءت الفكرة ) . . . وقد زاد في قلقها ، انها بعد عودتها الخائبة  
من كوكب نديم ، ذهبت في رحلة اخرى خائبة . لقد فكرت في بيع الخاتم المسروق ،  
وتسديد فاتورة الفندق ببعض ثمنه ، وعرضته على احد باعة المجوهرات وقلبها ينبض  
ذعراً . . ادعت انها تلقت هدية ، وتريد ان تعرف ثمنه التقريبي لتحسن رد الهدية وشراء ما  
يوازىها ثمناً ، فتأمل الخاتم تحت المكبر وعبس وخافت وندمت وتخيّلته سيهرع الى الشارع  
صارخاً «سارقة» ، وينادي البوليس والناس ، لكنه قال : هذه ليست ماسة حقيقية . . .  
انها زجاج خاص . . . ماس اصطناعي لا قيمة له . . . ندعوه هنا «ديميليت» . . له مظهر  
الماس ، وسعر الكريستال ! . . .

إذن خسرا خط الدفاع الاخير . . . سيجوعان ، وحين تنتهي الاسابيع الستة في  
المدرسة ستطالبها الادارة بعشرة آلاف فرنك سويسري للقسط الجديد ، أو تقذف بطفليها  
في وجهها . . .

«لقد تأخر خليل . . .» . . .

دهمها ذعر . . . كادت تنساه في الايام الماضية . . . كانت ثملة ، ومحفظتها عامرة

وقلبها مترع بخمرة الحب . . . اليوم انكسرت الخاية ، وخوت المحفظة . . . دهمها شوق الى طفليها . . .

اتصلت بالمدرسة هاتفياً . طلبت التحدث اليها . رفضت عاملة السترال ، وابلغتها ان الحياة هنا منظمة وثمة وقت محدد لمكالمة الأولاد . . بين الواحدة والثانية في فرصة الظهر ، بعد الغداء . . اللعنة . . لم يحدث لها من قبل ان حرمت منها . . اشتعل في اعماقها احساس ملتهب . . . هاجت اشواقها نحو طفليها . . . وخليل . . . يبدو انها لا تكرهه بقدر ما تنوهم . . . ولكنها تكره عالمه وتخاذله وعجزه ، وعدم جرأته على قطف مباهج هذه الحياة التي غمر بها مرة واحدة . . . لا تتكرر . . . طال انتظارها فلجأت الى التلفزيون . . . نشرة الاخبار ، ولبنان يحتل الفقرة الأولى . . لا تريد ان ترى ملعب العنف هذا بعد اليوم . . . تكره ما فعله به ابناؤه والعرب والغرب والشرق والشمال والجنوب . . . انها تفضل اي مصير باستثناء العودة الى ذلك الجحيم الأرضي ، حيث يقتل الاطفال دوغانا ذنب . . . هاجمتها صورة وداد . . . هربت منها الى محطة الفيديو التي يث الفندق عليها الافلام ودوغانا توقف . . . هذا فيلم عاطفي . . ألان ديلون يقبل كاترين دونوف في باريس . . والسيارة تمضي بهما في شوارع مضاءة نظيفة جميلة . . . لماذا هي محرومة من الحياة في مدينة كهذه مع رجل كهذا ؟ . . . دخلت الى الفيلم . . . رمت بكاترين دونوف خارج الشاشة وحلت محلها . . . انها هي الآن الجالسة الى جانبه في السيارة . . . يضمها ألان ديلون ويقول لها انه يحبها . . . وتتابع معه احداث الفيلم ، ترافقه الى فندق جورج الخامس . . . يصفعها . . . تصفعه . . . يقبلها . . . يتبادلان حباً حاراً مشبواً ، لا كحب نديم الذابل المتلاشي في غرفة الفندق الأخرى . . يأتي الاشرار لاختطافهما . . ما همها ما دامت مع حبيبها . . . يحاولون قتله . . . تمسك بقضيب الحديد الذي تستعمله لتحريك نار الموقد (الشومينية) . . تضرب به الشرير . . . انها بطلة ومعشوقة . .

تدخل عاملة توضيب الغرف فجأة . . .

تترك ألان ديلون وحيداً يواجه مصيره، وتستقبل الخادمة بغضب. تعتذر الأخرى. جاءت توضح الغرفة . لم تجد على الباب لوحة (عدم الازعاج) . . تخرج الخادمة. تعود إلى الفيديو. لا تجد ألان ديلون بانتظارها. ذهب. تفكر بزوجها . . لعله الوحيد في هذه المدينة الذي يهيم امرها حقاً . . انه ليس رديئاً بقدر ما تتصور احياناً . . ولكنه رجل ضعيف، وهي تعبت من الضعفاء في مدينة متوحشة علمتها عشق الرجال الاقوياء . .

خليل مكسور مثل مركب لفظه البحر العاتي . . تخيلته يأتيها محملاً بثروة من الشهوات والأوراق النقدية . . تحب احلام اليقظة . . (سأغمره بحناني . سيعطيني النقود ويقول انها نسخة . تلتهب عواطفني ، واغطي بالأوراق المالية صدري وكنتفي . يجفل . . . ويهرب الى النوم) . . آه ، ليته يحضر باكراً الليلة . . . انها مذعورة مما ينتظرهما . . . كانت تريد ان تتحدث اليه عن الخاتم المزيف . . هدية رغيد الزهران الى دنيا الغفير ، وتخبره المفاجأة الكبرى : الخاتم السوليتير فسه من (الديميليت) لا من الماس ! تعرف ان ذلك لن يدهشه . . لعله سيشرح بالشماتة . . . او عدم الاهتمام . . حتى لو ايقظته ونقلت اليه النبا ، سيعود الى النوم واللامبالاة تقطر من صوته . . . لن يقفز في الهواء ، ويتدحرج من اثر الصدمة كما حدث لها . . سيقول ببساطة : هل يدهشك ذلك حقاً؟ ماذا تتوقعين من اناس كأولئك؟ وسيرجع الى النوم . . .

احسست بالزلزال . . . بصفارة الانذار الأولى تنطلق داخل رأسها ، وبالأرض لم تعد صلبة تحت قدميها . . .

كانت تظن انها عادت الى الأمان ، ووجدت قومها الذين تنتمي اليهم اصحاب الأصول وأولاد الحلال . . .

وإذا بهم . . .

كانت تظن انها امسكت بحلمها بعد طول عناء . . .

وإذا بها تتجسس عليه ، وتكتشف انه مخيف هو الآخر . . كأنه مرادف بمعنى ما لكوابيسها . .

إذن أولئك الناس ايضاً . . .

سقطت في هوة دعر غامض . . . وعت للمرة الأولى انها هنا أيضاً تمشي في حقول الغمام لكنه من غمط آخر . . . وانها هربت من كوابيس الوطن لتكتشف كوابيس الغرب . . .

وجاءها صوت من اعماقها ساخراً (لكنك سرقت الخاتم ، هل نسيت ذلك؟) . .

ربما كانت لرغيد الزهران اسبابه الخاصة لاهداء دنيا خاتماً مزيفاً ، وربما كانت دنيا تدري ذلك . . . (تلك قضية شخصية بينها ما شأنك انت بهذا كله ؟ . . وإذا وجدتهم

اشراراً فتذكرني انك اسوأ الجميع . . . حتى الآن ) . .

\*\*\*

باب بيت امير مفتوح على مصراعيه ، كذراعين خشبيتين ترجبان بأي قادم . . لا  
« احتياطات أمنية » ولا حراس بالرغم من محاولة اغتيال امير الفاشلة . . .  
دخل متردداً . بدا المكان لعينيه مثل فندق ابيض . . والرجال جلوس في حلقة على  
الأرض كما في بيت جده في القرية . . عبثاً يركز نظراته في وجوه الحضور . . انه منهك  
ومسحوق مثل حبة توم في جرن . . دار على عقبه وفكر بالهرب . . غمره ذعر مفاجيء  
جوهرة الخجل . . يد على ذراعه . . وأمير يحجره الى الداخل مرحباً . . .  
طالعه وجه نسيم ولم يدهش ولم يتضايق . . شاهد وجهاً آخر لا يعرفه ، وجه مستدير  
مرهف ركب فوق جسد مستدير هائل السمته . . واحدهم ينادي تلك الكتلة اللحمية : يا  
بسام .

انتقل من منتهى الذعر الى اقصى الطمأنينة . . امير هناك واصدقاء أمير احبابه . . .  
غمره ارتياح عميق كمن عاد إلى وطنه . . واسترخى في مقعد شبه منزل قاده اليه امير  
في احدى الزوايا . . تأمل المكان . . لا اثاث غير رف الكتب ، والارائك على الارض . .  
لكن الجدران بيضاء ونظيفة ، وهو عبثاً يركز نظراته في تلك الخارطة على الجدار المقابل  
له . . لا يدري لماذا تخونه حواسه كأنها خجلة به . يلمح عبر الباب المفتوح غرفة نوم فيها  
فراش مد فوق الأرض . . بل مجموعة من ( الفرش ) كما في فندق للفقراء . . تذكر بيت  
جده في القرية واغمض عينيه . .  
قال امير : تبدو في حالة بائسة . . .

نهض الرجل البدن واحضر له كأساً من الماء وقال له عابساً : انا بسام . . بسام  
دمعة . . .

- شكراً لك . . . اعني . . . تشرفنا . . .  
ابتلع كوب الماء دفعة واحدة . . انتعش قليلاً . . بسام دمعة . . . يذكر هذا  
الاسم . . قال بسام ورائحة الخمرة تفوح من فمه : هل سمعت بي ؟  
- أجل . . .  
- تذكر اين ؟  
- لا . . . اظن انك الفت كتاباً ما . . .  
- ارايت ؟ يتذكرونني كما يتذكرون الكتاب الاموات . . قلت لكم انني مت وانتهى  
الامر ، لكن احداً لا يريد ان يصدق . . .



- معذرة... لو سألتني في وقت آخر ربما لتذكرت...  
 - لا... كنت انت مرافقاً يوم مت انا... لست من الجيل الذي يعرف  
 حكايتي... ثم انني قضيت الاعوام العشرة الأخيرة في جامعة كامبردج وسواها.  
 - كان يعد اطروحة للدكتوراه... انه محام لامع ايضاً...  
 - لم اكن احضر شيئاً حقاً... كنت هارباً بانتظار زمن افضل... يأتي الشبان  
 ويتخرجون ويتشرون في الكرة الارضية يفعلون شراً او خيراً وانا انتظر زمناً يناسبني...  
 عصراً يتلاءم ومزاجي الخاص...  
 قال امير بصوت حازم : كفى يا بسام...  
 اصر بسام ثملاً : اريد ان اعرف بنفسني... انا هارب من الوطن العربي منذ عام  
 ١٩٦٧... منذ نشرت كتابي « نقد العقل السلفي »... وهارب من لبنان منذ عام ١٩٧٥...  
 احب النضال بالمراسلة ، لا لضرورات المرحلة ، ولكن لأنني جبان... اكتب الرسائل الى  
 اصدقائي واحديثهم عن ظروف النضال الصعبة في انكلترا وسويسرا... واتاجر بأيجاد كتابي  
 الأثري « نقد العقل السلفي »...  
 مديده ليتناول كأساً أخرى من النبيذ ، فانتزعها منه نسيم حين اشار اليه امير بذلك...  
 - انك مرهق... لماذا لا تجرب النوم؟  
 - سأذهب لأكتب قليلاً في مؤلفي الجديد... لم تقرأ مؤلفي الأول...  
 والأخير؟... آه... نسيت انك كنت طفلاً يومئذ... اللعنة... كم تكبرون  
 بسرعة...  
 امسك به امير ، وجره من يده الى الغرفة المجاورة... قال نسيم : انه يستضيفه عنده منذ  
 عام... سكير طيب القلب مفكر مهدور...  
 ظل خليل صامتاً... منهكاً كنورس طار عبر عاصفة رعدية واحرق البرق  
 جناحيه... سأله : ما بك يا أستاذ خليل؟...  
 - كما ترى...  
 - هل تريد مزيداً من الماء؟  
 - ارجوك...  
 دخل امير وقال : نسيم شاب شجاع... انه يعد اطروحة سرّاً... ارجوك الا تطلع

رغيد على ذلك ... فالوقت غير مناسب لطرده ... فهو المعيل الوحيد لأسرة كبيرة مهجرة ...

قال خليل كمن يدفع وصمة : انا اشي بنسيم عند رغيد ؟ ... اموت جوعاً قبل ذلك !

ناوله نسيم كوباً من الماء وقال : اعرف انك لن تفعل ... واردف مشيراً الى ليلة العشاء في بيت رغيد : لقد انصت الى ردك عليه ويدي ترتجف بالقهوة ... اخبرت امير بالأمر ... وكيف دافعت عن قضية فلسطين وسط استنكار الجميع لافسادك مزاج الباشا رغيد .

... خليل ابتسم بوهن ... حاول ان يقول انه قتل رغيد في لحظة حلم .. ولكن عجز عن شرح امر معقد كهذا ... تمنى ان ينقل لهما حوار الصامت ورغيد تلك الليلة .. ولكن .. قال امير : ماذا بك .. تبدو وكأنك تعمل حملاً في مرفأ هونغ كونغ ... - يا ليت ... يا ليتني كذلك ..

- ماذا حدث ؟ ...  
قال نسيم معتذراً وقد لاحظ عزوف خليل عن الكلام امامه ، وحدث انه يخفي سرأماً : علي ان امضي الآن ...

سأله خليل : كنت في اجازة ؟  
- لا ... بصفتي « معاون ساحر » ، كنت احضر خفاشاً للشيوخ وطفان ... اشتريته نهاراً ، ثم تذكرت ان بوسعي الادعاء ان ذلك غير ممكن الا ليلاً ... وانتهزت الفرصة للحضور ، كما افعل دائماً كلما طلب الي احضار خفاش او جرذ او قنفذ ... لولا الساحر لرسبت ...

- لماذا الخفاش ؟ ..  
- سيكون بحاجة اليه لشفاء « بحرية » احدى قريبات رغيد الزهران ... فقدت اسرتها في الحرب ففقدت النطق وضاع عقلها ، وسيأتي بها لتبنيها ... انه ملاك كما ترى ! .

قال خليل : انه كاذب .. بحرية ليست قريبته .. مجرد تشابه في الاسماء استغله نديم .. اكتشفها في احدى الصحف ، والله وحده يعلم كيف سيستغلانها ... - مبدئياً لتلميع صورة رغيد البشعة ... وبعد ذلك سيوظفانها فيما تصلح له ...

- اللعنة ...
- قال امير لنسيم مودعاً : اذن اتفقنا على موعد انطلاق التظاهرة ... باشرؤا بالتنظيم ... قم بما تستطيع من اتصالات ... وغداً يصحوبسام وقد يقوم بواجبه ... سأتحدث الى خليل بالامر ... اعتقد انه سيساعدنا ...
- انه واحد منا .. انا واثق من ذلك ...
- مضى نسيم ، واقترب امير من خليل وسأله بغتة : ماذا تعاطيت ؟ انك منهار ... ماذا فعلت بنفسك ؟
- الكوكايين ... وقرص دواء منبه لا اعرفه .. اشعر بوجع في حنجرتي كالاحتناق ... منذ الشمة الأولى ذهني شلل في حنجرتي وعجزت حتى عن ابتلاع لعابي ..
- هذه هي المرة الأولى ؟
- اجل ...
- هل خلفتما كوارث قضائية .. اعني متاعب مع البوليس ؟ ...
- لا ... اغتصب صقر عشيقتيه بعدما اقتحم شقته الخاصة ، وساعدته في التهديد بالسكين والمسدس ...
- هذا خطير ...
- انها دمي ... كان يرتدي قناعاً .. كنا نرتديها .. ويريد اللعب ...
- شاركت ؟
- لم استطع ..
- طردك من العمل ...
- سر بتقاعسي .. بدا اكثر فحولة .. اجزل لي العطاء ...
- كوكايين ... هل تعرف ان هذا امر بالغ الخطورة ؟ ...
- اتي منهك ...
- يجب ان نجد لك عملاً آخر ...
- اخرج النقود من جيبه والعلبة الذهبية وكومها على الارض امام امير ثروة صغيرة وسأله : اي عمل يدر عليك هذا في يوم واحد ؟

- سارع امير الى تغطيتها عن عيون الحضور ، وكانوا لاهين عنها بحوار يعلو ويخفت كالهدير .
- تابع امير : وهل انت بحاجة اليها . . . هل ترغب انت ايضاً في ان تكون ثرياً كنديم ؟ .
- لن يضايقني ان اكون ثرياً . . . ولكن . . ليس على هذا النحو . . .
- لماذا الثراء ؟
- نفقات اولادي في المدرسة . . وزوجتي . . ملابسها . . حلاقها . . الفندق الضخم . . سينتهي بي الأمر الى السجن اذا لم احصل على المال . . .
- اهدأ قليلاً . . ستدبر الأمر . . .
- ليتني اجد شقة متواضعة . . واترك العمل عند اولئك الناس . . .
- هذا صعب . . في جنيف لا يؤجرونك شقة غير مفروشة الا اذا كنت تملك اجازة عمل واقامة . . .
- ماذا افعل ؟
- سافكر بشيء ما . . قالها امير وقد لاحظ انهيار خليل واستحالة متابعة اي حوار منطقي بشأن التخطيط لحياته : بالمناسبة ، هل تقضي واسرتك اجازة نهاية الاسبوع معي وبسام ؟ . . . سنذهب بالقطار او الباص الى احدى القرى الهادئة . . .
- اذا سمح لي صقر باجازة . . . لقد افهمني نديم ان اجازاتنا هي مواعيد نومهم فقط . . .
- اسمع يا خليل . . . سأساعدك ، وكي انجح في ذلك اريد منك الا تمس الكوكابين . . . تظاهر بانك تشاركه ولا تفعل ، ريثما اجد لك عملاً آخر . . عملاً شريفاً يدر بالتأكيد نقوداً اقل بكثير . . .
- ساقنع زوجتي بان ذلك افضل لنا . . . لكنني لست واثقاً من انها ستفهم . . . ثمّة شيء آخر مروع نسيت ان اصارحك به . . اظني شاهدتها ونديم في سيارته . . أظنها تخونني . . .
- هل شاهدتها قبل ام بعد تناولك المخدر ؟
- بعده . . .
- لعلك كنت ( تهلوس ) . انك منهك . . . اذهب ونم . . . دعني اتدبر الأمر . . .

فقط ، لا تناول الكوكاكين ولا تبتلع تلك الحبوب . . . في افضل الاحوال ، سينتهي بك الامر الى مصبح ما ، هذا اذا كنت تملك نفقاته . . .

ضغط امير زر التلفزيون وتابع يقول : اننا ننظم تظاهرة عربية احتجاجاً على غزو اسرائيل للبنان . . . الصمت الجماهيري العربي مخجل حقاً . . .

همهم خليل ، ولا يدري اذا كان قد اصدر صوتاً مسموعاً :  
 البعض تبلى . . . والبعض الآخر مقموع وممنوع من ابداء رأيه . . .

بدأت نشرة الاخبار الاخيرة . . . غرق خليل في مستنقع الرمال المتحركة ثم طفأ . . .

غرق وطفأ . . . وشاهد طائرات في مطار بيروت الدولي تشرق وعليها شارة شركة ( الميدل ايس ) المألوفة . . . تذكر انه شاهد الطائرتين تجثمان على ارض المطار لحظة اقلاع طائرته الاخيرة . . . تذكر القصف ، والمطاردة . . . غمره حزن عميق . . . روى ما حدث له لامير بصوت لاهث متقطع . . . روى كل شيء منذ البداية او احدى البدايات . . .

قال الآخر : انها الخطة . . . ان يطارد بعضنا بعضاً بينما يتابعون هم ابتلاع القاتل والقاتل معاً . . .

غمرته من جديد الرمال المتحركة . سمع امير يتحدث على الهاتف طالباً حضور سيارة تاكسي . . قال : افضل ان امشي . . . اشعر اني محاصر . . سأختنق . .

- كيف تمشي ، وانت لا تقوى على الوقوف ؟ . . . اتصل بي غداً ، حين تكون صاحياً ، وستحدث بالتفصيل عن التظاهرة . . .

- سأفعل بالتأكيد .

- لست مضطراً . . .

- انني مضطر . . . كي لا انسى من انا . . .



تناول رغيد طعام الافطار في فراشه . . بدأ بالبيضة التي حملها اليه نسيم من ساحره وعدداً من حبات الحمص . . بيضة مسلوقة كتبت عليها عبارة ما بخط طلسمي . . لم يحاول قراءتها كي لا يبطل السحر . . كان قد طلب من ساحره وصفة لحل المربوط وفسخ السحر ،

فما دام هو يسحر خصومه ، لماذا لا يكون لخصومه ساحر خاص بالكيد له وإيذائه؟  
 ابدى مخاوفه هذه للشيخ وطفان ، فطمأنه . . . وازدادت متاعب نسيم . . . كان عليه  
 ان يحمل الحمص الى غرفة الساحر ، وانه من الرصاص . . . كتب الساحر طلسماً في قعر  
 الاناء ونقع فيه حبات الحمص . . . اما البيضة المسلوقة فكتب عليها في اليوم الأول عبارة  
 « سحرُوا اعين الناس الى عظيم ، فوق الحق ويطل ما كانوا يعملون » ، واكلها رغيد  
 بشراهة ، وكتب عليها في اليوم التالي « اولم ير الذين كفروا ان السموات والأرض كانتا رتقاً  
 ففتقناهما » ، وكتب عليها في اليوم الثالث « كتب الله لاغلبن انا ورسلي ان الله قوي  
 عزيز » . .

وكان لا بد من حمل اناء « السلق » الى الساحر ليكتب في قعره اشياء وطلاسم ، ونسيم  
 ينتقل بين المطبخ وجناح الساحر منهكاً ، ويمعن النظر في قعر الاناء بينما النيران تتأجج تحته  
 والماء يغلي والبيضة تقفز مذعورة ويخيل اليه أن في داخلها صوص ينادي طالباً النجدة من هذا  
 الجحيم ، وحياناً يحس انه هو حبيس تلك البيضة وللصوص الاصفر الصغير وجهه ، ويقرأ  
 في قعر الاناء عبر الابخرة ، ( . . . بطلته عنك بالواحد وما عمله لك الاثنين ابطلته عنك  
 بالاثنتين الليل والنهار وما عمل لك بالثلاثة ابطلته عنك بالثلاثة جبريل وميكائيل واسرافيل  
 وما عمل لك الاربعة ابطلته عنك بالاربعة التوراة والانجيل والزبور والفرقان  
 العظيم . . . ) . . .

ونسيم قلق على اسرته في بيروت ، ولم تصله اخبار اخوته التسعة ولا يدري احياء هم ام  
 اموات ، يركض في دهاليز العصور الوسطى لقلعة الذهب يتلقى الاوامر العجيبة ويلبها  
 ويزيح عينيهِ كلما دخل غرفة الساحر عن الكرة الزجاجية اللعينة ويتذكر شاشة التلفزيون  
 الزجاجية ووطنه يحترق داخلها . . . ورغيد يطلب معونته لارتداء القميص الثقيل الواقى  
 من الرصاص قبل مغادرته قلعته ، وليعلق في عنقه وعلى صدره عشرات التماثيل والادعية  
 والطلاسم التي اعدّها الساحر الاعظم . . . كالآوسمة .

احقاً يحدث هذا في عصرنا ؟ طالما دهش نسيم ، بل انه ظن الامر في البداية نكتة ،  
 لكن امير اطلعه على ان زبائن الساحر يأتون من فئات الشعب كلها . . . سياسيون وقادة  
 وزعماء ، ثوار ورجعيون ، اغنياء وفقراء ، عباقره وحمقى ، راقصات ومحصنات ، عجائز  
 وفتيات . . .

احقاً يحدث ذلك له ؟

منذ أيام حملوه صورة رجل بدوي مهيب الطلعة وطلبوا منه الذهاب الى فنان لنحتها على الشمع الخام ، وفعل ، واول البارحة طلبوا منه احضار لوح رصاص صغير وحتيت . . . وفعل . . . انهم يحرقون دمي الناس لاحراقهم بالحمل ، ويرسمون صورهم على الرصاص ليفتت الصداق رؤوسهم . لطالما فكر بمغادرة هذا المكان قبل ان يرتكب حماقة ، والاقامة مؤقتاً في بيت امير ، بين المساكين والمرفوضين ، والمتعيين ، حيث يأتي متى يشاء ، ويمضي متى يشاء ، ولكنه بحاجة الى المال . . . وقد يضطر للانفاق على اخت جريح في بيروت . . . او جنازة شقيق . . . انه قلق قلق قلق . . . الصحف لا تتحدث عن الاموات هناك الا بالارقام . . . ولكن اهل الضحايا يشتهون معرفة الاسماء حرفاً حرفاً . . . هذا العالم يتابع هذيانه العصري و « العصر - وسطوي » ولا يبالي حقاً بالقيم التي يتشدق بها . . . لا يبالي بالقتيل الا اسرته . . . الكل يتشدق بالانسانية وينسى الانسان ، ويحب شعوب الأرض ويكره الناس . الزعماء يناضلون لأجل الجماهير وينسون الافراد . . . صحيح ، ( لا يمن على العود الا قشره ) . . . تنفس الصعداء حين تأهب رغيد لمغادرة المنزل ، لكنه بدل رأيه فجأة . . . قال انه يريد اجراء مخبرة هاتفية ، وقد يزور جناح الساحر ، والقميص المضاد للرصاص ثقيل يضايقه . . . وكان لا بد من تكرار طقوس خلع الثياب . . . ( اللعنة ، ما اقسى ذل اللقمة . . . ) لماذا اخترت الدرب الصعبة ، ولم اعمل ساحراً مثلاً ؟ اقتني بعض الكتب الصفر وانفذ التعاليم بحرفيتها ، واربح رأسي وجيبي ، ويرضى عني الجميع ، اليمين واليسار ، الرجعية ومعظم الثوار . . . فات الاوان . . . فقد اجتزت العتبة في الدرب نحو خرم الابرة ) . . .

\*\*\*

- يلو نديم . . . ما اخبار خليل عن آل الغنمالي ؟  
كانت له طريقة خاصة في لفظ عبارة آلو . . . يقولها بلا مبالاة فتتحول الى يلو . . . وهذه الـ « يلو » ترعب نديم . تعني ان رغيد غير راض وسيثير المتاعب .  
- صحته غير جيدة . . . هلال يتأهب للسفر ، وهو مصر على تلزيم المطار لسوانا في مناقصة علنية . . .

- نشترك فيها وترسو علينا . . .
- سيتدخل ضدنا . . .
- هل جربت الراقصة ؟
- فشلت ، هلال رجل فاضل حقاً . . .
- يا له من وغد ، لا يحب النساء . . .
- يتزوج بالحلال . . . لم يستطع جواسيسي التقاط نقطة ضعف واحدة نفذ منها إليه . . .
- غير ممكن . . جرب الغرور وحب العظمة . . ارسل اليه بحلوة لتؤدي « ثمرة » الصحافية . .
- جربت . رفض مقابلتها . . .
- دعه يراها . . فقد . . .
- ارسلتها الى قاعة الانتظار عند طبيبه . عرفته على نفسها وطلبت حواراً . صرفها بكل تهذيب .
- وصخر ؟
- عاجز امامه . . . هلال الاقوى . . . الناس معه ، وكلمته محترمة . . صخر يكاد يكون منبوذاً من قومه . . .
- هل يحاول حقاً اقناع شقيقه اللعين ، ام انه غير مبال بمليار جديد ؟
- يقول خليل انه يبدو لا مبالياً . . . انه لا يكرهك ، لكنه فيما يبدو لن يدخل في شجار واخيه لأجلك .
- ساخرب بيته . . .
- كان نسيم ينصت الى المخابرة ( مصادفة ) . . وفرك يديه بسعادة وقال : بدأت حرب الديناصورات . . سأنقل النبأ الى امير .
- هرول رغيد الى ساحره بعد المخابرة الهاتفية المخيبة لآماله .
- ارجوك ، يا سيدي . . . اريد خراب دار العدو الذي كنت اظنه صديقاً . . . لا اريد شئاً أكثر مما اريد ذلك . . . اريد خراب بيت صخر الغنمالي وشقيقه .
- هذا طلب كبير . . سينفذه الاسياد شرط ان يكون عادلاً ومحققاً . . . ما انا الا اداة . . .



انهمرت دموع رغيد وكان قادراً على البكاء حين يشاء لاتفه الاسباب : انه طلب  
حق . . وعادل . . قال الساحر محذراً : لهذه القوى حكمتها وأسرارها . . انا اعمى وهي  
تبصر . . . انا جاهل وهي تعرف . . . ستنفذ المطلوب حرفياً . . . انا وسيط ، وهي  
الصاعقة التي تختار ما تضرب . . انك تطلب خراب بيت الظالم وهلاكه . . وسيكون لنا  
ذلك باذنه ، ولكن هل انت واثق من انه ظالم ؟

- بالطبع . . . انه لا يعمل شيئاً لأجل شراكتنا . . ميزته انه ولد في بلد غني ، وتلك  
صدفة . . . غير ذلك لا شيء . . له نفوذ ، اما الاعمال فأنا انفذها وادبرها واهرول ليل نهار  
ثم يحظى بنصف الارباح . . . والآن يريد التخلي عني ، ولا يبذل اي مجهود جاد للاحتفاظ  
بصديق العمر . . .

- حسناً . . سأفعل . .

- ها انا انتظر . . .

- سيستغرق ذلك بعض الوقت . . .

- سانتظر « ابداً » او « ابدین » او ثلاثة . . . المهم تدمير هلال اللعين . . والانتقام من  
خيانة صخر لي ، ولا مبالاته بي . . .

\*\*\*

جلس الساحر وطفان يكتب صامتاً بالحبر الاسود فوق قطعة قماش حمراء . .  
« . . . ومكروا مكراً ومكرنا مكراً فانظر كيف كانت عاقبة مكرهم انا دمرناهم وقومهم  
اجمعين فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى الا مساكنهم  
كذلك نجزي القوم المجرمين . . » .

ثم اشعل ناراً وبخوراً وجاء صوته من كهف مرعبة ، وهبت ريح باردة من انفاسه :  
« دحا اوف كهل نكر ملود لو يملود كيمل دمصل اهلل ادح اهلل اوهلك » . . . قرأها ١٢  
مرة ، وكل مرة ، كان يبدأها بأحد اسماء الجان ويتلو بقيتها فيما بعد سطرأ بعد آخر على النحو  
التالي ، متبعاً هذا الخاتم ( الجدول السحري ) الذي توارثه عن الاسلاف والاجداد :  
« دحا أوف كهل نكر ماردر لو يملود كيمل دمصل اهلل ادح اهلل اوهلك اوف كهل فكر ملود لو  
يملود كيحل دمصل اهلل ادح اهلل اوهلك دحا كهل نكر ملود ديملود كيمل دمصل اهلل ادح  
اهلل اوهلك دحا اوف نكر ملود لو يملود كيمل دمصل اهلل ادح اهل اوهلك ادح اوكهل

ملود لو يملود كيمل دمصل اهلل ادح اهلل أهلق دحا اوف كهل نكر لو يملود كيمل دمصل  
 اهلل ادح اهلل او هلق دحا اوف كهل نكر ملود كيمل دمصل اهلل ادح اهلل او هلق دحا  
 اوف كهل نكر ملود لو يملود دمصل اهلل ادح اهلل او هلق دحا اوف كهل تنكر ملود لو يملود  
 كيمل اهلل ادح اهلل أو هلق دحا اوف كهل نكر ملود لو يملود كيمل دمصل ادح اهلل او  
 هلق دحا أوف كهل نكر ملود لو يملود كيمل بمصل اهلل اهلل او هلق دحا أوف كهل نكر  
 ملود لو يملود كيمل دمصل اهلل ادح او هلق دحا اوف كهل ملود لو يملود كيمل دمصل اهلل  
 ادح اهلل» .

... كان رغيد ينصت اليه وانفاسه تتسارع وهو يتأمل نصف وجهه في المرأة المقابلة  
 له ، وابتخرة البخور تتعالى وسعل ، وشعر بحرارة الجمر تحت البخور والساحر يذكي اوارها  
 بغرائب الأعشاب والاختشاب واللبن وفجأة انكسرت المرأة وتصادف ذلك لحظة انتهاء  
 الساحر من تلاوة ادعيته الخاصة بـ «البغضة والفراق والاسقام والخصوم وهلاك الخصم  
 وخراب العدو» ...

قال رغيد شبه مذعور : سنبدل المرأة .. لعلها لم تحتمل حرارة الجمر ولهب البخور  
 واللبان ..

جلس الساحر منهكاً، كمن حمل جبلاً وطار به سبعة بحار ...

قال رغيد : هل استطيع ان اطلب شيئاً آخر ...

— قل ...

— لا اريد خراب بيته فحسب ، بل وخراب صحبته وشقيقه التوأم هلال ...

— ولكننا فعلنا ذلك من قبل .

— ارجوك تكراره بطلسم أكثر قوة .. صخر يتحاشى الشجار .

— ما اليوم ؟

— الأربعاء ...

— حسناً . سأنفذ ذلك الآن ...

فاحت رائحة لبان وكبريت وزفت وحلتيت وصبر ومر ، وكاد نسيم يسعل في موضعه  
 خلف الباب حيث وقف (مصادفة) وكان يمر بالمكان ولا يقصد التلصص - كما يؤكد باستمرار  
 للأمير : «لدي شهوة لا تقاوم لمعرفة كل ما يدور حولي ، اجدني ، دوماً مصادفة وسط  
 الأحداث» .. وأخرج الساحر حنظلة وصار يعزم ويكتب فوقها وصوته يأتي ويغيب ...

«هموش مدقهر فشوش . . . مرقوش شقرش شقهورش . . . هموش . . . ما اشنع  
القتل . . . ما اوفر الخريز . . . ما اصعب عزرائيل . . . ما اضيق القبر . . . ما اصعب  
الفراق عبس وتولى كذلك يولي صخر بن صلفة الغنمالي من هلال بن صلفة الغنمالي ان  
جاءه الأعمى كذلك يعمى صخر بن صلفة الغنمالي عن هلال بن صلفة الغنمالي اللهم  
اجعلها في وجهه متعصبة بليدة وعلى ظهرها جلدة فأصابها اعصار فيه نار فاحترقت ثلاث  
مرات اللهم اجعلها في وجهه كلبة جارية بحق اطاريش ابن مارش توكل بهم يا سلغ يا ابن  
ملخ الق بينهم العداوة والبغضاء بين صخر بن صلفة الغنمالي وهلال بن صلفة الغنمالي كلما  
اوقدوا ناراً للحرب اشعلها ابليس بينهم بشره ، وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل  
بأشياهم من قبل انهم كانوا في شك مريب » . . .  
استراح الساحر وطفان قليلاً . . . ثم قال بعد طول لهاث : خذ هذه الحنظلة ، وهذه  
الخرقه الحمراء ، وقل لنسيم ان يدفنها في حديقة بيت صخر الغنمالي . . .  
وانطلق نسيم هارباً مذعوراً على رؤوس اصابعه . . . وقال رغيد : هذا الامر سيتولاه  
خليل الدرع . . .  
— حسناً . . . هل من شيء آخر اليوم ؟ تمثال الشمع هذا ، هل تريد تنفيذ الحكم به ؟  
هل احرقه بعزلة المقابر المهجورة واتلو تعاويذي ؟  
— اجل . . . انها صورة هلال . . الوجه له . . .  
— سأنقش عليها ما يلزم ، ثم يدفنها نسيم « في قبر لا يزار » . . . فيصاب صاحب  
الصورة بالهلاك اذا كان من الظالمين .  
— اشكرك يا سيدي . . . انه لكذلك . . سندفن التمثال في قبر أم لي سبوك . . لقد  
اعلمتني انها لا تزور قبر امها قط .  
— ولوح الرصاص هذا لمن . . . قلت لي انك تريد تسليط الصداع على رأس عدو  
ظالم . . .  
— هذا لتسليط الصداع على رأس صخر . . وجلس الساحر . رسم جدولاً على اللوح  
الرصاصي ، وكتب داخل مربعات الجدول ارقاماً وطلاسم واسماء جان وعفاريت وفي  
المربعات الاخيرة عبارات « اصرعوا . رأس . صخر . ابن . صلفة . » كلمة في كل  
مربع . . . وعند الطرف الايسر للمستطيل رسم ما يشبه الجدول الذي ينبع ويصب من  
الضلع نفسه ، وكتب فيه تعاويذ وأرقاماً : دم مر ٢١١٩٩ . . .

ثم اشعل بخوراً وحتيت وقرأ عليه قسماً ٢١ مرة ، ورغيد مستمتع في جلسته المتأججة  
 حقدًا ولهيأً ، ثم التفت الشيخ وطفان اليه وقال : دع نسيم يدفنه تحت سندان حداد . . .  
 وكلما ضرب الحداد هوت الضربة فوق رأس صخر اينما كان . . .  
 سرى الارهاق في عروق الساحر ، وبدا الوهن في ارتجاف صوته ، فقال رغيد وهو  
 يفرك يديه مبتهجاً : معذرة .. اثقلت عليك اليوم . . .  
 — لا بأس ..

— هل تريد ان اقلك الى الفندق ؟ اني ذاهب الى المطار .. الفندق على دربي . . .  
 — انا اليوم منك . . . لست قادراً على قضاء حاجات الناس . . .  
 — طالما رجوتك ان ترتاح هنا .. وتدعهم وشأنهم .. انهم يرهقونك . . . اولئك  
 الناس وتفاهاتهم . . . الصحفيون وملاحقتهم لك لأجل صفحات الابراج . . . انت الآن  
 ثري وفي قمة الشهرة .. لماذا لا ترتاح قليلاً ؟ . . .  
 — . . . . .

— معذرة . . . علي ان اذهب لاستقبال بحرية .. قريبي بحرية الزهران . . .  
 ارتجف الساحر كأن سوطاً لامرئياً لسعه فوق ظهره ، وسأل بصوت واهن : لم تحضر لي  
 اسم امها لاقرأ طالعتها . . .  
 — اكتشفت انهم زوروا لها جواز السفر . . . اضطر رجالي الى ذلك ، بعدما تعذرت  
 معرفة اية معلومات منها . . . فالبنت صارت خرساء منذ انهار البناء امامها في القصف ودفن  
 اهلها تحته . . .

— اذن لن ندري . . . . .  
 — ستقرأ افكارها . . .  
 — سأحاول . . . . .  
 — وحدهك ؟  
 — لا يطمئنني . . . . .  
 — انها فتاة صغيرة مسكينة . . . . . لن تستطيع ابداءنا . . . على اية حال يمكن التخلص  
 منها في أي وقت . . . . .  
 — لا ادري . . .

— هل حسبت لي موعد سهرة .. ليلة المليار الأول . . . أعني «ليلة العاشق» كما

اسمها ليلي السباك واصحابي . . . . بصفتي عاشقاً للذهب . . .

— حسبت . . . .

— ماذا وجدت . . .

— الثامن والعشرون من ايلول ليلة غير مناسبة . . . رغم رغبتك فيها وتفضيلك لها .

— لماذا ؟

— الافلاك ستكون ضدك . . . .

— ما هو انسب وقت . . . .

— اقرب من ذلك بكثير . . سأحسبه لك . . .

— تأجيل السهرة ممكن . . . وتقريب الموعد ممكن . . . سأطيع كل ما تأمر به . . .

— بورك فيك . . سأستشير النجوم . . وربما (المندل) ايضاً . .

— افعل ما تراه مناسباً . معذرة لانصرافي على عجل . . . نسيت ان اذكرك انك مدعو الى

السهرة بعد اربعة أيام على شرف قريتي بحرية الزهران . . . سأقدمها للمجتمع الراقي . .

— تعرف انني لا أحضر السهرات . .

— اعرف . . . لكنني دائماً حريص على دعوتك . . الى اللقاء . .

— رافقتك السلامة . . .

\*\*\*

بحرية الزهران . . .

صبية جريح ، فقدت النطق فلماذا هو مذعور منها هكذا ؟ . . . لماذا احس بسبخ من

النار الحامية في احشائه حين علم بقرب وصولها ؟ . ستكون هنا بعد ساعات ؟ ما شأنه بها ؟

لماذا سرت ريح حارة اطاحت بأوراقه السحرية وزلزلت غرفته لحظة نطق رغيد باسمها

للمرة الأولى ؟ . . .

لماذا احترقت صورتها اصابعه ؟ . . . لماذا اعادته الى دنيا المخاوف والقلق بعدما كان

هانئاً في جنته بين الشياطين والمردة وإلى جانبه قريته اميرة الجان ؟ لماذا اعادت الزلزال الى

دنياه وهو كاد (يسلو) عنبرة ؟

حاول ان يطمئن نفسه . . . ( ان صورتها تشبه الى حد خارق صورة رفيقتي اميرة

الجان التي اخترتها لنفسك حبيبة وقرينة ) .

لا امس انسية ولا اقرب امرأة الا اذا حلت في جسدها .

(اقترب عمي من المرأة الممددة على الأريكة ، التي توسلت اليه دواء ضد العقم . . . كنت صغيراً ، ربما في العاشرة من عمري ، اتلصص على مهنة السحر بعدما قبلت امي بأن اعمل مساعداً لعمي . . . لقد حضرت الجلستين السابقتين ، حين ابلغ عمي الزبونة ان عفريتاً يجتث رحها ويحب طرده . . . في الزيارة الثالثة طردني بعدما حملت اليه زيتاً وطيباً وبخوراً وكبريتاً . . . ووسط الابخرة ، والادعية التي كان يتلوها وهو يحبس كل عضو من اعضاء جسدها صارت المرأة ترنح كأن عفريتاً يقطنها حقاً ، ثم كتب عمي نوثاً مقلوبة على جبينها وهو يتابع تدليكها حتى موضع اقامة العفريت الذي يمنعها من الحمل ، وتبدل صوته كأن العفريت صار ينطق من حنجرتها ، ومزقت ثوبها ، فاعتلى عمي العفريت الذي يسكنها ، وصارا يهتزان فوق الأريكة ، والأصوات تعلو . . . والعفريت ينوح ويتوسل وعمي يئن ويصارعه ، والمرأة ترنح . . . وحين دخلت امي وشاهدتها بكت وصرخت ولعنت الساعة التي قبلت فيها بالزواج منه . . . فصفعها وطردها من الغرفة ، وطلب منها الا تتدخل يوماً في طقوسه لطرد الشياطين ومعالجة العقم . . . وظلت المرأة تتردد علينا حتى تم طرد العفريت وحملت . . . وذاع صيته . . . وتدفقت علينا النساء . . . وكان لكل منهن علاجها المختلف ، لكنني حين كبرت ، لاحظت ان الجني المشاكس كان يتتقي الجميلات . . . فيضطر عمي لمصارعته عاري اليدين والجسد ) . .

\*\*\*

لجأ وطفان الى حمامه . . . كان يجد في دفء الماء حناناً أسراً يرأف بأوجاع روحه كلما تنازعتها المشاعر الغامضة . . . وداخل بخاره المعطر ، تحنو نفسه على اغواره المترعة بالشهوات المتناقضة والرغبات . . . غطس في الماء الحار المزرق بالأملح والعطور كمن يلجأ الى بحر رقيق . . . لا . . . لن يذهب ثانية الى غانية «شارع برن» حتى ولو تقمصتها حبيبته اميرة الجان . . . سيداوي نفسه بنفسه ( طال بحثي في منطقة «الباكيه» عن المكتبة الوحيدة في جنيف المخصصة لمبيع كتب السحر فقط كما قالت لي عنبرة حين مرت بها مصادفة . لا ادري ما الذي جذبني لمشاهدتها . اخفيت بقية وجهي خلف نظارة سوداء وغطيت رأسي بالعقال وبدوت كأني ثري عربي في عباءتي الحريرية البيضاء المذهبة ، هدية صخر الغنمالي . . . طال تجوالي ولم اجد المكتبة ، ولم يضايقني ذلك . . . كنت محتاجاً

للخروج الى دنيا الناس وملامستهم ، انا الذي نشأت في حي شعبي مزدحم وانتهى بي الأمر الى قصر وفندق فخم العزلة . . . سعدت برؤية ربات البيوت حاملات رغيف الخبز السويسري الطويل كالعصا ، راكضات بأرذاف انسية شهية . . . والاطفال ، يتفجرون صحة وحاساً . . منذ دهور لم امس طفلاً غير مريض . . . وعند تقاطع شارع برن مع احد تفرعاته ، لمحت مقهى رصيف عند نهاية الشارع يفور حياة وصخباً . . اتجهت صوبه وفوجئت بالمكتبة قربيه . . . صحيح انني لا اقرأ الفرنسية جيداً ولكنني افهم بعضها ولا اجهل ايضاً أبجديتها . . . ثم انني عرفت المكان من الكرات الكريستالية المعروضة للبيع في الواجهة الى جانب كتب رسمت على اغلفتها شارات سحرية خاصة لا اجهلها . . . ودمى . . . وتعاويد سحرية جاهزة . . . توقفت احذق في الكتب ، والكرات ، وبقية الأدوات العصرية للتنجيم وللتنويم المغناطيسي ، مثل كرات الفولاذ (الستينلس) وأشكال هندسية اخرى متدلية من سلاسل لها قاعدة تحفظ توازنها بطريقة علمية . . . وبينما كنت اتأملها وافكر بتجديد شباب مهنتي وادخال التكنولوجيا اليها ، وربما شراء بعض الكتب الحديثة وتوظيف مترجم وكومبيوتر يساعدني في حساباتي الفلكية ، لمحت في زجاج الواجهة صورة امرأة تمشي على الرصيف المقابل داخل بقعة شمس . . . كانت بقعة الشمس تحيط بها مثل كرة سحرية زجاجية شفافة مشعة . . . خفق قلبي للرصيف الثاني . . . لم اعد ابصر الكتب امامي ، صرت ارى شبحها حقيقياً أكثر من أي كتاب آخر . . . امرأة الرصيف الثاني تنادي غابات منسية في اعماقي . . . هجرت رصيف السحر ومضيت الى سحرها . . . شقراء ، هيفاء القامة ، باهرة الجمال . . . ذلك السحر الأوروبي الذي نجبه ونذوب أمام دفء وهجه ونتهمه (منافقين) بالبرود . . . قررت ان اتبعها الى آخر الدنيا ، لكنها طلبت مني ان اتبعها الى غرفتها اذا كنت املك ٣٠٠ فرنك ! . . . فمضيت عنها . . . لحقت بي وقالت : حسناً ٢٥٠ فرنكاً يناسبك؟ . . . هرولت راكضاً بعيداً عنها . . . ولم اعد الا بعدما تيقنت من تقمص اميرة الجان لجسدها الخارق البهاء ) .

خلف وطفان في المياه الزرق دفق توتره ، وغادره شبه مبتهيج ، يفكر بمأساته وراثته وربما بحياة جديدة بعيداً عن ذكريات الوطن ومهنة السحر معاً . . .

فوق امرأة الحمام المغطاة بالبخار ، فوجيء بكتابة ما ، كأنها رسالة خطها الجان بالشفرة . . . قرأ عبارة : « فلسطين » وتحتها توقيع والده بهجت . . . وعبارة « لبنان » وتحتها توقيع شقيقه كنعان وغيلان . . . « العرب » وتحتها توقيع شقيقه بركان . صعق ! من

فعل ذلك ؟ انه واثق من ان احداً لم يدخل الحمام . . نسيم ؟ لكنه يخافه ويجهل سره البائس . . . الجان ؟ غير معقول . . . هو يعرف اكثر من سواه ان ذلك غير معقول . . . وحارسه الجني جبار ، الا اذا كان قد بدأ ينقلب عليه ! غير ممكن ام ان ذلك ممكن ؟ ولطول ما عبث بأرضهم وزار مقابرهم وناداهم ظهوروا عليه وقهروا عفريته ؟ . . . فتح باب الحمام ووقف على العتبة مذهولاً . طالما كان حائراً ، فهل بدأت مرحلة اليقين ؟ . . . طالما ظن نفسه حالماً حين يأخذ بيد رفيقته اميرة الجان ويطوف معها في بساتين المتعة واللذة . . . احلام اليقظة التي لها طعم الحقيقة في نفس محروم منذ طفولته الا في الاحلام . . . فهل بدأ الحلم يصير حقيقته والصحو وهماً عابراً ؟ . . . هل ثمة حقاً عالم آخر ، عبث به طويلاً ، دون ان يدري ، وصار من بعض حروفه الخفية وطلاسمه الغامضة السحرية ؟ غير ممكن . التفسير الوحيد المنطقي ، هو انه في غفلة عن نفسه ، مشى كما يمشي النائم وافرغ دخيلة نفسه في المرأة . . . اجل . . . انه هو الذي كتب العبارات ما دام لا تفسير منطقياً آخر لذلك . . . ولكن ، لماذا كانت العبارات مكتوبة بثلاثة انماط مختلفة وخطوط مختلفة ، كأنما كتبها اشخاص ثلاثة سواه ، وكلهم له خط يغاير خطه ؟ . . . انه واثق من ذلك . . . سيأتي بخبير في الخط قبل ان يفقد رشده ! حذق في المرأة ثانية ليتأكد من ذلك . . . كان البخار قد مضى عبر باب الحمام المفتوح . .

وعادت صفحة المرأة فضية محايدة . .

اقلقه هاجس : بحرية الزهران تطأ ارض المطار الآن . يستطيع ان يراها عبر الجدران . . يراها بوضوح ويحس حضورها . . . ولعلها تعي حضوره ، وإلا ، فلماذا كتبت له برقية انذار فوق المرأة ؟ . . .

\*\*\*

تفجر الحر من كل مكان ، كأنه رسالة نارية مبهمة من الصحراء . . . دخل نديم الى المطار بخطى يجلبها الدفء الشرس اللامألوف . . . تنهد بضيق . وقف خلف الزجاج الملاصق لقاعة الوصول في المطار . لقد هبطت الطائرة القادمة من قبرص وبعد دقائق سيرى بحرية الزهران ويعرف هل ارتكب خطأ باحضارها الى هنا ، ام انها ستسهم حقاً في تلميع صورة رغيد أمام الرأي العام العربي ؟ . . العرق يتصبب من جبينه . . حر . . جنيف حارة اليوم كأنما احتلتها رياح صحراوية ، أم هو واهم ؟



شاهد الموظف ترافقه فتاة فارعة الطول . . . وبدت له للوهلة الأولى فتاة خارقة الجمال ، قد يحقق بحضورها اكثر من مغنم . . .

هرع نحو باب الاستقبال . اطلت بحرية . . . مسح العرق المتصبب منه بمنديله الحريري . . . اقتربت بحرية . . . وصلت بحرية . . . هبت من شعرها رائحة الغابات ، وسالت من شفيتها انهار اللبن والعسل ، وطارت العصافير من اطراف اصابعها . . . وامتدت في عينيها آفاق بحر دافئ مسكون بالاسرار واللؤلؤ . . . كان ثوبها البسيط الاسود يكاد يتلاشى عند خصرها الضامر ثم يحتضن استدارة تلال خرافية الوهاد ، ويكشف عن جسد فتى نضر مشدود ، وعن آثار جراح لما تندمل . . . جراح دقيقة تكاد تغطي الذراعين والصدر وما يكشف الثوب عنه من حسن ، جراح دقيقة كالمسامات التي تتعرق دماً ، واحسها نائية . . . ( أهذه آثار جراح الزجاج المتطاير ؟ ) . . . مد يده لمصافحتها . . . لم تصافحه ، وبدت وكأنها تنظر عبره كما لو لم يكن موجوداً . قال الموظف : انها مريضة . . . اخرستها الصدمة . . .

( هذا جيد اعلامياً . ستتولى شفاء هذا الجمال الحزين ) . مشت الى جانبه نحو السيارة حيث رغيد ينتظر وغير مراسل ومصور صحافي من المجلات والوكالات . . . . ليس واهماً . . . ثمة اتون يشتعل اليوم من شمس جنيف كأن رياح الوطن تزفر انفاسها هنا . . . نظر اليها ثانية ، بدت له مختلفة . . . لم يحسها هذه المرة حضوراً نائياً ، بل شعر بأنها قريبة منه ، وانه يعرفها ، ورقصت داخل عينيها صورة امه ، وسمع في تنهدا صوت تنفس ابيه . . . هاجمته صورة الزقاق البيروتي العتيق حيث نشأ ، والبيت القديم الذي ما يزال والداه يتمسكان به . . . واحس بالندم العميق حينها وعى انه لم يحاول السؤال عنها . . . احياء أم اموات ؟ طمرهما القصف أم ماتا جوعاً ؟ . . . اللعنة . . . صحيح انه مشغول ولكن كيف يمكن للمرء ان يشغل عن أشياء تسكنه حقاً وتقطن اعماقه ؟ أي عذاب يحيط به لحظة يعي انه غرق في التفاهات ونسي الجوهر ؟ . . . شيء ما في حضور بحرية كاد يدفع به الى البكاء والندم والخيرة ، وحين حركت شعرها البديع هبت منه هذه المرة رائحة الحرائق والبارود . وحين استلمها رغيد منه مستسلماً بسعادة لعدسات الصحافة من خلف زجاج سيارته المضاد للرصاص ، مضى نديماً الى سيارته مهدوداً ، كمن ضربته صاعقة حارة رعديّة واحرقت زينة اشجاره واوراقها واغصانها ، ولم تترك له غير الجذور المنسية يحرق فيها ذاهلاً : آه كيف نسيت ؟ أمي . . . ابي . . . بيتي . . . وطني . . . اما زالوا احياء ؟ أم قتلهم

شحتني الاخيرة للأسلحة؟ ...

كانه في سيف بيروت .. العرق يتصبب غزيراً منه ، وثمة حجر ثقيل يجثم على صدره  
ويكاد يخنقه .. حجر شاسع مثل «حجر الحبل» في بعلبك .. آه بعلبك ... كيف نسي؟  
كيف كيف كيف حدث ذلك له؟ وما الذي أعاد اليه ذاكرته؟ ... اي سحر مر به ومزق  
الستائر عن ماضيه مثل ضربة سيف عربي في فيلم شاهده طفلاً ... فيلم علاء الدين؟  
السندباد؟ ... ( اني اهذي ... لدي موعد للقاء عمل بالغ الأهمية وانا جالس في  
سيارتي اهذي ... اي سحر لامسني بعصاه اللامرئية؟ ) ...  
ادار محرك سيارته ، وجهاز التبريد فيها ، وخيل اليه ان الماكينات ايضاً اصيبت بالجنون  
ومسها سحر غامض .. والا ، فلماذا يزر المبرد رياحاً حارة وينفخها في وجهه بشراسة؟

\*\*\*

تفجر الحر من كل مكان كأنه رسالة نارية مبهمة من الصحراء .  
فرح نسيم بالدفء ، وفاحت رائحة ارض حيمه كذكرى عبر بشرة الام ... تدفقت  
الرياح غامضة الحرارة لتطرد الصقيع الشيطاني الذي ينسكب ليل نهار من جدران القصر  
ولوحاته ودهاليزه وستائره ... وسارع نسيم الى النوافذ يفتحها وانصب شعاع الشمس نهراً  
من فرح حنون لا مألوف ..  
عبر النافذة ، شاهد السيارة تتوقف . السائق يهرول ويفتح الباب . رغيد ( يرتدي )  
سيجاره ويمد يده ليساعد بحرية على الهبوط ، وهي تهبط دون ان تلتقط اليد الممدودة اليها ،  
وتكاد تتعثر ...  
هرول نسيم الى الباب مستقبلاً ..

كانت الشمس تطل من خلفها ، وتظلل بعض ملامحها ، ولكن هب حضورها في قلبه  
المتخن بالغبية ومر على تضاريس جرحه كالبلسم ... شيء ما في كهارب حضورها يريحه  
ويوقفه على حافة الفرح والاسى معاً ... وحينما استدارت وجلست منهكة فوق اقرب مقعد  
اليها ، انسكب النور من وجهها او عليه ( لا يدري ) ، وشاهد تلك الملامح باهرة الحسن  
حتى الغرابة والفراة ، والانيسة المألوفة حتى انها تذكره بامه وشقيقاته فيغص نسيم ويكاد  
يبيكي ... فيها شيء غامض كأنها في كل لحظة تبدل وجهاً ، ففي النظرة الثانية اليها لاحظ نسيم  
جراحها وكأنها لم تكن موجودة لحظة دخولها ... جراح ورضوض ، كأنما زحفت فوق حطام

الزجاج والليالي عشرة اعوام . . . في النظرة الثالثة لم ير في وجهها غير شموخ قمم جبلية نائية مثلجة . . . حملته ملاحها ورمته به في قرية من قرى وطنه الجبلية ، وهبت روائح اشجار السنديان والارز ، واصابه ما يشبه الدوار . . . وزجره رغيد طالباً منه الكف عن التحديق بالست بحرية ، طالباً منه اعداد الشاي ، واغلاق النوافذ والستائر . . . ونسيم يغادر الغرفة ، رملها بنظرة اخيرة ، فشهد وجهاً جديداً من وجوها . . . رملت رغيد بما يشبه الكراهية ، فتدفق من حضورها بحر عاصف يجتاح الشواطىء ويدمر وفاحت رائحة الامواج في الغرفة وخيل الى نسيم ان الماء المالح يغسل وجهه وهو يغرق ويغرق . . .

حين عاد بالشاي ، دهش وقد جاءه صوت رغيد مختلف اللهجة حتى كاد لا يميزه . . . كان يسألها عن حالها مرتجف النبرات كما لو كهربه حضورها الأسر . . . لم تجب بغير الصمت ، لكن يدها كانت ترتجف حين تناولت فنجان الشاي . رفعت الى شفيتها مستعينة باليد الأخرى ، لكنه سقط على الارض وانكسر . . .

وللمرة الأولى لا يزجر رغيد غضباً لتحطيم فنجان ثمين ( روزنتال ) وإنما سارع للاطمئنان الى ان الرذاذ الساخن لم يحرق قدميها ، وحين اغمضت عينيها فيها يشبه اغماضة اغماء ، صرخ رغيد : اهتف بسرعة الى طبيبي ودعه يحضر حالاً ، وقل للشيخ وطفان ان يهبط الينا الآن . . . هرول نسيم مرتاعاً ، وظل رغيد يتأمل تلك الصبية التي بدت طفلة حين اغمضت عينيها . . . وللمرة الأولى في حياته ، احس بطعم القلق من اجل انسان آخر ، باستثناء والده . . . وشعر ببعض الهلع ، وتذكر امه التي لم يعرفها ابداً . . . امه التي ماتت وهي تضعه ، وخلفته شبه اخرس مع النساء حين يتعلق الامر بحديث القلب . . . ولكنه لم يشعر مرة بالحاجة الى لحظة حميمة مع امرأة . . . فهو يراهن جميعاً ديكرورات حلوة لعالم رجال الاعمال ، اوادوات . . .

مع بحرية ، شعر بالحاجة الى لغة مختلفة ، ووعى في اللحظة ذاتها ( اميته ) الانسانية . . .

كل ذلك وهو يتحسس جبينها المحموم بشهوة مكسورة على حافة عتبة الحنان . . . هل يمكن ان يحدث ذلك له حقاً ، هو رغيد الزهران ؟ . . .

\*\*\*

حدث شيء اذهل نسيم . . .  
 لقد دخل الى غرفة الشيخ وطفان ، فوجده جالساً امام كرتة السحرية ، يحديق فيها كما لو كان يرى عبرها . . . كأنها مجرد اداة للتركيز ، بينما تجوس نظرات الساحر في أماكن أخرى متجاوزة الجدران والمسافات كالحدس والتخاطر . .  
 وفوجيء بقول الشيخ وطفان : اعرف انك جئت تدعوني اليها . . . لقد شهدت لحظة وصولها الى المطار . . . وشاهدتها تلسع بسوط سحرها نديم فتشله لدقائق . . . وشاهدتها في السيارة تتلو تعاويذها بلا صوت وتشل عقل رغيد وتعميه عن حقيقتها . . . وشاهدت كأس الشاي تتحطم بين يديها لوهج سيالاتها الروحية ، لا لسقوطها على الارض كما توهمتها . . . وشاهدت رغيد يبعث بك إلي . . .  
 غادر نسيم الغرفة ولم ينبس ببنت حرقه قلب او ذهول او شفة ! . . .  
 وطمأن نفسه ( لعله كان يتلصص على حضورها . . تلك البنت اللبنانية المسكينة الجريح ، لماذا اعلن عليها رفضه وسحره حتى قبل ان يلمحها ؟ هل يخشى ان تذكره بشيء في وطنه يرغب في نسيانه ؟ ) . . . .

\*\*\*

« اهيמוש مدقهر اهيמוש مدقهر جمرش جمرش قشقوش قشقوش طهيش طهيش  
 قش مهرقش مهرصيبي صيبي » . .  
 وكان الساحر يقرأ ويده سكين كتب عليها هذا الطلسم ٤٣١١٩١٩٤٤١١١١١٩  
 و ١١١١٦١١ هـ ، وقد امسك بيده الاخرى خفاشاً ملفوفاً بخرقه اودعها ثلاث ريشات حمام وفلفلات وثلاث اوراق كزبرة ، وذبحه . . ثم وضع الجميع داخل كوز فخار . رن الجرس ، وطلب من نسيم وضع المزيج في الفرن حتى الحرق ، ثم اعادته .  
 وحين اعاده نسيم ، بخر الساحر الاناء من جديد ، وعزم عليه ، ثم اخذ منه مقدار قمحة ، وطلب من نسيم ان يدسها في طعام بحرية فرفض قائلاً : لا اقدر . . .  
 قال وطفان : لكني أمرك . . .  
 اكد نسيم الرفض معتذراً : اخشى ان يصيبها سوء واتورط مع البوليس السويسري . . .  
 واردف وهو يتجه صوب الباب لمغادرة الغرفة : افعل ما شئت بنفسك . . قال

الساحر : لن يصيبها اي سوء . . هذا طلسم للمحبة ، اذا تناولته فارقتها عدوانيتها نحونا . .

- ولكنها ليست عدوانية . . . انها صبية مريضة دمرتها الحرب . . . لماذا لا تدعها وشأنها ؟

- لانها لن تدعنا وشأننا . . . لقد زرعها خصم قوي لنا ، وستجلب دماري والباشا وكل من حولها . . .

- انا شخصياً اطمئن اليها . . المسكينة وصلت البارحة فقط منهكة . . دعوها وشأنها .  
وغادر نسيم الغرفة نصف مشفق على الشيخ وطفان ( انه فيا يبدو مصاب بجنون العظمة والاضطهاد معاً . . ولا ادري ما الذي استفزه في بحرية المسكينة ) . . .

\*\*\*

كيف ادس في طعامها طلسم المحبة بنفسي ، وانا لا اجرؤ على الدخول الى غرفتها ؟ . .  
كيف اقول ذلك لنسيم ؟ . . . من يصدق اني اخشى هذه المجنونة الصغيرة ، التي تدعي فقدان النطق وهي ليست بخرساء . . . كيف اقول لهم انني لا اجرؤ على ان ادس في طعامها بوصفة للمحبة ، علها تحبني وتشفق علي وتكف عن تعذيبي منذ وصولها الى جنيف . . بل قبل ذلك . ( غادر رغيد الغرفة البارحة وخلفني وحيداً معها لأقرأ عليها تعاويذ تبعد الكوابيس عنها ، كي لا تصرخ في الليل ثانية وتوقظني وتوقظه . . . وتزرع بصرخاتها المخاوف والقلق في حياتنا . . . لم نوقظ نسيم ، ولعله لم يسمع صرخاتها في جناح الخدم بالطابق الأول والا لحضر بالتأكيد . جلست امامها . . كان الطبيب قد خدرها وغادر الغرفة . . . يا لجمالها . . سبحان الخالق كم تبدو وديعة وهي نائمة كم تشبه قرينتي اميرة الجان ، كأنها تقمصت جسداً انسياً . . . فجأة فتحت عينيها وحدثت في وجهي . . لا ادري لماذا غمرني حزن عميق . . . بدأت اقرأ تعاويذي لاعادة النطق الى هذا الجمال الخارق . . . وانا اقرأ شعرت بأن قواي تخونني ، والجان ينحسرون عني ولا يشدون بأزري . . . لم اشعر بالسطوة كعادتي ، بل ازددت وعياً بحقيقتي . . . كنت اقرأ واقرأ واكاد انسى انها امامي واعني كم انا مسكين ووحيد ، سليل اسرة فقيرة من السحرة كانت عفيفة الكف وكنت جشعاً . . كم حاولت مصيراً آخر كاخوتي ، وفشلت ، وكم مارست السحر على مضض وانا اكتب اشعاري سراً فوق الرياح والظلمات والنسيان . . كم انا

جبان ، يخيفني عمي ، وتخيفني بيروت ، وكم انا وحيد بعدما احرقوا كل شيء . . كل شيء . . ولم يتركوا لي غير كتب الاسرة العتيقة التي طالما رفضتها من قبل . . احرقوا كل ما لمسوه . . احرقوا كل من احببت ومن كرهت ولم يخلفوا لي غير وريقات الاجداد الصفر . . فهل كنت املك غير اللجوء اليها ؟ . . والآن ، وانا احاول مداواة انسية غامضة ، ماذا املك امامها غير تلك الكتب العتيقة التي قرأت فيها بعد ، وتعلمت ونفذت تعاليمها حرفياً دون ان ادري ما اذا كنت احبها ام لا . . قانعاً بها ، ام لا . . لم اغربل خيرها من شرها ، ولا منطقها من سخيفها ، حملتها كما هي ، وحافظت عليها كما هي . . لم يتركوا لي خياراً آخر . . لم يتركوا لي سواها ، ولم يتركوا لي طاقة لمراجعتها . . منهكاً كنت ، كفريق لا يستجوب اليد التي تتشله ولا يناقشها . . بل ينفذ . . وكنت انفذ ، وشياطينها تعاكسني . . تابعت قراءة تعاويذي لاعادة النطق الى هذا الجمال الخارق . . وارتجت الارض فجأة ، وانطلقت الشمعة وعم الظلام وشعرت بانني سقطت في بئر ، وجاءني صوت العفريت الذي يسكنها مقلداً صوتاً مذكراً لا اذكره ، يدعي انه ابي ويروي لي كيف مات في فلسطين حين انفجر المدفع بين يديه وهو يحشوه بالسلاح الفاسد . . ثم جاءني صوت اخي غيلان ، وهو يروي لي كيف قتل على شاطئ نهر ، وبعض رفاقه ، وكم تعذب ونزف وحيداً وضربه الاسرائيليون فوق جراحه ، ثم تبدل صوتها وكأنها مسكونة بعشرات العفاريت وجاءني صوت كنعان يعوي ألماً والدبابة تطحنه داخل عجيئة السيارة ، فصوص برقان يروي لي مصرعه . . كيف قتله اعز صحبه خوفاً من وشاية لم يكن ينوي القيام بها . . وكم آلمته الرصاصة التي استقرت في بطنه وراحته التي استقرت في اذنه . . ثم اشتعلت بحرية في الظلمة ، وصار لها وجه امي وهي تنتحب وتحرق . . وتلهب امام عيني من جديد . . فهجمت عليها ، وعزمت ، واستدعيت ملوك الجان ، وقيدتها بسحرهم ودهنت جسدها بمراهم وعقاقيري ، وعلي في المرة القادمة غسلها بدم الطيور وانا ارقبها بالبخور ، حتى تهدأ عفاريتها اللامتناهية الاصوات والوجوه . . اجل . . سأطلب من نسيم إحضار دم ناقة ودم طيور واقيم الطقوس الخاصة بطرد الجني منها . . غادرتها ملطخاً بالمراهم والعرق ، اغتسل واتساءل : من يريد هلاكي ؟ اي جني حقد علي فارسل لي هذه الجثة الآدمية التي تنطق بألف لسان ولسان ؟ . . في البداية ارسلوا خليل هلاكي وها هم اليوم يبعثون بسحر اقوى في جسد مستكين بكليته لهم . . ولكن لعلها مجنونة ، ومن الافضل ان اداوي جنونها . . ولكن ان كانت مجنونة لا اكثر ، فمن كشف لها اسراري

واطلعها على سر عذابي ؟ ام ان الاصوات كانت تأتي من حنجرتي وانا ساقط تحت سحر نظرتها المظلمة البياض القاتلة ؟ . . هل انكشفت بصيرتي فجأة امام ماض هربت منه ؟ ولماذا يحدث لي ذلك مع وصولها ؟

ما هي بحرية تلك ؟ انسية ام جنية ؟ صديقة ام عدوة ؟ . . ولماذا تعذبني هكذا ؟ ولماذا حدثت خطرها لحظة سمعت باسمها وشاهدت صورتها في الصحيفة البيروتية ، كأنني اعرفها منذ دهور ؟ . .

يجب ان يحضر لي نسيم دم إبل وطيور . . . وسأجرب معها تعاويذ طرد الجان . . . وسأجرب علاج الجنون . . سأحاول كل شيء دفاعاً عن نفسي امامها والا احرقني بسحرها ودمرتني لأهيم في ارض الجان لا حول لي ولا قوة ، ذليلاً عاجزاً عن مغادرة المرأة الى الابد ، والخروج الى عالم الناس . . لن ادع تلك الانسية المجهولة باهرة الحسن تدمرني . .

ربما كان من الأفضل تأمين دماء الطيور والابل دونما معرفة نسيم . . سأطلب ذلك الى رغيد مباشرة . . فنسيم الاحق لا يؤمن بي ، ولا يلحظ انها منذ وصولها احتلته بجني صغير ووظفته خادماً لها . . انها خطيرة . . خطيرة . . وسأقنع رغيد بضرورة زراعة التباريد بين جلده ولحمه لتحميه منها اذا داعبته وعرته من تعاويذي المزروعة في ثيابه . . سأفهمه ان التباريد في السحر المغربي تحمي الرجل حتى من الموت اذا اصيب بالرصاص . . وهي تعاويذ لا يتجاوز حجمها حبة الفستقة ، ولن يؤلمه كثيراً زرعها تحت جلده . . واذا كان جباناً يخشى الألم ، فليزرعها له طبيب السويسري المعقم بعد تحذيره . . سأذهب اليه الآن واحذثه بالأمر . . )



ما زال الحر يتفجر من كل مكان كأنه رسالة نارية مبهمة من الصحراء ، ولا حديث لوسائل الاعلام في جنيف الا عن موجة الحر ( الكانيكول ) التي ضربت هذا الصيف ١٩٨٢ محطمة ارقاماً قياسية لم تشهدها البلاد منذ ربع قرن . . والسهرة عامرة ، والراقصة تتلوى جميلة افعرانية معتقة ، ولعلها نصف هرمة ، كأنها كاهنة العشق المحموم منذ دهور وفيها ما

يتجاوز الزمن الارضي . . والعرق يتصبب منها . يتأملها رغيذ دون ان يراها . .  
 عيناه مملكتان بصورة بحرية ، بجمالها الخزين المكسور وجراحها الساطعة ، وفصاحة  
 عجزها عن النطق ، وصراخها المذعور ليلاً وهي تعبر كوابيسها وحيدة دون ان يملك الطبيب  
 لها شيئاً غير الادوية المهدئة والنومة ، ودون ان يملك الشيخ وطفان غير تعاويذه وذبائحه  
 والدم الذي يغطي به جسدها الخرافي البهاء في ظلمة البخور واللبن ونبض عتمة المخاوف  
 والقلق . . آه ليتها تشفى وتنطق . . لم يعد يعرف بالضبط ما الذي يريد منها . . يريد ان  
 تكف نائبة هكذا . . غامضة ، وحزينة وطفلة هكذا . . يريد ان يجد ثقباً في روحها ينفذ منه  
 اليها بطريقة ما . . لا يدري كيف يمتلكها . . لا يدري اذا كان حقاً يريد ان يمتلكها ككل  
 شيء آخر عبر حياته ، ولعل قلقه الفاحش امامها ليس اكثر من شهوة مطلقة للامتلاك . .  
 لا يمتلكها هي . . هي المطلق والبساطة . . هي بحرية . . وفيها شيء يتجاوز حسنها الباهر  
 زرع الاضطراب في روحه منذ وصولها . . شيء يجهل اسمه لكنه يؤثر في كل من يراها  
 بطريقة ما : خليل . . نديم . . ليلي . . كفى . . نسيم . . كلهم وسواهم احسوا بما يشبه  
 الصدمة الكهربائية امام حضورها حين دفعهم الفضول للمجيء وتنهشها ( بالسلامة )  
 واحداً بعد الآخر . . هل هي حقاً مسحورة كما يؤكد الشيخ وطفان ؟ هل حلت فيها روح  
 شيطانية جاءت تدمره ؟ وان كانت كذلك ، ما الذي يجعله يتمسك بها ولا يطبق فكرة  
 إبعادها رغم ايمانه بالسحرو بصدق وطفان ؟ أهذا هو السحر ؟

الراقصة ما تزال تتلوى جميلة افعوانية . يتأملها نديم بنشوة رغم انه يعلن باستمرار في  
 المجتمعات الراقية انه يحب الباليه ويكره رقص هز البطن . . المدعوون يصفقون ثملين  
 والاحتفال قائم ، لكن المحتفى بها لن تحضر الحفل . . شعر رغيذ ببعض الامتعاض . .  
 كان يرغب في تقديمها للناس ، لا لتشيد المجلات في صفحاتها الاجتماعية بكرم اصله ،  
 وحسن وفادته لقريته اللبنانية الجريح التي ابعد اهلها ، كما كان ينوي ، ولكن لانه صار يجب  
 ايقاع حضورها الى جانبه حتى ولو كانت قبلة موقوتة . لقد احضرها كي يمتدحه الناس  
 ويقولوا : صحيح انه ليس لبنانياً ، لكنه يرعى فروع الاسرة في اي قطر عربي آخر ! . .  
 وها هو يكاد ينسى السبب الاساسي لاجتماعها . . على اية حال ، اشادت الصحافة به يوم  
 استقبالها في المطار ، ونشرت صورهما معاً . . لم يغادر يومها سيارته المصفحة لضرورات  
 امنية ، لكن الصور كانت جميلة عبر النافذة ، على اية حال ستشر المجلات الصديقة بعض  
 مشاهد الحفل ، وسيذكرهم بضرورة تدوين المناسبة . يجب الا ينسى مصالحه . . والمليار الثاني



الذي ينوي جمعه كفيل باعادته الى جادة الهدوء البارد والصواب . . . فلينس بحرية وليهتم بشؤونه . . . اخرج من جيبه آلة تسجيل صغيرة ، وضغط على زرهما مسجلاً الامر . . . وقد الصقها بفمه ، حين هاجت الراقصة كما في الزار ، وبادلته الموسيقى جنوناً بآخر . . . هكذا هو طوال النهار ، يملأ الشريط بما يمر به من اوامر ، ويتولى نديم التنفيذ . . . لي ليست سيئة ايضاً . . . هي التي تعهدت توضيب السهرة ، وكل شيء مدهش . . . الراقصة العربية المعروفة التي جلبتها من بلدها . . . والمطربة الكبيرة التي ( تصادف ) انها تغني في باريس ، فطارت ليلة تمارضت فيها خصيصاً لحياء السهرة ، بعدما افهمتها ليل ان رغيد بك سيعوضها عن اجرها من الملهى ، ومن عشيقها الثري ، وحصيلة ( الشكشكة ) حين يدس الزبائن المعجبون بالنقود بين نهديها .

لأجل تجديد الأواني الذهبية والفضية احضرت لي فريقاً خصيصاً لتلميعها قبل الحفل . . . فبدا القصر كتلة مشتعلة من وهج الذهب المطعم بالفضة . . . افضل ما في لي انها تعمل بسرعة ، ولا تخلف بقايا . . . لقد استطاع انتزاعها من امير ، ولا بد من امتلاكها مرة ، مرة واحدة فقط . . . لا يجب الا الصبايا الصغيرات ، ولكن للضرورة احكام ، وسيكون جسدها ساحة حرب لا اكثر يسجل فيها نصراً إضافياً على امير . . . سيغرس راياته فوق التلال والوهاد التي طالما جاس فيها امير وقبلها قبله العاشق لارضه . . . سيعلمه ان لا شيء مقدساً ، والكل سواء . . . والشيطان هو نفسه الملاك ، ولكن زاوية الرؤيا هي وحدها التي تختلف . . .

ثم ان لي لا تبدو سيئة كأنتى . . . صحيح ان سر اهتمامه بها يرجع الى انها كانت حبيبة امير . . . ولكنها بحد ذاتها ليست رديئة . . . ذوق امير في النساء افضل من ذوقه في السياسة . . . وهي تبدو بالغة الجاذبية . . . ماتت امها ونسى ان يعزيمها . . . ليته فعل . . . بوده ان يرى وجه امرأة قوية مثلها يتألم . . . ان متعته وهو يقرب احزان الآخرين لا توازيها متعة . . . صحيح ان احداً لا يحب ، وهو وحيد ، ولكن ذلك بالتالي يحصنه ضد الحزن الذي يجلبه لنا الاحباب حينها يمرضون او يموتون . . . من المحزن ان نحب انسياً قابلاً للموت ، ولكن ذلك لم يحدث له من قبل لحسن الحظ الا فيما يتعلق بحبه لنفسه . . . حتى بحرية ، لا يستطيع ان يسمي شعوره الغامض نحوها حباً ، ولكنها بالتأكيد تزرع القلق تحت جلده ، « كالتبايريد » التي زرعها هذا الصباح في لحمه تنفيذاً لنصيحة ساحره . . .

العرق يتصبب من جسد الراقصة ، وتبدو شهية كأنها في رقصتها خلعت عن جسدها

عشرة اعوام من عمرها في طقوس سحرية . . يلتف حولها جمع من مدعويه . . هذا شريكه الممكن لمشروع جر المياه في احد الاقطار يبدو راضياً . . والآخر شريكه الحالي في بواخر نقل النفط . . والثالث صقر الغنمالي . . يجب ان يرقب معجبيها ، فقد يوظف الامر في صفقة ما . . صقر انسحب سريعاً . . لعله لاحظ انها في سن والدته ، وعاد الى موضعه عند قدمي كوكو . وعادت الراقصة لتتوسط الحلبة بعدما طالبوها بالتجديد . . ها هي ترقص وصقر لا يرفع عينيه اليها . . من الواضح انه معجب جداً بزوجة خليل وهذا امر يمكن ايضاً توظيفه لصفقة المطار اذا توفي الشيخ صخر مثلاً فجأة او في حادث . . اجل كأنه مغرم بكفى التي اختار الحضور لها اسم الدلع اللائق بها « كوكو » واعترضت لأن « كوكو شانيل » نحيلة وبشعة ، واصر الحضور على ان لها ذكاء كوكو واناقتها، وتم تعمد الاسم بزجاجة شمبانيا . . كان يرقب خليل . . لم يبد راضياً عن تحويل زوجته من كفى الى كوكو . . اللاحق . . يبدو من ذلك النمط ( العنيد والغبي ) من الرجال . . هذا مؤسف لانه ذكي وبريء مما يؤهله للحلول محل نديم وقت يحين الآوان . . يتذكر مشهداً مماثلاً منذ حوالي خمسة عشر عاماً . يوم تم تعمد دنيا نجمة مجتمع ، واسموها ( دادو ) . . انها تبدو ذابلة مؤخراً ، فارقتها سرعة البديهة وسحر الحضور . . لعلها عاشقة ، تحب شاباً في سن ابنها . . لا بأس ، ستدفع ، وسيطع ، وستنتعش ثم تنسى . . ام تراها استهلكت نفسها وانتهى الأمر ؟ . . جميلة حقاً هذه الـ ( كوكو ) ، متألفة سعادة ونشوة في الثوب الذهبي الذي اهداها اياه خصيصاً للسهرة ، وبعث به الى فندقها ضمن اطار خطة رفع مستوى الاناقة لدى زوجات موظفيه الجميلات ، لأغراض كثيرة ، هي في اسوأ الحالات للتباهي بأن زوجات موظفيه ومساعديه يرتدين ثياباً افضل من زوجات موظفي الآخرين . . وخليل ( محسوب ) عليه رغم انه ( رسمياً ) يعمل مع صقر . . ونديم كان اول من قدمه للناس بناء على اوامره هو . . احب يومها اجراء تجربة مصغرة هناك قبل ان يغامر بدعوتها . . وها هي كوكو تحتاز اختباراً بعد آخر بنجاح . . الثوب الذهبي اشعلته بوردة حمراء . . وقد رشت شعرها برذاذ الذهب ، وبرزت سحر عينيها بماكياج شفاف ذهبي . . ترى ماذا تفعل كوكو اذا علمت انها صارت جزءاً من اللعبة، وساحة من ساحات اثبات الفحولة الذكورية، وفحولة المال والوجاهة؟ . . لعلها تستمتع، ولن تفهم ( ايدولوجيا ) اللعبة . انها ذكية بما يكفي لتجميل نفسها ، وامتلائها دوماً بسعادة خارقة امام اعجاب الرجال بها . . انها فرحة ونصف حمقاء . . ومن الواضح ان خليل يرى

ذلك بوضوح ، ويبدو مهموماً ، وذلك يزيد من جمالها في عينيه . . اجل ، سيتذوقها مرة كصاحب مطعم يتذوق الطعام قبل تقديمه للآخرين . . لن يكتفي ( بتقرير ) نديم حول الامر ، رغم تأكيدات انه قادراً على التهام شباب صقر في اسبوع . . وبعد كل ما بذله نديم يومها لانجاز المهمة ، بدت وكأنها تنتظر منه ان يبدأ من جديد كما روى له مذعوراً وهو يتوسل جرعة من الشيخ وطفان تعينه على لقاء آخر . . سيجربها بنفسه وسيستعين بخبرة الشيخ وطفان ووصفته التي لا تناسب مرضه . . اللعنة على مرض الضغط . . نسي ابتلاع قرص الدواء . . اخبره من جيبه سراً . . لا يجب ان يلحظ احد انه مريض . . عليه اقناعهم جميعاً بأنه سيعيش ابداً ، والا هربت المشاريع . . وعندها - يا للمصيبة - لن يكون في مقدوره جمع المليار الثاني . . تأكد من ان القرص كان في موضعه المختوم من الورقة . . انه يشك بالناس جميعاً ويخشى ان يستبدله احدهم بقرص من السم . . ثمة من سيقتله ، ولن يجعل الامر سهلاً . . وهو يزيد من تدابير الامنية يوماً بعد آخر ، ولم يعد يثق حتى بنسيم . . وضيوفه لا يدرون انهم يمرون داخل دهليز خاص بكشف الاسلحة ، يقبع موظف خلف ستارته المخملية لأنهم يكونون مشغولين بتأمل التحف الذهبية على الجانب الآخر . .

انتهت الرقصة . . الجميع يصفق باستثناء خليل . . ( لا يعجبه شيء هذا الشاب الفج ) . . صقر يصفق لجمال كوكو وعينه لا تغادران تلالها الشاخنة . . اللعنة ، انتهى الرقص وضجيج الموسيقى ، والآن يبدأ الكلام وعليه ان يحدث الجميع ولا يقول شيئاً لأحد ، وينصت لكل الهمسات التي لا يفترض ان يسمعها . .  
- اين ضيفة الشرف ؟ . .

- اصيبت بنكسة فاضطر الطبيب لحقنها بكميات كبيرة مهدئة من الفاليوم ، لم يكن يكذب ، لكنه لم يقل لهم ايضاً انه ترك ساحره وهو يعالجها بدم الخفاش والابل بعدما غادرها الطبيب ، ( غطى وطفان جسدها شبه العاري بالدم وهو يقرأ تعاويذه ويرتجف لقوة العفريت الذي يقول انه يسكنها ونسيم يرتجف غضباً كأننا نغتصب اخته ، ولعله كان سيضربه لو لم اسارع لطرده من الغرفة . . هذا العصبي لا يؤمن بالسحر ولا يفهم شيئاً عن القوى الأخرى الغامضة التي تتحكم بهذا الكون . . يظن « رأس المال » وحده المفتاح . . )

بدا صقر ثملاً بحسن كوكو ، فاتجه اليه رغيد ، واخذه من ذراعه وقرر ان يطلب

مساعدته بخصوص قضية المطار . فمن المتعارف عليه في مناخات كهذه ان كوكو تخصه ، وبدون رضاه لن ينال صقر قزعة من وصاها . . انها تقاليد دنيا رجال الاعمال ! . . ومشيا نحو الشرفة . . . صقر يفكر بكوكو ، ورغيد بالمطار ! . .

وما كادا يخطوان حتى التف حولها عقد جديد من المعجبين الذين له مصالح معهم ( انها كنز . . تذكرني بدنيا القديمة . . اما لي فشيء آخر ، ومن الواضح انها ترفض ان تكون دمية او لعبة وتطمح الى ان تكون واحدة من اللاعبين . . انها ذكر مسجون في جسد انثى . . ) تضايق رغيد لان صقر شاهق القامة ، وهو لا يحب المشي الى جانب من هو اطول قامة . . واقترح ان يجلسا قليلاً . . وسأله عن سبب غياب والده الشيخ صخر فقال : انه مصاب بصداغ أليم .

حلقة اخرى تحيط بالمطربة الشهيرة . . كان خليل قد شاهد صورها فقط ، وذهل وهو يراها عن قرب ، شبيهة بمومياء مطلية بالدهان الابيض وفوق رأسها (باروكة) من القش الاحمر . . هرب بعيداً عنها . . التقت نظراته بعيني دنيا . . شيء ما في هذه المرأة يشده اليها . . شيء ما يميزها . . يرى النساء في هذا الحفل وكل حفل آخر متشابهات جداً . . مازال يعجز عن التمييز بين واحدة واخرى ، كأن لزوجات الأثرياء كلهن وجهاً موحداً تفرضه الموضة على الشعر والوجه . . بل ان لهن وجهاً موحد التقاطيع يفرضه طبيب التجميل على الانف وعلى بقية ملامح الوجه لدى شذها . . ولهن كلهن التعبير ذاته : السرور البالغ المصطنع ، والود الشديد الكاذب ، والتظاهر بالانصات الى الآخرين بلذة بينما كل منهن تتجول وحيدة داخل خزانة ثيابها . . وتقارن . .

دنيا بدت له مختلفة منذ اللقاء الأول ، وكل لقاء يؤكد هذا الانطباع . . تبدو الليلة حزينة ونائية ، انجبه نحوها ، وكانت تتحدث الى ليلى وظل من النفور المتبادل يخيم على وقفتهما . . سارعت ليلى الى الانسحاب ، قبل وصوله بلحظات . . انها متوهجة وبارعة الذكاء ، ولعلها لا تريد شهوداً على الحوار . . دنيا ذابلة ، تقطر حناناً وهي تحديق في وجهه : كيف حالك ؟

- كحالك . .

شعر انه يستطيع ان يجبها ، اذا رمقته ثانية بتلك النظرة الدافئة غير المزيفة . . انه لا يستطيع ان يقاوم نظرة امرأة ناضجة حنون كما تنهمه كفى . . ولعلها على حق هذه المرة على الاقل . .

- تبدين غير سعيدة . .
- وانت ايضاً . . لا تبدو في قمة السعادة . .
- نبشت احزانه . . ما اعظم خبث النساء ، كلمة واحدة ، ويتبادلن الادوار معك . .
- يستجوبن القاضي والمدعي العام وهن جالسات باسي في قفص المتهمين ! . .
- سألته مؤكدة : هذا ليس عالمك . . .
- لا . .
- تهدت : وليس عالمي . . انت مازلت قادراً على الانسحاب . . انا تورطت . .
- الانسحاب ليس سهلاً . . ثم ، الى اين اذهب ؟
- تعود الى بيروت حين تتوقف الحرب . .
- لكنني لم اجيء هارباً من الحرب . .
- كيف ؟
- اضطررت للسفر . . اني هارب من حرب القمع . .
- في بيروت ؟
- اجل . . كنا نخشى على عروبة لبنان ، وكى نؤكد لها قرر البعض ممارسة القمع
- كمعظم بقية العرب ! . .
- لم تعد عروبة لبنان وحدها على المحك ، بل عروبة بقية العرب ايضاً . . ان احداً من
- القادرين لم يحرك ساكناً . .
- انه امر مخز حقاً . . ولم نعد نجرؤ على الافصاح عنه . . صرنا نقتل بيد اصدقائنا قبل
- اعدائنا . .
- هل تعرف ان الذين حاولوا اغتيال امير النيلي لم يكونوا اعداءه ، بل اصدقاء الامس ؟
- اعرف . .
- وخلافه معهم كان بسبب الحرية . . لقد تجرأ وانتقد ممارساتهم الارهابية من موقع
- المحب . . قال انهم يحررون الوطن ولكن من الحرية . . فحاولوا تحريره من حياته !
- اعرف . .
- بل ان اعداءه قرروا السماح لابنه بالمجيء لزيارته . .
- انها خطوة ليبرالية المظهر المقصود منها خلق وهم ( الديمقراطية ) . . والتظاهر بأنهم
- يعاملون الناس بالتساوي . .

- ولكنهم لم يحاولوا قتله وابنه . .  
 - انهم يذكرون نار الخلافات ليدفعوا بسواهم الى تنفيذ ذلك . . حتى اذا انهار كل ما  
 بنيناه ، حتى ولو ثبت لنا ان المرحلة الماضية كلها كانت خاطئة لكنهم ليسوا بالبديل . .  
 - ولكن ، كيف نطالب الآخرين بالوقوف الى جانبنا ، ونحن لا يقف احدنا الى جانب  
 الآخر ؟ . .  
 - نحن ؟ كنت اظنك بعيدة عن ذلك كله . .  
 - وانا ايضاً توهمت ذلك . . . ولكن . . .  
 - اننا ننظم تظاهرة للعرب في جنيف احتجاجاً على غزو اسرائيل للبنان ، ولا مبالاة  
 معظم العرب ، هل تشاركين فيها ؟  
 - لا اجرؤ . . اتمنى . . سأحاول . .  
 - هذا جيد. اذا لم اتمكن من الاتصال بك ، اتصلي بامير النيل . . ساعطيك رقمه . .  
 - اعرفه . .  
 - كيف ؟ . .  
 - كنا صديقين كما ذكرت لك قبل أن أمضي في درب اخرى . . اعرف رقمه ، بل  
 وعنوان بيته . . وقد ذهبت اليه أكثر من مرة ولم اجرؤ على الدخول . . اظن ان نسيم لمحيي  
 ذات يوم . .  
 اضافت بمرارة شبه ساخرة : هل تعرف انني كنت واحدة من ( المناضلات ) لتحرير  
 المرأة العربية ، وكنت رسامة هائلة ، وكنت . . وكنت . . .  
 بدأت المطربة تغني مترنحة فوق صدر ثري عربي وهي تدله : غالي يا الأسمر غالي /  
 غالي يا شاغل بالي انت الحبيب الأول / وانت اللي غيرك مالي .  
 تقفز خليل لهذا النمط من التسول الغنائي المكرر والممجوج لكنه تابع ودنيا حوارهما  
 هامسين وسط صخب المجموعة وزعيق الذين استخف بهم الطرب . . ونهضت كوكبة من  
 المدعوات ، احطن بالمطربة ، نافسن الراقصة هزاً بالارداف والنهود ، وتمايلاً ، وعلى  
 رأسهن كوكوالتي بزت الراقصة المحترفة وسرقت النظرات والشهقات والشهوات ، ولاحظ  
 خليل زوجته تمارس ( رياضتها المفضلة ) ورغيد يرقبها بجذل ، وصقر يلتهمها بنظراته  
 ويفرك انفه نشوة ( لا بد وانه استرق شمة كوكاين على الشرفة . لعل رغيد ضيفه بها قبل ان  
 يشعل السيجار لنفسه ) . .

خليل قال لـدنيا متجاهلاً قـرفه من سلوك زوجته : وماذا حدث لذلك كله بعد زواجك ؟

- ظننته انتهى .. ولكن ...

- اين الرفيقات ؟

- منهن من تفرغت للانجاب ، او الاثراء .. ومنهن من تابعت .. ليل مثلاً .. ظلت اصيلة ، ولا ادري ما الذي بد لها .. انها تحاول اليوم ان تكون ثرية وعبدة مثلي ، لحظة بدأت احاول ان اكون مثلها ! ..

- كنتما تشاجران ؟

- تقريباً .. سألتها عن امير .. صار اسمه يستفـزها ..

- وبقية الرفيقات ؟

- استطاع زوجي تدمير حلقتي الصغيرة .. معظم ازواجهن صار من موظفي رغيد .. الخوف على الرزق يمنعهن من الاستمرار ، فزوجي لا يخفي عدم تشجيعه ورغيد لهذا النمط من التيارات المتحررة .. لقد وظفوا الازواج لكم فم الزوجات .. وضاعت الحلقة حولي ..

- افهم ما تعنيه .. هذا يحدث للرجال ايضاً بمعنى ما ..

- لم اكن اظنني سأبـدل .. يوم بدأت رسم الرجال عراة ، هاجمني النقاد ، ولم اجد من يدافع عني غير امير .. قال ببساطة لماذا نصفق لفنان يرسم عارية ، ونرفض فنانة ترسم عارياً ؟ .. المبدأ هو نفسه والمهم هو الفن .. حاكموها اذا كان رسمها عارياً من الفن .. طالما شجعتني امير ..

يهاجهما صوت المطربة :

غالي حبيبي الأسمر / يسوي عيوني واكثر / مثل الغزال مضمر / تشغل البال الخالي .  
ويلحظان بقرف انها تحاول تقليد لهجة قطر عربي استدراراً رخيصاً لهدايا اثريائه ..  
تنظلي الاكذوبة العارية ، كأنما يشفع لها عري المطربة ، ويبدأ سباق الكرم على من يدفع اكثر ( شكشكة ) للصدر العاري ..

يتبادل خليل ودنيا نظرات الاسى .. تسأله : وانت ما حكايـتك ؟

يجيبها ضاحكاً : باختصار ام بالتفصيل ؟

- بالتفصيل ..

- اوصاني ابي القروي مرة ان اقول الصدق .. ولا اقول غير الصدق ففعلت .. هذا كل شيء !  
- حسناً .. اروها لي باختصار ..

- مرة قلت الصدق لصحبي .. قلت لهم : شعاراتكم تنادي بالثورة ، اي بالفرح والمحبة والتضحية والسلام ، واسماؤكم لا تثير غير الذعر .. لماذا انت ابو الالهوال ؟ وانت ابو الجماجم ؟ العنكبوت . عاشق الموت . الدبشة . ابو الرعب . هل نحن عصابة المريكز دي ساد ؟ لماذا لا تتركوني اسمي نفسي : ابو الفقير أو أبو الفرح . ابو الحنان . ابو الشمس .. او شيء من هذا القبيل .. الا تلاحظون اننا نتسبب في قتل عدد هائل من الفقراء والابرياء ولم نقتل مرة (هدفاً) ثورياً حقيقياً معلناً؟ اننا مطالبون باعادة النظر في مفهوم الارهاب ( التحرير ) ..  
- ثم ؟ ...

- ومرة شطبت عن هويتي (تذكرتي الشخصية) عبارة المذهب وقررت ان ديني علاقة بيني وبين خالقي .. فصرت اضرب على الحواجز كلها .. ضربني المسلم والمسيحي .. اما بعض الحواجز التقدمية التي تنادي بالعلمانية وغيرها من الشعارات المتطورة ، فلم تكثف بضربي بل كانت فيما بعد تعتقلني وتحقق معي !! ..  
- ثم ...

- لعلك تعرفين بقية الحكاية من الصحف .. ولكن .. هذه بعض النكات التي دفعت ثمناً لها ضلعاً مكسوراً وشهوراً في السجن .. سأروي لك ما تبقى في جلسة سمر اخرى ..  
فاجأهما رغيد بالجرم المشهود يضحكان .. قال لخليل كمن يصدر امرأ : زوجتك تقن الرقص لماذا لا تغني لنا انت ؟

كانت في لهجته رغبة مبطنة في إذلال خليل .. وسارع رغيد الى شدة من ذراعه وهو يقول بصوت مرتفع : صفقوا لخليل .. صوته جميل وسيغني لنا .. ولا يدري كيف وجد المسكين نفسه وسط جمع يدفعه نحو منتصف القاعة ، وعشرات النساء ذوات الوجه الموحد يصرخن في وجهه باصوات تلتطخها حمرة شفاه دموية : غن لنا .. غن لنا .. التقت نظراته بنسيم الذي كان يدور بالكؤوس على المدعوين .. شعر بدفع صداقة ، بشريان سري يضخ الدم الى رعب وجهه وخجله وحرجه .. ربطت امرأة الشال حول خصرها استعداداً للرقص ، واقتربت منه الراقصة الاخرى المحترفة علناً لتساهم في انجاح ( الوصلة



الغنائية ) ، وبدأ التصفيق ، وغنى خليل كما كان يغني دائماً حينما يخاف الظلام طفلاً ، ويواجه من يخوفه او يحاول سحقه . . غنى بصوته القروي الاجش فجأة : يا ظلام السجن خيم اننا نهوى الظلاما . . ليس بعد الليل إلا فجر . . ( الى آخره ) .

ساد الصمت فجأة . . ذهل الحاضرون . . تجمدت الراقصة ، وانصبت على وجهه نظرات العتب سامة كاوية . . حدث ذلك كله في ثوان ، لكن رغيد سارع الى انقاذ السهرة ، صفق لخليل ضاحكاً قائلاً : روحك المرحه شاسعة الخيال . . ورافقه الجميع تصفيقاً وضحكاً ورقصاً وتطريباً ، وكل يغني على هواه . . ونسوا خليل واغنيته . . لكن رغيد رمقه بنظرة ترجمتها دنيا له : يقول انه سيصفي حسابيه معك فيما بعد . . لا تحشه . . انه ضعيف امام الصديق . . كل ما في الامر انه سيدفع المزيد لشرائك . .

وكأنما جددت ( نكتة ) خليل شباب السهرة ، او استفزت مخاوف سرية في صدور الحاضرين سرعان ما سحقوها بالمزيد من الضوضاء والعريضة والجنون الراقص . . واعلنت « المطربة » انها تملك « مفتاحاً فنياً » هاماً تعتبره رأس مالها الفني . فبماكانها ان تغني اغان خليجية وليبية وسودانية ومصرية ولبنانية وعراقية . . إلى آخره . . فصوتها « جامعة عربية فنية » يجذ فيها كل ضالته وهي فخورة بذلك . . وطلب منها احدهم اغنية ( خليجية ) ، فسارعت الى تلبية الرغبة المذهبة ، وصوتها مدجج باردافها التي تضبط الايقاع . . وتعال شهبقات الاستحسان . . .

وفجأة ، سرى الصمت تدريجياً في المكان واتجهت الانظار كلها نحو السلم الذي يقود الى الطابق العلوي . . وكانت تهبط صبية شبه عارية يغطي الدم جسدها وآثار جراحها نصف المندملة . .

كان جمالها ساطعاً ومهيئاً ، كأنها ترتدي عشرات الاثواب . . شعرها الطويل فاحم السواد متمرد كدهور تتماوج في ليل ، وجهها خال من المساحيق والابتسامات ، خال من تعابير الخير او الشر كالطبيعة ، لكنه يفور حياة رغم النظرة المنومة في عيني صاحبته . . وبدا جسدها مثل تمثال في خارق الجمال يعبر عن الشباب ويخلده وثاباً دونما جلبيه . . لكنه تمثال مشي غابات من الحرائق والعذابات والاهوال . . ومر بسبع طبقات للجحيم ، ولعله ما زال . .

همهم البعض متسائلاً : أهذه احدى مفاجآت رغيد الحلوة للسهرة ؟ . .  
وصرخ رغيد : بحرية . . ماذا تفعلين هنا ؟ . .

لم يبد انها سمعته . . مرت به وبالجملع دون ان تلمح أحداً منهم . . سامية العربي  
ترتدي جراحها وتمضي . .

ذهل الحاضرون . . كانت جميلة الى المدى الذي انسى البعض جراحها وهول مشهد  
الدم الذي يكسوها . . فيها شيء خاص يثير في بعض الرجال حب التملك وشهية الافتراس  
ويرجعهم الى حقيقتهم ، حاملين هراواتهم وراكضين في غابات ما قبل التاريخ ويثير الاسى  
والصحو في بعضهم الآخر . . وفي نظراتها شيء يثير شهية بعض النساء الى البراءة الأولى  
والحنان ويذكرهن بها . . ويذكر بعضهن الآخر بشهوات حارة منسية . .

حاول رغيد تحويل المشهد الى نكتة وقال : اقدم لكم قريبتى بحرية الزهران بثياب  
الحرب ، كما وصلت من بيروت . . احبت حضور الحفل الذي اقيم على شرفها وهي ترتدي  
زيها الوطني . .

لم يضحك احد . . لم يتنفس احد . . تابعت بحرية مشيتها المهيبة نحو الشرفة كفراشة  
تفتش عن هواء نقي ، وقبل ان تنحدر فوق السلم نحو الحديقة ، التفتت اليهم وحدقت  
فيهم كمن يتأمل وحشاً واحداً له عشرات الوجوه والاجساد فرمقتهم بنظرة اجمالية تقطر  
احتقاراً وتأنياً ولا مبالاة . . او هكذا خيل اليهم ، ثم استعادت عيناها مظهرهما الزجاجي  
ومضت حتى ابتلعها الظلام . .

لحق بها نسيم اسيان القلب ، راكضاً كمجنون لمح امه تغادر قبرها وتمشي في الشوارع ،  
وحيث حاذاها ، نظرت اليه ، ثم نظرت عبره . .  
خلع معطف الخادم وغطى به كتفها برفق واحاط به عريها المستور . . وخيل اليه انها  
ابتسمت شبه ابتسامة . .

صمت ثقيل شل الحضور ، حتى بعدما هرعت دنيا اليها وشاهدها بعضهم وهي  
ترجعها الى القصر من باب آخر . . .

وانسحبوا واحداً بعد الآخر . . ولاحظ خليل ان الازهار التي تزين رأس كفى  
وصدرها قد ذبلت وجفت . . وكذلك الزهور في رؤوس بقية النساء وفي عروات الرجال . .  
اما كلاب الحراسة ، فقد انطلقت تعوي باصوات تشبه انتحاباً بشرياً مريراً . .

\*\*\*

صبيحة اليوم التالي ، قرر الساحر : سأداويها . . سأحضر لها علاجاً خاصاً بالجنون . .

كان هبوطها عارية مغطاة بالدم مبعث احراج لرغيد ، وقد جاءه بعد السهرة غاضباً كما لم يكن من قبل .

رن الجرس . جاء نسيم متدماً . قال له الساحر : احضر لي اوقية من عين الجمل . نصف رطل من اللوز . اوقية من الصنوبر ، زيت طيب . حجر كحل . روث جاف لكلب .

قال نسيم : معذرة يا سيدي ، لن يكون الحصول على عيون الجمال سهلاً في جنيف ، فهل انت بحاجة ماسة اليها ؟

- هذا علاج الجنون كما تقول كتيبي . .

- الجنون ؟ من المجنون ؟

- بحرية . .

- ليست مجنونة . انها بنت مسكينة منهارة ، دفن اهلها امام عينيها . . انها بحاجة الى الراحة والسلام . . الا تذكر الكتب شيئاً عن ذلك ؟

- ربما . . لست متأكداً . .

- لماذا لا تستريح انت ايضاً يا سيدي الشيخ ؟ سمعتك البارحة تتحدث باصوات عديدة . . وكنت امر مصادفة بالمشي ، وانا امسح الغبار عن التماثيل . . انت الذي استفزيت المسكينة ودفعت بها الى الهرب شبه عارية . . كانت نصف غدرة فلم تلحظ ما فعلته بها . .

- لم اكن انا الذي اتحدث . . هي التي كانت تفعل ذلك . . اعني العفاريت التي تقطنها وتسبب جنونها . . هذا ما تفسر به الكتب حالتها . .

- وبماذا ايضاً تنصح الكتب ؟

- علينا ان نحلق شعرها عند وسط الرأس . . كي نضع هناك العلاج الذي سأعده من المواد التي امليتها عليك . . وسنقطر لها بضع نقاط في اذنها . . . ستساعدني . .

- اساعدك على حلق شعرها ؟

- اجل ! انها خطيرة . . مجنونة . . مدمرة . .

قال نسيم بهدوء خفيف : اسمع يا شيخ وطفان . . اذا لمست انت او سواك شعرة من

رأسها سابلغ البوليس . . تذكر انك في سويسرا ، لا في ارض الجان . . اقسم بالله العظيم ، اذ مس احد هذه المسكينة ، قتلتها . .  
 غادر نسيم الغرفة وهو يرتجف غضباً . . ( ما الذي يثير جنون الرجال امام هذه الانسانة الممزقة ؟ ولماذا يبدو رغيد بالغ القلق منذ وصولها ؟ لماذا يخشى الساحر أن تقتله فجأة ؟ لماذا يتوهمون المسكينة الجريح عميلة سرية ماهرة . . للشياطين ؟ ! . . لقد هدموا وطنها ، واحضروها سبية مذبوحة الصوت ، فماذا يريدون منها الآن اولئك الاوغاد ؟ ) .  
 اما الساحر فتأكد من ان الشيطان الذي يقطن بحرية هو من أقوى ملوكهم . . ها هو يستولي على روح نسيم ويوظفه حارساً عليها . .  
 وسرت في جسده رعدة . . انه يخشاها ، ويخشى نسيم . . ولكنه لا يكرهها ، بل يشتهي وصلها ، ويتمنى ان تكف عن تعذيبه واستنطاق ذاكرته وقراءة افكاره والعبث بروحه . . من يدس في طعامها بوصفة جلب المحبوب ؟ . .



ما زال الحري تفجر من كل مكان ، كأنه رسالة نارية غامضة من الصحراء . . وشيء ما في بحرية لم يغادر خليل .  
 شيء ما في مشيتها الدامية ليلة السهرة في بيت رغيد اعاده الى صوابه رغم مسحوق النسيان الذي يزكمه صخر به . . شيء ما في نزفها وكبريائها وترفع جرحها الصامت ذكره بأولاده . . بوطنه . . بزمه القديم ، زمن الاحلام الكبيرة والطموح الشاسع . حزن وهو يراها سبية هكذا . قرر : سأفتش عن عمل آخر . . سأحاول تصحيح مسار حياتي وكفى ، رفيقة شقائي . .  
 شيء ما في بحرية ذكره - بالحاح - بأولاده ، فذهب اليهم صبيحة اليوم التالي للسهرة والتقاها في الباحة بين (صف) وآخر .  
 كان الحر متوحشاً ، كما هي حاله منذ وصول بحرية . . ومذباغ التاكسي يندب (الكانيكول) الذي اجتاحت جنيف فجأة برياح صحراوية لم يألّفها اهلها . . وجاء رامي وفادي بتياب رياضية تكشف عن جسدين رقيقين هشين تخيل خليل المتفجرات تحترقها . .

ودمع قلبه وهو يتذكر وداد . لم يسأل الطفلان عن امهما ، رغم انها لم تزرها منذ ايام طويلة . . . بديا في حالة هدوء بائسة شبيهة باللامبالاة .

سألها خليل : هل الطعام هنا جيد ؟

— نعم . .

— هل الدراسة منتظمة ؟

— نعم . .

— هل لكم اصدقاء ؟

— نعم . .

— هل تذهبان في نزعات ، وتلعبان كرة القدم ؟

— نعم . .

— هل انتما إذن سعيدان في جنيف ؟

— لا . .

— ماذا تريدان ؟

— نريد العودة الى بيروت !! . .

— لماذا ؟ . .

صمتا ، وارتمى رامي في احضانه ، بينما مشى فادي بعيداً وهو يضرب الحصى بقدمه ! . .

\*\*\*

بعد زيارته الخزينة لأولاده ، لم يعد خليل الى الفندق . منذ فتح عينيه صبيحة السهرة انسل من غرفة الفندق قبل ان تلحظه زوجته . قرر ان يكون وحيداً ليرى مأزقه بصفاء . لم يقل لكفى ان مخدومه انعم عليه باجازة يومين لانشغاله بشحنة من الحسناوات وصلت من الشرق الأقصى . لو عرفت لخططت لافاق فراغه ، ولارغمته على قضاء الساعات امام واجهات المخازن الفخمة في شارع الرون ، تتأمل الفراء والمجوهرات والثياب الفاخرة وتشهق وتتحسر وتخطط . .

كان بحاجة الى ان يخلو الى نفسه . . غادر مدرسة اولاده الى محطة القطار ، فمحطة الكورنوفان ، وانحدر في شارع الألب حتى ضفة البحيرة في شارع (كي دي مون بلان) . .

دخل الى حديقة (برينزويك) العامة ، وجلس على احد المقاعد . . توج بؤسه بسيجارة  
 مترعة بالنيكوتين والفطران . . حلق في الشارع المزدحم بالسيارات الذي تفصله عنه  
 درجات عديدة ، والبحيرة عند الرصيف الثاني ولم ير شيئاً حقاً . . ركضت فوق عينيه  
 بيروت وهي تحترق كما يشاهدها كل ليلة في التلفزيون . . ( هل كان المخطط يقتضي بأن  
 تجتاحنا اسرائيل ونحن بين هارب ومقتول ومقموع وسجين ؟ لقد قدمنا كل شيء من اجل  
 القضية ، حتى الحرية اعتبرناها قضية هامشية ، والديمقراطية ليست لها الأولوية . . وها  
 نحن قد فقدنا الحرية ولم نستعد الأرض ، بل خسرتنا مزيداً من الأرض . . لقد اضطرت  
 للسفر هرباً من ارهاب الصديق ، وها هو العدو يأتي بارهابه وانا غائب . . لقد  
 بدأت الخطيئة يوم رضينا بالتخلي عن الديمقراطية لتكون الأولوية لضرورات التحرير . . غاب  
 عن بالثان شعباً من العبيد لا يستطيع تحرير ارض سواه ولا ارضه . . ) ما زال يتحرك في  
 بيروت لا في جنيف . . والساعة الالكترونية الجديدة التي تكرمت زوجته باهدائها اليه لن  
 تبدل زمنه ومكانه . . حلق في ارقامها التي تقفز كل ثانية لتحدد الزمن بدقة ، فلم يبصر غير  
 رقم واحد يتكرر : الساعة الثانية عشرة والنصف . . ما زال هناك ، وكل قذيفة تسقط  
 فوق بيروت تنفجر داخل رأسه شخصياً والبيوت المتداعية تنهار داخل عينيه . . انه يقطن  
 داخل تلك العلبة المربعة المسحورة الملقبة بالتلفزيون ، وكل مساء بل كلما حانت له الفرصة  
 يخطو عبر واجهتها الزجاجية الشفافة الى الداخل ، لتقله الى بيروت كما آلة الزمن . .  
 شخص ما يخاطبه . . يرفع رأسه . انه شاب ياباني الملامح والى جانبه رفيقته . . يمد الشاب  
 اليه يده بالكاميرا ويتحدث اليه باليابانية . . يفهم الائمة ، انها يرجوانه التقاط صورة  
 لهما . . يشيران الى الزر الذي يفترض ان يضغطه ، فيتناول خليل الكاميرا وسط ضحكاتها  
 المترعة بالشكر والنشوة . .

شابان لعلهما في شهر العسل . . احاطهما خليل بالمربع الصغير وفوجيء بالأزهار تحف  
 بهما والنافورة الجميلة خلفهما كأنه يلحظ المراثيات للمرة الأولى ، وضغط الزر المنشود ،  
 فقفزت المرأة في رشاقة تقطر سعادة وتقدمت نحوه لتأخذ الكاميرا وتقدمم شاكرة . .  
 لحظات ، واختفيا فوق غمامة السعادة . . ( لهما بيت سيعودان اليه ، ويستعيدان في أمنه  
 مشاهداتها الحلوة في الخارج . . اما انا ، فلا . . . ) .

سقط في حزنه . . لم ير الأزهار حقاً من قبل . . ولا النافورة . . ولا الاشجار  
 السامقة . . ولا الحديقة الغناء بتمائيلها البديعة . . ولن يتصور هنا مثلها فهو مشرد بائس لا

سائح ، لا يدري هل سيعود يوماً الى وطنه ام لا ، وهل سيكون جيرانه وصحبه احياء ليرهم صوره في جنيف ويحكى لهم مناسبة كل صورة سعيداً بمتعة التذكر الى حد اضجارهم بلحظات سعادته التي اعتقلها في صور، فهو الآن يعيش اكثر لحظات عمره بؤساً وقلقاً . . يوم كان في السجن توهم ان هذه اللحظات هي ذروة بؤسه . . . تلك المسيرة اليومية من قبر الاحتجاز ، فالسلم الى غرفة التحقيق (اللطف) ، فالدهاليز حيث الجدران كاتمة لاصوات صراخ التعذيب . . . لم يخطر بباله ان بمقدور المرء ان يكون مطلق السراح في حديقة كالجنة ، صحته جيدة ، وثمة حسناء امامه تعرض جسدها لأشعة الشمس ، ويكون في الوقت ذاته حزناً ومزقاً . . يتفجر في قلبه الرعب الأعظم الذي لم يجزؤ على مجرد التفكير به من قبل : الاسرائيليون يحاصرون بيروت وقد يحتلوها ، فهل يمنونهم من العودة وسواه ؟ هل يسمح فقط بالبقاء لمن هم في الداخل ، ويمنع الهاربون من العودة ؟ ألم يحدث شيء كهذا من قبل في فلسطين ؟ . . هل سيتحول الى لاجئ مشرد ؟ هل سيحرم من العودة الى وطنه ؟ . . . شعر بسبخ من النار يخترق احشاءه ويؤلمه كما كانت تفعل ضربة الجلاد على بطنه . . . اجل . . ان ذعره الأكبر الذي يطارده منذ أيام هو ببساطة هذا الأمر . . ان يحرم من العودة الى وطنه . . . ان يتحول بمعنى ما الى سبية كبحرية التي اخرستها الصدمة وشلت حنجرتها . .

توج بؤسه بسيجارة جديدة ، وحاول الهرب من ذلك الخطر المرعب الذي يقذف به في بئر سوداء بلا قرار، السقوط فيها بلا نهاية ، يهوي ويهوي ولا يصل الى القاع الشهي لينال رحمة تحطيم جمجمته وخلاصه من ذلك العذاب الابدي . . . هل يمكن ان يجد نفسه وقد تحول الى لاجئ ، وهو الذي كان هارباً من الموت لا اكثر ؟ . . ألم يكن الموت هناك أهون من هذا الاحتضار اليومي البطيء ، وكأس الذل التي يتجرعها كل يوم قطرة بعد أخرى . . . ؟

شعر بالغثيان . . . احساس غير مريح يهاجمه في معدته ، وبيعض التقرح في منخرية . . . انه المخدر اللعين الكوكاين الذي يرغمه صخر على مشاركته إياه . . . سيدمر صحته ومعدته مقابل حفنة من المال ينفقها على بؤسه في الفندق ، وسلام اطفاله التعساء في المدرسة بعدما استنفدوا الفرحة الأولى للامسة اشياء جديدة ، والاحذية الحمر المفضلة لدى كفى . .

عبثاً يتطلع حوله بألفة . . . كأن الشمس التي تطالعه شمس اخرى لم يلتق بها من

قبل .. تأمل يده .. بدت له وكأنه لا يعرفها ... تذكر زوجته فأحس وجهها غريباً لم يره من قبل .. حتى حياته الماضية بدت له نائية كأنها تخص رجلاً آخر ... انه واقف على تخوم الجنون ، يجيل نظرة عقل باردة في الأشياء (لا اعرف احداً .. لم يمسيني احد . لم يقترب مني مخلوق قط . انا وحيد . وحيد . لم اعرف دفء الصداقة . لم اشارك احداً غرس الورد في الخبز وشرب الموسيقى في كؤوس النبيذ . لم .. ولم .. ولم .. ) .

تمسك بالمقعد .. تأمله . انه من الخشب المدهون بالأخضر .. الأزهار الى يمينه حمراء وبيضاء وصفراء ومزروعة على شكل أجنحة فراشة ... ( اني غائب ... غائب عن حاضري ساقط في فخ الألم والذعر .. الذعر من ان اصير لاجئاً بلا وطن ... طالما تشدقت بان كل بيت مريح هو وطني .. طالما صرحت بانني انا بالوحدة العربية كخطوة صغيرة في درب الوحدة الكونية .. وها انا ارتجف مثل طفل صغير احن الى عتبة بيتنا المهترئة التي دفنت جدتي تحت حجرها ذات يوم حرزاً يجلب الحظ ، فتعثر والذي به وكسر يده .. ) .

حاول خليل ان يتذكر لون المقاعد في ردهة الفندق وفشل ... لون جدار الحمام ... رائحة الغرفة .. ملمس المناشف .. لون جدران بيت نديم .. لون سيارته .. رائحة الستائر المخملية في بيت رغيد .. شكل (الميتري) في مطعم الموفنيك بشارع ساندرية . لم تستطع حواسه التقاط شيء .. كأنه يعوم طوال وقته في خواء الغم ، داخل رحم احزانه ... كأنه لم يطأ جنيف بقدميه .. لم يزر متحفاً من تلك التي طالما اشتهى رؤية كنوزها .. لم يذهب الى متحف البيتي باليه ليرى معرض بيكاسو . لم يدخل الى مكتبة واحدة الا لشراء جريدة .. مكتبة (نافيل) يمر بها ولا يدخل اليها كما حلم دائماً ليتعلم كيف يرتب مكتبته ذات يوم .. كأنه يرفض كونه هنا .. ولكنه هنا ، يتعاطى الكوكايين وصقر ، ويرافق كفى الى السهرات ( اعيش هامشاً على دفتر الزمن . انحر ك خارج المنفى وخارج الوطن . محروم من حضارة المنفى ، ومحروم من انتماء الوطن ) .. ما جدوى الحسرات والعبرات ؟ فليحاول تنظيم حياته قليلاً ما دام الهرب مستحيلاً والعودة الآن الى بيروت غير ممكنة ... ألم يحزم امره منذ الصباح على تصحيح مسار حياته ؟ لماذا لا يحاول مثلاً الانتقال من الفندق الى شقة صغيرة ؟ ولماذا لا يقطن الاولاد معهم بدلاً من البقاء في المدرسة الداخلية كأيتم الاثرياء ؟ لماذا لا يكون ايجابياً بعض الشيء ؟ ..

لا يدري لماذا هاجمته من جديد صورة بحرية ، عارية الا من الجراح ، وهي تمشي في



سهرة رغيد كأمية المعدين ، وترفل في احزانها . . . احس بخنان جارف نحوها . . . كم هي قريبة من قلبه وكم زوجته بعيدة نائية . . في حضور بحرية برقية ما من بيروت مكتوبة بالجرح والدم والصمت . . . كأنها تمثلها . . . وكأن كل من يغادر بيروت هو مثلها . . عار الا من جراحه واحزانه الخرساء . . مرمي في الفراغ ، يتناهشه الناس ويفتشون كيف يمكن لجيفته ان تكون صالحة للاستعمال لهم ! . . .

ارتجف قهراً . . لن يألف يوماً هذا الصيف الأوروبي الثلج تارة ، الحار اخرى . . وشيء ما في الرياح الدافئة يعيده الى صيف بلاده وربيعها . ماذا أصابه ؟ من زمان ، كان يتوق الى السفر ويراه نافذة مفتوحة على الحلم . . .

( قالت لي فيفيان : جئت اودعك . سأرافق اسرتي الى اوروبا . .  
- يا لك من محظوظة .

- وانت ماذا ستفعل بعطلتك ؟ . .  
- سأذهب الى قريتي . .

كانت فيفيان حبي الأول ، لكنني امتلأت حقدًا غامضاً لأنها ذاهبة لتري هذا الكوكب وانا لا املك أكثر من اجرة (البوسطة) الى الضيعة . . قلت لها : سأودعك ، ولكنه الوداع الاخير . . لا اريد ان اراك بعد اليوم . .

لم تكن لحيتي قد طلعت بعد ، لكنني قررت ان اكون حاسماً كالرجال . وبكت هي بحرقة ثلاثة عشر عاماً من الاكتناز ، وظللت صامتاً . سألتني : وإذا لم أسافر مع اهلي ، هل سنظل نلتقي ؟

- لا . . لقد انتهى كل شيء . .  
- لماذا ؟

- لا ادري .

- هل تشعر نحوي «بالحقد الطبقي» ؟

- من علمك هذه العبارة ؟

- والدي ، وكان على حق . قال انك لا تستطيع ان تحبني في أي يوم ، انا أو أية فتاة

اخرى من طبقتي . ونصحني بالابتعاد عنك .

- لعله على حق . وداعاً يا فيفيان .

- اورفوار . .

تلك الليلة عدت الى البيت ومعى خارطة كبيرة . . مددتها على فراشي بدلاً من جسد  
 فيفيان كما كنت أحلم ، وبدأت أقرأ أسماء المدن التي طالما سمعت حكايات دافئة مبهرة  
 عنها ، وعن مقاهيها واغانيتها ومطاراتها ومحطاتها . . وبدأت لي أسماء المدن كاسماء النساء ،  
 شهية ومرغوبة . . لندن . فيينا . باريس . جنيف . زيوريخ . بانكوك . لينينغراد .  
 صوفيا . استوكهولم . هونولولو . وكان كل اسم يقذف بي في مباحج لامتناهية . . . وظل  
 التأمل في الخرائط يمدني بالحلم والاشواق حتى كبرت . . ويوم استلمت مكتبتى افردت رفاً  
 خاصاً لبيع الكتب السياحية عن بلاد الله الأخرى ( .  
 وها أنا جالس في جنيف ، وقد يحملني صقر الى تلك المدن الشهية كلها او بعضها ،  
 والذعر يحتاجني بدلاً من الفرح والترقب . . لماذا ؟ . . لأن اللاجئ لا يستطيع ان يكون  
 سائحاً ؟

\*\*\*

استيقظت كوكو ذلك الصباح ونشوة ليلة البارحة ما تزال تأخذ بلبها . . كانت نجمة  
 السهرة التي افسدها خليل باغنيتها السمجة «يا ظلام السجن خيم اننا نهوى الظلاما» ،  
 وامعنت بحرية في تدميرها بتصرفها الأرعن غير اللائق . . .  
 سمعت صوت زوجها في الحمام ، يخلق ذقنه ، فتظاهرت بالنوم . لا تشعر بالرغبة في  
 رؤيته هذا الصباح . . اغمضت عينيها . . تريد ان تخلو الى نفسها وتفكر بمستقبلها . . لا  
 تدري لماذا تذكرت بحرية . لم ترفيها غير جراحها التي شوهت جمالها ، وقلة تهذيها نحو قوم  
 (اشراف) يحسنون اليها ، وسوء سلوكها ليلة سهرة البارحة مما يؤكد وضاعة اصلها ، وعدم  
 وجود قرابة دم بينها وبين المحسن الكبير الباشا رغيد . . وقررت وعيناها مغمضتان وحفيف  
 ثياب خليل وهو يرتديها يخدش اذنيها ، قررت فيما يشبه القسم ( لن ادع بيروت تشوه جمالي  
 وتضيع صوابي وتفسد سعادتي بعد اليوم . سأعيش في هذه الجنة الأرضية وسأستمتع بالحياة  
 حتى الثمالة . لن ادع اولادي يتحولون الى قيد ، ولن ادع ذكرى وداد تمزقني كوجه بحرية ،  
 فقد تأملت بما يكفي لعدة اعمار . ولن اعود مع الاحق خليل الى بيروت إذا قرر ذلك . لن  
 اعود يوماً الى بيروت قبل ان تعود بيروت الى نفسها . . وسأستمتع بالحياة حتى الثمالة . .  
 سأستمتع بالحياة . . الحياة . . ولن احرم نفسي بعد اليوم من نشوة ) . . ثمة أيام يصحو  
 المرء فيها وكل ما في جسده متوهج حياة ، وتوقاً الى ما لا يدره . . هكذا صحت كوكو ذلك

الصباح بعد طول نوم . . . لقد اغتت ثانية بعدما مضى خليل ، وحلمت بمباهج ممنوعة . . . غادرت الفندق فهاجمها الحر الغامض وذلك الجمال الخارق قادماً من البحيرة والاشجار وذرى الجبال النائية . . . مرت بامرأتين مستتين تثرثران امام باب كنيسة جميلة عتيقة ، وفي حديقة الكنيسة طائران يمارسان حبهما على مرأى من تماثيل الملاك . . . كان الطائر يدور حول انثاه وينفث ريشه ثم يعتليها في عناق مشبوب ، وتماثل الملاك لا يشيح بوجهه ، والشمس تغمرهما برضاها . . . توقفت قليلاً ترقبهما ، ثم جلست في احد المقاهي وطلبت كأساً من ماء النار بدلاً من قهوة الصباح . . .

ابتلعتة ، فاشتعلت حواسها بشهوات السنوات الخمس العجاف ، والتقت نظراتها بعيني ذلك الشاب الايطالي الصغير الجالس في الطرف الثاني المعتم من المقهى . . . كان وسيماً وانيقاً ، يشبه نجم اعلان عن سجائر مترفة . . . تذكرت التابع المنطقي : نظرة فابتسامه فسلام فكلام فموعد فلقاء . . . ف . . . واشتعلت بالرغبات الغامضة ، وعصفت بها انواء عاصفة مدارية حارة . . .

حدقت نحوه ثانية فلم تجده في مقعده . . . شعرت بلذعة اسي ، ويندم صغير . . . وفوجئت به واقفاً الى جانبها . يقول شيئاً ما بلغه تجهلها ، ويشير الى المقعد الآخر الفارغ . . . ابتسمت . جلس . حلق فيها مولهاً ، وقال شيئاً . . . ادركت انه يتحدث باللغة الايطالية ، ويغازلها . . . توهجت . . . مد يده ومس شعرها برق . . . كان يتكلم ، وكانت تفهم ولا تفهم ، وهزت رأسها موافقة .

دفع الحساب ، وجذبها من يدها ، فنهضت معه ، وطاف حولها ليفسح لها مجال الخروج امامه ، وتذكرت الطائر الذي كان يحوم حول انثاه في فناء الكنيسة . . . قال شيئاً آخر ، وهزت رأسها موافقة ، ورقصة الطائر تلهبها . . . نشرت جناحيها وحاولت ان تطير بعيداً لكنه احاط كتفيتها بيده ، واسدل جناحه الكبير فوق جسدها المرتجف . . .

حين جذبها من يدها الى الفندق القريب من المقهى في شارع «كيه دي مون بلان» رافقته مستسلمة . حين ضمتها الغرفة ، كانت تتأمل به بشوق وفضول . . . بدا لعينها طائراً بديع الجناحين قادراً على التحليق طويلاً ، شاباً نضراً يصغرها بأعوام ولعله في مطلع عشريناته . . . وحين نقرها فوق شفيتها في قبلة دعوة ، استجابت وهبت توابك طيرانه الى ارض المتعة والفرح . . . شاهدت تماثيل الملاك يحلق بها كما كان يحلق في عصفوري الفناء العاشقين ، نظرة ضائعة بين اللامبالاة والرضى . . . آه كم تفتقد ذلك الشعور النضر

الكاوي ، ذلك الطيران بين القارات ، والتحليق فوق الغابات الاستوائية ، المطر الدافئ  
يلبل وجهيهما ، وفوهات البراكين تتأجج ويتدحرجان ، ويتمسك كل منهما بالآخر خوفاً من  
النجاة . . . وكان صوته يأتيها عبر العصور منادياً مستنجداً : آموري . . . آموري . .  
ولعلها الكلمة الوحيدة الايطالية التي تفهمها . . . وحلقا ثانية . . . آموري . . آموري  
ميا . . .

واحست بذلك التدفق الكوني الشرس ، وانفجرت الألعاب النارية الملونة داخل رأسها  
وقررت في لحظة صدق : هذه هي الحقيقة الوحيدة الاكيدة ، وكل شيء آخر مزور ومزيف ،  
او قابل للتزوير وللعبة خداع الذات . . الا هذا الاحساس المنشب اظافره في كل ما هو  
أنا . . . هذه اللحظة الفريدة التي تتكرر دون ان تتكرر . . . اغمضت عينيها وهي  
تهمس : آموري . . . آموري ميا . . . خليل يحاول اقناعها بكل شيء آخر ، وبأي شيء  
آخر . . لا بديل مقبولاً عن تلك اللحظة . . .  
فتحت عينيها بحثاً عن طائرها ، وكلها رغبة في اقلاع جديد وطيران آخر حول الكرة  
الأرضية . .

فوجئت بأنه ارتدى ثيابه وها هو يحصي بعض النقود . . . تركها لها الى جانب الفراش ،  
ومضى ! . . .

غسلتها شلالات من الماء الثلج وتدفقت من عينيها . . . ارتجفت برداً ووحشة وارتدت  
ثيابها بسرعة . . .

بكل هدوء ، تناولت النقود الايطالية التي خلفها لها الشاب ، وطوتها ووضعته داخل  
حاملة نهدنها ، حيث كانت جدتها تودع نقودها . . . وغادرت الغرفة مسرعة . .  
وحين وطأت ارض الشارع ، هبت ريح مفاجئة كالزوبعة . . واحست انها طائر  
حائر ، تتقاذفه رياح العالم وتطير به الى شمال الليل وجنوب الحنين وشرق الحيرة وغرب  
الحزن . . وتركت الريح تملأ شراعيها . . . وصارت تمشي كيفما نفخت بها الريح ،  
كعصفور يطير على غير هدى ، وقد ضيع بوصلة الهجرات وتاه عن سربه . .

اقترب منها غريب آخر . . وسيم آخر . . طائر آخر . . كانت ما تزال عطشى وجائعة  
الى ذلك الطيران بين القارات ، الذي حرمت منه خمسة اعوام ، وحام طائرها حولها ، وقال  
شيئاً ، فهزت رأسها موافقة ، وشهية التحليق تلهبها . . ضمها اليه امام حديقة برينزويك  
فاستجابت له بحرارة ادهشته ، واسندت رأسها الى كتفه وهي تمضي معه الى بيته او فندقه أو

كهفه . . . وخيل اليها ان نظرات ما تخترقها . . . التفتت الى الحديقة الملاصقة للرصيف  
والقت بنظرة سريعة عامة فلم تر احداً تعرفه . . . فعادت الى طائرهما ، تلامس جناحيه  
وتتحسسهما . . . وتحلم بإيقاع البراكين والزلازل . . .  
تذكرت نديم . . . وقررت مساعدته في تنشيط جناحيه الصديين . . . انها لا تلومه . . .  
مع امرأة من رماد مثل دنيا ، اي زوج لا يتحول الى قارة ثلج ؟ . . . مع نساء مقينات كأرض  
مفروشة بالجلث والدماء مثل بحرية ، من يشتهي التقاط سكر المباهج ؟؟ . . .

\*\*\*

طالت جلسة خليل في الحديقة . . . لقد (خطط) لبقايا حياته . قرر الا يستسلم . تذكر  
كل مخلوق يعرفه في جنيف وقرر قرع الابواب كلها حتى لو طرد . . . ذلك خير من انزلاقه في  
بالوعة المخدر مع صقر . . .

مرت به كوكبة اخرى من السواح اليابانيين تلتقط الصور التذكارية ، والنساء في ثياب  
الاستحمام يعرضن اجسادهن البضة لدفع لم يألفه صيفهن وشمس يشتهينها . . . ( انا لست  
سائحاً ، وسيظل الدفء يوجعني كأنفاس امي الحارة القادمة عبر القارات من البعيد البعيد  
والغابر . . .

متعة السياحة ان يكون لي وطن ، انطلق منه واعرف انني سأعود اليه . . . اما انا فلا  
اعرف ان كانت اسرائيل ستسمح لي بالعودة الى وطني أم لا . . . وسيحادث ذلك كله لي  
ولسواي امام انظار العالم (المتحضر) كما حدث من قبل للفلسطينيين . . . ولن يياي بي احد  
حقاً . . .

لقد ضيعنا لبنان ، ولم نسترد فلسطين . . . ولكن ، لم انا متشائم الى هذا المدى ؟ . . .  
لعل العرب يخططون للدفاع عن لبنان الذي كان عربياً كما ارادوه ودفع ضريبة العروبة  
عنهم جميعاً . . . لعل لديهم خطة سرية للعمل ، وسيضربون فجأة . . . اجل . . . لا يمكن  
ان تحتل اسرائيل عاصمة عربية هي بيروت من غير ان يتصدى لها مائة وخمسون مليون  
عربي . . .

كم انا متشائم ، اتجنى على امي وبعض انظمتها . . . لا . . . لن تجرؤ اسرائيل على  
دخول بيروت . . . كفأك يا قلبي تفتيشاً عن المنغصات . . . كن ايجابياً وعد الى ارض  
الواقع . . . فتش عن بيت . . . وعن عمل آخر . . . ريثما تعود الى الوطن . . . واستمتع بهذه

الجنة الأرضية التي تصادف انك تضع قدميك فوق ترابها ) . . .  
 رفع خليل رأسه وحدق من جديد في الرصيف والبحيرة كمن يراها للمرة الأولى . . .  
 الأمواج البشرية المتلاطمة تتوالى ، جمال وصحة وثراء وكلاب مدللة . . .  
 وهذه التي تستند برأسها على كتف الشاب الغربي الوسيم تشبه كفى . . ترفع رأسها  
 وتضحك وهي تقذف بشعرها الى الوراء . . يا الهي انها كفى . . كفى نفسها مع غريب  
 جديد لعلها ستنسل معه الى غرفة في احد الفنادق كما فعلت يوم لمحها مع الغريب الآخر  
 نديم . . تأملها خليل كأنه لا يعرفها . . ولم يشعر بشيء . . لا بالغيرة ولا الغضب ولا  
 الاسى . . لا شيء غير احساس بارد هامد كأنه مخدر يتعفن ثم انه يشعر بالعالم كله  
 يخونه . . فلماذا يبالي بخيانتها وحدها . . ووجد نفسه يتمتم ( من يهن يسهل الهوان  
 عليه / ما لجرح بميت ايلام ) . . . التفتت كفى صوب الحديقة . اخفى وجهه خلف  
 جريدته . . لم يكن يريد ان ترى انه رآها !! . . .



استيقظ خليل بعد نوم مزدحم بالكوابيس . . . شاهد بحرية تنزف والساحر وطفان  
 يطعننها بسكين من ذهب ، ودنيا تحاول ان تحول بينهما ، وطفليه يصرخان ويمسكان بطرف  
 ثوبها . . .  
 وقبل ان يفتح عينيه مد يده لتناول سيجارة ، اشعلها ، وفوجيء بكفى وقد ارتدت  
 ثيابها وتأهبت للخروج . . لم يقل شيئاً ، أما هي فقد سارعت الى الباب شبه هاربة وهي  
 تقول : انا ذاهبة الى (بون جينيه) لشراء ثوب لحفلة الشاي بعد الظهر . . الى اللقاء .  
 هل هي ذاهبة حقاً الى (بون جينيه) فقط ؟ وهل ستعود فيما بعد الى الفندق مباشرة ام  
 انها ستذهب الى مكان آخر ؟ ما شأنه بذلك ؟ هي ملوثة ؟ وهو ايضاً ملوث فكيف  
 يحاكمها ؟ جسدها مستباح ؟ كل ما في حياته مستباح . . وطنه واسرته وعمره وجسده  
 مستباح لثلج صقر . . (الكوكايين او الثلج كما يدعوه صقر) ، أو « مسحوق النسيان » أو  
 «رماد النجوم» أو الأسماء الأخرى كلها التي يخترعونها لذلك السم اللعين الذي بدأ  
 يدمر معدته واعصابه ومنخريه رغم انه لم يعاقره غير مرات قليلة . . .

يرن الهاتف . انه صقر الممتلىء جزلاً بوصول المثلة الغربية الشهيرة لقضاء ليلتين معه في سويسرا ، بعدما اتصل بها خليل داعياً ولم يصدق إمكانية حضورها . صقر ليس بحاجة اليه لا اليوم ولا غداً . . . وذلك لا يعني ان ( السكرتير خليل ) حر . . عليه ان يلازم الهاتف ، فقد يبدل رأيه فجأة . . ذهل خليل . لم يصدق ان ممثلة جميلة وشهيرة وثرية مثلها ، تفعل (ذلك) مقابل المال . لقد سطر الرسالة اليها منذ أيام خجلاً ، ولم يتوقع رداً لكنه لم يجرؤ على مناقشة صقر . وها هي تحضر . كل شيء عليه بطاقة لارثية تحمل ثمن صاحبه في هذا الزمن الرديء . . كل شيء . . حتى هو المسكين تم شراؤه وعليه ملازمة الهاتف ( متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احراراً ؟ . . ) . .

لم يقلها خليل ، بل قال بدمائة : حاضر . . وخيل اليه ان صوته صار يشبه صوت نديم . لكنه نهض من فراشه وارتدى ثيابه بسرعة وغادر الفندق من غير ان يتناول طعام الافطار او يحلق ذقنه . .

اشترى الصحف المحلية ، «لاسويس» و«تريبون دي جنيف» ولجأ الى مقهى (ميديتيرانه) مقابل محطة الكورنافان . . . قرأ أخبار بلده ، فاشتعلت النيران فوق فنجان النسكافيه بالحليب الذي يتجرعه ، وبكى طفل يقطنه ، ثم انتقل مباشرة الى صفحة الاعلانات المبوبة عن البيوت ، المعروضة للايجار او للبيع .

ثمة اعلانات موجهة الى الاثرياء عن بيع شقق فاخرة للاجانب في «سان سيرغ» و«نيون» وسواهما من الأماكن المسموح للاجانب بالتملك فيها فتجاوزها ، وصار يفش عن الممكن والأكثر تواضعاً بكثير . . . عن عمود عناوين الشقق المفروشة وسط جنيف نفسها . . لن يدفع قسماً آخر للمدرسة الاثرياء هذه ، ولن يرمي بأطفاله الى حياة اليتامى المدللين في القسم الداخلي وانما سيقطنون جميعاً معاً . . وسيحاول الحاقهم باحدى تلك المدارس الرسمية المجانية في جنيف والتي اخبره امير انها افضل من المدارس الخاصة . . ستعود كفى لتكون أمّاً وربة منزل بدلاً من مشروع غانية وزانية وعاهرة . . وضع بقلمه اشارات قرب ارقام هواتف البيوت المتواضعة (المعقولة) ، ثم مضى الى مركز البريد الرئيسي . . في قاعة التليفونات احتوته احدى العلب الخاصة بالمخابرات المحلية وبدأ يجرب حظه . هذا مؤجر لا يجيب . وهذا يجيب ويقول ان البيت تم تأجيره . كثيرون يتخلصون منه لأن لكتته الفرنسية تكشف انه غريب . . يضيق صدره ويغادر العلة ليمشي في شارع «ميشيل روزيه» ثم يعود الى الهاتف ، فيطرد ، أو لا يجيبه احد ، فيخرج ويمشي ويعود ويطرد

ويعشي ويعود ويترد . . يوم كالكوايس . . . واخيراً قبلت احدى المؤجرات بضرب موعد له في رقم ٥١٥ شارع الدليس .

\*\*\*

ارغم كفى على مرافقته بعد الظهر . .  
توقف بها التاكسي أمام ٥١٥ شارع الدليس . حي بعيد نسبياً عن المناطق السياحية  
الفخمة التي يحلو لكفى التجوال فيها . سألته بدهوة . ما الذي جاء بنا الى هنا . . ما هي  
مفاجأتك لي ؟

هبطا . قال لها : سنستأجر شقة مفروشة هنا . .  
— هنا . . في هذا الحي البائس . كأننا لسنا في جنيف . . .  
لكنها استسلمت ورافقته دونما مزيد من جدال . . . ورمقته بنظرة لا تخلو من  
السخرية . . .

استقبلتهما مدام «فومهارهون» لاهثة كمن لا يجد وقتاً للتنفس . لم تدعها للجلوس وانما  
تفرغت للرد على الهاتف الذي كان لا يترك لها مجالاً للكلام . . الكل يريد الشقة وهي  
تضرب المواعيد . تذكر خليل ما سبق وسمعه عن ازمة السكن في جنيف . واخيراً حملت  
مفاتيحها ورافقاها داخل مصعد اثري لمشاهدة الشقة اياها في الطابق الأعلى . . بدت لكفى  
مكاناً عتيقاً بائساً ينزف رطوبة وعفناً كما بيتها في بيروت . . .

سألت مدام «فومهارهون» : هل لديكما أولاد ؟

— ولدان لكنهما في المدرسة الداخلية .

ثم اعلنت مدام «فومهارهون» انها تريد اجرة ثلاثة اشهر مقدماً وستؤجرهما الشقة  
لمجرد انها هنا ، فقد ورثت مجموعة من البيوت في العواصم المختلفة ، وكلها ماتت عمه  
عانس ورثتها ولم تعد تجد الوقت الكافي لاجراء مراسيم الدفن وانتقال الثروة ، ووافق خليل  
متلهفاً لاحضار اولاده من المدرسة والخلاص من نير صقر واجرة الفندق الباهظة التي  
ستحوله الى عبد لآل الغنمالي والزهران الى الابد ، ولم يبال بنظرة الرفض والازدراء المطلة  
من عيني زوجته . . . خزم امره بسرعة وقال انه سيستأجر الشقة حالاً .

هبطا من جديد الى شقة مدام «فومهارهون» التي سارعت لاحضار الأوراق المطلوب  
توقيعها ، ثم انشغلت بالرد على الهاتف . . زبون آخر ، وها هي تقول له ان الشقة تم  
تأجيرها كما قيل له ذلك مراراً هذا الصباح . . ازدادت رغبته في التمسك بهذا البيت وقالت



كفى : انه بيت غير صالح للسكن . . . الإقامة هنا مستحيلة .  
 — والعمل مع صقر مستحيل . لا بد من مكان متواضع نبدأ منه . . . العمل مع رغيد  
 مستحيل ايضاً . . .  
 عادت مدام «فومهاالرهون» بالأوراق وطلبت من خليل بطاقة اقامته واجازة عمله .  
 — لم احصل عليها بعد . . ربما بعد اسبوع .  
 — آسفة . القانون يمنع تأجير بيت لشخص لا يحمل هذه الوثائق . . .  
 — ولكن ، أين يذهب المرء ريثما يجد عملاً مناسباً .  
 — الى الفندق طبعاً !! . . أو (السرفيس ابارتمنتس ) الشبيهة بالفنادق .  
 وتنهدت كفى شامة كمن غادر كابوساً ، وتنهذ خليل دامي الفؤاد مثل فأر اطبقت عليه  
 للتو الاسنان المدببة للفخ . . .  
 لقد كان يعرف منذ البداية انه سيتخبط في فحه . . . لكنه حاول . . . لم يجد شيئاً آخر  
 يفعله في لحظات صحوه غير ذلك . . . انه عبثاً يصارع مصيره ، بينما تقضي كفى وقتها في  
 الاستسلام لقدرها والاستمتاع به الى اقصى الحدود . . . وها هو مهزوم وبائس . . . ولكنه  
 لن . . .  
 سيحاول التفتيش عن عمل آخر ، عن عمل غير مهين ، سيحاول ان يبدأ من اول  
 السطر ، كأنه لم يلتق بنديم ، ولم يعمل وصقر ، ولم تألف كفى متع الثراء الضائعة منذ  
 فارقت اهلها والمستعادة منذ التقت بآل الزهران والغفير . . .  
 سيفتش . . . المهم ان يظل صقر مشغولاً عنه بجينا صوفيا ، الممثلة الشهيرة . . .  
 انه بحاجة الى بعض الوقت ليلتقط انفاسه . . . سيلجأ مجدداً الى امير والى اى مخلوق  
 آخر يعرفه في جنيف . . الى نجيب مدير البنك الذي كان يتردد على مكتبته قبل نقله الى فرع  
 جنيف . . وصديق الدراسة بديع الذي يعمل الآن في الأمم المتحدة . . .  
 سيقرع الابواب الأخرى كلها قبل ان يعاجله صقر بحفنة من (الثلج) تضيع  
 صوابه . . . او ما تبقى منه . . . سيبدأ غداً صباحاً . . . وسيصل بهما فور عودته الى  
 الفندق . . .

\*\*\*

السما تهدد بذلك المطر الصيفي المداري الحار غير المألوف في جنيف . . . كفى تبدو

باهرة الحسن في معطفها الشفاف الواقي من المطر ، وثياها البالغة الاناقة ومظهرها الشبيه  
بزوجة مليونير .

رحب بهما مدير البنك الاستاذ نجيب وهش وبش ودعاهما للجلوس وطلب لهما القهوة  
وضيف خليل بسيجارة ثم صارحه بأنه يذكر وجهه لكنه لا يذكر اين التقيا من قبل . . .  
— في المكتبة . . كنت صاحب «مكتبة الحرية» . . . وانا الآن مشرد .

لم يبد الاستاذ نجيب مسروراً بذلك . . . تناول اداة وقص بها رأس السيجار بحقد من  
يقطع رأس رجل عدو وتبدلت لهجته قليلاً . . . كان قد دعاهما الى الجلوس وانتهى  
الأمر . . . لقد احتاط دوماً للتهرب من «فقراء الغرب» الذين يأتونه باستمرار طلباً  
للمساعدة ، وقد تزايد عددهم بصورة خارقة هذا الصيف منذ الاجتياح الاسرائيلي  
لبيروت ، لكن ملابس الزوجة الحسنة ومظهرها خدعه . . . بدا خليل لعينيه كأحد الذين  
اثرؤا في سنوات الحرب بعد فقر ، والذين طالما قرأ اسماءهم كزعماء لمنظمات (ثورية) ثم  
حضرؤا اليه طالبين فتح حساب سري شخصي ، وادعؤا بنكه مبالغ طائلة . . . ولكن  
ارتباك خليل اثار قلقه . . «مشرد» ؟ حسناً . ذلك خارج الموضوع . . المهم بالنسبة اليه ،  
أهو مشرد «غني» أم «فقير» ؟ . . .

— هل تريد ايداع ثروتك عندنا ؟ . .

— لطفك وحسن وفادتك يشجعني على مصارحتك بالامر . . انا في الحقيقة فقير . . .  
افتش عن عمل لاحصل على اقامة واستطيع بالتالي استئجار شقة ، واستعيد اولادي من  
المدرسة الداخلية .

ارتجف صوت خليل وشعر بقهر غاضب يتصاعد من اعماقه . ها هو يذل نفسه ويشرح  
احواله لرجل بدلته الايام فيما يبدو . . .

فجأة تبدل وجه الاستاذ نجيب . . . حذق فيها مستكراً . تجاهلها . . . تذكر موعداً  
هاماً كان قد نسيه . . . لم يساعد الزوجة على ارتداء معطفها كما تقضي اللياقات بذلك وهو  
الذي ساعدها على خلعه لحظة دخلت وبدت ثرية ، وإنما كاد يرمي به في وجهها . . . احسا  
بأنه يكنسهما من الغرفة نحو الباب ، وهو يقول : سنبحث في وضعكما في وقت آخر . . لقد  
نسيت اجتماع مجلس الادارة . . اتصل بسكرتيري لتحديد موعد . . .

قالت كفى بصوت يرتجف قهراً : لسنا على عجل ، فزوجي يعمل الآن سكرتيراً لابن  
الغنمالي الكبير ، وقد اوصى به رغيد الزهران . .

توقف الاستاذ نجيب امام الباب وقال بدهشة : الغنمالي ؟ والزهران ؟ ما المشكلة اذن ؟ ثمة سوء تفاهم بيننا . . تفضلاً . . استطيع توفير بعض الدقائق . . .  
التفتت كفى بحثاً عن خليل . . كان قد سبقها الى المصعد وجسده يرتجف تحت سياط ذل الغربة . ولم تدهش حين صار يغني داخل المصعد : موطني موطني . . الشباب لن يكلّ . . . .  
لكن بقية الركاب دهشوا قليلاً !

\*\*\*

كان الاستاذ بديع قد رحب بخليل حين هتف اليه ، وقال له انه مشتاق واصر على دعوته وزوجته للغداء . . .  
حاول خليل اقناعه بزيارة قصيرة في المكتب يحدثه خلالها في امر يخصه . قرر ان يكون هذه المرة مباشراً ويذهب بنفسه كي لا يواجه الازلال في حال الطرد أو رفض المساعدة كما حدث له منذ نصف ساعة ، لكن بديع احتفى به ورحب ، واصر على دعوته للغداء . . .  
وسيمر بها في الفندق ظهراً . . .  
(اذن لم تمت الروابط الانسانية بين الناس . . مدير البنك تجاهلني . . بديع رحب بي . . انها الحياة . . ثمة من يهتم بك لمجرد انك انسان ، لا لما يمكن ان «يستعملك» لأجله ) . . .  
سيارة انيقة . زوجة شاحبة . بديع استطاع الحصول على كرش معتدل في جنيف يزيد في هيئة الوجاهة التي تقمصته .  
جلس خليل الى جانب بديع في المقعد الامامي ، وجلست زوجته ندى الى جانب كفى في المقعد الخلفي . . جلسة منافية للأصول الأوروبية سر خليل بها . . . كان مصمماً على ان يتحدث وبديع «رجلاً لرجل» ، بصورة مباشرة ، قبل ان يخدع بحسن مظهرهما وفخامة فندقهما . . .  
السيدات بدأت الحوار أولاً ، بالشكوى طبعاً . كفى تشكو من فظاعة الحياة في بيروت ، وندى تشكو من فظاعتها في جنيف ! . . . لماذا ؟ «الايونات» في جنيف سلبية ، تسبب الصداع والأمراض والدليل في الكتب . . . وتدفتت ندى تشرح اسماء الكتب التي تستفيض في تحليل مساوىء الحياة في جنيف ، تلك اللجنة الأرضية بنظر كفى . . . وبدت

ندى تعيسة ومريضة ، يتصبب منها عرق بارد وترمق المشاهد الطبيعية الخارقة الجمال على جانبي الطريق بنفور بالغ . . . قال خليل محاولاً تبديل وجهة الحوار : لعلك تفتقدين بيروت . . .

— اكره بيروت وجنيف معاً . . . لقد طلبت من زوجي نقلنا من جنيف الى اي مكان آخر في العالم باستثناء هنا . . . وهناك .

قال بديع : نملك بيتاً جميلاً في حي الاتينية . . . والاولاد في المدرسة يتعلمون . . . لكن ندى تكره جنيف وهي مصممة على تركها . . . تريد مني تقديم طلب بهذا المعنى الى مؤسستي . . . سينقلوننا الى تانزانيا . . .

— أي مكان في العالم افضل من هذا الجحيم . . .

ذهلت كفى ، وحادر خليل كيف يتابع الحوار . . . فقد تدفق حزن حقيقي من صوت ندى ، وكانت شكواها من الحياة في جنيف لا تتوقف . . . وبدت وكأنها تعاني من مشكلة . . . وهو الذي جاء حاملاً مشكلته الى اصدقائه (المستقرين) في جنيف . . .

قال بديع : نحن في طريقنا الى مونترو الآن . . . سنمر بلوزان وستناول الغداء في مونترو وفيقي . انها مناطق خلابة على بحيرة ليمان . . . عوالم كالعلم . . . قال خليل : الآن موعد الاخبار . . . ما رأيك في سماعها ؟

اجاب بديع : قررنا مقاطعة اخبار بيروت . . .

— وهل ذلك ممكن ؟

— اهلنا في طرابلس لا في بيروت . . . واهل بيروت يستحقون ما اصابهم . . . (اللي بايداه الله يزيده) . . . هم الذين (احضروا الدب الى كرمهم) . . .

تضايق خليل . . . لم يستطع السكوت : أياً كانت اخطاء بعض قادة المقاومة في لبنان ، لا نستطيع ان نشمت بها او نغسل ايدينا منها . . .

— انت الجنوبي تقول ذلك ؟ اهلك الذين قاسوا من الانفلاش الفلسطيني زمناً طويلاً ، وعانوا تجربة صيدا البشعة منذ حوالى الشهرين . . . قبل الاحتلال الاسرائيلي بأسابيع . . .

— ربما . . . لكن ذلك لن يجعلنا يوماً نقبل بإسرائيل أو نترها منزلة المخلص . . . ان رفض التجاوزات التي قام بها بعض الفلسطينيين لا كلهم ، لا يجوز ان يتحول الى توجه نحو اسرائيل ، ولم نساها يوماً عضداً نستقوي به على «السلطة الفلسطينية» . . . جنوب لبنان سيبقى ولن يتحول يوماً الى شمال الجليل كما تشتهي اسرائيل .

تهدت كفى بصوت مسموع . . . يتابع خليل : ان الجنوبي يحسن التمييز (الوطني) معها عانى ، ورفضه للتجاوزات لم يحجب عن عينيه يوماً العدو الفعلي . . .  
( هذا هو زوجي . حين يبدأ بحديث السياسة لا يحتّمه . . . لعله نسي لماذا نحن هنا . . . )

يقول بديع : انا (قرفان) من كل ما يحدث . . ولن اعود الى لبنان الذي تم تدميره بحجة تغريبه أو تعريبه . . وقد عاهدت نفسي على عدم الاستماع لنشرات الاخبار . . سيواجه لبنان حرب الماية عام ، ولدي اعوام قليلة اعيشها على هذا الكوكب واستمتع بها . . .  
قالت ندى بصورة مفاجئة : كل ما يهكم هو استمتاعك . انك لا تفكر باولادك أو بأسرتك . .

فوجيء خليل بلهجتها وعدوانيتها ، وذهلت كفى التي الفت اخفاء مشاعر الكراهية العائلية في حضور الناس كما تقضي بذلك تقاليد آل البيتموني . ودار حوار غامض بين ندى وزوجها ، تكيل فيه ندى الاتهامات وبديع يتحاشى غضبها ويلطفها حتى كادت كفى تحسدها على رقة زوجها . . .  
وأخيراً وصلا الى «مونترو» ، ولم تتح الفرصة لخليل لشرح مشكلته . حين استقرا على الطاولة المشرفة على «بحيرة ليما» الباهرة الزرقة ، وقرر خليل ان يبدأ طرح مشكلته . .  
قال : اننا نفتش عن بيت . .

قاطعت ندى : لا تحاول . البيوت نادرة في جنيف . اضاف بديع : ثم انك بحاجة الى اقامة واجازة عمل قبل ان يرضى أحد بتأجيرك بيتاً . . وهذه امور عسيرة جداً هنا . . .  
حسناً . هذا بالضبط ما يريد ان يطلبه من بديع . . انه بحاجة الى بطاقة اقامة ، أي إلى عمل شريف . . سيطلب اليه ذلك الآن مباشرة .  
حضر الجرسون وافسد الفرصة . . .

ربع ساعة من الشجار بين بديع وندى حول اختيار نوع النبيذ ورداءة ذوق زوجها في هذا المجال ، ثم اختيار صنف السمك ، وهي تحب الترويت وهو يفضل الصول . . واخيراً تخلص خليل من (ورطة) الطعام ، وأن الألوان لشرح مشكلته . .  
قالت ندى فجأة : مشكلتنا هي انني لم اعد اطيق جنيف ، وقد نصحني طبيبي النفسي بمغادرتها ، اما بديع فمصر على البقاء وهو يدمرني بذلك . .

قال بديع : معذرة . سأعود بعد لحظة . .  
وانسحب مسرعاً قبل ان تعترض ندى . . .  
حدق خليل في البحيرة الجميلة ، والمراكب البيض تنبت فوق صفحتها ، والجبال  
الخضر توظّر المشهد الخرافي عند الافق ، وغمره حس عميق بالاسى . . تذكر بحيرة  
القرعون الجميلة في وطنه ، ونهر الليطاني الذي تصر اسرائيل على ابتلاعه . . . وقالت  
كفى : انك تعيشين في النعيم . . لا اتمنى شيئاً غير بيت امتلكه في جنيف . . وسأبقى هنا الى  
الابد . . .

قالت ندى متوترة : معذرة . . لقد تأخر بديع . . سأذهب لاطمئن عليه . . .  
وانسحبت .  
تبادل خليل وكفى نظرات الدهشة . . ظلا صامتين برهة ، وعادت ندى بعد قليل وقد  
غاض الدم من وجهها وتصبب من جبينها عرق بارد وهي تقول كمن به مس : لم اجده . .  
انه ليس هناك . .

- من ؟  
- بديع . .  
- ماذا به ؟  
- لم اجده في غرفة الهاتف . . .  
- لعله في الحمام . . . لسنا في بيروت لتقلقي عليه . . لن يختطفه احد في مونترال . لم  
تضحك للنكتة . قالت : ارجوك ان تذهب وتتفقده في الحمام الخاص بالرجال .  
دهش خليل لغرابة الطلب ، لكنه نهض . اما كفى فقد بدأت بالتهام الطعام الشهوي  
الذي احضره الجرسون . عاد خليل وقال ببساطة : لم اجده في الحمام . لعله ذهب لشراء  
سجائر . .

بدت ندى مضطربة وغاضبة ، ودعت خليل لالتهام طعامه قبل ان يبرد ففعل . احس  
بان شيئاً لا يفهمه يدور حوله . . قلق وعدم استقرار ، وهو الذي استنجد بصديقه  
( المستقر ) في جنيف ليساعده في زلزاله . .

قالت ندى فجأة وهي تنظر في ساعة يدها الكارتييه السبور : عشرون دقيقة ولم يعد .  
لم يفهم خليل لماذا تحصى الدقائق ، وغرقت كفى في لامبالاتها العفوية بالآخرين  
ومشاكلهم كبيرها وصغيرها . . فجأة نهضت ندى وقالت : يجب ان نفتش عنه . . فارق

خليل صحنه الشهى موجه القلب ، ورافقها . . غادرا المقهى ومشت ندى صوب الفندق  
الفخم « الجراندا اوتيل » على الرصيف الثاني . . وفجأة ظهر ( المفقود ) وقال لخليل  
معتذراً : آسف . . ذهبت لاحضار سجاتري . . قالت ندى : انت كاذب . . كنت قادماً  
من ناحية الفندق لا من ناحية السيارة . .

- لم اجد بقية من سجاتري في السيارة ، فذهبت اشتري سواها . . .  
- انت كاذب . . انك تدمر حياتي بكذبك . . ذهبت لتصل بها هاتفياً . . .  
- اسكتي الآن . . لدينا ضيوف . . دعوتهم لأجلك لترطيب الجو . . انني احاول  
المستحيل لتهدئة خاطرك . .

- لن اسكت . . سأفضحك امامهم وامام العالم . .  
وانفجرت تبكي وترتجف وسط الشارع . . فرافقها بديع الى السيارة وهويشتم ( جنس  
النساء ) ويشتمها ، وظل خليل واقفاً وسط الرصيف مذهولاً كمن سقط فجأة وسط مسرحية  
لا يعرف عنها شيئاً ولا يدري دوره بالضبط فيها . .  
توج ذهوله بسيجارة ، وعاد بديع اليه معتذراً ، متجهاً صوب المقهى لدفع الحساب  
واحضار كفى . . .

حين ضمتهم السيارة من جديد ، قال مضيفه في محاولة لتجاوز ما كان : ستتابع الدرب  
نحو بلدة « فيفي » - Vevey - فالطريق اليها جميلة جداً . .  
وانفجرت ندى تبكي : اريد العودة الى البيت . لقد ذهبت واتصلت بها هاتفياً . .  
اعرف انك كلمتها . .  
- انت يا ندى التي اقتحمت مركز عملها ، وضربتها وهشمتها وسببت لها فضيحة . .  
وتريدين الا اسأل عنها . .

- وعدتني بالا تحدثها بعد اليوم . .  
- وعدك بذلك قبل ان تذهبي اليها في مقر عملها وتضربها وتسببني فضيحة لها ولي . .  
- انها تستحق ذلك . : لماذا تسرق زوجي مني ؟ . .  
- لم تسرقني . . اننا صديقان لا اكثر . .  
- هذا ما توهمته حتى احضر لي « المخبر » مواعيد زيارتك لها . .  
التفت بديع الى خليل شاكياً : تصور . . لقد كلفت تحرياً خاصاً بملاحقتي وانفقت  
ثروة على ذلك . .

- انفتحتها من مالي الخاص .. وعلى اية حال اكتشفت بنفسي خيانتك ، وفشل التحري في ذلك .. اكتشفت بالحدس ..

واحتدمت المشاجرة .. وقرر بديع تحكيم خليل وكفى .. سيذهبان بهما الى البيت وسيروي كل منهما الحكاية من وجهة نظره !! ..

هذا ما كان ينقص خليل ! ..

ساعة .. ساعتان .. ثلاث ساعات في بيت جميل .. وندى تحكي وتبكي وبديع يدافع عن نفسه ويحكي ويبكي ، وكفى تتأمل المكان الجميل بغصة وتكاد تبكي حسدا لجمال بيتها ، وخليل مذهول وقد صعقته المفاجأة ..

وحين عرض بديع ايصالهما الى الفندق بسيارته بدل التاكسي ، قال خليل لنفسه : ها قد سنحت الفرصة . سأعرض عليه حاجتي في السيارة بعدما عملت طوال النهار لديه « كمستشار زوجي » لكن ندى اصررت على مرافقة زوجها كي لا يمر بغريمتها كعادته كلما وجد حجة لمغادرة البيت .. وتابعا شجارهما في السيارة حتى لحظة الوداع امام باب الفندق ..

واحس خليل بطعم مرفي فمه لعله ذل الغربة .. وسارع الى التلفزيون للاستماع الى نشرة اخبار الوطن ، وكان الوطن يتابع حريقه ، ولما يتدخل العرب في الحرب بعد .. وكل يتابع شجاره الزوجي او السياسي او العقائدي .. او لامبالاته .. والوطن يتحول الى رماد شيئا فشيئا .. وقبل ان ينام غنى بصوت خافت : بلادي بلادي بلادي / لك روجي وفؤادي ..

وتظاهرت كفى بانها لم تسمعه .. اغمضت عينيها واستحضرت صورة الايطالي الوسيم ، وعبارته : « آموري » رافقتها الى ارض المباحج السرية .

كل ما في عالم خليل كئيب ، يذكرها باولئك المسلحين الذين تكرههم جميعاً دونما استثناء وتتمنى لهم الشر كله . تستحضر من جديد صورة دي انجيليس لتغطي وجه خليل ، وتغرق في دفء صوته الآتي من الذاكرة : آموري .. آموري ميا .. وتقرر : لا حقيقة في هذا الكون غير الحب الحسي .



- متى ليلة المليار ؟ هل حددت لي موعداً؟ ... لي تلح من اجل تحديد موعد .. كي تطبع البطاقات وتدعو الناس وتعد الوليمة .. اجاب الساحر وطفان حائراً : لا ادري ماذا



يحدث للمندل . . . كلما جربت الحسابات ليوم ٢٨ ايلول ، او لأي يوم في شهر ايلول ،  
تقذف الماء والزيت في وجهي قوة سحرية . . انت تريد ليلة ٢٨ ايلول ، لكن الافلاك تأتي  
ذلك . . .

- ماذا يقول « الاسياد ؟ » . .

- لقد قمت بحساباتي وفقاً للأفلاك والجداول السحرية . حددت اسم الشهر العربي  
الماضي هلالا . . واخذت حرفه . . وكان يوم ٢٨ حرفه الغين على قاعدة ابجد . . .  
ثم حددت منزلة القمر ، واخذت حرف تلك المنزلة . . ثم عدت الى حرف الامهات  
اي اول حرف في اسم المرحومة والدتك ، والى عدد احرف اسمك . . .  
- حسناً يا سيدي الشيخ . . . انا اصدقك فدعني من التفاصيل . . . وقل لي  
باختصار : متى ؟

- في اقرب وقت . . .

- لماذا ؟

- لا ادري . . لم يحدث لي ذلك من قبل . . . هل تذكر يوم سألتني احمد الغنمالي شقيق  
صخر الاصغر عما اذا كان العام الآتي سيغير رئيس دولة صاحبه ام لا ؟ . . .  
- اذكر . .

- يومها كان وقت السؤال اليوم الرابع والعشرين من شوال . . والقمر وقت السؤال  
بمنزلة الرشا . . وكان علينا ان نعرف هل الكتاب الاعظم للمشتري وزحل الآتي يحملان  
التغيير . . . تذكر اننا اخذنا وقتها حرف اليوم الرابع والعشرين فكان « الخاء المعجمة »  
وكان حرف المنزلة في الجدول الغين المعجمة وحرف الطالع الهاء . . . وهو الثلث الأول من  
برج الاسد . . وحرف الاسم الميم من احمد لأن السؤال واقع في الثلث الأخير من شوال وبه  
كانت الامهات الاربع بهذا الترتيب هكذا ( خ غ ه م ) ، وبالعودة الى الجدول كان  
الجواب : ( يغير حاكم دولة . . اشد تغييراً من غيرها وكون الخراب فيها تـ بلا ريب ) وهو  
٥٦ حرفاً وبعد خروج الجواب هذا احتجنا الى اخراج الجواب الثاني وهو : هل الجواب  
الذي خرج في خصوص هذه المسألة قضاء مبرم ام معلق . .

- اتوسل اليك يا سيدي الشيخ . . انت الفلكي ولست انا . . . فقط قل لي متى . . .  
- كنت احاول ان اشرح لك . . لا ادري ماذا يحدث . . كلما حاولت تأخير ليلة المليار  
حتى الخريف ، يأتيني نذير غريب . . .

- ماذا يقول ؟
- يقول ان صاحب العيد لن يحضره . .
- ماذا يعني ذلك ؟
- قد يكون ثمة سفر مكتوباً عليك . . . ولا مفر من المكتوب . .
- سفر ؟ لا انوي السفر الى اي مكان . . .
- لا ادري . . حساباتي كلها تشير علي بالعجلة يا باشا . .
- وفي العجلة السلامة وفي التأني الندامة . . كان ذلك شعاري دائماً . . وهو ايضاً شعاري الآن بخصوص البدء بجمع المليار الثاني قبل ليلة الاحتفال بالمليار الأول . . . .
- بارك الله في مالك الحلال وقواك على صنع الخير والبركة . . .
- شكراً سيدي الشيخ . . . سيكون ما ارتأيت . سنحتفل بليلة المليار في اسرع وقت
- تسمح به الاستعدادات . . .



- عبثاً تطرد دنيا من عينيها صورة بحرية . . . عبثاً تغادرها الى براري النوم النائية . . ام
- تراه الحر غير المألوف هو الذي يضايقها ؟ . . .
- تقلب في سريرها ارقعة معذبة . . .
- منذ وصول بحرية ، لم تعرف طعم النوم حتى الرديء منه . . . ( تنهار الهواجس في رأسي كل ليلة وتتكرر داخله مثل آنية ضخمة من الكريستال لا أدري من يحطمها وسط جمجمتي ) . . .
- بحرية . . . تذكرها وهي تهبط الدرج دامية كأن مسامها تنزف وجلدها مغطى بالجراح ، ورائحة الحرائق تفوح لحظة عبورها للقاعة . . . لم تكتب صحيفة عن الحدث الرهيب : عن صببية يطل جسدتها بدم الابل والخفاش وتعذب باسم الحنان وتقمع باسم الوصاية والرعاية ، ويدعي قرابتها رجل جاء بها ليستغلها . وزوجها ( اللعين ) نديم هو المسؤول . . والحاضرون جميعاً يتمنون الى ( مافيا ) رغيد ، وبالتالي لن يقول احد كلمة حق خارج دائرة الهمس . . . (أليس هذا الواقع تلخيصاً لما يدور في بيروت الآن محاصراً

بالصمت واللامبالاة الثرثرة إلا « فيما ندر » ؟ .. وتلك « الندرة » ، أليست مثلي ، خائفة مقموعة ، وربما ايضاً خاطئة صغيرة نادمة ، او غير نادمة ؟ ) ..

سمعت صوتاً يناديها . . . انها لولحتها تناديها . . هذا الهمس ( الشعبي ) صارت تعرفه جيداً . . منذ التقت بجراح بحرية ، ولولحتها لم تدعها ترقد في سلام ليلة واحدة . . . كل ليلة تناديها ، تشكو لها حالها ، تؤنبها على ما فعلته بها . . تحاسبها لأنها دمرت الفتاة الصبية التي كانت ذات يوم ، كما دمرت فيما بعد صلتها بأولادها . . . وما هي ابنتها تحصي الايام الباقية لدراستها ، ولانتقائها اللغة العربية قبل رحيلها الى الوطن . . . وابنها . . فقدته بمعنى ما . . . صار غريباً عنها . .

عاد الصوت الهماس يعذبها : دنيا . . هل انت نائمة ؟ . .  
سدت اذنيها بأصبعيها ، فصار صوت اللوحة يأتيها اكثر ارتفاعاً . . .  
- دنيا . . . هل انت ثملة ونائمة كعادتك ؟

( نعم انا ثملة كعادتي ، لكنني لست نائمة . . لم اعرف طعم السلام لحظة واحدة منذ نظرت بحرية في وجهي حين لحقت بها الى الحديقة واقنعتها بالعودة معي الى القصر من المدخل الثاني . . . ارتحفت شفتها السفلى ، كأنها تكاد تبكي ، او تريد ان تقول شيئاً ، وانطلقت من عينيها تلك النظرة الكاوية السابرة للغور ، وتراءت لي في قاعها قوة مؤنبة وقاسية وجبارة الشحنة . . ولكنني احسست بحنان جارف ينبع من اعماقي نحوها ، كأن ضربتها القاسية فجرت ما تبقى من ينايبيعي الدفينة المنسية . . . ووجدتني اقول لنسيم : هذا ليس عدلاً . . . ما يحدث لهذه الفتاة هو ظلم . . . وكلنا مجرم ) . . .  
عاد الصوت يناديها : دنيا . . . اما زلت تغطين في نومك الثقيل ؟ . . .

نهضت ومضت الى الصالون ، واضاءت مصباحاً جانبياً ، وحدقت في لولحتها ، فلم تجد داخلها احداً . كانت اللوحة قد تحولت الى صفحة من البياض المطلق . جلست على الكرسي وقد ضيعت المفاجأة صوابها ، فوجدت « فتاة اللوحة » جالسة في المقعد المقابل ، جميلة ، نحيلة ، متأججة حياة ، وقد مسحت الدمعة عن خدها . .

تأملت دنيا بعمق وهي ترى نفسها قبل اعوام بعيدة جالسة ( امامها ) ، بصباها الوثاب ، وشعرها غير المصبوغ ، ونظراتها المباشرة البعيدة عن التزلف ، ونحوها ، واسلوبها الخاص في وضع السبابة والابهام على ذقنها حين تقرر السخرية من تافه ما ، او حين تتخذ قراراً هاماً . . . قالت لها فتاة اللوحة الجالسة على المقعد امامها : حتام تتهرين من

اتخاذ قرار حاسم ؟

- لا اتهرب ... انني عاجزة ! ...

- لماذا ؟

- لا ادري ...

- سأقول لك لماذا ...

- لا تقولي لي شيئاً بعد الآن ، اعرف كل ما يمكن ان يقال لامرأة مثلي ، فوفري انفسك

وانفاسي . انني ابذل كل ما بوسعي ... هذا كل ما استطيع ان اقله لك ...

- حسناً .. اذا لم تفعل شيئاً ، سأغادر اللوحة ولن اعود اليها .. ولن تجديني لحظة

تكونين بأمس الحاجة إلي ... سأتحلى عنك وادعك وحيدة .. ولن تقوم لك بعدها

قائمة .. هذا كل ما استطيع قوله لك ! ...

ومدت « فتاة اللوحة » يدها واطفأت المصباح ، فغرقت دنيا في الظلام ... سقطت

على سلام الظلام .. هوت طويلاً .. وحاولت الصراخ او طلب النجدة ، فلم تجد لنفسها

صوتاً ... ضاع صوتها كما ضاع صوت بحرية ..

بعد دهور من السقوط احست بيد تهزها .. فتحت عينيها . وجدت الخادمة توقظها ،

وتأمل بسخرية نومها فوق المقعد المواجه للوحة في غرفة الصالون ، وزجاجة ماء النار الى

يمينها شبه خاوية ... قالت لها الخادمة بلهجة ذات معنى : « عودي الى غرفتك يا سيدتي

قبل ان يستيقظ احد ويحك هنا » ...

ونفضت وصداع اليم يمزق نصف رأسها .. هذا الصداع النصفى لا يحتمل .. يجب

ان تزور طبيباً .. كل يوم تقرر ان تفعل ذلك ، ثم تبتلع عدة اقراص من الاسبرين وتنادي

بيكاسو وتحمله الى مزين شعره وتمضي الى النادي وترمي بجسدها نصف المترهل بين اسنان

الماكينات لتدلكها ، وتنشغل عن حياتها بتصغير حجم مؤخرتها وردفيها ..

ما كادت تدخل الى حمامها حتى سمعت اصوات تحطيم اشياء ... دفنت رأسها تحت

الماء البارد ، وكل ضربة تزيد في اوجاعها ، وقررت ان احداً لم يستيقظ بعد ، والدنيا فجر ،

ولم يحن وقت تكسير اي شيء .. لكن الاصوات تعالت وخيل اليها انها قادمة من غرفة

ابنها ... ذهبت اليه على رؤوس اصابعها ، وفتحت الباب بهدوء فقد تكون واهمة وتجد من

يؤنبها على حماقة ايقاظه ..

لم تكن واهمة .. فوجئت بابنها باهر يدمر مجموعته الخاصة من دمي البشر الآليين

( الروبوتس ) وهو طالما اعتبرها اسرته الخاصة . . .

لم يرها . . .

ولاحظت للمرة الأولى انه صار اطول قامه منها . . وانه كبر في غفلة عنها وعن دماه . . . وانه يرتدي ملابس ( البانك ) ويتبنى تسريحاتهم المجنونة الهستيرية . . . وانه صبغ شعره باللونين البرتقالي والازرق . . . وانه حين نادته لم يعرفها . . . واجابها باشعال لفافة حشيش ، جلس يدخنها امامها بهدوء وكأنه لا يراها . . . وحين جلست مقابله ، رفع في وجهها قدميه ، فلم تعد ترى غير المسامير الناتئة من حذائه ( البانك ) الخاص بتلك الملابس ، واسوارته الجلدية السوداء التي تلف معصمه والمسامير الفضية نفسها تحيط بها . . .

وحين حدقت في وجهه ، وجدته مغطى بالكدمات الزرق والدم لما يحف عن جرح قرب عينه . . غطت فمها بيدها ، وهربت الى غرفتها وهي تبكي . . . ( يا الهي ماذا فعلت بنفسي وباسرتي ؟ وهل هربت بياهر من بيروت كي يقتل هنا في شجار اكثر عبثية بين فئة البانكس ؟ . . . ماذا فعلت بياهر واخته ؟ ماذا فعلت بنفسي ؟ ) .

\*\*\*

فتح امير الباب ، ولم تبد الدهشة على وجهه حين شاهد دنيا . . . ادهشها ذلك . . قال ببساطة كأنه غادرها البارحة : اهلا دنيا . . قالت محرجة : لم تنسني ! . كأنك كنت تنتظرنى . . .

- كنت واثقاً من حضورك . . . لكنك تأخرت قليلاً . . . حوالى خمسة عشر عاماً . . . أو اكثر قليلاً . ضحكا . . . لم تفارقه روح المرح الاخاذة . غمرها انس عميق كمن يعود الى بيت سبق ان اقام فيه وسكنه في ايام سعادته . . . اضاف : حين اتصلت هاتفياً ، وسألت عن عنواني لتزوريني ذات يوم ، عرفت انك ستحضرين حالاً . . . فأنا اعرف انك تعرفين عنواني من قبل . . وانك طالما جئت ولم تدخلي . . . وهكذا طردت زواري . . وارتديت افضل وجوهي لك . . وخلعت نظارتي وانتعلت ابتسامتي . . .

ضحكا . . . قالت : خمسة عشر عاماً ؟ لا . . . التقينا منذ اشهر او اعوام في بيت رغيد . . .

- ليلتها لم تكوني انت ، ولم اكن انا . .

- طلب منك اصدار مجلة يمونها ورفضت . . .
- كنت اعرف عنه ما يكفي لكرهه . . . لكن الحياة روضتني فذهبت اليه لاستمع الى ما لديه . . من الافضل ان يعرف المرء ما يدور حوله ولو لم يكن ينوي ان يكون طرفاً . . .
- ثم انسحبت بسرعة معتذراً لحظة وصولنا . . .
- كان قد طاف بي في القصر . . . وتعمد اطلاعي على بركة البطر الذهبية . .
- فالتمثال . . . كان ينوي قهري واذلاي . . . اصر على ان اقرأ توقيع المرحوم ابي على قاعدته ، وتاريخ نحته . .
- ولماذا غضبت . . . لا اذكرك مغماً « بوثن » جمال عبد الناصر . . .
- قد تكون لي مأخذي على الممارسات غير الديمقراطية لحاشيته ومدى مسؤوليته عنها ، لكنه مهما قلنا فيه يظل رمزاً وحدوياً ونضالياً . . انه اشرف بكثير من امثال رغيد الزهران الذين يباهون بذكائهم ويأخذون عليه ( آدميته ) . . . معذرة فزوجك يعمل معه . . . وربما . .
- لا تعتذر . . . مع اشخاص كـ رغيد ، يحار المرء ما اذا كان يحبهم ام يكرههم حتى وهو يضاجعهم . .
- لم تبدلي كثيراً . . . ما زلت حادة الصدق . .
- لست سعيدة بذلك . . .
- شيء آخر آلمني في ذلك اللقاء . . هو انه لم يذلني كوحدي بل اذلني كإنسان . . انه يعامل تمثلاً نحتته ابي مثل سبية من سبايا . . كأنه يغتصب ابداع ابي واجدادني وفناني وطني جميعاً . . . وانت بينهم . . . ثم سخر من تسمية ابي لي بـ « امير » وهو الفقير وانا كذلك . .
- كنت للأسف واحدة من فناني الوطن . . . ولكني . . . انهرت . .
- لماذا توقفت عن الرسم ؟ لقد وقفنا الى جانبك فتخلت عنا وعن فنك وعن نفسك . . .
- ارجوك ، لا تقل هذا . . انك تؤلني . .
- لهذا جئت الي . . . جئت كي انعش ذاكرتك . . كي اقول لك انك كنت حقيقية واصيلة ، وانك اخطأت حين قايضت ابداعك بالذهب . . .
- كان ياما كان . . .

- لن انسى يوماً معرضك الأول ، وليلة الافتتاح . . لن انسى وجوه النقاد المتميزين ، وهم يطوفون بين لوحاتك التي لم ترسمي فيها سوى رجال عراة . . . ذلك على الاقل كان كل ما شاهدوه . . العري الرجالي ترسمه امرأة دونها ورقة ثوت . . .  
- كنت جريئة . . .

- صعبقوا . . جلدوك في مقالاتهم النقدية . . . سلخوا فروة رأسك وعالجوا دماغك بالادوية والعقاقير على طريقة الهنود الحمر ، وحين خيل اليهم انهم قلسوه في عملية ( شرينكينغ ) ، علقوه على ابواب الصحف المحافظة . . . ربطوك بأذنان احصتهم وطافوا بك نوادي المدينة ومقاهيها وشهروا بك . . . امرأة ترسم الرجال عراة ؟ غير مسموح . . .

- وجئت انت . . . ودافعت عني . . وقفت الى جانبي وافهمتهم انني ارسم الروح لا العري ، كما نحت مايكل انجلوروح الشباب الوثابة في تمثاله العاري دافيد المنشورة نسخه في ساحات فلورنسا والمحفوظ في متحفها داخل زجاج مضاد للرصاص . . . سألتهم يومها هل سيطلبون بتوزيع المايوهات على تماثيل الشوارع في المدن التي تحترم الفن ؟ . . وهل سينشئون مصنعاً للثياب الداخلية الخاصة بالتماثيل واللوحات في روما وموسكو وباريس ولندن . . . ومتاحف العالم وشوارعه . . .

- طلبت منهم محاسيتك كإنسان رسم ، لا كإنشي رسمت ذكراً . . . لقد الفوا ان يرسم الرجال نساء عاريات على مر التاريخ ، ولم يلحظوا الامكانية الأخرى . . ان تفعل المرأة الشيء ذاته . . . وحين فعلته انت جن جنونهم . . لم يلحظوا فنك سلباً او إيجاباً ، بل بدأت ثورتهم قبل ذلك . . . لمجرد انك امرأة رسمت رجلاً عارياً . . اعتبروا ذلك اعتداء على حقوقهم ، ولم يلحظوا انك ببساطة كنت تمارسين حقاً مشتركاً او خطأ مشتركاً . . .  
- كان زمناً جميلاً . . .

- تقولين هذا الآن . . . نسيت كم خوفوك ؟ . . . هل دفعوا بك للهرب الى الزواج ؟ . . . هذا ما اظنه . . .  
- ربما . . . لم اعد اذكر . . .  
- ترسمين الآن ؟

- اشياء قليلة يرضى عنها مجتمعي . . ارسم ( فيتراي ) نوافذ حديقة الازهار الشتوية . . ارسم فوق زجاجها اشياء تزيينية . . . بجعة هنا . . قرنفلة هناك . . بطة

- هنا . . . بركة هناك . .
- وماذا ايضاً . .
- ارسم احياناً فوق الوسائد الحريرية لصالوناتنا . . . رسوماً تزيينية غبية تعجب الضيوف . .
- اللعنة ! . . كنت تشتعلين ناراً وتمرداً . .
- ارسم لشغل ( الكانافاه ) . . ثم انفضه بالابرة لوناً لوناً . . . رسوم تمثل عائلات سعيدة في الصيد ، او قرب شجرة الميلاد . .
- اللعنة . . . كنت فنانة حقيقية . . .
- انفجرت فجأة تبكي . . .
- اقترب منها وقبلها فوق جبينها . ضمها الى صدره بحنان . غادرها فجأة وهو يقول :
- سأتركك . . جربي البكاء قليلاً وفكري كثيراً . . . سأشتري بعض الصحف واعود . . .
- فات الاوان . . .
- بالتأكيد لا . . . والا لما كنت هنا . .
- فات الاوان . . .
- ربما بدأت الآن بدايتك الحقيقية . . .
- فات الاوان . . . توسخت . . .
- كلنا موسخ . . ليس بيننا من يجرؤ على ادانتك . . .
- انت غير موسخ . .
- انني موسخ بالحق والغيرة . .
- ليلي ؟
- اجل . . .
- تلك الحمقاء . . . تريد تبادل الادوار معي . . ليس بالضبط . . . لنقل انها تريد تبادل الادوار مع زوجي . . .
- اجل . . هذه هي المشكلة ببساطة . .
- حاولت ان احدثها . . ان اجرها للحديث حول ذلك . . .
- ماذا قالت ؟
- غضبت ! . . ورفضت ، وتحاشتني . . .



- غضبت ؟ .. اذن ثمة امل ...
- لا امل ... من يسبح في تلك البركة المذهبة لا يغادرها قط كما كان ...
- ثمة امل ...
- انت مشهور بتفاؤلك ... لا امل لي ولا لها ... غطسنا في الماء الملوث وسبحنا في بركة الذهب ولا شفاء لنا ...
- قرع الباب ... دخل نسيم كالمجنون ، صارخاً دون ان يلحظ دنيا: ارجوك يا أمير .. رغيد ، وذلك الساحر المجنون .. سيقتلان بحرية .. ثم التفت وشاهد دنيا ، فضرب رأسه بيده وقال : معذرة ، لم ادر ان لديك ضيفة .
- لا تخف ... لن تقول كلمة واحدة ...
- ولكن ...
- اياً كان ما شاهدته .. اياً كان ما كان .. انها واحدة منا ، وستبقى ...
- تدخلت دنيا : ما الحكاية يا نسيم .. اقسم لك على الكتمان ..
- قال بلهجة ذات معنى وقلبه لما يطمئن ولن يطمئن يوماً لامرأة من طيتها : سأبادلك يا سيدتي كتماناً بآخر .. لن اقول انني شاهدتك هنا ، وبالمقابل لن تقولي شيئاً ..
- قالت : حسناً . ضعها في هذا القالب ما دام ذلك يطمئنك .. ماذا حدث ؟
- بحرية .. يريد الساحر ان يخلق شعر رأسها ليضع روث الكلب وعين الجمل وبقية عقاقيره المقرقة لمداواتها من الجنون ... سيدفعان بها الى الجنون حقاً ..
- اللعنة علي لأنني لفت نظر نديم الى صورتها في تلك الصحيفة البيروتية وقد نبهني تشابه الاسماء بينها وبين رغيد الزهران .. واللعنة على نديم الذي قرر احضارها ..
- قال نسيم : لماذا فعل ذلك ؟ ما زال يحيرني امر حضورها .. هل هي حقاً قريبة الزهران ؟
- اراد زوجي تلميع صورة رغيد اعلامياً ... « انظروا الثري الكبير يساعد لبنانية منكوبة » الى آخره ... الناس يحبون مواقف مؤثرة سينمائية كهذه ، ولا احد سأل عن دوره في نكبتها ... وهل القذيفة التي دمرت بيتها وقتلت اسرتها هي من ذلك السلاح الذي يبيعه للطرفين المتقاتلين هناك ...
- تعرفين الكثير ...
- اعرف ما يكفي لحمايتها .. لن اسمح لأحد بمس تلك الطفلة المسكينة ، ولوهدمت

المعبد على رأسي ورؤوسهم جميعاً . . .  
 - فيها شيء يثير جنون رغيد ووظفان . . . اخشى ان يقدم على شيء . . .  
 - سأكون معظم اوقاتي مع ليلي في القصر استعداداً لحفلة ليلة المليار . . . سأحدث اليه  
 اذا اقتضى الأمر . . .  
 - الساحر يتهمها بان شيطاناً يسكنها وهو بالتالي يخاطب هذا الشيطان ويعذب بحرية  
 متوهماً انه يعذب شيطانها كلما ذهب إلى غرفتها . . . المسكينة مصابة بخرس موقت اثر  
 صدمة ، ومنهارة عصبياً ، وبحاجة إلى علاج طبي في مناخ غير هستيري . . . لقد سمعت  
 صوت الساحر قادماً من غرفتها . . . كان هو يتحدث إلى نفسه بأصوات متعددة ، وليست  
 هي التي كانت تنطق . . . انه يقضي معظم وقته معها . . . لم يعد يذهب إلى الفندق ولا  
 يغادرها . . . انه مهووس بها . . .  
 - ورغيد ، ما موقفه؟  
 - مهووس بها هو ايضاً على طريقته . . . لكنه يجهل الفرق والحنان . . . وكلما حاول  
 غمرها بالذهب ذعرت . . . لا فارق في نظرها بين السبيكة وقطعة الحجر . . . ولا بين التبر  
 والتراب . . . انه مهووس بها . . . الكل مهووس بها . . . لا يراها رجل الا ويطير صوابه . . .  
 قال امير مداعباً : هذا واضح في سلوكك . . . اجاب نسيم : حسناً . . . وانا ايضاً . . .  
 انني اهييم بها حباً ، ولكنني اشتهي عافيتها لا دمارها . . .  
 قالت دنيا : وانا ايضاً . . . هذه الفتاة تعني لي شيئاً . . . لا . . . ليست الشفقة هي ما  
 احسه تجاهها ولكن المسؤولية . . . اشعر بالمسؤولية نحوها بمعنى ما . . . ولن اسمح لأحد  
 بايذاؤها . . . واذا جرب احدهم ، سأستضيفها في بيتي واعالجها ريثما تكون أعادتها ممكنة الى  
 بلدها ، وقد تهدأ الأحوال ونكتشف حياً في اسرتها . . . وقد تستعيد القدرة على النطق . . .  
 سأل امير : هل انت واثق من انها لم تكن خرساء من قبل ؟  
 - لا أحد يعرف شيئاً بالضبط عنها فيما يبدو . . . ولكن الطبيب أكد ان خرسها ليس  
 لعلة جسدية بل لصدمة نفسية . . . ورغيد أرسل من يتحرى عنها . . .  
 - إلى ذلك الجحيم ؟ من يرضى بالذهاب إلى بيروت الآن؟  
 - سيدفع . . . وسيجد جائعاً يذهب . . . لقد ألهمت فضوله وكراهيته وجهه في آن . . .  
 قالت دنيا : وداعاً يا امير . . . لدي ارتباط ويجب ان امضي . . .  
 سألها امير : هل ستشاركينا في التظاهرة احتجاجاً على غزو اسرائيل للبنان وحصار  
 بيروت وقصفها وتدميرها ؟ سننتقل من ساحة مولار في قلب جنيف القديمة ، وقد حصلنا

على ترخيص من السلطات . . . ستكون تظاهرة سلمية كما تعلمين . . .  
 - سأكون هناك . . .  
 اردف امير : بالمناسبة . . دعوت خليل واسرته لقضاء اجازة فقراء في آنسي يوم  
 الاحد . . . هل يمكن ان ترافقينا؟ . . .  
 - سأكون معكم بأي ثمن . . .  
 شد امير على يدها مودعاً ، وقبل جبينها ، وهمس بعذوبة : انتظر مكالمتك لتتفق على  
 التفاصيل . . فهزت برأسها موافقة ، وصافحت نسيم الذي بدا كطفل مدهوش ، وحين  
 مضت قال له امير : ما زلت شاباً صغيراً . . . سيملك الزمن بعض مفاجآت الطبيعة  
 البشرية . . . سيملك ايضاً الحنان والغفران . . تذكر يا نسيم : الحنان والغفران . . .  
 - ولكنني شاهدتها تغادر غرفة نوم رغيد مرات عديدة . . .  
 - ربما اعادها ذلك الينا . . . ربما كانت الاخطاء الفادحة وحدها تكشف للناس  
 حقيقتهم . . .  
 - والسيدة ليلي . . . هل تظنها ستمر بالدرب نفسها؟ . اجاب امير : لا اظن . . فهي  
 ترفض امتهان انوثتها ، لكنها للأسف قبلت بامتهان انسانيتهما كما يفعل بعض الرجال . . .  
 في رأسها الصغير عقل رجل . . .  
 - هل دعوتها للمشاركة في التظاهرة ؟  
 - لا . . . لن تحضر . . لديها فضيلة التمسك باخطائها . . انها بمعنى ما  
 تشبهني . . . مواقفنا متناقضة واسلوبنا واحد . يا نسيم ، لقد خسرنا ليلي .  
 قال نسيم بنزق الشباب : هي التي خسرتنا وخسرتك . . .  
 - لست واثقاً بعد من ذلك . . .  
 قال نسيم مبدلاً الموضوع الذي يعرف انه يؤلم امير : وابنك ، متى يحضر؟ . . .  
 - في اية لحظة . . . لقد منحوه التأشيرة وسمحت له السلطات بالسفر . . . اظنه ينتظر  
 صدور نتائج امتحانات عامة الدراسي . . .  
 - هل سيشاركنا في التظاهرة ؟  
 - لا ادري . . . لا اعرف ابني . . . منذ اربعة اعوام لم اره ، ونعرف أن رسائلنا مراقبة ،  
 لذا لا نكتب غير التفاهات . . . عشرة اعوام وانا منفي حتى من قلوب اولادي . . . لا  
 اراهم الا نادراً وهم بمثابة رهائن هناك . .

- وبسام . . اين هو ؟
- لا ادري . . . لم يعد في الليلة الماضية . . . انه يزداد سقوطاً داخل زجاجة الخمر ، وذات يوم لن يعرف كيف يغادرها . . .
- واطروحته ؟
- اكذوبة . . . لقد غادر بيروت عام ١٩٧٥ فور نشوب الحرب ، ولم يكن صغيراً . . . لكنه قرر العودة الى الدراسة كأنما هرباً من اتخاذ قرار . . . وطال الانتظار . . . انه متفرج ، اي انه حي مع وقف التنفيذ . . . هرب خوفاً من رصاصة تقتله ، وهو يمارس الانتحار هنا كل ليلة . . .
- سيقتله الانتظار . . .
- انه ليس قدراً . ليس من ذلك النمط الذي غادر بلده خوفاً من التورط تمهيداً للانضمام الى الرابع - اياً كان - فيما بعد . . . في اعماقه يقطن هاملت صغير . . . انه حقاً عاجز عن اتخاذ اي قرار . . .
- قال نسيم : مسكين : . ان الاشياء واضحة في رأسي اكثر مما ينبغي . . .
- هكذا الشبان دوماً . . . وهم لذلك معرضون لارتكاب الحماقات اكثر من سواهم . . . لكن الحياة تفاجئهم دائماً بالآخرين ، وبأنفسهم . . .
- ماذا تعني . .
- لا اعني تبريد حاسك واطفاء نار همتهك . . . ولكن تذكر ان الاسود والابيض ليسا اللونين الوحيدين في هذا الكوكب . . . واحبب حبيبك هوناً ما ، عسى ان يكون بغضك يوماً ما . . .
- لن يحدث ذلك لي في اي يوم . . . اني ثابت على موضعي . . .
- الدنيا ليست ثابتة . . . وكى تظل ثابتاً حقاً سيكون عليك ان تتحرك كابرة البوصلة . . . ابرة البوصلة وحدها تتحرك من غير ان تحون ذاتها . . . بل انها تبدل موقعها احياناً كي يظل اتجاهها ثابتاً . . .
- هل تظن ان حكمة البوصلة تقتضي دعوة دنيا وكفى في نزهة واحدة ؟ الا تعرف ان كفى صارت الست كوكو ، وانها نجمة صاعدة في عالم نديم وامثاله ؟ كيف تدعوجاسوسة لاجازة نهاية الاسبوع ، ستخبر نديم بسر دنيا ، وقد تعود دنيا لخيانتنا وتكشف سر خليل . .
- لن تعود دنيا الى خيانتنا . . . اعرف الطبيعة البشرية بما يكفي لتأكيد ذلك . .

- هل صار في مقدوري ان اثق بها ؟
- ليس اكثر مما ينبغي . . . انا اثق بها وبالمقابل لن يضايقي فضح بعض الاسرار واعادة خلط الاوراق . . . هذا زمن الفضح .
- هل استطيع ان اطلب منها خدمة مثلاً ؟
- ماذا تريد ؟
- ان تسرق جواز سفر بحرية من حوزة نديم !! . . .
- لماذا ؟ هل تنوي اختطافها ؟ . .
- قد نضطر الى تخليصها من جنون الساحر . . . من يدري . . .
- سافاتح دنيا بالأمر في نزهة الاحد . . . لكنني سأحتفظ بجواز سفرها عندي اذا تمكنت دنيا من الحصول عليه . . . لا اطمئن الى رعونة الشباب وطيشه . . ثم انك تبدو عاشقاً . .
- انني اكثر من عاشق . . . واقل من ذلك . . .
- ماذا تعني ؟
- اشتهي سلام بحرية ولا اشتهي وصالها . . . فيها شيء يذكرني بشقيقتي وامي . . .
- هذا يعني انك تحبها حباً حقيقياً . . .
- لا ادري بالضبط . . . انني على اتم استعداد للموت من اجل سعادتها ، بي او بدوني . . .
- هل هي جميلة الى هذا المدى ؟
- انها بالتأكيد كذلك . . . ولكن جمالها هو اقل ما فيها . . ثمة ضوء يشع من حضورها . . . كهارب توقظ في اعماقك ازماناً منسية من الحرية الشاسعة . . .
- تقصد انها مسحورة ؟
- انها تخرج السحر من اعماقك انت ، او مايكمن داخلك . . . كأنها مخزن للطاقة يفجر حقيقة كل من يلمسها . . ويدفع بالأمر الى حافاتها النهائية . . . المتأزمة . . . تبدولي احيانا واعية لكل ما يدور حولها . . . وتبدو تارة اخرى شبيهة بقوة قاسية لا مبالية : كالطبيعة . .
- اعتقد انني افهمك . . كل منكم يراها بصورة مختلفة . خليل يرى فيها مصيراً ممكناً لاولاده ، وقد اقلقته فقضى يوميه الاخيرين باحثاً عن مخرج من ورطته . . .

- وهل وجد شيئاً . .
- لا أدري بعد . . .
- لقد كان مشهداً مروعاً . . . هبوطها الى الحفلة مغطاة بالدم . . . لكن احداً لم يبال حقاً بمصيرها ، ثم انهم يثقون بالساحر ويخشونه . . .
- ورغيد . . . اليس اذكى من ان ينطلي عليه جنون ساحره ؟
- انه كالطفل بين يديه . . لقد خلبت بحرية لبه ، لكنه يوماً بعد يوم يكاد يصدق ما يقوله عنها ساحره ، لا طبيبه السويسري . . .
- والشيخ وطفان ؟
- تارة يشتهي ودها ، ويحاول ارغامي على دس تعويذة الحب في طعامها ، وتارة اخرى يبدو قانعاً بجنونها ، لكن رأيه استقر اليوم على انها مسكونة بعفاريت شديدة البأس تخطط لهلاكه . . . وبات يكرهها ويخشها ، وهذا ما قد يدفعه الى سلوك ارعن . . . اتوسل اليك ، لا تنس حكاية جواز سفرها . . .
- اعدك بان افعل . . .
- هل يمكن ان تطلب ذلك الى خليل ايضاً ؟
- ماذا بوسع المسكين ان يفعل ؟
- لا يضيرني قرع الابواب كلها . . .
- خليل سيرحل في اية لحظة مع صقر . . . لقد انجزت ليلي التأشيرات . .
- سيرحل ، الا اذا نجح في مسعاه ووجد عملاً .
- ارجو ذلك . . . ولكن هل حصل على اجازة عمل من صقر ؟ سيسهل ذلك اموراً كثيرة . . .
- لقد مر بي اول البارحة في زيارة خاطفة ولم يمكث طويلاً ، وليلي المحنكة لم تنجز غير التأشيرات له ولأسرته ايضاً ، كي يظل خليل تحت رحمة الغنمالي ، دوغما اجازة عمل وتحت طائلة ترحيله وعائلته في حال عدم الرضى عن سلوكهما ! . . ولكنه كان يمني النفس بلقاء صديقين من بيروت . . . لم يقل لي المزيد من التفاصيل فقد كان المسكين مشغولاً باستخراج عبارات « منجمون » و « تنجيم » و « سحرة » في القرآن . . لقد طلب هلال الغنمالي ذلك منه ليقرر هل يستشير الشيخ وطفان في امر مرضه ام لا ! ! . . .
- وطننا تأكله النيران ، وثمة من هو مشغول بمعرفة جنس الملائكة ، والسحر حلال ام

حرام . . . لا احد يبالي حقاً بما يحدث لنا . . . وحدهم عرب الأرض المحتلة خرجوا في  
تظاهرات احتجاج على غزو لبنان . . .  
- لا تفقد ثقتك يا نسيم بشعبك وامتك مهما حدث . . . امتنا قد تضيع وقتاً أو تتخدر ،  
لكنها لن تموت ولن تفقد اصلتها . . .  
صمت نسيم على مضض . كان يعرف ان امير لا يسمح لأحد بالتشكيك في امته . . .  
وانه ينطلق من الايمان بها . . . وهذا سر تفاؤله ! . .



آه ما اطول جبل الكذب . . . ذهل خليل وهو يرقب طاقة صقر على الاستمتاع  
بالكذب . . كان يودع عمه هلال ويقول : انا مسافري اعمي لانجاز معاملات التسجيل في  
لندن . . سأعود الى الدراسة . . .  
صدقه هلال وقال : بورك فيك . . ها انت تعود الى اصلك . . . لم يكن في اسرتنا  
( صايح ) قبل ان تصيب لوثة اوروبا اخي المسكين . .  
دخل صخر وسمع العبارة الاخيرة وبدا في حالة هياج : لا اسمح لك بالحديث عني  
بهذه اللهجة امام احد اولادي . . .  
- لقد علمت اليوم بأمر حريمك . . . الجناح الذي استأجرته لهم في الفندق ، والرمال  
التي غطيتم بها سجاد الممشى ( الموكيت ) . . هذا غير معقول يا اخي . . . واذا بليتم  
بالمعاصي فاستتروا . . . ثم اننا في شهر رمضان المبارك . .  
- لقد ابعدت اسرتي عن البيت لأجل راحتك . . وانت تراقبني وتتجسس علي ؟  
- لم اتجسس عليك . . . قضيتك لم تعد بحاجة الى جاسوس . . . انها تحتاج الى شراء  
جريدة . . . خذ . . . اقرأ . . . ناوله صحيفة سويسرية . . . شاهد فيها صورة مدير  
الفندق ، ثم صور نساء حاشيته يطبخن داخل حمام الفندق الفاخر ، وصور بعض اولاده  
يعبثون في الشوارع ليلة احد اعياد جنيف . . .  
قال هلال غاضباً : اقرأ . . . قد تكون مصاباً بعمى الالوان ولن تستمتع بالصور كما  
يجب ، لكن الحروف مطبوعة بالاسود فوق الأبيض . . .

اجاب صخر بلا مبالاة مصطنعة : تعرفها يا اخي . . . انها تلك الصحافية الأجنبية شارلوت بارنز التي تطاردني سعيًا وراء المال . . . سبق لها ان الفت كتاباً كاملاً عن الاثرياء العرب من النمط ذاته . . . انها محترفة في هذا المجال وهي اليوم تسعى الى تأليف الجزء الثاني من الكتاب .

- أياً كانت دوافعها ، لو لم تجد نقطة ضعف لديك لما كشفتها . . . لا تهمني نواياها ، المهم فضائحتنا . . . وخزينا امام ابناء بلدنا واهل الأرض . . . .  
- لا تخف . . . اولاد بلادنا لا يقرأون الصحف السويسرية . . .

- انت واهم يا اخي . . . مصر على عمى الالوان . . انهم يقرأون ويفهمون ويحقدون وثمة من سينقل اليهم هذا الكلام ويترجمه ، ولن يغفروا لنا ممارسات كهذه بينما الفلسطينيون يُذبحون واللبنانيون يُذبحون ، والمجاهدون من جنسيات اخرى يموتون معهم ونحن نلهو في شهر رمضان في فنادق سويسرا . . .

- استغفر الله . . . اننا لم نله في رمضان . . النساء يطبخن في حمامات الفندق طعامنا الوطني لأجل السحور . . . . اننا نتعذب ونصوم نهراً طويلاً طويلاً ولنا ثواب على ذلك . . . الم تلاحظ ان الشمس لا تغيب هنا قبل التاسعة ليلاً . . .

- لماذا تصرف الأموال لتحويل جنيف الى شبيه بأرض الوطن ، وتجعل منا سخرية للغريب ، بدلاً من انفاقها لتحويل اوطاننا الى جنات كجنيف ؟ . . . لماذا يرقص أولادك في شوارع اعيادهم ويذرون النقود ويرشون الدهان الملون على وجوه الناس ويصابون بهستيريا الفرح هنا . . . لماذا لا نعود جميعاً الى الوطن ونحتفل باعياده ؟

- لاننا نعيش في اوطان كثية لا مساحة فيها للفرح والحرية . . لان اعيادنا طقوس كآبة ، وزيارات مقابر ، وواجبات اجتماعية تخنقك وتحتاج بعدها الى اجازة . . .

- انها كذلك لاننا نحن صنعنا منها ما هي عليه . . . لا يضير الانسان ان يتذكر موته ، ليعيش حياته كأنه سيموت غداً . . . في المقابر حكمة لا تفسد الا المتع السطحية . . .

- احب المتع السطحية ، احب الوطن لكنني اختنق هناك . . . نساؤه يُخنقني ، رجاله ، تقاليده ، قد اكون مخطئاً لكن وطني ايضاً ليس على حق . . .

غضب هلال وارتحف وصرخ في وجه اخيه مقسماً على الرحيل : وجودي هنا للاستشفاء بمرضني . . لم اعد اطيع فضائحكم . .

ومد يداً مرتجفة الى خليل تحمل الجريدة وقال له آمراً : اقرأ لهم ، وترجم . حدثهم عن



سعادة مدير الفندق الشهير ، وعدم نكرانه في الوقت ذاته صلاته كيهودي باسرائيل وتبرعاته لها . . . انه يتبرع لاسرائيل من اموالنا . . . انهم يقتلون العرب في بيروت بأموالنا نحن التي نبذرها . . . اقرأ لهم ما تقوله عاملات التنظيف عن وساخاتنا واولادنا واحتقارهن لسلبية نساتنا الغارقات في الكسل والذهب . . . حسناً فعلت ابنة العم زوجتك حين حملت اولادها وعادت بهم الى بلدهم وللمتهم من شوارع ماريا وسان تروبيز ونيس تحت جناح تلك المدرسة في الوطن . . .

- تلك المدرسة عمرها رغيد . . . تذكر ذلك قبل ان تحرمنا من تعهد المطار . . .  
« شغل الترابية » وحده يقدر بـ ٥٠ مليون متر مكعب من « الترابية » . . من سوانا يقدر على ذلك ؟ . . .

ازداد هلال هياجاً : خزاك الله . . جعلت منا سخرية للغريب والقريب ، وتريد ان تربح مزيداً من المال تنفقه على خلاعتك وبذخك . . قسماً بالله لن اسمح لقرش بان يمس يدك قبل ان تعود الى الصراط المستقيم . . . ولن ابقى في هذا البيت النجس لحظة واحدة بعد اليوم . . .

قال خليل فجأة : طلبت مني يا شيخ هلال ان ابحث لك عن عبارة « كذب المنجمون ولو صدقوا » في القرآن . . . لقد فعلت . . انها غير موجودة . ولم ترد عبارة « منجمون » او « تنجيم » في القرآن . . لكن عبارات « سحر » وساحر وردت بكثرة . . . عبارة « سحر » وردت في ثلاث وعشرين آية كريمة . . . وعبارة « ساحر » وردت في ثلاث عشرة آية . . كما وردت مشتقاتها في « سور » كثيرة . . وهذا جدول بها يا سيدي هدية وداع مني . . .  
وذهلوا جميعاً حين مد خليل يده بورقة الى هلال فيها سجل دقيق بما سبق ان طلبه

الرجل ذات لحظة ، ونسيه . . .

قال هلال : انك لست رديئاً بقدر ما يتصور المرء .

تلقي خليل الالهانة ، وظل صامتاً . . .

اضاف هلال : اني آسف لسوء ظني بك . . وبابناء شعبك جميعاً . . . لم يقل خليل

حرفاً واحداً . . ظل مطرق الرأس حزينا .

( أجل . . . اتنا نعبر عن انفسنا بشكل رديء ، ونسيء الى سمعتنا بايدينا ، في حين

يتقن بعض العرب لعبة الازدواجية ويبدون افضل مما هم . . آه ما جدوى ان اقول شيئاً بعدما تقاتلنا وذبح الجار جاره في وطننا ، وباع بعضنا نفسه في الغربة من اجل حفنة من

الخطايا . . . )

كان الشيخ صخر أول من التقط انفاسه ، منتهزاً فرصة هدوء شقيقه ، وقال له مخاطباً :  
أرجوك ... الا ترحل ... سنستشير الشيخ وطفان بشأن مرضك ...  
- انتم مرضي ... واني لراجل .. ثم انني لم امعن النظر في تلك الآيات لأقرر ما اذا  
كانت تنفي وجود السحر ، او تلعنه ام لا ... ولكنني بالتأكيد راجل ..  
غمز صقر سكرتيه خليل بإشارة ذات معنى ( اتبعني ) ، وغادرا الغرفة ، فلاحق به  
خليل وهو يدمدم معتذراً : عن اذنكم ...  
وقال له صقر حين غيبتها الممشى : هل صدقت اننا ذاهبان الى المدرسة ؟ اننا ذاهبان  
للاستمتاع بعجائب الدنيا السبع ... ما دام عمي مسافراً فلن نساfer الآن وسنؤجل رحلتنا  
واطوف بك في متع سويسرا أولاً ...  
- كما تشاء ...  
- بدلت رأيي ! سترحل ...  
- كما تشاء ...  
سنوات وسنوات ونحن ننتظر الفرج منهم ، وهم يلصقون نقودهم فوق اعيننا كي لا  
نرى ما يفعلون ، ويحشون بها افواهنا كي لا ننطق ... سنوات وسنوات وهم يتحدثون عن  
« عروبة لبنان » بدلاً من « عروبة العرب » وعن « تعريب لبنان » الذي دفع ابناؤه دمهم  
توكيداً لهذه العروبة ... فماذا عن عروبة بقية العرب ؟  
ما اطول حبل الكذب ... وما اكثر سطوته واتباعه ... اما الصدق الذي ابتلاه به  
الوالد ، فشهد منسي بلا قبر ولا شاهدة ...  
ركبا في السيارة ، وانطلقت بهما قرب الموضع الذي دفن فيه خليل ( الحرقه ) كما  
صدرت اليه الأوامر من قبل رغيد تلبية لمشية الساحر ... لم يصدق انه تسلل في الظلمة  
وقام بهذا العمل الوضيع كأى كلب يحفر في الارض بحثاً عن قطعة عظم دفينه ... حينها  
يشم ذلك المسحوق الابيض السحري يصير قادراً على كل شيء الا الخجل ...  
اذن لن يسافرا اليوم وقد لا يسافران ابداً ... ها قد بدل صقر رأيه ، ولم يأبه به ، فهو  
دمية اضافية اشتراها والده له من مخازن « رغيد ليمتد » ...  
قال له صقر : لن اكون بحاجة اليك في عطلة نهاية الاسبوع ... تذكرت سيمفونية  
ناقصة سأنجزها بنفسني ...  
ضحك ضحكته اياها الضائعة بين شهقة العبث والجزل والموت ، وسرت رعدة في

جسد خليل . . . كان قد تحاشى ( الشمة اليومية ) الارغامية لمسحوق الطيران الابيض ،  
وحواسه متنبهة ومتوازنة . واردف صقر : اما صاحبنا السائق فسأكون بحاجة اليه في عطلة  
نهاية الاسبوع . قل له ذلك . . . نقل خليل ذلك للسائق السويسري ، فرد الآخر بكل  
تهذيب وقال اشياء كثيرة . . فهم صقر ، وصعق ، وقال خليل وهو يرتجف : يرفض  
مرافقتي ويتمسك باجازته ؟ يريد ان يقضيها مع اسرته ؟ يقول ان لديه برامجه للعطلة ؟  
يحاول توكيد حريته بغض النظر عن رتبته الاجتماعية ؟ يرفض توكيداً لانسانيته ؟ الوجد . .  
سأطرده الآن . .

- لا تستطيع قبل ان تبلغه ذلك وفقاً للاجراءات القانونية هنا ، وتدفع له  
تعويضاته . . . صحيح انه سائق ، ولكن ثمة من يحميه هنا . . انه سويسري .  
- من يحميه مني ؟

- القانون . النقابة . سلطات بلده . . . صحيح ان السواح يحبون سويسرا لكنها  
مفصلة على مقاس اهلها لا السواح . . .  
- تتحدث كواعظ . . دمك ثقيل . . خذ شمة اخرى . .

\*\*\*

حين غادر خليل الغرفة ، فتح هلال الورقة المطوية بعناية ، وقرأ بامعان كل ما سطره  
فيها ذلك اللبناني الشقي ، وكانت تحمل عنوان : السحر في القرآن . ويتبعها جدول فيه :  
اللفظة ، الآية ، رقمها ، السورة ، رقمها .  
قرأ الشيخ هلال هذه الآيات التي استخرجها له خليل من القرآن الكريم . . . قرأها  
بامعان ، وهو يتذكر النص الكامل للصور . . . فقد سبق ان حفظ القرآن في طفولته . . .  
ثم دفن وجهه بين يديه طويلاً ، والشيخ صخر جالس امامه صامتاً حابساً انفاسه ، وقد  
تدفق في قلبه الطفولي حبه العميق لشقيقه مشوباً بالندم لشجارهما . . .  
واخيراً كسر هلال ابريق الصمت وقال : سأسافر دون ان ارى ساحرك .

- كما تشاء يا اخي . . . ارجوك الا تظل غاضباً . . .  
- حين اقرأ كلام الله تصفون نفسي . . . لكنني غاضب من نفسي . . لقد ظلمت هذا  
الرجل اللبناني المسكين وقسوت في معاملته . . .

- لا بأس . . . هذا جزء من مهنته . . . ان يتحمل اخطاءنا . . .  
- لنا وقفة امام الحق معاً . . . لقد أسأت فهم ظروفه وسلوكه . . . صقر هو الظالم لا  
خليل . . صمت الشيخ صخر ولم يدافع عن ابنه ، لا يدري لماذا . . .

اخرج هلال من جيبه دفتر شيكاته ، وسطر كلمات ووقع ، ووضعها في مظروف صغير . . . الى جانب الثروة الصغيرة التي اهداها لخليل ، ترك بطاقة كتب عليها : آسف يا ابني . كلنا نخطيء احياناً . واذا اوصلت الابواب في وجهك ، بابي مفتوح . وكانت البطاقة تحمل عنوان الشيخ هلال في وطنه .

اغلق المظروف وكتب عليه اسم خليل ، واعطاه لشقيقه قائلاً : هذا لخليل . . . لا تنس . . .

وضعه صخر على طاولة غرفة المكتبة ، ونسيه لحظة افلته يده ! . .



وقف خليل امام رف ( المظاريف ) في مخازن ( البلاست ) الكبيرة . . . كان بحاجة الى مظروف واحد يودع فيه بطاقات الهوية اللبنانية له ولاولاده خوفاً عليها من الضياع بين اكوام القوضى في غرفة الفندق وسط جوارب كفى المذهبة واحذيتها الحمر التي كانت تتكاثر يومياً كالآرانب . . .

وجد الحجم المناسب يباع في رزمة تحتوي على مائة مظروف . . . وهو بحاجة الى مظروف واحد فقط . . . قرران يفاوض موظفة البيع حول ذلك . . . شرح لها حاجته بلغته الفرنسية الجيدة ، ولكن المشوبة بلكنة غربية بالطبع . . . زجرته ورفضت بحث الامر معه واهاته متعرضة لعدم فهم الاجانب المتخلفين لفكرة ( السوبر ماركت ) حيث يباع كل شيء اوتوماتيكياً كما هو وبالسعر المدون عليه . ووقف خجلاً كالتلميذ المذنب الكسول يستمع الى تقريرها وخيل اليه انه يحمل على رأسه قبعة لها اذنا حمار . وقطع تأنيبها وصول شاب بدا واضحاً انه ( ابن بلد ) ورقيق الحال يريد الطلب ذاته . . . مظروفاً واحداً وليس مستعداً لشراء المائة . . . وقبل ان تلقي عليه اكثر من سطر من المحاضرة ذاتها ، جابهها بالصراخ والاحتجاج ولعن مخازن ( البلاست ) التي يفترض انها شعبية لكنها تستغل الناس وقرر فضح امرها امام الملأ والشهير بها وبمؤسستها ، ورفع شكوى للمدير وللبلوليس . . .

وحاولت البائعة مناقشته فصرخ في وجهها وتابع غضبه الشفهي بلهجة ( الأرجو ) لفرنسية العامية ، واذعنت البائعة له حين هز لها احد المسؤولين برأسه موافقاً ، وكان واضحاً انه حارس يتظاهر بانه احد الزبائن . . .

وظن خليل ان ما هو مباح لذلك المواطن مباح له ، فعاد يطلب منها الشيء ذاته طالباً المساواة ، لكنها صبت جام غضبها على رأسه وكررت ما قالته في المرة الأولى متجاهلة حادثها مع مواطنها . . .

وشعر خليل بذل الغربية نصلاً يخترقه حتى قاع روحه . . . في جيبه من المال ما يكفي لشراء كل ما في ( البلاسييت ) من مظاريف ، لكنه عاجز عن شراء الاحترام او المساواة ، في حين استطاع الرجل الآخر تحصيل حقه في كل شيء وليس في جيوبه على الأرجح اكثر من فيرنك واحد . . .

لعن الله ذل الغربية . . . أليس الوطن هو المكان الذي لا يستطيع احد تحقيرك فيه ؟ تستطيع ان تكون فقيراً وتعيش في بلادك موفور الكرامة من حيث المبدأ على الأقل . . . وذلك مستحيل في اي مكان آخر . . . الا اذا كنت من طبقة ( الجت ست ) ، فالمال يتنقل معزراً مكرماً في كل مكان تقريباً . . .

دهمه من جديد ذلك الذعر البائس المرير : هل ستمنعه اسرائيل من العودة الى وطنه ؟ . . حين غادر ( البلاسييت ) مشى عشر دقائق حتى جزيرة « جان جاك روسو » التي تتوسط نهر الرون . . كان المكان شبه مقفر وريح ( الكانيكول ) تلسع الوجوه بنار سرية تحملها . . وامام عيني تمثال روسو صرخ خليل بأعلى صوته : لعنك الله يا بيغن . . . عسى ان يصيبك حزن في حياتك وبؤس كالذي سببته لنا . . .

لم يلتفت حارس الحديقة ، وتابع البجع الابيض تهاديه على صفحة البحيرة . . التمثال وحده بدا ان جفنه رف . . وربما دمعت عينه . . ام انه يتعرق حرّاً ؟ . . غادر الحديقة وهو يغني : « نحن الشباب لنا الغد » بصوت حزين مكسور كأوتار صدئة في عود منسي . .

حين عاد خليل الى الفندق ، وجد اوامر من صقر : سنسافر بعد غد عند الفجر . . . وهوى خليل في بثر ذل بائس : اذن سيرحل بعدما فشل في الحصول على اي بديل . . . انها الأوامر . . . انه ذل الغربية . . وثمة من يجذبك محظوظاً لأنك وجدت من ينفق عليك مقابل اهانتك . . . سيرافق صقر ويدلله كصبي مفسود . . وستفرغ كفى للخدمة رغيد في فريق العمل الذي تديره ليل استعداداً لليلة المليار . . وقد تجد بعض فراغ تهرب فيه من حيرتها واحزانها الى نشوة الجسد . . اما هو فحيرته واحزانه عطلت لديه نشوة الجسد ، كأنه يحمل اعضاء كلها في رأسه المعذب المهودود . ذل الوطن اولاً ، والآن ذل الغربية . . . لا يدري لماذا تذكر بحرية . . . تلك الغربية مثله ، ماذا تملك لأمرها ؟ . . تلك

الساقطة في فخ العنكبوت الذهبية القاطنة في الوكر المربع ، كيف تواجه ذل الغربة ، ممزقة الجسد والذاكرة والروح ، هامة الصوت ؟ . . أليس في دربه ليصير مثلها ، هو و أبناء شعبه من السبايا المنذورة للقمع والتمزيق والاذلال ؟ . . .



مساء حار ، وجنيف تزفر انفاً صحرأوية يسمونها « الكانيكول » . . . . وهذا بيت يليق بها ان تقطنه . . . لقد حدثت منذ البداية الذوق المرهف لنديم ، وتأكدت الآن من ذلك . . .

كل ما فيه يليق بكفى البيتموني ، بدءاً بجرس الباب الموسيقي ، مروراً بجرس الهاتف الخاص الرنين وانتهاء بصوت الخادمة ليليان وهي تقول لها : « وي مادام » . . . حاضر مدام كوكو . . .

حين هتف نديم وواعداها على اللقاء في عنوان تجهله ، توهمت انها في الدرب الى فندق آخر . . . لكنها وجدت نفسها امام مبنى سكني باهر الفخامة ، مدخله مرايا ، وكاميرات تلفزيونية لأمان السكان ، وباطنه صدفة تليق بلؤلؤة مثلها . . . كان ينتظرها امام الباب ، وارشدتها الى ( الكود ) السري لفتحه كي يكون في مقدورها الحضور متى شاءت . . . قال لها : « هذه شقتي الخاصة السرية . . . اعتبريها ملكاً لك » . ويا لها من ( دوبلكس ) خرافي الأناقة والفخامة . . . المقاعد المخملية ، والوسائد الحريرية ، و ( الموكيت ) الثري كعشب ابيض ، فالسلم الذي يقود الى غرفتي نوم . . . وغرفة النوم واحة حب ، والستائر ترقص مغناجاة لتكمل رقصه السرير الدائري الذي يتوسط الغرفة ، ويدور بضغطة فوق زر كهربائي ، وفي « السقف - المرأة » شاهدت حشها باهراً كما لم يكن ابداً . . .

اشعل الثراء بوجهه مشاعرها ، فانكبت على جسد نديم الصدى تزيل بشفتيها عنه الرماد والغبار وتكنس زواياه بشعرها واهدأها . . . ها هو ينبض ويخلق معها وصوت الموسيقى يضع مع تأوهات نشوتها بالطيران الدافئ المسحور ، ونديم يفرد جناحيه نساً يحملها الى قمم لا مألوفة . . . ( ادوية الشيخ وطفان فعالة حقاً . . . ما يحدث لي لا

يصدق . . . لقد نسيت طعم هذه النشوة الشابة منذ زمن بعيد . . . كفى تنوهمي فحلاً ولا ادري لماذا يسعدني ذلك ! ) . . . .

نهضت الى الحمام كأنما لتطمئن الى جمالها . . . مرت بغرفة صغيرة مخصصة لخزائن الثياب . . . كم حلمت بأن تكون لها غرفة كهذه تقود الى الحمام ، وتنسج لمسات ( الفساتين ) ولا شيء غير الاناقة والمرايا . . . الحمام جنة نسائية . . هذه مرآة مكبرة لترى وجهها تحت مجهر التجميل . . . سشوار للشعر . . ميزان للرشاقة . . . اللعنة على خليل الذي حرمها وعاء يليق بها . . . لن تغادر هذه الجنة من اجل أي مخلوق . . . ستبقى في هذه الشقة مع مالكةها ، نديم اوسواه ، لا فرق . . .

اجبت اكتشافاتها لخزائن الثياب عواطفها من جديد وهي تتخيلها ممتلئة ( بفساتين ) للسهرة تخصها ، وبمئات الاحذية الحمر ذات الكعب العالي ، فغسلت وجهها ، واصلحت زينة عينيها بما كياج جديد وجدته قرب مرآة الحمام ، وعادت الى جناحي نديم تحرضها على طيران جديد . . ووجدته يخلق بها من قمة الى اخرى . . . وهي تطلب المزيد . . .

وفجأة شعر نديم ان قلبه يكاد ينفجر . . . ( لكل شيء حدود . . حتى عقاقير الشيخ وطفان . . الا شهوات هذه المرأة اللامتناهية فلا حدود لها ) . . .

انقذه رنين الهاتف . . . وجدها فرصة لاستعادة مظهره الجاد . . . وسارع الى ارتداء ثيابه والهرب من برائتها لعمل طارئ كما ادعى . . .  
سألها متظاهراً بالبراءة : هل يضايقك ان يحضر ضيفي لزيارتي هنا ؟ انه ثري عربي كبير وثمة عمل لا يمكن تأجيله . . .

تمددت داخل قرص مرآة السقف ونشرت اعلام عينيها الزرق فوق قممها البيض وقالت وهي تتقلب بنشوة : اهلاً به . . . هنا أو في الصالون تحت . . .  
وضحكت لنكتتها . . . .

اما نديم فلم يضحك . كان ذلك ببساطة مخططة ، اليوم او غداً . . وكان يعرف انها ستستجيب بنشوة لذلك ، وهذا افضل انواع الغواني . . . ستستمتع ( بعملها ) وتمتع ، وسيساهم ذلك في المردود العام لاعماله . . . المضيفات الجميلات ضرورة في دنيا ( البيزنس ) لاصحاب الملايين الطامحين بالمليارات . . .



فجر حار ، وجنيف تزفر انفاساً صحراوية . . . يبدو بسام منهكاً وهو يقول لأمير :  
جئت اودعك . . .

كان امير قد نهض في الصباح الباكر جداً ، للقاء خليل واسرته ودنيا ، امام موقف  
الباص الذي سيقلمهم الى « آنسي » لقضاء اجازة الاحد . . . فوجيء بوصول بسام ،  
ورائحة الخمرة ما تزال تفوح منه ، وبدلاً من ان يعتذر هذه المرة كعادته ، قال جازماً : جئت  
اودعك .

حاول امير ( تبريد ) الموقف ريثما يهدأ بسام وتنجلي ( النوبة ) : ظننتك سترافقنا الى  
« آنسي » .

- لن ارافقك الى اي مكان يا امير . . ولن اخرج في تظاهرتك . . سأخرج الى الابد من  
حياتك ، وسأخرجك من دوري الدموية انت وما تمثله . . .  
- ماذا حدث فجأة ؟

- انني خائف . . يزداد خوفي يوماً بعد الآخر . . .  
- ولكنك لا تفعل شيئاً . . .

- قررت ان افعل شيئاً . . . سأهرب الى كندا او اوستراليا . . . سأنسى كل شيء عن زمي  
الماضي . . . سأنسى كل شيء عن هذا المكان . . .

قالها وهو يشير بيده الى خارطة العالم العربي التي تتصدر وحدها الجدران العارية . .  
وتابع ضارباً على قاعدة تمثال فارغة : وسأنسى كل شيء عن تمثال والدك الذي تحلم  
باستعادته وقد اعددت له قاعدته هذه . . كل شيء عن تظاهراتك اللامجدية . . . وكتبك  
وروادك وحلقاتك الفكرية . . . ذلك كله لا يجدي . . .  
- والهرب ، هل يجدي ؟

صمت بسام حانقاً . همس امير مستسلماً : كما تشاء يا اخي . . . لك الحق بعد اعوام  
من التأمل ان تتخذ قراراً ما . . . وانا سعيد لأنك فعلت ذلك اخيراً ، أياً كان ذلك  
القرار . .

مد يده ، وصافحه بود حزين . . . هوى بسام دمعة بجثته الضخمة في احد المقعدين  
الوحيدين في البيت ، بينما غادره امير متجهاً الى ساحة تجمع ( الباصات ) عند تقاطع  
شارعي « تالبرغ » و « الالب » .

نهض بسام يللملم حاجياته القليلة في حقيبة . . . منذ رحل وهو يحمل حقيبتين . .



واحدة سوداء مغلقة تضم بعض ثيابه الانيقة نسبياً الخاصة بالمناسبات ( الاحتفالية ) ،  
والأخرى رمادية تضم بقية اشيائه . . في اليوم الاول لرحيله ، فتح الحقيبة الرمادية ، وعلق  
اشياءها في خزانة الفندق ، وترك السوداء مغلقة ، وقال لنفسه : سأعود قريباً الى وطني ،  
فلماذا افتحتها واغرق في الفوضى ؟ . . ومرت الاعوام ، وهو لا يمس الحقيبة السوداء ولا  
يفتحها ، بل يتنقل بها من مكان الى آخر . . والغريب ان احداً من موظفي الجمارك لم يطلب  
منه يوماً فتحها ، كأنها وهمية ولا مرئية ، وهو وحده يراها ويحسها . . . ولا يفتحها كأن  
الغربة ستنتقل منها وترغمه على الاعتراف بها كمصير نهائي .

فتح بسام خزانة ملصقة بالجدار . . . اخرج منها الحقيبة السوداء المغلقة منذ ذلك  
الزمن الغابر ، فالأخرى الرمادية التي بدأ يجمع اشيائه القليلة فيها ببطء أثقله الغم .  
( هذه الحقيبة السوداء لم تعد تحمل داخلها غير الحزن . . لم اعد اذكر ما فيها من  
ملابس ، ولم تعد ثياب الزمن الغابر بقادرة على احتواء جثتي التي تضاعف وزنها كأني بدين  
بالهم ، فلماذا احملها معي مصراً على الا افتحتها الا حين اعود الى بيروت ؟ . . . يوم غادر  
العرب الاندلس حلوا معهم مفاتيح بيوتهم وذهبت البيوت وبقيت المفاتيح فعلقوها على  
جدران المنافي ، فهل سأعلق حقيقتي على جدار منفاي الآتي ؟ . . . اما زالت الاشياء كما  
هي داخلها ، راقدة كالاكفان ، ام ان العث اتي عليها ، وتكاثر الديدان وسطها كما لو  
كانت تضم جثة ، واية جثة . . . جثة عمري الماضي كله ، عمري الغابر المتألق  
المتوهج . . .

كيف حاصروني وحولوني الى كائن مذعور يخاف اصابعه التي قد تكتب وتقول الحق  
ويخاف رأسه الذي قد يفكر فيعالجه كل ليلة بضربة من بلطة الخمرة والدوار والصداع . . .  
منذ البداية حوصرت . . . منذ عام ١٩٦٧ يوم صدر كتابي « نقد العقل السلفي »  
جروني الى المحكمة وشنقوني على اعمدة الصحف . . . ثم ذهبت المحاكم وانتعشت  
الاغتيالات تعذيباً ، ولم تعد تعرف حذاء من عليك ان تعلق لتحيا بعدما تكاثرت الاحذية  
والجرزات فوق رؤوسنا . . . وانا رجل لي جسد ثور وقلب طفل . . . جبان . . . اخاف  
التعذيب والقتل والاذلال . . هذا ما حدث لبعض الرجال . . لكثير منهم لو اعترفوا  
بحقيقة مشاعرهم . . . امير من طينة نادرة لا يرعبها الموت وأنا لست كذلك . . . في  
البداية قلت لنفسي : سأهرب تحت ستار الدكتوراه وانتظر هدوء الأحوال في بيروت . . .  
وتركت هذه الحقيبة السوداء مغلقة . . كان مجرد فتحها يتضمن اقراراً باستسلامي لحقيقة

الغربة كحل نهائي .. وعجزت عن ذلك كما عجزت عن العودة ، وحلقات الحصار يزداد عددها هناك وشعاراتها ... وجعت ، ورفضت الانضمام الى رغيد الزهران ، لكنني أيضاً عاجز عن المشي في تظاهرة امير النيل ... وكلما اقترب موعد التظاهرة ازداد هرباً إلى عنق زجاجة تحذرنى ...

انني ببساطة رجل لا يريد ان يموت مقتولاً ... المحاماة مهنتي واحب مقارعة الحجة بالحجة ولا اصلح لحرب العصابات ، وها هم جنود بيغن يحاصرون بيروت لابتلاع المجانين الذين يقتلون منذ اعوام فيما بينهم ويبيدون كل ما حولهم : المنطق والعدو والصديق والطفل والوردة ...

اريد أن اهرب .. وان انسى ... أ. ن. س. ي ... اريد ان اموت بالشيخوخة في مكان ما على هذا الكوكب .. اي مكان ) ...

دفن بسام وجهه بين يديه بعض الوقت ، ثم اخرج علبة سجائره فوجدها فارغة . تذكر ان امير اكتشف مكاناً يبيع السجائر يوم الأحد لكنه لا يفتح ابوابه قبل التاسعة ... دار في البيت كالشبح بانتظار اقتراب التاسعة ، واحس بغصة وهو يتذكر ان امير كان يخرج صباح كل احد من كل اسبوع لشراء الصحف وسجائره بينما هو يتابع نومه مخموراً ... وشعر بأنه سيفتقده ، ولكنه تعب من الخوف .. تعب من عدم القيام بخطوة الى الوراء او الى الامام لأن كل خطوة تقود الى خلل في هذا الزمن الرديء ... وهو قد حزم امره على مغادرة الشطرنج العربي بأكمله ... سيتحول الى كونغارو في اوستراليا ، أو قطعة جليد في كندا .. اودب في القطب .. المهم ان يخرج من المتاهة ...

انها التاسعة اخيراً ... سيختنق اذا لم يدخن لفافة سيجارة كاملة بعدما انجز تدخين بقايا الاعقاب في ( المنافض ) كلها .. في العادة يخرج امير فيحضر له سجائره والصحف ، وهو ينام ثملاً اما اليوم فدوره . غادر البيت . ما كاد يمشي عدة خطوات حتى اقترب منه رجل على دراجة نارية كأنه ينتظره ويعتزم ان يدهسه . توقف على الرصيف منتظراً مروره . توقف الآخر ايضاً . الشوارع خاوية . لا مارة . اخرج رجل الدراجة النارية مسدساً . ذهل بسام واحس انه يشهد فيلماً رديئاً . ملح المسدس مسدداً اليه ، ولم يصرخ فقد غلبته الدهشة واراد ان يقول شيئاً فلم يفلح ، ومر كل شيء بسرعة خارقة ... وشعر بشيء يلتمع امام عينيه ، ولم يحس بنفسه يسقط على الرصيف والدم يتدفق ببطء من ثقب في جبينه ...

وآخر في خده . . . ولم يسمع احد صوت الرصاص ، فقد كان المسدس مزوداً بكاتم للصوت .

وانطلق الرجل « الشرق - اوسطي » الملامح على دراجته النارية .

\*\*\*

تمددت دنيا فوق العشب الاخضر وغمرتها سعادة وهاجة . . . احست بأن شعرها صار عشباً اخضر يتسلل الى قلب تراب تلك الحديقة الأسرة الجمال ، واعضاء جسدها شرايين توصلها بالدورة الدموية لايقاع مباحج الفقراء والبسطاء الذين يزدحم المكان بهم ، والذين كانوا قومها ايام كانت فتاة اللوحة العتيقة . . اما كفى فقد استرخت كقطعة جميلة تتقن ألاعيب الشراسة المفاجئة ، وتأملت امير ، الرجل الذي تكره ، بعين جديدة لا ينبض فيها ود انساني ، بل شهوات نسائية خاصة . .

( هذا رجل اراه للمرة الاولى ، بعدما قضيت سبعة اعوام وانا اكرهه واغار من حب زوجي له . . . وها انا بعد ساعتين من اللقاء الأول اسقط تحت سطوة جاذبيته الجسدية الخارقة العفوية . . . فيه شيء خاص حميم يثير الشهية الى امتلاكه . . شيء لا يملكه نديم ولا خليل ولا روبرتو دي انجيليس ، الصبي الايطالي الوسيم الذي يحلو العبث معه وبه . . . شيء يبعث على الرغبة في تدمير مشاعر الثقة والطمأنينة اللتين تقطران منه . . كنت اتصور امير عجوزاً بغيضاً لا ينطق الا بالنحوية ، ولا يتحدث بغير الفلسفة . . وها هو امامي بسيط كالتراب . . شاب كالازهار . . عفوي كهذه البحيرة المتوحشة المتواضعة . . ليس رديئاً كذكر ! . . انه من فصيلة يحلولي تجريبها . . كان منظره طريفاً منذ ساعة ، ورامي وفادي يقفزان فوقه كالكلاب الصغيرة وهو يتمرغ معهما في العشب الرطب مثل كائن آخر دافئ من كائنات الطبيعة المحيطة بنا . . رغم نعاسي . . رغم كراهيتي للجلوس في الحداثق العامة مع الطبقة العاملة التافهة العادية . . رغم بغضي للباص الذي ركبناه الى هنا بدلاً من سيارة نديم الفارهة . . رغم كل شيء اجد امير كرجل وسيماً ، ولا عجب ان تطارده دنيا بحضورها معنا ) . نهض امير وقال : سأذهب لشراء بعض السندويشات للغداء . .

ارتجفت كفى تفرزاً . انها تكره الرجال الذين يقدمون لها الشطائر للغداء بعدما الفت الوجبات الملكية بالملاعق الذهبية .

قال خليل : سأرافقك . . .

- لا . ابق حيث انت .

- ولكن . . . .

- الشطائر رخيصة في الحدائق العامة . . . الضروريات هنا معقولة الثمن . . اما الكماليات فباهظة . . ثم انني لست فقيراً الى هذا المدى . . .  
تضايقت كوكولـ ( قلة ذوق ) امير المباهي برخص دعوته ! . . . قررت شطبه نهائياً  
عن قائمة عشاقها الممكنين .

الح خليل : سأرافقك . .

لم يكن يريد ان يبقى وحيداً وكفى . . . لقد فجر جمال الطبيعة احزانه ولا يريد ان يوجه  
كلمة جارحة اليها . . . ولا يريد ان يطالعه وجه دنيا المتفجر بفرحة هستيرية مقلقة ، كأنها  
قد تتداعى في اية لحظة . . .

مضيا ، وتقلبت كفى على العشب وحدقت في سماء ( آنسي ) الشفافة الزرقة . . . .  
وتجنبت اي حوار ودنيا . . لكنها تتوق الى مشاهدة وجه نديم حين تبلغه ان دنيا تحاول ان تحل  
مكان ليلي في حياة امير !

سار الرجلان بصمت ، وقال خليل : كيف وجدتھا ؟

- انها سيدة غير شريرة . . . تستحق ان تبذل مجهوداً اضافياً لكسبھا . .

- ان اتحول الى نسخة عن نديم والعق حذاء رغيد ؟

- لم اطلب منك ان تتبدل . .

- وكيف ابدلھا ؟

- وليس المطلوب تبديلھا بل توعيتها . من الواضح انها تتأجج حياة ، فدعھا تكتشف  
ان بوسع المرء ان يكون شريفاً وسعيداً متوهجاً في آن معاً . .  
- بدأت اشك انا نفسي بذلك . .

ضحكا . عادا الى صمتهما حتى بلغا أجمة شاسعة بالالعب الخاصة بالأطفال . . وكان  
رامي يمتطي حصاناً وفادي يقود صاروخاً فضائياً واللعبة تدور بهما وتعلو وتهبط وصياح  
الاطفال يتماوج مع رقصتها . . .  
وقفا يتأملانھا . . .

( كنت اعرف ان كفى بين ذراعي الأوربي الغريب في فراش ما . تابعت السير الى

بيت امير . . . لم ارو له التفاصيل ، ولم يسأل . . صرخت وانا ارتجف : انني اخسر كل شيء . . وطني وزوجتي واطفالي وصحتي . . كل شيء يتداعى ولم اعد اعرف من اين ابدأ اصلاح ذلك الدمار كله . . . قال بسام وهو الشفاف الذي يدرك حاجة المعذبين للانفراد بأمير : انا ذاهب لمتابعة العدل على اطروحتي . . .

صار مجرد حديثه عن ( الاطروحة ) شبيهاً بالنكتة بعدما تحولت الى مشروع هامليتي وحجة للهرب من اتخاذ قرار . . . لكننا لم نضحك . .

قال امير وكأنه حدس هواجسي : لماذا لا تقبل دعوتي لقضاء عطلة الاحد معي ؟ لقد سبق ان ألححت عليك كي تقضي يوماً عائلياً واسرتك . . . سأدعوكما الى نزهة . . الى بلدة آنسي . . سنذهب بالباص . . ساعة واحدة بالسيارة وسط طبيعة خلابة ، فبحيرة جميلة كبحيرة جنيف ، لكنها شعبية ، جمالها عفوي بلا صناعة لجذب السواح . . . انها تزخر يوم الأحد بجماهير الكادحين والبسطاء وبينهم عمال عرب ومهاجرون . . ما رأيك بجلب الاطفال من سجنهم الذهبي في المدرسة الداخلية ؟ ليلي ستولى امر التأشيرات في ساعة واحدة . . لا تنس انك سكرتير الغنمالي . .

- ما الفائدة ؟ ما جدوى ذلك كله ؟

- لا شيء . . سيرضييني ان تقبل دعوتي . . وان اتعرف على كفى . . اريد ان اراها عبر عيني انا لا عينيك وخيياتك وحكايا نسيم عن سهراتكم )

تتوقف اللعبة الكهربائية عن الدوران . يجدد الطفلان دوراً آخر ويقيان في اماكنها ، يلحظان الوالد ولا يكلمانه وكل منهما مشغول بعالم مباهج بريئة لم يألّفها في بيروت ، كمواليد الحرب في كل مكان . . .

وعاد صوت امير كالصدى في اذني خليل ( لا شيء . . سيرضييني ان تقبل دعوتي . . وان اتعرف الى كفى ) . . .

ولكن اشياء كثيرة تبدلت منذ الصباح . . لقد صار قانعا ان كفى ضجرة تحاول ان تتسلى بأمير لكنه لا يرضيها . . حتى وجود فادي ورامي لم يعد مهماً جداً . . انها تتوق الى ( مناخ ) آخر . اما دنيا فتستطيع ان تستمتع بمباهج الحياة الاساسية كالشمس والطيور والازهار بغض النظر عن الذهب . . .

فقد كان الباص الذي ركبه صباحاً في المحطة غير ذهبي . . لكن دنيا ابدت فرحة طفلة حين تحرك في موعده المحدد بلا تأخير . . . ولم يكن ينساب بصمت مثل سيارة نديم ، لكنها

بدت سعيدة وضاحكة تنصت لصخب الطفلين رامي وفادي وتراقبهما يقفزان فوق حوض امير وسط نظرات الاوروبيين البسطاء المحبين للاطفال . . . وحين تجاوزوا الحدود السويسرية فالفرنسية من غير ان يذلهما ضابط او يحقرهما مسؤول كما يحدث للمواطنين العرب في معظم ( البوابات ) العربية على الحدود التي يفترض انها وهمية ، أبدت حماساً للاحترام الذي يلقاه المواطن العادي في تلك البلاد حتى الفقير . . . وبدت وكأنها تفهم للمرة الاولى بوضوح ومن جديد ما يتحدث امير عنه في كتبه . . . كأنها كانت تعي المأساة ولا تجد غير الوسيلة التقليدية لحلها : الثراء . . . وثمة خيط من الوضوح يتسلل ليضيء لها الاشياء عبر التجربة المعاشة . . . اما كفى فتشاءبت ، ولم تفهم شيئاً غير انها لا تريد العودة الى ( حياة البوسطة ) . . .

دنيا كانت تقفز مع طفليه فوق جسور أنسي المعلقة كما في صور ( البندقية ) على حد تعبيرها ، ولم تزم شفيتها طالبة ركوب تاكسي ( كما تفعل كفى في بيروت متأنفة من القمامة والمسلحين الذين يتناول بعضهم على النساء بأكثر من الغزل الشفهي في واضحة النهار ) . . . وحين وصلا الى الحديقة العامة المطلة على البحيرة ، لم تبد دنيا اقل اعجاباً بها من بحيرة ليمان ، رغم بساطة المكان واهله وسواحده . . . كأنها يوم تزوجت نديم قرنت الفقير خطأ بالتخلف ، ولم يخطر ببالها من قبل ان المطلوب ليس تحويل الناس جميعاً الى اثرياء وإنما تحويل الوطن الى مكان غير متخلف صالح للعيش الكريم لغير الاثرياء ايضاً . . . أمير يريد كفى ان تعي ذلك لا دنيا وحدها ، لكنها بدت واقفة خارج ذلك كله . . . كأنها تصبر على بلواها لأن خليل مسافر غداً ! . . .

وشعر خليل بأن اعجابه بأمير يتنامى . . . ذلك الرجل الذي يتقن ( فن الفعل ) اتقانه لفن الكلمة . . . كأنه في دعوته لهم الى أنسي ، المكان الجميل البسيط ، اراد امتحان كفى ودنيا وكشف دخليتهما . . . هل تفتشان عن جوهر الفرح ، ام عن قشرته ؟ هل سترفضان أنسي لمجرد انها خالية من فندق له خمس نجوم ، وهل ستضجرهما الرحلة لمجرد ان الوسيلة كانت الباص لا الكاديلاك ؟ . . .

توقفا امام بائع الشطائر والمربطات . . .

قال خليل : لقد رسبت كفى في امتحانك ، اما دنيا فقد اجتازته بنجاح .  
اجاب امير : بنجاح مبالغ فيه . . . وهذا يقلقني . كأنها تحيا ردة فعل لا أكثر ، وعندما تدنو لحظة الصحو ، لا ادري كيف تواجهها .

- ماذا تعني ؟

- اعني انها اسعد مما ينبغي لانسان عاقل . كأنها تنتقم من ماضيها ، لكنها لم تبدأ بعد بتصحيحه . . . انها الآن فرحة كأية مرافقة تتحدى ، ولكن ماذا بعد ان تنتهي نزهة أنسي وتظاهرة لبنان ؟ نديم لن يسمح لها بأن تظل زوجته ، وتكون ذاتها العتيقة . . فهل هي قادرة على الوقوف على قدميها وحيدة من جديد ؟

- لماذا لا تقدر ؟ .

- لا احد يستطيع الغاء ثمانية عشر عاماً من عمره بجرة قلم ، او بقرار عقلائي مهما كان قانعاً بزيفها . . فالزيف يطالنا خلال هذه الفترة الطويلة ، ويأكل من طاقاتنا ، واذا عدنا الى حيث كنا فقد نفشل في اتخاذ درب جديدة . . . بهذا المعنى يدفع المرء ثمن اخطائه . . . لا تكفي العودة عن الخطأ لالغائه . . . .

- اذن ستكسر دنيا ؟

- لا ادري . . . كل ما اقله هو انها اسعد مما ينبغي لانها لا تلاحظ امكان فشلها . . وهذا امر غير مطمئن . .

- كنتما تنهماسان . . هل لديها صورة واضحة عما ستفعله ؟

- كنا نتحدث عن بحرية . رجوتها ( مصادرة ) جواز سفرها من حوزة نديم ، فنسيم يخشى عليها من جنون الساحر . . . انه يفكر بتعذيبها تحت لواء تعذيب الجنى الذي يسكنها ، ويريد معالجتها من الجنون بحلق شعرها . . اشياء من هذا القبيل . . . قررنا ان وجود جواز سفرها بين ايدينا سيسهل امر اعادتها الى وطنها . . وسيتصل نسيم بأسرته لتستعلم عن مصير اقاربها . .

- هل وافقت ؟

- وافقت بحماس مطلق النظير مما اقلقني . . . لا ارتاح الى السلوك الذي يتخذ شكل ( النوبة ) . . .

عادا بالشطائر والمربطات فوجدا كفى تهز قدميها بنزق ، ودنيا نائمة على العشب بسلام ، جميلة مثل طائر وديع ، وقد انطوى جسدها بعض الشيء كأنها أنست الى رحم الغابة ، ومناخ البسطاء الذين يفورون في دروبها .  
همس امير لخليل وهو يتأمل كفى : لا اعرف بالضبط ما الذي فعلته هذه المرأة بنفسها

وبك ، لكنها بالتأكيد ليست شريرة . . . لعلها ضالة او حائرة ، لكنها تستحق منك بعض العناء . . .

قبل العودة مساء ، تنزهوا في مركب مزدحم بالناس وبدت دنيا سعيدة كأنها وسط اسرتها تقطر عذوبة وألفة . . . اما كفى فكانت تتطلع الى ساعة يدها بين وقت وآخر ، وتحصي الساعات الباقية لسفر زوجها وصقر . . وتصلي كي لا يبدل صقر رأيه ثانية !! . . وبين وقت وآخر ، كانت تهز بحرمتها امام وجهها في شكوى صامتة من الحر « الكانيكولي » الذي دهم المنطقة كلها . . كانت تفضل قضاء يومها في مكان فاخر مكيف الهواء . . هذا ذوق الرجل الذي ابتلت نفسها بالزواج منه !

\*\*\*

وحين استقروا في الباص الأخير للعودة ، نامت كفى ضجراً هاربة من الأيدي الخشنة المحيطة بها الى احلامها وهمسة « اموري ميا » ، ونام الطفلان تعباً وقد لوححت الشمس الاوروبية الصيفية خدودهما الغضة . . وقالت دنيا لاميير بامتنان : هذا يوم من اسعد ايام حياتي . . لا ادري كيف . . كنت سعيدة ومسترخية . . لا احاول اثبات شيء لأحد ولا احسد احداً على ثرائه . . اني آسفة لما يمكن ان يكون قد بدر مني نحوك فيما مضى من تقصير شبيه بالاهمال والنسيان . .

اشار اليها بأصبعه ان تصمت . . لم يكن يريد لها ان تخرج شحنة الوعي تلك من صدرها وتستريح وتنسى . . كان يريد لومضة السعادة تلك ان تثير فضولها . . لكنها كعادتها كانت متأججة ونارية : لم اصدق يوماً ان في مقدور المرء ان يكون فقيراً وسعيداً الا اليوم . . .

قال امير : هذا ممكن شرط ان يعيش في وطن يغتني الناس برعايته لهم . .  
وتدخل خليل : وذلك لا يتم الا اذا عمل الناس على تبديل واقعهم . .

وبدا الضجر فجأة على وجه دنيا ، في حين التقت نظرات امير وخليل وكأن كلا منهما يقول للآخر : لقد افسدنا الدرس « غير المباشر » . . . اللعنة ، هل كان ضرورياً ان يقول كل منا جملته التعليمية التقريرية المباشرة الاخيرة؟ . .



وهمس امير بالفرنسية ضاحكاً : « ديفورماسيون بروفسيونيل » . . . يا للتشويه المهني ! . . .

\*\*\*

ودع امير ضيوفه في محطة الباص وترك دنيا تعتمد على ذاتها بركوب تاكسي على الاقل ، ومشى صوب بيته . . . لا يدري لماذا ذكرته دنيا اليوم بحبيبته الغادرة ليلي . . ذات يوم كانت ليلي حائرة مثلها ، وواقفة على مفترق الطرق . . . اما اليوم فيبدو انها لم تعد حائرة . . لقد خسرها الى الابد ، اما خليل فما زال امامه الفرصة لاستعادة كفى تلك الجميلة المرشحة للتعفن . . . مشكلة خليل مع كفى انه لا يعرف كيف يحدثها بلغتها ويساعدها على اكتشاف الطيبة في ذاتها . . انه جلف ومباشر يقول الحق ولو قطعوا رقبتة ، وهو لذلك بالذات يحبه . .

تابع سيره ، وقد تأجج شوقه الى اولاده واسرته بعد يوم عائلي مترع بصخب الطفلين وشيء ما في رامي ذكره بطفولة ابنه الذي لم يره شاباً الا في الصور . . . يوم فارقه كان في سن رامي . . .

حين وصل الى بيته ، فوجيء بالشرطة تنتظره امام الباب . . . والجيران . . . والصحافة . . . ومض ( فلاش ) الكاميرات امام عينيه . . . فغطى وجهه بيديه . . . ماذا حدث ؟ لقد غادر بيته باكراً جداً في السادسة والنصف على غير عادته ، فماذا يمكن ان يكون قد حدث ؟ . . . وكيف يتوج يوم أليف كهذا بحضور البوليس والصحافة والجيران وبعض تلامذته ؟ . .

لقد اطلق احدهم الرصاص من مسدس كاتم للصوت على بسام . . في التاسعة صباحاً موعد مغادرته للبيت كل احد . . . لكن بسام قلما يغادر البيت يوم الأحد ، فلماذا خرج اليوم ؟ ليصرع بدلاً منه ؟ . . .

بعد ساعات من الاجراءات المعهودة المقلقة ، وجد امير نفسه وحيداً مع حقيقة موجعة : لقد قتلوا بسام خطأ . . . كانوا يريدونه هو . . . كمنا امام الباب ، واطلقوا النار على الرأس الذي اطل في موعد خروجه المؤلف . . . وتصادف هذه المرة انه رأس بسام . . بسام الذي هرب من وطنه مذعوراً ، وجمد حياته ثمانية اعوام في ثلاثة الأحداث ، منتظراً كهاملت ان تحل الاشياء نفسها بنفسها خوفاً من ان يموت بلا مبرر . . . فمات بلا

مبرر ! . . . ولم يقم يوماً بأي عمل كي لا يُعاقب . . . وتحضير اطروحة هو العمل الوحيد الذي لا تعاقب عليه الاطراف كلها احداً ، في حين كان امير طوال الوقت يكتب ويكتب كمن يدعو الموت ليزوره ، ويحيا ويقول صدقه بأي ثمن . . وفي المرة الاولى اطلقوا الرصاص عليه واطأوا التصويب . . . وفي المرة الثانية احسنوا التصويب واطأوا الرجل ! . .

وقرر امير الطلب الى ابنه عدم الحضور . . والبقاء حيث هو . . ماذا لوجاء لزيارته ، و . . .

يعرف امير ان موته ضرورة كي تسكت الاصوات النادرة الباقية التي تطالب بالديمقراطية بصدق ، لا من اجل قبض ثمن السكوت . . . سيقتلونه ، فمتى يحاولون من جديد؟ لن يشغل باله هذه التفاصيل الصغيرة التافهة . . سيتابع دربه وليكن ما يكون . . . لكنه حزين حقاً من أجل بسام . . . لقد آواه في بيته ريثما يخرج من حيرته . . . ولم يكن يدري انه يصدر عليه حكم الاعدام . . . ويخرج به من الحيرة المزمنة الى اليقين الاكيد القاطع . . . وبالذات في اليوم الذي قرر فيه بسام انقاذ رأسه بالهجرة . . . لقد ظل خائفاً من القتل دونما مبرر حتى قاده هذا الخوف الى حتفه . . . ومات عبثاً . . . ميتة خالية من اي مدلول او معنى ، وكان ممكناً ان يكون الآن حياً في بيروت وفعالاً يعيش حياة مجدية . . . ولكن المصادفة نكتة ساخرة وصامتة لأنها متوجة بكاتم للصوت . . . .

\*\*\*

حين هبطت كفى من ( البوسطة ) تنهدت بارتياح ، وعاهدت نفسها على الا تطأ بقدميها سيارة عامة بعد اليوم . . ايأ كان الثمن . . حتى ولو كان ذلك يعني فراقها وطفليها اللذين تقبلها مودعة وقد جرهما خليل الى « محطة الكورنافان » ليذهب بهما بالقطار الى مدرستهما « كوليدج دي ليمار » . . . لم ترافقهما وخليل . . كانت بحاجة للهرولة الى غرفة الفندق الفاخرة لتحسس مخمل الجدران وتصدق انها غادرت كابوس الفقر الممكن . . لقد حزمت امرها . . اما ان ( يصحو ) خليل وينضم الى الطبقة التي تعرف كيف تعيش ، والا فإنه سيفقدها . . ولن يستطيع تهديدها بحرمانها من اولادها . . لقد حرّمها من وداد ، وقلبها المحطم غير قابل للتحطيم ثانية . . على اية حال سيكبران ويضميان بعيداً عنها اذا كانا

سينموان تحت ظل والدهما وتأثيره . . . بخبث نسائي عفوي ومض ذلك كله في عينيها وهي تقبل فادي ورامي وقررت : سأعود نفسي منذ الآن على فراقهما ولن يبتزني خليل بهما . . . مضى خليل بالولدين ، ولم يطلب من كفى ان ترافقه . كان بحاجة الى ان يخلو الى نفسه بعد هذا اليوم الفاضح . . .

ودع فادي ورامي وغصة تنمو في اعماقه . . لم يحلم يوماً بأنه سيودع ولداً في مدرسة داخلية . . واين ؟ في جنيف . . . ولاحظ انها تعلقا برقبته عدة ثوان اطول من العادة لحظة الفراق . . .

عاد الى القطار . . . اغمض عينيه . . . نبتت تحت جفنيه كفى بضجرها وتقززها من يوم العطلة المثالي هذا في نظره . . . بدأت صباحها بمحاولة مغازلة امير وجذب انتباهه . . انه يفهمها جيداً . . ثم قرفت منه فجأة وعزفت عن الجميع . . لم تخاطب دنيا بكلمة ، اما الأخرى فكانت مشغولة بفرحة هستيرية يتمنى لها ان تدوم وتكون عميقة الجذور . . . من الواضح ان كفى غادرت عالمه نهائياً . . كانت تنظر الى الناس في الحداثق العامة بتقزز ، الى العمال ومتوسطي الحال والفقراء ، الوجوه العادية المتشابهة ، الايدي الخشنة التي تعرف ملمس قسوة الحياة والمهاجرين العرب والفرنسيين البسطاء . . وتتوق لمغادرة المكان ، فكيف يفهمها بعد اليوم ان هذا العالم الذي تمقت هو العالم الذي يتمي اليه ؟ وصل الى الفندق البغيض . في الغرفة كانت كفى في انتظاره وفي عينيها نظرة شماتة وهي تناوله رسالة . قرأ فيها ثلاثة عبارات : احضر حالاً . صقر .

\*\*\*

استقبله صقر في غرفة المكتبة بوجه جديد . . . وجه بالغ القسوة ، في نظرتة الباردة الكاوية ما ذكره برغيد الزهران . وقال له باحتقار : ألم أمرك بأن تلازم الهاتف ؟ هل نسيت انك موظف عندي ؟ . . . الا تفهم انني سيدك وعليك ان تطيع سيدك في كل وقت دونما مناقشة ؟ . . . لم تكن الكلمات هي التي اوجعت خليل بقدر اسلوب صقر في التفوه بها ، وتعايير وجهه المفرطة الصرامة حتى حدود اللامبالاة به كإنسان . . . بل انه ذهل وهو يرى هذا الوجه الجديد لصقر . . كان يظنه مجرد ولد صغير ومدمن (مفسود) . . . ولم يكن يدري انه يخفي في أعماقه ديكتاتوراً صغيراً . . . هرب خليل بانظاره من صقر الى الجدار ، فالنافذة ، فطاولة المكتبة ، وفوجيء

بمظروف يحمل اسمه . . . ودون ان يرف له جفن مد يده وتناول المظروف وفتحته ، فوجد ( الشيك ) الهدية من هلال ، مرفقاً ببطاقة الاعتذار . . اذهلته المفاجأة وقرر في ومضة برق ذهنية : « سأخفي هذا الشيك عن كفى . . سيكون ثمناً لبطاقات العودة الى الوطن » . وحاول ان يطلع صقر على الشيك لكن الرجل الآخر تجاهل حركة خليل او لم يلحظها ، وتابع كلامه باللهجة السامة نفسها : انني انتظرك منذ ساعة . سرحل الآن . . . فتح خليل فمه ليقول شيئاً عن وداع اولاده . . كان يريد التملص بوسيلة ما . . . صعبه وجه صقر الآخر واخافه ووعى انه يسقط في فخ لم يلحظه من قبل قد يكون اكثر خطورة مما توهم . . لكن صقر عاجله بالضربة الأخيرة : اذا كنت لا تحمل جواز سفرك معك ، فسنمر بالفندق في دربنا الى المطار لجلبه . لست بحاجة الى ثياب . . كل شيء جاهز ، ولن اسمح لك ثانية بتخريب توقيت عبثي او عملي . . تذكر انني الرجل الذي سيدبر اعمال صخر الغنمالي اذا مرض او اعتزل . . قد نلعب معاً احياناً ، ولكن لا تنس في أية لحظة انني السيد !



جلست بحرية في صالة القصر الكبيرة ، مسمرة امام شاشة التلفزيون وبيروت تحترق امام عينيها . . . منذ وصولها ، فرضت على القصر اخبار بيروت ، فهي تلاصق الشاشة الصغيرة وتطارد شبح بيروت فيها ، ورغيد لا يرفض لها طلباً . هذا التطور اسعد نسيم الذي ازداد انكباباً على تنظيف الأواني الفضية والذهبية والسيفر والجاليه التي تفيض بها الردهة الشاسعة ونظراته معلقة بالتلفزيون واخبار بلده . . ولم يعد مضطراً للاختباء في غرفته او المطبخ متذرعاً بالاكاذيب كي لا تفوته نشرات الاخبار في (القنوات) كلها وباللغات كلها . . كل ما عليه الآن ان يفعله هو ان يضغط الازرار المناسبة في الوقت المناسب شرط ان يكون رغيد غائباً . . . في البداية تأملته بحرية وهو يقدم على ذلك للمرة الأولى بنظرة متواطئة ودية . . ثم اتقنت ذلك بنفسها بسرعة خارقة . . كأنها ليست مخدرة ، ولا منهارة ، ولا مريضة بقدر ما تبدو . . انها لا تدع واحدة من نشرات

الاخبار بالفرنسية والايطالية والألمانية تفوتها ، وتلتقي نظراتها كلما التقطت محطة جديدة مثل برق تفاهم ينبع من عينيها ليصب في قلبه . . .

كانا يتأملان صور القصف المجنون ، ولم يفهم نسيم شيئاً مما يقوله المذيع بالألمانية لكنه عرف الموقع المقصوف . . انه الحي الذي تقيم اسرته فيه . . الانفجارات تتلاحق وهذه القذيفة الاخيرة خيل إليه انها دكت المبنى اياه . . تراه سيرى اخوته احياء بعد اليوم ؟ . . سقطت يده عن جسده وتدحرج الابريق الذهبي الذي كان يتشغل بتلميحه . . تصادف ذلك لحظة دخول رغيد الذي زجره بشدة ، وشم التلفزيون ويبروت واخبارها ولم يجرؤ على توجيه تأنيب لبحرية ، فقال لنسيم كل ما كان يشتهي اسماعها اياه من محاضرة عن ضرورة نسيان بلد ينهار والتمسك بنعمة الله التي من عليهم بها في الغربة ، اي به طبعاً . . ومن سواه ؟ . .

غادر نسيم الصالة ولم يغادرها ، وتابع عمله في غرفة الطعام حيث يستطيع ان يرى ويسمع دون ان يراه رغيد . . . انه لا يملك الا ان يحوم حول بحرية مثل كلبها الحارس . . ولا يدري لماذا . . كأن رسالة من الوطن موشومة على جسدها القوي الفتي المصدع . . ام انه ببساطة واقع تحت سطوة جماها الباهر كرغيد؟ . . .

اخرج رغيد علبة من المخمل الارجواني اللون وفتحها فتأجج داخلها بريق عقد ذهبي مطعم بالماس وسوار وخاتم وقرط .

تطلعت بحرية نحوها كلها بلامبالاة ، ثم عادت بانظارها الى شاشة التلفزيون . . . امتلأ رغيد بالغضب وبحب الامتلاك ، وقال لها بصوت جهد ان يكون هادئاً رغم اهانتها له التي لم يألفها من امرأة من قبل : انها من الذهب الخالص والماس النادر . . انها من صنع «بولغاري» الصائغ الكبير . . .

ظلت صامته ولم ترتعش في وجهها خلجة . تناول العقد الذهبي واحاط به عنقها . لم تعترض ولم تبال . . ظلت متحجرة كتمثال باهر الحسن . . وظلت على حالها حين تناول يدها الغضة واحاط اصبعها بالخاتم الثمين ، ثم ثبت القرطين في اذنيها وتحسس الخدين المضيقين حسناً وشباباً ، واحاط معصمها بسواره . . . ظلت هادئة ونائية ولا مبالية . . . تطلعت الى يديها بنظرة خاطفة ، ولم يد اي تعبير على وجهها . . .

نهض رغيد غاضباً ومضى الى غرفته . . . بعد ساعة ، قرع نسيم الباب ، صرخ رغيد : اذهب الى الجحيم ايأ كنت .

قال نسيم : معذرة ، انه بخصوص الست بحرية . . .  
— ادخل . .

دخل نسيم وامارات القلق على وجهه . . .  
— ماذا عن الست بحرية ؟  
— جلدها متورم ومن الواضح انها تتألم . .  
هبطاً معاً الى الردهة . . .

كانت بحرية كما فارقتها قبل ساعة . جلستها ذاتها ونظراتها الزجاجية نفسها . .  
باستثناء ورم محمر على عنقها حيث العقد ممتد الى منبت النهدين ، واحمرار شديد في الاذنين  
والخدين ، والاعراض ذاتها تبدو في اليد اليمنى حول السوار وفي اصابع اليسرى المتورمة  
حول الخاتم . . لم ير نسيم شيئاً كهذا من قبل ، وقال مذعوراً وقد فارقه حذره : أهذا  
تسمم ؟ . .

صرخ به رغيد : اخرس يا احمق واستدع الطبيب . . والشيخ وطفان . . .  
وظل رغيد يزرع الصالة ذهاباً وإياباً ، وحزن حاقداً يملأ قلبه برغبة لا حد لها في امتلاك  
ود بحرية . . للمرة الأولى يهدي امرأة حلية غير مزيفة ، وللمرة الأولى لا يلقي شكراً ويجزى  
باللامبالاة الشبيهة بالاحتقار . . . لم يهد امرأة من قبل ذهباً حقيقياً ، فالنساء لا يستأهلن  
الذهب الحبيب الى قلبه . . . وها هي بحرية ، الصبية الوحيدة التي منحها ذهبه ترفضه  
بالصمت وبرسائل الرفض المكتوبة على جلدها ورماً واحمرراً . .  
وصل الطبيب اما الشيخ وطفان فطرده نسيم من الغرفة قائلاً انه غير مستعد لليلة  
لعفريت بحرية ! فحصها بعدما انتزع عنها تلك الثروة الصغيرة . . وقال : انها  
«ارتيكاريا» . . لا شيء جدياً . .

— ماذا تعني ؟

— لديها حساسية ضد الذهب . . جلدها لا يستطيع ملامسة الذهب . . بعض الناس  
يعانون من حساسية ضد النايلون او غبار الطلع او ريش الطيور . . وهذه الفتاة لديها  
حساسية ضد الذهب . . علاجها الوحيد خلع هذه المجوهرات ، ولتتناول جرعة من هذا  
الدواء ريثما تزول النوبة . . تناول رغيد الوصفة ، وثبت نظارة القراءة على عينيه وقال  
متسائلاً بدهشة :

— أثاراكس ؟ هذا مهدىء قوي للأعصاب . . اعطوني جرعات منه قبل عملية زرع

الكلية استعداداً لتخديري . . انني ارقب ادويتي جيداً ولا انسى اسماً . .  
 - اجل . . يعطى احياناً قبل التخدير . . . بمقادير اكبر . .  
 - وهل الذهب لبحرية جسم غريب عنها يجب تخديرها قبل زرعها ؟ يا لها من مخلوقة  
 عجيبة .

قال الطبيب : عفواً . . لم افهم . .  
 - لا شيء . . وانا ايضاً لم افهم . .

\*\*\*

حين مضى الطبيب ، نادى رغيد خادمه نسيم ، وقدم له سيجاراً ولاطفه . . ( ماذا  
 يريد مني الآن ؟ عين بحرية بعد كلية سري الدين ؟ ) . .  
 - ماذا تريد يا سيدي . . .  
 - اريد ان اسألك . . اعني انني لا افهم بحرية وقد تفهمها انت اكثر مني . . انها اقرب  
 اليك . . اعني انها مهجرة عاشت مع اهلها في الحرمان رغم نبل اصلها بصفقتها قريبي ،  
 وأنت تستطيع ان تفهمها كما تفهم اختك . .  
 - تقريباً . . ماذا تريد؟ . .  
 - ما الذي يمكن ان يسعدها . . اعني ماذا يمكن ان يسعد اختك لو كانت مكانها ؟  
 - العودة الى الوطن طبعاً . . .  
 - ليس بمقدوري ان اعود ببحرية الى بيروت الآن . . ماذا استطيع ان افعله مؤقتاً . .  
 - لا شيء . . فقط دعها بسلام . .  
 - ولكنني احاول ادخال الفرع على قلبها ، ودوماً يحدث ما اعجز عن تفسيره . .  
 - مثلاً . .

- البارحة مثلاً حين ذهبت بها في نزهة بالهليكوپتر الى غشتاد وجلسنا لتغدي في افخم  
 مطاعمها بالجراند اوتيل ، احضرت لبحرية اثنى الطعام فعافته . . احضرت لها الكرنكند  
 الثمين ، وما كاد الجرسون يحمل الادوات الخاصة بأكله من مثاقب ومقصات ومشارط وكلها  
 من الفضة الخالصة حتى انفجرت باكية بذعر . .  
 - لعل المسكينة لم تشاهد مثل هذه الادوات الا في صالة الطوارئ بالمستشفى في بيروت  
 وهي تحمل اليها طفلاً ينزف او جريحاً يتوجع . . .

- هذا ممكن .. ولكن ..
- ماذا ؟
- اهديتها تلك المرسيدس السوداء ، وبدلاً من ان تفرح بها وتقبلني ، انفجرت تبكي وهي تتحسس صندوقها الخلفي وتحاول فتحه ..
- لعل والدها او حبيبها اعيد اليها ذات يوم مقتولاً ومقطع الأوصال في الصندوق الخلفي لمرسيدس سوداء ... او لعل امها قتلت في انفجار سيارة مشابهة مفخخة .. او لعل ..
- هذا يكفي . لا اريد سماع المزيد من قاموس المصائب البيروتية ...
- لكن هذا يحدث لنا حقاً كل يوم ...
- يجب ان اشحن المزيد من الاسلحة للاطراف كلها في بيروت ... عسى ان اقتلكم جميعاً وادمر تلك المدينة المشاغبة واريجكم واستريح ...
- هل تريد شيئاً آخر يا سيدي ؟
- لا ... هل الشيخ وطفان في غرفته ؟
- اجل .
- سأذهب اليه . الحديث معه مريح .. والحوار معك لا يطاق ...
- حين صعد رغيد الى ساحره ، تسلل نسيم الى بحرية . ركع امامها ، وتناول يدها ذات الجلد المتورم الراض ، وتحسسها بحنان .. تركتها له ، تأملته وقد تحولت عيناها من كرتين زجاجيتين غائمتين الى شعاعين من شمس ربيعية حنون ... فارقتها تلك النظرة الزائغة ، واحسها تراه بوضوح ، ترى افكاره وتقرأ دخيلته .. فلماذا لا يقول لها بصوت مسموع : احبك ؟ لا يجرو .. معها يطير قلبه بين الفرح والحزن ... هبت رائحة الحرائق فجأة من شعرها فتذكر اسرته في بيروت المحاصرة ...
- تسلل الى الهاتف . قال لنفسه ان رغيد لن يشتمه اليوم حتى ولو ضبطه يحاول الاتصال ببيروت بعد تلك (الاستشارة العاطفية) .. ادار القرص طالباً الخط الخارجي ، فرقم هاتف بيروت الدولي ٩٦١ فرقم بيته ... وللمرة الأولى حدثت المعجزة ورن الهاتف ... لم يصدق نسيم اذنيه ... منذ بدأ الغزو الاسرائيلي وهو يبذل المستحيل للاتصال ببيروت ويفشل ، في غلب البريد الخشبية يحاول ساعات حين يتسنى له الهرب من رغيد وساحره ، ويفشل ... وها هي بيروت تستجيب الآن من المرة الأولى ... لن ينسى الايعاز الى اخته



للتحري عن بحرية . . . سيخبرها بما يعرف على قلته ، لعل وعسى . . . الهاتف يرن ولا احد يجيب . . . ما يكاد يفكر باعادة السماعه الى مكانها حتى يأتيه صوت اخته . . . ينبض قلبه كجسد عصفور في الاعصار . . . لا يذكر ماذا قال لها بالضبط ، أو ما قالت . . . كل ما يعيه ان السماعه كادت تسقط من يده وقد دمرته اخبار مروعة : شقيقه فواز جرح في «الرمول» وهو يقاتل الاسرائيليين في منطقة خلدة ، وشقيقه الآخر هاني فجر نفسه في عملية انتحارية ضد جنود بيغن عند احد مداخل بيروت المحاصرة . . . لم يكن فواز مدرباً جيداً حين حمل السلاح . . . قاتل وسواه من اللبنانيين ، وبعض الاشبال الفلسطينيين جنباً الى جنب ، فجرح . . . حالة فواز غير خطيرة . . . مد رغيد يده وضغط زر الهاتف قطعاً المخابرة وصرخ به فجأة مؤنباً : « من اين لك الحق باستعمال هاتف سواك لمخابرات خارجية ؟ » لقد احصى رنين السماعه الأخرى ، وعرف منها ان نسيم اجري مخابرة خارجية . . . « هذا بيت وليس وقفاً للفقراء والوقحين » . . . تطلع اليه نسيم بذهول دون ان يسمع كلمة واحدة . . . اكد رغيد : « نعم . انا بخيل مع الفقراء ومسرف مع الاغنياء وهذا شأني . اكرهني اذا كان ذلك لا يعجبك . . . اقدم الهدايا حين اشاء لمن اشاء وقت اشاء . وهديتي اليوم لك ليست مكالمه هاتفية ، ولكنك تستطيع ان تجدها في غرفتك . انها تمثال سيدكرك بأن تتسلل الى بيت امير وانت تتوهم ان شاردة تفوتني او واردة . . . اذهب الى غرفتك تجد هديتك » . . . ظل نسيم ساقطاً في بثر الدهشة البائسة ، ولم يسمع كلمة مما قالها رغيد لكنه احس بالرغبة في قتله لمجرد ازاحته من دربه كي يركض الى غرفته ويخلو الى نفسه . . . وحين دخل اليها ، لم يلحظ التمثال الذي تركه له رغيد فوق الفراش . . . حمله ووضعته على الأرض وتمدد واغمض عينيه . . .

لم يستوعب ان رغيد اراد قهره باهدائه نسخة عن تمثال «المناضل» الذي نحتته والد امير ذات يوم لجمال عبد الناصر ، والذي يباهي رغيد بأنه جمع مليونه الأول من الاتجار به . . . ولم يلحظه الا صباح اليوم التالي . . .



بحرية المستحيل . . .  
تنزلق من بين اصابعي كحفنة رمل ملونة عبثاً اسرقها عن شطآن الزمن . . . تنزلق

هاربة كالعمر ، كالعافية ، كالشباب ، ككل الاشياء التي اعجز عن شرائها بملاييني . ادور حول قلعتها الحصينة بالصمت واللامبالاة الزاهدة . . . افتش عن ثغرة انفذ منها الى ذلك البنيان المحكم لأخلخله ، فلا اجد اليها سبيلاً . . . ومثاقبي الذهبية لا تجدي مع رخام سكوتها . . .

مع هذه المرأة وحدها شعرت بالحيرة . . . كأنني ألامس الموت كلما لامست حبها المستحيل . . . فيها شيء يوقظ في فمي طعم الفشل . . . اجل . . . الفشل . . . في حضورها شيء حاسم يؤكد لي انني انسان فاشل . . . وإذا لم اكرهها دمرتني ، وزلزلت عالمي الذهبي المتوازن فوق دبوس العمر القلق . . .

لعل ساحري على حق . . . لعلها مسحورة من صنع اعدائي . . . لعل نديم يكيد لي باحضارها . . . منذ وصلت وانا عاجز عن اشتها سواها . . . لم امس امرأة منذ وصولها ولا طفلة ، ولم اهجس الا بها . . .  
لعله أن الأوان لكسر طلسم سحرها عني . . . إذا تركتها تستولي على روحي ، دمرتني .

اجل . . . الشيخ وطفان على حق . . . وسأفكر بوسيلة للتخلص منها بعد ليلة المليار . . . لا اريد اثاره المتاعب الآن . . . سأزوجها او اقتلها او ادعها تقتل في حادث سيارة . . .

ولكن . . . سينكسر ذلك الحلم الطفولي الذي عشته منذ حضورها . . . حلم لم اعرف له مثيلاً منذ كنت شاباً . . . وبحرية وحدها استطاعت ان تذكرني انني كنت ذات يوم يافعاً له احلام . . .

كم حلمت بها تمشي الى جانبي ليلة المليار ، يدها في يدي ، اتوجهها بنفسي ، وآخذها الى جحيمي جوهرة مستحيلة كالوهم . . .

ولكن . . . لا مفر من دفن هذا الحلم في جسد امرأة جديدة شهية ، تعبر غرفة نومي وتمضي الى سبيلها . . .

\*\*\*

— اهلاً بالشيخ صخر . . . منذ زمن بعيد لم تشرفني بالزيارة . . .  
— كان اخي هلال عندي كما تعرف . . . وقد تشاجرنا قبل سفره . . . ومرضت . . .

- وما زال الصداق يمزق رأسي .
- سلامتك . . .
- شكراً للدعوة الى ليلة المليار . . . ساحضر طبعاً . .
- سيشرفني ذلك . .
- كلمت صقر . . هو في سياحة الآن . . سيعود خصيصاً لحضور السهرة . .
- لقد اعددت له غرفة في بيتي يستريح فيها . . . سيكون ضيفي . . .
- يبدو معجباً بزوجة خليل . . تلك السيدة العجوز . . . تعرف انه لا يخفي عني شيئاً . . .
- كوكو؟ ليست عجوزاً الى هذا الحد . . . انها في التاسعة والعشرين او الثلاثين . . .
- وهي جميلة . .
- اجل . . زرقاء العينين . . شاهدها مرة في بيت نديم . .
- انها الآن هنا . . تعاون مسز سبوك في الاعداد للسهرة . . . اتريد رؤيتها؟ . . .
- ليس الآن . . افضل رؤية قريبتك بحرية . . . جئت اسلم عليها . . بالمناسبة ، بقية الضيوف . . اين ينامون ؟
- استأجرت لهم الفندق الفخم القريب بأكمله . . ما رأيك ؟ . .
- فكرة جيدة . .
- فكرة مسز سبوك . . .
- وكيف صحة الأنسة بحرية . . .
- مسكينة . ما تزال تتألم لوقع الصدمة . . .
- انها جميلة . . . صبية صغيرة بريئة . . .
- لم تقع عيني على اجمل منها . . . لا يمكن لقريبتي الا ان تكون جميلة . . .
- هل فكرت بتزويجها . . . قد يساعد ذلك في علاجها . . .
- قالها الشيخ صخر واصابعه تعبت بعصبية بنجات سبخته الفيروزية البديعة . تجاهل رغيد قصده وقال : تظن ذلك ؟ لم يخطر الامر ببالي . . فهي ما تزال مريضة . . انها لا تفارق غرفتها الا نادراً ، وتقضي وقتها تحديق في شاشة التلفزيون وتسقط اخبار بيروت ، وحين ترى مشاهد الحرائق والدمار لا تبكي ولا تقول كلمة ، ويرتجف جسدها رغم ادوية الطبيب وتعاويز الشيخ . .

- مسكين هذا الجمال .. لا يستحق هذا العذاب .. خسارة لبنان .. هل تعرف ان قصري الصيفي هناك مسروق ... واصيب في القصف ... قال رغيد بتجاهل العارف : مسروق ؟ من يجرؤ على ان يمس املاك الشيخ صخر ؟ ..
- أرايت ؟ لا حرمة لشيء هناك ... انا دهشت مثلك حين سمعت بالخبر ولم اصدق ..
- اجل .. انه خبر لا يصدق ...
- لنعد الى بحرية ...
- لنعد الى المطار ... منذ زمن بعيد لم نتحدث في شؤون العمل ... الزواج بحاجة الى مال كما تعرف ...
- لست فقيراً ...
- ستكون .. اذا خضعت لمشيئة هلال ..
- اجل .. هذا غير مقبول ...
- انفجرت اسارير رغيد ... تابع مؤكداً : هذا المطار يدر عشرين مليون دولار من الربح الصافي لك ، من غير ان تفعل شيئاً غير الحصول على موافقة العشيرة ... ولك عندي الآن خمسة ملايين دولار حصتك من ارباح شركتنا لبيع السلاح .. العمل ناشط هذه الايام .. وهذا بالتأكيد يغطي نفقات زواج كزيجات الف ليلة وليلة ... مع عروس صبية صغيرة خرافية الجمال ...
- هل تستطيع رؤية بحرية ...
- بالتأكيد ... وتستطيع لمسها ايضاً ... سنعلن الخطبة ليلة المليار اذا احببت ، وسيكون مهرها قرار الموافقة على المشروع ... مشروع المطار طبعاً ..
- بدا صخر وكأنه حزم امره : حسناً ، سأتصل بوكيلي هناك بالتلكس .. سيكون رائعاً اعلان الخطبة ليلة المليار وسط الأصحاب والاحباب ...
- سيحسدونك .. لم ير احد انسية بمثل جماها .. ولا جنية .. على ذمة الشيخ وطفان ...
- ضحكا ...
- الح صخر : ارجوك هل تستطيع زيارتها للاطمئنان على صحتها ؟ ...
- بالتأكيد ... سارافك ...

لمحتهما دنيا يصعدان الى الطابق الأعلى . . . حدثت انها ذاهبان الى بحرية ، ام تراهما ذاهبان الى الساحر ؟ غمزت نسيم . . . لم يكن بحاجة الى تنبيهها ، فقد (تصادف) انه كان يمسح الغبار عن التماثيل القريبة من الستارة . وقد سمع كل شيء . . . قال لدنيا بعد صعودهما : لا تخافي . . لن يدعه يلمس يدها . . سيزيد ذلك في التهاب اشواقه . . ولن يجرؤ على ايدائها قبل ليلة المليار . . لا يريد ان يعكر صفو ذلك اليوم شيء . . . حين غادر الشيخ صخر قصر الزهران ، كانت (مسيبته) قد انتقلت الى جيب رغيد ، فإلى مجموعته الخاصة بممارسة هواية السرقة . . .

منذ وصلت بحرية لم يسرق سبعة ونسي عدة مرات تناول دواء الضغط وكثرت غاراته الليلية على البراد . ارتفع (السكري) في دمه . طارده في كوابيسه . . . سيزيحها من حياته . . . لتكون ثمناً لصفقة المطار . . . ليحدث اي شيء . . المهم ان تغادر تلك الرقعة الغامضة المبهمة في اعماقه ، التي لا يدري عنها شيئاً لأنه لم يجد وقتاً لها وللذهب معاً . . سيفرح ساحره بعودته ثانية الى النساء وخروجه من طلسم بحرية الشرير اللعنة . . .

\*\*\*

انحنت كوكو بحنان نحو الساعة الذهبية الكبيرة وهي تختار لها موضعاً جديداً . . . كان رغيد في طريقه الى غرفته بعدما ودع صخر ، حين شاهدها تمثالاً من الممر حاملاً آنية من الذهب . . . تمنى لو ترافقه الى فراشه او لو تبقى حيث هي ، ويمتلكها في تلك اللحظة بالذات . . فوق السجادة الوثيرة تحت اقدام التماثيل الذهبية . . . والتكات الذهبية لزمن الخلود . . ولكن ذلك غير ممكن الآن . . تحت انظار ذلك الفريق من النسوة العاملات بارشادات ليلي ، ولكن لم لا ؟ . . . لا . . . ليس أمام دنيا التي ترمقه هذه الايام بنظرات غير لطيفة . . انها دون شك تغار من كوكو . . ام تراهما تغار من بحرية ؟ لن يدري ابداً مع امرأة مثلها غامضة النظرات . . . حسناً . . لا مبرر لاثارة القلاقل بين النساء الآن . . . ليس قبل ليلة المليار بأيام معدودة . . انه بحاجة اليهن جميعاً الآن . . ولكن . . ربما تعود اليه الليلة بعد انصرفهن . . انها شهية ، والعمر هارب . . وبحرية مستحيلة . . . تقدمت منه دنيا ، وفي عينيها زوبعة . . ماذا تريد مني الآن ؟ لا وقت لدي اضيعه معها ، ولا اريد ان نتشاجر . . . بعد ليلة المليار الأول ، لدي حسابات كثيرة اسويها مع الجميع وانا في دربي لجمع المليار الثاني . . . ولكن ليس الآن . . .

قالت له دنيا : ما رأيك بأن نستضيف بحرية عندنا بعد ليلة المليار . . . قد تساعدنا رفقة ابنتي . . انها قريبة من سنها . . . قد يساهم ذلك في تحسين صحتها تدريجياً . . وربما اعادة النطق اليها . .

قال لها : سنرى . . الأمور مرهونة بأوقاتها . . .  
ومضى شبه هارب منها ، وقد امتلأ قلبه حقداً عليها ( تريد ان تتدخل في شؤوني ؟ هكذا الناس ، بعد ان اشبعهم واملاً جيوبهم بالذهب (يتنمردون) . . . . نديم صار كسولاً ، كثير الاخطاء . لقد كان احضار بحرية غلطة . . . كل ما تمسه بيدها تحرقه . . تكاد تحرق اعصاب ساحري وكان مثلاً للتوازن . . تملأ نومي بالكوابيس ، وتثير حفيظة الناس علي . . نسيم صار وقحاً ، وخلييل غنى « يا ظلام السجن » وافسد ليلتي يوم الاحتفال بوصولها . . والآن ، إذا فشل صخر في اقناع قومه بالصفقة ، يكون حضورها هدراً للوقت والاعصاب دونما اي مردود حتى على الصعيد الدعائي . . . فهي غير مضمونة على الاطلاق ، لا احد يدري ما يجول في خاطرها ، ولم اعد اجرؤ على مرافقتها الى الأماكن العامة . . وكل ما انفقته عليها من وقت ومال ضاع هباء . . ودنيا عادت تتقمص دور نصيرة المرأة ، بعدما ظننا اننا انتهينا من ذلك الى الابد يوم اشترينا ازواج بقية الشلة والمجلة التي كانت تنشر هن ذلك الهراء . . . اذا فشل صخر في احضار التوقيع المطلوب ، لن اعرف كيف التخلص من بحرية . . قد لا تكون فكرة سيئة ترك الست دنيا تتعهدا . . ولكن لا . . . سيجد نديم باباً جديداً يدخل منه ثانية عالم صخر . . . علاقتنا لم تعد هذه الايام كما كانت . . . بعد ذلك الشجار بسبب غلطة احضار بحرية ، والتسرع في ذلك قبل التحري عنها جيداً . . . حسناً . . لن ادع هماً يفسد عيشي . . . ساتلهي عن ذلك كله بتصفية حسابي الليلة او غداً مع خليل . . . وساستمتع بذلك مع كوكو الجميلة . . . سأطلب بعض المساعدة من ساحري . . فقد قيل لي انها قد تلتهمني . . ) . .



. . اقسمت عليك يا عنقود بحق الايمان والعهود والدواب السود والتوراة المنزلة على اليهود وبقدرة عالم الغيوب وبالاسم الذي يخرج له الماء من الحجر الجلمود ها لأكناس

لاكليس اكتونا التوتا أه أه توكل يا عنقود بجلب كفى بنت انيسة ورغيد ابن سهى اقسمت عليك بشملك تلاظ هلسكيك طيكال اجب يا عنقود بكفى ورغيد احضروا ابتها التوابع واتوني من الجبال والرمال والاوذية الخوال ومن السحاب وكل مكان تونس متكاش شريونية مريونية بحق هذه الاسماء عليكم ان تجلبوا كفى بنت انيسة الى رغيد ابن سهى . .



فليعترف . . . جسدها ليس اكثر من متراس يختبىء خلفه من بحرية ، وليس أكثر من ساحة حرب بينه وبين خليل . . تلال النهدين . . السهول الحريرية الرمال ، المنبسطة عند السفحين . . الغابة . . المغاور الدافئة الرطبة الملونة . . الانهار الجوفية الحارة . . الرحيل اللامتناهي الى البعيد القريب . .

وها هي كوكو تتوسط فراشه وليمة للفرح . . . وقد زينت نفسها ببراعة انشوية حاذقة . . . تعرفه يحب الذهب ، وقد اختارت لشفتيها طلاء ذهبياً ، واحاطت عينيها الزرقاوين بظلال مذهبة ، فبدتا مثل فيروزتين نادرتين في حلية خارقة البهاء . . الخدان طلتها بالوردي المذهب ، وارتدت ثوب النوم غلالة شفافة من معدنه المفضل ، بعدما حولت صلابته الى طراوة حلم نشوة . .

بدت متأججة ومختلفة . . كلهن يأتينه في المرة الأولى ملتهبات بالفرح والحيوية ، ويخفنه بشهواتهن للحياة والثراء . . مرة بعد اخرى ، يخبو البريق . . ويصرن متشابهات ، مملات ، مسكونات بالمرارة الكاوية . . كأنهن بحذقهن الانثوي يحذسن فيما بعد ان لا مكان لهن حقاً في هذا الركن الذهبي من العالم الا كديكورات ، او ساحات معارك . . . لسن محور حياة الرجال ، بل دمي هامشية ، والرجل لا يهدي امرأته حقاً معطف الفراء ، بل يهديه لنفسه ، ولصورته الاجتماعية كرمز لقوته الشرائية ، وهي تتولى حمله على كتفها . . . وكل عطاء ، لا يهدف حقاً لامتناع المرأة ، وانما جوهره مباهاة الرجل بقدرته على البذخ استعراضاً لقوته . . فهل كوكو اذكى مما ينبغي لدمية ، ام ان ذكاءها لا يتعدى حدود دورها ، وستتابع لعبه بسعادة ؟ . .

( تقدم ايها الرجل ، لا تخف جسدها ، انه هش ومزور كالبالون ، لا صلابة روحية

تدعمه من الداخل ، ولا فكر يشحنه بالاستمرارية ، اثقبه كصبي يعث بالبالون ،  
وستغادره الى الابد ابخرة الغرور والخيلاء ويتكور امامك على السرير كالخرقة الملونة  
بالاصباغ . . . بالون آخر فارغ ) . . تطلع رغيد اليها ثانية ، فوجدها دميمة كالبالون  
المنفوخ ، والهواء يغادره ، ويغادره ، وملاحه تبدو مضحكة .

تحاول كوكوان تساعده على خلع معطفه الحريري . . لا يدري لماذا لا يشعر بالرغبة في  
ذلك . . لماذا لا يدعنه يخوض معركته ويغرس راياته ويهزم الرجال من غير ان يؤدي تلك  
المسرحية المكررة المضجرة . . . خلع الثياب ، والغزل وتبادل الانخاب ، واطفاء الانوار ،  
والآهات ، وبقية عدة التمثيلية . .

والاسئلة الممجوجة والحوار التقليدي : هل اعجبتك ؟

— طبعاً يا حلوتي .

— هل انا افضل من الاخريات ؟

— بالتأكيد .

— تحبني ؟

— الى الابد .

— هل ذقت متعة كهذه من قبل ؟

— ابدأ ، كأنني لم اعرف النساء قبلك ! . . .

يخطو في حقولها . . يتمهل في رحلة صيده . . لا يقصد حقاً تشويقها ، لكن وجهاً  
مقطوعاً يحوم في عتمة الغرفة ويحول بينه وبينها . . وجه بحرية يأتيه ، ممتلئاً بالغراية ،  
مشحوناً بالألم الغامض ، مسكوناً بالسرية المطلقة . . تجتاحه رغبة كاوية لاحتوائها لمضاجعة  
المستحيل . . . تعب من الدمى ، وسئم زوجات خصيانه . . . تذكر خليل وهو ينشد «يا  
ظلام السجن خيم» فذب الحقد في اوصاله واستعاد قدرته على العدوانية وتابع رحلته نحو  
التلال . . .

الهاتف يرن فجأة . . . ( من الأحق الذي يضايقيني في وقت كهذا ؟ لا بد ان الأمر  
خطير ، فقلائل يعرفون رقمي الهاتفي الخاص في غرفة النوم ) . . .

رفع السماعة . . جاء صوت مشوش ، غامض ، كأنه من كوكب آخر ، يريد  
التحدث الى كفى . . .

قال له : النمرة غلط . . واقفل السماعة . . . وانهمر فوقه مطر بارد تدفق من السقف



الحريري للفراش . . اذن ثمة من يتجسس على حياته الخاصة ، ويطارده ، ويعلن ذلك له ليخيفه . . .

سألته كفى بلا مبالاة ثملة : من ؟

— شخص يسأل عنك يا كوكو . . .

— عني ؟ . . . غير معقول . . .

— من يعرف انك هنا ؟

— لا احد . . .

— زوجك ؟

— بالتأكيد لا ؟ ثم انه مسافر . . .

— خليل لا يعرف على اية حال رقمي الهاتفي هذا . . . قالت خائفة : هل انت

متأكد ؟

— اجل ! . . . شخص سأل عنك . .

— رجل ام امرأة . .

— لم يكن الصوت واضحاً . . .

— لعلها دنيا . . انها غيرة . . .

— هل اخبرتها بشيء ؟

— قلت لك لم أخبر احداً . . لعلها حدست . . قررت محاولة ازعاجنا . . .

— هل يعرف صقر انك هنا ؟

— لم اره . . اقسم لك . . تعرف انه مسافر وزوجي ، واني اقضي اوقاتي كلها هنا

مع لي . . نعمل ليل ليل نهار لتحضير سهرة ليلة المليار . . .

— خليل خارج جنيف ؟ . .

— انت تعرف انه مسافر . . .

— المكالمات جاءت من داخل سويسرا . . لم اسمع تكات المخابرات الخارجية . .

— ارايت ؟

— من يعرف انك هنا ؟

— لا احد . . . اقسم لك . .

— من اوصلك ؟

— التاكسي . اسأل حراسك . . .  
 — حسناً . ارتدي ثيابك واذهبي بسرعة . . . اريد ان افكر . . .  
 قرع الجرس . ومضى بنفسه الى الباب طالباً من نسيم توضيب السيارة للضيافة بينما كانت ترتدي ثيابها بسرعة ، وهي ترتجف قهراً وذعراً . . .  
 ودعها على عجل ، واعطاها هدية صغيرة الحجم ملفوفة بورق ذهبي دستها في حقيبة يدها ، وهبطت بسرعة بانتظار السائق واحدى سيارات رغيد الخرافية .  
 وقف نسيم يشاركها الانتظار وشعرت ببعض الحرج ( حسناً . . . لماذا يضايقني حضوره ؟ انه مجرد خادم لا اكثر . . . ولن يجرواً على اخبار خليل او اي مخلوق آخر ) . . .  
 وحينما مضت عاد نسيم الى غرفته وهو يفرك يديه عابثاً بمنديل سبق ان وضعه قبل لحظات فوق سماعة الهاتف حين تلفن الى غرفة رغيد . . . لقد احب خليل حقاً ليلة شاهده يغني «يا ظلام السجن خيم» وسط اولئك الوحوش والسجانين . . . رجل مثله لا يستحق ان نخونه زوجته مع وغد كرغيد ! . . .  
 ستحوم الشكوك حول القلائل الذين يعرفون رقمه الهاتفي الخاص في غرفة النوم ، وهو في عدادهم . . .  
 لكن رغيد لن يكون واثقاً . . . وهو لن يكررها ثانية . . . لقد عاهد نفسه على عدم التدخل فيما يدور حوله من وضاعات ، للخروج حياً من هذا الوكر . . . اسرته المسكينة لن تتحمل صدمة فقده ، بعد مصرع شقيقه وجرح الآخر . . . وهو لن يموت بسبب امرأة مثل كوكو . . . قد يموت من اجل بحرية . . . لا كوكو . ويجب الا ينسى ذلك ثانية . . . ويجب ان يسارع للتخلص من هذا الجحيم ، لأن شهيته الى خنق رغيد بيديه قد عاودته . . .  
 وتمثال «المناضل» الذي (اهداه) اياه رغيد يهمس كل ليلة في اذنيه حين ينام : اقتله . . . اقتله قبل ليلة المليار . . . اقتله . . . لا تدعه يستمتع بالمزيد من الجرائم . . . تذكر سري الدين . . . تذكر شقيقك الذي فجر نفسه على اسوار بيروت كي لا تدوسها اسرائيل . . . تذكر ان وجود رغيد مكرس لرفاهية العدو وفتح الدروب في وجهه الى عواصم عربية اخرى . . . .



تهند الصباح دفثاً شرساً ، كأنه رسالة نارية مبهمة من ارض اخرى . دخل نسيم الى غرفة الساحر ، حاملاً له شاي الصباح كعادته . الغرفة مظلمة وخائفة ، وروائح البخور وعقاقير الشيخ وطفان الغريبة قد عششت في جنباتها ، وبدأت تتسلل عبر شقوق الباب الى الممشى وتكاد تستولي عليه مثل مخلوقات مظلمة لا مرئية تحمل رائحتها مناخات الاختناق والاسرار واللعنة ، هاجمة نحو باب جناح بحرية في الطابق نفسه . . .

اتجه نسيم صوب الستائر ، وجذبها لتدخل الشمس التي لم تغب عن سماء جنيف منذ وصول بحرية . . . وما كاد يفعل حتى صرخ به الشيخ وطفان من فراشه بصوت شبه مذعور : من طلب منك كشف الستائر وادخال النور . هيا . . . اسدها بسرعة . . .

حلق نسيم في الساحر متسائلاً ، ودهش وهو يراه يتحاشى بقعة الضوء ، ويستر وجهه بيده وقد اشاح عنها . . . فعاد نسيم يخلق الستائر وقد انتابه ذهول حقيقي . . . ( يا الهي كم تبدل الشيخ وطفان . لقد نحل وجهه وطالت لحيته دونما تشذيب ، وانطفأت عيناه في بركتين حمراوين كأنه لم ينم منذ ايام ، والتهب شعره بثلج الشيب والتجاعيد الكثيرة سرت في ملاحه . . . كأنه كبر عدة اعوام دفعة واحدة . . . لقد كنت التحاشى النظر اليه تعبيراً عن غضبي على سلوكه نحو بحرية منذ حاول دس تعويذة العشق في طعامها ، ثم جرب اقساري على مساعدته في تعذيبها وحلق شعرها لمداداة جنونها المزعوم وطرد العفريت الموهوم الذي يسكنها ويضمّر العدواة والدمار له ولرغيد . . . هذه اول مرة انظر الى وجهه منذ وصول بحرية . . . ولولا لون عينيه العجيبتين الغريبتين ، اليسرى الخضراء واليمنى البنية لما عرفته . . . ترى ما الذي يدور في عالمه السري المتوحش المسكون بالجان والعفاريت والاحقاد والاسرار ؟ ما الذي يدور داخل رأسه المغلق كصندوق تفور داخله حشرات مرعبة ؟ يبدو كأنه يضمّر شراً كبيراً . . . ولكن لمن ؟ للمسكينة بحرية ؟ ) . . .

قال نسيم للشيخ وطفان بصوت جهد ان يبدو عادياً : لك رسالة .

- ضعها الى جانب الشاي . لا تقترب مني .

تعجب نسيم من السلوك العدواني لوطفان ، ومن نبرة الخوف الخفية في صوته المرتعد . . . ( هل يظنني انا ايضاً مسكوناً بعفريت ينوي تدميره ؟ هل بدأت عقدة الاضطهاد تستولي عليه جنباً الى جنب مع عقدة العظمة ؟ لم اكن اصدق ان في زمننا من يلجأ إلى السحرة ، ولو لم ار زبائن الشيخ وطفان من الاقوياء والاثرياء وحتى بعض الزعماء السياسيين من الاتجاهات كلها ، لما صدقت ان هذا الهذر ما يزال يدور في زمن احتلال لبنان

بعد فلسطين . . ولحظة فجر أخي نفسه بالدبابة الاسرائيلية ، كان احد الزعماء العرب يستشير الساحر جالساً هنا كالطفل في حضرفته ) . .

قال نسيم بصوت مرتجف : اتصل بك الصحافي عدة مرات منذ الفجر الباكر . .  
- امرتك بأن تقول له انني سافرت .

- فعلت . لم يصدق . يعرف انك هنا . . لا شيء يخفى على اولئك الصحافيين الملاعين كما تعرف . قال انه سيتصل بك ثانية عند الظهر ويرجوك ان تكلمه . لم يعد في مقدورهم تزوير « الاوروسكوب » وهم يدفعون لك مبلغاً باهظاً ، ولا يحق لك فسخ العقد من جانب واحد قبل انذارهم كما يقول .  
- دعني وشأني . سيرد الشاي .

- هل تريد ان اناولك اياه في الفراش ؟

- قلت لك لا تقترب مني . اخرج . . .

كانت عينا نسيم قد الفتا الظلمة ، وصار في مقدوره ان يرى ان الساحر احاط سريره بنجمة خماسية رسمها بمسحوق احمر رشه حول سيقان الفراش .

اضاف الساحر : لا تطأ هذا الخط الاحمر . . . واحضر لي ليتراً من الكحول الابيض

النقي . . .

وبينما نسيم يطيع الاوامر ويغادر الغرفة ، فاحت رائحة الكحول النقي وشاهد الساحر يفرك يديه بـ ( الاسبيرتو ) بشدة . . . ( إذن صار ينظف يديه عبثاً بالكحول ؟ انه يستهلك اكثر من لتر كل يوم . . . حتى ظننته يشربها !! او يستعد لاحراق ذبيحة حيوانية بها . يا إلهي كم تبدل . لم يعد يدخن النارجيلة بالتبغ الممزوج بالدبس . ولم يعد يطلب مني أن أعد له الشاي الأخضر وهو ينشد بصوته الجميل أغان مرحة للوك الجان . ولم تعد اصابعه المتوترة تتلهى بحبات سبخته الطويلة على طريقة النساك . . ولم يعد يصبغ كفيه بالحناء . . ولم . . ولم . . ولم . . كم تبدل . . ) .

\*\*\*

حين غادر نسيم الغرفة ، نهض الشيخ وطفان من فراشه ، وبدا مثل شبح فارغ القامة جسده قضيب طويل وقد لف عليه ما يشبه الكفن الأبيض المرعب . سارع الى الستائر يحكم اغلاقها . صار يكره ضوء النهار ويخشاه . . . يكره ان يراه احد في النور الساطع ، ويكره ان يرى نفسه في المرأة . . المرايا صارت تثير ذعره . . منذ طارده بحرية الى داخلها واضمرت

النار في دهاليز مرايا العالم كله . . . ( تلك الليلة نهضت من نومي مذعوراً . . كنت احلم  
بأنني امشي صوب غرفة بحرية وعفريتها يتناديني بأصوات متعددة ، اصوات عجائز واطفال  
ورجال وحيوانات ووحوش وطيور وافاع . . يتناديني ويتحداني . . فتحت باب بحرية ،  
ودخلت ، وفي الظلمة شاهدها بوضوح جثة آدمية غارقة في النوم بينما ينشط العفريت  
داخلها ويعمل على تدميري . . . ولم اكذ اصل الى جانبها حتى فتحت عينيها الشاسعتين  
فجأة دون ان تتحرك ، واذا بعينيها مرأتان . . لا سواد فيهما ، ولا بياض عين ، وانما زرع  
العفريت في محجريها مرأتين براققتين ، شاهدت نفسي داخلها رجلين ، وقد شبت النيران  
في رأسيهما . . . .

صرخت ذعراً ، وهربت من هذا السحر الرهيب الى غرفتي . اقفلت الباب وسورت  
سريري بالمسحوق السحري ورسمت النجمة التعويذة وقويتها بالتعازيم فصارت جداراً  
غير منظور يحميني ، ثم جلست في فراشي وامسكت بالمرآة ، وحدقت فيها ، وفوجئت بأن  
وجهي داخلها يشتعل بالنار . . . وجهي قناع يعوم داخل فراغ المرآة وقد شبت النار  
فيه . . . وتوجعت . . وصرخت بحنجرة ابن آوى كي لا اوقظ احداً ، وكي لا يميز نسيم  
او رغيد صوتي ويتوهمان انني جننت . . . ) منذ تلك الليلة ، لا تطالعني مرآة إلا وارى فيها  
وجهي عائماً في الفراغ كقناع وقد شبت فيه النيران . . آه برد الشاي . . على اية حال لا  
شهية لي الى مأكلا او شراب . . . لعل العفريت الذي يقطن نسيم لحراسة بحرية يتلقى  
الاوامر بتسميمي . . . لم اعد اجرؤ على الاكل الا برفقة رغيد ، بعد ان يتناول قبلي بضع  
لقيمات . . . ولم اعد اطيع صحبة رغيد او سواه من البشر . . . ولكن لا مفر من مجالسة  
رغيد وقت الطعام والا مت جوعاً . . . كم صرت امقت صحبة الناس ، انا الذي كنت  
مصبراً على الذهاب الى الفندق لقضاء حاجاتهم . . . واللقاء بهم وبالصحافيين المشاغبين  
الطبيين . .

غسل الساحر يديه بالماء والصابون للمرة العاشرة ذلك الصباح دون ان يدري لماذا .  
واعاد ترتيب ادواته السحرية ، ومسح الغبار الموهوم عنها للمرة الالف منذ الليلة  
الماضية . . . لا يدري ماذا دهاه فجأة . . . صار يحس بالحاجة الى ترتيب الفوضى المحيطة  
به ، وقد رتبها للمرة المليون منذ وصول بحرية . . . ولم يعد يفعل شيئاً آخر غير غسل يديه ،  
وملازمة غرفته بعيداً عن النور والناس ، وترتيب ( الترتيب العبيث ) الغريب الذي  
يلازمه . . منذ وصول تلك المرأة المسكونة انكسرت دنياه ولم يعد يذهب الى غانيات « شارع

برن « الجميلات اللواتي كانت تتقمصهن عروس الجان . . لم يعد يشعر بالشهية نحو اية انثى غير بحرية ، ونسي عنبرة بعدما مسحها بحرية من ذاكرته وعليه أولاً طرد الجنى القوي العدو الذي استولى على جسدها ليكيد له . . جسدها النضر الشامخ الذي يرتجف بوهن عاشق وهو يدهنه بالمرهم ودم الخفاش والابل ويتلو تعاويذه . . . وتضيق الكلمات التي كانت مطواعة . . . لقد اضحى ( يتأق ) في حضورها ، وصار يبذل جهداً خارقاً كي لا ( يتأق ) في غيابها حين يكلم نسيم اورغيد . كيف دخلت صرختها صدره واستولت عليه واعادته حطاماً من التناقضات والذعر والرماد ؟ لقد مسحت حياته الحالية ، واعادته الى الماضي الغابر الموجه . . ( كأن ذلك الماضي حي ، ومستمر ، وانا اتابعه في مكان ما ، مع اخوتي وابي وامي ، ورائحة بيروت المألحة . . كأنني اتساقط داخل عصور وازمان اخرى واحترق ، وتأتيني اصوات ذلك الزمن حية واكثر حياة من حاضري المقدد المحاصر بوجهي يحترق داخل المرأة . . . كأن زمي الجميل مع الجان كان وهماً انحسر . كأن بحرية مسكونة بعفريت يبروتي كان يكيد لأسرتنا منذ زمن بعيد . . . لا ادري . . . لم اعد ادري شيئاً غير انني منذ وصول بحرية منفي الى حيوات اخرى عشتها في الماضي . . . وصار الماضي الميت اكثر حياة من حياتي ) . .

اضاء الساحر مصباحاً خافئاً وتناول الرسالة بحذر . لعل عفريتها انتقل من كتابة الرسائل على المرايا الى الورق . كل شيء ممكن . قلبها مذعوراً ثم فتحها . وجد رسالة من البنك تضم ( كشف حساب ) . . . قرأ الارقام مرات عديدة ولم يفهم شيئاً ثم تذكر ان ذلك يعني انه ثري . . يمتلك ثروة بستة أرقام . . لم يعد يذكر لماذا كان يريد جمع المال ، ولماذا كان همه امتلاك اكبر رقم ممكن . . لماذا ؟ لم يعد يذكر . لكنه يشعر بانه جائع ومذعور ووحيد ، وما يربعه ان كل ما يحدث له مع بحرية يبدو له وكأنه يتكرر . . كأنه سبق ان حدث له من قبل . . وهو يعرف النهاية المأساوية لتلك الحكاية . . لا يذكر التفاصيل لكنه يعيها بغموض من يحاول تذكر حلم أو حياة سابقة كان قد تقمصها . . ذلك الاحساس الاكيد بأنه قد عاش هذا كله من قبل بمعنى ما يزيد في سقوطه اليأس شبه المستسلم في فخ التوحد والعزلة . . . صار مستوحداً ومتوحشاً ، يتحاشى الناس بعدما كان يسعى اليهم بالرغم من انف رغيد ، وتحاصره كلما نام كوابيس عالم غامض عشي . . ولم يعد متأكداً اين يبدأ الحلم وتنتهي الحقيقة ، ومتى يخطو إلى الكابوس ويمشي في المرأة ومتى يغادرهما . . . ( لقد انتصرت على الخوف بالسلطة . . وكنت سعيداً بين رعاياي . . حتى عنبرة ، احزنتني مرة لكنها لم تهز

صوبلجاني هكذا . . . وحكمت مملكة من الانس والجنان . . . والآن كل شيء ينهار بسبب بحرية ، ولا ادري لماذا اتاكل من الداخل ، كأن غملاً مفترساً متوحشاً يلتهمني ليل نهار . . آه هذا الحر اللعين الذي رافق بحرية ، كرياح مسمومة تهب من عالم آخر . . . انني اختنق ) .

تناول خرقة بيضاء ، ومسح بها العرق المتصبب عن جبينه . . وفوجيء بأن له لون الدم ! . . . ( هل صرت اتعرق دماً ؟ ام انها تعبت بحواسي ؟ )  
تناول المرأة ثانية . نظر داخلها فلم ير صورته على الاطلاق كأنه محو من الدنيا ، وانما شاهد اشارة استفهام كبيرة مرسومة داخلها . . .

رن الجرس . دخل نسيم بعد دقائق وكان الساحر ما يزال يحرق في اشارة الاستفهام مذعوراً . قال لنسيم : خذ هذه المرأة ، وانظر داخلها .

نفذ نسيم الامر ودهشة حقيقية تستولي عليه . انها مجرد امرأة اخرى عادية ، شاهد فيها وجهه البائس وآثار الدموع السرية في عينيه منذ استشهد شقيقه . سأله الساحر : ماذا ترى ؟

اجاب ببساطة : وجهي طبعاً .

- الا ترى شيئاً آخر ؟

- بالتأكيد لا .

استعاد الساحر المرأة ، فوجد شارة الاستفهام وقد تكاثرت حتى كادت تغطي السطح الزئبقي المخاتل لزجاجها . . ثم صارت تتحرك وتنفور كديدان صغيرة تتأهب لالتهايم جثته . . .  
وصرف نسيم باشارة من يده ، دون ان ينطق بحرف واحد . . . بقية النهار ! . . .  
لكنه صنع دمية لبحرية . غرس الدبابيس فيها وعزم عليها واحرقها في المجرمة ، فأحس بالنار تحرقه هو أيضاً . لكنه كرر ذلك مرات عديدة ! . . .

\*\*\*

دخل نسيم الى غرفة بحرية حاملاً صينية الافطار . . كان منذ وصولها يكلمها وهو لا يدري ، تسمعه ام لا . . تنصت ام لا . . . ويحنو عليها كما لو كانت طفلة او امه ! . . .  
هبت رائحة البحر الصيفي الحار من سريرها حين تقلبت فيه . دوماً يشم رائحة البحر تفوح من غرفتها ومن حضورها الناري ، كمدينة محاصرة . كشف الستائر فتدفق النور . . .

نهضت كأنها ترحب بالضوء ، وتتجه صوبه بوجهها لتشرب من نبعه ، ثم التفتت الى نسيم . شاهدت وجهه وخيل اليه انها بدت مطمئنة وتثأبت . .

قال لها : صباح الخير . .

- . . . صباح . . . الخير . . .

أهي حقاً نطقت ام خيل اليه ذلك ؟ . . . لا يدري . . . كان قد ادار ظهره لها ، وهو يقرب الطاولة من الفراش ويرتب فوقها أنية الطعام . .

كرر بود حقيقي : مليار صباح الخير . . .

ابتسمت . . . إنها تبسم وليس واهماً . . لا . . ليس متأكداً ، ولكن طلعت شمس عديدة ، ونبتت البذور في التربة المحروقة وهطل مطر دافئ يحنو عليها فصارت اشجاراً وايئعت فوقها البراعم والورود وتدفقت الينابيع وصدحت الطيور ذلك كله في اللحظة التي استغرقتها ابتسامتها غير المؤكدة ! قال وهو يرتب لها اواني الطعام دون ان ينظر اليها : نطقت ام لا . . ابتسمت ام لا . . . لا فرق . . . بوركت ايتها الطفلة المسكينة . . . وحماك الله من اولئك الاشرار جميعاً ايتها السيدة الكبيرة . . . طيب يروح ، وآخر يجيء ، وكلهم يخدرك . . . ينومونك ليل نهار كأنهم يخشون صحوك . . . ولكن ، رغم تخديرهم المستمر لك ، احسك حية وحادثة كلغم ، وفيك ما يحرضني على الفعل . . . والقتل . . والحنان . .

نهضت من فراشها . . كانت جراح جسدها قد شفيت ، وبدت لعينيه وهي تمضي لتغسل وجهها قوية وصلبة . . . آلهة منحوتة من الصخر الاسمر من الصوان لا من الرخام ، تقدح شرراً حياً ، وتخزن في اعماقها سحر افروديت وصلابة زنوبيا واحزان إلكترا وحكمة اثينا وجوح كليوباترة . . . تطلع من النافذة ، وخيل اليه انها ما تزال تركض في الغابة امامه كما تسري في عروق الليل والاشجار كل ليلة . . كأنه لمحها داخل تلك الالجة ، ام تراها حقاً في الحمام ؟ عادت اليه ، وقد فارقتها نظرتها الزجاجية الزائغة . . . ثبتت نظرتها في وجهه كأنها تتأمله بإمعان . . تذكر انه منهك ومشعث الشعر ولعله يبدو عجوزاً في الثلاثين . . . قال لها بنزق الشباب : عمري خمس وعشرون سنة . . لكنني ابدو عجوزاً لانني رب اسرة . . تسعة اخوة وانا معيلهم الوحيد . كانوا تسعة واستشهد احدهم . . نحن الفقراء نشيخ بسرعة يا حلوتي . . وكل ليلة عندنا هي «عيد المليار ضحية وشهيد» . . تتأمله بصمت . . . يتابع : لا ادري سر ثرثرتي امامك . . انت الوحيدة من دون



الناس جميعاً التي افتح لها قلبي واعري لها بؤسي دوغما خجل . . ولا ادري سر صمتك . . هل انت حقاً مريضة ، ام انك ترتدين الصمت ذكاء ودهاء وحسن تخلص ؟ . . . هل اسمك بحرية ام حرية ؟ وهل انت مثلي ، مهجرة مسكينة في وطنك رمت بك المقادير الى هنا ام لا ؟ . . كل ما اعرفه هو انك بالتأكيد لست قرية رغيد . . . واني بالتأكيد سأفعل كل ما بوسعي لحمايتك منهم وليس لحمايتهم منك كما يشتهون . . . هل تلازمين فراشك ليلاً حقاً ، أم تخرجين الى رعاياك من كائنات الطبيعة ؟ دوماً يخيل الي أنني الملحك عند الفجر وانت تذويين في ضباب الغابة الشفاف . . . لا اعتقد انك تغادرين فراشك وانت مخدرة هكذا . . يدهشني احياناً كيف تقوين على النهوض والحراك . . . كلي ايتها الغالية . . . التهمتي طعامك . . يجب ان تستردي عافيتك بسرعة لتغادري هذا الجحيم معي او وحده . . . واحذرهم . . . رغيد يحلم بامتلاك مستحيلك ، واخشى ان ينقلب حبه لك الى كراهية . . فالكراهية حب يتقمص العبوس ، وربما الحقد والنقمة . الساحر ايضاً مجنون بك حباً وكراهية ، فاحذري منه ، لعله يحلم بقتلك . . . وانا احلم باطلاق سراحك . . عملياً احلم . . . واظنني قد نجحت في تحرير جواز سفرك منهم ، بحيث يصير رحيلك ممكناً . . . هل تسمعيني ؟ . . . . .

لم تجب ، ولم ترفع رأسها اليه . كانت تشرب الشاي بصمت . تذكر نسيم انه اطال البقاء في غرفتها ، وقد يلحظه رغيد ويهدده بالطرد كما فعل في مرة سابقة . . . هس مودعاً : استودعك الله ايتها الاميرة الفقيرة . . . اسمعي . . نسيت ان ابلغك نتائج فحوصاتك الطبية والمخبرية . . . لا مرض عضوياً لديك . هذا ما سمعت الطبيب يعلنه لرغيد . لا سبباً فيزيولوجياً يمنعك من النطق . لست خرساء بالتأكيد ، اذا كان يسرك ان تعرفي ذلك . . ولا خطر عليك الآن منهم فكلهم مشغول بليلة المليار . . هل عرفت ان رغيد اعلنها لتصادف وليلة عيد ميلادك ؟ هل هي حقاً ليلة عيد ميلادك ، وكيف يترافق مولد القامع والمقموع ، وعيد السكين والمطعون ؟ . . . هل تخفين لنا مفاجأة ليلتها كما فعلت ليلة حفل استقبالك ؟ حسناً . . .

اذا تصادف عيد ميلادك ليلتها حقاً ، بوركك تلك الليلة بك . . . وما دمت صامتة هكذا ، لا تجيبين وربما لا تسمعين ، سأقول لك انني احبك مليار مرة ، ولا اريد لهذا الحب شيئاً غير ان تقبلي عطائي . . . وفقير مثلي لا يملك غير التضحية بحياته لاجلك . . . . .  
واردف وهو يغادر الغرفة : لكنني ارجو الا يكون ذلك ضرورياً . . . لا اظنهم يجروون

على ايدائك .. ليس الآن ... هذا ما اكدته لي دنيا ..  
 خيل اليه وهو يطبق الباب انها قالت شيئاً عذباً ، مثل نفحة ريح ريعية .. دوماً يخيل  
 اليه انها تكلمه عبر شفتيها المطبقتين بإحكام .. وعاد الى المطبخ شبه ثمل بها وكان رغيد يرن  
 جرس الانترفون ويشتمه بعدة لغات ... لم يجب .. تأمل الصوت المنهمر المتدفق كنهر  
 قاذورات ... وظل صامتاً رافضاً مغادرة قارة سعادته ببحرية ...



كم تكره هذا الحر الذي داهم جنيف ، وانشب مخالبه فيها ...  
 استيقظت كفى مضطربة الروح متهمة الحر بالمسؤولية ... منذ رحل زوجها وهي لا  
 تفارق شقة نديم الفاخرة ، ولم تعد تزور فندقها الا لاحضار بعض ثيابها . كانت سعيدة ،  
 حتى اكتشفت ان هدية رغيد لها مزورة ، كخاتم دنيا الذي سبق وسرقته . يوم عادت من  
 ليلتها الفاشلة ورغيد ، انقضت ملهوفة لترى هديته اليها ... وكانت نسخة عن خاتم دنيا  
 الذي سبق وسرقته وما زال في حوزتها ... ماس مزيف ... زجاج ... لا يساوي  
 شيئاً ... لم تصدق عينيها ، وذهبت مساء البارحة به الى الصائغ الذي قال عنه ما قاله عن  
 الخاتم الآخر : ديميليت !

امتلات قهراً ، وهاجمتها الكوابيس . حلمت بأن الساحر يسلمها الى رغيد ، ووجه  
 رغيد في الحلم غريب ... عيناه طولانيتان لا عرضانيتان كبقية الناس ، مشقوقتان حتى  
 خديه ... اسنانه سوداء مكسرة وشعره من القش .. ويهمس لها الساحر .. لا تقولي له  
 انه كذلك فهو لا يعرف انه ميت ... ثم يجرها من يدها ، ويمددها داخل تابوت ، ويقول  
 لها انه سيروي لها حكاية لتنام ... يغمض لها عينيها بيديه ويقول : كان ياما كان في قديم  
 الزمان .. كان شبح .. كان شبح ... كان شبح ... هداياه وهم ...

تناولت طعام الافطار وزاد في ضيقها ان نديم لم يربها كعادته كل صباح وبدت البحيرة  
 لعينيها مثل « طشت » كبير ازرق للغسيل الوسخ ... وحين لمست مقبض باب الغرفة  
 لتغادرها تكهرت للمرة الأولى ، وفهمت ما كان يحدث لخليل باستمرار ...  
 فارقتها الشهية للعمل وللي في التحضير لليلة المليار ، وشعرت بقلق غامض .. كمن

تحولت جنته الى مستنقع رمال متحركة . . . ارتدت ثيابها بسرعة وقد قررت الذهاب لشراء ثوب جديد تغرق في حريه احزانها وتطلعت من النافذة وهي تنتظر المصعد ، فخيل اليها ان الابنية في الشارع مائلة قليلاً صوب الجبال . . . وانها ليست مستقيمة تماماً كما كانت تتوهم . . .

استيقظ في روحها قلق غامض ما كانت تعرفه في غمرة يقينها العتيق واطمئنانها للقاء قومها الراقين الذين تنتمي اليهم . . . لم تعد متأكدة من شيء . . . بلى . . . انها متأكدة من شيء واحد : حبها للشراء والرفاهية والماس والحرير يفوق حبها لأي شيء آخر في العالم . . . ومخداع غني خير من مخدوع فقير او مخداع فقير . . . ستحاشي الالم قدر الامكان . تريد ان تحيا بسعادة ، وهي لم تعد تجد سعادتها الا قرب المال . . . لقد الفت انامل عجوز ( المساج ) التي تحضر لتدليك حسنها كل يوم كي لا تترهل نضارتها بعد اعوام من الاختباء في عفونة ملاجئ بيروت . . . والفت دبائيس الخبير الصيني الذي يغرسها في مفاتيح جسدها ، ويحررها من نوبات الصداع التي بدأت تدهمها في الايام الاخيرة ، ونوبات الشهية المفرطة للأكل التي استولت عليها في جنيف وازدادت عدة كيلوغرامات مفاجئة الى وزنها . . . صحيح ان نديم وصحبه فرحوا بهذه الزيادة ووجدوها اضافة كيفية ونوعية الى مفاتها ، لكنها حريصة على رشاقتها المرغوبة خارج حجرات النوم المغلقة ، وسط قاعات الكوكيتيل وسهرات المجتمع . . . حين وصلت الى الباب الخارجي ، فوجئت بوصول نديم يرافقه ضيف ، وعلى سيارته الرولزرويس تبدو امارات وجاهة خارقة . . . نسيت كل شيء عن خاتم رغيد ومخاوفها ، ونبض قلبها للفريسة الآتية الى وكرها خصيصاً للاعجاب بها . . كم تحب سماع كلمات الاعجاب ، وكم تبذل من جهد انثوي لتستحق ذلك . . .

صافحت الضيف بزرقة عينيها ، وشهرت عليه اهدابها ، فارتجف صوته ، وسارع نديم وقد التقط (موجة ) الاعجاب المتبادلة وتلا فعل التعارف بدلاً من فعل الندامة وتابع قائلاً : سيدة كوكو . . . هل تستطيعين تناول العشاء معنا ؟ هذا ضيف الباشا . . وصلتته الدعوة لحضور ليلة المليار ، فقرر المجيء منذ الآن لقضاء اجازة في سويسرا . . .

- كم هذا لطيف . . .  
لم يعرف احد بالضبط ما هو اللطيف ، وافترقوا وهم يعرفون ان كوكو ستسهر مع السيد عادل بكل سرور متبادل بين الثلاثة ! . . .

\*\*\*

في ملهى « الماكسيموم » بهرها عادل بكرمه وسخائه . . . دست بلقافة بين شفيتها منتشية بذلك للمرة الأولى ، وتذكرت انها طالما كانت تمقت رائحة سجاثر زوجها وتشن حملة ضارية ضد دخانه هو شخصياً . . . فدخان الفقر والبؤس خانق . . . ودخان الشراء يشرح الصدور . . . وفاجأها عادل حين استل ورقة نقدية من فئة الالف فرنك واشعلها بطرف ولاعته ( الكارتيه ) ، وقدمها اليها كي تشعل بها طرف لفافتها . . . حتى نديم اذله المشهد . . . اما هي فطار صوابها ، وحارت هل تطفىء ورقة الالف بيديها وتحفظ بها دامة ، ام تستمتع بالمشهد الذي طالما شاهدته في السينما وتمت لو كانت البطلة . . . كانت لحظة ( خالدة ) في نظرها ، شدت صدرها كما في الافلام المشابهة ، وتهدت دخان اللقافة حتى آخر خلية في رئيتها وقلبها ، وامطرت عينها شهوات زرقاً فوق عادل الذي لم يخف هيامه بها . . . وقرر نديم : حان وقت حديث العمل وعادل . . .

لكن الامر خرج من بين يديه . . . بدت كوكو كامرأة عاشقة حقاً ، كأن اخلاصها لكذبها يفوق حبها للخيانة ، وقد سرت عدوى حيوية شهواتها الى عادل . . . وازدادت رغبة نديم في الحصول عليها واستعادتها من اذرع الرجال الذين يقدمها لهم . . . وفكر بغصة ( هذه امرأة اصيلة الوضاعة . تمارس الرذيلة بصدق حتى انها لا تلحظ ما تفعله ، والاطارات الاجتماعية تزيدها تأججاً . . . هل سينتهي بي الامر الى حب امرأة مدمرة التفاهة مثلها ، ومحتركة حارقة مثلها ؟ ) قرر نديم ان يكسر قليلاً حدة الانسجام بينها وبين عادل ، فسألها : هل تبصلك اخبار من خليل وصقر المسافرين ؟ اجابت ببساطة : خليل ؟ صقر ؟ من هما ؟ ودفنت وجهها في صدر عادل المزدهر سعادة بتأججها . . . وللمرة الاولى احس نديم بما يشبه الغيرة ، ورافق ذلك شعور عميق بالرفض لغيرة حمقاء كهذه . . . وفي ومضة واحدة ، تحولت مشاعره كلها حقداً غامضاً على زوجته الخادمة دنيا . . .

لن يفهم النساء ابداً . . . ولم يفهمهن يوماً رغم شهرته كوزير نساء ذواقة . . . ( المرأة الأولى التي احببتها انتحرت حين رفضوا تزويجها بي لأنني فقير . . . والمرأة الثانية التي احببتها وتزوجتها تكاد اليوم تنتحر لأنني لم اعد فقيراً . . . وكوكو تقول انها تحب رجال الارض جميعاً لأنها تحبني ، وهي تثبت ذلك عملياً مع كل رجل اقدمه لها . . . آه لن افهم النساء ابداً ) . . .

وحين احاط به سرب من الراقصات تتدلى الرياش الملونة من رؤوسهن ومؤخراتهن كالذيول الناعمة لحيوانات غريبة ، حلق فيهن كأنه يراهن للمرة الاولى في حياته ( لقد

خرين حياتي منذ البداية وقمعتني بحبهن للثراء . هن اللواتي يفرضن الاحترام الاجتماعي العام لمقام الاغنياء . . . وانا لبيت ) . . .

وتذكر امه العجوز الرقيقة الصابرة على قسوة ابيه ، الصامدة في بيروت ، المستورة التي تداري مصائب الدهر بالصبر والكتمان ، وتحرك في اعماقه خنجر منسي اوجعه قليلاً . . . وكأن عادل حدس الطعنة فقال له حين نهضت كوكو الى الحمام : لنعد الى حديث العمل يا صديقي . . . وكان عليهما ان يتبادلا ( صراخ العمل ) وسط ذلك الضوضاء الاحتفالي كله . . .



حين شاهد رغيد منذ ايام صورة بسام جثة هامدة في الصحف ، وامير يغطي وجهه بيده ليخفيه عن عدسات المصورين امتلاً قلبه براحة عذبة لها مذاق الشماتة الشهي . . .  
وحين شاهد اليوم صورة دنيا في الصحيفة ذاتها هذا الصباح ، وهي تمشي في التظاهرة الى جانب امير ، تناول عدسته المكبرة وقربها من الجريدة ليتأكد من انها حقاً اقترفت ذلك ، ولم يمتلئ قلبه بالراحة ، بل بالقلق . ( هذا الحر سيخنقني ، ومكيف الهواء يصيبني بالحساسية ، وسلوك دنيا ليس مفاجأة لي ، وقد راقبتها تتبدل في الآونة الاخيرة ، لكنه ظاهرة خطيرة ) . . .

هذه المرأة تعرف الكثير من الاسرار على طوال اعوام من التلاحم ، وليس من حقها ان تتصرف كأنها تملك ذاتها ، وتنحاز الى معسكر الخصم بكل بساطة . . . ويجب ان يكون عقابها كجزاء الجواسيس الذين يخونون عصابتهم منتقلين الى عصابة اخرى . . .  
لكن موتها الآن ( حتى مصادفة في حادث سيارة مثلاً ، كموت سري الدين ) سيثير الشبهات والهمسات خصوصاً قبل ليلة المليار بأيام ، ولا بد من الانتظار قليلاً . . . ورثنا يصير العلاج الحاسم ممكناً ، لا بد من بعض المسكنات . وهكذا استدعى رغيد معاونه نديم على عجل ، بصفته مسؤولاً عن جنوح زوجته مؤخراً . . . انه يمنح كوكو وقتاً أكثر مما ينبغي ، وينسى مراقبة دنيا حتى باتت تشكل خطراً عليه شخصياً . . . ثم انها لم تعد تبالي حتى بالمظاهر . . . وها هي تخرج في تظاهرة امير علناً ، وفي الصف الأول منها ، وتهتف من اجل

لبنان وضد اسرائيل كأنها تحاول ان تعاود سيرتها الأولى . . . الحمقاء لا تدري ان من يمر بقصره وعمره ، لا يغادرهما يوماً كما كان . . . ولا امل له في النجاة . . .  
سيكرر اصدار الاوامر الى نديم المهمل اللعين الآن . . .  
وحين احضر له جواسيسه مشاهد التظاهرة على شريط ( الفيديو ) ، تأمل الوجوه كلها ، وحفظها وقرر اإذا ما عرفه منها ، وبصورة خاصة خادمه نسيم ، لكن ضربة دنيا كانت الاشد ايلاماً . . . ويدت في سعادة هستيرية وهي تهتف للوطن ضد جلاديه وتدس بيدها في يد امير . . .  
لذا كانت لهجته بالغة القسوة حين استدعى نديم ثانية ليريه شريطاً مسجلاً يهيمه امره ، وجلس ينتظره في برسته الاخطبوطية المذهبة وزبد شهية الانتقام يفور حول شفتيه . . . ويجف كالملح المر . . .

\*\*\*

ما زال الحر الغامض يقتحم صحوها ونومها كأنه رسالة نارية مبهمة من الصحراء . . .  
ودنيا ما تزال حائرة ، هل تحب موجة ( الكانيكول ) هذه ام ثقتها . . . كما هو شأنها مع كل ما يحدث لها في الاسابيع الاخيرة . . .  
انها تشعر بانها ضالة ، غادرت مستنقعها العتيق ولم تجد وعاء جديداً يحتويها . . . تقضي نهارها في التناقض . . . تلعب دور الثائرة حيناً ، ثم تهوّل الى الحلاق لتلعب دور سيدة المجتمع حيناً آخر . . . تخرج في تظاهرة قبل الظهر هاتفة من اجل لبنان والعرب والكادحين ، وتقضي مساءها في حفل الكوكيتيل مع جلادي شعبها متسائلة برعب : ترى هل تظهر صوري في صحف الغد ؟ وهل سيلمحون وجهي في نشرة اخبار المساء وانا اتقدم الصفوف متأبطة ذراع امير النيلي ؟ اهذه النظرة الساخرة العدوانية في وجه ابنتي علامة احتقار لسلوكي المتناقض غير المتناسك ؟ . . .  
ها هي الآن في سيارتها الفاخرة ، والسائق يعود بها الى الفيلا بعد نهار آخر عبثي من التنقل بين القطب وخط الاستواء . . . ( آه كم انا منهكة ، لا اشتهي شيئاً غير مغطس فاتر ارمي بجسدي فيه واشطف عنه يوماً آخر من الحيرة والانهك ) . . .  
في الصباح ، فوجئت بهاتف من مخبرها السري الذي طالما كلفته امر التجسس على نديم من زمان . . . ايام الاحتضار الاخير « لحبها » ، او « لحبها تملك » نديم . . . ايام

التسلل الى الشيخ وطفان لمحاربة فحولة زوجها وعقدها عن كل انثى اخرى . . . ذهبت اليه في المكتب .

- ( زوجك يخونك .

- لم يعد الأمر يهمني .

- لم تبلغيني امراً بوقف ملاحظته . لدي سلسلة من المعلومات التي تهتك ، ولم ابلغك شيئاً الا بعدما تأكدت تماماً من الامر . . .

- لم يعد الأمر يهمني . . .

- انه يخونك مع لبنانية جميلة اسمها كفى متزوجة من رجل سافر مؤخراً هو خليل

الدرع . . .

- لم يعد الامر يهمني . . .

- انها يخرجان معاً الى الاماكن العامة . . . يرافقهما الاصدقاء احياناً . . . رجال من

اصحاب الثراء والنفوذ . . .

- لم يعد الامر يهمني .

- غادرت الفندق ، فندقها ، وصارت تقضي اوقاتها في شقة يملكها زوجها . . .  
- لم يعد الامر يهمني . . . كف عن تعقبه . . . وسأدفع لك اتعابك الماضية كلها

( الآن ) . . .

احقاً ان الامر لن يهمها حتى في المستقبل ؟ ألن تندم ذات يوم وتثور ، وهي التي ألقت

تقلب مزاجها المستمر ، وسقوطها المفاجيء في آبار اليأس من آن الى آخر ؟ . . .

تأملت الدرب الجميلة صوب بيتها والسيارة تتحرك بها برشاقة نحو ( الفيللا ) ، هل في

مقدورها حقاً الاستغناء عن هذا الترف كله ؟ ام انها ستخرج في تظاهرة الشتاء اليسارية

وهي ترتدي معطف الفراء « الفيزون » ؟ . . .

هل في مقدورها حقاً ان تحمل مسؤولية ما تقدم عليه من اعمال ؟ ( للمرة الأولى اخون

مصلحتنا المشتركة ، زوجي وانا ، واقدم على عمل قد يسبب لنا خسارة مادية مباشرة ،

وورطة كبيرة مع رب العمل الكبير الخطير رغيد . . . كان المخبر السري الخاص يحدثني

عن خيانة زوجي لي ، وانا اخطط لخيانته بسرقة جواز سفر بحرية من « درج » مكتبته . .

شيء ما في بحرية يذكرني بشبابي وصورتي في اللوحة التي رسمت فيها ذاتي ذات يوم . . .

شيء ما فيها يأمرني ويعزف على اوتاري كلها كألم وكانسانة ، وحتى ككاهنة معبد غامض لا

تملك الا ان تلبي . . وهكذا عدت الى البيت . . ارتحت وانا ارى نديم يغادره بسرعة وهو

يقول لي بخشونة :

- طلبني رغيد لأمر خطير . . .

فتحت غرفة المكتبة ، وسرقت جواز السفر . . . ارتجفت اصابعي ولم تتوقف . كيف اطمح للعودة الى الرسم بيد مرتجفة ؟ وذهبت بجواز السفر الى امير كما سبق ووعده . . . لن يلحظ نديم اختفائه قبل زمن طويل ، واذا لاحظ فلن يشك بي بالتأكيد لانه لم يسبق ان فعلت شيئاً كهذا من قبل ) . . .

كم هي متعبة وتتوق لمغسطس ماء معطر فاتر ملون وحي الفقاعات . طلبت من السائق ان يسرع قليلاً ، وفوق التلة لمحت بيتها « الجوهرة » . . . هل هي حقاً على استعداد للتخلي عن كل شيء في محاولة يائسة لاستعادة ذاتها ؟ وهل تبقى الكثير من ذاتها لها ؟ سمعت فجأة صرير صوت الكابح ، ثم صوت اصطدام سيارة اخرى بسيارتها ، وقذف بها ( الاصطدام ) الى الامام قليلاً . . . بعد الصدمة الأولى ، سألهما السائق اذا كانت بخير ، واكدت له ذلك ولم تكن تكذب . هبط السائق ، وذهب يتحدث بهدوء وسائق السيارة الاخرى . لم يصب احد بأذى غير الهياكل المعدنية الفخمة . فتحت دنيا الباب ، وتسلفت بهدوء ومشت صوب بيتها . . . لم يكن ممكناً ختم يوم كهذا بغير اصطدام ما . . . وحسناً ان الصدمة كانت من نصيب السيارات . . .

ما كادت تمشي بضع دقائق حتى شعرت بأن الكعب ( العالي ) يقص لحم قدميها . لقد نسيت المشي . نسيت رائحة العشب . نسيت كيف تتحاشى دهس السيارات ، وهي ترتجف على الرصيف كلما مرت سيارة من خلفها وتجاوزتها ، فكيف تخرج الى عراء الحياة وحيدة من جديد وهي قد نسيت كيف تمشي على قدميها ؟ يا له من يوم . هتف زوجها بعد الظهر طالباً اعداد العشاء لبعض الضيوف وفي صوته نبرة حاقدة جديدة ، فاعتذرت منه عن ذلك . اصر ، فتراجعت ، وطلبت تأجيل الموعد الى الغد ، ثم غادرت البيت من جديد وامرت السائق بالتوجه الى مكتبة كبيرة ، اشترت منها عدة جديدة من ادوات الرسم الزيتي . . .

( آه كم انا متعبة . . . لم يعد في مقدوري مواصلة المسير والبيت على بعد خطوات . . . ) تذكرت المغطس الممتلئ بماء معطر تشطف فيه نهارها ورأسها من الداخل ، فخلعت حذاءها وتركته على الارض وتابعت المشي حتى وصلت . فتحت الباب



بمفتاحها ، شاهدت نديم جالساً عند المدخل يحرق فيها بصمت ساخر شامت ، ولم يكلمها ولم تكلمه ومضت الى غرفتها وقد تمزق جوربها . . . وحين دخلت الى الحمام ، فوجئت بالمغطس ممتلئاً بالماء الدامي وجثة كلبها بيكاسوتوسطه ، وقد جز رأسه عن جسده ، وعيناه مفتوحتان حتى آخرهما بهلع أسود دامع . . .

وصرخت بذعر ، وهربت راكضة من الحمام وهي تنوح . . . مربها ابنها باهر ولم يلتفت بل تابع مشيته الراقصة نحو غرفته وهو يداعب شعره المصبوغ بألوان مروعة ، وبعد لحظات كانت موسيقى ( البانك ) العالية تنافس صرخاتها المخنوقة . . . اما نديم فلم تجده في موضعه ، وكانت تشير بيدها صوب الحمام . . . ويأتي صراخها خافتاً كأنه من حنجرة مقطوعة ورأس نصف مجزوز كرأس كلبها بيكاسو . . . وانهارت على ارض المدخل مغمى عليها . . .

حين صحت ، وجدت نفسها في فراشها ، وابتهت تقول لها بصوت محايّد فاتر : لقد وصلت للتو ، وقال ابي انك مريضة فجئت اتفقدك .  
صرخت دنيا ملتاعة : مريضة؟ لست مريضة ، ولكن والدك ذبح كلبى ورمى به في مغطس الحمام . . . كنت اعرف انه سينتقم لخروجه في التظاهرة . . .

واشارت دنيا بيدها صوب حمامها وكانت ترتجف ، فمضت ابتهت الى الداخل .  
اضاءت النور . تحركت قليلاً وسمعت صوت خطاها ، وصوت جذبها للستارة ( النايلون ) للمغطس ، ثم عادت وهي تقول بفتور : لا جث في حمامك ، ولا كلاب مذبوحة . هل انت واثقة من انك لم تفرطى في الشراب ؟

اذن انتهب نديم فرصة اغماؤها ، وللم كل شيء ليلقنها درساً . . . اعد كل شيء لتخويفها . هذه برقية انذار ، وهي لا تنكر ان جسدها يرتعد خوفاً . . . وقد فهمت كل حرف مكتوب فيها ، وقرأت ايضاً ما تحت السطور . . . قالت ابتهت مؤكدة : انت واهمة . . .

- حسناً . . . اين بيكاسو؟ . . .

غابت ابتهت عن الغرفة قليلاً ، وحين عادت قالت لها بلا مبالاة : لم اجده في البيت . . . لعله هرب . معذرة ، لدي بعض الدروس . . .  
نهضت دنيا من فراشها وهي لا تقوى على الوقوف . اتجهت صوب الحمام . المغطس

نظيف ولا اثر للدماء .. ولا لجثة بيكاسو ! ... ماذا تفعل غير اللجوء الى صديقتها الوحيدة ، زجاجة ماء النار ؟ ...



— مدام سبوك . مسيو امير النيل يسأل عنك من جديد . .  
 — ألم اطلب منك ان تقولي اني غير موجودة ؟  
 — قلت له ذلك البارحة ، وسأل عنك عشر مرات هذا الصباح .  
 — قولي له باستمرار : غير موجودة .  
 — سيعرف انني اكذب .  
 — هذا هو المقصود .  
 — حاضر .  
 — على اية حال لن تضطري للكذب مرة جديدة اليوم . انا ذاهبة الى الحلاق ، فقصر الباشا .

( لا اريد ان يقرع قلبي بصوته كمن يقرع تابوتاً ما زالت ساكنته تحتضر ، ولما تمت بعد . . ثمة جزء صغير مني ، جزء مجهول ما زال يحن الى زمن امير . . رقعة غامضة سرية في اعماقي لم تصلها جنود العقل ، وما زالت عاصية ترفع اعلام الشوق والولاء العتيق . . رقعة تتحرك في المسافة الشاسعة بين الوسادة والنوم ، وفي ابدية الكوابيس التي يضميني خلالها الى جحيمه العتيق كيقين وهمي . . انني ارفضه بكل ما هو انا ، واقتنقه بكل ما انتصل منه من ذاتي ! ) .

في دكان الحلاق الفخم ، كانت ليلى ترقب نفسها بدهشة ، وثلاثة بشرين يقومون على خدمة جسدها . . هذا يرتب شعرها ، وهذه تقلم اظافر يدها ، واخرى منكبة على اظافر قدميها ، وكلهم يلامسها ( من زمان كنت اتضايق من الأوضاع الحميمة في لحظات تجارية حتى ولو كانت خاوية من أي مضمون جنسي ، كنت اتضايق من اقتراب الحلاق من جسدي حين يمشطني ، ذلك الغريب الذي لا اعرفه وقد لا اطيع رائحة عطره او عرقه ، وكنت اخجل من مد قدمي لانسانة اخرى لتقلم اظافرها ما دمت لست مريضة ولا

عاجزة ، وها انا اليوم ممددة بينهم كالجثة المتأنقة ، وخدر غريب من اللامبالاة السامة يسري في دوري الدموية ، أتأملهم ولا ابالي ، وأتأمل وجهي في المرأة فيطالعي غريباً عني كأنني اراه للمرة الأولى واكاد اسأله : هل التقينا من قبل يا مدام لي ؟ . .

يسألها ألبيرتو شيئاً عن لون شعرها ، فتقول ما يلزم . . ويرن جرس زبونة اخرى انتهى وقت (بيلياج) شعرها ، وتتعانق امرأتان لدودتان تتظاهران بالفرحة لهذا اللقاء المفاجيء عند الحلاق ، ويغني جوزف وهو يمشط اخرى والموسيقى تملو والهاتف يعول وزبونة تشاجر ونفسها واخرى تصعد الى غرفة (السمر) الاصطناعية بأشعة خاصة ، وليل لا تزال مسترخية في هذا المناخ الذي طالما سخرت منه ورفضته واحتقرته (لم اعد اتذكر جهاززي العصبي الا تحت الدوش البارد) . . لقد تعبت من صداقة الخاسرين . وتريد للمرة الأولى ان تحالف رابعاً (كانت لذي موهبة خاصة في الانحياز العفوي الى الخاسرين . كأنني امرأة الطيبين والموهوبين والاصيلين من الساقطين مادياً واجتماعياً وسلطوياً ودينوياً . في تاريخي العملي كله لم احب مرة رابعاً او انجذب اليه . حين تشاجر امين ونبال وقفت الى جانب امين وربح نبال وتحول الى مليونير . حين اصطدم طلال وغسان وقفت الى جانب غسان فربح طلال طبعاً وصار رجل الأعمال الكبير وانسحب امين الى قريته وغسان الى مصحة العقلي . تاريخي كله انتصار لهزائمي ، وقد تعبت من ذلك . . واليوم سأقف ببساطة الى جانب رغيد المنتصر ، لا امير حبيبي الميت مع وقف التنفيذ وحتى اشعار آخر ! . . غداً ، حين يقتل امير ، ستجلس زوجته في (العزاء) محاطة بأولادها ، وسيذهب الرفاق اليها ويتجاهلونني . . انا رفيقة غربته وقهره وصراعه ، لن اجرؤ على الاقتراب من قبره الا سراً . . كيف تركت نفسي انزلق الى اكاذيب عالمه ؟ سيكون اصحابه اول من يحتقر علاقتي «اللاشرعية» به . الازدواجية تفتك بهم ، وفي الهوة بين اقوالهم وافعالهم سأسقط . . يشجعونني على الثورة ضد التقاليد وبياركون جنوني ، وإذا مات رجلي نبذوني فاننا لست حتى ارملة . . ما اقسى عالم الرجال على اختلاف افكارهم واهوائهم ومشاربهم . . انهم يتفقون على شيء واحد : الاحتقار الضمني للمرأة . البروليتاريا وجدت من يدافع عنها ، اما المرأة فقد وجدت من يوظف عذابها للدفاع عن ذكور البروليتاريا حتى اذا ما نجحت الثورة ، قطفها الرجل واعيدت المرأة الى صناديقها . حتى تثوير المرأة خدعة . كل شيء خدعة ، والحل البسيط هو في ان اعمل كرجل ، واحب كما يحب الرجال . . والرجل لا يحب المرأة الا في اوقات فراغه ، وخارج فترات بناء

مستقبله ، وأنا كذلك . لا وقت لدي الآن لأحب أمير أو أكرهه . . انني ابني مستقبلاً «زاهراً» بمقاييس الرجال . وإذا لم يعجبهم ما افعله ، فتلك اداة لهم ولمقاييسهم . لقد تعبت . تعبت . دوماً امنح . علموني ان مهنتي كامرأة هي ان امنح . ثم حدث خلل بسيط . لاحظت ان احداً لا يحبني حقاً كائني . اسرتي لا تحبني وتتلف الى اغلاق ملفي الاجتماعي تحت خانة متزوجة . رفاقي لا يحبوني الا بقدر ما اصلح للاستعمال . وطني لا يحبني وقوانينه لا تساوي بيني وبين الرجل . وعلي ان ادفع الحقة الاجتماعية والاتاوات العائلية كي يلين قلب القانون ويمحني حتى جواز سفر . هجرت وطني وسقطت في فخ امير ، الماردف لكل ما هربت منه . . في الفترة الأولى لرحيلي عن الوطن كنت امشي في كل تظاهرة القاها في شوارع الغربة ، دون ان اعرف هي تظاهرة لمن وضد ماذا ، فقد كنت بحد ذاتي تظاهرة قائمة بذاتها تمارس احتجاجها الداخلي على عالم مكرس لقمعها . . ثم سقطت من جديد تحت سطوة مغناطيسية الوطن ، ووجدت في امير وطناً آخر ، وطناً مقطراً في رجل . . جسراً الى زمن احرقته قبل ان اغادره من زمان . . . ولكنني اعني ان امير ليس لي وامي لم تكن لي وانما لسمعتها . ووطني ليس لي وابنتي ليست لي . ولا تستطيع المرأة ان تمتلك في هذا العالم غير رصيدها المصرفي . . . حتى الوطن ، يرحب «بالمغتربة الثرية» القوية العائدة ، ويرفض «المغتربة» الفقيرة «الزانية» . . . لقد علمني مجتمع الذكور ان لا حقيقة غير المال ، فما ذنبي اذا كنت قد فهمت درسهم جيداً ؟ لقد علمني الرجال ان الحب ضعف و «العقل زينة» فما ذنبي اذا كنت قد بدأت اتجمل على طريقتهم ) . . .

يقظها صوت البيرتو :

— مدام لي . هل ارش «سبراي» على شعرك ؟

— بالتأكيد . . . ثبته كشعر الدمى . . . لا اريد لشعرة ان تتحرك من موضعها مصادفة اولنسمة . . . او بدون امري . . .

في دربها الى موعدها ، مرت السيارة مصادفة امام مقبرة «الجراند ساكونكس» حيث ترقد امها بوشمها البدوي الأزرق (لم ازرها بعد ، ولن . الوقوف امام قبرها يجعلني اعني هشاشتي . كانت «ماما» محصنة بعالمها ، ولم يكن داخلها مشروخاً . كانت تنتمي بكليتها الى هناك . . . ) . . . ولا تدري لماذا تذكرت بغصة ان بيت فريدريك «صديق» ابنتها الذي

تساكنه قريب من مقبرة الجدة . . وشرفته تكاد تشرف عليها . . ولا تدري لماذا تمت لو يقطنان حياً آخر بعيداً عن مرمى النظر . . والشهقة .



اكتشفت كفى للمرة الأولى ، اية متعة هي ان تستولي المرأة تماماً على رجل قوي و ثري . . . لا لأن حب الاثرياء يجعل مصاعب الحياة تهون ، و (كانيكول) الطقس الحار يتدفق ناعماً من مكيف السيارة ، والرغبات كلها تتحقق فحسب ، بل لأن امتلاك الرجل القوي شبيه بامتلاك عصا السلطة التي في يده . . . يصير السائق اكثر تهذيباً وانحناءته اكثر احتراماً ، وتصير الخادمة ليليان تقول : امرك يا سيدي بحماس اكبر ، وبواب العمارة يقدم الخدمات ممتناً لأنها كلفته بها ، ومديرو اعماله يأتون الى شقتها - أي شقة نديم - للقاء عادل افندي ويقبلون يدها عند الدخول والخروج ويتسابقون الى ارضائها . . . وعادل يبدو سعيداً بها ، وقد وقع لنديم ما شاء من عقود ، و (شبه) انتقل من فندقه الى شقة نديم . . وكوكو قلما تزور فندقها ، وانما تكتفي باتصال هاتفي بين آن وآخر لتتأكد ان احداً سأل او لم يسأل عنها . . . و خليل لم يفعل ولو مرة واحدة منذ سفره . . . وقد وجدت في ذلك مبرراً كافياً لحياتها الرغدة في شقة نديم مع عادل . . . ولم يخطر في بالها انه قد يكون فعل ولم يترك اسمه ، او انه يقاسي من سجن صقر داخل قارورة مسحوق الجنون الأبيض ، فهي لا تحب ان تجلب الهم لرأسها الصغير الجميل . . .

غسلت عادل بنظرة زرقاء مشمسة تنم عن الاعتراف بالجميل . ها هو يرافقها لزيارة اولادها في (كوليدج دي ليمار) كي لا يضجرها الطريق . ما ألطفه واعذبه . كل ما فيه يختلف عن زوجها (الجلف) خليل حتى صار مقياس اعجابها بالرجال هو مدى بعدهم عن صفات شريك حياتها ، وبالأحرى شريك الجزء البائس من حياتها .

توقف السائق . لم يضايقها ان عادل سينتظرها داخل السيارة ، ولا يبدو متلهفاً للقاء اولادها . . . دخلت الى الباحة الأمامية المواجهة للمطعم . توقفت تحت شجرة تستظل بها وتنتظر خروج اولادها من فترة الغداء . . . لاحظت العدد الكبير من الطلاب العزوب في

المدرسة الوجيية . . . ثم مربها طفلاها في مهرجان صخب من الاولاد ولم يلحظها . . .  
وكان احدهم ينادي بتناً صغيرة تمشي الى جانب رامي : وداد . . . وداد . . .

سقط الاسم في قلبها مثل سكين . لو ظلت ابنتها حية ، لكانت الآن في مثل سنها او  
اكبر قليلاً . لا تتذكر وداد الا ويشتع قلبها حقداً على خليل . انها تعتبره مسؤولاً بمعنى ما  
عن مصرع ابنتها ، هو والذين على شاكلته من (المشاغبين) . هو بالذات لأنه رفض  
اخراجها من جحيم بيروت قبل ذلك ، ولم يغادرها الا حين تهدده الخطر شخصياً ، ولم يرض  
انقاذاً لولديه او لها ، وإنما مضى لأنهم قرروا اغتياله وباشروا التنفيذ . التفت وداد وركضت  
كعصفورة ، والتفت معها رامي ولمح امه ، فجاءها وفادي .

قبل ان تقبلها او تضمها الى صدرها او تقول اي شيء ، سألتها : وداد . . من هي  
وداد هذه ؟ اجابا بلا مبالاة : والدها صاحب البيت الكبير هناك . اسمه وهيب الواهب .  
شهقت . سأله فادي بلا مبالاة : تعرفينها ؟

— لا . لكنني اعرف والدها . ( انه احد زعماء «التقدميين» في بلدنا . لسانه لا يهدأ في  
الحديث عن فضائل الثورة وبؤس الناس . وها هي ابنته وداد تعيش هنا في أمان قصره  
الذي لا يدري البسطاء والحمقى امثالي انه موجود . آه كم اكرههم ، وأكره ادواتهم  
التنفيذية الحمقاء كخليل والد هذين الصبيين ) . .

امتلات بغربة مفاجئة عن طفليها لمجرد ان والدهما هو خليل ، والتمع في رأسها خاطر  
لم يغب عن خلفية لاوعياها ( سيكونان مثله اذا كبرا في كنفه ، ولن يتركها لي ، وعلي ان  
اودعهما صغيرين او كبيرين وان اعتاد دخولهما الى عالم الرجال المتوحش في بيروت)  
وتجمعت في قلبها فجأة سحب الغم ممزوجة بنقمتها الدائمة على خليل . . . وكانت وداد  
الواهب قد غابت عن مرمى بصرها خلف الاشجار المحيطة بقصر والدها (البروليتاري) ،  
وكفى تضم ولديها الى صدرها فيبتعدان بسرعة خجلاً من رفاقها على عادة الصبيان في تلك  
السن . . . واشتعلت اعماقها حقداً ( وداد ابنتي تقتل ببقايا قذائف معركة بين ازام  
صاحب هذا القصر وحلفائه ، ووداد ابنته تحيا هنا بسلام لأن زوجي الأحق يرفض ان  
يفهم . طالما قلت له انهم يستغلوننا وكان يحاضر باستمرار : «ثمة دجالون في كل اتجاه في  
اليمين واليسار . . . لكن ذلك لا يلغي القضية الحقيقية ، قضية الشعب ، ولا يلغي وجود  
تقدميين اصليين يضحون بحياتهم حقاً لأجل الآخرين » . . . فليفضل خليل اللعين

وليدلني عليهم . وسأدله على قصر وهيب وعلى العشرات الشبيهة به المنشورة في احلى بقاع الأرض . . . وهيب ؟ هذا رجل شعاره ثورة حتى القصر ، لا ثورة حتى النصر ، كما يدّعي ) .

قال فادي : سنذهب في عطلة نهاية الاسبوع بالتلفريك الى الجبال . . .  
وأضاف رامي : احب الرحلات المدرسية . .  
سألتها بحنان مفاجيء : هل تعرفان ما هو التلفريك ؟  
نظرا اليها بعتاب الصغار لجهل الكبار : طبعاً . . . شاهدناه في التلفزيون والصور ،  
وحدثنا عنه فريد .

- ومن هو فريد ؟
- رفيقنا في المدرسة . لقد ركبته من قبل وخاف كثيراً ، ولكنه سيأتي معنا .
- لماذا ؟
- لأنه يجب ان يخاف .
- وأنتما ؟
- لا نعرف . . . متى تأخذيننا الى آنسي ؟ اين بابا ؟
- مسافر في عمل . وحين يعود نأخذكما الى آنسي . . .
- عندي صف . انا ذاهب .
- وانا ايضاً .

عناق مختزل . قبلة سريعة ، وهروا الصبيان قبل ان يلحظا امتعاض وجه امهما لذكر آنسي (لن اطا تلك المدينة المتقشقة قبل ان يعمروا فيها فندقاً لائقاً له خمس نجوم . لن يرغمني احد بعد الآن على ان افعل ما ارفضه . مجنونة ؟ ربما . من ليس مجنوناً بعد الأعوام السبعة الاخيرة في بيروت ؟ سأقتحم حياتي مسلحة بشهواتي . سأمارس الحرية المطلقة في الحياة كما مارسها المسلحون في القتل ، وإذا وجدوا حياتي بشعة ، فهم اكثر بشاعة وايداء للناس مني . ما افعله هو المرادف الاثوي لما يفعلونه بالسلاح . انني اطلق العنان لغرائزي . . . ) .

القت نظرة اخيرة على قصر «المليونير الوردي» ، وعادت الى السيارة ، وحين شاهدت عادل نسيت غضبها كله دفعة واحدة ، وتركز وجودها في الاهتمام باعادة ترتيب ربطة

عنفه . . . يا للكارثة . . . انها مائلة قليلاً ، و (البوشيت) غير مطوية جيداً ! . . .



لقد سحرته تلك الطفلة الجهنمية الحسن بحرية ، وسلبت له . . . منذ شاهدها الشيخ صخر نسي احزانه الماضية . . . نسي مصرع ابنه في طائرته الهليكوبتر الخاصة منذ اعوام . . . ونسي ابنه الثاني الذي عاد اليه منذ اشهر بعد رحلة الى الشرق الأقصى بوضياً متقشفاً ، لا يذوق اللحم ولا يقرب النساء ويمشي حافياً وقد لف جسده النحيل بخرقه صفراء ، حاملاً معه موسيقاه وديناه منعزلاً في جناحه عدة اسابيع ، رحل بعدها ثانية واستقر هناك خادماً لأحد المعابد الوثنية . . . كان الحر قد دفع بالشيخ الى اصدار اوامره ، فنصبت خيمة جميلة في ساحة القصر ، وها هو جالس في صدرها وحلاقه يصيغ له شعره بالسواد ويقترح عليه صيغ الشعر الكث لصدرة ، أو للجزء الذي يبدو من قميصه المفتوح الأزرار . . . وليس ثمة ما لا يفعله لتراه بحرية شاباً ومليحاً . . .

لقد انسته غضبه على بعض الصحف العربية التي علمت بنبا احتفالات ليلة المليار حتى قبل وصول الدعوة اليه ، ونشرت النبا بصورة استفزازية . . . وهو يتوقع ان يتصل به شقيقه الشيخ هلال مقرعاً ومؤنباً ، وقد يمنعه من حضورها . . . تلك الصحيفة ذكرت ان ٣٠٠ مليونير بينهم عدة (مليارديرات) قبلوا دعوة رغيد الزهران للاحتفال بليلة المليار الاسطورية . وان معظم اعضاء نادي الصقور الامبرطوري الذي يضم عدداً كبيراً من الاثرياء العرب قد تلقى الدعوة الى تلك السهرات الخرافية . . . وان الثروة الشخصية لعشرات اصحاب الملايين العرب الذين سيلبون الدعوة تتجاوز المائة مليار دولار . . . واوردت الصحيفة بعض الاسماء ولم تنسه ، لعنا الله . . .

فليكتبوا ما يحلوهم ، المهم ان يحلو في عيني بحريه الخارقة الحسن ، الجذابة كساحرة اسطورية ، الهادئة كغروب صحراوي ، الفارعة العود كنخلة وطنه . . . قريبها رغيد يريد «صفقة المطار» مهراً لها . . . حسناً . . . سيرسل ذلك اللبناني الشاطر خليل الى شقيقه هلال لمحاولة اقناعه بتلك الصفقة ، سيرسله فور عودته من السفر وصقر ،



وسيفهمه ان ثمن الحصول على توقيع كهذا يؤمن له ثروة تضمن له مستقبله اللامع كرجل اعمال كبير . . .

حزن واحد لا تستطيع صورة بحرية ان تبدده ، هو حزنه لموت ناقتة التي نفقت فجأة وانطفأت ، وانطوت على نفسها مثل نقطة سمراء صحراوية محاصرة بدوائر شاسعة من الخضرة العدوانية . . .

( لماذا نفقت ناقتي رغم الحر ؟ تراه ذكرها بالوطن هي ايضاً ؟ ) . . .



استيقظت ليلي مذعورة . . . انه جرس الباب يقرع بالحاح . كانت تنام وحيدة منذ ماتت امها البدوية ، وانتقلت ابنتها مريم لتعيش مع فريدريك خطيبها السويسري في فترة تجريبية قبل الزواج على عادة بعض الشبان هناك الذين تربت فيما بينهم وانتمت الى عالمهم وقيمهم .

نظرت الى ساعة يدها . . . كانت تشير الى ما بعد منتصف الليل . . . نظرت عبر العدسة الصغيرة المثبتة الى الباب ، فشاهدت وجه امير . . . دهشت قليلاً . . . لم يحدث ان اقتحم ليلها هكذا حتى أيام غرامهما الأولى . . . . . وليس من عادته ان يزور احداً الا بعد اتصال هاتفي مسبق . . ماذا دهاه ؟ . . . فتحت الباب وقالت نصف مذعورة : اهلاً امير . . هل حدث شيء . .

— جئت لتحدث . .

لا تحب ان يضبطها احد خائفة . انتقلت من الذعر الى السخرية :

— نتحدث ؟ الآن ؟ منتصف الليل ؟ . ظننتك مصاص دماء غادر تابوته واخطأ طريقه

الى بنك الدم . . .

لم يضحك .

— انت غاضب . . . وثمل . . .

— صحيح . .

لم يقل لها انه شعر بأن سلوكه معها صار كسلوك بسام مع الحياة : ينتظر ولا يتصرف .

- وانه قرر ان يتحرك في اللحظة ذاتها حين اقتحمه هذا الخاطر .
- سألته : ماذا حدث ؟
- تعرفين . . .
- لا اعرف . . . لا تقل لي انها بطاقة الدعوة . . .
- كيف تجرئين على ارسال بطاقة دعوة لي لحضور «ليلة المليار» ؟ . .
- اعدتها لي وقد كتبت عليها : « كآني ما لثمت لها شفاها . . كآني ما وصلت ولم تصلي » . . . ما معنى ذلك الهراء . . . انا التي يفترض ان اكون غاضبة . .
- تعرفين رأيي برغيد ، وملياره المعصور من دم الشعب العربي وحروبه واضطراباته وقهره . . .
- اعرف انك حاقد عليه ، لأنه جمع مليونه الأول مستخدماً تمثال الوالد . . .
- لا انكر ذلك . . .
- عليك ان تحقد على اولئك الحمقى الجبناء ، الذين يمنون رأسهم لكل حاكم .
- يشترطون تمثاله على مضض ، ويصدرون به مكاتبهم والكراهية تقطر من صمتهم . . .
- اولئك ايضاً احتقرهم . . .
- ويجب ان يكون حقدك موجهاً نحو الحاكم نفسه الذي يرهبهم الى الحد الذي لا يجروؤن معه على قول رأيهم فيه . . .
- وهذا صحيح . . .
- أي ان عليك ان تكره عبد الناصر الذي خافه اعداؤه يومئذ ، وبلغ من خشيتهم ان اشتروا تماثيله مكرهين . . .
- لم يكن الرجل ارهايباً . . . ربما كانت له حاشية فاسدة . .
- كل ما فعله رغيد هو انه وظف ظاهرة الخوف وحولها الى تجارة . . .
- بدلاً من ان يمارس مهمته كمواطن انسان . . . بفضح الحاشية الفاسدة للحاكم الصالح الذي يواجه عشرات الجبهات ولا يستطيع التنبه لكل شاردة وواردة . .
- لماذا ؟
- لأنه انسان . . .
- ولكنكم ترفعونه فوق مرتبة البشر . . .
- انه رمز وحدوي ونضالي . . . ونحن بالتأكيد نرفعه فوق منزلة رغيد الزهران

- وامثاله ، لا فوق مرتبة بقية المناضلين والشرفاء .
- كلاهما مسؤول عن عدد لا يحصى من الضحايا . . .
- حتى اذا فرضنا ذلك جدلاً ، فان رغيد الزهران سيء النية ولا يقارن بعبد الناصر . . . مجرد المقارنة بينها مرفوضة ، فالفارق بين الرجلين نوعي لا كمي . .
- هل جئت منتصف الليل لعقد مقارنة بين عبد الناصر ورغيد ؟
- ارفض مجرد اقتران اسميهما معاً . . . لا شيء مشتركاً بينهما ، وامكان عقد المقارنة مرفوض أصلاً . . .
- لم جئت اذن ؟
- جئت لاتعرف على الست ليلي سبوك . . . بدأت اصير سخرية لصحبي حين اذافع عن ليلي السباك . . . أخبروني انك صرت مخلوقة اخرى ، فجئت اتعرف اليها وانقذ نفسي . . . وجئت مفجوعاً بك لا اصدق ، كيف لا تخرجين معنا في التظاهرة احتجاجاً على غزو لبنان ؟ لا تريدني كعاشق ؟ مفهوم . ولكن ، لماذا تتصلين من شعبك العربي ؟
- انك ثمل ، عاشق ، ومقهور .
- ابي كذلك ، انا كما قلت . . . ولكن ذلك لا يلغي السؤال : لماذا لم تشاركي في التظاهرة ؟ هل ستعيدين مأساة التخلي عن الوطن ؟ ماذا حدث لك ؟
- انا كما قيل لك ، صرت مخلوقة اخرى . .
- حدثت ذلك منذ رضيت ببيع القرش الفلسطيني لرغيد . . . امرأة ذكية مثلك لا تجهل مدلول ما فعلت . . .
- لأن القرش هدية منك ؟
- لأن هذا القرش ائمن من ان يهدى لوضيع كرغيد . منحته لك ذات يوم حين توهمتك ترتفعين بسمو الى فهم مدلول عطاء كهذا . . .
- من حقني التصرف في هدية تلقيتها كما اشاء . . ومن حقني ان ابيعها . . . وهكذا كان . .
- لماذا ؟ لماذا فقدت اليقين ؟
- لأن الذين يتشدقون به لا يمارسونه ، وانما يعولون على حقى امثالي لممارسته والموت لأجله فقيرة او شهيدة . . . أما هم فيعيشون كما يعيش رغيد ، ويقتلون كما يقتل ، وقد حاولوا قتلك . . . انهم يحملون وحشيتهم بالمثل ، ويفلسفون شهيتهم اللامتناهية

للافتراض السادي العريدي . . . لقد قرفت من استعمالهم لنا . .  
- ولكن . . .

- تعرف ان هذا صحيح . . . تعرف ان معظم النقود التي ترصد (للجماهير) تذهب  
الى جيوب افراد من الزعماء ينشرون الثروات كما يفعل رغيد . . . وبدلاً من فضحهم  
تسترون عليهم بحجة «الروح المعنوية» والضرورات «التكتيكية» للمعركة «واللعبة  
الاستراتيجية» وغيرها من التعابير المخترعة لتغطية عورة عاركم .

- لا تستطيعين كراهية فلسطين لمجرد ان وغداً ما استغل الشعار ليصير ثرياً . . تظل  
هنالك حقيقة اسمها مليوناً انسان عربي مشرد تم طردهم من ارضهم واحتلالها على ايدي  
منظمات تضم المصير ذاته للعرب جميعاً . . . انك تنتقلين بسرعة فائقة من الاخطاء الفردية  
الى التعميم . . .

- لأن الخطأ ايضاً يجري تعميمه بسرعة . . . لقد بدأنا للعمل من اجل الحرية ، ثم  
تحولنا الى عصابات يقتل بعضها بعضاً . . . نادينا بالديمقراطية ثم صار كل منا يضع مسدسه  
فوق صدغ رفيقه قبل ان يسأله عن رأيه . . . او يفتح علبة الاقتراع إذا لم يجز التصويت وفقاً  
لهواه . . .

- ثمة اخطاء . . .

- اخطاء كثيرة ، رهيبة ، يتراكم بعضها فوق بعض وتتحول من حفنة رمال الى  
سد . . .

- لكن لا مفر من الاخطاء اثناء الممارسة . .

- اننا لا نمشي باتجاه تصويب الخطأ ، بل نمنع في الاتجاه المعاكس بنسبة ٩٩,٩٩  
بالمئة !

- الشعوب كلها حين . .

قاطعته : لقد حاول صحبك اغتيالك لا اعدائك ، لمجرد وجهات نظر ابديتها حول  
الممارسات القمعية واللاديمقراطية . . . وبدلاً من الحوار ، امعنوا في غطرستهم . . . .

- اخطاء الافراد لا تعني الكفر بالمبادئ . . . بل تعني طرد المنحرفين وكف يدهم  
ومتابعة الطريق . .

- المبادئ ليست اشباحاً تتجول في خاطرننا . . . المبادئ تتقمص البشر ، ويصير  
مقاسها على مقاس سلوكهم وافعالهم . . .

- ولكنك . . .
- ولكنني معجبة بقول الشاعر البياتي: « اذهب الى الجحيم ايها الارهابي الصغير ،  
فأنت تفكر وتتحدث على شاكلة هؤلاء اللصوص والقاتلة والافاكين الذين تنوي اغتيالهم  
وسلب السلطة منهم » . . .
- انك تهينيني . . .
- لا اتحدث عنك شخصياً . . . انت سقطت في شرك العادة . . . وطنيتك عادة ،  
حسن اخلاقك مجرد عادة اخرى بائسة . انك رجل متحجر في مثال مناضل ، ولا فضل لك  
بعد اليوم في ذلك . . . أما انا فقد قررت ان اجدد اختياراتي . .
- ليلى . . .
- انت ميت . . . لقد مت وانتهى الأمر . سيقتلونك اليوم او غداً ، وكأي مشروع  
شهيد ، تحيا موتك اليومي وتتغذى من مجدك الآتي . . اما انا فأرضية . . . بشرية . . .
- ليلى . . .
- لست ليلى العامرية . . . والمبادئ التي تبشر بها صارت تبدولي كالشعر . . .
- ليلى . . .
- اعني انني وحيدة . . . لعلي ارتكبت خطأ فادحاً يوم اخترت المنفى وهجرت وطني ،  
ولكن ذلك انقضى . . والآن ، وجدت وطناً جديداً . . .
- وقررت الانضمام الى شعب الـ « جت ست » ؟ .
- اجل . ان اصول اللعبة واضحة بينهم على الاقل . . ولها تقاليد راسخة . . . ثم  
ان الاثرياء يجدون من يخترع الاعذار لاختطائهم اكثر من الفقراء . . . لن اكون وحيدة  
وفقيرة . . . الفقر والوحدة لا يطاقان معاً . .
- ولكنك معنا لم تكوني وحيدة . . .
- معكم تعرت وحدتي . . . اكتشفت اي تناقض نتستر عليه . . . واي ارباب ثمارس  
باسم الحرية . .
- حسناً . . . بدأت افهم ما يقوله صحيبي عنك . . .
- انتهت مهمتك ؟
- ليس تماماً . . . ألا تحجلون من اقامة سهرة المليار واسرائيل تحاصر عاصمة عربية  
وقد تقتحمها في أية لحظة ؟ . . . .

— سيكون ذلك يوماً سعيداً لسكانها . . . سيتخلصون من الارهاب وسيحظون ببعض الاستقرار وقد يتعلمون ممارسة الديمقراطية . . . ثم انها ليست مفاجأة الا لكم . . . كنتم مشغولين بصراعاتكم فيما بينكم . . . صرخ في وجهها : اخرسي .

لم يرف لها هذب . قالت : هذا اسلوبكم في الحوار . . .  
— لم اكن احلم ان حبيتي ستتحول يوماً الى خائنة . . كيف تردددين هذا الهذيان الاستعماري غير الواقعي والمستحيل ؟ لا احد يستطيع انكار اخطاء المقاومة في لبنان ، وتجب معاقبة المسؤولين عنها ، لكن أحداً لا يستطيع انكار قوافل الشهداء الحقيقيين من الفلسطينيين واللبنانيين . . . اياً كانت مآسينا ، لا يحق لأحد ان يضيع الخيط بين الوطنية والخيانة العظمى ولا بين المقاومة والعدو . . . تتوهمين كبقية الحمقى ان اسرائيل جاءت تلعب دور المهدي العائد ؟ . . . ان اخطاءنا مهما بلغت لا يمكن تحويلها الى مبرر للخيانة . . . هذا ما لن اسمح به ابداً يا للي سبوك . . .  
— يا لك من احمق محدود الذكاء . . .

— اجل ، كنت كذلك حين جئت احاورك . . . لم اكن ادري انك غادرت ارض الوطنية الى ارض الخيانة ، وانت التي تستحقين ان يخلق شعرها ككل خائنة للوطن تتعاون والمحتل ، لا المسكينة بحرية . . . .  
— وانت ايضاً واقع في غرامها؟ . . . لا ألومك . لجسدها مقاييس ملكة جمال دولية . . ووجهها غامض وخارق الجمال . . وصمتها يزيد سحراً . . وحتى النساء بدان يقعن صرعى امامها . . . الست دنيا الغفير مثلاً ، لم تبد عليها اعراض حب النساء الا بعد لقائها . . .

— اخجلي يا امرأة . . . انها تعطف عليها كابنتها . . . صرت مثلهم . . . تتوهمين المشاعر الانسانية تنحصر في امرين : الجنس والمال . . .  
— جربت شيئاً آخر وفشلت . . .  
— هذا خطأ . . .

— لا اتقن غير الخطأ . . . احببت الرجل الخطأ في الوقت الخطأ . . .  
— وتصلحين ذلك كله بغلطة تفوقهما بكثير . . غلطة اسمها رغيد الزهران . .  
— انه انسان متحضر . . . وقد دعاك لحفل متحضر . . .

- دعاني ليدلني ويقهرني . . . لقد توليت دعوة الكثيرين امثالي من الفقراء والشرفاء .
- لتروي لديه متعة الحقد والكراهية والتشفي . . .
- ابداً . . . مجرد تهذيب اجتماعي . . .
- فظاعاتكم كلها تمارسونها من خلف قناع وتخترعون لها اسماء لطيفة . .
- سمعت ان ابنك قادم لزيارتك . . .
- اجل ! فهل تنوين ارسال بطاقة دعوة له تهديباً ولياقة نحو الجيل الطالع . . ؟!
- فكرة غير سيئة . سأفعل . . سيسعد رغيد الزهران بقاء مطلق النيلي حفيد النحات المشهور مفيد النيلي . . .
- يا لك من وضعية . . . لقد كنت مشروع انسانة كبيرة ، وانتهيت جلادة صغيرة . .
- ألم تفكري لثانية بالمرور للتعزية ببسام ؟
- تعرف انني لا امارس هذه الطقوس السخيفة . . من اعزي ما دام بسام لن يكون هناك ؟
- وكان امير ما يزال يرتجف قهراً . . وللمرة الأولى في حياته تمنى لو يموت انسان آخر قبله : رغيد .
- قالت بصوت كسير : اسمع . . . انني منهكة . . التحضير للحفل يستنفد وقتي وجهدي . . . هل يمكن ان نؤجل شجارنا لوقت آخر ؟
- إذا تابعت عملك في ليلة المليار ، لن يكون لنا اي لقاء آخر . . .
- لا تقل هذا . . . سنظل صديقين .
- مع الخيانة ، لا تعايش . . .
- سنظل صديقين . . .
- لأجل مبادئ امرأة الأعمال الناجحة ؟ اكسي كل صداقة ممكنة لوقت الحاجة ! . . لا . . . انتهى الأمر . .
- لعلي بالغت قليلاً . . . وانت ايضاً بالغت . . .
- اجابها : بعد ليلة المليار ستكونين بالنسبة الي لبي سبوك نهائياً . . . وستموت ليلى السباك . . إذا لم تنسحبي قبل ذلك انتهى كل شيء . .
- سنبقى اصدقاء . .
- قلت لك ، لا صداقة مع الخيانة . .

— لم اخنك . . . انني مخلوقة غارقة في عملها كما يحدث لأي رجل يعمل .  
— لم تخونيني ؟ ومن يبالي بعد اليوم ؟ حين تبيعين روحك للشيطان ، لا تبالين كثيراً حقاً  
بما تفعلينه بجسدك .

قالت تقلده بلهجة ساخرة : حين تبيعين روحك للشيطان . . . لا تبالين  
بجسدك . . . يا سلام . . . انتم تعشقون الكلمات والالفاظ والشعارات حتى صارت عادة  
لديكم ، لكنها لم تبدل من واقع حياة الناس شيئاً . . . بل على العكس . . . مهدت لظهور  
ارهاب جديد تحت مظلة الشعارات . . . لقد قررت . . . سأحاول النجاة منك ولو  
متأخرة . . . منكم جميعاً . . . هل صار النضال يعني اغلاق المدارس وخطف الناس  
واذلالهم وعصب عيونهم اثناء نقلهم الى السجون بين البيوت ؟ المجرمون يعفى عنهم في  
ظلكم لاسباب (سياسية) والابرياء يعاقبون لاسباب (سياسية) أيضاً . . . كنتم في سباق الى  
الهزيمة . انتم الذين وجهتم بطاقة دعوة الى اسرائيل لغزو لبنان بتفتتكم وتحكمكم برقاب  
الأكثرية . . . ان عجزكم عن الارتقاء الى الممارسة الديمقراطية هو سبب مصائبكم . انكم  
تمارسون الارهاب فيما بينكم ونحن نكرهكم أياً كانت الشعارات التي تسترون خلفها ذلك  
التمزق . . . افي مع مقولة ذلك المفكر: «الثوار هم الذين لا يجدون لهم مقاعد في الحكم» .  
— قلت لك لا تنتقلي الى التعميم . . . هذا حدث ، ولكن الحل ليس في الخيانة بل  
بمعاينة المذنب . . .

— دعني اعبر عن خيبي ببعض اليسار والثورة . . . عفواً ، لن اعمم ! . . . كم تغنيتم  
بالحرية . . . حينما تتبع الثورة اساليب غير ديمقراطية تنكسر العلاقة بينها والمثقف ويزدهر  
المستزلم والارهابي . ملعونون ايأ كانت اسماؤكم وشعاراتكم . . . ملعونون الى الابد يا من  
مارستم القهر باسم الشرعية ، والقمع باسم الحرية . . .  
قاطعها: وانت ما الذي تفهمينه عن الحرية ؟

اجابت بسرعة: الحرية التي ينشدها كل انسان على هذا الكوكب . حرية ان لا تُقتل اذا  
كان رأيك مغايراً .

— بما في ذلك حرية الخيانة ؟ ما هذا الكلام الفضفاض ؟ إذا لم نتعلم الحوار فلن نبلغ  
الى أي مكان . . .

كانا قد تعبنا . كل منهما يصرخ في الآخر كقطين ليليين يقتلان تحت شجرة الرصيف  
المعتم . . .



صرخت به وقد فقدت هدوءها : سأمارس كل حرية .. بما في ذلك حرية ان اكون عامرة ...

— احترقي بنار الذهب .. كوني من بعض سردينات البحار الملوثة المكرسة لعالم اسماك القرش .. لاثبات فحولتهم المالية والذكورية ... في عالم الثراء النساء ديكورات وأدوات ... او يغادرنه بشرف ..

— هل تغار على جسدي وتستر غيرتك بشعارات وطنية ؟  
— لا يمكن ان اسقط الى هذا الدرك حتى لو اوجعتني بعض اللحظات غيرتي عليك كأنني ... لا يمكن أن اخون قوافل الشهداء والشبان الصغار الذين يموتون في هذه اللحظة في جنوب لبنان وضواحي بيروت مستبسلين للدفاع عن شرف العرب .. قاطعته صارخة : شهداء العرب اسمهم الحرية الفكرية . الديمقراطية . العلمانية . وكل من يسقط ، يسقط لأن اولئك سقطوا ...

— لو فرضنا جدلاً ان ذلك صحيح ، هل تقترحين ان نتحول جميعاً الى خونة ؟  
— لن اذافع بعد اليوم عن مظلوم ينتظر لحظة احرره ليقتلني وجلاده معاً ...  
— الا تخجلين من الثراء المدقع لأصحابك الجدد ؟ الا تخنين للفقر الفاحش الانساني لأصحاب الأمس ؟

— لماذا تراوغ ؟ إن القوى (الثورية) مارست ... قاطعها صارخاً بدوره مصححاً : بعض القوى ..

— حسناً . بعض القوى (الثورية) مارست الديكتاتورية وقمع حرية الرأي (كالرجعية) تماماً . انهم لا يتحدثون عن حرية الكلمة الا اذا مسهم الأذى ، ويتحدثون عن حريتهم وحدهم ...

— لم يكن رأيك جازماً وقاسياً من زمان ...  
— حسناً . يقولون : من لا يصير تقدماً في العشرين يكون بلا قلب . ومن يظل كذلك في الأربعين يكون بلا عقل ...

— ها قد بدأت تزورين الأقوال وتفصيلينها على مقاسك .. ( يا خواجاية ) !  
— حسناً أنا (خواجاية) ، وانت تدافع عن حفنة من الخونة والحمقى والمكبوتين والعاشقين للسلطة كتعويض عن الجنس غير المباح ... تحاول الترويج للديمقراطية

بالارهاب ونشر الحرية بممارسة القمع . . . كل مآسي الوطن تحدث باسم فلسطين ولا علاقة حقيقية لها بذلك . . . هل تكرهون ايها العرب اسرائيل حقاً ام تبغضون بعضكم بعضاً أكثر؟ هل يشتهي الفلسطينيون امتلاك بيروت أكثر من حيفا ام لا او امتلاكهما معاً؟ ليس بينكم جميعاً من سببت له اسرائيل الأذى بقدر ما سببتموه بعضكم لبعض . . . لا امل لك . . . .

شعر امير بدم حار يرتفع فجأة الى رأسه ، وبعينه تغيما وبصدره يضيق وانفاسه تتسارع ويألم حاد في الطرف الأيسر من صدره . . . حاول ان يقول شيئاً . لم يجد صوته الذي جاء اقرب الى الهمس : اخرسي ايها الخائنة . . .

تابعت بشراسة : تتحدث دوماً عن التاريخ . انت احمق . اذا عقد العرب ذات يوم صلحاً مع اسرائيل ، سيجعل المؤرخون والمفكرون امثالك من السادات بطلاً للسلام ، وإذا لم نعقد صلحاً وتابعا الحرب سيظل ناصرك بطلاً . . . وكل شيء يمضي في درب الانهيار لأنكم مولعون بتدمير بعضكم بعضاً أكثر من تدمير من تدعونه عدوكم . . . انتم اعداء ذاتكم . . . اصابعكم تتشاجر فيما بينها . . . انتهى امركم . . .

كان امير يختنق . . . امام الخيانة ، خيانة المرأة الوحيدة التي احب بعمق . شعر بأن شيئاً في اعماقه يكاد ينفجر . . . قلبه المريض بالذات . . . وجاءه صوت بسام . . . ( اصفعها . . . قلت لك اصفعها ) . . . وكاد الوجع يشل كتفه اليسرى وذراعه . . . . ولا يدري كيف رفع فجأة يده اليسرى وصفعها بها . . . صفقة مدوية . . . جمد كلاهما لبرهة طويلة ، وكل منهما يحدق في الآخر . . . وكان امير اول من تحرك صوب الباب ، وغادر البيت ، وخيل اليه انه سمعها تهمس وهي تطبق الباب خلفه كلمة واحدة : شكراً .



لا يدري نسيم لماذا يبدو له الحوار اليوم في بيت امير نثفاً من حوار . . ام انه يطفو ويغرق ، وتأتيه الاصوات ثم تغيب ، فلا يسمع غير قصاصات افكار ؟ .

في بيت امير ، حين يلتقون عادة يفصحون عن نقدهم الذاتي بحرقة الملتاع لا ببرود الشامت . . وكلهم ابناء القضية ، وليس بينهم من لم يستضفه سجن اسرائيلي او عربي ما ،

لسبب او لآخر فكري نضالي . . لاحظ انهم منذ غزو اسرائيل للبنان قد فقدوا تماماً روح النكتة التي كانت تميزهم . فالعدوان الصهيوني على الشعبين اللبناني والفلسطيني هزيمة لحقت بالامة العربية كلها .

جاءه صوت : عندما تنفصل الشعارات عن الواقع اليومي الميعوش لحياة الناس تصبح كالأوراق النقدية التي خسرت تغطيتها الذهبية . . تتحول الى ورق مطبوع غبي لا قيمة له . . انني اتوقع ردة فعل حادة من الجيل الطالع . . ستستهويه الايديولوجيات الرجعية وسيبتعد عن الايديولوجيات التقدمية ولو مرحلياً . . ستنمو المشاعر القطرية ، وسيتركس الانزواء . .

وامامنا الآن مسؤولية اضافية لاعادة غرس مبادئ الوحدة العربية .  
- سنخسر المعركة ثانية ما دامت حرية الرأي ، وهي الشرط الاساسي لنمو الافكار محرمة علينا . .

- لنعترف باخطائنا . . لقد مارسنا تحريماً مشابهاً حين تسلمنا السلطة هنا او هناك . .  
كاننا تبادلنا الكراسي مع حكام الامس واحتفظنا بالمؤسسات التي تكرس القمع . . لم نمارس الديمقراطية للجميع . . ولا حرية الصحافة . . وكل من لا تعجبنا افكاره كنا نتهمه بالخيانة والعمالة ونزج به في السجن او المنفى . . وكنا لا نعامل بعضنا بعضاً بطريقة افضل ، وانا شخصياً التقيت باعدائي السابقين في مقاهي الغرب . . وكلانا مطرود ومتهم بالخيانة ، ما حدث غير مقبول ، السكوت عنه جريمة لانه سيجر الى مأس أخرى . . .

- لقد نشأت اقطاعات جديدة داخل بعض انظمتنا التقدمية . .  
- يجب ان نحمي ثوراتنا من التحول الى انفجارت ذاتية انتحارية . . او الى عنف اعمى يأكل ذاته ، سهلاً مهمة العدو المتلهف للغزو كلما سنحت الفرصة ووجد الحجة لذلك . .

سأله امير : ما رأيك يا نسيم ؟

ظل صامتاً . . لم يكن يميل كثيراً الى الحوارات التنظيرية ، وكمعظم ابناء جيله ( العشرينين ) كان يتلهف للفعل . . قال بهدوء : افكر بالعودة الى بيروت ومقاتلة العدو الصهيوني . لا ارى عدواً آخر له الاولوية . لا ارى ان الدرب الى فلسطين يجب ان تمر من بيروت وانطلياس وطرابلس . . الدرب اليها هي الخط المستقيم بدءاً بالسلك الشائك المكهرب الذي أقامته اسرائيل منذ أعوام بعدما ابتلعت اجزاء من أرض لبنان .

رد آخر : وماذا عن اسرائيل في الداخل ؟ ماذا عن المتحالفين معها من ابناء الوطن انفسهم ؟ صوت آخر : نحن سهلنا لهم ذلك . منحناهم كل اغراء كي يفكروا بالارغاء في احضان العدو . اخطاؤنا مسؤولة ايضاً .

- هل يبرر ذلك سهرات اهل بيروت الشرقية ورقصهم ومرحهم هذه الايام وشماتهم ( بالغربية ) ، وقولهم : انتم دعوتهم الفلسطينيين ونحن رفضناهم فسدوا فواتيركم ؟ ..

اليست فاتورة العروبة مشتركة بين الجميع ؟  
- من السهل اتهام كل انسان بالخيانة ، ولكن علينا في هذه الجلسة ان نعترف باخطائنا

التي تقود البعض الى سلوك ( رد الفعل الحاد ) الشبيه من الخارج بخيانة اللامبالاة على الاقل . هذا طبعاً لا ينفي وجود اقلية ( خائنة ) كما يحدث في البلاد كلها ، في العصور كلها ...

- مهمتنا الليلة هي الكشف لا التبرير . . فلتتابع التركيز على اخطائنا . .  
سقطت عبارة ( التركيز ) داخل رأس نسيم كالستارة . . . ولم يعد يفهم شيئاً غير نتف من الأصوات . . أحدهم يقول : كانوا يأخذون على لبنان لامبالاته كحياة الغواني وغنجهن . وها هو لبنان يثبت اليوم جديته وصرامته .  
يغرق ويطفو .

يأتيه صوت آخر : بعض التقدميين يساعدون الرجعية في الانتصار عليهم . . خذوا الكتاب كمثال . .

صوت : الزمن العربي يزداد عبثية وسخرية . .  
صوت : انها مرحلة عابرة . . وسوف . . .  
صوت : العربي يسقط في الحيرة والخوف . ثمة خطة لتغريبه عن هزائمه وتاريخه .  
و . . . عاد يغرق ويطفو . .

( ماذا دهاني ؟ أهو قلقي الملح على بحرية من جنون الساحر ويأس رغيد ؟  
أهي فجيعتي باستشهاد شقيقي ؟ أهو ذلك الحزن الغامض الذي تتدفق كهاربه من امير الجالس الى جانبي ؟ أهو افتقادي لحضور بسام المسكين الذي مات لمجرد انه هرب من الموت ؟ )

تأمل ما حوله فهاجته وجوه : رغيد ، الشامت الأزلي ، نديم ، الانتهازي الأزلي ، دنيا . . الساحر . . ليلي . . طاقات ضلت طريقها . كما قال له أمير ذات مرة . وهو ، هل سيجد طريقه ؟ اي مستقبل ينتظره ؟ اي وطن ، وسبايا

وطنه تتقاسمهن القارات . وبحرية . . . حاول ان يخرج من شروده الى الارتباط بالمكان على الاقل . انه يحب بيت امير . هنا يحس بالراحة والسلام النسبيين وهو جالس على الأرض مع المساند والوسائد المتقشفة . . يتأمل خارطة العالم العربي على الجدار الابيض المقابل ، بدلاً من تلك اللوحات المذهبة الاطارات الغربية المناخات المبتوثة في بيت رغيد الخائق كمتحف مهجور لأقوام غرباء . . ( في الليل ، حينما ينعكس القمر فوق مياه الساقية العريضة التي تفصل بين قصر رغيد ومبنى « عبيده » ، يبدو لي دامياً بدلاً من فضياً . . كأنه خندق من خنادق العصور الوسطى التي كانت تزخر قلاعها وقد امتلأ بالجثث النازفة . . . وانا سجين ومعزول داخل القصر بعيداً عن قومي . . . والبوابة فوق الجسر الذي يربطنا بمبنى العمال والخدم والموظفين مقفل باتقان . . . واشعر بالحصار . . محاصر انا بلوحات لا تخص اجدادي ومزاجي . . محاصر بجدران خائقة . . . محاصر بالساحر والجلاد . . محاصر بخوفي على بحرية . . محاصر بحديد الاسوار المكهربة بيني وبين زملائي الذين أتمنى السهر عندهم في المبنى الآخر . . محاصر بفقر اهلي وحاجتنا الى المال . . محاصر . . محاصر . . ) لاحظ ان كل ما في بيت امير نقيض لقصر رغيد . . ( حتى قاعدة التمثال هنا فارغة ، وفي القصر هناك تماثالان ، المنحوتة الحقيقية في البركة الذهبية لقهر الشعب العربي بأكمله ، نسخة عنها في غرفتي لقهري شخصياً ) . كأنما حدس امير شروود نسيم ، فقال له هامساً : ماذا بك ؟

- لعلني نسيت ان اخبرك . . اهداني رغيد نسخة عن تماثل « المناضل » لقهري . وهي موجودة في غرفتي . هل تريدها هنا فوق هذه القاعدة ؟

- لا . هذه القاعدة تنتظر « المناضل » الاصيل الذي نحتته ذات يوم ابي . . الصبر حرفتنا . . الصبر والعمل . . شيء آخر يقلقك . ماهو ؟ بحرية ؟

لم ينكر نسيم . هز رأسه بصمت ( صبيحة يوم وصولها ، ادخلت الطعام الى غرفتها وكانت لا تزال مخدرة ونائمة . كشفت الستائر وسطعت الشمس من جسدها البديع . . تساءلت عن سر تلك الفتاة . اقتربت منها ، وتأملت يديها . اليد تكشف دوماً سر المهنة . لاحظت اظافرها العريضة غير المقلمة ، وامسكت بيدها ولم تستيقظ وكانت خشنة وصلدة كأيدي الكادحين . هذه يد تشي بفتاة عاملة ، تتعب وتشقى . . احسستها قريبة من قلبي ، وتذكرت يد امي . . . لقد كانت بالتأكيد كهذه يوم كانت امي شابة ) . . . تابع امير : جواز سفرها في حوزتي ، هل قلت لك ذلك ؟

قال نسيم فجأة : «الست» كوكو كانت ضيفة فراش رغيد، لكنني افسدت ليلتهما . انها  
لا تستحق رجلاً كخليل . .  
- خليل لا يستحق كل ما يحدث له . اني قلق عليه من السفرة المفاجئة وصقر . .  
- تراه عرف بمصرع بسام ؟  
- لا ادري . . لم اره منذ ذلك اليوم . . . صقر يحاصره بالتأكد . . . هذه اولى مبادئ  
الاستيلاء على فرد آخر . .  
- او وطن آخر . . . بالمناسبة . . . ساحرنا في دربه الى الجنون فيما يبدو . . لولا عزلته  
لانكشف سره . . قال امير : لا تقس عليه . . . اننا لا نعرف ماذا حدث له بالضبط في  
بيروت . خليل اعلمني في نزهة آنسي انه رآه ذات لقاء وشقيقه في احد التنظيمات ، وانه  
كان يبدو خجلاً وصامتاً وضعيفاً وجباناً ، وقد تبدل كثيراً ولولا لون عينيه لما تذكره . . فانت  
لا ترى كل يوم رجلاً احدى عينيه خضراء والاخرى بنية . .  
- يدعي في الصحف انه بدل لون عينيه البنية الى اخضر بنفسه ويسحره الخاص  
كمعجزته الشخصية الأولى .  
- هذا غير صحيح . سألت طبيباً للعيون . ثمة اشخاص يولدون هكذا . انهم نادرون  
جداً لكن ذلك ممكن الحدوث . خليل يؤكد انه كان كذلك منذ شاهده قبل اعوام . . قبل  
ان يتحول من مشروع فاشل لثوري الى ساحر ناجح ينعم بالسلطة والثروة . .  
- ثورة . . ثروة . . هل لاحظت ان الحروف هي نفسها ؟  
- الاشياء كلها تتشابه أحياناً . المهم اسلوب التطبيق . الابداعية محدودة الحروف .  
امكانات الكلمات والافعال لامتناهية .  
- بحرية . . حرية . . ترى ايها اسمها الحقيقي . . .  
- ها قد عدنا الى بحرية . . انك عاشق يا ابني . .  
- وانت ، كيف تراها ما دمت لم ترها ؟  
- أراها بدون اوهام وهلوسات . مجرد فتاة فقيرة عاملة وبالتأكيد ذكية واكثر صحواً مما  
تبدو ، وكل من حولها هستيري السلوك وستدفعون بها الى الجنون . . .  
- هي التي تدفعنا جميعاً الى الجنون . .  
- كلكم في سباق فيما يبدو . . فابق خارج الحلبة ، واحرص عليها دونما عنف  
مجنون . .

- اعدك . . هل ستعطيني جواز سفرها ؟  
 - ساحتفظ به لكما اولها . . . لوقت الحاجة . المهم الا يلحظ نديم اختفاءه والا انتقم  
 من دنيا . .  
 عاد احدهم من المطبخ حاملاً اقداح القهوة ( وركوة ) كبيرة ، ودار بها على الحضور ،  
 وكان ذلك ايذاناً بانتهاء الأحاديث الجانبية والعودة الى الحوار الجماعي . . .  
 احدهم قال فجأة وهو يضغط زر التلفزيون : انه موعد الاخبار . . .  
 فصمتوا جميعاً وتعلقت عيونهم « بأنيت ليمنان » وهي تنقل اخبار لبنان . . . وتجويع  
 اهل بيروت وقطع الماء والكهرباء عنهم . . . وتذكر نسيم أسرته ، وشقيقه الجريح ، فدفن  
 وجهه بين يديه وبغل الحزن يأكله من الداخل . . .  
 بعد دقائق ، همس فجأة لامير : يجب ان امضي والا التهمتي عنكبوتي الذهبية . . .  
 رافقه امير الى الباب : ما اخباره ؟ سعيد بليلة المليار القرية ؟  
 - عاشق مكسور الخاطر . يدعي انه اختار ليلة المليار بحيث تتوافق وليلة عيد ميلاد  
 بحرية . .  
 - انه دجال . .  
 - انه مجنون مؤذ ومطلق السراح . . . ولكثرة ما يعشق نفسه ، يطرب لصوته حتى حين  
 يتجشأ . .  
 لم يضحكا . سأل نسيم وهو يهبط السلم : هل وجدت مخطوطاً ما بين اوراق بسام ؟  
 - لم اجد غير دفتر ابيض الاوراق . . . لم يكتب غير الصمت المذعور . . .  
 - من يدري . لعله كتب مؤلفه بالخبر السري . لا اعتقد انه كان كاذباً . . . يجب ان  
 نكتشف لغته . . . قال امير ساخراً مقلداً رغيد : لا تقلق . . ثق بي وسيكون كل شيء على  
 ما يرام . . .  
 ومضى نسيم ولم يضحك . ذكرته العبارة بمصرع سري الدين . . . ( لقد فقدنا نهائياً  
 روح النكتة ) .

## ( المدينة الاولى )

توهمت مرة انني وصقر راحلان حقاً الى عواصم اوروبا ، حيث المتاحف والكنوز الفنية التي طالما حلمت بمشاهدتها ولم يتح فقري لي ذلك . . .  
 وها انا في مدينة اجهلها . . واجهل اسمها . .  
 منذ اللحظة الاولى وعيت ان رحلتنا ستكون مختلفة ، وانها الى الجحيم لا الى الحضارة . . .  
 منذ فوجئت برحيلنا في طائرة خاصة ، وسط زحام حاشية صقر . بشر اجهلهم لهم وجوه متشابهة حتى التطابق . . . للنساء كلهن وجه واحد ، وللرجال وجه واحد مشابه لولا لحية او شارب اضافيان . . .  
 منذ شاهدت التمثال الذهبي لامرأة عارية بالحجم الطبيعي يتوسط الطائرة ارتعدت . . . احسسته وثناً ، يرحل به اتباعه وقد زج بي بينهم . . . لاحظ صقر ضيقي وحيرتي في مجلسه وسط اولئك الناس المتشابهين ، كأنهم يرتدون القناع ذاته ، فعاجلني بشمة ثلجية من ( السنو Snow ) وكنت لما اصبح من تلك التي ارغمني بقسوة على تعاطيها قبل صعود الطائرة حين اخطأت وكشفت له انني اخاف ركوب الطائرة الخاصة الصغيرة - رغم انني لم اجر بها ! - لم يضحك لي كعادته تلك الضحكة الضائعة بين شهقة العبث والجلد والموت . غريب امره كم تبدل . تحول من طفل الى جلال في غمضة عين ، كأنه اطمأن الى امتلاك روجي وانتهى من لعب دور الطفل معي الى دور الجلال . ولم يكد ذلك الانفجار الحار داخل رأسي يهدأ قليلاً ، حتى غمز صقر احدى صديقاته مشيراً إلي . . .  
 اقتربت مني دافئة ، طرية كأفعى ، مدت لسانها وفوجئت بأنه كلسان الافاعي حقاً ، له شطران ، وذعرت ، وصرخت هلعاً ، ونظرت اليهم فلم يبالوا كأنهم لم يروا لسانها . . .  
 وانحسر الثوب عن كل ناهد شهوي عادت وغطته بسرعة مثل غيمة ما تكاد تغادر قمراً حتى تحجبه مرة اخرى ، واستيقظ في دمي عواء ذئاب نهمة منسية واستسلمت . . . ضمتني



اليها ، فشددتها الى جوعي التاريخي ، لكنني فوجئت ان جسدها استحالت حزمة اسلاك شائكة لها شكل امرأة ، وكانت اطرافها المدببة تنغرس في لحمي كلما شدتني اليها وامعنت في ضمي وانا اصرخ وادفعها عني وبعض الحضور يرقبني ويضحك وبعضهم الآخر يشد اليه حزماً من الاسلاك الشائكة بصورة اجساد نساء . . .

في الفندق قال صقر انني ابدو متعباً ولا بد من كبسولة اضافية لتنشيطي . . . انه يستمتع بتدميري . . . رحت في شبه غيبوبة في الغرفة المجاورة . صحت وتطلعت الى الساعة الالكترونية اللعينة التي اهدتني كفى اياها وفوجئت بانها كانت ترسم في الظلمة ارقام هاتفية في بيروت . ذعرت ، وهربت اليهم وحين دخل الجرسون جاراً امامه عربة الطعام الحديدية الى الغرفة ، فوجئت بانها منصة العمليات الجراحية في قسم الطوارئ الشعبي الذي انشأنه في حيننا ببيروت ، وعافت نفسي الطعام . . الح علي صقر بان اتناول شيئاً وكذلك فعل صحبه الذين اضحت معايشي احدى متعهم منذ بداية الرحلة . . قلت لهم انني اكره هذه الطاولات الحديدية التي تجر الى غرف الفنادق الفاخرة الشبيهة بمنصات المسرح او طاولة العمليات . . ضحكوا طويلاً مني . نظرت ثانية الى ساعتي الالكترونية وفوجئت بها بدلاً من ان تشير الى الوقت ، تشير من جديد الى رقمي الهاتفي في بيروت ، فقررت انتهاز الفرصة ، اية فرصة والاتصال باهلي هناك . عند منتصف الليل ، امام باب الملهى ، اكتشفت اننا في اثينا . سألتهم : هل سنذهب لمشاهدة الاكروبول والمتحف ؟

فضحكوا طويلاً وجروني معهم الى الملهى في حي « البلاك » وفوجئت بالمكان محجوراً لصقر وضيوفه وصحبه وانضمت اليها وجوه اخرى كثيرة مشابهة تماماً لوجوه حاشية الطائرة . . طعام وشرب وهرج ومرج وصحون تُحطَّم وضجيج وغانيات ورقص وغناء و « بوزوكي » و « اوزو » . . وتعبت . . وغافلتهم قليلاً ، وغادرت المكان . . .

سرت في درب ضيقة منحدرية شبه معتمة وخاوية . . هاجمتني ريح ليلية منعشة ، فاستعدت بعضاً من صحوي ، وبدأت احرق في واجهات مخازن شعبية ، وانا اتعثر بالارصفة العتيقة ذات التواءات ، المرصوفة بحجارة تبدو غابرة . . تطلعت الى ساعتي ، وكانت تشير الى الرقم ذاته . .

فوجئت بديكان تحت الارض تقود اليه درجات عديدة مهترئة ، وفي واجهته الصغيرة العتيقة رفع العلم الاسرائيلي ، ولحت البضاعة : آثار لبنان كلها للبيع والغبار تكوم عليها . . اعمدة بعلبك . . (خرايب) صور . . جوامع طرابلس . . مدرجات جبيل . . محتويات

المتحف في بيروت وكل ما شاهدته وانحيت له في طفولتي . . . وبدت الآثار في العتمة النسبية مكفنة بخيوط العنكبوت المغبرة وقد اغمي عليها او نامت ، باستثناء جرد صغير كان يدور بينها كالمجنون خلف الواجهة الزجاجية . . . جلست القرفصاء وتأملت ، فتوقف عن الركض ووقف مقابلي في الواجهة الزجاجية يتأملني ، وقد ارتجفت خياشيمه ، وتدفق حزن غامض من عينيه الكثيبين . . .

احسست انني احدث في مرآة . . . وبكيت فبكي مثلي . وحين اخرجت منديلي لامسح وجهي اخرج منديله هو ايضاً وفعل الشيء ذاته ثم ادار ظهره لي ومضى . سرت بعدها طويلاً . . . انحدرت في درب بدأت تتسع ، وعادت السيارات تزاحمني على رصيفي ، ثم وجدتني في ساحة شاسعة قدرت انها « السيتاغما » حين شاهدت مصابيح تضيء باسم « الميريديان » . . . الفندق الذي حللنا فيه . . . كنت اعرف هذه المعالم وسواها ايام رحلي داخل الخرائط والكتب . . . وها انا ارحل داخل الدل وامر بها عابراً . حين دخلت الى الفندق فوجئت بموظف الاستقبال يعطيني مفتاحاً ، فاخذته وصعدت الى الغرفة وقد قادني اليها صبي المصعد حين لاحظ انني اترنح . . . واضاء لي النور واغلق الباب خلفه حين خرج . . .

لم اعرف كيف اعالج الهاتف اللعين ورأسي يدور هكذا فوق محوره ثم يعود كالمنطاد . . . طلبت ارقاماً وأرقاماً وجاءني اصوات تنطق بلغات لا افهمها واخيراً خاطبني صوت بالانكليزية فقلت بالفرنسية انني اريد بيروت وقرأت الرقم من شاشة ساعتي . . . لحظات ام دهور لا ادري . رن الهاتف وجاءني صوت اهلي ، فبكيت كالطفل وصرت انتحب وانتحبت زوجة عمي وقالت ان ابنها وابن عمي الآخر استشهدا في قريتنا الجنوبية . احدهما قاتل الاسرائيليين وحيداً كالمجنون فاطلقوا عليه قذيفة دبابة دمرته والبيت معاً ، والآخر لم يفعل شيئاً غير الاستسلام لكنهم قتلوه ايضاً . . . بكيت طويلاً وسقطت في بئر عميق وارغمت في الفراش انتحب كما كنت افعل طفلاً وسراً . . . لا ادري كم من الوقت انقضى ، لكنهم ايقظوني واحاطوا بسريري كزبانية الجحيم وهم يضحكون مني معابشين ، وقد حملوا في ايديهم شوكاتهم الحديدية المرعبة بفروعها الثلاثة وقال صقر ضاحكاً : ايها الجرذ . . . لقد فتشنا عنك في كل مكان . . . وابلغنا البوليس انك مفقود ، وانت نائم هنا في فراشي ؟ كيف وصلت الى هنا ؟ . . .

- لا ادري . . . مشيت فوجدتني هنا . . .

وشعرت فجأة بمغص مؤلم في بطني ، وتقرح في منخري ، وطلبت منهم احضار طبيب ، وفوجئت بان الفجر قد طلع ، لكنهم احضروا زجاجة من ماء النار بدلاً من طعام الافطار وارغموني على ابتلاع نصفها وسط قهقهاتهم الساخرة القاسية داخل عيونهم الحمر .  
وشعرت بحاجة الى البكاء لا يوازها غير خجلي الداخلي العميق امام ذلي هذا . . . انه الاحساس ذاته الذي كان يخامرني امام الجلاد في السجون الباردة العارية من الاثاث . .  
وانهرت حين تذكرت مصرع ابني عمي ودمار ذلك البيت العتيق الذي طالما احببت . .  
وشعرت انني امقتهم اولئك الذين يحيطون بي . . التقط صقر شرارة الكراهية التي ومضت من اعماق روحي وربما من عيني ، وبدا سعيداً بها ، وفي وجهه تعبير ذكرني برغيد وهو يمارس متعة الكراهية . . .

وفتحت ابواب الغرف بعضها على بعض ، وتابعوا مهرجاناتهم المستيري . . . وجوه متشابهة ، لم اكن ادري هل تتبدل ام تبدل ثيابها . . اناس يحضرون وآخرون يمشون . .  
هل ثمة ورشات لاسعاد صقر ، تذهب ( ورشة ) وتأتي اخرى ؟ . . .

خذلني جسدي ، وتعلقت نظراتي بالأكروبول الذي توسط النافذة ، وتذكرت شهيتي لمشاهدة ( الأجورا ) ، موطن احدى الديمقراطيات الأولى على هذا الكوكب حيث كان سقراط وافلاطون وارسطو يتحركون بين الناس ويتحاورون ويتناقشون . . . أنا في اثينا ، مهد الاغريق ولا ارى منها غير ( شمة ) وضمة وتكسير صبحون في الأقبية ، وآثار بلادي تباع في المزادات . . .

وجاء صوتي فجأة صارخاً : اريد الذهاب الى الأجورا . . . وانفجروا جميعاً ضاحكين وقال صقر باحتقار : لم تعد تصلح لشيء . . . ولكن لا بأس بك كمهرج احياناً . .  
انه المساء او الفجر . . لم اعد ادري شيئاً غير اننا في قبو اللهو ذاته ، وتلك المرأة المجذولة من الاسلاك الشائكة تحاول تعذيبني بضمي اليها ، وانا اهرب منها والكل يضحك ساخراً . . .

امشي طويلاً . . . انحدر في الدرب الضيقة الخاوية شبه المعتمة اياها . . . تهاجني تلك الريح الليلية الداكنة . . . اتعثر بالارصفة العتيقة ذات الستوات المتهترئة ، واكاد اعرف دربي الى الدكان اياها كمن يمشي خطى سبق ان سارها في حلم الليلة السابقة . . . العلم الاسرائيلي داخل الواجهة ولافتة تشير الى أن الدكان تباع الفولكلور الاسرائيلي ، وفي الداخل آثار وطني . . العمود البعلبكي الكبير الجميل بافريزه الذي طالما سحرني لم يكن

هناك . . ربما اشتراه احد هواة التحف . الجرذ كان هناك يدور بين تلك المعالم والقلاع والكنائس والجوامع والمتاحف الغالية على قلبي وحين شاهدني جلس مقابلي خلف الواجهة الزجاجية للدكان ، وسألته : كيف صغرت هذه الآثار هكذا ؟ كان العمود الواحد في بعلبك يثقب قرص الشمس ، وكانت قلعة صيدا البحرية تحتوي الافق . . . كيف حدث ذلك لنا ؟ قال لي الجرذ وهو يضع يده على خده مثلي : حينما تقتلع من ارضها ، تذبل وتصغر . . .

- صحيح . . .

- هذا يحدث للناس أيضاً . . .

- صحيح . . .

- من غادر دياره ، قل مقداره . .

- صحيح . . .

- الحجر في مكانه قنطار . . .

- صحيح . . .

- كيف تعرف ذلك ؟

- كيف لا اعرفه بعدما تحولت من رجل الى جرذ ؟ . . .



## ( المدينة الثانية )

يا له من رجل من برج الطاووس . انه يحاول احتلال روحي بقعة بعد اخرى ، وهو بالتاكيد بدأ ينجح في ذلك لأن اهتمامه بي تضاعف ، وقررت في دوري النهائي في حياته : مهرج الرحلة . . .

في البداية ظننته صبياً مفسوداً ، ثم اكتشفت ان حب الامتلاك يحوله في فترة التعارف الأولى الى ( ولد ) لا يخلو من وهم دفء اللفة - كي لا اقول الصداقة - . . . وكلما استولى على رقعة جديدة من بقاع اعماقي ، زهد بي ، وعاملني كدمية تم كسرها . . او كنفاية . . .

بالجد الممزوج بالهزل والكوكابين والترغيب والترهيب بالفقر ، وجدت نفسي واحداً من اعوانه ، انا الذي حلمت في لحظة غباء ( باصلاحه ) ، ورمي زجاجات الكحول من غرفة المكتبة والاستعاضة عنها بكتب تثقفه . . . وها هو ينجح في ادعائاتي . . . يخلع امامي وجهاً بعد الآخر . . . واحتكاكنا معاً بعالمه الخارجي يكشف لي مدى سطوة هذا الغنمالي الصغير في المجالات كلها . . . له في كل مدينة حلقة تجله وتتوهمه رجل اعمال ناجحاً ، وحلقة اخرى من اصحاب الحاجات يشتري ولاءها ، وحلقة نالته من اصحاب الليل ، ولديه طاقة فيل على استيعاب ذلك المخدر الذي بدأ يفتك بمعدتي وحواسي ويذلني . . . ولم اعد اقول الصدق . . . لم اعد اقول شيئاً . . . تحولت الى جرد في دكان بيع آثار وطني الذي يحترق ، بينما اموت هنا واحدة من اشجع ميتاتي كمدمن وقواد . . . واشهد ولادة نيرون جديد قد يفوق بجنونه العصري الانحطاط المتحفظ رغيد العجوز . . .

يلحظ صقر شرودي ، والطائرة الخاصة تقلع بنا الى حيث لا ادري . . . يومض في عينيه بريق اهتمام ، كصياد يلحظ هرب احد احصته البرية السجين المعدة للترويض . . . والغضب تصاعد في رأسي ، فركزته في طرف لفافتي ، واشعلتها .

قال صقر : التدخين ممنوع لحظة الاقلاع .

تجاهلته .

قال لي احدهم معابثاً : هل تعرفني ام انك مخدر وثمل دائماً ؟ التمع في رأسي وجه ابي كضربة فأس شطرتني نصفين وانا اذكر بمرارة نصيحته التي لم اعد امارسها ( لا تقل يا ابني غير الحق ) ، وقلت للطاووس الآخر : اعرفك ؟ بالتأكيد لا . في الغربة لا احد يعرف الآخر ولا يذكره حتى ولو كان شقيقه . . .

وانفجروا جميعاً ضاحكين رغم المطب الهوائي الذي اربعني ، وامر صقر : دمه ثقيل . اعطوه « شمة » . وتناولتها للمرة الأولى وانا اشعر بما يشبه الحاجة اليها . . . واقلقني ذلك الشعور العابر كسر ارتدى قناعاً ، محاولاً ان يعبر بسرعة الى النسيان . . . وعبرت بسرعة الى الدفء والحرارة والصخب الهدياني . . .

واقتربت مني امرأة الاسلاك الشائكة واللسان الافعواني فصرخت هلعاً . جاءت اخرى صغيرة ، بريئة المظهر ، شفافه البشرة . . . شفافه حتى لتبدو اعصابها وعظامها عارية لنظراتي تحت بشرتها الضبابية وجسدها الزجاجي . . .

وفجأة لاحظت الحشرات تركض تحت جلدها ، وتغلي فوق عيني ، وفي موضع قلبها

شاهدت قنبلة موقوتة وسمعت بوضوح ( تكاتها ) وصرخت مذعوراً : قنبلة . . . قنبلة موقوتة . . .

وقبل ان اشرح لهم اين نهض الجميع مذعورين وانطلقوا يهرولون في الطائرة ، وقال لي احدهم : اين زرعتها ايها الوغد ؟ وكنت قد نسيت عم يسألني ودوار هائل يصطخب في رأسي كموج العاصفة ، وقلت له : نسيت . . . وشتمني صقر بأقذع الالفاظ ، وتوزعنا في الطائرة جرداناً وكل يبحث عن شيء اجهله ، وصرخ بي صقر : فتش معنا ايها الجرذ . . .

وسألته : عن اي شيء تريدني ان افتش . صرخ آخر : عن القنبلة يا ( مسطول ) . . . وانطلقت معهم افتش عن القنبلة ، ولكن اي قنبلة ؟ . . من قال ان في الطائرة قنبلة ؟ . . ورأيتهم يطوفون حول التمثال الذهبي العاري مفتشين مثل قبيلة منقرضة تدور حول وثنها ، وهربت للفتيش في بقية زوايا الطائرة . . . وانا أتحرك بحرية مجنون بين غرفة نوم صقر ومكتبته وحمامه واشهق امام ذلك الذهب كله . . . صناير من الذهب في المراحيض ، والحمام مطعم بأحجار كريمة تزين ذهبه وفضته ، وغرفة السونا خرافة ، كأنها علبة مجوهرات ضخمة تتسع لرجل . . . اذن هذا يحدث حقاً ، وكنت اظنه غير موجود الا في الروايات واكاذيب الصحافة . . . صنبور واحد يكفي لدفع اقساط اولادي مدى حياتهم ، والمراحض وحده يكفي لتسليح اهل قريتي . . . وانفجرت أضحك بصوت مرتفع لافكاري الهزلية العتيقة هذه . . . ولماذا اعلم اولادي ؟ عليهم بغبار النجوم ، شمة واحدة ، وتتبعثر الاحزان مثل كومة رمل في الريح . . يجب سوق الناس الى سلك التخدير الاجباري . . . سأفكر باصلاح شؤون هذا الكوكب على ضوء اكتشافاتي الاخيرة . . صنبور من الذهب ؟ . . مراحض من الذهب ؟ مدينة طائرة من الذهب ترحل الى الصيف او الشتاء وتختار فصولها كما قال صقر ، فالفصول عبودية الفقراء فقط اما الاثرياء فيختارون لكل يوم فصله وفقاً لمزاجهم . . البانيو مطعم بالاحجار الكريمة كي لا تنزلق قدم المستحم ؟ آه سينفجر رأسي . . . اين انت يا صقر اللعين . . . انجلدي بشمة اخرى . . . شمة اخرى . . . سأطلب النجدة . اشعل عود كبريت حتى يحترق ، وبفحمه اكتب على لفافتي « النجدة S.O.S » ، وافرغ زجاجة العطر من محتوياتها فوق الرخام واضع الرسالة داخل الزجاجة ، واملأ البانيو ببحر هائج ارمي اليه بالزجاجة . . فهل سيسارع احد الى انجادي ؟ اني بحاجة الى « شمة » . . اصرخ وارفض كالاعمى : ارجوكم « شمة » . . سأموت برداً . . .

وسارعت يد لتحشو انفي بالمسحوق الابيض الثلجي ، فاشتعلت من جديد . . .  
ولا ادري لماذا ، حين حدثت من زجاج الطائرة الشفاف تذكرت تلك النحلة السجين  
داخل زجاجة الكوكاكولا الشفافة وهي عبثاً تهرب من سجنها ، وجناحها يتكسران مرة بعد  
اخرى في محاولتها المستميتة للتخليق من جديد في فضاء الحرية . . . الحرية . . . أطلقوا  
سراح السفن من بحارها . . أطلقوا سراحى . . آه الحرية . .



### ( المدينة الثالثة )

في المطار ، جاءت سيارة مسدلة الستائر ونقلتني وصقر وبعض افراد الحاشية الى احدى  
غرف المطار الرسمية من غير ان نمر بالقاعات المألوفة للمسافرين . . . اذن هذا يحدث حتى  
في مطارات اوروبا لا بيروت وحدها ؟ ام اننا لسنا في اوروبا ؟ لم اعد ادري . . دخل صقر  
وبعض صحبه الى غرفة شخص مهم كما هو واضح من جمال سكرتيرته ، وقاعة الانتظار  
الضخمة الملاصقة لمكتبه ، وامرني بالبقاء خارجاً كأى خادم اضافي .  
جلست في المقعد الجلدي ، كان ناعماً كأنه جلد بشري . . . لا ادري لماذا تذكرت  
كفى . . تلك الحمقاء البائسة التي لم اهتم لها منذ سفري ، فأنا اعرف انها تخونني ، وذلك  
يؤلني ، واعرف لماذا ، وهو امر يحتاجني بالخزي ولا احب التفكير به . . . زوجتي خائنة . .  
وانا مشروع مدمن . . . معدتي بدأت تؤلني ، ومنخري مقرح ، والتقلصات الموجعة  
تهاجم احشائي احياناً ، ولم اعد قادراً على قول الصدق . . .  
( كفى ، اينما كنت ، كيفما كنت ، مغفورة خطاياك ايتها الضالة المسكينة . . .  
ريشتان في مهب الريح كنا ، فبأي حق أحاكمك ؟ .. كلانا ملوث ، مدمر ، ضال ،  
فلتحم الاقدار طفلينا المسكينين ، ولتحم ذاكرتنا من نتف جسد طفلتنا الثالثة . .  
وداد . . . ) .

سقطت في بئر معتمة من الاسى . . انها لحظة الهبوط اللعينة ، ولا املك « شمة » من  
رماد النجوم . . . انها عتبة الادمان . . . ( انتهى امرك يا خليل ) . . .

بدأت ارتجف قليلاً وأنا اقلب احدى الصحف العتيقة المكومة في قاعة الانتظار . . . ها  
انا انهار . . . كان الحصار فوق طاقتي . . . دائرة تحيط بها اخرى فأخرى فأخرى في الوطن  
والغربة الى ما لا نهاية ، وقد انكسرت وأريد شمة والا ازدادت يدي ارتجافاً بالصحيفة ، ام  
تراني أتوهم وبالغ ؟ . . .  
فجأة صحت .

اهذه صورة امير في الصحيفة العتيقة ام تراني اهذي ؟ اهذا وجهه وهو يحاول ان يحميه  
من عدسات المصورين ؟ اهذه جثة بسام على الرصيف ورأسه غارق في الدم ؟ . . .  
بصعوبة اقرأ الكلمات ونقاط سود تقفز امام عيني وحشرات تفور فوق السطور وبينها . . .  
لكنني قرأت ! . . . و . . . و . . .

وشاهدت وجهي يحل في الصورة محل وجه بسام ، الذي هرب من موته الأول الى موته  
الاخير العبثي العبثي العبثي . . . اللعنة عليك يا كفى . . .  
- بل اللعنة عليك يا خليل

- هي التي . . .

- انت قبلت . . .

- هي . . .

- انت . . .

\*\*\*

ازداد كل لحظة تقديراً لمواهب صقر في الحدس ، او قراءة الافكار المسخرة لإذلال  
المحيطين به . . .

كيف حدس ما يدور في اعماقي منذ لحظة خروجه من المكتب في المطار ، دون ان ينظر  
في وجهي ؟ ولماذا قرر فجأة تقريبي اليه بعد طول اذلال وابعاد ، واعلن : لدي زيارة  
خاصة ، سيرافقني اليها خليل فقط .

ام تراها مصادفة لا اكثر ؟ . . .

كانت صغيرة جداً ، جميلة وشاحبة وقد زينت شعرها بوردة ذابلة ، ترتجف في فراشها  
وتبكي . قدمها صقري : حبيبتى الوحيدة الابدية هيلغا . . . ودوى صراخ طفل رضيع في  
الغرفة المجاورة ، وشرحت صديقتها الامر : لقد انجبته منذ ثلاثة ايام . . . وهويكي  
باستمرار ، ونحن ايضاً ريثما يصل الطبيب . . .



قال صقر : اعترف بأنه ابني . . . وسأعني به . . . لن يبكي بعد الآن ، ولسنا بحاجة الى طبيب . . . قالت الصديقة وهي تدخن لفافة الحشيش : انه بحاجة الى حقنة مورفين . . .

صرخت بهلع عفوي : لماذا ؟ . . . حقنة مورفين لطفل في يومه الثالث ؟ لاحظ صقر بنقمة انني استعدت بعضاً من قدرتي على ( رد الفعل ) الطبيعي ، وقال متحدياً فخوراً : هيلغا تفضل المورفين . . . وما تقدر على احتماله قبل ان ( تدوخ ) يفوق طاقة معظم الناس . . .

تابعت الصديقة التي بدت كهيلغا مراهقة صغيرة : وقد ولد طفلها مدمناً . . . لم نكن نعرف ان ذلك ينتقل من الام الى الطفل . . . ولكن . . . صرخ صقر مبتهجاً : سأ تزوج منك ذات يوم يا هيلغا . . . انت المرأة التي تصلح لي . . . المرأة التي تنجب اولاداً مثلي . . . هذا المدمن الصغير هو طفلي حقاً . . .

جرتني الصديقة من يدي الى غرفة اخرى . . . كنت صاحباً ، اظاهر بانني مخدر بعد ان نجحت في مغافلة صقر وعدم ابتلاع جرعة السم . . . سألتني : وانت ايضاً ثري .

- انا فقير . . .

- ألسنت عريباً ؟

- بلى . . .

- أليس جميع العرب اثرياء ؟ . . .

- ثمة عرب آخرون ، وانا منهم . . .

غادرنا هيلغا وقد وعدنا بالعودة في المساء ، وحين ضمتنا السيارة وتوجت بؤسي بسيجارة قال : يجب ان نغادر هذه المدينة الآن .

- لماذا ؟

- لأنها قاصر . . . وهذا قد يعني السجن . . .

- ولكنك وعدتها بالزواج . . .

- لم اعد لها بشيء . . . وانت لم تسمعي ! . . .

- . . . .

- وقد اعطيتني صورنا معاً ، وبعض وريقات خططتها لها في مناسبات مختلفة بعدما

اقنعتها بانني ارغب في كتابة قصة حبنا وتخليدها . . . مع الصور . . .  
 - ما دام لا دليل مادياً . . . لماذا نرحل ؟  
 - لأنني ما زلت لا اثق بك . . . احياناً يستيقظ في داخلك شيء لا احبه ، واخشى ان  
 يفعلها بي في المحكمة . . . مع القاصرات ، لا مزاح في هذا البلد ! . . .  
 واستدار نحوي وتأمل وجهي بعينين ثاقبتين وقال : لن اثق يوماً بك . لقد خدعني  
 مظهرك البريء في البداية . . .  
 وكدت اقول له : شعور متبادل . . .  
 ولما حركت شفتي لأتكلم ، صرخ بي : اخرج لفاقتك من فمك حين تخاطبني . .  
 سئمت مظهرك ( البلدي ) وانت تتكلم والسيجارة ملصقة بشفتيك تتحرك مع نبزاتك  
 القدرة اللثيمة . . والرماد يتناثر منها . .  
 لم اقل شيئاً خوفاً من ان انفجر .  
 ادرت وجهي صوب نافذة السيارة ، وصرت اتأمل الشوارع التي كان الرحيل اليها  
 حلماً ، وانا اخترقتها داخل تابوتي الشفاف . . . وقد اطبقت شفتي بشدة على لفافتي ، والرماد  
 يتساقط منها دقيقة بعد اخرى فوق ثيابي ولا انفضها ، ولم اخرجها من فمي الا حين لدعت  
 جهرتها شفتي واحرقتها . .



### ( المدينة الرابعة )

استيقظت بعد نوم عميق . . ما كدت افتح عيني حتى ادركت ان صقر اعلن علي  
 الحرب الباردة .  
 فأمامي على الجدار ، شاهدت احدهم وقد الصق مقابلي صورة عملاقة بالألوان  
 ( بوستر ) لعشبة خضراء وقد كتب اسمها العلمي تحتها : « اريثروكسيلون - كوكا » -  
 Erythroxylon Coca ، وهي التي يستخرج منها « الكوكايين » اللعين !  
 عبثاً يحاول صقر ان يفهم لماذا صرت ارفض بشراسة كل محاولة جديدة لتخديري . .  
 لم اعد احاول التهرب او المراوغة حرصاً على لقمتي كما كنت افعل من قبل ، بل صرت

ارفض . السر يحيره : ما الذي حدث لي في قاعة الانتظار بالمطار بين اللحظة التي كنت اتسول فيها بنظراتي « شمة » حين خلفني كالجرذ وراءه عند السكرتيرة ، واللحظة التي تلتها بعد ذلك بنصف ساعة لا أكثر ، حين غادر مكتب الشخص المهم ، وعاد ووجدني وكل ما في سيالاتي الروحية يلعنه بصمت مطبق وكراهية مطلقة لا تخلو من كراهية لذاتي . . .

استجوبني صباح اليوم التالي ثانية بصورة مباشرة . . . حدثت فيه ولفاتي مغروسة في فمي ، وصمتنا طويلاً كذئبين شرسين ، وحين سقط الرماد على ثيابي قلت له واللفافة ما تزال في فمي : « لا شيء » . . . وسألني ثانية ، وعادت صمتي حتى لسعت جمة اللفافة المحترقة شفتي ، وقلت له « لا شيء » قبل ان ارمي بها ! . .

لقد استعاد اهتمامه بي ، وبلاستيلاء علي . . وها هو يتفنن في حربه النفسية . . كم أخطأت حين توهمته أكثر براءة وأقل حيلة . . والده الشيخ صخر ليس بالمقارنة به أكثر من مراهق طيب القلب . .

عدت احدى في « الارثروكسيلون كوكا » . في دمي نداء مقموع يهمس باسمها . تذكرت جداراً مشابهاً للبياض ولكن يتوسطه (بوستر) آخر . هو جدار امير الذي تغطيه خارطة العالم العربي . . . وكنت ارى خارطة عمري معها وفيها . مع صقر لا شيء غير بوستر ( كوكا ) اللعينة .

. . . قفزت من سريري ودفنت ارتجافي نصف المتوجع تحت ( الدوش ) برذاذه البارد . . . نظرت الى ساعتي الالكترونية التي اهدتني زوجتي اياها في محاولتها ( تحضيري ) و(عصرنتي) . . حدث لها ما حدث لساعتي السابقة العتيقة التي تمسكت عقاربها بزمان بيروت . . او بشيء مشابه . . صارت لها حياة عضوية مستقلة ، تكتب لي شاشتها كل شيء إلا الوقت . . واليوم ، بدلاً من ان تومض بالزمن ثانية بعد اخرى ، كانت تومض بحروف تحمل اسمي ولدي على التوالي ، فادي رامي ، كأنها صارت مرتبطة بدورتي الدموية . . . كانت محاولة الاتصال بهما عسيرة . . فأنا لا اعرف توقيت هنا ولا هناك . . ثم ان صقر ربط هواتف الحاشية بجهاز تنصت ، وانا قروي الاصل والطباع لا يستطيع ان ابوح بمشاعري على شاشة تجسس ، حتى مشاعري نحو اولادي . . قررت ان اجرب ذلك في مناسبة اخرى . . .

ادهشني ان احداً لم يقرع بابي . . ثم وعيت ان خطة صقر لإذلاي قد تقتضي اهمالي ، وتركه وحيداً ، كأني جرد مذعور لا يحمل نقوداً ولا جواز سفر ، ولا « شمة » كاد

يألفها . . . ولم اكن اعرف تماماً كم الساعة ، اهو المساء ام الصباح ، وحين شرّعت النافذة اكتشفت انني في الطابق العشرين او الثلاثين من فندق يمكن ان يكون في اية عاصمة اوربية او اميركية . . . وتساءلت : هل بمقدوري الاقلاع عن تناول هذا السم بمفردتي ، بارادتي ، ام صرت بحاجة إلى طبيب وعلاج ؟ هل تجاوزت العتبة واقلعت في نهر اللاعودة ؟ صقر فاته شيء في معتقلي هذا . . فاته ان يعطل جهاز التلفزيون . . ولم اكن اشتهي شيئاً آخر . . .

وحين عادوا بعد ساعات كنت قد رويت غليلي بالاستماع الى نشرات الاخبار كلها التي طالتها اصابعي وشاهدت جان جاك بايرو ، وفرانسين بوشي ، وانيت ليمان ، وميرييل كالام وغيرهن وغيرهم من المذيعات والمذيعين الذين الفتهم في هذا الصيف الحزين . اذن نحن في مكان ما قريب من سويسرا ، قادر على التقاط بث تلفزيونها ، أم ترانا عدنا الى مدينة سويسرية ما ؟ ولاحظت من نبرة المذيعين تعاطفهم وما يحدث لوطني . . . ما جدوى ذلك ؟ غداً ينسون او يقسرونهم على النسيان . . التعاطف لا يعيد وطناً . .

وهكذا ضبطني حاشية صقر متلبساً بمراقبة التلفزيون ، وكانت بيروت تتهرق . سألني احد اولئك الذين وجوههم متشابهة تماماً كالقناع الموحد : هل تحب مشاهدة الافلام الحربية ؟ اطفئ هذا الفيديو السخيف . قلت له : انني ارقب اخبار التلفزيون لا الفيديو . . وهذا ليس فيلماً . . انها بيروت تتهرق . .

- تتهرق ؟ لماذا ؟

- الغزو الاسرائيلي . . الم تسمع به . .

- لا . . لم اسمع به . .

- ثمة حرب في لبنان . .

- هل ثمة حرب حقاً . . لا اصدق ولا يهمني ذلك . .

- ولكن . . .

- ليس لدينا اي قصر في لبنان . . والدي حذر ، ونحن نفضل اوربا منذ البداية . . .

قال صقر : انت محظوظ . . والدي عمر للأسف قصراً في « سوق الغرب » بدلاً من

« الغرب » . . .

- دعنا من حديث بيروت . . استعدوا للذهاب الى السوق .

( وفهمت انه يعني سوق اللحم الابيض . . . والاسمر ايضاً ) أضاف : غانيات العرب في هذه المدينة سينمن الليلة ثريات . سأمارس هواية « الشكشكة » واسعدهن . قلت لصقر : انني مصاب بصداغ . هل تستطيع البقاء ؟ اجاب صقر : لا . . . سنداوي صداغك ( بالثلج ) . . . بغبار النجوم . . . بالست اريثروكسيلون كوكا .

- اشكرك . لست بحاجة اليها . . .

- تقلبك هو اطرف ما فيك . . . انك مهرج حقيقي ، خصوصاً حين تلعب دور المناضل المهتم بقضايا وطنه . . . سأقدم لك في محطتنا الثانية شخصاً يهكم امره . . . شاعر وطني مثلك . . . لعلك كنت تناضل لعرض كتبه في واجهتك الشهيرة بمكتبك العقائدية قرب جامعة بيروت العربية . ستراه جيداً هذه المرة ، على حقيقته .

ذهلت . كيف عرف ذلك كله عني ؟

اردف قائلاً : لقد تحررت عنك ! هلى تظني حقاً ولداً ساذجاً مهمته تعليمك التزلج والسباحة وصيد الاسماك وتقشير الخيار ؟ . . .

كنت ارقبه ، والسيجارة ترتجف في فمي ، وصرخ بي فجأة : حين أكلمك تطفئ سيجارتك احتراماً ايها الوقح . . . وقبل ان اصغعه لاحظت احتقان وجهه ، وادركت انه بالغ في ابتلاع حبوه المنبهة ، وجرعاته المخدرة فلذت بالصمت ارهاقاً وقرناً . . . وانقلدنا دخول مجموعة جديدة من الناس ، بعضهم جاء ( يتبرك ) بعطاياه . .

صرت اعزف ان لصقر حلقة مدمنين تحيط به في كل مدينة . اثرياء وصغار يجنون التجمع حول اكوام ذلك ( الثلج ) الابيض الذي يحرق المنخرين والرأس والقلب والمعدة ويقرحهما كما حدث لي . . . او كاد . . . لكن ما ادهشني حقاً هو حضور مجموعة من رجال الاعمال في كل مدينة مررنا بها . . . وكان صقر يرتدي معهم وجهاً مشابهاً لذلك الذي لمحتة مرة ونسيتة من زمان مع رغيد ، حين مشيا سوية الى الشرفة في سهرته . . ليلة « يا ظلام السجن خيم » . . بدا لي ان صقر هو المفضل في كل ( سوبر ماركت جنس ) مررنا بها في المدن الغريبة ، وانه فارس تلك الاماكن (الحريرية) المقرقة كمسرف ومهذار . . ولكنها لم تكن هاجسه الأوحده كما توهمت في البداية . . ولعل اخطر ما في صقر قدرته على استخدام عنصر المفاجأة والتحول من حمامة الى صقر في ومضة برق . . .

وبعدما مضى بعض زواره ، طلب مني مرافقته الى جناحه الخاص . .

كنت قد استطعت البقاء ٤٨ ساعة ، من غير ان اتناول السموم اياها من « غبار النجوم » المختلفة . . . وصحا رأسي . . . وصرت ارى بوضوح نسبي ، لا يفسده غير بقايا ذلك الضعف المتلف لـ « شمة » لعينة . وما كاد صقر يغلق على نفسه باب جناحه حتى انهار فوق سريره يئن متوجعاً . . . انتابته نوبة تقلصات في فخذيه وصار يتلوى ويئن . . . وينتفض ملسوعاً كأن ثمة من يخيفه او يجلده . . . جسست نبضه . . . بدا لي سريعاً وخشيت ان يموت . . . حدقت في عينيه المخيفتين وبدت لي حدقته ممتدة كعيني قطرة في الظلمة . . . ثم هاجته نوبة غثيان ، وعبثاً حاول النوم . . . ظل ساعات يتوجع ، ورفض ان ابلغ احداً من حاشيته عما دهاه ، فادعيت امام الحاحهم على رؤيته ان لديه ( زائرة ) ورفض ان اتصل بطبيب . . . انتابه رعب عجيب : سيقبله الطبيب ، او سيسوقه اصحابه الى المصح . . . ولا يريد ان يرى احداً من صحبه . . . انهم يتآمرون عليه ويريدون قتله كي لا يصير حاكماً لبلده كما هو مؤكد لعظيم مثله بالرغم من عدم قرابته للاسرة الحاكمة !! . . . إنه نابوليون سري ، يخبى مواهبه كي لا يُقتل . والده الشيخ صخر يغار منه ايضاً ويسعى لهلاكه . . . الكل يتآمر عليه ويريد مني ان اكتم ذلك وسيجزل لي العطاء ان لم اخنه وانفذ الخطة ! فأقسمت له على الكتمان . . . وظل يتلوى ويشتم مهتداً المتآمرين كلهم على عظمته ، حتى ادركه النوم برحمته . . . .

تأملته ، حطام شاب . . . وشاهدت فيه صورتي اذا استطاع ان يستولي نهائياً على روحي ويخضعني للملكة الثلجي المرعب . . .  
سعدت بنومه . . .

انها الليلة الاولى التي اخلو فيها الى نفسي . . . او بقاياها . . . يمزقني مصرع ابناء عمي . . .

افتقد اولادي . . . وطني . . .  
ترى ماذا تفعل كفى بنفسها ؟ . . . للاسف اعرف . . .  
وبحرية ، ماذا يفعلون بها ؟ . . . لست واثقاً . . .  
وبيروت . . . لقد فعلوا بنا ذلك ، ليسهلوا ما سيفعلونه بها . . . اولئك الحمقى ، البريء منهم والعميل . . .

هاجت التلفزيون ، وادرت زره . . . ظهر المذيع على الشاشة ، وحدق في وجهي قليلاً ثم قال لي : نم ايها المسكين . لقد فاتتك نشرة الاخبار ، لكن بيروت كانت تحترق الليلة

ايضاً . . .

- ارجوك ، الا تستطيع ان تقدمها ثانية من اجلي ؟ . .
- آسف يا صديقي . . . سأطرد من عملي . . .
- ارجوك . . . حاول . . .
- لا اقدر . . ولكن ، ماذا تفعل انت هنا ؟ لماذا لا تذهب الى بيروت ؟
- احقاً انك انت المذيع تخاطبني ؟ هل يحدث ذلك للجميع ؟ . . .
- نعم . . لكنهم لا يلحظونه . . لا ينصتون جيداً . . المَعذرة ، فأنا لا اقصد التدخل في شؤونك ، ولكن ماذا تفعل هنا ؟ . . .
- لا ادري يا صديقي . . . لم اعد ادري شيئاً . . .
- تذكر . . . كيف بدأ ذلك كله ؟
- كنا نتشاجر فيما بيننا ، وجاء العدو يلتهمنا جميعاً . .
- كأنك تبسط الامور . . . اعني انا مذيع الاخبار الدولية ، وألحظ علاقة ما بين ما كان يدور لديكم ، ومشية بلدان اخرى كبيرة . . .
- « دود الخلل منه وفيه » . . . لو لم تكن قلوبنا مملأى بالشغرات لما وجدوا منفذاً اليها . . .

- انت حزين . . . اذهب ونم . .
- لا . . ارجوك . . ابق حيث انت على الشاشة . . اني بحاجة للحوار مع انسان صا . . .

- لم اعد استطيع . . يجب ان اذهب . . .
- لا تدعني وحيداً . . . اريد ان اسر اليك بأشياء كثيرة . . .
- ادخل الي اذا شئت . . . اخط الى داخل العلبة وستحدث معاً حتى الصباح . . . بل حتى موعد البث التالي . . .
- سأفعل . . هات يدك . . . شكراً . . .
- يدك باردة . .
- وانت ايضاً . . .



## ( المدينة الخامسة )

كيف استيقظ صقر بكامل جبروته بعد تلك الليلة المريعة التشنجات والوجاع ؟

لا أدري . .

كأنه لم يقض الليل وهو يتعذب وآثار المخدر تجلده وابتلع الاقراص المهدئة وبيكي

كالطفل امامي . . .

نهض جباراً ومتسلطاً أكثر من اي يوم مضى ، كأنه يريد اذلالى مقابل شهادتي على ذله البارحة ! . . . ام ان المخدر يعمل هكذا ؟ وعندما كان يرتجف في الليلة السابقة ذعراً من محاولة اغتياله الاكيدة ، والمؤامرة التي تحاك ضده في الظلام من قبل اقرب الناس اليه ، وقد يكون والده الشيخ صخر خلفها غير من عظمتة ، نهض اليوم كأبي نابوليون في ذروة انتصاراته ، وابتلع بعضاً من اقراصه الملونة ، وشم وعطس وانتشى بمجده . . . وطار ، وطرنا معه ولكن في الطائرة .

قربني منه كي يتسنى له اذلالى : اما زلت مضرباً عن تناوله « مسحوق الفرح » ؟ لماذا يخيفك التخدير ؟ هل تظن انك كنت حقاً صاحباً من قبل ؟ هل تتوهمون في بيروت انكم جميعاً في حال من الصحو طوال هذه الاعوام ؟ . . . هل تظن شعبك الذي تتبجح به انت ومعلمك امير صاحباً ؟ . . ها هم يجتاحون وطنك ، ولم يرفع احد صوته ولا ( مسطرته ) في وجه اسرائيل . . . الكل مخدر . . . ولكن البركة في الشعراء والادباء الذين سيحولون هزيمتكم الى نصر . . من المنتصر ؟ طبعاً الجهة التي يقبض منها ( العبقري ) نقوداً او وجاهة او جوائز ادبية او رشوة بصورة ترجمات الى اللغات الحية . تعددت الصيغ والتمن واحد يزيد او ينقص . . وكل ذلك يمضي بانسجام داخل ماكينة التخدير ، و ( البرغي ) الصغير الذي يحاول ان يدور عكس الماكينة ينكسر . . . وستنكسر نهائياً اذا لم تتكيف مع آلة التخدير المنصوبة من « المحيط الى الخليج » تمشياً مع التعبير الذي تعشقونه . .

قلت له : ثمة اشياء مشتركة كثيرة بينك وبين رغيد الزهران . . . اعني ، اراؤكما

متشابهة . . .

- اكتشفنا ذلك معاً مؤخراً . والذي لم يعد يصلح لادارة اعماله . . . لا بد من دم

حديد كي يستمر العمل ونحصل على « صفقة المطار » . . .

- عمك الشيخ هلال يرفض . . .



- عمي كارثة في وجه التطور والعمران ، ولن تكون ازاحته صعبة بعد ان ارث اعمال  
ابي ...

- هل ستقتله ؟

- لا ... ستقوم بعض ( القوى التقدمية ) بذلك بالنيابة عنا ، ثم تصدر القيادة بياناً  
بالاستنكار والتنصل ، وملاحقة العناصر غير المنضبطة لمعاقة الجاني ، وتمر الايام ، ويساهم  
التخدير في النسيان ، وسأبني للمرحوم عمي هلال جامعاً عن روحه يحمل اسمه مقابل  
المطار ... التخدير يا احمق ... مئات الملايين حياتهم قائمة على التخدير منذ مئات  
السنين ... فلماذا لا تنام معهم وتريحهم وتستريح ... خذ « شمة » ... دمك ثقیل  
وانت صاح ...

ازحت بوجهي ، واشعلت لفافتي .

انتزعها صقر من فمي ، وقرب المنفضة لصق عيني واطفاها كما في حدقتي .. وقال  
بصوت بارد : اليوم سترى عباقرتك المثقفين في وصلة تخديرية .. وسيساركونك ما توهمه  
مبازل ايها الاحق الممل ... وصفق بيديه ، ايذاناً بانتهاء الحوار ... مشيراً الى حاشيته  
بالاقتراب . موسيقى . رقص . وتحولت الطائرة الى علبة نفور فيها عشرات الجرذان ..  
وفي اعماقي انكش جرد مذعوراً ، الى أية خيبة يذهب بي صقر ؟ التفت صوبي ، كأن  
المخدر يرهف بعض حواسه في لحظات نادرة تتحول الى قراءة افكار وقال : الم اعدك بأن  
احملك الى عجائب الدنيا السبع ؟ ...

\*\*\*

اذن لم يكن صقر يكذب حين قال بأنه سيمضي بي الى مهرجان شعري غنائي في احدى  
المدن الاوروبية مكرس لنصرة فلسطين ولبنان ... ولم يكن يكذب حين قال ان شاعرنا  
« ارشيد النعيماني » هو احد خطباء المهرجان ... وسيسهل معنا فيما بعد ...

لم اصدقه حتى ونحن في الدرب الى مبنى النشاطات في المدينة رقم ٥ . ارشيد ، الشاعر  
الكبير الجاد الملتزم ، هو صديق لشخص مثل صقر ؟ ما الذي يمكن ان يجمعهما ؟ والاول  
كرس شعره للثورة والفقراء والآخر كرس حياته لتدميرهما بعد امتصاص دمهما ؟ قال صقر في  
السيارة فجأة : والدي وعمي يساهمان في تمويل التنظيم الذي يمول ارشيد ايها الاحق . الا  
تعرف ان للشعراء الوطنيين ايضاً نفقات ؟ زوجات . عشيقات . مطلقات . ثياباً حريرية

فاخرة . فواتير فنادق . بارات . مستشفيات . هل تظنهم يبدعون مجاناً حاملين صليب الانسانية حفاة ؟ انتهى يا احق عصر الشعراء الجوالين والصعاليك . نحن الآن في صيف ١٩٨٢ ، لا سنة ٨٢ هجرية . الن تفهم ؟ . . .

لم افهم ولم اصدق حتى وصلنا الى المبنى الكبير . . . دخلنا وهو يجبرني من يدي ، تتبعنا حاشية غير نسائية باستثناء المثقفات من الغانيات اللواتي نشرن مرة ما في صحيفة مغمورة ونلن ألقاباً ادبية اثر ذلك وفقاً لمؤهلاتهن الجسدية . .

قلت له وانا اخشى ان يتعرف الي احد المثقفين او الكتاب الذين احترمهم وانا في صحبة صقر : لم اعد ارغب في الذهاب الى الندوة . . . .

الح : بل سندهب . سيفرح ارشيد بحضوري ، وسيبهجك ذلك . .  
 وحدث ما كنت اخشاه . فوجئت بالمفكر الوجدوي منير النودمي وعبثاً ادرت وجهي ، ولكن يبدو انه عرفني فبدل اتجاه خطاه قادماً نحوي بذراعين مفتوحتين . . وشعرت بالتحجل والعار . . سيراني مع صقر . . . وهتف « اهلاً اهلاً يا صديقي » وهو ما زال يتقدم نحوي بذراعين مفتوحتين ، ضم بهما صقر الى صدره ، ووقفت انا ذاهلاً وقد سقط فكي الأسفل المشدود حتى حداثتي . . وقدمه صقر الي ، فصافحني بوقار ولم اعرف ما اذا كان قد تذكرني ام لا . . انا الذي كنت افرض كتبه وامير وارشيد وغيرهم في واجهة مكتبي . . . وزارني فيها مرة أو ربما مرتين . .

ووصلنا الى ردهة كبيرة تنفتح على اربع قاعات شاسعة . . في الاولى كانت ثمة امرأة ضخمة الجثة تغني بصوت جميل حزين ، وآلاف المستمعين جالسين بلا كراس وقد تحولت اجسادهم الى ما يشبه المقاعد المتحجرة كأنهم هنا منذ عصور يكون ويصرخون آه . . وتمتزج آهاتهم بأهاتها ، وحين تلوّح المطربة بمنديلها وهي تنشد كمنوم مغناطيسي ، تستجيب مناديلهم والدموع تتسرب فوق العتبة كالجداول . . . وعلى مدخل القاعة علقت لوحة بخط قديم : غرفة الطرب . . .

في القاعة الثانية سمعت اصوات قرع الصنوج والطبول ، وشاهدت آلاف الرجال في ثياب ملونة يدورون ويدورون ويدورون حول انفسهم ويرددون عبارة واحدة وبين حين وآخر يشق احداهم ثوبه ويرتمي على الارض مغمى عليه ، والباقيون يتابعون مسيرتهم صوب كوكب الاغماء . . على باب القاعة لافتة : غرفة الدراويش . . .  
 في القاعة الثالثة شاهدت رجالاً ونساء يجلسون في صفوف على طول الجدران لمقاعد

اديرت ظهورها الى القاعة - يا للعجب - وصار وجه كل جالس فيها موجهاً صوب الجدار ، وقد ادار ظهره لمائدة شاسعة نصبت خلف الحضور موازية للجدران ، وكومت عليها الأوراق والابحاث ، وكل يخاطب نفسه او يقرع جداره ، وبعضهم رسم على الجدار نافذة او جبلاً او كهفاً او قصرأ او خيمة ، وكل يخاطب الجدار هامساً أو صارخاً ، ولا احد يلتفت صوب الآخر او يخاطبه ، وعلى باب القاعة لافتة : غرفة الدكاترة . . .

ووصلنا الى القاعة الرابعة ، وغرفة المهرجانات . . . حين دخلنا اليها ، كانت تموج ببضعة آلاف من العرب الذين يهدرون ويزفرون الغربية من صدورهم . . . وغمرني اطمئنان : لن يلحظني احد في صحبة صقر المخزية رغم اهتمام « النوادمي » بي . لقد ظنني بالتأكيد شخصاً آخر . لن يعرفني احد . . في الغربية ، لا احد يعرف الآخر ولا يذكره حتى ولو كان صديقه ، شرب في فناجين قهوته وعرض كتبه في واجهة مكتبته . . اجل في الغربية لا احد يعرف الا لقمته . . .

قدمني صقر الى بعض المتملقين هناك - الذين يحيطون به اينما ذهبنا مرحبين - على انني صديق صحافي . اجلسونا في الصفوف الأولى . خضر ارشيد شخصياً للترحاب بصقر واسفت لأنني كنت اعرض كتبه الى جانب مؤلفات امير في واجهة مكتبي . ثم قلت لنفسي : ربما كان المسكين لا يعرف حقيقته ويظنه شاباً متحمساً ، وامكانية نصير .

كلمات . كلمات . خطب . اشعار مغناة . عشق خطابي وتفرغ لغوي . . احمال من البلاغة والبيان مشحونة خصيصاً لعرب الغربية . . فيلى النسيان يا اخوان . تصفيق . هياج . طرب كما في حفلات ام كلثوم من زمان . تفرغ للشحنات العاطفية الوطنية . صفقوا كفارة عن المشاركة في القتال فالصلح سيد الاحكام ولكن مع العدو قبل الصديق ! ابرياء وانذال . جماهير طيبة وساذجة ، وسحرة وحواة امثال ارشيد يغنون ( المعاناة ) ويرقصونها للجماهير كأفيال السيرك .

ساعات محمومة ، تخللتها رسائل من بعض القادة السياسيين وبينهم اكثر من مسؤول عن غزو لبنان ممن كانت الهوة بين اهدافه المعلنة وسلوكه واعوانه احد اسباب الغربية التي نشأت مؤخراً بين الجماهير وبعض ( المقاتلين ) القتلة . . .

وارشيد ذكي ومبدع وهو بالتالي يعي دوره المسخر له في اللعبة ويرضى به . لماذا لا ينجل كما خجل ابي امام طفولتي عام ١٩٤٨ وخجلنا معاً عام ١٩٦٧ وانا الآن خجل امام اولادي في هذا الصيف المخزي لعام ١٩٨٢ ؟ . . تواريخ . . . تواريخ . . . تنهمر على

رأسي الكلمات ممزوجة باوراق روزنامة سوداء كالنعوات . . ويتابع ارشيد قراءة اشعاره وشاربه الكث الضخم يرتجف حبوراً بعدما انهالت الصرخات بطلب المزيد لتفريغ ( الشحنة ) حتى آخرها ، يعود بعدها كل الى وكره في الغربية ملتصقاً بأحزانه او امرأته اوذله او وحشته ، وليتدفق الشعر الآن من فم ارشيد مع التصفيق ، وليذهب آلاف الجرحى والمشردين الى بيوت الشعر الموزونة المقفاة ( او المنشورة ) للاقامة على شاطئ البحر الكامل او البسيط . . هذا يوسد رأسه للرجز ، وهذا يفترش الطباقي ويلتحف بالجناس ويطعم اولاده السجع ، عاش الشعر والغزو الشعري المضاد . . تخدروا يا اولاد وعودوا الى ثقبوكم في الغربية . . .

احسست انني اختنق . . .

انزلق تاريخي امام عيني . . حياة تافهة نذرتها للصدق والحق . . . حياة غدر بها بعض الذين ادعوا النطق باسمها ، وركبوا على اكتافها . . .

شعرت فجأة بارهاق في الكتفين . . . وعيت فجأة ان ارشيد وامثاله يقطنون فوق كتفي وسواي ، ونحن نركض بهم لاحقين بلقمتنا وهم مسترخون ، بعضهم يكتب شعراً ويعاني ، بينما انا اعاني سوط جلادي واقبيته وكهوفه ، وهم لا يقولون شيئاً عن كل ما يعرفونه ، لكنهم يكتبون ( البعض ) الذي لا يغضب مولا هم الجالس فوق قمة رأسي . . . تذكرت ابنتي وداد الممزقة ، وقبل ان تتذكر دموعي دربها الى السواقي الجافة انتهى الحفل ، يحيط بنا ( النجوم ) ، وارشيد يخصني بنص قصيدته ما دمت صديقاً مرافقاً لصقر ! كثيرون يحذون حذوه . يعطوني قصائد خطوها في الغربية ، تتضمن حيناً للوطن منظوماً مقفى او شجياً للغزو (طبخوه) بسرعة، او كليشيهات كتبت بحذق كي يصرخ المستمعون الآلاف اربع ساعات واكثر ويهتفون باسم فلسطين ولبنان وغير ذلك . . . ادوا قسطهم للعلی فإلى البارات . . قذفوني بنصوص معظمها متشابه ، وكلماتها فقدت مغزاها ودلالاتها ، وغداً تصفق الصحف الموالية . . ادوا قسطهم للمجد والشهرة والويل لي وللفقراء امثالي الذين لا يعرفون ما يدور في الكواليس . .

بعد الندوة جاءت مرحلة الكواليس . . . تخلصوا من كابوسهم الوظيفي ، ومن آثار ( الجريمة ) فحملوني اشعارهم واوراقهم واحاطوا بصقر ، وخرجنا الى السيارات فالحانات كلها التي تمتد بين المتدي والفندق كأنها محطات ارغامية ، و « شمة » لهذا ، ابرة مورفين لذلك ، الأخ لا يدخن الا الحشيشة ، والآخر يفضل الكحول . . والكل لا يرفض النساء ،

والبعض (يفضلهم) مسترجلات... وجناحنا في فندق «النوفابورك» يتسع لذلك كله... فقد حجزنا الطابق بأكمله لصقر وحاشيته وضيوفه من العباقرة النضاليين... وصقر تنهد بارتياح حين حط رحاله في غرفة (الوندر لاند سويت) - اي جناح ارض العجائب - المخملي الجدران والسقف والموكيت وكلها ارجواني امبراطوري، وتمدد على فراشه... والشاعر ارشيد مارس (عفويته) الفنية، وخلع بعض ثيابه وغطس في البانيو الملاصق للفراش الذي يهبط اليه المرء على سلم له ثلاث درجات، ليستحم محاطاً بالثراء والاهبة والمعجبين والنساء. غادرت (الوندر لاند سويت) الى غرفتي وانا احمل اكوام القصائد والخطب بين يدي... وقفت على الشرفة اتنفس الهواء النقي، وشعرت برعدة برد قارسة تسري حتى قاع عظامي رغم حرارة الطقس و (الكانيكول) الذي ما زال يحتاج القارة... صرت ارتجف برداً، عارياً ووحيداً في خلاء التاريخ... جلست على ارض الشرفة! اشعلت القصائد والخطب بعود من كبريت بعدما كومتها على الأرض وصرت اتدفأ بنارها... طالت جلستي ورأسي متحجر، وافكاري ميتة مشتتة ولا وعاء يحتويوني... عدت طفلاً الى حضن امي وهبت رائحتها المألوفة العتيقة، وبكيت طويلاً بصمت وبلا دموع. حين عدت الى غرفتي، شاهدت الضوء الأحمر للهاتف يومض. رفعت السماعة، فقالت العاملة ان (الوندر لاند سويت) طلبني ويريد ان اتصل به فور عودتي. لم افعل. اريد العودة الى الزمان السابق لمعرفتي بهم... ليتني لم ارحم ولم اعرفهم ولم ار الوجه الآخر لكوابيس وطني، في الغربة.



### ( المدينة السادسة )

تكريماً لصقر، رافقنا ارشيد الى المدينة السادسة، عاصمة اوروبية طالما حلمت بزيارة متاحفها ومكتباتها. زود صقر نفسه بشمة، شاركه اياها ارشيد، وللمرة الاولى لم يحاول اقساري على

غريب هذا السيرك ، وحزين بعض الشيء . لم ار له مثيلاً في قارات اخرى . . .  
 ازيج نظراتي الى ركن آخر من السيرك ارى اثنين وعشرين رجلاً ، سجناء في قفص ينام  
 في ركنه ضبع هائل الضخامة والبشاعة ، وهم يتشاجرون فيما بينهم على زعامة القفص ،  
 وكلما استيقظ الضبع بين عقد وآخر من الزمان ينقض عليهم كي يلتهم احدهم ، ثم يعود  
 الى ما يتوهمونه نوماً ، وهو يهضم ضحيته لتزداد قوته حين يلتهم الضحية الآتية او بعض  
 جسدها . . وهم يتابعون الشجار فيما بينهم على زعامة القفص ، وحين يستنكف احدهم  
 عن الشجار ويحاول لفت نظرهم الى الضبع ، يتفقون ضده ويسخرون منه ، وباستفزازهم  
 له واهاناتهم ينسونه الضبع حين يعاديه في ردة فعل عفوية ، وكلما صرخ بهم :  
 الضبع . . . عاودوا استدراجه الى الدفاع عن نفسه . . . او اتفقوا مع ضبع آخر من خارج  
 القفص ، وحشروه بين القضبان في زاوية بحيث تطاله مخالباً ذلك الضبع الآخر ،  
 وتجرحه ، ويسيل دمه مهدوراً في القفص نبعاً من الدم ، بينما يتابعون شجارهم على زعامة  
 القفص وسط مستنقع الدم . ثمة رجل منهم كاد ينجز الضبع التهامه وآخر ينزف ، وثالث  
 محشور في زاوية القفص وضبع آخر يجرحه عبر القضبان .

\*\*\*

لم ار سيركاً كهذا من قبل . تَلَقَّتْ حولي فوجدت صقر متابعاً شخيره ، وارشيد طرباً  
 لاشعاره ، والحاشية تتابع حياتها اليومية وتتأهب وتلقي بين الحين والآخر نظرات ضجرة  
 على برنامج السيرك . تأملت بقية المتفرجين ، فوجدت معظمهم نائماً او مشغولاً بأموره  
 الخاصة : هذا يخلق ذقنه وهمه ايجاد مكان يدق فيه مسماره بحيث يرى وجهه في المراة ، واذا  
 تصادف ودق المسمار في كرسي جاره فإن الشجار ينشب ويقتتلون دون ان يتدخل رجال  
 الشرطة الذين يحيطون بالناس كأدلاء سياحيين ولا يتدخلون لمنع الاعتداء او الشخير . . .  
 هذا انجز حلاقة ذقنه ، وآخر تنجب زوجته طفلاً وثالث يحمل امه المريضة على ظهره  
 الى ساحر القرية ورابع يغني وخامس يحاضر ضد حبوب منع الحمل وسادس يبيع الأدوات  
 الكهربائية المنزلية . . . وعالم من الفوضى اليومية والدسائس الصغيرة والشجارات والأكل  
 والنوم والافراح المتواضعة والاحزان الصغيرة والاحلام الهشة . .  
 ياله من سيرك . . . المتفرج فيه يثير الفضول اكثر من اللاعب . . . ولاحظت ان رقعة  
 السيرك نفسها تتحرك ببطء وتدور حول نفسها ، بحيث يتسنى للمشاهد رؤية كل شيء

متمتعاً (بالتنبلة) ، وغير مضطر الى ازاحة رأسه ولو في التفاتة قد تفسد نومه . . . من الواضح ان النوم هو الوضع المثالي للمتفرج . . .

امامي الآن مجموعة كبيرة من اللاعبين في قفص سقفه من الحديد الصلب . . . السقف ينخفض ببطء وتدرجياً داخل القفص . اللاعبون ممدودون على ارض القفص يغطون في نوم عميق .

ووعيت في ومضة عين : اذا استمر السقف في الانخفاض بالسرعة ذاتها ، البطیئة ولكن المستمرة ، التي قد لا تلاحظها العين المجردة للوهلة الاولى لكن اي قياس علمي بسيط يؤكدها ، فسيطحن سقف القفص كل من فيه . . .

ارى بعض اللاعبين قد استيقظ ، وعبثاً يوقظ الباقين وينبههم الى هبوط سقف القفص المستمر . . . ينصتون وهم يتابعون التثاؤب والشخير ، ويتحركون فقط للنوم على الجانب الآخر لجسدهم ، واذا اصر احدهم على إيقاظ الباقين سخروا من تشاؤمه وطلبوا منه العودة الى النوم . . .

ولا ادري لماذا صرخت بشدة محذراً ، وضممت صوتي الى صوت احدهم . . . منذ زمن ما كنت قد كففت عن تنفيذ وصية والدي القروي التي دفعت ثمنها غالباً ( لا تقل غير الحق يا ابني . قل الصدق دائماً مهما كان وسيكون ) . ولم سمعني احد في القفص لكن احد رجال الشرطة جاء يهددني هامساً : اصول السيرك تمنع اقلاق الراحة . اذا سمعت صوتك ثانية طردتك من السيرك الى الشارع . . . ولن يكون في مقدورك العودة ثانية . . .

ووعيت ان لرجال الشرطة مهمتهم وانا الذي توهمتهم في البداية لا يفعلون شيئاً . . . يبدو ان الجريمة الوحيدة هنا ليست القتل او عرقلة النظام بل عرقلة نوم النيام وقول الحق بصوت عال . . . يا له من سيرك عجيب غريب لم ارقط ما هو اطرف منه . . . رغم كل شيء ، تسللت بعد قليل نحو رجال القفص ، وقبل ان يلحظني رجل الشرطة همست في أذن احدهم بعدما ايقظته : السقف الحديدي يكاد يسحقكم يا سيدي . هلا استيقظتم وحاولتم خلع احد القضبان ومغادرته . . . اذا تعاونتم جميعاً ، نجحتم في تحطيم القضبان ببسر . . . ابتسم في وجهي ساخراً لسذاجتي وقال : اطمئن يا ابني . . . لن يصيبنا الا المكتوب . . . وهز معظم الباقين رؤوسهم وعادوا الى نومهم السعيد . . .

وجرني رجل الشرطة من رقبي واعادني الى موضعي وقال : التحدث مع اللاعبين

ذلك . . . شربت الشاي بصمت وقلت لنفسي : ان قلوب الناس جميعاً لا يمكن ان تخلو من الرحمة .

الشاي مر . فمي مر . مصرع اولاد عمي مر ، الشهيد منها والقَتيل . ماذا افعل هنا . الشاي يهبط في معدتي ثقيلًا ، ثم تتوالى انفجارات غامضة داخل دوري الدموية ، وينبت بركان داخل رأسي ، وقلبي يضرب جدران صدري بشدة محاولاً الهرب . . . وارشيد وصقر ينفجران ضاحكين : هل اعجبك طعم الكوكاكين في الشاي ؟ . . . لا أدري كيف ظللت صامتاً . تابع صقر : دسسنه في شرابك ، ولعلك تفضله هكذا ! . . . هل اعجبك ؟ قال ارشيد : سيعجبك السيرك العربي في هذه المدينة . . . الناس تزدهم كل يوم لمشاهدته ، يجب الا يفوتك . . .

دخلنا في موكب كبير الى « السيرك العربي » . لم اكن اعرف ان لدينا مهارات في هذا الحقل ايضاً . لقد شاهدت مرة السيرك الاميركي في بيروت والسيرك الروسي ايضاً في مدينة ما ، لكنني لم اكن اعرف ان العرب اسسوا السيرك الخاص بهم ايضاً . . . رأسي بالون حار الأنواء ، يكاد يطير عني ، ولو وجدت حبلاً لربطته الى عنقي . اللعنة عليهما ، لقد دسا بالتأكيد كمية كبيرة من المخدر في الشاي ، لكنها لن يتورطا بقتلي . . . وامامي ساعات من العذاب ريثما يزول عني مفعوله ، وايام اوجاع ريثما تغادر جسدي امكانية الادمان . . . الادمان . . . ادمان ماذا ؟ لم اعد قادراً على التركيز . افرح لأن احدهم يقدم لي مقعداً ، والاضواء تطفأ والعرض يبدأ في رقعة شاسعة من الأرض كأنها تغطي بعض قارتين من الماء الى الماء . . . ياله من عرض مبتكر ، ففي كل ركن من السيرك الكبير يدور مشهد مختلف ، وانت تختار ما تحب ان تراه . . . تختلط الصور داخل رأسي ، ويتراكم بعضها فوق بعض ، واحاول التركيز بصعوبة على المشاهد . . . عبثاً . . . اروح في اغماءة ثم اصحو . أغرق وأطفو . . . صقر يشخر نائماً وقد اسند رأسه الى كتف ارشيد ، وارشيد يكتب في الظلام احدى قصائده . . . وهو يملئها على نفسه منتشياً بسماع صوته . عيناه مغمضتان لا يرى شيئاً من السيرك . لماذا اصطحبنا الى هنا ؟ ليراه الناس هنا وليقال انه يقوم بواجبه الوطني كشاعر وطني ؟ . . . ربما . هذا ليس شأني . . . ما دمت هنا ، فلاحاول التركيز على ما يدور امامي . . .

ارى عدداً من الرجال يركبون دراجات هوائية ( بسكليت ) ، بعدما ثبتوها الى الأرض ومزقوا اطاراتها ، يدورون باقدامهم فوقها بنشاط او كسل ، لكن احداً لا يتحرك من



موضعه بعدما ثبت دراجته الى الأرض بنفسه والتصق بها . . . اشعر بأن الدهور تتعاقب عليهم وتمر على المشهد بسرعة ، وكلما شاخ احدهم وسقط حل ابناءؤه واحفاده محله ، واذا حاول احد الشبان الانطلاق بدراجته بعيداً ، منعه من ذلك رجال يحملون السياط وحاولوا ان يقنعوه بفصائل تثبيتها الى الأرض واذا رفض ارغموه على ان يحذو حذو آبائه واجداده ، لا يبدل موقعه ، لا يرفع بصره صوب الكواكب والنجوم ، يثقب اطاراته بنفسه ، يثبت الدراجة على الأرض ، ويركبها ، وبهمة فائقة يدير قدميه على ( بدالاتها ) ، حتى يشيخ ويموت ويتحول الى هيكل عظمي ويسقط على الارض رماداً فيحل الحفيد محله .

\*\*\*

ارى في ركن آخر ماكينة ضخمة جداً يقوم على خدمتها الملايين من لاعبي السيرك ، اتبين فيها ساعة عربية قديمة ، لعلها الساعة التي اهداها هارون الرشيد ذات يوم الى شارلمان وادهش بها الغرب . لكن شيئاً عجيباً يحدث ، فالملايين القائمة على خدمتها تهول بين الآلات دوغماً نظام وبعضهم يصطدم بالآخر ويتعثر به ويسقطون على الأرض بين قتيل ومغمى عليه ، ويتشاجرون ويضربون بعضهم بعضاً بمفصلات الماكينة ويحشر البعض رؤوس بني قومهم وسط الاسطوانات المسننة ، ومن تبقى من العاملين ، كل يتبع في عمله ثغماً مختلفاً وفقاً لأوامر رئيس ورشته . ومن الواضح ان رؤساء الورشات يكرهون بعضهم بعضاً ولا يخفون ذلك إذ يتبادلون الشتائم بواسطة فريق من الرجال كرس لتكون مهمته خاصة بذلك ، واحياناً يعلو الشجار بين موظفي التشاتم فيبدو كعواء الذئاب وكلما ارتفع صوت العواء تدفق الذهب من يد رئيس الورشة على ذئبه الخاص المبدع النباح . . . انتزعت نظراتي عن هذه الفوضى في ادارة الساعة حيث لا نظام ولا تخطيط ، وكل يلغي بعمله العشوائي ما سبق وحققه آخر ، وقد تداخلت المسننات وكادت تتكسر وتطلعت الى الساعة ففوجئت بأن عقاربها تمشي الى الوراء حيناً ، وتتوقف احياناً ، واذا تحركت الى الامام مرة واحدة لثانية واحدة ، قام هياج عظيم وهرج ومرج وجاء مبعوثون من خارج السيرك العربي حاملين الخطط والنصائح وناثرين ( الخبراء ) لاصلاح عجلة العمل . . . وسرعان ما تتوقف عقارب الساعة او تتابع دورانها الى الوراء . . .

\*\*\*

ممنوع . لولم تكن في رفقة صقر باشا وارشيد العبقري لطردتك .

\*\*\*

هذه مجموعة من النساء اللاعبات واطفالهن داخل قفص . . . مشغولات بفعالياتهن المألوفة : هذه استسلمت للماشطة ، واخرى تستحم وثالثة تطبخ ورابعة تغسل ثياب الاطفال . . وعجوز تعد الطعام واخرى تنشر الغسيل على حبال ربطت بين قضبان القفص ( السيركي ) المعد اصلاً لحفظ حيوانات السيرك ومنعها من الهرب . . . يتوسط القفص برميل كبير فيه ماء الحياة ، وفوق الرمل الذي يغطي الارض حولهن ثمة فتيل مشتعل ، ببطء ولكن باستمرار ، لاحقته بنظري فشاهدته مربوطاً بحزمة من الديناميت ستنفجر لا محالة متى وصلتها النار . . .

وتسللت اليهن وقلت لاقربهن الي : الا ترين حزمة المتفجرات ؟  
قالت : وماذا تريدني ان افعل ؟ . . .

- اسكبي الماء على الديناميت . . .

- « ماء الحياة » الخاص بالنساء محرم استعماله لغير ما الفناه . . .

- حسناً . لن اناقش المحرمات فالوقت ضيق ، وقد يعاجلني رجل الشرطة بطردي . .

لماذا لا تفسن الفتيل باقدامكن . . انها قوية كأقدام الرجال ، في حالة الخوف والحرص على الحياة على الأقل . . .

- الخوف ؟ من اي شيء ؟ . . .

- من الانفجار . . .

- اي انفجار ؟ . .

سألني وهي ما تزال منكبة على تنظيف ارض القفص بهمة . .

- الفتيل المشتعل . . . الديناميت . .

- لم نألفه التعامل مع هذه الأمور . . . اننا سيدات طيبات لا نتدخل فيما لا يعيننا . . .

فلماذا تتدخل فيما لا يخصك من شؤون ؟

- كل ما يدور هنا يخصني . . . ويخصك بمقدار متساو ، الا تفهمين . . .

- عد الى مقاعد المتفرجين والا ناديت الشرطي !! . .

- انت تنادين الشرطي ، ليحامي انتحارك بالغباء . . . ومصرع اطفالك ؟ . . ياله من

سيرك عجيب .

رحت في غيبوبة . . لعلها طالت اعواماً او قروناً او لحظات . . لا ادري . . لكن السيرك العربي في تلك العاصمة الأوروبية كان ما يزال يقدم استعراضه ، والزحام على اشدّه ، وكل شيء على حاله . . . واللاعبون يتابعون ادوارهم ، ومن يسقط يحل محله فريق جديد ، فالنساء يلدن في السيرك كالأرانب ، والعنصر البشري لا ينقص اي مدير من مدرائه . .

امامي الآن قفص شاسع يضم قرى جائعة من الفقراء . . . يصرخون جوعاً . . . وخلف القضبان جلس اثرياء في ثياب تاريخية كأنها عثمانية او هي اعتق من ذلك . . . وقد نصبت الموائد أمامهم وهم يلتهمون اكдاس الطعام ولا يتوقفون لحظة عن الأكل . . . يحيط بهم قفص قضبان من الفضة المكهربة ، وبابه من الذهب الصلد . . . يتابعون طقوس الشراة دوغما توقف ، وخواتمهم الثمينة المجوهرات ملوثة بالدهن والشحم والمرق ، ولا يلحظ احد جياح القفص الآخر ولا يسمعون صراخهم ، وفي الخارج رجال يرتدون ثياب الثوار ويشبهون الهراوات والفؤوس والمناجل وسكاكين (المقاصل) ، يصرخون : الموت للخونة . . . الثورة لانقاذ الجماهير الكادحة والفقراء . . . وفقراء القفص يهللون لهم . . . و(الثوار) القادمون لانقاذهم يهزون الباب الذهبي كالزلازل . . . وتعاطفت معهم وكدت اصرخ فرحاً حين تحطم الباب الذهبي ودخل الثوار . . . وهلل الفقراء من خلف جوعهم وامراضهم وحديد قفصهم وكدت اهلل معهم لكنني خفت ان يطردني الشرطي . . . وقتل الثوار تلك الجثث السمينة التي لم تكف عن الأكل قروناً حتى صار انتزاعها من داخل الكراسي صعباً ، وتم رميها على الأرض والتمثيل بجثثها والفقراء يصرخون : اطعمونا اولاً ثم الانتقام . . . لكن الثوار لم ينصتوا اليهم ، وبدوا وكأنهم نسوهم اذ انشغلوا بارتداء الثياب الحريرية الفاخرة لقتلاهم . . . وهكذا بعدما ارتدوا ثيابهم ، جلسوا في كراسيهم وكأنما مسهم سحر لحظة ملاسة «الكراسي» اذ صاروا يلتهمون الطعام بشراهة اكبر بسبب جوعهم الزمني الاطول عمراً ، وانشغلوا بالأكل والتزين بالمجوهرات عن كل شيء ، حتى بدوا وكأنهم نسوا الفقراء ، ولم تعد صرخاتهم تصل الى آذانهم كأنها من طبقة صوتية لم تعد تلتقطها موجاتهم الروحية ، وانتقلوا من «الثورة» الى «الثروة» ، وذهلت وانا ارقب الأشياء قد عادت تماماً كما كانت . . . كل ما في الامر ان ثرياً حل محله آخر كان فقيراً ، وبعضهم يعمل على ترميم الباب الذهبي العتيق الذي هدموه حين دخلوا . . . واللعبة مستمرة على حالها . . .

هذه (النمرة) الاخيرة عقدت لساني ، ولم ار في السيرك ما هو (اروع) منها . . . فقررت الخروج الى الكواليس ، لادخن لفافة واستريح قليلا قبل متابعة البرنامج . . . عند باب الخروج شاهدت رجلاً يسقط من عل عن خشبة قافزاً الى بركة ماء مرسومة على الأرض كالسراب الأزرق ، ويتمزق جسده خطاماً على رخامها الصلد ، ولا يبقى منه غير ثوب الاستحمام الأحمر المستورد . وشاهدت آخر وقد بدأ بتسلق السلم وهو في دربه الى الخشبة ليفعل ما فعل صاحبه ، فظننته لم يره وصرخت به : توقف . : لا ترى ما حل بزميلك ؟ هذا سراب وليس ماء . . البركة مرسومة . قال لي غاضباً : لا تهدر وقتي يا خليل . . ما شأني به ؟ إنه ليس من ديني . . .

— القضية لا علاقة لها بالدين . . . الا ترى انكم تقفزون الى الموت ؟ سيحدث لك الشيء ذاته . . .

— لماذا ؟ ما علاقة ما حدث له بما سيحدث لي ؟

— القفزة واحدة والأرض واحدة ايها الأحق . . .

— سامتلكها واصفي حسابي . . .

— وحدة الموت سيمتلككم جميعاً . . الانتحار ليس انتصاراً . . . لماذا لا تتحاورون

حول المشكلة ، وتفاهمون ضد الذي نصب لكم هذا الشرك - السراب ؟ . .

— ابتعد عن دربنا ايها الاحق . . الا ترى انك تعيق المسيرة ؟ . .

وفوجئت بصف طويل من الرجال يقتتل ويتزاحم للصعود على السلم والقفز . . .

ومضيت الى شأني . . الى خارج السيرك ، اتمشى بين خيامه وادخن لفافتي وقد اخذ مني

العجب كل مأخذ . . .

وسمعت همساً داخل خيمة صغيرة . اقتربت فشاهدت داخلها بعض الاطفال يلعبون

بأدوات علمية خلسة . . قال احدهم : « سنهاجر الآن . لماذا لا تأتي معنا . . إذا لم نهرب

من السيرك قتلونا ، سيتم ارغامنا على الدخول في تلك الالعب المتخلفة . . او قتلنا حين

نكبر » . . ووافقه رفاقه . . قال الصغير الذي يحاولون اقناعه : يجب ان نبقي ، ونعلم اهلنا

معارفنا التي توصلنا اليها بينما هم يلهون بالأعيهم . . يجب ان نساعدهم . .

— انهم يرفضون ذلك . انت تعرف ان كل طفل يرفض الاشتراك في الألعاب حين يكبر

يقتل او ينبد . . تعال نهاجر فأرض الله واسعة ، وثمة بلدان ترحب بمعارفنا واختراعاتنا . .

- اذهبوا بدوني . . قلبي لا يطاوعني على الحياة بعيداً عن السيرك رغم فظايعاته . هيا اذهبوا .
- ودفن الصبي وجهه في احد الانابيب فيما تسلل الآخرون بصمت . . . . . وحين تيقن من ذهابهم انتحب . اقتربت منه وقلت : معذرة يا صديقي ، لكنني سمعت ما حدث . . .
- هل انت من رجال الشرطة ؟
- هل ابدو كذلك ؟
- لا اظن .
- احسنت . انهم يكرهونني على اية حال . . .
- يكرهون كل من لا يشارك في الألعاب او النوم . . .
- هل تلعبون لعبة ما ، رفاقك وانت ؟
- نحن علماء ، مخترعون . لا احد يثق بنا لأنهم يتوهموننا صغاراً . نبدو كذلك لأن عضلاتنا لا تنمو . . شيء ما في ماء هذا السيرك يحول الأعمال العقلية الى عاهة جسدية تحرم صاحبها القوة وبالتالي امكانية الاستمرار ، وتسهل ابادته او اعادته الى الطريق (القوية) .
- تعني انك لست طفلاً ، لكنك تبدو كذلك ؟
- تقريباً . . هذا امر يصعب شرحه الآن . .
- ما هو اختراعك ؟
- بسيط جداً . اكتشفت سائلاً اذا شربه الانسان ، حدث تبدل في خلاياه بحيث يخترق حاجز الزمن . . . ما يدور بالضبط هو ان (الكروموزومات) يعاد تشكيلها في تقمصات متلاحقة بأسرع من الضوء ، وهكذا تتحرك داخل الزمن بحرية . . هل تفهمني . . .
- ليس بالضبط . . .
- اي انتقال اسرع من الضوء يجعلك تخترق حاجز الزمن وتنقل بين العصور ، وإذا استطعت التحكم في هذا التنقل تستطيع ان تسافر في الزمن الى اي عصر تختاره . . . وهذا ما نجحت به . . والصيغة ايسر مما تتصور . . دعني اشرح لك . .
- لن افهم شيئاً . .
- ربما تصير اقدر على الفهم لو جربت . . هل تحب ان تجرب ؟ . .
- قلت له مشفقاً وهو يناولني كأساً مرقمة المحتويات بخطوط عرضانية فيها محلول له لون

شفاف مضيء كأفق فجرى : سأجرب يا صغيرى . .  
 — حسناً . . . الى اي عصر تريد الذهاب؟  
 — اريد ان اكون اميراً عربياً في اسبانيا ايام عز العرب وعظمتهم وفتوحاتهم . . . اي  
 قبل افتتاح هذا السيرك . .  
 — حسناً . . . تجرّع من المحلول حتى هذه الاشارة . . . لا تزد نقطة واحدة ولا  
 تنقصها . . ستبقى في ذلك العصر ستين ثانية . دقيقة واحدة لا تزيد ولا تنقص ، نعاود  
 حوارنا بعدها ثانية . . .  
 وفعلت كما قال لي الطفل . . . وكم كانت دهشتي حين وجدتني ارتدي ثياب امير  
 عربي ، وامشي في دروب كلها عمران وخير وبركة والناس يفورون حولي في ايقاع  
 سعيد . . . ولم تدهشني ثيابي او العصر الذي تسللت اليه او مشهد القصور والجوامع بقدر ما  
 ادهشني احساسى الداخلى الذي لم اذقه مرة في حياتي : احساسى بأن الأرض صلبة تحت  
 قدمي . بانني لست خائفاً ولا ذليلاً ، ولا محاصراً ولا مقموعاً . . اني حر ، حر ، حر . . .  
 هذا الشعور لم اذقه من قبل . . على ضوءه بدت زرقة السماء شيئاً آخر . . الورد ،  
 الشمس ، ضحكات الاطفال ، طيران العصافير ، خضرة الاشجار ، لكل شيء مذاقه  
 الآخر . . . مذاق لم اعرفه قط . . . من اعماقي يتدفق نهر من الطمأنينة والصلابة والعزم  
 والثقة بالنفس . . . آه ما اعظم ان يتحسس المرء انسانيته وحرته بعيداً عن عقد الذعر او  
 الشعور بالذنب . . . بعيداً عن دور القاتل او الضحية . . . كم انا سعيد . . . سيغمى علي  
 انتعاشاً وفرحاً . . .  
 . . . وجدت نفسي من جديد في الخيمة داخل كواليس السيرك ، والطفل مشنوقاً  
 بسوط احد الحراس ، وقد زجرني صارخاً : كيف دخلت الى هنا . . اخرج وعد الى مقعدك  
 بين المتفرجين . . . (إذن لم يكن الطفل الرجل كاذباً ؟ ) . . .  
 حين عدت ، وجدت العرض قد انتهى ، وصقر يتأهب للرحيل . . وأرشيد يصيح  
 بسعادة : لقد انجزت كتابة قصيدة خارقة . . سيسكر الشعب العربي بها . . . هل تريد  
 الاستئثار بها يا خليل ونشرها في مجلتك ؟ . . .  
 قال احد الحاشية : يجب ان نسارع في الخروج قبل بداية العرض التالي ، فالعروض في  
 الحقيقة لا تتوقف تماماً ، واغلاق راحة السيرك ليست في صالحنا . . .



## ( المدينة السابعة )

بعد لحظة النشوة التي عشتها كأمر عربي حر في اسبانيا لم اعد اطبق شيئاً يذلني اياً كانت الاسباب والتبريرات . . . لم اعد اطبق ذلاً لاسباب تكتيكية او استراتيجية أو عائلية أو مرحلية إلى آخر ما اخترعته لغة الذل المتعفنة التي لم نعد نلاحظ بشاعتها لكثرة ما تعايشنا معها ، تحت شعار الصبر مرة ، والتعقل مرات . . .

لقد ذقت طعم الحرية لثوان ، فهان في فمي طعم الموت اذا حرمت منها . . .  
لقد تبدل كل شيء منذ وقفت على قمة العالم حراً وسيداً وقوياً وخالياً من مشاعر الذنب او العار او الجبن . . .

اعيدوا الي لحظة الحرية تلك ، وخذوا ما تبقى من حياتي الفانية . . .  
لم احاول شرح شيء لصقر ، او حتى لأرشيد الذي ودعنا غير مأسوف عليه . . . انهم لن يصدقوا ما حدث لي في السيرك العربي ، بل انهم انكروا اننا ذهبنا اصلاً الى اي سيرك . . .  
وادعيا انني رحت في غيبوبة اثر المخدر الذي دساه لي ، وكنت اهلوس وخافا ان اموت كي لا اسبب لهم المتاعب . . . وها نحن في لندن . . . ومن المطار ، الى دكان المجوهرات حيث اشترى صقر عقدين ثمينين من الماس والفيروز البديع الزرقة وسألني : الا يذكرك الفيروز بلون عيني زوجتك الجميلة كوكو؟

ولم اجب . . .  
نحن في لندن . . . والساعات تتوالى ، ولم نطأ بأقدامنا المتحف البريطاني . . . ولا ( التيت غاليري ) . . . ولا ( الناشينال غاليري ) ولا أي مكان من تلك التي طالما حلمت بلامستها .

مع صقر لا ألامس الا بشاعاتهم التي تروق له ، فيما يتحاشى ملامسة حضارتهم .  
لا شيء غير جناحنا في الفندق الفاخر المطل على ( الهايدبارك ) ، وقصره الريميني في ضاحية ونتورث ، وحاشيته المهذار ورجال اعماله ، وطاولة الميسر في «كروك فورد» بحي «المالي فير» . . .

ليس معقولاً أن لا أرى من معالم لندن غير طاولة ميسر . . . كنت قد سمعت أن ملهى (البلاي بوي) قد اغلق ابوابه ، واذا بملاهي «البلاي بويز» - بالجملة - تملأ الجزء السياحي من المدينة ومعظمها مكرس لاسعاد اثريائنا . . . صرت اتلهف لقدم «ليلة المليون» لأن ذلك

يعني عودتنا ، واستعادة جواز سفري وحريتي من أسر صقر ومخدره . . .  
 صقري ربح الليلة . . . على طاولة الميسر . . صحيح انه خسر حين حاول ارغامي على  
 شم (الثلج) أمام عينيه ، فعاودتني ذكرى ذلك الاحساس بفوران محموم متوهج والنذل  
 الذي يعقب ذلك ، لكنه ربح على طاولة الميسر ربح وريح وريح . . . اكداس من القطع  
 الملونة المختلفة الاحجام طلب مني تبديلها له ، فعدت اليه وأنا أجمل ثروة من النقود تكفي  
 اقسطاً لمدارس أولادي وأولاد الحي حتى تخرجهم الجامعي . . غادرنا الكازينو والسائق  
 يحمل له حقيبة ثقيلة كلها اوراق نقدية ينوء بها . . . لم ار شيئاً كهذا من قبل . بدا لا مبالياً  
 بالمال ، وودع حاشيته كمن يصرف خدماً ، وقال لي اننا سنذهب الى زيارة يتوج بها ارباح  
 الليلة ، وانتصاراتها .

بدت الزيارة في البداية عملاً لطيفاً . . زيارة عائلية لاسرة لبنانية . ولكن صقر لا يمكن  
 ان يأتي (فضيلة) كهذه . جلست اترقب . الزوج كهل ، وزوجته لا تخلو من جمال ، وقلت  
 لنفسي : لعل صقر مثل أي شاب صغير تجتذبه احياناً النساء الناضجات . . . ام تراه يفكر  
 بصفقة عمل مع اللبناني المقيم في لندن ؟ البيت فخم والاثاث فاخر ، ولكن ما الذي جذب  
 صقر الى هنا ، ولماذا يقدم احد العقدين الثمينين هدية للأم التي تورد وجهها فرحاً وهو يحيط  
 به عنقها ؟ دخلت صبية - طفلة ، باهرة الحسن الشيطاني ، تلتهب في عينيها نار خضراء لا  
 تضيء الا في عيون الصبايا لحظة مغادرة عتبة الطفولة ، وكانت كذلك بجسدها البكر المفتوح  
 الواضح للعيان عبر الثياب (الرمزية) الشفافة التي علقتها الى كتفيها بخيطين رفيعين . .  
 قلت لنفسي :

«لا يمكن . . . انها ما تزال طفلة . . . لعلها لم تبلغ الرابعة عشرة من عمرها» . . .  
 صافحتنا وقبلت امها بطفولة عذبة معلنة انها ذاهبة الى النوم . .

حين غادرت الغرفة ، تابع الكهل شكواه . احوال بيروت ، التي تزدداد رداءة ، ولا  
 سيولة ، وقد يضطر الى استئجار بيت آخر غير هذه الفيلا البديعة والباهظة الايجار . . وهو  
 لا يملك ثمنها لشراؤها بمحتوياتها ، والاستقرار فيها بدلاً من (البهذلة) وتشرذم الكهولة . .  
 بدت زوجته اكثر قوة منه وتماسكاً . . اما صقر ، فقد سأله بهدوء : كم طلب المالك ثمناً لها  
 بما فيها ؟

— نصف مليون جنيه استرليني . . مبلغ خرافي . . .

— ربما نستطيع تدبر الأمر ، فأنت صديق قديم لوالدي . .



— كيف ؟ لا استطيع استدانة المبلغ لأنني عاجز عن سداه اذا ظلت الاحوال في لبنان على حالها . . لم تعد املاكي هناك تساوي شيئاً هذه الايام . . .

— كنت افكر بابتك . . . هل تسمح لي ؟  
بدت الفرحة على وجه الكهل . من الواضح انه يطمح الى مصاهرة آل الغنمالي .  
الأم المحنكة بدت اقل تفاؤلاً .

قال الاب : بالتأكيد . . . يشرفني ان . . .  
قاطعة صقر : لم اكن اتحدث عن الزواج . اني اتحدث عن شيء آخر . . . ليلة ما . . .  
الليلة مثلاً . .

وارتجف الأب ، بينما اخرج صقر دفتر شيكاته ، وحرر ورقة بنصف المليون استرليني ،  
قطعها من الدفتر ووضعها على الطاولة قائلاً بفحيح بارد : ما رأيك في ذهابك والسيدة الى  
السهرة ؟

صمت الرجل ، ونهضت الأم وتناولت الشيك ، قرأته بامعان ثم طوته ووضعته داخل  
حاملة نهداها ، ثم التفتت الى زوجها قائلة : هيا بنا . سنتأخر عن موعد السهرة . لا تنس  
مفتاح البيت ، فالخادمة في اجازة . . .

حين غادرا المكان ، نظر صقر ضروب الطابق الأعلى وتناول « شمة » وضحك تلك  
الضحكة المستيرية الضائعة بين شهقة العبث والجلد والموت ، اما انا فقد غادرت البيت الى  
السيارة وجلست في المقعد الأمامي قرب السائق وظللنا صامتين . حين غادر صقر البيت  
بدوره بعد زمن طال أو قصر ، قال لي كمن يخاطب حوتاً أو دابة : سنعود الى هذا البيت مراراً  
يا خليل فيما يبدو . . . للعذارى سحر لا يخبو منذ الليلة الأولى ، والبكارة فكرة ، لا مجرد  
غشاء . . يزول الغشاء ، ويبقى تحدي الفكرة . . ولا بد من تكرار الزيارة . . .  
لم اقل شيئاً . . .

. . . وفي طريق العودة الى الفندق مرت بنا السيارة فوق جسر واترلو الذي يعتلي نهر  
التايمز . طلب صقر من السائق التوقف . هبط من السيارة ترافقه حقيبة النقود ، ومضى نحو  
حافة النهر . ظننته سيقفز . وإذا به يخرج النقود من الحقيبة ، ينثرها في الرياح ويرمي بها الى  
النهر . . ثروة تكفي لمسح البؤس عن حياة مئات الفقراء ، وهو يتلذذ برميها في النهر . .  
نظرت اليه في الضوء الشاحب للشارع وقد انعقد لساني تماماً وتحولت اعصابي الى جديلة من  
التوتر المجنون . قال ساخراً وأنا اهبط من السيارة وهو يصرخ بصوت عال : الا تعرف ان

لعب الميسر حرام ؟ .. ها انا ارمي بارباحه الى النهر ...  
لا ادري ماذا دهاني .. وجدتني اقفز على صقر واحيط عنقه بيدي وقد تدفقت من  
عضلاتي انهار القهر والذل والحقد والغضب التي لم يعد احتواؤها ممكناً بعدما ذقت لحظة  
الحرية تلك ..

وصرت اضغظ واضغظ وقد جحظت عينا صقر فازددت شهية لايلامه حتى الموت كما  
يفعل بنا جميعاً ... والسائق عبثاً يشدني عنه ... ثم لم اعد اعني شيئاً ...  
في الفندق صحوت مقيداً ، والسائق الى جانبي يعتذر لأنه اضطر الى ضربي على رأسي  
بمفك البراغي .. كي لا اقتله .. وبدا مشفقاً علي ، متعاطفاً معي كأنني قمت بما قمت به  
بالنيابة عنه ... اما صقر ، فقرر ان علينا ان نعود فوراً لنكون في جنيف «ليلة المليار» .. ولم  
يقل شيئاً حول (حادثة العنف) بيننا ، حين كدت اخنقه على شاطئ النهر لو لم يخلصه سائقه  
مني .

في الطائرة في طريق العودة ، شم كمية من ( الثلج ) أكبر من عادته ، وضحك  
ومرح وعابث حاشيته وتجاهلني تماماً ...

وقررت وانا بين السماء والأرض : لن أعمل وهذا الرجل بعد اليوم ولن ارضى بطعم  
الذل في فمي ولومت جوعاً ... سيحولني الى قاتل ذليل ولا اريد ذلك ... لن ، حتى ولو  
مت واولادي على جسر «المون بلان» .

وبدأت انشد : يا ظلام السجن خيم ...

سألت المرأة التي جسدها جديدة اسلاك شائكة صقر : ما به ؟

— مجنون ..

— لماذا ؟

— لا ادري .. مجنون ككل الذين يتقاتلون في بيروت .. انهم مجرمون بالفطرة ... لا

همّ لهم غير الحرب والعدوان على جيرانهم .

— من يتقاتل في بيروت ؟ ..

— كلهم .. ثمة حرب ..

— توجد حرب في بيروت ؟ مع من ؟ ..

— مع اسرائيل .. واهلها يفرون منها كالجردان .. باخرة الشحن التي تتسع لخمسمائة

خروف صارت تنقل اليوم الفين من الهاربين ..

قالت المرأة : لم اسمع بذلك من قبل . . . كل ما اعرفه هو ان بيروت مدينة عصابات تحت كل الشعارات ، والعمل في ملاهيها لم يعد مأموناً . . لكنني لم اسمع بالحرب . وقالت جارتها : وانا ايضاً لم اسمع بذلك . . .  
وقال كل افراد حاشية صقر ذوي الوجوه المتشابهة : ونحن ايضاً لم نسمع بوجود حرب في لبنان . .

وسأل أحدهم : وما شأننا بذلك ؟ هل لبنان بلد عربي ؟  
وتابعت غنائي : يا ظلام السجن خيم اننا نهوى الظلام ، ليس بعد الليل إلا . .

\*\*\*

— الورغيد باشا . . . انا صقر باشا ، اكلمك من سيارتي . . . وقد غادرت مطار جنيف للتو . اني حريص جداً على حضور ليلة المليار بصفتي رجل اعمال .  
— لماذا لا تحضر ما دمت قريباً هكذا ؟ كوكو هنا ، في انتظارك .  
— كوكو ؟ أحمل لها هدية تليق بعينيها الزرقاوين . . .  
— هل هتفت لتخبرني بذلك ؟  
— بل لاخبرك بأنني انفقت الدفعة الأولى ، واريد دفعة اخرى منك ، خصوصاً واني التقيت «بمفاتيح» جديدة لصفقة المطار . . هذه الصفقة سأنجزها بنفسني بدلاً عن الوالد . . .

— احضر الآن . . . ستلتقي بالوالد غداً ليلة ملياري الأول . . . ولن تشعر بالوقت ، سيمر كبرهة وجيزة بفضل كوكو . انها لا تخفي عني اعجابها بوسامتك . . ثم انها تحب الشبان الأصغر سناً منها . . .  
— حسناً . . . ساحضر حالاً . . . لأجل عيني كوكو! . . . بل سأمر باحدى الصديقات المشتاقات ثم آتي اليكما ولكنني اريد تحضيرك نفسياً منذ الآن . . . العملة التي سأتقاضاها عن صفقة المطار ستكون ضعف التي يتقاضاها والذي عادة . . . الشيخ الغنمالي «جونبور» اسعاره مرتفعة وصفقاته مؤكدة الابرار . . .  
— سنتحدث حول التفاصيل فيما بعد . . . والآن ، ثق بي ، وسيكون كل شيء على ما يرام ، وكوكو في انتظارك . . .  
وضحك صقر تلك الضحكة الضائعة بين شهقة العبث والجدل والموت والجنون ، ثم

اصدر امرأً لسائقه بالاتجاه صوب بيت الصديقة فقصر رغيد ، وكان قصر الغنمالي على مرمى النظر ! انه ببساطة لا يفتقد والده ، ولا يفتقد احدا غير مبلغ هائل من المال يريجه من تسول رضى اسرة الغنمالي ، ريثما يرث اعمال والده . . . او بعضها . . .

أما خليل فقد انصت الى المحاوراة الهاتفية دون ان يرف له جفن . لم يشعر بأنها يتحدثان عن امرأة تخصه هي زوجته . . . ( حينما أستحضر صورة «كوكو» الملونة بالأصباغ ، الغارقة في الحرير والمخمل والجمال الوهاج الفاجر النظرة ، اشعر انني لا اعرفها . . . وعبثاً استعيد في تخيلتي صورة تلك الطالبة العذبة زرقاء العينين التي كانت تتردد على مكتبي بخضر عاشق . . . انها بالتأكيد امرأة اخرى . . . مانت يوم مصرع وداد ) . . . هرب بعينيه الى نافذة السيارة . . . ازداد صدره ضيقاً . . . والسحب الداكنة تغطي السماء برطوبة مظلمة . . . ويعيداً . . . ما وراء الافق . . . خيل اليه انه يرى ما يشبه وميض البرق النائي القادم على رؤوس اصابعه . . . عارياً حتى من رعبه . . . مثل برقية صريحة مكتوبة بالصمت والضوء فوق ورق السماء المسود . . .



( غداً ليلة المليار . . . غداً اتوج ملكاً من ملوك هذا الكوكب الذين يتحكمون بأقدار الرجال والشعوب . . . غداً احقق حلمي ، وأبي المخلوق الوحيد الذي احببت حقاً لن يكون هناك ليراني . . . ولا احد من افراد اسرتي الذين ضيعتهم واحداً بعد الآخر في غمرة صغودي . . . وإذا عاد احدهم بحنانه سأدهش وارتبك . . . بهذا المعنى تبدو بحرية قريبتني حقاً : متوحشة . بلا ذاكرة . شرسة وجريح . باهرة الجمال ، لم تقع عين عليها الا وصعقت ، وطار صوابها بطريقة ما . . . حتى الشيخ وطفان . . . تكاد تضيعه . . . فيها شيء شبيه بالذهب . . . الشهية الى امتلاكها تفقدتهم توازنهم كما كادت تفعل بي ، وتنسيهم كل ما عداها . . . فيها شيء من الذهب ، سحري ، ازلي ، مختلف عن كل ما عداها من المعادن . . . انها انثى كالأخريات لكنها مختلفة ، عصية ، صمتها جدار كالذي يسورون الذهب به . . . لعلني في النهاية استحقها انا وحدي . . . الشيخ صخر لن يفهمها ، فهي في نظره مجرد انثى اخرى باهرة الحسن . . . ولكن ، اليس مجرد انثى اخرى باهرة الحسن في

نظري انا ايضاً ؟ لو كانت بشعة ، او مسنة ، هل كنت سأراها كالذهب ؟ . . . الا يزيد مرضها الغامض وعزلتها الكثيرة في جاذبيتها ؟ . . . وهل سيكون علي قريباً ان اختار بينها وبين صفقة المطار ؟ ألا تبدو امرأة مستحيلة واقفة على خيط اللامبالاة الممدود بين الموت والحزن ؟ . . . اليس امتلاك عوالم من الفجائع والثورات السرية كهذه مستحيلاً وبالتالي شهياً ؟

ولكن لماذا لا أرضى بالممكن ، اي بالمليار الثاني والمطار ، واترك لسواي نطح قلبها الصخري ؟ اللعنة عليها ، منذ وصلت ومشاعري تتأرجح بين اقصى الكراهية والرفض ومتهى التوق والولع المجنون . . . كأنني صرت اهميم بها كراهية ، انا ايضاً ، . . . لقد ادخلت القلق الى حياتي . . . والحيرة . . . والكوابيس . . .

أكل بيضته اليومية السحرية : كسرها فخرج منها طفل صغير يبكي ، فالتهمه بسرعة بعدما رش على عينيه الملح والبهار . ثم مضغ ببطء حبات الحمص التي كتب عليها ساحره وعلى قعر اناء طبخها طلاس مضاة (لضربة العين) ، وارتدى قميصه المضاد للرصاص رغم «التبايريد» المزروعة تحت جلده ، وتأهب لجولة في القصر والحديقة للإشراف على الاستعدادات لليلة المليار . نديم يطلبه الى رقه الخاص في غرفة نومه . لا بد من ان القضية خطيرة . انه يحمل (بشارة) عن خراب بيت العدو . يقول بلهجة مستثارة : يبدو ان سحر الشيخ وطفان قادر حقاً على صنع العجائب . . . لقد قتل احد ابناء الشيخ صخر عقاباً على لامبالاته بـ «صفقة المطار» وتخاذله . . .

قال رغيد منزعجاً ، كأنه فقد شريكه الأوحد الممكن : اي ابن ؟ من ؟ صقر ؟ لقد كلمني قبل قليل .

— لا . . . . . صبي صغير . . .

— اين ؟

— في وطنه . . . انه ابنه من ابنة عمه التي عادت باولادها الى الوطن ليتعلموا في المدرسة التي شيدناها . . .

— ومتى مات ؟

— لا ادري بعد . . . . . للتو تلقيت النبأ بالتلكس من احد وكلائنا ثم انقطع الارسال . . . . . ساوافيك ببقية التفاصيل فور ورودها . . .

— لا تقل لاحد انك اعلمتني بالأمر . . .

- لماذا توصيني بالكتمان ؟ أنت تعرف انني ألفتة . . .
- ثمة اخطاء صغيرة . . . حدثت مؤخراً . . .
- إذا كنت تعني تدخل دنيا فيما لا يعينها فثق انني ادبتها . . . قتلت كلبها وأوهمتها انها مجنونة ، ولدي مفاجآت اخرى لها . . . وقد بدأت تتدخل من الداخل ، وسأحدثك عن التفاصيل فيما بعد . . . ستري دنيا اليوم وقد عادت الى صوابها . .
- لم ارها اليوم بعد ، لكنني سأعرف لحظة تقع عيني عليها ، ان كان التأديب كافياً ام انها بحاجة الى جرعة اخرى ، وسأعلمك بالأمر لتتابع الضربات بسرعة . والمهم الآن ان تعلمني بالمزيد من التفاصيل عن مصرع ابن صخر . . .
- لن يكون الا ما تشاء . . . بخصوص ابن صخر ، وكل شيء ودنيا . .
- ادبها . . ولا تقلق . . ثق بي وسيكون كل شيء على ما يرام . .
- أغلق سماعة الهاتف . خلع قميصه المضاد للرصاص وقرر البقاء . . . امتلاً قلبه بنشوة خارقة : إذن نجح سحر الشيخ وطفان . . . انه حقاً كما يشاع عنه ، يستحق كل رعاية واحترام . . . وهو الذي كاد يتخلى عنه اكراماً لحاظر بحرية ؟ . . . ذلك الشيخ كنز ، كنز من المعارف والقدرات . . . ذلك المسكين الذي أهمله او كاد مؤخراً ، بعدما القت بحرية بسحرها غماً حول قلبه . . .
- مضى اليه . قرع بابه . قرع مرات عديدة حتى اذن له الشيخ بالدخول . . . فوجيء به يجمع بعض حاجياته في حقيبة صغيرة . . . واذهلته امارات المرض البادية على وجهه وملامح الكهولة التي داهمت في الاسابيع الاخيرة . .
- الى اين يا سيدي الشيخ . . هل انت مريض ؟
- الى الفندق ، ريثما تنقضي ليلة الحفل .
- لماذا ؟
- لا أحب الجلبة ، ولا أرغب في مضايقة ضيوفك . .
- ولكن سيسعدهم حضورك . . معظمهم يتوق الى رؤيتك . .
- حسناً . . . سأقول لك الصدق . . . ما دامت بحرية في هذا القصر ، لن اطاءه ثانية .
- سكت رغيد . انه لا يحب ان يحدثه احد بهذه اللهجة ، حتى ولا ساحره المفضل . . .
- يوم وصلت بحرية ، لم يخطر بباله ان حلوها في الطابق نفسه سيضايق الساحر ، وكان قد

افرد له الجناح الايمن ، وحلت بحرية في الجناح الايسر . . . انها قلعة شاسعة تتسع للجميع ، ولكن حضور بحرية اقلق ساحره فيما يبدو اكثر مما ينبغي . . ام تراه على حق ؟  
- انها مسكونة بالعفاريت والجان . . وانت لا تسمح لي بطردهم منها . . .

- قلت لك لا اريد متاعب ريشا تنتهي (الحفلة) . . شيء ما في هذه المرأة يدفع بالناس للدفاع عنها وطاعتها والحنان عليها ، والشفقة الظاهرية التي تبطن شهوة شرسة للامتلاك . . . لقد اوغرت صدر دنيا علي ، ونسيم ، وخليل ، وحتى نديم بدأ يخطيء منذ وصولها . . بل بمجرد احضارها . .

- ارأيت ؟ هذا يثبت ما أقوله لك . . . العفاريت التي تحتلها ذات سطوة وقوة . . . ترتدي الوجوه كلها ، فتبدلون احدهم امأ وللآخر اختاً وللثالث حبيبة ، وتنطق باللغات كلها والاصوات كلها . . . تكلمك بلسان القلب والعقل والجسد ، وتقول لك كل ما يدمرك من كلام عذب او شرير . . . تنطق بالماضي ليقنتك الاسى او الندم وبالحاضر لتمتلكك عذابات الشهوات وبالمستقبل لتمتلىء ذعراً ووهناً . . ان التخلص منها مستحيل ، كالوطن . . فهي احياناً ترتدي قناع الوطن ايضاً . . . ألا ترى ما فعلته بطقس جنيف ؟ ألم تر السماء اليوم ؟

- اعدك بالتخلص منها . . بعد انقضاء الحفلة سنعيدها الى بيروت أو نزوجها ونمضي الى بيت آخر . . ثم ان المسكينة قد تموت في حادث سيارة او منتحرة . . . ما رأيك ؟  
- لا راحة لي ما دامت حية ومسكونة بالعفاريت . . . لا سلام لي ما دامت متمردة . . . لقد سخنت الرياح منذ وصولها وها هي السحب تتجمع اليوم في السماء سوداء كثيفة منذرة بشر خطير كما يقول «المندل» .

- سيكون لك ما تشاء بعد «ليلة المليون» . . . سأحضر كل ما طلبت . . . الشياطين ، اسياخ النار ، السلاسل . . .

- وسنعذب الشيطان الذي يسكنها حتى يغادر جثتها . . .

- كما تشاء . . .

- سنطرد نسيم كي لا يتدخل فيما لا يفهمه . .

- كما تشاء . . .

- سنعذب الشيطان عذاباً اليماً كي يغادرها . . والا كانت شؤماً عليك . .

- كما تشاء . . ثق بي وسيكون كل شيء على ما يرام . جئت على اية حال لاشكرك .

لقد نجحنا في خراب بيت العدو . . ذلك سيجعله بائساً ، يلجأ الى تخدير النسيان الذي  
الفه عند النساء ، وسيكون بحاجة الى ملايين جديدة . . لقد سقط في قبضتنا . .  
لم يبد ان الساحر وطفان كان ينصت لما يقوله رغيد ، فقد تابع كأن به مساً : لن اعود  
الا ساعة تربط في جناحها بالسلاسل الى الجدار . . . لن اترك شياطينها مطلقة السراح  
تسمم سيالاتي الروحية وتزرع فيها الذباب الأبيض والرياح المكهربة . . . وتشعل النيران في  
وجهي ، وتدس باعوانها داخل مرآتي ليتولوا تعذيبى داخل مملكتى . .  
كان رغيد قد قرر تحاشي اى شجار ، أو أية فضيحة قبل «ليلة المليار» . . . ماذا يقول  
ضيوفه عن حسناء مربوطة بالسلاسل الى الجدار كما في العصور الوسطى ؟ وماذا يقول  
البوليس ؟ . . .

بعد انقضاء (الحفلة) ، سيبدل مكان إقامتها ، يزوجهما للشيخ صخر او يحتفظ بها اسيرة  
محظية . . اما الآن فلا مجال لاثارة الفضائح . . فليذهب الساحر الى فندقه ، فهو ايضاً  
سيسعر بالوحشة هناك . . انه دوماً يعود اليه ، وثمة رابطة خاصة تشدهما ، كأنه لا حياة  
لاحدكما دونما رعاية الآخر . .

\*\*\*

حين غادر الساحر البيت شعر رغيد بشيء من الذعر . . لا يدري لماذا تشاءم ، كأنما  
فارقه تعويذته . . تأمل السحب السود الداكنة والرطوبة الحارة التي تنفثها كأنفاس  
شيطانية ، وخيل اليه انه لمح ومضة برق بعيدة تلتصع كسيف خرافي . . بحرية شر ؟  
ربما . . ها هي تمزق عالمه ، ساحره يهجره ، دنيا تتحداه ، نسيم يتمرد ، مناخ جنيف  
يتبدل . . اصوات مبهمه تأتي من سماعات الهاتف وتحيل اجساد النساء امام عينيه الى رماد  
سيجار منته . . ذلك الصوت الذي جاءه عبر السماعة سائلاً عن كفى لم يكن أنسياً ! . . .  
لعلها شياطينها تستولي على الماكينات ، وتفسد ايضاً آلة الحراسة عند المدخل وكشف  
الاسلحة ، ولعلها سيالاتها الروحية هي التي افسدت جهاز الانذار في بركته المذهبة اول  
البارحة فانطلقت صفاراتها ليلاً لخطأ طارئ كما ادعى المصلح .

\*\*\*

استيقظت دنيا كعادتها على ضربة من فأس الصداق ، وقد كاد النهار ينتصف . . كانت



قد اتخذت في الليلة الماضية قراراً بإصلاح علاقتها وابنها باهر . . دوماً تتخذ سلسلة من القرارات بينما هي تتجرع زجاجة ماء النار ، وفي النهار تضع بين صداها وهرولتها . . وحياتها . . كاد الصداغ يغلبها ، لكنها تماسكت ومضت نحو غرفة باهر ، قبل ان تغسل وجهها او تسرح شعرها او ترفع الستائر عن النافذة . تذكرت اغنية قديمة كانت تحبها ايام صباها « الآن او ابدأ » ، سأكلمه واباسطه الآن والا فلن اقدر على ذلك ابدأ في أي يوم آخر . . الهوة تتسع بيننا ، ووالده اكثر انشغالاً مني ولا يكاد يلحظه . ولعله نسي اننا انجبنا ولدين . .

فتحت باب الغرفة . كان جالساً على مقعده وقد رفع قدميه كعادته فوق منصدة الدراسة ، وظهره موجه صوبها . لم يلتفت كأنه لم يسمعها . وقفت على العتبة ، وقالت له كل ما كانت تشتهي ان تقوله عن اسفها لإهماله ، وندمها ، وانشغالها بجمع المال لأجله واخته واحست الكلمات رثة لا تبرر ما كان ، بل وعت مدى جرمها وهي تحاول الاعتذار منه ، أما هو فلم يلتفت نحوها او ينطق بعبارة صفح ، بل ظل في جلسته تلك وصار يهتز فوق مقعده بلا مبالاة ايقاعية ، وصعد الدم الى رأسها المفتت بالصداغ ، وصرخت به : يا قليل التهذيب . . حين اكلمك التفت صوبي على الاقل . .

وفقط حين التفت ونظر اليها وفي وجهه امارات الدهشة لاحظت السماعتين اللتين تسدان تماماً مدخل اذنيه ، الخيطين الدقيقين المتدليين على صدره ، المتصلين بجهاز الراديو الترانزستور «الووكمان» الذي يجعل صاحبه يلوذ بموسيقاه ولا يسمع اصوات العالم الخارجي ! . . .

إذن لم يسمع حرفاً واحداً مما نرفته امام دنياه الموصدة ، التي نفتت اليها بنفسها . الخادمة شاهدها تعود صوب غرفتها دامعة وتحاشتها متظاهرة بتنظيف الأرض المرمرية الفأخرة بعد ازاحة السجاد الثمين عنها . .

( عالم من العزلة الثرية . . سجون فخمة الديكور . . هذا ما صنعناه من بيتنا ) . لا تدري لماذا لجأت الى لوحتها ، وفوجئت وهي تلتهمها بنظراتها بسكين مغروسة في صدرها وقد مزقت قماش اللوحة !! . . . سكينها الخاصة بفتح الرسائل . . انهارت على المقعد امامها ، صرخت بابتها التي كانت تحاول مغادرة الدار دونما مواجهة امها : تعالي ايتها الوحشة الصغيرة . .

اقتربت الصبية من امها وبادلتها نظرات الكراهية كامرأتين غريبتين ، والقت نظرة

لامبالية على اللوحة وقالت : هل ستتهميني بذلك ايضاً ؟ مرة أبي هو المجرم ومرة أنا ؟

— إذن من فعل ذلك ؟

— أنت بالتأكيد فعلت ذلك يا سيدة دنيا ثابت ! . .

— أنا امزق لوحتي ؟

— حينما تملين تغادرين شخصية مدام الغفيرة وتلبسك الحس بالعظمة ، فتعودين دنيا ثابت الرسامة المنسية . انت فعلت ذلك بالتأكيد ، حين تتصارع المراتان في داخلك ، بعد ابتلاعك زجاجة ماء النار ليلة البارحة . . وانت بالتأكيد اخذت كلبك بعيداً واتهمتنا بقتله . . لكل همومه فدعينا وشأننا . . ولكنني انصحك بمراجعة طبيب نفسي . . وهذا رأي صديقي ايضاً حين خبرته بأحوالك !

وغادرت الفتاة البيت لامبالية ( ما اعظم قدرة الصغار على القسوة . . . الابداء بالذات )

فوجئت بصوت يخاطبها : « لكنك بالمقابل لم تكوني يوماً صديقتها ، فلماذا تتوقعين منها ان تعاملك كذلك ؟ » .

هل جاء الصوت من اعماقها ، ام ان اللوحة صارت تكلمها نهاراً ايضاً ؟ أهذا ليل ام نهار ، وتلك السحب السوداء المظلمة قد غزت السماء وسرت في المناخات عتمة الغروب . . آه لم تعد تدري . . لا تدري شيئاً . . لا تدري من فعل هذا باللوحة . . تسألها بصوت عال ولا تدري صوت من يجيبها : « غير مهم . . فالآخرون لا يهددوننا حقاً الا اذا انكسروا من الداخل » . . لا تدري الا ان عليها ان تهول الى قصر رغيد . . « ليلة المليار » غداً وعليها ان تهول . . أهذا صوت اللوحة حقاً يخاطبها ام صوتها هي ام صوت يعبث بحواسها متعمداً ؟ لا تدري . . عليها ان تهول . . ما جدوى ان تسجن نفسها في البيت في محاولة فاشلة لرسم لوحة ، واصابعها ترتجف امام القماش كطفل في عاصفة لم يألّفها ؟ . . وأفكارها تتمزق وتتشتت وتعي فجأة كلياً حاولت الرسم : لم اعد استطيع . . !

اقتربت من اللوحة ، ولم تنتزع السكين ، بل تركتها في موضعها ، لعل الطعنة توقف ضربات قلبها المحنط وتعيد الوعي لكبدتها المشمع . . وسمعت صوتاً من خلفها يكلمها : « هذا لا يؤلم لكنني قلقة عليك » ، التفتت دنيا وذهلت حين شاهدت فتاة اللوحة جالسة على المقعد في موضعها بعدما غادرت الاطار وخوى قماش اللوحة من كل شيء الا من تمزيق عند

موضع صدر الصبية .. تابعت بصوت هامس : ضربات الخارج لا تؤلني ولا تسبب لي جرحاً .. ولكن ، حذار من ان تتخاذلي انت .. اذا نجحوا في خلخلتك من الداخل ، انتهى امرنا معاً ! انت الخطر الوحيد الذي يهددني !

\*\*\*

استيقظت كفى ثملة بخمرة الحياة ... كشفت الستائر ولم تلحظ السحب الداكنة الكثيفة التي غطت السماء كعباءة سوداء . لم تجد عادل الى جانبها .. لقد ألقت حضوره ، لكن غيابه لا يضايقها .. امامها «ليلة المليار» غداً، حيث تتألق كأميرة من اميرات الليل وتختال فوق العيون المعجبة ، وهي مشغولة بالتحضير لها عن عادل والسحب واولادها وخلييل والدنيا كلها .. مشاغلها كثيرة .. وعليها ان تتأكد من ان الحلاق وجد الامشاط الخاصة بتسريحها ، وبائع الاحذية يجب ان ينجز هذا المساء حذاء السهرة الشفاف المذهب .. ستكون مثل حلية ذهبية تزين طرف الليل ، وعليها ايضاً شراء تلك الشرائط الحريرية لخصر ثوبها ، والشال يجب ان تجربه ليلاً لتتأكد من ان لونه لن يبهت مساء فقد اشترته في ضوء النهار .. ما اكثر مسؤولياتها ومتاعبها ، وعليها ان تسارع بعد ذلك كله الى بيت رغبة لتتابع مساعدة ليلي على اعداد المكان لثلاثماية مليونير على الاقل ستلتقيهم غداً .. آه قلبها ينبض ويتشر في جسدها فرحاً حتى لتكاد تغص به وتختنق .

\*\*\*

ما كادت تدخل القصر حتى التقت نسيم الذي لا يراها إلا وهي تمشي في الأرض مرحاً فسألها : كيف صحة ولديك بعد الحادث ؟  
 - أي حادث ؟  
 - هل انت جادة ؟  
 - هل انت جاد .. ماذا اصاب اولادي ؟  
 - اين تعيشين ؟  
 لم تجرؤ على ان تقول ، وتذكرت انها لم تطأ بقدمها الفندق منذ أيام ، والمدرسة لا تعرف لها عنواناً آخر ..  
 - ماذا بهما فادي ورامي ؟  
 - قرأت اسم احدهما في الصحف . تعطل التلفريك في رحلة مدرسية وهوى ، وثمة

قتلى وجرحى .. لقد اذاع التلفزيون النبأ في قنواته كلها ..

— لا اصدق ..

— هذا شأنك . ارجو المَعذرة .

وانسحب بسرعة وهو غاضب ( اهذه ام وامي المسكينة كانت امأ ؟ الحمد لله لأن خليل سيعود اليوم ، والا لكان من واجبي الذهاب اليهما والاهتمام بهما .. أهذه أم ؟ ) .. هتفت الى الفندق . قالت عاملة الاستقبال : لك عدة رسائل هاتفية من «كوليدج دي

ليمار» ، ومن مستشفى (باردينيان) ..

— ارجوك ان تقرئي لي الرسائل الآن ..

— حسناً .. هذه رسالة من المدرسة .. لحظة .. تقول : الرجاء الاتصال بالادارة

لأمر هام يتعلق بابنتك .

قطعت المخابرة ، واتصلت بالمدرسة .. قالوا لها وقالت لهم .. وادعت انها كانت مسافرة ، ولم يدعوا شيئاً ، وصارحوها ببساطة : رامي في المستشفى . اصيب في رحلة مدرسية . طراً عطل على التلفريك ووقع حادث . قتل بعض الاطفال وجرح آخرون . هل جراح ابنها خطيرة؟ لا تدري .. ولكن اسمه ليس بين القتلى عليها ان تسأل المستشفى .. هذا رقمها .. ابنها الآخر؟ لا تجد اسمه بين القتلى او المصابين . هذا يعني انه في المدرسة وبخير . كان في عربة اخرى فيما يبدو .. على اية حال ، نفقات علاج رامي تتحملها المدرسة لأن الاقساط تتضمن تلقائياً مبلغاً خاصاً بالتأمين ضد الحوادث .. وابنها يشمل ذلك ! ..

تهتف الى المستشفى . الخط مشغول .

كالنمرة تدور حول الهاتف قلقه .. انها بحاجة الى انسان يقف قريبا .. اي انسان .. جارتها .. امرأة عابرة من الشارع .. لم تألف مواجهة المصائب وحيدة .. لم تألف اسلوب السكرتيرة في تبليغ الناس بكوارثهم بصوت هادئ محيد .. تذكرت بوضوح انها صرخت في السكرتيرة على الهاتف : ولكننا في سويسرا .. فكيف يقع حادث في التلفريك ؟ ..

واجابت الأخرى بهدوء : الحوادث تقع في كل مكان .. والناس يرحلون ايضاً في سويسرا ..

حقيقة بدوية سهت عن بالها ، وهي ان الناس يمكن ان يموتوا حتى هنا .. وابنها ليس

حقاً في امان حتى هنا ما دام بشرياً . . . ليلي تروح وتجيء في القاعة المجاورة . . والرقم الهاتفي للمستشفى ما زال مشغولاً . . مضت الى ليلي ، واخبرتها بما حدث . قالت الاخرى بالفرنسية وبيروود : « حسناً تستطيعين الحصول على إجازة اليوم اذا كان ابنك في حالة خطرة . لكنني بحاجة اليك يوم الغد . . ثمة عمل كثير يجب انجازه صبيحة الحفل . اهتفي ثانية الى المستشفى واعلميني » . . وغادرت ليلي الغرفة بسرعة . .

\*\*\*

قرر رغيد الذهاب الى بركته الذهبية لتوجيه الدعوة للتمثال « المناضل » لحضور « ليلة المليار الأول » . . وسيتهز الفرصة لشكره على « المليون الأول » . . فتح قفصه الذهبي بمفتاح لا يفارقه كأي سجان محترف ، وداهمه خاطر . . لماذا لا ينقله الى ردهة القصر لحضور السهرة ؟ . . ولكن لا . . سيضايق بحضوره معظم ضيوفه . . سيقبه هنا وسيحتفلان معاً بعد انصراف الضيوف . سيلعبان بالقرش . . سيرميانه في الفضاء . . واذا سقط على الارض وكان وجهه الذي يحمل اسم فلسطين الى الأعلى ربح التمثال الرهان ، واذا كان الطرف الآخر الذي يحمل قيمة العملة الى الأعلى بالعبرية والانكليزية والعربية دوغما ذكر لاسم فلسطين ، يربح رغيد ملياره الثاني . . - يا باشا . .

التفت شبه مذعور . انها ليلي . . قالت : بدأ الضيوف بالوصول الى الفندق منذ اليوم . . اتصل بك « المليونير الاصفر » وادعيت انك خارج جنيف ، وستكون هنا غداً في موعد الحفلة . . واذا وصلت قبل ذلك ، ستتصل به . . - حسناً فعلت يا لك من امرأة قديرة . . ساختار انا توقيت اللقاء . . يجب ان ارى « المليونير الأحمر » أولاً ، افضل انجاز الصفقات معه . . انه عصري وحاسم لا يتردد في استعمال السكين ضد كل من يخرب صفقاتنا . .

( بدأت أفضل التعامل معه على امثال الشيخ صخر . . وشقيقه التوأم الكارثة هلال . . . رجال امثال هلال يمكن ان يعيدوني فقيراً لا املك الا عدة ملايين من الدولارات . . اما صقر فمدمن ، لا يمكن الاعتماد عليه في المدى البعيد ولكنه قديوم . « صفقة المطار » كما يدعي بعدما اعطيته قبل سفره سلفة كبيرة كدين من مال الصفقة ، سيضطر والده لدفعها اذا اتصل ) .

سأل رغيد ليلي : هل وصلت دنيا ؟

- للتو . .

- تساعدك ؟

- بعض الشيء . . اعصابها متعبة واطنبا بحاجة الى مصحح . . ولكنها ستقوم بمهامها خلال الساعات القليلة الباقية . .

- وكوكو ؟

- ممتازة لولم تكتشف هذا الصباح حادث ابنها . . لكنني اخفيت الأمر عنها اطول وقت ممكن .

- انها لا تقرأ الصحف ، ولا ترقب التلفزيون ، وغجري يقول انها قضت سهرة البارحة وعادل كالعادة في احدى علب الليل حتى الفجر ، ولم تمر بفندقها ، فكيف عرفت ابالأمر ؟

- لا ادري . . لعلها سألت عنها في المدرسة . .

- اولعل نسيم اخبرها بذلك . . سأصفي حسابي مع هذا الوغد بعد غد . . بعد «ليلة المليار» . . .

- اكدت ليلي : ستقوم كوكو بواجباتها ريثما تنقضي « ليلة المليار » . . جراح ابنها سطحية وبسيطة . . هكذا اعلموها حين اتصلت بالمستشفى تسأل عنه . .

- قال رغيد : اهتمي بكوكو . . الضيوف يحبونها ، وصقر معجب بها ، وقد اكون بحاجة اليه في الاسابيع المقبلة . .

- اعددت للشيخ صقر الغرفة المجاورة لغرفتها . .

- هذا « بعد نظر » . .

- ما دام الشيخ وطفان قد مضى . . لماذا لا نكرم « المليونير الاحمر » ونستضيفه في جناحه ؟ . .

- فكرة ممتازة . . . ولكن . . ادوات السحر تملأ المكان . .

- لن يصل « الاحمر » قبل مساء الغد . . سنضع كل شيء في صندوق كبير نودعه اقبية

القصر ، ونعيده الى مكانه بعد « ليلة المليار » . . ما رأيك يا باشا ؟

- حسناً . . افعلي ما تجدينه مناسباً . . .

- معذرة يا باشا ، لكنني بحاجة الى « دفعة » نقدية . . لم يعد البنك راضياً بصرف

شيكاتي فقد نفذ رصيدي ، وانفقت كل رصيد الدفعة الأولى منك ، واستدنت مليوني دولار .

كخدمة من مدير البنك ، ويجب ارسال شيكات للمطاعم .. لا تريد ان يفسدوا علينا  
الحفل ، مرسلين تحرياً بيده شيكات بلا رصيد ، تحمل توقيعى ..  
ضحك كثيراً حتى انشرح صدره وانقبض قلبها ، وقال لها : ستكون نكتة « ليلة  
المليار » .. الاكل بالدين والشيكات بلا رصيد .. لا تخافى شيئاً .. وضبي جدولاً  
بحساباتك ، وغداً صباحاً تصبحين ثرية .. سأدفع لك النفقات واتعابك فجر ليلة المليار  
اي بعد اقل من ٢٤ ساعة .. فانا كريم مع الذين يحسنون خدمتى .. لا تقلقى يا لى ،  
ثقى بى وسيكون كل شيء على ما يرام وكما تشتهين .  
- اذن سأنام الليلة فقيرة .. ومدينة يا باشا ؟  
- انها ليلتك الاخيرة مع الدين والفقر ، والدفن فجراً في هذه القاعة .. سنتناول قهوة  
الصباح معاً ونراجع الترتيبات الاخيرة وتأخذين الشيك الأول الكبير حقاً في حياتك .. اريد  
فقط إلقاء نظرة اخيرة على اسماء المدعوين وخارطة طاولة الطعام وامكنة جلوسهم .. فقد  
نحدث بعض التعديلات ..  
قالت لى قلقة : وقد اضطر لاجراء تعديلات على الخديقة .. السحب تنذر  
بعاصفة .. و « رجل النبؤ بالطقس » في التلفزيون ايضاً .  
كانا يتحدثان ويتمشيان عائدين من بركة الذهب الاخطبوطية الى القصر .. مر به كلبه  
فعوى وانطلق هارباً .. لا احد يحبه .. يعرف ذلك ، حتى كلابه تمقته ..  
دخل الى الردهة ، فتقدم منها نسيم وابلغها نبأ وصول الشيخ صقر ..  
- متى ؟  
- منذ دقائق .. ذهبت به الى غرفته ، قال انه مرهق وبحاجة الى الراحة ..  
همس رغيد في اذن لى : هذا يعني انه بحاجة الى « شمة » جديدة ..  
ثم أضاف بصوت مرتفع مخاطباً نسيم : قل لى يا نسيم ، هل عاد خليل معه ..  
- اجل ، ثم انطلق راكضاً الى المستشفى لمشاهدة ابنه ..  
- ومن قال له انه هناك ...  
- انا فعلت .. ظننته يعرف ..  
- « اللعنة عليك .. بدأت تصوير ثرائراً .. انت ايضاً بدأت تخطىء .. كتنم جميعاً  
دقيقين كالساعات السويسرية ، ماذا دهاكم منذ ... » وكاد يتابع : منذ وصول بحرية ،  
لكنه احجم فجأة ! ... مضى نسيم نحو المطبخ مسرعاً وقد استيقظ. حقه كله على رغيد

قاتل سري الدين . . كيف لا يخبر أباً بجراح طفله ؟ . قالت لي : سأدعي ان سكرتيري  
مسؤولة عن الخطأ وانها هي التي نسيت إرسال التلكس . .  
- ولكن خليل توسل الي ابلague شخصياً اذا حدث لاسرته مكروه . . سيغضب هذا  
القروي الاصل المجنون ، ولا اريد مجنوناً اضافياً «ليلة المليار» . .  
- سندعي انك أوكلت الي امر ذلك ، وطلبت انا من سكرتيري ان تتولى المهمة . . ولم  
تفعل . . وستعاقب بالطرد . .  
- لا يستحق الامر خسارتها . . اظنه سيكتفي باعتذارك . .  
- كنت سأتلخص منها على اية حال . . انها ثرثرة ، لا تحسن الكتمان . . ثم انني  
شاهدت صورتها في التظاهرة اياها الي جانب دنيا وامير . .  
- انا معجب بحزمك . . اعتقد اننا سنقوم معاً بعملية غريبة للموظفين بعد «ليلة  
المليار» . .  
- انا تحت تصرفك . .  
- نديم مثلاً . . بدأ يقلقني . .  
- زوجته خطرة . . دنيا . .  
قال رغيد مداعباً : هل تغارين منها يا ليلى ؟ لقد لازمت امير طوال التظاهرة ،  
وبعدها ، ولم تعد من عنده الى ما بعد منتصف الليل . .  
- اغار منها ؟ تلك السكيرة الحمقاء المسكينة ؟ انها في درجها الي ممارسة التدمير الذاتي . .  
فالمصحح العقلي . . ثم انني لا اغار من النساء . . لا منافسة نسائياً بيني وبينهن . . حقل  
عملي هو نفسه حقل عمل الرجال . .  
- على نديم ان يخشى منافستك . . بالمناسبة ، ما رأيك بخليل ؟  
- لاي غرض ؟  
- اعداده لتحمل بعض مسؤوليات نديم . .  
- لا اظنه يصلح لذلك في المدى البعيد . . معدنه ( فاسد ) اذ لديه رغبة بلهاء في قول ما  
يتوهمه صدقاً . . صحيح انه عاش حياته كلها في بيروت ، لكن اصله القروي ما يزال  
يطغى على سلوكه . . معدنه يفتقر الى المرونة والطراوة . . ثم انه مشروع رجل خطر . .  
- ماذا تعنين ؟  
- أعني انه يستعصي على الترويض . . .



- هذا غلط يستهويني . الرجال كلهم للبيع ، ولكل ثمنه ...  
 - هذا رجل احق ولن يحدد لنفسه ثمناً .. انه يفضل التمسك بالخطأ العتيق على اكتشاف حياة جديدة ...  
 - اظنه من الذين يبيعون انفسهم مجاناً .. اولئك يبدون عسيري المراس ، وفجأة يتداعون امامك وينهارون اذا لوحث لهم بالسلطة ... انهم يعشقون السلطة ، ويكسون ذلك الوله بقناع شفاف من المبادئ العامة ..  
 - يبدو لي عنيداً ولا يؤمن جانبه .. هل تذكر كيف غنى في السهرة « يا ظلام السجن خيم » .. كان ذلك بشعاً ..  
 - سأجري له عملية تجميل فكرية .. ربما كان عناده بالذات يجتذبي ..  
 - انت ادرى برجالك .. يخيّل الي انه لا يستحق هذا العناء وقد يسبب المتاعب لانه لا يمكن التكهّن بسلوكه .. انه هو نفسه حائر ، وكأنه يفكر بمعنى حياته وربما يحلم بالخلود ..  
 امسك رغيد بتمثال ذهبي لتفاحة وقال : سأعلمه ان هذا هو الخلود .. سأضعه داخل يده واقول له امسك به ، هذا وحده يبقى .. يموت البشر والملوك والصعاليك ويبقى الذهب مبعجلاً دائماً ...  
 تدخل كوكو وعلى وجهها الجميل امارات التعب .. يسألها رغيد : كيف حال الصبي ؟ وقبل ان تجيب يسألها ثانية : هل التقيت خليل ؟  
 - لا .. هل وصل ؟  
 - لقد هرول كالمجنون الى المستشفى .. اخبره نسيم بالنبا لحظة وصوله ...  
 قالت كوكو ببساطة : يدهشني انه تابع رحلته وصقر دوغما مبالاة بما يحدث لابنه ..  
 قال رغيد بتجاهل العارف : يبدو ان متع الحياة تنسي المرء اشياء كثيرة ..  
 شعرت بأنه يؤنبها . حسناً . هي وغدة لكن ذلك لا ينفي ان زوجها صار وغداً مثلها .. هي لا تتشدد بالمبادئ ، اما هو فيفعل !  
 بدت على وجهها سحب الغم ، كأنها تذكرت فجأة ان ابنها في المستشفى !  
 تدخل رغيد : كوكو .. ثمة مفاجأة تنتظرك في غرفتك ..  
 - سارة ؟  
 - بالطبع .. وهل في جعبتي غير ذلك ؟ لا تقلقي .. ثقي بي وسيكون كل شيء على ما يرام ..

- ما هي ؟ ما هي المفاجأة السارة ؟  
 - ثوب لسهرة الغد . .  
 مسحت دموعها بسرعة ، وهرولت صوب الغرفة التي افردتها لي لها ولخليل «ليلة  
 المليار» ، وربما الليلة أيضاً اذا استدعت ضرورات العمل ذلك كما هو الأرجح . .  
 قالت لي : رأيت ما أعنيه ؟ هذه امرأة طرية العجينة وغير متشنجة ، تفرح بسرعة  
 وتحزن بسرعة . . وليست كزوجها . . انها تصلح اكثر منه للتعاون . .  
 - ما الفائدة ؟ انها حمقاء . .  
 - من الصعب ان تلقتي بذكي سهل الترويض الا اذا كان هو نفسه قد اختار دربك . .  
 - تعنين انني لن اجد مثلك ؟  
 - بالتأكيد . .  
 انفجرا ضاحكين . . ذوت الضحكة تدريجياً حين دخل نديم فجأة ، وقد غادره تهذيبه  
 ( الارستقراطي ) وبدا مثل وعل يركض مذعوراً في عاصفة رعديّة . . قال مخاطباً رغيد دون  
 ان يلتفت الى لي او يلحظها او يلقي عليها التحية : يجب ان اكلمك على انفراد . .  
 انسحبت لي بهذيب مفرط : معذرة لدي ما افعله . .  
 قال رغيد وقد وعى كهارب الذعر المتدفقة من نديم : تعال نذهب الى غرفة المكتبة . .  
 مرا بنسيم فقال له رغيد : احمل الينا قهوة . . بسرعة . . الى غرفة المكتبة . .  
 في دربها الى المكتبة ، التقيا بدنيا ، وكانت تبدو مضطربة ومن نظرتها تتطاير شرارة  
 جنون . . صافحت رغيد ببرود - متبادل - ، ثم القت على نديم تحية تفيض لؤماً : لقد  
 بكرت اليوم بمغادرة البيت . . ولكنك لم تجد الوقت مبكراً لارتكاب جريمة قتل . .  
 - لم افعل انا ذلك . . انت فعلته . . كنت تمشين في نومك وشاهدتك تحملين سكينك  
 الخاصة بفتح الرسائل ولم اجرؤ على الاقتراب منك . . انك تتحولين الى امرأتين  
 تشاجران . . أنت أيضاً تخلصت من بيكاسو قبل ذلك دون ان تدري واتهمتي بذلك . .  
 - « انت كاذب » . . قالتها بوهن ، كأن اتهامه وجد ارضاً خصبة في اعماقها . . ( ليلي  
 فعلت ذلك وانا ثملة . . ليلي اريد حقاً التخلص من هذه اللوحة المسحورة المقلقة . . آه لم  
 اعد اميز بين الوهم والحقيقة ، وبين الحلم والفعل . . تداخلت الأشياء ، واتعذب ) . .  
 قال رغيد بسطوة : يمكنكما متابعة الشجار العائلي في البيت بعد ٤٨ ساعة . ورثما

تنقضي « ليلة المليار » امنعكما من تبادل الحوار .

\*\*\*

حين ضمتها غرفة المكتبة ، تنهد نديم وانهار في مقعده وهو يمسخ بمنديله العرق البارد الذي يتصبب منه .

قال رغيد قلقاً : لقد بشرتني بموت ابن الشيخ صخر . . صقر هنا ، لكننا لن نخبره بمصرع احد اخوته ، وهو على اية حال قد لا يبالي ، وقد لا يخفي شماته . . ثم انه مشغول بتناول جرعه « البيضاء » . . ما الذي يقلقك ؟  
- انها كارثة . . كارثة . . .

- ماذا حدث ؟

- المدرسة . . انهارت المدرسة التي عمرناها نحن . قتل ابن صخر تحت انقاضها ومعه عشرات الاولاد . . .

- ماذا ؟ انهارت المدرسة ؟

صمتاً طويلاً ، طويلاً . . وحين استعاد نديم انفاسه كرر حكايته مضيئاً : لولا العطلة الصيفية لقتل المئات . . . كان ابن صخر ورفاقه في المكتبة التي تبرعنا بها لقراءات الصيف . .

- لا . . . لا اصدق . . .

عاد نديم الى مسح العراق المتصبب منه ، ثم قال كالنواح : انهارت فجأة بعد عاصفة رملية ، لغش في مواد البناء . . لعل مهندسك بالغ قليلا هذه المرة ، لكن مسؤوليتك لا جدال فيها . . .

استل رغيد سيجاراً واشعله ولم يقل كلمة واحدة . . . سكنت طويلاً ، بينما كان نديم يتلع كأساً من ماء النار لم يقدمها اليه احد ، وهي المرة الأولى التي يخرق فيها قواعد ( البروتوكول ) امام « الباشا » !

صمتاً طويلاً . دخل نسيم يحمل القهوة . رشف رغيد جرعة وقال : القهوة باردة . هل كنت واقفاً بها خلف الباب للتنصت كعادتك ؟

فوجيء نسيم . ذهل ، والتجأ الى الصمت . .

- هل تتوهم انني لا ألحظ كل شاردة وواردة ؟ . . . لنا حساب بعد « ليلة المليار » . .

والمسؤول الأول عنك هو من احضر ك وزكك . .  
 وتطلع رغيد الى نديم بكراهية اصيلة وكأنه يلومه على كل خطأ وقع على هذا الكوكب  
 منذ زمن آدم . .  
 وغادر نسيم الغرفة لا يلوي على شيء . . . قال نديم : والآن ، ما العمل ؟ . . . هل  
 نلغي « ليلة المليار » غداً كي لا يحولها الشيخ صخر الى فضيحة ؟ صمت رغيد طويلاً ثم  
 قال كمن يصدر حكماً قاطعاً : الغاء « ليلة المليار » مستحيل . . لقد دعوت معظم حكام  
 الارض الحقيقيين من ملوك المال ، وقد وصل بعضهم . . .  
 - مات عشرات الاولاد والاطفال هناك . .  
 - انهم يموتون كل يوم في كل مكان لاسباب مختلفة . . .  
 - انها كارثة . . لقد انتهينا . . الاهالي في حالة حزن وذ هول ، ستعقبها بالتأكيد حالة  
 هياج . . انتهينا . .  
 - انها مشكلة يجب ان تعالج . . . هذا كل ما في الامر . . .  
 - لن يسكت صخر ولا هلال ولا قومهما عن الكارثة . . . سيدمرون اعمالنا في كل  
 مكان . . انتهينا . . .  
 عاد رغيد الى صمته . . . غرق طويلاً في افكاره بينما كانت عضلات وجهه تتقلص  
 وتنبسط ، وخيل الى نديم ان داخل هذا الرجل القوي كومبيوتر تضيق مصابيحته الحمر  
 والزرق والبيض وتجري داخله عمليات حسابية معقدة دون ان يبدو على شاشته ما ينم عن  
 النتيجة . . . واخيراً نطق الكومبيوتر بصوت هاديء محايّد لا ينم عن شيء : اذهب الى  
 غرفتك واسترح . . . سأناديك فيما بعد . لا تقل شيئاً لدنيا او لاي شخص آخر . . وحذار  
 من إخبار صقر . . .  
 - ولكنهم سيعلمون . . انهيار مدرسة عمرناها ، ومصرع عشرات الاطفال لن يظل  
 سراً . . . ستكتب الصحف عنه وتتناقله الالسن . . . وربما يتدخل الانتربول كطرف  
 لاعتقال المسؤول . .  
 - لا تبح لاحد بكلمة . . ودعني اتصرف . . والاهم من ذلك كله . . . لا تقلق . .  
 ثق بي ، وسيكون كل شيء على ما يرام . . . وكما تشتهي ا

\*\*\*

تأملت كفى الثوب الذهبي الشفافية ، العاري الكتفين ، الذي اهداها رغيد إياه ،  
ونسيت كل شيء عن همومها . . عن خليل الذي سارع الى المستشفى للاطمئنان الى ابنه ،  
قبل ان يراها او يصفاحها او يسألها عن احوالها . . .  
ارتدت حريره الثمين الذي يكشف مفاتن خاصة في جيدها لم تلحظها من قبل كما لم  
تلحظ نظرات صقر المتلصصة عبر الستائر وهو واقف فوق الشرفة المشتركة لغرفتيهما . ارتمت  
فوق السرير ثملة بجماها . . ودقيقة بعد اخرى ، بدأ مفعول الثوب البديع يغادرها كأنه  
مخدر بسيط بدأ يفقد تأثيره القوي السابق بسبب الاعتياد ، وهاجتها من جديد صورة ابنتها  
رامي . . تخيلته ممدداً في المستشفى . لقد اطمأنت الى جرحه البسيط ، ولكنها لامست  
الكابوس من جديد . . امكانية ضياع رامي في الغربة . : ( انه بخير . فانسى  
الحادثة ) . . . ولكن . . كل مصيبة او امكانية مصيبة تذكرها بوداد ، فيغمرها غم حقيقي  
( لا اريد ان تقع عيني بعد اليوم على ما يحرك الحزن في نفسي . لم اعد اقدر . لقد حزنت في  
بيروت بما يكفي لعدة حيوات . . . بكيت بالنيابة عن قبيلة من النساء .  
عشت في عزلة مخاوفي بينما زوجي يرتع في السجن في بحوكة مباهج عظمتة الوهمية .  
تعبت من التعب ومن كل شيء . لست حمقاء بقدر ما ابدو ، وبقدر ما يحلو لمن حولي  
التوهم دون ان يضايقي ذلك . لقد اخترت دربي وانتهى الامر وصار شعاري : يارب . .  
« يا ربي نفسي » . . اريد ان اعيش عمراً من المباهج ، وليكن قصيراً او طويلاً . . ما  
الفرق . كم تبدلت اشياء منذ تبدل اسمي من كفى الى كوكو . اريد ان تحرك داخل عمري  
من الآن فصاعداً كما تتحرك النساء الجميلات الملونات داخل صفحات مجلات الازياء . .  
واذا وقعت عيني على جريج ، فسأشبح بوجهي الى الرصيف المقابل ، والى اول واجهة  
دكان مجوهرات القاها في دربي . شر ان اتحاشى الألم ولا اساعد جريجاً ؟ ربما . . لكنني لست  
اعظم شراً من الذي جرحه ، او من حماقته التي قد تكون تسببت بجرحه . ان الناس لا  
يحكمون الا السعداء . اما الذين يجلبون التعاسة لانفسهم ولسواهم امثال زوجي فيتفنن  
الشعراء والمفكرون امثال امير في اختراع الشعارات لهم وتزيين الجراح التي يسبونها  
لانفسهم ولسواهم ، بحيث يوهمون الحمقى ان الجرح احلى من الابتسامة . ليتني لم انجب  
اطفالاً ، فكل طفل هو مشروع بؤس كبير في هذا العالم المتوحش . . . ولكن ما كان قد  
كان . . والمهم ان اصر على النسيان . . . وان اهرب من كل ما يمكن ان يسبب الحزن  
لي . . . عادل سيسافر بعد «ليلة المليار» ، وقد وعدني بشراء الشقة من نديم ، وتركى اقيم

فيها شرط ان اخلص له في فترات غيابه . قبلت ، لكنني لن اخلص له وسأخونه كي لا اخون حقيقتي . لن اخلص الا لشهيتي المفرطة لنزواتي ومتعي الصغيرة والكبيرة ) . .

كان صقر ما يزال يتأمل كفى ، وجسده يرتجف ربما لكثرة ما ابتلع من حبوب منشطة ، وهو يفرك الكوكابين في منخرية محاذراً عطسة مفاجئة .

نهضت فجأة من سريرها وقد داهمها خاطر مفاجيء ، استولى عليها وانساها كل ما عداه : ستجرب الثوب الذي اعدته بنفسها «لليلة المليار» ، وسترتدي الذي تبدو فيه اجمل . . كلما ازداد عشاقها ، قلت شهيتها لطاعة رغيد اوسواه . . كأن امرأة مجهولة في اعماقها تنمو وتزدهر ، وقد بدأت اظاferها ايضاً تكبر . . كأنها لم تكتشف ذاتها حقاً بعد ، بعدما دفتها بيروت سبعة اعوام بليلاتها تحت ركام الجثث المتناثرة والسيارات المتفجرة والقمامة والعويل والرصاص المتطاير احتفالاً وحداداً وفي الدرب الى المستشفى والى القبر . .

ما كادت تقف ثانية امام المرأة ، حتى شاهدت يداً ممدودة عبر ستائر الشرفة ، حاملة علبه مخملية ارجوانية وقد ازدهر داخلها عقد خرافي البهاء ، ازرق الاحجار ، يتأجج كأن حياة خاصة تعصف داخل معدنه الذهبي البراق . .

استدارت شبه مسحورة . . تحدرت حواسها واحزانها ولم تعد ترى غير الامواج التي تتحرك في بحار احجار الفيروز . . . عقد كهذا على عنقها كفيـل بابرار زرقة عينيها . . .

وتحركات اليد بالعقد متقدمة صوبها ، وهي لا ترى سواه منومة ببهائه وشهيتها لامتلاكه ، وحين رفعت نظراتها اخيراً نحو وجه حامله بقامته الفارعة ، فوجئت بان له وجه شيطان مرعب يشبه القناع . . وقبل ان تصرخ كانت يد قوية تكـمـفـمـها وانفاسها ، وصوت مألوف لم تميز صاحبه يهـمـس : لا تصرخي . جئت اهديك هذا العقد . لا اقصد ايداءك او تخويفك . لكن لي اسلوبي الخاص في كل شيء . . بما في ذلك تقديم الهدايا . . .

هدأت قليلاً . حدس ذلك من استرخاء ملامحها تحت يده بعض الشيء . . افلتها وهو يقول : استديري الى المرأة ، وانظري كيف صنع « كارتيه » هذا العقد خصيصاً لعينين كعينيك . .

« كارتيه » ؟ خدرها الاسم ، وكادت تشهق فرحاً وهي ترى العقد البديع يحيط عليها مثل قاعدة خارقة البذخ لتمثال خارق الجمال هو رأسها الصغير . .

عاودها خوفها بعد ثوان ، وحدس هو ذلك حين شاهدها تغطي صدرها شبه العاري بكفيها ، فقال بلهجة آمرة : ارتدي معطفك . فارتدته بدهشة .

- ضبعي على رأسك غطاء .. لفه بالشال ..  
 ففعلت ، وهي تشعر انها تخطو داخل حلم هذياني .. وكانت السحب تزداد كثافة ،  
 وخيل اليها ان الغرفة تظلم تدريجياً .. وعممة شيطانية تهبط من السقف وتهطل من الدفء  
 الرطب المشبوب لهذا اليوم المكهرب .  
 وشعرت بخزانات عنف مجهولة تنطلق داخلها ، كأن سيالات غامضة تتسلل اليها من  
 الشيطان المجهول امامها ، وتفتح ابواباً كانت موصدة في اعماقها .  
 وفجأة ، دون ان ينطق احدهما بكلمة ، ودون ان يخلع عنها معطفها او غطاء رأسها ،  
 ارتقى على السرير وجرفها معه مثل جزيرة اختطفها امواج مسحورة ، وفي لحظات كانت  
 الامواج تهاجم مغاورها وطحالبها هائجة صاخبة .. واستسلمت الجزيرة للأنواء ، تغرق  
 وتطفو ، وقناع الشيطان يروح ويحيى امام عينيها ، وارادت ان تعبر عن امتنانها للملامسة  
 قاع البحر الخارق الاضاءات الحار الكاوي ، ولا تدري لماذا صفعته ...  
 كانت صفعة قوية ازاحت القناع عن وجهه واوجعتها ! واذهلها ان تميز فيه صقر ، ذلك  
 الشاب الصغير الوسيم الثري الذي طالما حلمت به كلما لاطفت جسدها .. صفعته مرة  
 ثانية وهي تقهقه كمعتوهة ، واذهلها ان عنفها الشرس زاد بحاره صخباً وهياجاً ...  
 صفعها بدوره فاشتعلت وجداً ، وكان الانسجام خارقاً بين قسوتها الداخلية المتبادلة  
 المنتشية . وعادت الامواج تغطي الجزيرة وتتخلل مغاورها وثقوب آبارها .. ابهار غامض  
 مشوب بالالم ، وبمهاج اكتشاف الجانب البحري للجحيم .. انها في قاع البحر على حافة  
 البركان والزلازل المائي المنصهر يتفجر .. وصقر مبهور بتلك المخلوقة الخارقة : لم يستقبل  
 احد من قبل عدوانيته بهذا الترحاب المتوحش غير المزور ..  
 ويفتح الباب ، ومنه يطل وجه خليل !  
 حين شاهده ، صرخت ببساطة : انه يغتصبي .. النجدة .. وازداد اعجاب صقر  
 بها وهو يتأمل « حالاتها » السريعة التلون .. وجاء صوتها غنوقاً ، وكأن خليل لم يسمعه ،  
 فقد اغلق باب الغرفة خلفه واتجه صوب احد المقاعد ، وجلس وقد ادار ظهره لها .. كأنه  
 لم يرها ايضاً .  
 قفز صقر واقفاً ، واعاد قناعه ، الى موضعه بعناية ، وسوى ثيابه .. كفى جلست على  
 طرف السرير وهي ما تزال ترتدي معطفها الصيفي والشال يغطي شعرها .. لم تشعر  
 بالخرج ، ولا بالارتباك . لم تشعر بأي شيء غير الرغبة في مغادرة الغرفة ، وبعض الدموع

اليسيرة تنهمر من عينيها الجميلتين ربما من باب اللياقة . . وخرجت ، بعدما صفقت الباب خلفها بشدة . . اما صقر ، فقال مخاطباً خليل ببرود : « كم تريد (خلواً) لترك زوجتك لي ؟ اريدها لي . حدد المبلغ ، واعلمي بالرقم » . . وكاد صقريغادر الغرفة عبر الشرفة كما اتي ، ثم بدل رأيه لسبب غامض وخرج من الباب الرئيسي بعدما خلع قناعه وحمله في يده . . ولم يلتفت خليل صوبه ولم يقل كلمة واحدة . . لقد صعقه ان يرى زوجته تحونه ( عملياً ) . كان يعرف ذلك كصورة ذهنية ، وحين واجه الأمر ، ضيع صوته واختلطت مشاعر سديمية في نفسه . .

\*\*\*

حين غادرت كفى الغرفة ، التقت في الممشى بليلي ودنيا ، وهما ترتبان شرفساً من الدانتيل تحت احد التماثيل بعدما بدلتا موضعه ، ولا تدري لماذا قالت لهما باكية : لقد اغتصبني صقر . . . نظرت اليها المرأتان وفي وجهيهما امارات عدم التصديق . . . قال ليلي بفتور : لم يغتصبك احد . صقر نائم في غرفته . كنت بالتأكيد تحلمين . حادثة ابنك هزت اعصابك وهذا طبيعي . ولكن باب غرفتها فتح من جديد ، وغادرها صقر ، منسللاً الى غرفته المجاورة . . ولم ير النسوة الواقفات في آخر الممشى . . . ولم يلحظ الدهشة تعلو الوجوه . . . حين غيبه الباب ، تابعت ليلي بقسوة : اعصابك متعبة . لم يغتصبك احد . أليس كذلك يا دنيا ؟ ظلت دنيا صامته . تابعت ليلي : عقدك جميل يا كوكو . . ولكن الوقت غير مناسب لارتدائه . هيا بدلي ثيابك بسرعة ، وتعالى ساعدينا . . ثمة عمل كثير يجب انجازه . .

\*\*\*

عادت كفى الى الغرفة . بدلت ثيابها بيدين مرتجفتين . تمت ان يخاطبها خليل . ان يقول اي شيء ليتشاجرا على الاقل . لم يلتفت صوبها . ظل في جلسته على مقعده وقد دفن رأسه بين يديه . . كادت تسأله عن صحة رامي ، لكنها تذكرت انه بخير وجراحه بسيطة . .



نادته : خليل . . .

لم يجب وقررت بصرامة ( لا ابالي بما يحدث لاحد . « ياربي نفسي » انا ، وانا فقط .  
لن ادع الألم ينخرني من الداخل وسأسكت الاصوات كلها في اعماقي لاطل سعيدة . غداً  
« ليلة المليار » ، وسألتقي بـ ٣٠٠ مليونير على الاقل وابهرهم . لقد تفتحت امامي ابواب  
الحياة )  
ولكنها غادرت الغرفة وهي تقول لنفسها بصوت عال : لعله مات . . هو أيضاً ! . . .

\*\*\*

بعد ذلك اللقاء ورغيد الذي ينذر بعاصفة ، لجأ نديم الى غرفته ( الموقنة ) في القصر ،  
متأملاً السحب السود الحارة المنذرة بعاصفة هي ايضاً . حين دخلت دنيا الى الغرفة ظنته نائماً  
فهزته لتوقظه . لم يكن نائماً . . اغمض عينيه لحظة دخولها ليتحاشى الحوار واياها . . كانت  
احجار المدرسة المنهارة تتساقط فوق رأسه ، والفضيحة المدوية التي ما يلبث ان يعلم الناس  
بها جميعاً تهوي على عنقه كمقصلة تروح وتجيء .

تهزه : نديم . . انهض حدث شيء مروع . .

سألها : وانت ايضاً علمت بالأمر ؟ كيف ؟

قالت : شاهدته يغادر غرفتها . .

- عمّن تتحدثين ؟

- وانت . عم تتحدث ؟

- لماذا ايقظتني ؟

- لقد اغتصب كفى . . صقر اغتصب كفى . . و خليل لعله . . .

قاطعها نديم غاضباً : تفاهات . . هذا كل ما يشغل بال النساء . . ما همنا ان كان  
اغتصبها ام لا . . ولماذا يغتصبها وهي تغالزه امام عيني زوجها والناس كلهم منذ اللقاء  
الأول ؟ . .

- لا ادري لماذا . . لكنه اغتصبها . .

- ربما كانت المسرحية تتمعهما . . دعيني وشأني . .

- لقد اغتصبها حقاً . . ليل ترفض ان تشهد ، وانت تتظاهر باللامبالاة ، وتجهل انني

اعرف علاقتك بها . .

- لكن ذلك غير صحيح ..
- انت كاذب ..
- قال نديم يائساً : عمرنا كله كذبة كبيرة .. والآن ترفضين هذه الكذبة الصغيرة ؟ ..
- علاقتي بها .. علاقة صقر بها .. كلها تفاهات .. تجاوزها كعادتك ..
- لم اعد اقدر .. وقتلك لبيكاسولن يرهيني .. وطعنك لصورتي لن يبدلني ..
- اقسم انني لم افعل .. انت مشيت في نومك وطعنت الصورة .. وبيكاسولا اعرف عنه شيئاً .. لعله هرب .. اودهسته سيارة ..
- لن توهمني بانني مجنونة .. ولن تجد مصحاً واحداً يقبل بسجني ..
- ارجوك يا دنيا .. دعينا من كوكو ، ومن لوحتك وكتبك وفنك وتلك التفاهات كلها ..
- اذا كانت هذه « تفاهات » ، ما الجدي في نظرك ؟ .. على اية حال ، سأقول ما رأيت ، وسأشهد بالحق .. صقر اغتصب كوكو برضاها . أريد ان يعرف الجميع انك لست عشيقها الوحيد .. هذا انتقامي منكما .
- ( ادهشها صوتها وهي تقول ما تقوله ! ما الذي حدث لها وبداها ؟ ولماذا عادت المشاعر تتدفق داخلها على غير هدى ؟ سلوكها مشوش ، وعاجزة عن ضبطه ) يهددها نديم :
- سيغضب رغيد ..
- لا يهمني ..
- سأدفع انا الثمن ..
- لا يجرؤ .. لا يجرؤ على ايداء نملة .. سأهدده بدوري ..
- قال بلهجة يائسة : ارجو ذلك . ارجو الا يجرؤ على ايدائي انا على الاقل ، قبل النملة ! ..
- سألته ببعض الاهتمام : ماذا بك ؟ ..
- دفن وجهه بين يديه ..
- ماذا حدث . قل لي .. اياً كان ما كان ، لقد عشنا معاً اعواماً طويلة .. هي شبابنا .. اي حياتنا .. ولن نحصل على سواها . لن يعيدها احد الينا لنبدأ من جديد ..
- لقد تورط كل منا بالآخر ماذا حدث ؟ ..
- هل انت صديقتي ؟

- لا ادري .. لكنني سأحاول ربما من اجل نفسي لا من اجلك .. بالتأكيد لم اعد  
 حبيبتك ولكن ... اولادنا مشتركون اي ان مصائبنا بمعنى ما ستظل مشتركة لوقت  
 طويل .. قل لي .. ماذا حدث ؟  
 - دنيا .. اظنني سأواجه ورطة خطيرة .. سأبوح لك بسر .. لا تطلعي عليه  
 احداً .. واذا اخبرك احد بالنبا فتظاهري بانك كنت تجهلينه  
 - يكفيني تشويقاً .. ماذا حدث ؟  
 - رغيد سيكون حريصاً على رضى صقر اكثر من اي وقت مضى ، لأن الحرب ستقوم بينه  
 وبين الاب الغنمالي ..  
 - لماذا ؟  
 - لان عبد الله احد ابنائه قتل البارحة .. انه ابنه من زوجته المحلية « صيته » ..  
 واظنها ابنة عمه او قريبته مما سيزيد في تعقيد الامور ..  
 - وما شأننا بذلك ؟ قبلها مات احد ابنائه المدللين في سقوط طائرته الخاصة  
 الهليكوبتر .. وقبلها ... قاطعها نديم : مات عبد الله حين انهارت المدرسة فوقه ،  
 وعشرات سواه .. المدرسة التي عمرها رغيد .. أعني ، عمرناها ..  
 صممت قليلاً .. همست بهدوء مذعور : ولكنك لست مسؤولاً .. رغيد هو  
 المسؤول ... هو او كبير مهندسيه .. لا شأن لنا بهذا ..  
 - بالتأكيد ، لكنني خائف ..  
 - لماذا ؟  
 - لا ادري بالضبط ، لكنني خائف .. لا بد من كبش فداء في احوال كهذه ..  
 الديناصورات الكبيرة قد تقتل فيما بينها ، وقد تجرح بعضها بعضاً .. لكن الامر ينتهي دائماً  
 بأن يدوسوا بعض معاونيهم .. ويقدموا البعض الآخر كبش فداء ..  
 - لا تخف ...  
 قالتها وهي ايضاً ترتجف ذعراً .. كانت قد عايشت مجتمع الديناصورات بما يكفي  
 لتفهم جيداً ما يعنيه زوجها .  
 وفكرت بمغادرة الغرفة قبل ان تؤنبها ليلي التي تشكو باستمرار : « لا احد يعمل سواي  
 من اجل ليلة المليار » ...

كم تبدلت ليلي وصارت متسلطة وقاسية . . وربما حانت فرصتها الآن لقطف رأس نديم ، والحلول مكانه . .

الكوارث كلها تبدأ بغلطة صغيرة . . لقد دعتها الى تلك السهرة نصف مشفقة ، كما تدعى اية مطلقة اربعينية فقيرة لترفه عن العجائز . . فالتقت برغيد . . واصطادته . . وها هي الآن تهدد رزقها وامنها . .

لا امان في بحار اسماك القرش . . ولا صديقات . .

ترتجف ذعراً وتكرر : لا تخف يا نديم . . .

هل هي حقاً مشفقة على نديم ؟ ام شامته ؟ لا تدري بالضبط . . كل ما تدريه هو انها خائفة ، كمن كانت تركب سيارة الرولرزويس المذهبة في حديقة حديثة ، للحيوانات مطلقة السراح ، وكانت تتقن قواعد اللعبة : تترك نوافذ السيارة مغلقة . لا تسرع كي لا تستفز الوحوش ، ولا تتوقف ايضاً . . وفجأة وجدت نفسها وحيدة في الغابة ، بلا سيارة ، وقد مضى الناس جميعاً ، وذهب القناصون الذين يوكل اليهم امر قتل اي حيوان في حالة الطوارئ ، وانهارت قواعد اللعبة التي كانت ترسم خط سير الوحوش ومواعيد تخديرها ، وتضمن حماية راكبي السيارات المحصنة . .

وعليها ان تواجه فوضى الاشياء المفترسة من جديد . . وريثما تستعيد الغابة نظامها ، عليها ان تحمي رأسها وحيدة من اللحظة التي طالما اشتتها : لحظة حرقتها . .

\*\*\*

كان رغيد في دربه الى سيارته حين لحقت به ليلي وهي تنوي ان تحدّثه بشأن النقود . . وبدأت الحديث بلعب دور ( الجاسوسة ) استدراراً لثقتة ، وتذكيراً له بحاجته اليها . . فهمست : ثمة متاعب . . صقر اغتصب كوكو . .

- هذا ما كان ينقصني . .

- لقد منعته من الكلام . . افهمتها ان احداً لن يصدقها ، ولن اشهد معها . .

- من رأها سواك . .

- لا احد . . باستثناء دنيا . . لكنني سأتكفل بها . .

- وخلييل ؟

- لعله فعل . خيل الي اني لمحت شخصاً . . لست متأكدة . . كنت اعمل . . اظنه لما

يعد بعد . لو عاد خليل لاقترب والقي التحية . .  
 - انه بالتأكيد لم يعد . لورأهما لما قبل بالسكوت . . تعرفينه . . والآن اسمعي يا  
 ليلى . . لدي أعمال طارئة . . تولي انت كل شيء . . كوني شريكتي في حمل متاعبي . . ولن  
 تندمي . .  
 كادت تطلب منه نقوداً . كانت قد قررت ان تلح . . لن تنتظر حتى الغد . . انها امرأة  
 كثيرة الشكوك والمخاوف ، وتعرف ان توقيع شيكات بدون رصيد تعني الفضيحة  
 والسجن . . صحيح ان رغيد سيدفع غداً فجراً كما وعدها ، لكنها حذرة وتصر على  
 المبدأ . . عبارة « كوني شريكتي » كانت كالسحر . . خدرتها برهة ، ريثما غادرها رغيد  
 وخلف لها صوته : اختاري انت مقاعد الضيوف ، واجلسيهم الى المائدة كما تشائين . .  
 لدي عمل طارئ ولا اجد سواك سنداً . . .  
 وبينما كانت ليلى تفكر هل يعجبها اسم « ليلى الزهران » وتقرر انه ليس رديئاً ريثما  
 تصبح واحدة من اغنى ارامل العالم ، كان رغيد يتخلص من سائقه ، ويقود سيارته بنفسه بلا  
 حراس . .  
 لا مفر من المغامرة لينجو من كارثة انهيار المدرسة وموت عبد الله . . ولن يدع تفاهات  
 كهذه تفسد عيد ملياره الأول ، وملياره الثاني الاكيد .

\*\*\*

دخل رغيد مجلس صخر والدموع تغطي وجهه وهو يصرخ : ما هذه المصيبة يا اخي  
 صخر . . . جئت للتعزية . . .  
 صرخ صخر ملسوعاً : لا عزاء قبل ان اسلمك للمحاكمة . . . ستقضي بقية حياتك  
 في السجن . . . لقد تسببت بموت ابني عبد الله تحت الانقراض وموت عشرات الاولاد . . .  
 - اهدأ يا صديقي . . . صبرك الله على مصابك . . . ثم التفت رغيد الى الجمع  
 قائلاً : دعونا وحدنا قليلاً . . . فغادر الحاضرون الغرفة ، وكل منهم يسبق الآخر الى  
 الباب . . . لا احد يرغب في ان يكون شاهداً على شجار « المليارين » ، فامزجة الاثرياء  
 تبدل كثيراً ، والشاهد يدفع الثمن ، وقد ينقله احدهما - دون ان يدري كيف - من منصة  
 الشهادة الى قفص الاتهام . . . هذا ما يعرفه اهل المجلس بكل تأكيد . . قال صخر : كيف  
 تجرؤ على الحضور الى بيتي . . . بعدما قتلت ابني . . . وخربت سمعتي في بلدي . . .

وقضيت علي لعنك الله . .

تابع رغيد نواحه : وكيف لا احضر الى بيت صديقي واخي وحبيبي في مصابه . . .  
- الم يخبرك نديمك او حدسك انني سأسلمك للعدالة تقتص منك ؟ ستحاكم هناك ،  
واذا لم تذهب بنفسك ، اختطفتك وحملتك الى قاعة المحكمة بنفسني . . .  
- لا الومك يا أخي . . . لو كنت مكانك لفعلت اكثر . . . ولكن نديم لم يقل لي  
شيئاً . . . المسكين . . . ضميره يؤنبه . . انه صامت كأنه اصيب بالخرس . . والندم  
يتصبب منه عرقاً . .

- ماذا تعني ؟

- نديم لعنة الله عليه . . . انه سبب الكارثة . . . لقد خدعنا معاً . . الم يصلك النبأ  
بعد ؟ الم يخبرك معاونوك بجرم نديم ؟  
- ماذا ؟ .

- لقد جاء معترفاً . . . انها لعبته ، وقد شاركه المهندس إياه . . .

- سأقتله بيدي اذا كان ذلك صحيحاً . . .

- لا ضرورة لتلطيف يديك الطاهرتين به . . . لقد اقنعت بتسليم نفسه . . والاعتراف  
بجرمه . . اما المهندس فسأعاقبه بيدي بعد انجازه بناء مشروعا الكبير الحالي : المجمع  
السياحي . . .

- يا الهي . . . ظننتك انت مسؤولاً . . . .

- سأمحك الله يا اخي . . هل نسيت صحبتنا ؟ . . معقول ؟ ما كدت اسمع بالنبأ حتى  
جئت كالمجنون . . . بدون سائقي ولا حارسي . . . سأمضي الآن لأضمن تسليم نديم  
لنفسه ، ولتأخذ العدالة مجراها بوضوح دونما تلطيخ اسمينا الناصعين البريئين . .

رافقه صخر الى الباب غير مصدق . . . يعرف ان رغيد لا يمشي خطوة بدون حارسه  
وسائقه . . . فوجيء بالسيارة امام الباب ، فارغة ، محركها ما زال يدور وبابها مفتوح . . .  
غمزته طيبة قلبه ، فعانق رغيد وهو يبكي ابنه عبد الله ويقول : لعن الله الشيطان يا  
صديقي . . وسامح اخي هلال الذي ادخل هذا الشك في قلبي . . .

عبر النافذة شاهد الحضور عناق العملاقين ، مليار يضم اليه الآخر ، فاشاحوا  
بوجوههم خوفاً . . لا يريدون لعب دور الشهود في شجار او صلح بينها . . .

قال رغيد : بحرية بحاجة الى الراحة . . . هل ترضى باستضافتها ليلتين ، الليلة وغداً

ريثما ينتهي كل شيء ؟ لن يكون بوسعها حضور «ليلة المليار» على اية حال، ولا مبرر له ما دمت لن تأتي . . . وقد جربت الغاء السهرة حداً على عبد الله لكن مدام سبوك افهمتي ان نصف الحضور قد وصلوا ، وليس من اصول الضيافة العربية طرد الضيوف . . . سنلغي طبعاً كل ما له علاقة بالطرب ، وستكون سهرة متقشفة . . . فهل يمكن ان تستضيف بحرية هذه الليلة وغداً ؟

- انها قريبتك ، اي قريبتي . . . وبيتي هو بيتك . . .

- وابنتك هو ابني . . . رحمه الله . . .

وعاد رغيد الى البكاء قائلاً : سأرسل بحرية مساء . . . هل ستضايقك زيارات

طبيها ؟

- من يحرم طفلة مسكينة من علاجها ؟ شفاها الله ومتعها بالعافية . . . ستكون امانة بين

يدي . . .

- لولم اكن واثقاً من ذلك لما وكلتك امرها . . .

- والشيخ وطفان . . . هل سيحضر السهرة ؟ . . . ام ان الضجيج يضايقه هو ايضاً ؟

- لقد غادر البيت منذ الصباح . . . ذهب الى الفندق . . .

- انه رجل فاضل . . . سأذهب غداً لرؤيته هناك ، وقد ادعوه الى مجلسي الليلة . . .

- هل ستسافر الى الوطن لحضور الجنازة ؟

- لا استطيع . . . منعي طبيبي . . . قرحتي تنزف ، وقد اضطر لاجراء عملية جراحية

اذا لم تنفع معها العقاقير ، وتعاويز الشيخ وطفان . . .

- الى اللقاء يا صديقي . . . ومعذرة على هذه الزيارة غير اللبقة . . .

- لو انك فعلت اي شيء آخر ، لظللت اشك بك واحقد عليك . . . ولانتقم

لمصرع ابني . . .

واقلع رغيد بسيارته وضحكة شيطانية تملأ وجهه الدامع . . . ولم يكن ليكذب حين

بكى او ضحك . . . كان صادقاً في كذبه حتى الاخلاص . . .

\*\*\*

شيء ما في هذا اليوم المختنق الخانق يفجر الاشياء . . .

. . . ولا تدري ليلى مبعث الضيق الغامض الذي استولى على قلبها غارساً غالبه

المعدنية الشرسة . . .

لعلها مرهقة ، وهي تنظم جيشاً من الخدم والسقا عليهم الحضور غداً وتمثيل ادوارهم على اتم وجه في ثياب مسرحية استأجرتها لهم بنفسها، واشرفت على تجربتها لهم كما طاردت كل صغيرة وكبيرة تخص الحفل ، بدءاً بالديكور والبروتوكول ومروراً بمواعيد وصول الطائرات الخاصة التي تحمل الطعام المستورد المتعدد الاصناف والفاكهة من اقطار الارض كلها ، بحيث تجتمع الفصول الاربعة على المائدة ، وانتهاء بأهل الطرب الذين سيزينون الحفل ومواعيد اطلالاتهم كي لا يسرق احد الكاميرا و (الشكشكة) ويدب شجارهم امام الحضور ، وتأمين مواقف سيارات (العظماء) الذين لا يمشون خطوة ، فلكل خطوة معناها وقد تسقط اسعار العملات في البورصة اذا لم يحسب احدهم مدلول خطوة غير مدروسة على رقعة شطرنج المليارات ، وسماجة الكهربائي الذي يوضب الميكروفون لاذاعة اسماء الحضور . . .

«ليلة المليار» يجب ان تحمل بصمة المليارات ابتداء بمناشف الحمام المطرزة باليد بخيوط الذهب حاملة تاريخ هذه المناسبة ، وانتهاء بـ ( خدم العتبة ) الذين يمسحون اخص احذية الضيوف قبل دخولهم الى القصر نصف راكعين . .

لكن ضيقها كبير وشاسع ، ويتجاوز هذه التفاصيل كلها . . . ضيق واضح المعالم كالقبر ، وغامض كنهايات الافق . . ضيق له لون داكن مخنوق ، وطعمه شديد المرارة بين اسنانها المشدودة باحكام كفكي جثة متصلبة . . .

هل هي تلك السحب السود التي تتكاثر منذ الصباح كجند عدو غامض ، من بعض اعوانه الجراد البني . . . وتلك الرطوبة الجنازية الجاثمة على القلوب كحجر القبر ؟ . . . وتلك الومضات الشبيهة ببرق سري محجب ، ما تكاد تلمحه حتى يختفي ، مؤججاً في نفسها مخاوف غامضة : . . كمن يقرأ رسائل عدوانية بالتخاطر ؟ . . . ولكن ، لا . . . هي امرأة عملية . . وكل موجة حر ( كانيكولية ) غير طبيعية لا بد من ان تنتهي بعاصفة رعديّة هوجاء . . . فهل الذي يقلقها هو غياب الرعد وحضور البرق الخاطف والظلام ؟ ولماذا تحس ان السماء تظلم لها شخصياً ، والسحب تتكاثف لترعبها وحدها ؟ . . .

لماذا لا تعترف انها خائفة من رغيد . . . خائفة من ان يغدر بها كما غدر بسواها ، بعدما وقعت تلك الشيكات دوغما رصيد . . . وبالمقابل ، لماذا لا تقر انها كانت تعرف مسبقاً ان مهنة « رجل الاعمال » تنطوي ضمناً على مغامرات يومية كهذه ، وانها حين اختارت درجتها ،



رضيت ضمناً بعنصر المقامرة الذي لا مفر منه كشرط لكل ربح باهظ ؟ ( علمني الزمان انه غادر حقاً . . . لم اعد اطمئن لزمن القلب . اذكر رجلاً احببتهم بصدق لحظة قتلها لهم ، والآن عبثاً اذكر اسماءهم كاملة . . اعرف رجلاً اسندت رأسي الى صدورهم ، وتوهمتها مرفئي الاخير ، وجاء يوم صار فيه الصديق عدواً وقلب الحبيب وكر دباير . . كانوا رجلاً لا يخلون من النبل والشهامة ، ولم اثق بهم تماماً . . فكيف اثق الآن برجل من نمط رغيد ؟ وكيف وقعت شيكات بدون رصيد ؟ وماذا لو قال لي غداً : لن ادفع . افعلي ما بوسعك ؟ . . لماذا يفعل ذلك بي ؟ ولماذا لا ؟ ) . .

حين عاد رغيد ، لحقت به لي وقد قررت عدم الانتظار حتى صباح اليوم التالي . . . يجب ان يدفع الآن . . . لن يكون بوسعها النوم اذا لم يفعل . . . ستقول له انها قضية مبدأ . . . وليكن ما يكون . . . حين شاهدها اتجه نحوها قائلاً : لي . . الحمد لله انك هنا . خشيت ان تكوني قد ذهبت الى الفندق . . اريد ان اتحدث اليك . . - وانا ايضاً . . .

- لي يجب ان تساعديني . نديم قام بلعبة اختلاس كبيرة . . . عملية غش في مواد البناء . . . انهارت المدرسة التي عمرناها وقتل تحت انقاضها الصبي عبد الله ابن الشيخ صخر من زوجته وقريبته صيته ، وقتل وجرح عشرات سواه . . - هذا مربك وتوقيت سيء . . .

تابع رغيد : سأفنع نديم بالاعتراف وتسليم نفسه للقضاء . . - ذلك خير للجميع . . وسيكون بوسعك مساعدته فيما بعد . . . - هذا بالضبط ما انوي عمله . . . والآن ، اريد منك ايصال بحرية الى قصر الشيخ صخر . . الضجيج يؤذيها . . . ولا اريد ان تهبط عارية ومخدرة كما فعلت ليلة السهرة اياها كما تذكرين . . .

- وستؤنس وحدة الارب المفجوع . . . - ستلهيه قليلاً عن همه ، ريثما تمر «ليلة المليار» ونتفرغ له . . . لقد خدرت غضبه وحزنه قليلاً ، لكنه سيثور دوغماً شك حين يكلمه هلال وابناء قومه واسر بقية القتلى . . . انه طيب القلب ، كلمة ( تأخذه ) وكلمة اخرى تبدله فخذيها اليه . . . - فكرة ممتازة . . . ولكن آمل الا تزعجه . . . تعرف ان بحرية لا تخلو من خطر

غامض . . . والا لما كره ساحرك الجبار حضورها . . .  
 - انها نصف مخدرة باستمرار . . . سأحرص على ان يتأكد الطبيب من ذلك  
 بنفسه . . . ثم ان ( وجهها شر ) وحضورها فآل سيء . . . اللعنة على الذي  
 احضرها . . . لا اريدها هنا «ليلة المليار» ومن يدري اية كوارث تحملها ليلة ميلادها المشؤومة  
 تلك - ان صبح تاريخ جواز سفرها - .  
 - حسناً متى تريد ان اذهب بها ؟ . . .  
 - في اسرع وقت . . . المعذرة، هذا خليل واريد ان اتحدث اليه . . . ثمة عملية يجب  
 ان يتولاها بالنيابة عن نديم . . .  
 وتركها فجأة كما حط عليها . . . ومضى نحو خليل شبه مبتسم . . . لقد قال  
 لها ما عنده لكنها لم تقل ما عندها . . . حسناً . . . سترجى ذلك حتى المساء . . . وقبل موعد  
 فتح البنوك غداً ، سيكون « شيك الثراء » في طريقه الى البنك . . . وستصير ثرية بتوقيع  
 واحد من يد رغيد . . . ستغطي قيمة الشيكات التي وقعتها دونما رصيد منذ دقائق وسواها ،  
 وستفيض ثروة من الفرنكات لحسابها الخاص . . . فالأسعار التي قدمتها في  
 فواتيرها هي ثلاثة اضعاف الرقم الاصلي . . . وهي ليست بالضبط سارقة : انها تتقاضى  
 اجرة اتعاها . . . على طريقتهما . . .  
 لن تقدم خدمة بعد اليوم مجاناً ، اية خدمة . بل انها لن تصافح شخصاً دون ثمن مادي  
 محسوس . . .  
 ( لطالما وهبت دونما حساب . . فاكشفت اني لم اكن اكثر من حمقاء ستموت وحيدة  
 وفقيرة . . الآن ، سأموت وحيدة وثرية . . وهذا افضل ) .

\*\*\*

صافح رغيد خليل بحرارة غير مألوفة من رجل مثله ( ترى ماذا يريد مني الآن ؟ . . .  
 اغادر الغرفة باحثاً عن نسيم ، فيطلع لي رغيد . . . يا له من حظ ) . . .  
 - الحمد لله على السلامة . . . لم ارك ظهراً . . .  
 - وصلت قبل قليل . . . كنت في المستشفى . .  
 - وكيف حاله ؟  
 - بخير . . . لكنه يعاني من رضوضه . . .

- لا تخف الاطفال يتعافون بسرعة . . . هل التقيت بكوكو؟ . . .  
 - لم ارها منذ سفري . . . ( لن اقول له انني لمحتها في الفراش وصقر في استقبال خاص  
 اعداه لي ! ) . . .  
 - انها هنا . . . لعلها ترتاح في غرفتها او تساعد بقية السيدات في العمل . . . اريد ان  
 اتحدث اليك . . . تعال معي الى غرفة المكتبة . . . ثمة مهمة اضافية اريد ان اكلفك بها ،  
 وستدر عليك مبلغاً اضافياً لم تحلم به . . . مهمة كان يفترض ان يقوم بها نديم ولم يعد ذلك  
 في وسعه لاسباب طارئة ستعطله عن العمل زمناً ما . . . قالها رغيد وهو يتأمل وجه خليل  
 المنهك ، ثم بدل رأيه فجأة حين وصلا الى المكتبة ، وحين سأله خليل دونما مواربة : ماذا  
 تريد مني بالضبط ؟  
 اجابه رغيد : اريد منك ان تنام حتى موعد العشاء ، لأنك تبدو الآن كجثة متحركة .  
 هل شاهدت وجهك في المرآة ؟  
 - لا اعرف كيف ابدو . . . اعرف كيف اشعر . . .  
 - حسناً . . . اذهب الى النوم . . . سنتحدث ليلاً بعد العشاء . . . ثق بي ، وسيكون  
 كل شيء على ما يرام . . .  
 كان رغيد المحنك قد ادرك بخبرته الطويلة في التعامل مع الرجال ان ابواب شهوات  
 خليل في تلك اللحظة موصدة . . .  
 موصدة اراهاقاً ام رفضاً نهائياً ؟ لا يدري بعد . سيتركه لأصابع الراحة تدلك اعصابه  
 المستنفرة كأشواك قنفذ ، ثم يجرب ثانية بعد العشاء . . . أن كارثة انهيار المدرسة يجب ان  
 تعالج بسرعة ، وفي الوقت ذاته لا يجوز ان يفسد غياب نديم بقية الصفقات التي كان يديرها  
 . . . . ولعل خليل يهتم ببعضها . . .

\*\*\*

مساء الخير يا بحرية يا اغلى مخلوقة الى قلبي . . . تسمعين ، او ، لا تسمعين ،  
 تحيين ، او ، لا تحيين . . . لك عمري اذا كان يصلح لشيء . . .  
 أدخل نسيم اليها صينية عليها شاي بعد الظهر ، وهو يحدثها بصوت عال دون ان ينتظر  
 رداً ، منذ وصلت وهو يخاطبها ويدللها بحنان دون ان ينتظر اي مقابل . تأمل وجهها  
 الغامض الصلد وهمس : سمعت انهم سينقلونك الى قصر الشيخ صخر الغنمالي . لا مجال

الآن لسرد التفاصيل . لا تخافي لن يجرؤ احد على اذائك وسأتبعك وسأحميك بأية وسيلة . . . ولكن احذري منهم على اية حال . خذي ، هذا عنوان امير النيل ، وهو انسان نظيف يخاف عليك خوفاً ، احتفظي به جيداً . لم تتبدل ملامحها الغامضة ، ولم تقل شيئاً . تابع كمن يخاطب نفسه : لا ادري ان كنت تسمعينني ام لا ، تفهمينني ام لا ولكنني مصمم على محاولة مساعدتك . خذي بعض النقود للتاكسي اذا اضطررت للهرب . اعذريني ، لا املك المزيد . ودس العنوان والورقة النقدية في يدها ، وتأملها جيداً قبل ان يغادر الغرفة : تبدو متوهجة متألفة ، وقد استعادت عافيتها بعد تغذية جيدة لم تألفها وراحة لا يبدو انها عرفتھا منذ طفولتها ، وعلاج . . . تبدو حية خارقة القوة ، كأن ذلك الساحر الذي يدوي في الجناح المقابل لم يقض ليلاليه منذ حضورها وهو يغرس الدبابيس السحرية في دميها ويحرق في النار صورتها ويزرع تحت مطرقة الحداد صورتها محفورة في لوح من الرصاص كي يصيب العفريت الذي يقطنها الصداق كلما طرق الحداد . . كأنه لم يعمل ليل نهار كموظف سير للجنان الذين يريد طردهم منها او ادخالهم اليها . . ضحك نسيم ملء قلبه للفكرة ، وطرب وهي تغمره بما يشبه ابتسامة ، وقبل ان يغادر الغرفة قال لها متوسلاً : عودي الى النوم . . . لا تقولي انك شفيت . . لا تكلمي احداً . . انهم يحضرونك لوليمة لن تسرنا . . لا تتناولي بعد الآن الادوية المخدرة . . غافليهم وتخلصي منها . . احتفظي بصحوك في الايام القادمة . . . خيل اليه انها تعرف ما يُعد لها . . وانها تمتلك صلابة داخلية يجهلونها ، هي التي تعذبت طويلاً عذاباً لم تفصح بسرّه لأحد . . كأنها تعي ان دورة الاحزان تتجدد . . . يتبدل وجه « العاشق - الجلاد » من رغيد الى صخر الى غيرها من الاسماء ، ويتبدل اسم الساحر من وطفان الى حمدان ويتبدل اسم القصر . . . .

وتظل الحرب نفسها تدور . . . وتظل بحرية معذبة ومتماسكة . . . ويظل الساحر معذباً ومجنوناً بعشقه الكاره لها . . .

هل يمكن ان يدوم ذلك الى الابد كالكوايبس ؟ اما من سلام لهذه السبية الممزقة جروباً ؟

\*\*\*

ظل نسيم يحوم حول الباب الخارجي ، متظاهراً بتنظيف المدخل ، حتى شاهد ليلي ترافق بحرية الى السيارة الفاخرة التي توقفت امام الباب . لم يهبط رغيد لوداعها . ( تراه

يتعذب هو ايضاً لفراقها ؟ وهل يقطن الالم في كل مكان ، حتى داخل قلوب الجلادين وموظفي التعذيب والمقتلة ولو لبرهة عابرة ؟ ) . . . كانت السماء قد اظلمت بالسحب المتراكمة طبقات ، والتي تهول كأرواح ضالة . . . وحين رفعت بحرية وجهها صوب القصر فيما يشبه نظرة وداع ، فالى الغيوم وتنهدت ، خيل اليه ان البرق ومض للمرة الأولى بوضوح خلف القصر بالضبط عند منتصفه مثل سيف اسطوري يكاد يشطره الى نصفين . . . ثم فارقتها نظرتها الزجاجية الغائمة كما خيل اليه ، وحدقت في وجه ليلي بنظرة فاتكة من تلك التي يصفها الناس بقولهم ( لو كانت النظرات تقتل ) ، وارتعد وقال لنفسه : لو . . . لسقطت ليلي رماداً . .

لكن ليلي سارعت تحنها على الصعود الى السيارة ، ولحقت بها بعدما تناولت حقيبتها الخفيفة الوزن من نسيم . .

وحين تحركت السيارة ، خيل اليه ان بحرية غمرته بنظرة حنان ومودة . . . ام تراه كان واهماً ؟ . . كاد قلبه يطير في صدره . . لحظة عذبة دامعة . . احس بالحاجة الى ان يكلم صديقاً . . التفت خلفه فشاهد دنيا . انه لم يثق بها يوماً ولن يثق بها رغم تعليمات امير . سيحمل القهوة الى خليل . لقد اوصله الى غرفته دون ان يتبادلا غير كلمات مقتضبة . . . يحس بالحاجة الى ان يفتح له قلبه . . . بحرية . . شقيقه . . اذا لم يكلم انساناً ، ستنفجر جوارحه الغضة واعوامه الشابة المضغوطة في معلبات الحكمة الارغامية ! . . .

\*\*\*

« يا حادي العيس سلم لي على امي . . . واحكي لها ما جرى واشكي لها هي » . . . يدندن خليل وحيداً في الغرفة التي افردتها ليلي له ولكفى ، بمناسبة «ليلة المليار» . . . يدندن اغنية على انغام لحن الياف حفظه عن جدته . . . اين هي الآن ؟ اسرته ؟ بيروت ؟ . . . لقد انتقل من جحيم الى آخر . . . كان يعود من السجن الى اسرته فيلتقيهم ، اما الآن فقد عاد ليجد طفله في المستشفى . . . ويا له من لقاء مع زوجته . . . ( قال لي نسيم وهو يستقبلني : كيف حال رامي ؟ كنت اعرف انه بخير . زوجتك ؟ اعتقد انها ما تزال في صالة الاحتفالات الكبيرة ، تساعد في احصاء الآنية الذهبية واعداد المائدة من اجل «ليلة المليار» . . . قالها لي نسيم شبه معتذر لانها لم تزر الصبي في مستشفى ، وهو

يرشدني الى هذه الغرفة في شبكة عنكبوت الذهب ، وودعني مسرعاً امام الباب واعلن انه سيعود الي بالقهوة حين يتسنى له ذلك . وحين دخلت فوجئت بصقر الذي لم اصدق انني تخلصت منه ، يمتلك زوجتي ، ثم يسألني كم اريد ثمناً لمباركة ذلك ! ) . . .

« يا حادي العيس سلم لي على امي . . . واحكي لها ما جرى واشكي لها همي » . . .

يشعر بوجع كلما تنفس . . . ذلك المسحوق الابيض اللعين ادمى انفه ، وكاد يدمره . . . وها هو يهرب من كابوس الى آخر . . . من كوابيس بيروت الى كوابيس الغربية . . . ومن كوابيس صقر الهذيان الى كوابيس رغيد . . . ومن كوابيس مصرع وداد الى كابوس رضوض رامي . . . وكابوس الكوكابين رحلة في قارب الذعر . . . لقد نبتت الحشرات تحت جلده ، وشاهدها تركض على اصابعه ، وتأمل يديه كأنها حيوان يجعله ولا يمت اليه بصلة ، ومشى على الخيط بين الجنون والتماسك في عتمة النفس الشيطانية الأسرار . . . وها هو قد عاد ليتلقفه رغيد متوهماً انه ضحية بشرية جديدة في معبد الذهب . . . لا يدري بالضبط بأي سيف ينوي ذبحه ، وقرباناً لأي مليار ، الثاني ام الثالث . . . لكن ذلك لن يحدث له كما حدث بمعنى ما لنديم - كما استشف من كلام رغيد - . . . انه ببساطة لا يدري لماذا عاد الى هنا ، بعدما قرر نهائياً العودة الى هناك . . . الى بلده . . . اذا كان لا بد لرامي من الموت ، فليكن ذلك في وطنه ، لا في تلفريك الغربية معلقاً بين السماء والأرض . . . تطلع من النافذة . . . شاهد لي تمسك بحرية من ذراعها وتساعدنا في الصعود الى السيارة خلصة ، كمن يحمل طفلاً ينوي رميه امام احد الابواب في الظلمة . . . يلحق بهما نسيم حاملاً حقيبة ، وشيء ما في وجهه يقول انه يشتهي التحدث الى بحرية ، وللي تحول بينهما ، وكل شيء يحدث بسرعة ، ويعود نسيم وهو لا يلوي على شيء ، ام خيل اليه ذلك كله ؟ شعر باضطراب عظيم . . . ماذا يفعلون ببحرية ؟ الى اين ينقلونها ؟ لماذا ؟ تمدد فوق فراشه واغمض عينيه . . . لا لم يخيل اليه ذلك ، كما لم يخيل اليه انه لمح كفى تركب السيارة الى جانب نديم ذات يوم ، ولم يخيل اليه انه شاهدها تنسل الى الفندق وايطالياً غربياً يوم رحيله ، ولم يخيل اليه انه سأل عنها في الفندق ذات ليلة سفر وقيل له انها غير موجودة ، وكانت الساعة حوالى الثالثة فجراً . . . انه لم ييال حقاً يومئذ بذلك كله ، كما لم يغضب بما يكفي حين شاهد زوجته وصقر يتبادلان الحب الشرس ، وحين سأل صقر كم يريد ( خلوا ) لها ، فلماذا يستولي عليه الآن غضب محموم مغمم بالقلق وهو يراهم

(يشحنون) بحرية خلصة؟ الم يختار رغيد «ليلة المليار» لأنها ليلة ميلادها المدون في جواز سفرها على الأقل؟

ماذا حدث؟ هل غضب عليها فجأة؟ ولماذا؟ سيبيعها؟ ما شأنه بذلك؟ ربما ذهبوا بها الى احد معاهد التجميل لاعادها لسهرة الغد؟ ام تراه يرغب في التخلص منها؟... (ما شأني بذلك، انا الذي لم يحس بغير الشفقة وهو يرى زوجته تنتقل من رجل الى آخر، وترتكب حماقات لا يدري مداها؟... تعبت كفى لأنني لا اعرف الغيرة كما يجب... هذا صحيح... لم يعد في قلبي موضع للغيرة كما يجب... هذا صحيح... لم يعد في قلبي موضع للغيرة على امرأة... لم يبق في روحي مكان للشهوات والاهواء النسائية والقلق على رقعة جسد انثى منذ اذلوا جسد وطني... وحين ذقت طعم الحرية والكرامة لحظة عدت اميراً عربياً في اسبانيا صار استمرار ذلك هاجسي... مجنون انا؟ ربما... اني مجنون بيروت، مجنون لبنان، مجنون الوطن لا مجنون ليلي، ممتلى قلقاً وجنوناً وهذياناً نحو تلك الشواطئ والحقول والجبال والناس الذين احبهم ولا اعرف اسماءهم او وجوههم... لم يعد في جسدي ما ينبض للجنس وانا ارى الجنس البشري يباد هكذا فوق ارضي... كفى تقول انني مجنون... واذا كان ذلك هو الجنون، فاني كذلك... ثم، لماذا يضايقتني الامر ما دام لا يضايقها هي؟ كرامتي؟ ان كونها حمقاء لا يؤدي كرامتي اكثر مما يؤدي كرامتها... والان يريد صقر ان يدفع لي «خلواً» كي انخلي له عن عقار جسدها المرمري الفاخر؟ فليذهبها الى الجحيم. لن انشغل بجسدها عن تلك الاجساد كلها التي تذلل هناك وتحرق وتمزق... تريدني ان اقول لها بصدق: جسدك وطني وكرامتي... وتدعي ان ذلك هو الحب!... ليتني استطعت ان احب بهذه الطريقة واسد الافق بجسدها وانشغل بحدوده عن حدودي وعن كل حدود اخرى واستريح... ولكن...).

دخل نسيم دون ان يقرع الباب، حاملاً القهوة... نسي سكبتها في الفناجين كما لو كانت عذراً للدخول لا اكثر... قال قلقاً: انهم يذهبون ببحرية...  
- شاهدت ذلك...

- ليلي تحولت حقاً الى مدام سبوك... وصار لها وجه سجانة... لكنني دسست في يد بحرية بعنوان امير... قلت لها ان تتصل به اذا احاطها مكروه... ما اغباي... نسيت انها خرساء... ام تراها ليست كذلك؟ بدت لي وكأنها تفهمني حقاً... لقد اطبقت بيدها على العنوان كأنها كانت تتوقع ذلك... لعلها تتظاهر بالخرس هرباً من اهل هذا المكان...

- اكره هذا المكان . . . اية ريح ملعونة قذفت بنا الى هنا ؟ لا اصدق انني سأنام هنا ليلتين . . . اتمنى لو استيقظ فأجد نفسي في فراشي في بيروت ولو تحت القصف . . .

- انها الحرب . . . وبحرية واحدة من السبايا . . .

- ما يؤلم هو انها مسلوبة الارادة وعاجزة عن الدفاع عن نفسها . . لقد ذهبوا بها الى آل الغنمالي . . .

- سأحدث الى ليلي حول ذلك اذا اردت . . .

- ستطردك . . .

- لن تستطيع ذلك بسهولة . . . سيكون عليها ان تتعاون معي بعد الآن . . رغيد ما يزال يحلم في أن اتعاون واياه .

- بدلا من نديم ؟

- تقريبا . . . كيف علمت ؟

- خشيت . . انه فخ . . لم يعمل رجل معه الا وانتهى به الأمر الى السجن او الجنون او الاختفاء . . .

- حتى ولو ظل نزيهاً عفيف الكف ؟ . . .

- اسمع يا خليل انت كأخي . . . وانا ضنين بك . . كلما انهرت تذكرتك وغنيت . . «يا ظلام السجن خيم» . . و «موطني موطني» . . استمد قوة حقيقية من ذلك . . لا أريد لك نهاية كنديم . . . ستسمع اخباراً بشعة لا مجال لسردها في هذه اللحظات ، وسأعلمك بها حين اتسلل اليك ثانية ، لكن نديم سيدفع الثمن .

- لن افعل ما فعله نديم . . لن افعل شيئاً . .

- ربما لم يفعل المسكين شيئاً . . .

تذكر خليل المشهد اللامني : زوجته في السيارة الى جانب نديم . . . حسناً . . انه لا يبالي بذلك الى حد قتله ، لكنه ايضاً لن يرسل له بطاقة شكر بريدية . . . انه على الاقل (مغتاظ) . . كفى حمقاء ، وكان على نديم الا (يفعلها) . . . وهو الآن لن يبالي بمساعدته ، لن يكيد له لكنه ايضاً لن يقف الى جانبه . . .

قال لنسيم : ليس لدي ما يدفعني للتضحية بشيء من اجل نديم . . . سأستمع الى عرض رغيد ، وسأفعل ما اجده مناسباً لمصلحتي . . . وان كنت اعرف سلفاً ما الذي انوي القيام به . . .



- اي عمل مع رغيد لا يناسب مصلحة مخلوق حي الضمير مثلك . . احكم بنفسك ،  
ولكن حذار من غدره . . خطته الدائمة هي تقديم رجاله كبش فداء او جعل مساعديه  
يصطدمون بعضهم ببعض ، ويدمر احدهما الآخر . . . سيجعل منك اداة دماره ، ثم  
يغسل يديه من دمكما . .

- شكراً لك على اية حال . . بيروت تحترق . . الاسرائيليون يحاصرونها  
ويدمرونها ، ولعل اهلي واهلك ميتون ولا ندري ، وها نحن هنا نغرق في مستنقعات  
الذهب . . . كأنما ثمة خطة لتهجيرنا من وطننا ، ثم الهائنا عنه . . .  
- لا تدع شيئاً يلهيك عن غدر رغيد . . .

- طفلي المرمي في المستشفى يلهيني عن كل شيء . . .

حين غادر نسيم الغرفة شعر بالخيبة . . كان ينوي ان يحدث خليل عن اشياء اخرى  
كثيرة منها حكاية رغيد وزوجته ، وتلك الليلة المشؤومة ، وكيف اضطر للمغامرة بهاتف  
غامض ليتصلها من فراشه . . .

لا يدري لماذا لم يفعل . . . لعله اشفق على الرجل . . لن يقول لانسان وصل للتومن  
المستشفى خلفاً لابنه في السرير : زوجتك تخونك . انه يكن له الود حقاً . . وقد احسه منهاك  
ومتحفظاً ولا شهية لديه للمباشطة والمصارحة . .

اغلق الباب بهدوء مدحور ، وما كاد يمشي خطوة حتى فوجيء بخليل يلحق به الى  
المشي . . يضع يده على كتفه ويقول له : انني آسف حقاً . . افهمك جيداً واشكرك . . .  
لكنني اتعذب واتحول الى مشاكس . . .

امسك نسيم بساعده في مودة : افهمك . . . ولست افضل حالاً منك . لقد قتل  
اخني . فجر نفسه في عملية انتحارية ضد جنود اسرائيل الذين يحاصرون بيروت . . .  
- احسده . . .

- واخني الآخر جريح . .

- احسده . . .

- وانت ما اخبار اهلك ؟

- احسد ابن عمي الذي قاتل الاسرائيليين حين اقتحموا قريته وقتلوه . . . وآسف  
لأجل الآخر الذي لم يقاتلهم وقتلوه ايضاً . . .

- هل شاهدت الاخبار ؟ انهم يرمون المناشير فوق بيروت الغربية محرضين سكانها على

الهرب . . . لقد تعب الناس ، وبعضهم يفرّ .  
- لم اعد اشاهد شيئاً . . . صقر ورغيد وامثالهما يغرقونك بالمال والبؤس والهموم  
الفقاعية كي تتلهى عما يدور في وطنك . . . وفي اعماقك . . .

\*\*\*

عاد خليل الى الغرفة ، وتمدد منهكاً في الفراش - الذي ما زال مشعثاً ( لعراك ) كفى  
وصقر - وصدره يضيق بتلك الغيوم المظلمة الحارة الرطبة التي تتدفق من السماء وتنسكب في  
دورته الدموية ، متوترة كشریان قبل انفجاره . . . حاول ان يفكر بدوامته ، لأنه وصل الى  
قرار عفوي سريع بالرحيل قبل ان يفكر بالتفاصيل . . . لكن الصور كانت تتداخل في رأسه  
حتى لم يعد يعي شيئاً . هل كان نائماً حقاً . . . لا يدري . . . فوجيء بكفى ، وجهها  
الجميل قريب ، والضياء الازرق ينسكب من عينيها نهرود . .  
غمزته الدهشة حين قالت له ببساطة : لقد افتقدتك ! . . . يوم حادث رامي كنت  
بحاجة ماسة اليك .

( هل هي مخبولة ؟ لقد فهم من رامي انها لم تزره ) . سألها ببساطة : هل انت بخير ؟

- لا . وانت ؟

- وانا ايضاً . . . لست بخير . . .

قالت وكأنه لم ير شيئاً ، ولم يشهد نشوتها السادية الماسوكية وصقر وهما يخونانه بمتعة  
واضحة ، ولم يلتقيا قبل هذه اللحظة : حدث شيء آخر رهيب . . . يجب ان اطلعك  
عليه . .

- ما هو ؟ . . .

لم تتردد . فوجيء بها تقتحمه بالنبا ، كأنه خبر جديد : لقد ارتدى صقر قناعاً ،  
واهْداني عقداً ، ثم اغتصبي . . .

قالتها وبدأت الدموع تنهمر من عينيها بسرعة . . .

أجابها ساخراً : غير معقول ! .

قالها وقد كاد ينفجر ضاحكاً رغم همومه كلها . هل يمكن لامرأة ان تتقن الكذب  
هكذا ؟ . .

تابعت : وانت ايضاً ستفرض تصديقي ؟ فعلها هذه الظهيرة . ظننتك رأيته . . .

اقتحم الغرفة . . .

اشعل لفافة وتأملها باهتمام وسألها : كيف ؟

- انه يقيم في الغرفة المجاورة ، وجاء من باب الشرفة هذا . . .

- لا أصدق ! . . . ( ظننتكما منسجمين في مسرحية العنف . . . ) كاد يقول لها ذلك ثم

صمت ، مذهولاً بقدرتها الخارقة على الكذب الصادق . . . تابعت : لا ألومك . . الذين

شاهدوه رفضوا التصديق . لى مصممة على انى واهمة ، ودنيا رفضت الشهادة ضده

وطلبت منى مهلة للتفكير . . .

تابع خليل سخريته : شاهدته ؟ . .

- صرخت مستنجدة ، وهرب لحظة وصول شخص ما الى الغرفة . .

( قصص نساء . . لا شاغل لمن غير الجنس والجنس المضاد وخداع الزوج حتى

اللحظة الاخيرة . . اذن صرت تحلمين بالاغتصاب . . وتستمتعين به حتى ادهشت

صقر نفسه . . وهو الآن يريدك ، وهذا عقابك وانت تجهلين اى عقاب هو ان يريدك

صقر . ولن أقول لك شيئاً عن ذلك . ستكتشفين ذلك بنفسك يوم يعطيك جرعتك الأولى

من « مسحوق الجنون » ) . . ظل صامتاً يتأمل عقدها الذي اشتراه صقر ذات يوم في

احدى المدن وكان برفقته . لم يخطر بباله انه سيطوق عنق زوجته بالذات . وتابعت : اقسام

لك هذا صحيح . . . لى ستفني ذلك ، ودنيا ايضاً ، لكن ذلك حدث . . .

قالت ذلك ، وجفت دموعها تماماً كأنها لم تكن تبكي قبل دقائق بحرارة ! . . .

قرر ان يقول لها شيئاً له معنى ، حتى ولو اعتبرته كارثة وعادت الى البكاء : اسمعي يا

كفى . . لقد قررت التوقف عن العمل وصقر . . وارجوان تؤجلي هذا الهراء ، فأرسي

مشغول بأمور اخرى كثيرة منها طفلنا المرمي في المستشفى والآخر المرمي في المدرسة

الداخلية . . لقد مزقنا الغربة اكثر مما مزقنا قذائف بيروت . . يجب ان نعيد النظر . . ان

نتوقف قليلاً . . فالتيار يجرفنا من ورطة الى اخرى كل بمفرده . . سأنام قليلاً . . فدعيني

وشأني وعودي الى صاحباتك النساء . . اعني ، لديكن مهمات كثيرة . . .

- انت ايضاً لا تصدقني . . يا له من جحيم ! اجابها واللفافة ما زالت في فمه وقد بدأ

رمادها يتساقط على صدره : تذكرى يا كوكو انك بذلت كل جهد ليتم لك ذلك . . .

غازلت الرجل وتماذيت . . فلماذا تشكين الآن ؟ . .

- حسناً . . انا حرة . . وحين تتم امور كهذه ، يجب ان تكون بموافقة الطرفين . . لا

ان يهاجمني ويغتصبي وعلى وجهه قناع الشيطان . . كدت اموت ذعراً .  
صمت . اغمض عينيه متظاهراً بالنوم ريثما تغادر الغرفة . . لا يريد ان يتحادثا حول  
( الأمر ) .  
« اوف . . اوف . . اوف . . يا حادي العيس سلم لي على امي . . . واحكي لها ما  
جرى واشكي لها همي » . . .

\*\*\*

يدور الشيخ وطفان محموماً وهو يعد بخوره وتعاويذه، والسحب الداكنة تبدو له اشباحاً  
شيطانية رمادية قادمة من جزر بحرية للاجهاز عليه بالحمى . . . انه مريض . . جسده  
يشتعل بالانفلونزا التي ليست اكثر من قناع لاحراقه بسحر عفاريت بحرية . . وعما قريب  
ستجلده بالبرق وتصرخ فيه بصوت يتوهمه الناس رعداً وتحيله رماداً الا اذا عزم ونادى اعوانه  
وجابهها بسحره المضاد . . وسيفعل الآن . . « يا نائلة يا هائلة يا بنت الملوك الصائلة بحق  
عصبتك المائلة واخواتك الثمانية اركبي جملك ودقي الطويلة على باب الدويرة واحضري  
مجلسي في هذه الليلة بحق ابوك زحالف وامك زربونة يا سيخون يا ميهرون يا محضرون يا  
زهر الغصون انني آمنت بربكم فاسمعون العجل من قبل ان اقول شلهوب ملهوب انوخ  
ازرهيش راسين ام السحابين وبحق الهيطلوش الاكبر ووجهك الاقمر وشاماتك الاخضر  
اجيبيني واحضري بحق لكل نبأ مستقر الوحا الوحا العجل العجل الساعة الساعة . . .

....

هيلوخ هيلوخ شمهلوخ باروخ باروخ يالوخا يالوخا عملاش عملاش شمهل  
شمهل يلطط يلطط كارو طهش طهش عميقاقش شمهلوش نهش عنوخ عنوخ . . .  
اجب ايها السيد طارش بحق هذه الاسماء بحق هقلقش ههلقش يا هيالش اجب يا  
طارش والا تكون الكلمات التي تلوتها عليك احراق بحرية بنت الجان الوحا  
العجل الساعة . .

. . . تبشي سدرس غيكو بطو بهطورش لارش ابداش . . .  
بيهوسر هيسر شمشمون بهوسر كل شمة بايدخ هودن انون . .  
. . . دوده داي كركر ديان لخ ح س ياه وميتا لخ لخ ومشيعنا لخ اجب يا طارش وانت  
يا عامر . . . عمش هрмаقش شمسورس اجوبه اهداليش كلمش شهش كلمارش اجب يا

زعزوع بحق هذه الاسماء عليك وحرمتها لديك الا ما اجبت وتوكلت ببحرية بنت بحرية  
بنت الجان حتى لا تهتدي بحق الاسماء المكتوبة على ورق الزيتون فاحترقت وتعلقت الاسماء  
بالقدرة وبحق الاسم الذي اوله آل وآخره ال وهو ال شلع يعو بوييه به يوه وه اه بيه  
بتكفه بتكافل بصعى كصعى عميال مطيعين لك يا ال جل زريال ما سمع اسمك روح وعصى  
الا احترق وصعق اجب يا زعزوع ولا تتخلف عن ما امرتك به طرفة عين بحق اهياشرا هيا  
ادوناي اصابؤت آل شداى الوحا الوحا العجل العجل الساعة الساعة . . . »

يخفت صوت الساحر وطفان ، وتتلاشى قواه ويهذي ( امامي عمل كثير . . .  
كثير . . . سحرها خطير . . . اني عاجز امامه . . . هذه التعاويذ لا تجدي مع عفاريته . . . اني  
بحاجة الى نباتات سحرية كثيرة . . . وبحاجة الى ان اتلو سحري عليها مباشرة بالصوت  
والنار ، وتقليب عفاريته في جحيم بلاطي والا هزمتي . . . انها تسرق صوتي من  
حنجرتي . . . تسرق روحي من صدري نفساً بعد آخر . . . اعيش احتضاري ببطء لكنني  
اعني انتصارها . . . انها تسرق الكلمات عن لساني حتى صرت اثنائي واتلعم . . . تدمرني  
بالحمى والمرض . . . تدمرني ) . . .

نهض الساحر عن مجمرته يهذي وقد استحال الى كتلة عذاب محشورة في جسد . . .  
وطاقة ارادية متفجرة : سأقاتلها . . . سأواجهها واقاتلها وجهاً لوجه والا قضت علي . . .  
كحيوان مفترس ينزف داخل قفصه يدور في جناحه الخاص داخل الفندق  
السويسري ، ويتعثر بالأثاث الفاخر وينهار على ركبته كمن تجلده سياط لا مرئية ، وقد شب  
في وجهه عذاب كالنار . . .

( لا اقوى على بعدها . كأن عقابي هو حبي لخنجرها الذي ستغمده لا محالة في  
رمادي . . . امقتها، تلك الشيطانية الشريرة المدمرة، وما زلت اشتهي وصلها وحنانها  
وحبها المستحيل ) . . .

احس الساحر انه يتقلب داخل بوتقة نارية منصهرة المعادن هي مشاعره المتأججة  
نحوها . . . وجاءه صوت من اعماقه ( انك تضعف امامها . . . انها تهزمك . . . عد اليها  
وحارب عفاريته ، والا فأنت هالك لا محالة ) . . . وحين نظر الساحر الى المرأة تأكد من  
صدق ذلك . . . شاهد وجهه مشتعلاً بنار مزرقة شاحبة تتأهج لهيباً احمر تارة فبرتقالية  
فبنفسجية فزرقاء . . . نيران لها وحشية ألوان قوس قزح طلع على ارض ضربها  
الزلال . . . وكانت اقنعة وجهه تتبدل الى ملامح جده فوالده فشقيقه وكلهم يحترق . . .

جرس الهاتف يرن . انه ذلك الصحافي . الصحافيون الملاعين ، كيف اكتشفوا وجوده هنا ولما تنفض عليه دقائق ، ام ساعات ؟ لا يعرف الوقت . لا يعرف الا ان الشمس الاولى لفراقه وبحرية لما تغب بعد . . يصرخ في الصحافي بصوت له مغالب وانياب : قلت لك انني لست هنا . . واعنيها . . اذا ضايقتني ثانية سلطت عليك الصداغ . . . والرعاف . . . يغلق سماعة الهاتف . . . يدور من جديد في قفصه المرفه ( كيف انتظر ليلتين والحمى تأكلني ، ريثما تنقضي «ليلة المليار» واعود الى قصر رغيد واصارع عفاريتهما الصراع الأخير : نارها او ناري ؟ . . . كيف ، وهي تصليني بنارها من بعيد ، وانا عاجز عن سبر خططها ؟ ) . .

جلس الى كرتة الزجاجية . جمع طاقاته البشرية السرية اللامتناهية ، استدعاها كلها من كهوفها المجهولة في اصقاع كواكب النفس النائية ، واستحضر سيالاته الروحية من مداراتها الكونية . . واغمض عينيه بعدما اطلق تلك الطاقات كلها جنوداً صوب بيت رغيد . . . مركزاً قواه على تلك البقعة الأرضية من هذا الكوكب التائه بين ملايين السيارات . . . ودمدم بصوت لا صوت له ( موت . . . موت . . . خراب ) . . كان قد صار من السهل عليه تحريك الاشياء الجامدة في الغرفة بنظرات من عينيه يركز فيها طاقته التي يملكها البشر جميعاً لكنهم يجهلون اسلوب استعمالها ، او تدريبها ، وقد اتقن ذلك في الأيام الاخيرة لعزلته وانهار قشرته - الجسد .

يريد ان يزلزل بحرية في ذلك القصر المذهب . . . ان يجعلها تهتز في سريرها وتطير في فضاء الغرفة وتنزف على الجدران والسقف . . . (موت . . . موت . . . خراب) . . . الهاتف ثانية . . . تنهار اكوان الكواكب السود من مداراتها النارية ، ويداهم الصداغ من جديد . . . والذعر . . . ينظر الى الهاتف خائفاً كمن استيقظ من غيبوبة . . . يهرول الى الحمام ليغسل يديه بعناية . . . انه بحاجة الى الكحول . . . ما هذه الفوضى في الغرفة . . . ينشغل عن كل شيء بترتيبها . . . الباب يقرع بشدة مراراً . . . يتنابه خوف محموم ويتصعب منه عرق بارد . . . يختبئ في فراشه ويغطي رأسه بالملاءات كما كان يفعل طفلاً . . . لن يفتح الباب . . . انه خائف . . . يأتيه صوت مألوف : انا الشيخ صخر . . . ارجوك ان تفتح الباب يا شيخ وطفان . . . ارجوك . . . انا بحاجة اليك . . . ينهض ويفتح الباب نصف ذاهل . . . ينهار صخر فوق اول مقعد وينتحب : ابني عبد الله . . . قتلوه . . .

يخيل الى الشيخ وطفان انه سمع بالنبأ من قبل ، لكنه لا يذكر متى واين . . .  
 انه بحاجة الى كحول يغسل بها يديه . . . يدمدم : اريد كحولاً طيبة . . الآن . . .  
 يصرخ الشيخ صخر : جاءني رغيد مدعياً انه بريء ، وصدقته ، ثم كلمني اخي هلال  
 وقال انني حار اذا صدقته ، وجئت اليك لتكشف لي الحقيقة . . . من المسؤول عن موت  
 ابني لاقتله . . . رغيد ام نديم ام المهندس وحده ؟ . .  
 كانت هذه الاسماء تنزلق على صفحة ذاكرة الشيخ وطفان كالماء على حائط  
 زجاجي . . . لا تخلف بصمة ولا أثراً غير الماء . . . من هو رغيد ؟ من هو نديم ؟  
 انه يتذكر هذه الاسماء بشكل غامض . . . تماماً كما تذكر صوت صخر ، وكما  
 يتأمله فيبدو وجهه مألوفاً بعض الشيء ولكنه لا يفهم بالضبط عمن يتحدث وما الذي  
 يعنيه . . .  
 يمضي الشيخ وطفان الى الحمام ليغسل يديه من جديد ، ويأتيه صوت ضيفه ملتاعاً :  
 هل يمكن ان يفعلها بي رغيد ؟ ولو كان هو المجرم حقاً ، فلماذا يأتي ببحرية الى عريني ؟ . .  
 بحرية ! . . سمع وطفان اسم بحرية جيداً ، وشاهد وجهه في المرأة يشتعل وهو يتابع  
 شطف يديه ببطء . . بحرية . .  
 قال بصوت مرتفع نصف مرتجف : بحرية . . هل قلت بحرية ؟  
 وعاد الى الغرفة ، فقال له الشيخ صخر متابعاً شكواه التي لم يسمع منها الساحر غير  
 اسم بحرية : اجل . . سيأتي ببحرية الى بيتي لاستضيفها الليلة و«ليلة المليار» غداً . . .  
 أرجوك ان تأتي معي . . . وتكشف لي اسم قاتل ابني . . وتعد لي عقاراً يخفف اوجاع  
 معدتي . . . أرجوك . . . يا الهي ! . . تبدو محموماً ومريضاً انت ايضاً ! . .  
 اذن بحرية في حوزة هذا الرجل الذي يعرفه ولا يعرفه ؟ سيذهب اليها بالتأكيد . . .  
 سيقاتها على اية ارض تختارها . . . سيذهب الى اقاصي الجحيم لمحاربتها . . . لم يعد يذكر  
 ان له مهمة اخرى . . .  
 يجيب بهدوء : سأذهب معك . . . قال صخر بفرح : كنت اعرف انك ستأتي معي  
 ولن تخذلني . . . ( اذن بعثت الي برسوها . . . انها المباراة الأخيرة . . . ولن تخلف ،  
 ولن ادعها تشوش حواسي . . . يجب ان اذكر جيداً تعاويذ لنادي اعواني . . . ويجب  
 ان اوضب بخوري ونباتاتي السحرية التي تحمل اليهم صوتي اينما كانوا ) . . .  
 قال الشيخ وطفان لصخر بلهجة باردة : لي طلباتي . . .

- لك كل ما تشاء من مال وذهب . .  
 - لا اريد شيئاً من هذا . . . سجل عندك طلباتي واريدها كلها قبل الغروب الثاني  
 للشمس . . .

دار الشيخ صخر في الغرفة بحثاً عن قلم وورقة ، ووجدتها تحمل شعار الفندق  
 وعنوانه ، فتذكر مكانه وزمانه ، كأن كهارب الشيخ وطفان كانت قد خرجت به الى اكوان  
 اخرى ودمدم باعجاب صامت : يا له من ساحر مذهل ، طاقاته بلا حدود ، حتى وهو  
 محموم بالانفلونزا . . هذا الطقس اللعين سيقتلنا جميعاً . قال وطفان : سجل عندك هذه  
 العقاقير . واملاها عليه دون ان يخبره بأنها خاصة بتدمير بحرية لا بكشف قاتل عبد الله :  
 فلفل . بذر خردل . جرجير . مرارة ذئب . صوفة سوداء . قلب بقرة حمراء . عفص .  
 نحل منزوع الرغوة . زعفران شعر . عقدة ريح . كمون ابيض . حبة البركة . لبان ذكر .  
 توم افرنجي . مر . شيح . صبر . بعرجل . درهم مستكة . بذربصل . اوقية لدنسج .  
 اوقية خرنفش . اوقية دربل . اوقية سنقر . قرص صعيدي . عرق انطراب . اوقية نشارة  
 ركب . سفوف الاصول . ورق البرنوف الاخضر . كحل . لوز . عين جمل . نترون  
 سوداني . مدغة . درهين غندزوت . زعفران . . واريد مداداً من : الزنجبار .  
 الزنجفر . البياض والكافار . الزرنيخ الاخضر . . . واريد كحولاً طبية . . عدة ليترات من  
 الكحول . . .

- معظم هذه العقاقير سيكون بين يديك هذا المساء . . . بل جميعها وسينقل رجالي  
 ادواتك كلها الموجودة هنا ايضاً . . المهم ان تكشف لي قاتل ابني . شقيقي التوأم هلال  
 يعتبر ممارسة السحر نوعاً من الكفر ولكن ثقتي بك مطلقة ، وقلبي يؤكد ما قاله شقيقي من  
 ان رغيده هو المجرم ونديم مجرد كبش فداء ، وتابع الشيخ صخر : لكنني ارجوك ان تأتي  
 معي الآن ، وتقبل ضيافتي ويجب ان تسارع في العودة قبل وصول بحرية . . . ارجوك . . .  
 انك بحاجة الى رعاية طبية . . انك محموم حقاً ، وصوتك المزكوم يشي بالانفلونزا .  
 سقط اسم بحرية في بحيراته شهاباً من نار فقال : لست بحاجة الى رعاية طبية فأنا  
 اعرف سر اوجاعي . سأداوي نفسي بنفسي ، وسأتي معك .

\*\*\*

قرع نسيم الباب . صرخ صقر : اذهب أيأ كنت . . .



امسكت يده دوغما وعي بخنجره الذهبي . انه رجل عظيم ، وثمة من قد يحاول قتله  
اثناء نومه القلق . . .

كان قد ابتلع عدة اقراص منومة رمت به الى نوم كابوسي بائس . . .  
قال نسيم : العشاء يا سيدي . . . ينتظرونك . . .  
- اذهب الى الجحيم . . . لست جائعاً . سأنام .  
- اشكرك !

مضى نسيم وقلبه يشتعل قرفاً ، كان قد شاهد للتوفي التلفزيون بيروت محاصرة ، تنهال  
عليها المناشير طالبة من اهلها مغادرتها . . وشاهد ارتال السيارات الهاربة التي تغادرها . .  
وتخيل نفسه راجعاً في سيارة على الجانب الآخر للطريق ، هارباً الى جحيم بيروت من جحيم  
( هنا ) . . .

أما صقر ، فقد عاد الى نومه الكابوسي ، وعضلات فخذه تنتفض وجسده بأكمله  
يعاني تقلصات حادة يخلفها مخدره في الجسد والروح . . . شعر بالغثيان من جديد . .  
( اللعنة عليهم ، لماذا ايقظوني ؟ ألا يعرفون كم أضحي النوم عزيز المنال منذ بدأت امارس  
الطيران الابيض ؟ . . لماذا لا لذة دوغما الم ؟ ولماذا لا تفهم النساء ذلك عادة ، وكوكو  
استثناء نادر يستحق الرعاية ) لكنه الآن يتوجع . . انها لحظات الهبوط للعينه . اضاء  
النور . ابتلع حبة اخرى . . . تطلع الى صورة حبيبته التي لا تفارقه ، ولها جسد نبته واسمها  
مكتوب تحت صورتها : Erythroxylon Coca . . يا حبيبي كوكا . . هل تسمحين لي بالنوم  
قليلاً بعدما اغتصبت كوكو ؟ . . .

كان لا مفر له من ذلك . . لا بد من امتلاك الزوجة حين يكون الزوج حروناً - هكذا  
قرر في البداية قبل أن يذوق عسل كوكو - . . . ذلك قد ينفع في ترويضه . . . انه لم يرغباً  
عنيداً مثل خليل . . ولن يتخلى عنه بأي ثمن الا بعد ان يغتصب روحه . . . لن يدعه الا  
خرقة . . سيظل يحبه اذا لم يتحول الى خرقه . . انه بحاجة الى تدمير الناس كي لا يمسا  
روحه بالمحبة او الحنان . . . هذا عالم لا مكان فيه الا للرجال الذين يشتريهم او يبيعهم وفقاً  
لارادته هو . . . وما تزال لخليل بقية من ارادة . . . رقعة خاصة داخل نفسه يتوقع فيها من  
أن الى آخر . . . وهو يريد . . يريد اغتصابها بأية وسيلة . . . سيقنحمها بالمال او  
بالجسد . . لن يستريح قبل ان يمتلك تمرد خليل . . .

لقد عاد من رحلته هذه ، وهو أكثر عطشاً الى امتلاك ذلك النبع القروي الأصل ..  
وسيفعل ...

ولكن كوكو فاجأته ... انها امرأة خلقت لرجل مثله ...

\*\*\*

( هذا عشائي الأخير قبل تنويعي غداً «ليلة المليار» . قلبي ينبض فرحاً كقطار يركض  
مجنوناً في براري المجد والعظمة ... انا رغيذ الوحيد القصير القامة الخجول انتصرت ) .  
كان عشاء هادئاً ، بعد يوم طويل طويل أنهم جميعاً ...

هادئاً فوق نخل الطاوله وذهب الملاعق وسكون الخدم الذين يقدمون الاطباق وكأنهم  
يرقصون الباليه دونما موسيقى .

لكن البركان كان مشتعلأ في أعماقهم جميعاً ... بصمت وتوتر يد تتأهب لطعنة ..

لم تلتق نظرات كفى بعيني نديم كما منذ اسابيع . . كان يحرق في طبقه واجاً نائياً ،  
ساحياً عنها وعن طعامه معاً ، يتأمل الأوراق التي حملها رغيذ معه الى القاعة ، ووضعها جانباً  
على احد المقاعد مثل مسدس يهدده به ( هذه الأوراق اعرفها . . انها وثائق إدائتي  
بالاختلاس . تراه ينوي استعمالها لسجني هنا في سويسرا سجنأ لا فكاك منه ، اذا رفضت  
الذهاب الى وطن صخر والاعتراف بجرم لم ارتكبه ؟ سيكون علي ان اختار بين دور كيش  
الفداء لرغيذ ومهندس ، ولاهيار مدرسة ومصرع عشرات الأولاد ، مقابل امكانية  
مساعدي واخراجي من السجن هناك بموجب عفو ما يصدر بعد ان ينسى الناس ويغفر  
صخر ، او السجن المضمون هنا لمدة عشرة اعوام على الأقل دونما امل في هرب او ممارسة  
ضغوط على العدالة ؟ ... اعرف السيناريو فقد سبق ان شاهدت رغيذ يمارسه ومعاونه  
السابق ، وقد ساعدت يومئذ في تطبيقه ، بل وساهمت في اقتراحه ، وها أنا أسقط حياً في  
الفرن الذي شاركت بينائه ... تراه سينفذ هذا السيناريو ، ام سيرغمني على كتابة اعتراف  
يقتلني بعده ليبدو موتي انتحاراً ؟ ليس ثمة ما لا يفعله وانا ادرى الناس بذلك . كم اكره  
رغيذ .. هذا الوحش الذي لا يشبع .. أكرهه ، واشتهي موته ، واتمنى قتله ... لو  
انهض الآن واخنقه ... لو ) ...

سجل رغيذ بشدة وقد غص بالماء . فتوقف الجميع عن المضغ احتراماً للموقف ...

وحين رش رغيد الملح فوق طعامه الخاص به الخالي منه نظراً لاصابته بمرض ارتفاع ضغط الدم شعرت ليلي بالشماتة ( سيموت سريعاً اذا ثابر على التهام طعامه بهذه الشراهة ، ورش الملح هكذا ، والتسلل الى المطبخ بعد العشاء للأكل من البراد مباشرة كل ما يؤدي صحته . . بعد ان يتزوج مني قد لا اكون بحاجة الى قتله لأصير أغني ارملة في العالم ، بدلاً من أكبر مديونة في العالم كما انا الليلة . . . ولكن ، اذا حاول ان يغدري ، ويورطني ، لن اركع واتوسل اليه انقاذي من جرم توقيع شيكات بلا رصيد ، وانما سأقتله . . . سأقتله . . لن أنام الليلة قبل ان يوقع لي شيكاً « يغطيني » في البنك وإذا هرب الى النوم سأذهب اليه واوقفه . غداً لن يجد وقتاً لي . . سيأتي ضيوفه منذ الصباح الباكر لعقد الصفقات . ان احداً منهم لم يأت حقاً للاحتفال «بليلة المليار» . . كلهم حضروا كمن يذهب الى مؤتمر خاص بتبادل المصالح لتنمية المليارات . . سأحدثه الليلة قبل ان ينام . . لن أنام ما دمت تحت رحمته . . . ولن ادعه حياً اذا صمم على . . . )

التمتع البرق عبر النوافذ . . . وحبسوا انفسهم بانتظار الرعد القادم . . . وتمنى خليل لو ينفجر المطر ، لكن شيئاً من ذلك لم يحدث . . .

كان الجو خانقاً ، خانقاً ، رطوبة قبور تجثم على الصدور ، وحرارة حمى خفية تسري ، والبرق البعيد ودعبليل بالمطر ، وبطبول الرعد التي لم تقرّع مرة واحدة هذا اليوم المخنوق الطويل . . .

سأل رغيد خادمه نسيم بلا مبالاة : هل دعوت صقر الى المائدة ؟

اجاب نسيم : أجل .

- ماذا قال ؟

- قال لي : اذهب الى الجحيم .

رمقه رغيد بنظرة مسمومة ودمدم : هذب الفاظك . . .

وسكت نسيم ، وقد التقت نظراته بومضة ابتسامة متواطئة في عيني خليل ( آه كم اكرهه ، هذا الوحش الذي يشرب الآن ماء النار ، مستخدماً كلية سري الدين . . . يشرب دم شقيقي القاتل ولعله قبض عمولة الجراح التي اصابت شقيقي الآخر من صفقة اسلحة للعدو كانت له يد فيها . . فهو يشحن ادوات الدمار لمن يشتري وللجميع دوغما استثناء . . اكرهه وساحره . . وما يفعلونه بالسبية بحرية ، وبني ، وبخليل ، وبالغبية كفى ، و « الهستيرية » دنيا ، ولن اغفر قتله لسري الدين وعبه بحياة المعذبين على اشرطة

الفديو وشماتته بالمقهورين وشهوته لتدمير امير ، واذلال تمثال « المناضل » . . . انا من جيل لم يعرف عبد الناصر ، يقف حائراً بين الشهادات المتناقضة حوله ، لكنني احب العمل الفني لمفيا والد امير النيل ، وارى فيه بحق تمثالاً لـ ( المناضل ) ، بغض النظر عما اذا كان النموذج الامثل له هو عبد الناصر ام لا . . . واكره رغيد ايضاً وأشتهي قتله وسيسعدني موته لأنه . . . ) . . . استيقظ من خوابه على صوت ليلى تنهره بقسوة : قلت لك اسكب للاستاذ خليل الماء . . ألا ترى ان قدحه فارغ ؟ . . .

سكب الماء لخليل ، ولاحظ انه كثيب وقد عافت نفسه الطعام ، والخادم يرفع اطباقه عن المائدة وهو لم يذق منها لقيمات . . . بعكس رغيد الذي انجز التهام طعامه الخاص بالريجيم وساهم في اكتساح كل ما مر بالمائدة من أطايب الدجاج والسّمك واللحم والشحم وتأمله نسيم شامتاً ( سيصاب الليلة بعسر الهضم ويتوجع ، ولن ينام ، وسيمرض غداً وتفوته «ليلة المليار» ) . . .

كفى كانت تنافس رغيد في شراحتها ، شراة اضاءات وجنتيها الشابتين وازدادت لكل خد وردة متفتحة ، وساهمت في تنمية استدارات جسدها البديع . . . ومن عينيها الزرقاوين انهمرت شلالات سعادة ، وخيبة أمل لفتور الجميع في هذا العشاء الكثيب ( غداً «ليلة المليار» . . . غداً التقي بعشرات ، بل بمئات من اصحاب الملايين . . . إنها فرصتي للخروج من بيروت الى الأبد . . . غداً ارسخ «مجدي» ويصير في مقدوري الاقرار علناً وليس امام نفسي فقط ، بأن عادل ونديم وصقر وخليل ورغيد ، كلها أسماء متشابهة لرجل واحد لا يضايقي ان يبدل أجساده وأسماءه واقنعتة وأساليبه ما دام قادراً على رعايتي بالفاهية والمال والامان وفاكهة المتعة . . . طفلي الجريح سأنساه لأنه سينساني على اية حال بعد اعوام حين يدفع به ابوه الى احدى الميليشيات تمهيداً لقتله ، ويجب ان انساه كي لا اتذكر وداد وبيروت والزجاج المحطم والجوع والنوم على الأرض في الملاجئ بين الصراخ والفئران والسعال وسطو المسلحين علينا . . يا رب نفسي . . . انا الى الابد . . لن اسمح لاحد بعد اليوم بمصادرة حياتي ، واذا لم يعجب خليل مسلكي فليذهب الى الجحيم ، واذا لم تعجب حياتي شقيقتي واصهرتي فلينسوا اسمي . . . واذا حاول رغيد كبح جماحي وترويضني باسم صداقته لوالدي قتلته ذلك العجوز البشع البخيل الذي اهداني خاتماً مزيفاً كخاتم دنيا . . . وطردي من فراشه كدابة . . . سأختار رجالي بنفسي ، واذا تجرأ رغيد على توظيفي للترفيه عن اي ضيف ععد قتلته لأنه يحاول ان يأخذ دون ان يعطي

كمسلحي بيروت ! .. سأرفه عن الذي يروق لي ... وسأكون عبدة لشهواتي وحدها ... وسأقول لرغيد بصدق : انه مجرد رجل آخر في حياتي ... ولكنه مهترىء لا يروق لي كحبيب او كسيد .. يا الهي لم اكن اعرف في بيروت انني قادرة على ذلك كله . مع صقر اكتشفت قدرتي السرية على ممارسة لذة الايلام والألم ، وربما قدرتي على القتل ايضاً) ... ظل الصمت سيد المائدة ... وثمة صوت رياح حارة تهب منذرة بتبدل الطقس ... ووميض البرق يتلاحق بشدة ، مثل طيور اسطورية ضخمة تقترب بمناقيرها المحشوة بالرعد .

تقول ليلى : ليت المطر يهادننا ريثما تنقضي ليلة الغد ... لقد اعددنا جلسة خاصة بالحديقة ... ستكون جنة عربية ، وستدقق جدول اصطناعي من العسل يدور في حلقة الكترونية ، والى جانبه جدول آخر من اللبن ... سينهر ضيوفنا .  
لم يجب احد . كان كل غارقاً في افكاره ، كأنهم ينصتون الى ما تحمله اليهم الريح من اخبار وتهديد . كأن البرق النائي كان يلامس مفاتيحهم النفسية ويخرج خباياها الدفينة متأججة ...

وحده رغيد بدا لاهياً عن الطقس وضيوفه ، وشهوات بعضهم لقتله او لمشاهدته ميتاً على الاقل ... مشغولاً بعظمته وشراسته النادرة التي يتوج بها ليلته الاخيرة قبل «ليلة المليار» . . . دنيا لاحظت بؤس زوجها ، وسعادة رغيد ( اتمنى ان أراه ميتاً هذا الرغيد . لقد دمر حياتي ونديم .. دمر في .. دمرني من الداخل ، ولم اعد ادري بالضبط من أنا وماذا اريد ، لقد امتصني كالعلقة في سرير امراضه وشيخوخته واوهمني انه يسبغ علي شرفاً عظيماً حين يلمسني بيده «المباركة» كيد ميداس الذي لا يمس مخلوقاً الا ويحوّله الى تمثال من ذهب .. لعلي تحولت الى تمثال ذهبي لا يدري ما يفعله في الليل ... لعلي انا حقاً التي طعنت لوحتي بنفسي .. لعلي اهملت نديم حقاً وكنت السبب في هجره لجسدي المصاب باستمرار بالصداع وفقدان الشهية .. لعلي مسؤولة عن انهيار حياتي واسرتي ، ولعله آن الأوان لأنسى كل شيء عن امير وبحرية والفن والنقاد والادباء ، واحاول ترميم حياتي المصدعة واسرتي المكسورة ... ذلك كله فعله بنا رغيد .. والآن يريد تدمير زوجي بطريقة ما ... ولست واثقة من انني قادرة على الوقوف على قدمي بدونيه .. لعلي أكره نديم لكنني الفتته والفت كراهيته له وحياتي معه ولم اعد اعرف كيف أبدأ من جديد ومن اين ابدأ ... حاولت مع امير وعالمه وفشلت .. وحاولت اللامبالاة ببحرية وفشلت ، وحاولت هجر نديم وفشلت : سأموت بدونيه كما انا ميتة معه .. ولن اسمح لرغيد بأن

يمتصه بعدما بصقني . . . سأقتله . . . سأفضحه . . . سأدمر القصر علي وعليه وعلى الاصحاب كلهم . . . سأكشف كل ما اعرفه من اسرار . . . سأذهب اليه ليلاً وأكلمه . . . سأقول له انني سأطعنه كما طعن زوجي لوحتي وكلبي بناء على اوامره - او كما طعنتها بنفسني لا ادري - ، وانني صرت قادرة على قتله بعد كل ما كان . . . سأقولها له : سأقتلك ) . . .

حين انتهت الوجبة الشهية ، لم يتلغ رغيد ادويته ، فقد شعر بأنه خالداً لا يمكن لشيء ان يؤذي عظمته حتى المرض ( حتى اذا فكر صخر بقتلي انتقاماً او اذا سلط ساحري الناقم علي او اذا ادخلا بحرية في لعبتهما . . . لا ابالي . . . فكيدي عظيم ) . . . وحين وقف نهض الجميع باستثناء خليل الذي كان مشغولاً عن الجميع بأفكاره الخاصة . . . لم يكن يفكر بقتل رغيد او بموته ، بل كان يفكر بحياته هو . . . بعيداً عن ذلك كله . . . طفله يغادر المستشفى بعد غد . . . فلماذا لا يعود الى الوطن حاملاً أسرته ؟ ( وداد قتلت في بيروت ؟ ولكن رلمي كاد يقتل في سويسرا ، معلقاً بين السماء والأرض . . . كلنا سنموت ذات يوم بطريقة ما ، ولكن الموت ليس واحداً حقاً . . . موت صقر من الكوكابين ليس كموت شقيق نسيم او موت ابني عمي الشهيدين . ليس صحيحاً انه تعددت الاسباب والموت واحد . . . بقائي هنا نوع من انواع الموت ، ويجب ان اذهب بعيداً . . . اضعت فرصتي لأكون ثرياً ، فرصة العمر ؟ . . . ربما ، لكنني سأمضي بعيداً على أية حال ) . . . لاحظ خليل تخلفه عن مواكبة ( الكورس ) فسارع الى الوقوف وهكذا نهضوا جميعاً عن المائدة ، وكل يستعد للذهاب الى غرفته الموقفة للنوم ، وفي فم معظمهم كلمات لم تقل يشتهون قولها لرغيد ، بالصوت او بالسكين . . . وهبت الرياح تلطم جدران القصر . . . رياح حارة فتحت احدى النوافذ فتطايرت الاكواب والشمعدانات والآنية عن المائدة كأن سحراً غامضاً يعبث بها ، ولكن رغيد لم يلتفت الى الحطام ، ولا الى البرق الذي بدا انه يزداد اقتراباً وتأجباً . . . صمت الجميع برهة وكل يستعد لمغادرة القاعة بعد سيدها طبعاً ، وقال رغيد بعدما شهر سيجاره الضخم : نديم . . . اريد ان اتحدث اليك قليلاً . . . رافقني الى قاعة البركة الذهبية . . .

تبادل نديم ودنيا نظرات تشبه الوداع . . . وحمل رغيد الاوراق التي تدين نديم وناولها اياها ليحملها عنه ، فمشى نديم كذاهب الى حتفه . . . بدا وهو يتسلق درجات السلم التي تقود الى الحديقة فالبركة كمن يتسلق سلم المشقة ، حاملاً بيديه الاوراق التي تثبت عملية الاختلاس كمن يحمل صك اعدامه ! . . .

التفت رغيد اليهم وقال بصوت جهد ان يبدو مرحاً : تصبحون على خير . . . الى

اللقاء غداً ، «ليلة المليار» . . .

انجز رغيد فتح باب البركة الذهبية المصفح كخزائن البنوك ، بينما كان نديم مسح العرق المتصبب منه ، وحين انفرد الرجلان قال رغيد لنديم دوغما مقدمات : ستذهب الى السجن عوضاً عني .

لم تبد الدهشة على نديم . . . بدا وكأنه يتوقع ذلك ، بل ويتوق الى سماعه لينتهي من مرحلة الحيرة والشكوك . . . اذن لن يقتله ويترك الى جانبه اعترافاً بخطه يرغمه على كتابته قبل ( انتحاره ) . . .

حسناً . . ما دام سيتركه حياً ، ثمة امل في النجاة  
- ولكنني لم افعل شيئاً ، لا علاقة لي بصفقة المدرسة او الغش في مواد البناء . . . لقد بالغ مهندسك قليلاً . . . وانت تعرف ذلك . . . المهندس مسؤول والأمر بالتأكيد بمعرفتكم ، وانا بريء من هذه الحكاية . .  
- اعرف انك بريء من هذه الصفقة بالذات . . . لكنك لست بريئاً من سواها . . .  
ولدي الدليل . . .

أشار رغيد الى الاوراق التي تثبت تلاعب نديم بالحسابات والاختلاس واساءة الامانة وقال : اذا رفضت ان تسجن بدلاً عني لأجل المدرسة ، سجنتم هنا على أية حال لأجل هذه . . .

- ولكن المهندس ، لماذا لا يسجن هو بدلاً مني؟ له علاقة مباشرة بالأمر على الاقل . . .  
- لا استطيع سجنه الآن . . . انه ينفذ مشاريعنا في القطر العربي الآخر . . . مئات ملايين الدولارات تتوقف على انجاز ذلك المجمع السياحي . . .  
- وانا ، يمكن الاستغناء عني . . . ولذا سأسجن للذنب لم ارتكبه ؟ . . .  
- بدلاً من ذنب ارتكبته . . .  
- هذا ليس عدلاً . . .

- هذا مناسب للجميع . . . ستعترف بالذنب . . . وبأنك ومعاون المهندس شريكان في اللعبة . . . ستسجن ، ولكنني سأكون قادراً على مساعدتك . . سأخرجك من السجن بعد عام وربما قبل ذلك ، حين ينسى الناس الحادثة . . سأحفظ لك ارباحك من المشاريع الباقية التي لن تتأثر بهذه الهزة . . سأرعى اسرتك واولادك ، ولن يتشرد احد او يعلن افلاس احد . . .

- ألا نستطيع ان نجد كبش فداء آخر ؟ لماذا اسجن لذنبي لم ارتكبه ؟  
- ستسجن لذنبي ارتكبه . . كل ما في الأمر اني بدلت لك ذنباً بآخر ، ومكان السجن الى الافضل . .

- ولكنني اعترفت لك يومئذ بذنبي . . . كنت في ضائقة مالية ، وفجأة صارت نفقاتي لا تصدق . . . الحياة مع اصحابك الاثرياء باهظة جداً . . . لقد بدت يومها الكماليات التافهة كلها وكأنها ضروريات كالخبز . . . معطف الفراء . . السيارات . . الفيلا . . شاليه السان ترويز . . . شاليه غشتاد . . كل شيء بدا ضرورة بين الاغنياء ، كما رغيف الخبز بين الفقراء . . . ثم تهدم بيت امي وابي العجوزين في الحرب اللبنانية الاولى كما تذكر . . . لم يكن في مقدوري ان اقول لها لا ، خصوصاً وانني كنت اشعر بالذنب لأن القذيفة التي احترقت بيتها كانت من النوع الذي اشحنه بنفسني الى بيروت . . . اختلست واعدت بناء البيت العتيق في الحي البيروتي الخطر وانا اعرف انه سيتهدم ثانية . . . لقد رفضا مغادرته، وصمما على الاقامة في خيمة اذا لم اقدر على اعادة تعميره . . . ضعفت . . . اخطأت . . . لكنني عرضت عليك فيما بعد تصحيح غلطتي ورفضت انت . . . هل تذكر ؟ طلبت انت مني اعتبار المبلغ « هدية » لأننا صديقان . .

- والآن تتخلى عن صداقتي وقت الحاجة ؟ . . ساعدني وسأساعدك . . هذا خير من سجنك في سويسرا ، حيث لا نفوذ لي مع احد . . سأأخذ العدل مجراه هنا ولن تغادر السجن الا بعد انقضاء فترة عقوبتك . . هناك ، اذا سجن بالنيابة عني ، سأكون طليقاً لأساعدك واساعد نفسي ولن يتبدل شيء . . . سنتقل في الاسبوع الثاني الى مستشفى السجن . جناح خاص فاخر . كل ما تطلبه سيكون لك . . اعتبرها فترة راحة . . سأسعى لاصدار عفو عنك . . بل ان صخر سيسعى لذلك بنفسه . . انه طيب القلب ، ثم انه سيصاهرني . . سأزوجه من بحرية ولن يرفض لي طلباً . . .

سكت نديم . . . طال الصمت ، ورغيد يضرب بيده فوق الاوراق التي تثبت اختلاس نديم ، وتودي به الى السجن لا محالة . . انه يعرف جيداً اصول اللعبة . . .  
لقد سقط في الشبكة الذهبية للعنكبوت المحنك . صحيح انه لا يثق به ولكن معاداته تعني النهاية بالتأكيد . . . لا خيار امامه . . لقد باع روحه للشيطان ، ووقع الصك بماء الذهب ، وعليه الآن ان يقدم دمه . . .



- اما من وسيلة اخرى ؟

- لقد قَلَبْتُ الاحتمالات كافة . . لم اجد شيئاً آخر اقل ايداء لمصالحنا معاً . . خبر انهيار المدرسة سيكون مضغعة اللسن غداً ، لذا ارجوك ودنيا مغادرة القصر غداً باكراً الى بيتكما ، وسأتصل بك بعد ترتيب امر تسليمك .

- وصفقة الاسلحة المستعجلة ؟ من يحل محلي فيها ؟

- خليل . . .

تذكر نديم انه لمح خليل ماشياً بينما كانت كوكو تداعبه في السيارة ، لقد التقت نظراتهما لثانية . لقد عرف وتجاهل ، والآن لن يحرك ساكناً لمساعدته . . على العكس من ذلك ، سيشتت به مهما تظاهر باللامبالاة . لا . . لن يساعده خليل . ولن يصدقه اذا قال انه لم يكن غير انبوب اختبار سخره رغيد لاكتشاف كوكو . . ومهمته تشبه مهمة ذواقة الخمرة . . فهو يقدم تقريراً عن المرأة التالية لسيده ، باستثناء العذارى طبعاً . . لن يساعده احد . انه وحيد . دنيا تكرهه ، وقد ساهم رغيد في ترسيخ هذه الكراهية . اولاده لا يبالون به . نسيم لا يحترمه . خليل يمقته ، لي تريد ان تحل محله . . . سيتقاسمان جثته ، هي وخليل . . . سمكة القرش الجريح تلتهمها الاسماك الباقية . . . ليعترف . . . لقد انتهى . . .

اخلف لـ رغيد ، ولكنه اخلف للخيانة . . . فانهي . . .

قال رغيد بصوت حاسم : غداً اسلمك للشيخ صخر . سيتولى تسفيرك لمحاكمة عادلة . . سيعلم ضيو في بالخبرين معاً في وقتين متقاربتين او في وقت واحد ، انهيار المدرسة ، وانهيارك واعترافك . . وبذلك تسكت الأفواه تدريجياً وستهدأ الضجة عما قريب . لقد وعدني صخر بالرأفة بك بعدما شرحت له ظروفك . . . المخففة !!

- اذن رتبت كل شيء قبل استشارتي ؟

- كنت اعرف انك لن ترفض لي طلباً . . . اليس كذلك ؟

... -

- وثبتت انك رجلي الوحيد في الملمات . . . لا احد يحل مكانك . . .

... -

- ستعود وتجد مكانك شاغراً . . . سحابة وتنقضي . . . انها جزء من متاعب

الاثرء . . .

... -  
 - لا تخش شيئاً ... اعتمد علي ... وستكون في امان ... ثق بي وسيكون كل شيء  
 على ما يرام ...  
 ونهض رغيد ، وسكب لنفسه كأساً كبيرة من ماء النار ...  
 وادرك نديم ان القضية انتهت بالنسبة الى رغيد ، وها هو يحتفل بالخاتمة ...  
 انعكس ظل رغيد في بركة الذهب ، وبدا وسط الماء رجلاً ذهبياً طالعاً من اسطورة  
 شريرة ... شعر نديم برغبة شرسية في اغراقه ، وخنقه تحت الماء ... ( ماذا لو مزقني اهالي  
 الضحايا في المطار قبل المحاكمة ؟ ماذا لو قتلوني انتقاماً ؟ ان انهيار مدرسة امر لا يمكن ان  
 يمر بالبساطة التي يصورها لي رغيد . انه يرسلني الى موتي على اية حال ) ... كأنما حدس  
 رغيد افكاره . قال بهدوء : لا تشته قتلي ... موتي يعني دخولك السجن على اية حال .  
 هذه الاوراق ليست سرّاً ... ليلي مثلاً تعرف بأمرها كالمحامي ... مصلحتك في حياتي  
 انت وهي وكلكم ... موتي يعني السجن لكما معاً ... هذه دوماً وسيلتي الاولى لحماية  
 نفسي ...  
 وضحك بزهو ... شعر بأن نديم يثقته ولذا له ذلك الاحساس وطاب ، واستعاد  
 نشاطه وحبوره ...  
 لا شيء مثل نشوة الكراهية المتبادلة ... التفت نحو التمثال كأنه يغيظه شخصياً وقال  
 له : كأسك ...

وشرب نخبه بيننا نهض نديم من مقعده يتأمل الشرنقة الذهبية واجماً محطماً ...  
 واشتعل في اعماقه بركان من الحقد والندم ...



فجر « ليلة المليار » ، استيقظ من كان نائماً في قلعة الذهب على صرخة تفيض  
 رآ حقيقياً ... تبعته صرخات متلاحقة .  
 نديم لم يكن نائماً ... سمع الصرخة مدعورة مدوية لا تحمل كلمات واضحة  
 عددة ... ميز فيها صوت صقر قادم من بعيد .

ابواب تفتح . اضواء تسطع . اقدام تهول . . . دقيقة ، وتجمعوا كلهم في الردهة الكبيرة واحداً بعد الآخر، وصقر ما زال يصرخ بهلع مجنون . . . وجهه محتقن وعروقه نافرة : رغيد . . . جثة رغيد . . . في البركة . . هبطت جائعاً افتش عن طعام بعد ما نمت البارحة باكراً دوغماً عشاء او غداء ، فوجدت الانوار مضاءة ، ومضيت صوب البركة . . . ووجدت جثته . . وجدته عائماً على وجه البركة . . .

لم يتحرك احد ، واكتفوا بالارتجاف برداً بعد ليلة من البرق والرعد والصواعق لم ينم احد فيها ، تصببت امطارها وقرعت النوافذ ورحلت برسالة الحر .

تابع صقر وهو يشير بأصبعه صوب بركة الذهب : انه هناك . . مقتول . . مخنوق . . . شاهدت جثته بعيني . . . انه مخيف . . . مخيف . . .

كان واضحاً ان صقر تناول جرعة لا بأس بها من «مسحوق الطيران الأبيض» . . . بدا مثل طفل مدلل مذعور رأى جثة للمرة الأولى . . . يرتجف مرتعداً ولصوته رنة نواح وشكوى . . .

قال خليل : لعلك واهم . خيالات وأوهام وهلوسات هذا يحدث كما تعرف ، وأنت تفهم جيداً ما اعنيه . .

— انه هناك . . . تعالوا وانظروا بانفسكم . . .

وسط القاعة الشاسعة المذهبة ، والبركة البديعة ، كانت جثة رغيد عائمة فوق الماء ، متورمة الملامح ، مزرقة الوجه ، الشفتان متصلبتان على ما يشبه ابتسامة شامتة . . . العينان مفتوحتان تحدقان بنظرة تشبه السخرية . . . كان ما يزال يرتدي ثياب البارحة التي شاهده فيها جميعاً وقت العشاء . . . وبدت جثته الطافية كأنها عائمة في رحم ذهبي المياه ، والقاعة مثل تابوت كبير من الذهب . . .

حدقت ليلى كمن اصابها مس . . . تطلعت فيهم واحداً بعد الآخر . . . كفى . . خليل . . دنيا . . نديم . . نسيم . . صقر . . وقالت بهدوء مسعور : حسناً . . من قتله ؟ قال نسيم بكراهية ساخرة : ولماذا تخاطبيننا كأنك المفتش في رواية بوليسية ؟ . . ولماذا نكون نحن الذين قتلناه لا انت مثلاً ؟ . .

التفتت ليلى الى نديم : لا توجد اسرار . . من الواضح ان نديم قتله . شاهدناه جميعه يمضي واياه الى هنا بعد العشاء . .

تحولت الانظار كلها الى نديم . . بدا شاحباً ، يتلفت حوله كمن يبحث عن شيء

ضائع . . . تابعت ليلي بقسوة : انت قتلتها وانا اعرف لماذا . . وتركت كل شيء على حاله  
وهربت من مسرح جريمتك . . الاضواء على حالها ، والباب مفتوح . . .  
انهار نديم فوق المقعد . ارتجف وهمس كمن يخاطب نفسه : لكنه كان حياً حين  
فارقت . . ربما كنت اشتهي البارحة موته ، لكنني لم اقتله . . .  
قالت دنيا : لست مضطراً لقول شيء لها . . حسمت ليلي الأمر : انه بالتأكيد لم  
ينتحر ، وثمة جريمة . سأتصل بالبوليس . . والاسعاف . .  
ونوح بصقر : دعونا نغادر هذا المكان . . . تعالوا الى الردهة . .  
بيروود قاس قالت ليلي : لا تمسوا شيئاً . . . لا تفسدوا سير التحقيق والأدلة  
والبصمات . .  
قالت دنيا لزوجها : انهض عن هذا المقعد وارفع ذراعيك عن مسنديه . . سيجدون  
بصماتك . .  
اجاب دامعاً : سيجدون بصماتي في كل مكان . . كنت معه البارحة هنا حقاً ، لكنني  
لم اقتله .  
اقسم لكم انني لم اقتله .

\*\*\*

هتف نسيم الى امير : صباح الفل . .  
— ماذا دهك ؟ توقظني في الخامسة فجراً لتقول لي صباح الفل !  
— العوض بسلامتك . . رغيد فارقتنا اخيراً . .  
— ماذا ؟  
— يبدو ان نديم قتله . . واخيراً . . قتل الدب سيده .  
— هل انت متأكد ؟  
— تقريباً . . نحن الآن بانتظار وصول البوليس . . والاسعاف . . والصليب الأحمر  
والأخضر . . وربما المافيا . .  
— انك اسعد مما ينبغي . . .  
— لا يعكر فرحتي غير انني لم اقتله بنفسني . .  
— ما ادرانا انك لم تفعل ؟ . .

لم يستجب نسيم للمداعبة . . . بدا وكأن الذعر استولى عليه . . .  
ودع أمير ، واغلق سماعة الهاتف وجلس واجماً . . .  
هل سيلحظون انه استبدل تمثالاً بآخر ؟ وهل ستلحظ ليلى او سواها ان القرش  
الفلسطيني اختفى ؟ . . هل سيتهم بالقتل ، لسرقة القرش واستبدال التمثال ؟ . .  
( ولكنني لم اقتله . . .

وجده مقتولاً حين دخلت الى بركة الذهب . . قبل ان اذهب الى النوم ، لمحت  
الأضواء مشعشة في البركة وكانت الساعة تقارب الثانية فجراً . . . اقتربت لأستطلع . .  
حسناً ، كنت انوي استراق السمع والتجسس كعادتي لكنني لم ارتكب جريمة اكبر من ذلك  
باستثناء انني كنت ثملاً ، انا الذي لا يذوق الخمرة الا فيما ندر ، ويصحو في اليوم التالي  
نادماً تائباً . لم اسمع صوتاً . . خطوة اخرى الى الامام . . شاهدته عائماً فوق الماء المذهب  
كتلة من الأوساخ الهامدة داخل ثياب فاخرة مبتلة . . . شعرت بالفرح فقد بدا ميتاً . . .  
وومضت في ذهني عبارة : مقتول . . لعله قتل . . سررت لأنه قتل ، لأن سواي قام  
بالمهمة . . . لاحظت ان باب سجن تمثال « المناضل » كان مفتوحاً فهل خرج التمثال وقتله ؟  
لمن الله الشيخ وطفان الذي زرع في نفسي الأفكار المرعبة والمستحيلة . المستحيلة ؟  
أم تراها ابخرة الخمرة ؟ عدت مذعوراً الى غرفتي . . . ارتجفت وارتجفت . .  
مرت الدقائق بطيئة ولم اسمع صوتاً غير صراخ العاصفة وعويل الرياح الدامعة بالمطر . . .  
استعدت بعضاً من شجاعتي . إذن لم يكتشف الجثة احد ، ولن يحدث ذلك قبل الصباح  
الباكر وقت وصول السقا والخادومات والطباخ . . . قررت أن افعل شيئاً طالما حلمت به . .  
ولا ادري من اين واتتني الشجاعة لذلك . . تراها ابخرة الخمرة المستولية على رأسي ؟ أم  
بالرغم منها ؟ لا ادري . . لقد حملت نسخة التمثال التي اهداني اياها رغيد لاذلاي وقهري  
ومضيت الى القاعة الذهبية . استبدلت بها التمثال الأصلي عن قاعدته والعرق يتصبب  
مني ، والمطر يلطم نوافذ البركة ، وحين شاهدت القرش الفلسطيني ، قررت ان تكون  
هديتي لأمير كاملة . . . مسحت بصماتي عن التمثال المزور وقاعدته . . كنت قد شاهدت  
من المسلسلات التلفزيونية البوليسية ما يكفي لتثقيفي بهذا المقدار . عدت الى غرفتي . . .  
وضعت التمثال الأصلي بدلاً عن النسخة المقلدة . . لن تلحظ الخادومات الفارق . .  
اخفيت القرش داخل علبة (النسكافيه) وطمرته بالقهوة . . . كنت في لحظة جنون  
مؤقتة . . مشهده ميتاً كأني ارضي آخر غمرتي بفرحة الاكتشاف . . اذن اولئك السفاحون

قابلون للقتل ، وجشهم تبدو بائسة كجثة اي فقير . . . ولا يتدفق من عروقهم دم ازرق  
يلون البركة ، بل تزرق وجوههم كالقتلى جميعاً . . دب الفرح في اوصالي ممزوجاً بالذعر ،  
وامتلأت بجرأة خارقة عابرة . . .

لم انم . . تقيأت ودهمني الصداع . ندمت ، وارتعدت . . ماذا لو اتهمت بقتله ؟ .  
كأنني اسديت للقاتل خدمة حين حملت بنفسي بعض ادلة الجريمة الى غرفتي . . . فكرت  
بإعادة كل شيء الى موضعه ، ولكن خيل الي انني سمعت حركة ما . . . ثمة من يهبط  
ويصعد . . افقلت بابي . . ماذا لو كان القاتل قد عاد لأنه نسي شيئاً ما مثلاً ؟ . . ولماذا لا  
يقتلني اذا شاهدته وتعرفت اليه ؟ . . وكيف لا اتعرف اليه ، وليس في القصر هذه الليلة  
سواي وخلييل وزوجته ونديم وزوجته وصقر وليلي وباب الجسر بيننا والمبنى الآخر لرجال  
رغيد مغلق ؟ ولكن فرحتي بمصرعه غطت مخاوفي كلها كغيمة حنون . .

هل قتله نديم ؟ بالتأكيد . . .

ولكن ، ليت فعل ذلك منذ زمن بعيد . . بعيد . . . خليل لا يمكن ان يكون  
فعلها . . . انه يمر بمرحلة التدليل والافساد ولما يواجه مرحلة الازلال الكلي بعد . . .  
وليلي خاسرة بموته . . . كان يزداد اتكالاً عليها دون ان يلحظ ذلك . . . ام ان ثمة ما  
اجهله يدور بينهما ؟ . . . كفى هشة . . . ليست من النمط القادر على القتل خارج  
الفراش . . .

وأنا لم افعلها . . .

فمن قتله غير نديم ؟ . . .

صقر لم يفعلها بالتأكيد ، فهو لم يدر بانهيال المدرسة ومصرع شقيقه ، بعدما رفض  
البارحة الرد على هاتف والده وكان مخدراً . . . ام تراه كلم والده بعد نوم الآخرين  
واستيقظت فيه غريزة الثأر؟ بحرية لم تفعلها بالتأكيد ، وياله من حظ مبارك إبعادها الليلة  
عن القصر والا لأطرها البوليس بالاسئلة ولاتهمها الساحر . . ولكن كونها خارج القصر  
قد لا يعفيها من التهمة اذا اصر الشيخ وطفان على جرمها تلك الغامضة السلوك . . ولديه  
عدد كبير من الشهود ، فمن تهبط الى سهرة اقيمت على شرفها عارية ومغطاة بالدم ترعب  
الضيوف ، يمكن ان تتهم بالقدوم من قصر الى آخر لارتكاب جريمة قتل . . فالشهود لا  
يعرفون حقيقة ما كان يدور بينها والساحر خلف الجدران الصامتة . . ام تراه الشيخ صخر  
ارسل من يقتله انتقاماً ؟ واعده على اللقاء في البركة الذهبية وجاء بنفسه وقتله ، أو أرسل

من ينوب عنه ؟ ألا يفسر ذلك ترك رغيد لباب البركة المصفح مفتوحاً ؟  
إذا لم يكن نديم قد قتله ، فإنه بالتأكيد كان ينتظر قدوم شخص ما ، وهذا الشخص هو  
الذي واعدته وقتله ، وربما كان رغيد استدعاه بنفسه . . فمن هو إذا لم يكن نديم قد  
فعلها ؟

ولكن القاتل لا بد من ان يكون احداً في القصر . . . اذ كيف يدخل الشيخ صخر او  
بحرية لقتله من غير ان يراها الحرس ؟ وكيف يخترقان الجدران المكهربة ، والبوابات  
المصفحة ؟ . . . قاتل محترف يبعث به صخر مثلاً يستطيع ذلك ، بقص السور المكهرب  
للحديقة . . والتسلل الى البركة حيث يكون رغيد في انتظار سيده ، وينجز المهمة  
بسرعة . . .

هذا يعني ان أي رجل قوي له نفوذه ويعرفه ، يمكن ان يكون واعد رغيد ليلاً في  
البركة ، لانجاز صفقة لا بد من ان تكون شهية جداً كطعم ، ثم ارسل من يقتله ، المصلحة  
ما تجارية . . ربما لأنه يريد الانفراد بالصفقة وحده ، والتخلص من منافسه رغيد .  
«المليونير الاحمر» مثلاً يمكن ان يكون قد فعلها بعدما وجد وسيلة للانفراد بصفقة  
المطار . . . والمليونير الأصفر . . . وأي مليونير من اولئك الذين ينتظرون طلوع شمس  
هذا النهار للحضور والاحتفال . . . وإذا كان القاتل ذكياً - كما هو بالتأكيد - فانه قد يؤخر  
حضوره ، ويواعد رغيد هاتفياً دون ان تكون طائرته الخاصة قد حطت بعد في مطار  
جنيف ، ويرسل قاتله المحترف لتتم الجريمة قبل وصوله (ريموت كونترول) بالتوجيه بعيد  
المدى . . .

الشيخ وطفان وحده من العالم الخارجي يمكن ان يكون فعلها دون قص شريط  
الحديقة . . . فهو قادر على تنويم الحراس مغناطيسياً بعينه المرعبتين وعلى تعطيل صفارات  
الانذار وتحريك الازرار بنظراته . . . وقد لاحظت مؤخراً انه كان يحرك بعض الاشياء  
الجامدة وحين أفاجئته بدخولي الى الغرفة يتركها تهوي . . . بل انه كان يزداد قوة سوداء  
مرعبة كلما ازداد مرضاً ونحولاً كأن طاقاته كانت تتغذى من جسده ، وعفريت غامض  
يقطنه حقاً ويمتص قواه الحيوية . . . ولكن لماذا يقتل الشيخ وطفان رغيد ؟ لأنه ناغم عليه  
بشأن بحرية ؟ لأنه لم يطلق يده في شأن حلقة شعرها وتعذيبها لطرد الشياطين منها ؟  
ولكن ، لماذا يحضر من فندقه لقتله ، وهو القادر على ذلك في أية مناسبة اخرى ؟ . . . ولماذا  
لا يدس له بالسم في احد العقاقير التي يتناولها رغيد من يده بكل سرور ؟ أم ان العلاقة بينهما

ساعات في الفترة الاخيرة بسبب بحرية ، وصار رغيد يشك حتى في ساحره ؟ .. ولكن ، لماذا يقتله الساحر وطفان بخنقه كأبي آدمي آخر ، وهو القادر على تسليط الأوجاع والصداع والأوبئة على جسده ؟ ) ..

شعر نسيم بأن رأسه يكاد ينفجر لهذه الأفكار . . وامتلاً ندماً لأنه في نوبة جنون شاب بدّل التمثالين وسرق القرش . . فقد يلصقون التهمة به ، بناء على هذين الدليلين ، لمجرد انه خادم وفقير ولا يملك اجرة المحامي ، وسيسر ذلك الجميع - باستثناء خليل وامير - ولكنه يعرف بالتأكيد انه لم يقتله فهو لا يمشي في نومه ، فمن قتله اذن ؟ عاد يفكر من جديد بالاشخاص كلهم الذين ناموا داخل القصر ، وكان بالتالي قتله اسهل عليهم من سواهم ، وامسك رأسه بين يديه وقد داهمه صداع مفاجيء .

( يبدو انني اكثرت من قراءة الروايات البوليسية اكثر مما ينبغي . . لست المفتش بوارو في روايات اجاتا كريستي لاحدد من الذي قتله . . المهم ان انجو برأسي هذه المرة . . . ) . نهض وغسل وجهه بالماء البارد ، وسارع الى ارتداء ثيابه .

( لعن الله الخمرة . لولا زجاجة النبيذ المعتقة التي فاضت من عشاءهم ، فحملتها الى غرفتي وشربتها ، لما وجدت في نفسي الجرأة والرعونة لاستبدال التمثالين وسرقة القرش . . هل سأتهم بجريمة قتل لأنني اختلست عدة جرعات من ماء النار ؟ وهل سأدفع حياتي ثمناً لذلك ، بينما يسبح القاتل او القاتلة في الخمرة والخطايا ؟ . . هذا بالتأكيد سيحدث . . . وحدهم الفقراء يعاقبون على ذنوبهم في كوكبنا . . . ) .

\*\*\*

قالت دنيا مخاطبة ليلي ببعض اللؤم : هل استطيع الصعود الى غرفتي لتبديل ثياب النوم ؟ تدخل خليل : ما شأنها بك ؟ انها متهمة ككل واحد منا . . وانا ايضاً صاعد لتبديل ثيابي . . .

غادرا الغرفة ولم تفه ليلي بكلمة . . . وحده صقر كان ينتحب كالطفل وينوح مخبواً : اريد ابي . . اريد العودة الى بيت ابي . . دعيني اذهب . . . وبالرغم من ان ليلي لم تجبه ولم تفعل شيئاً لمنعه من الذهاب ، لكنه جلس الى مقعده كأن قيوداً لامرئية تشده اليه . . . وهو ينوح : سيقتلونني انا ايضاً . . ثمة من يكره العظماء والاغنياء . . دعوني اذهب . . لعلي كنت المقصود بعملية الاغتيال . . بالتأكيد كانوا يريدون قتلي انا . . .



دخلت دنيا الى غرفتها . اخرجت اوراقاً من حقيبتها ، الأوراق التي تدين نديم والتي هدد رغيد بها زوجها في الليلة السابقة . سارعت بها الى الحمام . اشعلت الولاة الذهبية . احرقته ورقة بعد اخرى ، ثم تدفق شلال الماء ذاهباً بالبقايا . . . انتظرت قليلاً وتأكدت ان قطعة ورق أو هباب لم تعم فوق سطح الماء ، ثم عادت فضغطت الزر وتدفع الشلال من جديد . . .

غسلت يديها جيداً من الهباب ، وتأكدت من ان السواد لا يلطخ اظافرهما من الداخل . . .

( اذن قتله نديم ؟ . . . لقد عاد حوالي منتصف الليل باكياً كالطفل . . . لم يقل لي انه قتله ، وإنما روى لي كيف سيزج به في السجن لذنوب لم يرتكبه بعد ان يقسره على الاعتراف بمسؤولية انهيار المدرسة . . شعرت بانني اكرههما معاً ، ولكن . . . خفت . . امتلأت ذعراً ، وتدفقت مشاعر القلق من اعماقي على غير هدى ، واحسست انني بحاجة الى ان اخطط لحياي وفراقي لنديم إذا تجرأت يوماً على ذلك ، ولم اعد قادرة على ان يخطط رغيد لها بعد الآن . . . انه يزيد الأمور تعقيداً ، وأنا اكاد انكسر ، وقد انكسر بالتأكيد لفراق نديم الذي قاسمته الكراهية والعيش والهفوات والسقطات لأعوام طويلة . .

ربما كنت ارجب في جرح مشاعر رغيد ، لا في مساعدة نديم . . . لا ادري بالضبط . . . لم اقدر على النوم بعد الحكاية التي رواها لي نديم . . . إذن سيذهب نديم ليسجن هناك ، وسيتابع رغيد الاعيى الى الأبد . . ثمة من سيسجن دوماً بالنيابة عنه ليحيا هو سارقاً منه حريته . . ومن سيموت بالنيابة عنه ليحيا هو سارقاً كليته او قلبه او عينه . . كنت مقهورة وغاضبة . . .

تقلبت في فراشي اربعة لمدة ساعة على الاقل . .

حوالى الواحدة صباحاً قلت لنديم : سأذهب اليه لأحدثه . . .

كان منهاراً . . لم يقل نعم او لا . . . ذهبت الى غرفة نوم رغيد التي اعرف جيداً وقرعت الباب طويلاً ولم يجب احد . . وادهشني ان الباب لم يكن مقفلاً ، حين ادرت مقبضه ، ولكنني لم اجد رغيد في الغرفة . هبطت الى الردهة . لا احد . شاهدت الانوار عبر النوافذ مضاءة في البركة الذهبية . مضيت اليه وقد سرني انه ما زال مستيقظاً . فكرت لوهلة بأن اتوسل اليه ان يدعنا وشأننا يأخذ كل دولار جمعناه بواسطته . . في دربي اليه تخيلتني اقلته . . اختفه في بركة الذهب واغطس رأسه تحت الماء والفقااعات الذهبية تتصاعد

حتى تتلاشى قواه ويضمحل بين يدي زنجاً ولزجاً . . وفوجئت به عائماً فوق الماء ، مخنوقاً ،  
وئمة من سبقني الى تحقيق هذه الأمنية . . صعقت . . تحجرت . . شاهدت الأوراق التي  
تدين زوجي على الطاولة . . . توهجت بالذعر ودبت في عروقي قوة استثنائية . . . بسرعة  
قلبتها . . بسرعة عرفتها . . . شاهدت توقيع نديم والجداول . . . الحسابات المغلوطة  
والاختلاس . . حملتها وعدت بها الى الغرفة . . .

قلت لنديم : إذن قتله . .  
لم يجب . ظل طويلاً صامتاً ثم قال : «ليني جرؤت على ذلك . . تمنيت أن أخنقه في  
بركة الذهب واغطس رأسه تحت الماء والفقاعات الذهبية تتصاعد حتى تضمحل قواه . . .  
لكنني لم افعل» . . .

قلت له : ولكنه مقتول . . شاهدته ميتاً فوق البركة . . .  
قال لي : مستحيل . غير ممكن . امثاله لا يموتون . انه يسخر منك . لعله شاهدك  
قادمة واحب العيب بك . . . فسارع الى الغطس في الماء . . .  
— بشيابه ؟ هل يعقل ذلك ؟  
— إذن أنت مذعورة وواهة . . .  
— تعال معي وانظر بنفسك . . .  
قال : اتي منهك . . .

تراجعت : ماذا لو كان مقتولاً حقاً ؟ ماذا لو وجدونا هناك ؟ سيتهموننا بذلك  
معاً . . .

لم أقل لنديم شيئاً عن الأوراق . . داهمني شلل مذعور . . . ظللت ارتجف في فراشي  
بصمت حتى انطلقت صرخة صقر . . . وشعرت بالارتياح ، فقد كان الانتظار اقسى من  
اليقين . . .

إذن قتله ولم يقل لي . . . وها انا ازيل ادلة الجريمة . . . انني شريكته . . . لقد ورطني  
منذ بدء حياتنا ولم يعد بمقدوري الانسحاب . . . لماذا تدخلت بعدما كنت قد قررت مغادرة  
جحيماً المتبادل ؟ . . . لا ادري . . . لا ادري . . . لم اعد اعرف شيئاً . . . )

\*\*\*

غسل نديم وجهه في الحمام الخاص بالضيوف الملحق بالردهة الكبيرة ، وانتحب في المنشفة وهو يحفف وجهه . . . وبقي في ثياب النوم التي ارتدى فوقها معطفه المنزلي (الروب دي شامبر) . . .

إذن قتلته دنيا . . .

(ماذا فعلت بها وبنفسى ؟

قتلته من غير ان تدري . . . كما طعنت لوحتها بالسكين دون ان تدري واتهمت بذلك ابتتها أولاً ، ثم استقر رأيها على انني المجرم ، وانني ارتكبت ذلك لتأديبها بناء على تعليمات رغيد . . . صحيح ان رغيد طلب مني (اعادة تأهيلها) ، لكنني اكتفيت بقتل بيكاسو كلبها ، ولم افعل ذلك . . . لم اطعن لوحتها . . . ولا اظن ان ابنتا فعل ذلك ، مغادراً حقل القتل على شاشة الألعاب الفيديو - تلفزيونية وشرطة الأتلفزيون الى شاشة الحياة واللوحات . . .

هي التي فعلتها من غير ان تدري .

سأشهد ضد تلك المسكينة . . . لقد دمرتها ودمرت نفسي . . . بدت لي الحياة لعبة كبيرة ، من لا يقدم على اغتصاب نصيبه منها يخسر حقه فيها وفي قبر لائق . . . وكل ما فعلته هو انني اخذت ما اعتقدته حصتي . . . وشجعت دنيا على مساعدتي . . . كيف انحدرنا الى هذا الدرك ؟ .

نعم . . . انتهيت البارحة ان اخنقه في بركة الذهب واغطس رأسه تحت الماء والفقاعات الذهبية تتصاعد حتى تتلاشى قواه ويضمحل بين يدي . . .

ولكنني لم افعل . . . لم افعل . . .

كل الدلائل تشير الي . . . فهل تنقذني دنيا وتعترف ام تتركني اذهب الى السجن المؤبد في غمرة ادعائها محاولة انقاذي من سجن مؤقت ؟ هل قتلته لأنهم انا بالجريمة ؟ أهذا انتقامها ؟ ولكن ، ماذا لو كانت قد قتلته في احدى نوباتها العصبية ، ولم تعد تذكر ذلك حقاً ، تماماً كما فعلت ولوحتها ؟

وماذا لو انها بريئة ولم تقتله ؟ . . . وما دمت لم افعل ذلك ، إذن فالقاتل حر وطلبي بيننا . . . من هو ؟ خليل ؟ ولكن ، لا مصلحة له في ذلك . . .

نسيم ؟ ممكن . . . انه يمقتنا جميعاً . . . ومنذ مصرع سري الدين وهو يتجنب النظر الى وجهي . . .

ليلي ؟ قادرة على ذلك لو انها متزوجان . . . اما الآن فلن تثر غير الديون . . .  
 صقر ؟ على الأرجح . . . انه واقع باستمرار تحت تأثير الكوكابين وسواه من مساحيق  
 الجنون . . . هل قتله انتقاماً لمصرع شقيقه ؟ . . . هل علم بذلك ، واستيقظت في نفسه قوانين  
 القبيلة في عالم لا تحكمه غير شريعة الغاب ؟ . . . هل اقنع هلال الذكي شقيقه صخر بأن  
 اعترافي مسرحية هزلية شكلية لن يصدقها احد ، ودفع به الى الانتقام ؟ هل ارسلوا بقاتل  
 مأجور ؟

أنا المتهم الأول ، لكنني لم افعلها ، واعرف ان احداً لن يصدقني . . . والقاتل يعرف  
 ذلك جيداً . . . وربما شجعه ذلك على تنفيذ خطته . . .

\*\*\*

ترتدي كفي ثيابها مذعورة . . . بدت الغرفة لعينها جحيماً رغم الذهب  
 والرياش . . . اذن خسرت فرصتها «ليلة المليار» هذا المساء ، وفجر المليار دمر  
 احلامها . . . قتل وجرائم . . .

لم تلتفت الى خليل الذي كان يرتدي ثيابه بسرعة ولم يخاطب احدهما الآخر . . . أهذا ما  
 يدور في هذه القصور التي طالما حلمت بها ؟ . . .

على هذا الفراش اغضبها صقر ، واستمتعت بذلك وهذا شأنها وحدها ، (من  
 الخارج) كان واضحاً انه اغتصبها ، فلماذا رفضوا كلهم الوقوف الى جانبها : زوجها ودنيا  
 وليلي ؟ حسناً لم تطالبهم بأن يكذبوا . . . كل ما طلبته من ليلي ودنيا هو قول الصدق . . . «قول  
 الحق» . . . فرفضوا . . .

(ولكن ، لم انا غاضبة هكذا ؟ ألم يكن «قول الحق» مأخذي الاساسي على خليل ؟ هل  
 اريد ان يقول الناس الصدق أم لا ؟ أم اريده حين يكون لصالحني وارفضه حين لا يكون  
 كذلك ؟

إذن قتله خليل . . . انه على الأرجح قاتله . . . وحدي اعرف ان نديم غادر رغيد وهو  
 ما زال حياً ، لأنه حدثني بعد ذلك على سماعة هذا الهاتف بالذات . . . قال لي انه اعلم نديم  
 قبل دقائق باستغنائها عن خدماته لأنه اساء الأمانة وتسبب في انهيار مدرسة او شيء من هذا  
 القبيل ثم سألني ان كان خليل نائماً ووعدي بمنحه وظيفة جديدة مهمة واضافية بدلاً من نديم  
 تدر علينا نقوداً كثيرة فشكرته وفرحت وقلت له انه يستحق لكنني سأناديه ، فأمرني بأن

افعل . . . ولو قلت له انه يحتضر لطلب ان اناديه . . . ثم امره بموافاته الى بركة الذهب . . .

وهبط خليل اليه بعد منتصف الليل . . . ربما حوالى الواحدة لا اذكر . . كل ما اذكره هو انني خفت لأن العاصفة انفجرت فجأة وانا وحدي . . وفكرت بالذهاب عبر الشرفة والاحتباء بجسد صقر ولكنني لم اجرؤ . . ثم ان خليل لم يتأخر كثيراً . كأنه عاد سريعاً او كأنني غفوت . . اذكر ذلك بشكل غامض . وحين سألته نصف نائمة بماذا تحدثنا ؟ وماذا عرض عليه ؟ وكم الراتب الشهري ؟ . . . النقود . . المال . . العملات . . اجابني بهدوء : عرض علي شيئاً فقتلته . . .

ضحكت للنكتة مرغمة ، وقررت ان لا حاجة للشجار من اجل نكتة سمجة بعد يوم منهك كهذا ، ستعقبه ليلة الحفلة . . ومن الأفضل لجمال بشرتي ان اسكت وانام . . . وكان نومي قلقاً . . حلمت بأنهم يغتصبونني وعلى رؤوسهم قناع الشيطان . . واحداً بعد الآخر . . . حتى ليلى كان لها في الحلم جسد رجل . . . واستيقظت على صراخ صقر . . . ولم اصدق ان خليل كان يعني ما يقول الا حين شاهدت جثة رغيد عائمة فوق فراش الذهب المائي . . .

لينا بقينا في بيروت . . . الموت ، والقصف ، والدعر ، كل شيء خير من هذه الجريمة . . لن ادعى الى الحفلات بعد الآن ، ما دمت زوجة لقاتل سجين . لقد دمر مستقبلنا الاجتماعي . ليتته قتله بعدما طلقني وليس قبل ذلك . . انه لا يفكر بغير نفسه . . آه ماذا سيحل بي والطفلين ؟ كنت اظن الغنمالي سنداً ، ولكن هل يرضى بي بعد اليوم بعدما اصبحت زوجة لقاتل ؟ ومن يدعوني بعد الآن الى قصره ؟ ومن ينفق علي ؟ هل سيحكم خليل بالاعدام ؟ هل يطبق الاعدام في سويسرا ؟ لقد سألت عن كل شيء في هذا البلد الرائع الا . . هذا . . .

لم يخطر ببالي ان الأمر سينتهي بنا الى هذا الذل . . وقد اصير ارملة قاتل . . . لن اشهد ضده فقد اتهم بكنم المعلومات . . . سأطبق فمي . . كنت نائمة ولا اعرف شيئاً . . . لا اريد ان اعرف ولا ان اصدق . . . وإذا ادعى انه اخبرني باقرار جريمته بعد عودته مباشرة من مسرحها ، سأقول لهم انه كاذب كاذب . . . ومن يصدق قاتلاً ، ويكذب براءة عيني الزرقاوين المبلتين بالدموع ؟ اللعنة على خليل . . . ما كدت امد قدمي لاخلو فوق المسرح ولأتوج نجمة من نجوم «ليلة المليار» ، حتى هدم كل شيء على

رأسه ورأسى ، وأفسد مستقبلي الأكيد كنجمة مجتمع عالمية . . . لن اغفر ذلك له ، هذا  
الاحمق الذي ركل الثراء والنجاح ، وافسد عمري كله ) .

\*\*\*

( نعم قتلتته . . وانا فخور بذلك . . . سأقولها في المحكمة . . . حين يناديني القاضي  
ويسألني : لماذا قتلتته يا خليل الدرع ؟ سأقول له الحق . . سأقول : قتلتته لأن طفلي ماتت  
بقذيفة تقاضى هو عمولتها . . اطفال الحي كلهم ماتوا بقذائف سكب ثمنها ذهباً في  
بركته . . . قتلتته لأنه طلب مني ان اشاركه مهمته القدرة وعمولته القدرة . . . اخرجني من  
بكائي على طفلي بعد منتصف الليل لاشراكه قذاراته ولاغوص معه في مستنقع مخدرات صقر ،  
الأسلحة الى بيروت للطرفين المتقاتلين في آن معاً بعدما رمى بي في مستنقع مخدرات صقر ،  
وعهر زوجتي . . كان فخوراً بأن حرب لبنان من ثمانية اعوام كونت الجزء الأكبر من ملياره  
الأول ، وعلى استمرارها يعول لجمع ملياره الثاني . . المشاريع العمرانية سيتخلى عنها  
بالتدريج ، فأنت تتورط اذا انهارت ودمرت وقتلت كما حدث للمدرسة ، أما بيع السلاح  
فهو العكس ، اذ انك تتقاضى ثمن مزيد من الدمار والانهيارات على حد تعبيره . . . ) .  
انجز خليل ارتداء ثيابه بسرعة ، وغادر الغرفة من غير ان يقول لكفى كلمة واحدة .  
جلس في الردهة كتمثال منسي . . بعد زمن ما ، اخرجته نسيم من حالته الحجرية حين تقدم  
منه حاملاً فنجاناً من القهوة . . . ابتلعه خليل بصمت شاركة نسيم وجومه ، ثم قال له  
بمحبة : تفضل يا اخي . . . تعال نستنشق الهواء عند الباب . . .

— هل وصل البوليس ؟

— اجل . . والطبيب ايضاً . . . انهم في البركة ، وقد منعوا مغادرة المكان وحاصروا  
القصر . . .

مشى خليل مع نسيم . وحين ابتعدا قليلاً عن ذهول ليل ونواح صقر ، قال خليل  
لنسيم ببساطة : انا قتلتته !

— وأنا لم اسمعك تقول شيئاً . .

— لقد قتلتته .

— من منا لم يشته قتله ؟ من منا لم يحلم بذلك ، وربما حاوله . . لكن نديم قتله . . يبدو  
منهاراً وسيعترف . . .

— انا قتلته يا نسيم . . .

— هل تعني ما تقول ؟ . .

— البارحة بعد ان غادره نديم هتف الى غرفتي . أمرني بالنزول اليه . امرني بتولي بعض مهام نديم . اختار لي الأسلحة . صفقات الأسلحة الى الوطن . يتحدث عن لبنان كأنه رقعة شطرنج خاص بالرهان . . ينسى ان فيها بشراً يموتون ويتعذبون وانا وانت واخوتك واولاد عمي واهلنا منهم . . . يريد ان اتولى عمليات الشحن . . . عمولتي ستكون مرتفعة . . . واحد بالمئة والشحنة الأولى بعشرة ملايين دولار . . اي سأقاضي مائة الف دولار عن الصفقة الأولى . . وإذا لم تقتل الشحنة الفتاكة غير ٢٠ الف انسان ، سأكون قد تقاضيت خمسة دولارات عن كل قتيل مثل ابنتي وداد مثلاً . . .

انتابني جنون مؤقت . لم اقل شيئاً . لم يلتفت الي ولم يبد مبالياً بما قد اقله . . كان واثقاً من موافقتي ، وكنت قد صممت على ان اخنقه في بركة الذهب واغطس رأسه تحت الماء والفقاعات الذهبية تتصاعد حتى تتلاشى قواه ويضمحل بين يدي زناً ولزجاً . . . طالما راودني ذلك الحلم وصممت في تلك اللحظة على تحقيقه . .

ادار ظهره لي وابتلع كأساً أخرى من ماء النار . بدا سعيداً «بليلة الاحتفال» المرتقبة ، وقال لي ان الساعة جاوزت منتصف الليل وبدأ يوم المليار الأول . . . وهو يفرط في الشراب على غير عادته احتفالاً بذلك . . ظلمت صامتاً . . فجأة ، سعل ، وسقط على ركبتيه امامي وتدحرجت الكأس من يده مكسورة ، وامسك بصدرة منحنياً كأنما طعنه احدهم بسكين في معدته . . نظر الي مستنجداً وحاول ان يقول شيئاً ، فسمعت حشرجة ، ثم انهار على طرف البركة وسقط في الماء المذهب الشفاف . . . نظر الي مستنجداً ، ومد يده . . . قلت لنفسي : رجل كهذا يحمل بذور موته داخله ، وقد كبرت وحنان قطافها . . . تأملت ووهج الذهب يرقص على اعضاء جسده وهو يتخبط وفي وجهه امارات ألم رهيب . . . وبدأ مذعوراً ، ومنهكاً مثل صوص صغير هرم مضحك وسط بيضة ذهبية جهنمية عملاقة ، عاجزاً عن السباحة ، مرتجفاً في ثيابه الضيقة وربطة عنقه الخائفة . . . مد يده نحوي ثانية . . .

لا ادري ماذا تملكني . . لم امد يدي اليه لأخرجه من الماء . . بل وضعت يدي اليمنى في الجيب اليمنى ويدي اليسرى في جيبي اليسرى وكدت اصفر حوراً . تركته يغرق . . . سعدت بمشهدده وهو يتعذب ويتخبط وحشرجته الذهبية تحفت . ظلمت جامداً امام موته ،

ولم انقذه . . ولم افعل شيئاً . . بل انني صرت اغني بصوت خافت . . «يا ظلام السجن خيم» بينما نظرته الاخيرة تتوسل الي راکعة . . . قررت الحكم عليه بالاعدام . . وحين استرخى جسده ، تأملت المكان وانا ما زلت اضع يدي في جيبي ودهشة عارمة تغمرني . . لم اكن أدري أنني قادر على ذلك العنف كله . . العنف البارد كبريق ذهب البركة . . العنف الذي عجزت بيروت نفسها عن تفجيره في نفسي تدفق بقسوة ماء الذهب في البركة . . وعيت انني انا ايضاً قادر على القتل . . مشدود في المسافة بين اللذة واللامبالاة وانا أتأمل الموت المائي الذهبي لرغيد . . . وبريق الرعب والذهب يومضان في بركتي عينيه الغاربتين . . . كم كان ذلك مفاجئاً ومذهلاً .

ومضيت الى غرفتي . وحين سألتني زوجتي ماذا اتفقنا رغيد وانا وكم سيدفع ، قلت لها انه لن يدفع شيئاً بعد الآن لأحد ولن يشحن سلاحاً لأحد لأنني قتلته . ولم تصدقني . همس نسيم : انا أصدقك ، وأحسبك ، وأتوسل اليك : لا تقتل شيئاً . لا يستحق هذا الحقير ان يموت احد بسبب مصرعه . . .

— ولكني اشعر بما يشبه الندم الآن . . . لم اقتل يوماً مخلوقاً . . طالما ناديت بالديمقراطية والحوار والعدالة ، وانتهى بي الأمر سفاحاً كأي اراهبي صغير . .  
— لا تقتل الآن شيئاً . .

— لماذا ؟ هل تشتهون رواية بوليسية ، يحقق فيها البوليس طويلاً وتدوخ معه انت وبقية نزلاء القصر ؟

— قلت لك اسكت يا اخي خليل . . ارجوك ان تسكت . لا تقتل الآن شيئاً حتى نهاية التحقيق على الاقل .

— كنت مسالماً وانتهى بي الأمر قاتلاً وكان طموحي الوحيد ان اكون مناضلاً شريفاً . . . انني قاتل ، وقد غادرتني ابخرة نشوة خمرة الانتقام ، واعترف . . . اشعر بما يشبه الندم . . .

— انك لم تقتله . . . لم تدفع به الى البركة ، ولم تطلب منه ان يعب الخمرة اللعينة كالمعتوه فرحاً . . . قتلته فرحة الجشع ، قتلته اشواقه «لليلة المليار» . . قتلته وجبته الشرهة ليلة البارحة وفرحته بتدمير نديم وشماته بموت ابن صخر . .

— حتى ولو لم اكن قد قتلته بيدي ، لكنني فعلت ذلك بمعنى ما . . . حتى ولو لم اكن



مسؤولاً امام القانون عن انتزاع روحه المندسة ، لكنني مسؤول امام نفسي عن رجس قتله . . .

— ان رجس تركه حياً أكبر من رجس قتله . . ليس بيننا من لم يشته يوماً قتله ، فاهدأ يا اخي . . لقد ضرب مرة احد خدمه الفقراء بسبيكة من الذهب على رأسه وقتله ، وتولى المحامي الماهر تدبير امر براءته بسبيكة ذهب ثانية . . .

— كلما التفت خلفي نحو البارحة شعرت بانني احدث في نهر الجحيم ، ولن اقوى على مغادرته مثل اورفيوس . . . انني اغرق في الندم . . . كيف اقترفت ذلك ؟  
— كيف لم يقترفه احد قبل الآن . . .

— اني نادم . .

— اني فخور بك . . اهدأ ولا تقل شيئاً لأحد . . دعني استطلع ما يدور . . .



يكاد الفجر يطلع والشيخ وطفان عاجز عن مغادرة فراشه ( لقد قيدتني بحرية طوال الليل بسلاسل لا مرئية ، وجلدتني بسياط البرق ، واطلقت الجان يسرقون الرياح من الجهات الاربع ، ويصبونها على نوافذي ممزوجة بالدموع البشرية المسكوبة في الزلازل والاعاصير والمجاعات والابوثة لأتوهم ما يدور مجرد عاصفة اخرى . . . وليخيل الي ان رقادي المحموم المعذب هو مجرد نوم بشري آخر .

لكنني ، منذ شاهدت احد عفاريتهما يحتل الجسد الادمي للشيخ صخر ، ويأتي الى الفندق ليدعوني ، عرفت انها الحرب الاخيرة . .

وحين شاهدت ابتسامة وجهها وهي تنتظرنني في غرفتها المحروسة بثلاث قطط من الجان ، تيقنت من ذلك . . كانت ابتسامة لا تظهر على شفيتها نصف المسترخيتين ، وبمقدوري وحدي ان اراها والملح الاسنان السود لعفريتها . قال لي عفريتها الذي امتلك الشيخ صخر محاولاً خداعي : لم ينقض على وجودها في الغرفة دقائق حتى جاءتها قطط عبد الله تتمسح بها . . بعد ان تكشف لي قاتل ابني ، اتنى عليك ان تعالج هذه الصبية البريئة . وبالتأكيد لم اصدقه . . كانت تداعب حراسها القطط بيديها ، وتأمل شاشة

التلفزيون كأية ارضية اخرى ، والتفتت إلى حين دخلت وعفريتها يمنحني ابتسامة ساخرة ، فيما اجفل جسدها الذي اختزن له تعدياً لا يصدق لتخليصه من عفريته ) . . .

حاول الشيخ وطفان ان ينهض من فراشه ، لكن الحمى كانت تلتهم قواه رغم محاولاته كلها للوقوف ( يجب ان امضي اليها قبل طلوع الفجر . . الجن الذين ادعوهم لا يستجيبون الا في الظلام ) لكنه لم يقو على النهوض ( منذ وصلت من الفندق الى هذا القصر ، عرفت انها اعدت مسرح المعركة على هواها . . فجعلته مشابهاً لمسرحنا السابق - ولا اذكر اين كان ذلك بالضبط - هي الى يسار الردهة ، وانا في الطرف الآخر المقابل ، والممر الفاصل بيننا ضيق ونصف معتم . . . ومنذ لحظة وصولي قبل ساعات ، بدأت اعمل على استدعاء اعواني ، وكلما ادخل الى الخادم عقاراً جديداً عزمت به وقد التهبت بمجمرتي . وحين جلست الى كرسي الشفافة التي لم يكن اجدادي يستعملونها ، والتي اتقنت اسرارها ، استطعت ان اراها كما هي وان ادرس غرفتها جيداً . . صار في مقدوري ان أقرأ ما هو مكتوب داخل ورقة مغلقة بمجرد لمسها ، فكيف لا يكون بوسعي ان استدعي صورتها بقواي وكهاري داخل كرسي الزجاجية ؟ ولماذا بدا ذلك غريباً للشيخ صخر حين جاء يدعوني لمشاهدتها فقلت له انني اراها بوضوح داخل الكرة ؟ وحين لم يصدقني عفريته ، وصفت له الغرفة بكل تفاصيلها : الفراش الأبيض الذي يصعدون اليه بدرجات ثلاث ، والستائر الشفافة التي تنسدل من سقفه الخشبي في سبع طبقات ، لكنها الآن ليست مسدلة كلها ، ثمة اربع طبقات مسدلة ، ومعقوصة عن الجانبين بشرائط وردية ، وثمة نجفة ضخمة ، بديعة ، تتدلى من ركن الغرفة لا من منتصفها كما هو مألوف ، ومهندس ديكورك خارق الذوق . والجدار خلف الفراش تغطيه تلك الستائر الشفافة منحدره من تاج خشبي مرصع بالصدف والذهب والنجفة تضيء مقعداً مريحاً ركز تحتها ، مقابل التلفزيون ، وبحرية ليست في فراشها بل هي جالسة ترقب التلفزيون . . غرفة تليق حقاً باميرة الجان . . . وادعى عفريت صخر الدهول ، فخاطبته كأدمي وقلت له متجاهلاً انه بشري مسكون : ولماذا لا يدهشك ان ترى في التلفزيون صور الناس في قارة اخرى ، ويدهشك ان أرى صورتها في الغرفة المجاورة ؟

قال التلفزيون له محطات بث ، وثمة هوائي يلتقط الصورة عند المتفرج ( الانتين ) . قلت له : البشر والجان كلهم محطات بث ، وانا وجدت الهوائي ( الانتين ) الذي يلتقط صورهم . انه موجود في داخلي ، امده لا مرئياً كالكهرباء والموجات الصوتية الى اي

مكان ، والتقط اية صورة . . .

فبدت على وجهه دهشة صادقة لسحري القوي ، وتحديته . قلت له انني استطيع ان اصف له كل ما في الغرفة ، اذا تركني دقائق اركز قواي وانشر شاشتي اللاقطة واركنز موجتها مع السيالات القادمة من الشخص الآخر .

وبدا وكأنه خاف ، فجذبني من يدي قائلاً : اريد ان تهتم الآن بقاتل ابني ، وستفعل تلك التجارب كلها فيما بعد . . .

أصررت على التحدي : بل سأصف لك غرفتها وثيابها ايضاً .

رفض بشدة فمشيت معه وهو يكرر : تعال لتحيتها الآن ، وسنفعل ذلك فيما بعد . . . ومشيت معه اليها ، وكانت الغرفة كما شاهدتها في كرتي . في الدور الأول كغرفتي ، ولها نافذة تطل على الحديقة المزروعة بورود متوحشة ، طولها يزيد على المتر وتصل حتى حدود النافذة . . . بعد وقوفي بلحظات « نبحت » القطة الأولى في مواء سري شيطاني ، وهربت قافزة من النافذة . وهربت الثانية فالثالثة . كنت قد كهربتهم واوجعت شياطينهم فهربوا ، وحين وجدت بحرية نفسها وقد تحلى عنها حراسها منذ الدقائق الأولى نظرت الي مظاهرة بالذعر ، وصبت في نظراتها الكبريت المنصهر والمعادن على وجهي . كدت اصرخ الماء ، لكنني ابعدت نظراتي عن وجهها الكريه المعبود ، وركزتها على السلسلة حاملة النجفة . . . وسكبت كل ما في روحي من قوى لتفتيتها ، وكانت لها صلابة اكثر من فولاذية ، وانا الذي الفت كسر المرايا والنوافذ بنظراتي في الآونة الاخيرة وجدت مقاومة هائلة في سلسلة تلك النجفة المسحورة ، وقبل انفجار قلبي الذي صار يضرب ويتضخم هوت النجفة فجأة ، لكن شيطان بحرية كان خارق السرعة حين ازاح جسدها عن المقعد برشاقة ملايين القطط ، وتحطمت النجفة فوق المقعد . . . ونجا العفريت ، وصرخ صخر مذعوراً . . .

غادرت الغرفة ، وتركته راكعاً عند قدمي مولاته ليطمئن الى سلامتها . . . وعدت الى غرفتي مذعوراً ارتجف : لقد انتصرت في الجولة الأولى . . . سلطت النار علي واحرقني ونجحت ، وفشلت في رد الضربة ، وجلست استعد لاحراقها بسحري ، واستدعي اعواني من مشارق الارض ومغاربها ، ومن باطنها ورياحها وبحارها وفضاها . . . وحين جاء الشيخ صخر يدعوني للعشاء ويطمئني ( ! ) على بحرية صرخت به : دعني وشأني اعمل . فمضى وهو يدمدم كلاماً بلا معنى مثل : انا واثق من انك ستكشف لي عند الفجر

اسم قاتل ابني .. تصبح على خير) ..

كانت خيوط الفجر الأولى قد بدأت تسري في السماء ، ودب الذعر في قلب الشيخ وطفان ( اذا لم انتصر قبل طلوع الضوء ، انتهيت . لم تعد في جسدي قوة لانتظار الليلة التالية .. كيف استطاعت عاصفتها الحارة ان تقذف بي الى الفراش بعيداً عن مجمرتي ، وكيف قيدتني وعذبتني الليل بطوله ؟ بل انها دخلت الى غرفتي ، وحدقت في وجهي الذي يرتدي قناع الغيبوبة والحمى والهلوسة ، وكادت تصب على فراشي ليرات الكحول الاربعة لولم يسارع ميمون الاسود الى إخافتها ، فغادرت الغرفة بسرعة وخلفتني لعذابي ، وأطلقت علي اصوات ابي واخوتي وامي من دهاليزي بعدما كسرت اقفال روحي ، وخرجت امي لتحترق من جديد امام عيني وقد فاحت منها رائحة الكاز واللحم المشتعل ، وهي تقول ، وانا ابكي ، وارى مصرع اخوتي غيلان وبرقان وكنعان يتكرر ودمهم يلطخ وجهي واخوتي ودعة تلتهب وعمي وابناء اخوتي وكلهم يصرخ وانا ابكي ، وأبي يسقط جريحاً ويحترق وأنا مقيد لا أقوى على شيء .. اتمزق واتمزق .. وعرفت الميته البشعة التي رصدتها لي : سأحترق بعذابي ، وسينفذ بي الحكم احبائي الذين طالما هربت منهم الى اراضي الجان والنسيان .. ستعيدني ارضياً قابلاً للعذاب والفناء وستتركني اموت قهراً) ....

نهض الساحر من فراشه رغم الحمى التي تعصف بجسده ، والنار التي شاهدها في المرأة وقد شبت في رأسه ، وحمل اوعية الكحول وقد دب في جسده قوة خارقة ومضى بها صوب غرفة بحرية .. القصر نائم ، وباب الغرفة مفتوح كأنه يتحداه ، وما كاد يخطو الى الداخل حتى شعر بانه فقد قوة البصر وكالاعشى مضى صوب فراشها وسكب الكحول فوقه والستائر المتدللية منه ... وشبت النار بسرعة خرافية كأنها كانت مستعرة لا مرئية منذ زمن بعيد وقد اظهرت نفسها الآن للعيان .. واحس بنفسه يشتعل كالوقود، ولم يدهشه فشله في الهرب كأنه وعى منذ زمن بعيد مصيره المحتوم هذا ، وكان يفتش عن بحرية ، ويحاول ان يطبق عينيه على مرأى وجهها محترقاً ، كوجهه ... توجع ، ولم يعد في مقدوره ان يبصر شيئاً غير الظلام الكثيف وقد اندلعت فيه اوجاع خرافية ...

ولم يصرخ ...

لكنه قبل ان يتلاشى سمع صرخة غير بشرية شبيهة بعواء ذئب ...

( اهذا صوتها ام صوتي ؟ ) ...

الشيخ صخر سمع الصرخة ، ولم توقظه لانه لم يكن نائماً .  
لم يغمض جفناه في الليلة السابقة ، والبرق يلتمع ، والامطار الهاجمة كأفراس مائيا  
تنوح ، وقلبه يبكي مصرع عبد الله .

سمع الصرخة ،  
لم يكن الصوت بشرياً ، وخيل اليه انه واهم ، لكنه شم رائحة حريق . . . وحين هبط  
شاهد كل نائم في القصر مهرولاً صوب غرفة بحرية . .  
وكان المشهد عجيباً . . . الساحر كومة مشتعلة راکعة قرب فراش كالاتون ، والدخان  
قليل ، كأنما تنصهر الاشياء في بوتقة لا مرئية . . . كان حريقاً غريباً لم يشهد له مثيلاً لان  
النار توقفت من تلقاء نفسها ، أم ان الفضل لمهندس الذي افهمه انه سيزود القصر  
بـ « موكيت » ضد النار ؟

وحيث وصل رجال الاطفاء والاسعاف ، لم يكن ثمة حقاً ما يستدعي حضورهم ،  
لكنهم اعلموه بانهم وجدوا في الغرفة بقايا جثة واحدة لذكر . . . إذن اين بحرية ؟ . . هل  
تمكنت من الهرب عبر النافذة او الباب ، او انها لم تكن في الغرفة حين شب الحريق ؟ . . .  
وماذا كان الساحر يفعل في غرفتها ؟ . .

\*\*\*

فجر المليار ،  
رن جرس الهاتف في الصالة الكبيرة بقصر رغيد الزهران . كان ( نزلاء ) القصر قد  
التقوا فيها بعدما ارتدى معظمهم ثيابه ، بانتظار كلمة من المحقق . قفز نسيم مذعوراً ،  
وانتفض كل من سمع الرنين . كانت اعصابهم متوترة ، بانتظار ما سيفعله البوليس بهم ،  
والطبيب الشرعي المشغولان في بركة الذهب .  
رفعت ليلي سماعة الهاتف وكانت ما تزال تتصرف وكأنها أرملة المرحوم ، او الوحيدة  
التي لا تطاها الشبهات . انصتت كثيراً ، وتحديث قليلاً عبارات مثل : نعم . متى . وماذا  
اصابه ؟ وهي ، اين ذهبت ؟ ألم يرها أحد ؟ حسناً . سأبلغ صقر .  
ثم اغلقت سماعة الهاتف وقالت لصقر بلهجة محايدة كصوت مذبة تقرأ اخباراً لا  
تهمها : ضربت صاعقة غرفة بحرية في قصر والدك ، وشبت فيها النار وقتل الشيخ وطفان  
محترقاً ، ولم يجدوا اثراً لبحرية . يريد منك ان تذهب اليه حين تستيقظ .

صرخ بها صقر : ولماذا لم تقولي له انني لست نائماً ؟ وكيف اذهب اليه والبوليس منعنا من مغادرة المكان ؟ ولماذا لم تخبريه ان رغيد وجد مقتولاً ؟

ظلت صامته . . ونزل الخبر كالصاعقة على الجميع دونما استثناء . . دهشوا جميعاً لوجود الساحر هناك ، وموته في غرفة بحرية . . خليل ونسيم قلقا لاجل بحرية ، ودنيا عجبت لكون الشيخ وطفان فانياً هو ايضاً ، ونديم تمنى لو قتلت بحرية ليتخلص من ورطة احضارها ، خصوصاً ان اوراقها مزورة وليست وريشة الزهران ، وكفى اسفت لانها لم تستشر الشيخ وطفان في بعض شؤونها العاطفية قبل مصرعه ، اما ليلي فردت كمن فقدت رشدها : بحرية قتلتها . بحرية هي القاتلة . لا تمر بمكان الا كمرور النار وتحلف الموت والجريق والدمار خلفها . . .

كاد نسيم يرد عليها ، ويفهمها ان صناعة الموت من احتكار رغيد ، وان الساحر وطفان رجل خطر على نفسه قبل سواه ، وموته محروفاً هو النهاية غير المفاجئة . . وبحرية ضحية اخرى من ضحاياهما . . لكنه تذكر ورطته مع القرش والتمثال ، وامكانية اتهامه بالجريمة اذا بدل خليل رأيه ولم يعترف فصمت . اما خليل فغرق من جديد في أساه وندمه الخالص : كيف تحولت الى قاتل ؟ كيف صنعوا مني في النهاية قاتلاً ؟

\*\*\*

فجر المليار ،

اطلت الشمس من ثقب بين الغيوم الخالكة السواد ، وطلع ضوء النهار على مطر حزين ، وثابر البرق البعيد على ارسال شاراته دونما رعد . . و ( نزلاء ) القصر ينتظرون ان يقول لهم البوليس شيئاً ما . . ان يحقق معهم . المهم خروجهم من ثلاجة الانتظار . . .

وكانت المفاجأة صاعقة لهم ، حين اطل احد الرجال الرسميين في ثياب مدنية وقال لهم ببساطة : تستطيعون الانصراف . . لقد كشف الطبيب على الجثة . . مات الرجل بالذبحة القلبية ، ولم يمّ غرقاً . . لا توجد آثار عنف على الجثة ، ومن الواضح ان الذبحة دهمته وهو واقف على طرف البركة ، فسقط في الماء . . اذا رغب احدكم في مغادرة جنيف ، فالرجاء اعلامنا بذلك ريثما يتم تشريح الجثة والتأكد من التقرير المبدئي . . .

هكذا قال مفتش البوليس ، ولم يقل احد شيئاً . . فاضاف : اكتبوا لي اسماءكم

وعناوينكم على هذه الورقة ، ولا اظن اننا سنحتجزكم في جنيف لأكثر من ٤٨ ساعة ريثما تصدر شهادة الوفاة . مجرد شكليات . جمدوا جميعاً الا صقر . . انتابته نوبة جنون وصرخ : انا قتلتة . . انا القاتل . . قال المفتش : لا توجد جريمة وبالتالي لا يوجد قاتل . . تابع صقر صراخه : انا قتلتة . . اؤكد لكم ذلك . . هذا سلاح الجريمة . . وشهر صقر خنجره . .

فوجيء الجميع بذلك . . تقدم منه مفتش البوليس فهرول صقر هارباً الى غرفته وهو ينتحب وشهقت كوكو التي كانت تجهل حكايها إدمانه . . ولحق به رجل البوليس وهو يدمدم احدى الكليشيهات البوليسية التي تقال في وقت كهذا . . سمع منها خليل عبارة : في كل جريمة يتطوع كثيرون للعب دور القاتل . . لن افهم ذلك أبداً . . وكاد ينفجر ضاحكاً لكنه لم يجد في رثتيه الهواء الكافي لذلك .

\*\*\*

صبيحة المليار ،

كأنما انفطرت حبات العقد باعلان موت رغيد موتاً طبيعياً ، وانتهى الأمر . . . ويعد اعلان البوليس لذلك ، واطلاقه لـ (سراحهم) من الرعب ، لم يخاطب احد الآخر ، باستثناء نظرات الود المذهولة الفرحة المتبادلة بين خليل ونسيم . . ولم يعلقوا بكلمة على اكتشاف البوليس للمخدر في غرفة صقر ، والطبيب الذي فحصه قسراً وقرر ان نقله الى المصح ضروري فوراً قبل ان تقتله الجرعات الكبيرة التي تعاطاها هذا الفجر . . ليلي كانت اول من غادر المكان . لم تجمع حاجياتها ، ولم تعرض على خليل أو كفى أو نسيم ايصالهم بسيارتها ، وانما اندفعت بها وكادت تدهس احد الصحفيين وحملة الكاميرات الذين لا تدري كيف عرفوا بالنبأ . . . وشاهدت احد المدعوين من اصحاب الملايين قادماً يتسقط الاخبار ، واقفاً امام سيارته وسائقه ( العتليت ) يشير اليها بالوقوف فتجاهلته . كانت مشغولة عن ذلك كله بالكارثة التي ستحل بها ( اذن سيعرف مدير البنك بالنبأ لحظة فتح الابواب بعد اقل من ساعة . . وسأصير مطاردة لتوقيع شيكات دون رصيد ) . . لم يتأخر أحد طويلاً بعدها . . . سارعوا الى جمع حاجياتهم وكلهم لا يقل لهفة عنها الى مغادرة قصر الموت هذا . . ولم يخاطب احدهم الآخر ، بل سارع كل الى الفرار من الكابوس . ولم يعرض ( اصحاب السيارات ) على ( المشاة ) ايصالهم حتى الى موقف الباص

او المحطة كما تقتضي اللياقات ، كأن كلاً منهم يريد الانفراد بنفسه في اسرع وقت لتهنئتها  
بالنجاة من تهمة قتل رجل كانت تشتهي تصفيته ، وتأمل الاحوال بعد مصرع الشيخ وطفان  
واختفاء بحرية . . .

وتجاهل نديم ، خليل وكفى ، حين مر بهما في حديقة القصر بسيارته وزوجته ، وانطلق  
وهو لا يلوي على شيء . . . اما كفى فقالت تقرع خليل : قلت لك اطلب لنا تاكسياً . .  
واجابها : دعينا نغادر هذا المكان الملعون ، وسأحملك على ظهري . . سأشتري لك القطار  
والمحطة . . فقط دعينا نغادر هذه البوابة . .

أحاط بهما الصحافيون لحظة خروجهما ، فغطى خليل رأسه بقميصه وسار شبه  
مهزول ، اما كفى فتوقفت مستسلمة بسعادة لكاميراتهم ، وصارت تجيب عن اسئلتهم  
بصفتها ابنة اليتيموني صديق المرحوم رغيد ، وضيعة الشرف « ليلة المليار » التي أفردت لها  
غرفة خاصة في القصر . . . واجابت عن الأسئلة كلها واستفاضت وبكت فجلت بالدمع  
زرقة عينيها وهديها . .

وجاءت كوكبة اخرى من الصحفيين ، ففتحت حقيبة يدها وأصلحت زينة وجهها  
تمهيداً للصور . .

وحين كاد المنحني يغيب خليل التفت صوبها ، وشاهدها تبتسم بحرارة لاحد  
المصورين . . ومضى وحيداً الى محطة القطار . .

وهناك التقى بنسيم الذي جلس صامتاً وقد ضم اليه حقيبته الكبيرة فانضم اليه . لم  
يسأله نسيم عن كفى ، وصعدا الى القطار معاً حين وصل ، وجلسا جنباً الى جنب ولم يتبادلا  
كلمة واحدة ، الا حين تحفز خليل للهبوط وسأله نسيم : الى أين ؟

- الى مستشفى ابني . وانت ؟

- الى بيت امير .

- سألق بك فيها بعد .

\*\*\*

صبيحة المليار ،

اية ريح قذفت اليه بتلك الحبيبة البغيضة المعبودة الغادرة ؟  
فتح امير الباب فوجدها أمامه . . ليلي جاءته كما حلم دوماً ، دامعة ، مشعثة الشعر ،



جاءته بعد فوات الأوان ولكن كان عليها ان تأتي كي يريح كبرياءه . . ويقوى على دفنها في دهاليز الذاكرة . .

( يحتفظها . يمددها فرعونية باهرة الجمال وسط التابوت الذهبي في قلب الهرم ، يعطرها ، يزينها ، يقبل شفيتها الهامدين ويقول لها احبك اكرهك احبك اكرهك ، ويودعها . يغادر الكهف ويغلق الباب جيداً بهدوء محاذراً ان يصدر اي صوت من داخل رأسه ، حيث شيد هرم نسيانها وخلودها ) . . . فوجيء بها وهو ما زال في ثياب النوم . قال لها : معذرة . . كنت اتوقع شخصاً آخر . .

- لن اطيّل البقاء . . اني بحاجة الى مليوني فرنك سويسري ، والا ذهبت الى السجن .

كرر عبارتها : « مليوني فرنك » ؟ تعرفين انني فقير . .

- الا تستطيع استعارتها من صندوق الرفاق ؟

- تعنين اختلسها ؟

- سأحاول اعادتها بسرعة . . لكنني لا اظن ذلك سهلاً بعد الآن . .

- ماذا حدث ؟ دعيني اخمن . . .

- قامرت وخسرت . .

- وورطك رغيد على عادته مع مساعديه . . . أليس كذلك ؟ هزت رأسها بالايجاب

بصمت . .

ثم دمدت : لم يكن يقصد ذلك . . لقد مات فجأة بالذبحة . على اية حال ، ما الفرق . اني متورطة . . شيكات بدون رصيد ثمن طعام سُحن ولن يأكله احد ، وكافيار سيقذف به من جديد الى البحار . . وانا معه . . بعد اقل من ساعة ، حين يفتح البنك أبوابه ، اسقط ميتة . لقد انتهيت . . .

- اني آسف . . بودي مساعدتك لكنني لا استطيع مد يدي الى مال الفقراء لدفع ثمن

بطر الاغنياء . . لن احرم ( الشباب ) من معونات الاقساط الجامعية والرعاية الطبية واجرة

العلاج والدواء لادفع ثمن عشاء ليلة المليار للمرحوم رغيد . . لماذا لا تذهبين الى الشيخ

صخر او آخر من امثاله ؟

- لم يعد في مقدوري تكرار ذلك ثانية . .

- آسف يا ليلي . . آسف حقاً . .

غادرته بسرعة . اقتربت منه وطبعت على خده قبلة مفاجئة على الخد الأيسر . .

سبق له ان صفعها على الخد الايسر مرة . تذكر امير ذلك ، وقبل ان يقول شيئاً مضت بسرعة .

ظل بعد خروجها واقفاً ، مذهولاً ، وقد غادرت شهية الانتقام . . لقد حلم بتلك اللحظة طويلاً . . تمنّاها . . انتظرها . . وحينما حلت ، لم يستمتع بها . . لم يفرح ولم يحزن بل استولى عليه حس غامض بالخواء . .

. . لا حزن . . لا فرح . . لا شماتة . . لا ندم . . خواء . . . . . خواء . . خواء له طعم الغياب المحتوم الذي صار مألوفاً لطول المعاشة . . كمن يألف يده . . . المقطوعة ! . .

\*\*\*

حين وصل نسيم الى بيت امير خيل اليه انه شاهد ليلي وقد دفنت وجهها في مقود سيارتها . . التفت صوبها ليتأكد من انها هي ، فاقلعت السيارة بها بسرعة خارقة . . وقال لنفسه ( كأنها تفتش عن حادث سير تتحربه ) . .

وحين شاهد وجه امير المكفهر ، تأكد له ان زائرة الصباح كانت ليلي التي سبقته اليه . . لم يقل شيئاً عنها . . . فلتذهب الى الجحيم . لم يحبها يوماً ، هي اودنيا او كفى . هذا النمط من النساء لا يروق له . . . لولا وجود نساء كأمه وبحرية لكره (جنسهن) . . وضع حقييته الكبيرة جانباً .

وارتمى على المقعد الوحيد في البيت، وجلس امير مقابله على الأرض فوق احدى الارائك وقال له : يا له من صباح . قبل ساعتين هتفت لتقول انه قتل ، وقد سمعت من ( كاد يقول ليلي ولكنه امسك عن لفظ اسمها في اللحظة الأخيرة وتابع ) ، سمعت انه مات بالذبحه القلبية .

- لقد اعترف لي خليل بانه قتله . لقد توهم المسكين انه قتله فقد كان معه حين اصابته الذبحه ولم يساعده وتركه يغرق متوهماً انه هو الذي قتله عمداً . وتوهمت بدوري اننا سنتقاسم تهمة القتل اذا عرفوا ما فعلته حين اكتشفت الجثة ليلاً قبل ان يكتشفها احد سواي . . .

- ماذا فعلت انت ايضاً ؟ ما هذا الجنون الذي استولى عليكما ليلة البارحة ؟

- انه الطقس . . .

ونفض نسيم ، وحمل حقييته وفتحها . اخرج منها تمثال « المناضل » وحمله ، ووضع

فوق القاعدة الفارغة التي طالما انتظرته قائلاً : هذه هي النسخة الاصلية التي نحتها والدك .  
حين اكتشفت جثة رغيد ، اكتشفت ايضاً ان باب قفص التمثال مفتوح ، فسارعت الى  
استبداله بالنسخة المزورة التي اهداني رغيد اياها خصيصاً لفهري واذلا لي .  
بدت في عيني امير ومضة فرحة هائلة تحولت الى دمعة جافة . . . اراد ان يقول شيئاً  
لنسيم لكنه لم يجد الكلمات . . كأن الابدية اربع وثلاثون سمكة ملونة هاجرت من بحار  
قلبه ، وخلفت له صوت الريح في حنجرتة . اكتفى بشهقة مكتومة . . .  
وتابع نسيم : وهذه هدية اخرى اليك من قصر الموت .  
- ما هذا ؟ علبه قهوة نسكافيه ؟ . لقد جننت حقاً . .  
قالها بينما كان نسيم يقلب محتوياتها على الطاولة . . .  
اخرج القرش من تحت كوم القهوة ، ونفخ عنه ما علق به وقال له : وهذا يعود اليها  
ايضاً . . .  
- غامرت بحياتك اياها الاحق لاجل قرش ؟  
- لاجل قرش ؟ ليس تماماً . . . انت تعرف ذلك . . .  
صمتا طويلاً ، ثم قال نسيم : لقد شب حريق في قصر الغنمالي قتل الساحر  
وطفان . . .  
- اعرف ذلك . . .  
- كيف ؟  
ابتسم امير ابتسامة غامضة وقال باقتضاب : الاخبار تنقل هذا الصباح بسرعة .  
- وبحرية اختفت .  
- . . . . .  
- لا اعرف مصيرها بالضبط . . .  
- . . . . .  
- افكر بتعزية الشيخ صخر بابنه ، وعرض نفسي للعمل كخادم عنده ، فقد تظهر  
بحرية من جديد او اعرف شيئاً عن مصيرها . . . لعلها سجيته مثلاً ووجد في الحريق  
المزعوم مناسبة لاختفائها . . .  
واخيراً تكلم امير ، وقال بهدوء وعلى شفثيه ابتسامة ثقة لا تخلو من الغموض ، وهو  
يؤكد كل كلمة كأنه لن يكررها ثانية : بحرية بخير ، ولست قلقاً عليها ، فاطمئن .

- ماذا تعني ؟ هل جاءتك سألته ؟
- لم يجب امير ، الح نسيم بنزق الشباب : ارجوك ان تفصح . لماذا لست قلقاً عليها ؟
- . . . . .
- لقد اعطيتها اسمك وعنوانك . هل تخفي شيئاً عني ؟
- . . . . .
- هل هي في مكان آمن ؟
- قلت لك اطمئن يا رجل . .
- هل تخفي شيئاً عني ؟ اني قلق عليها .
- وانا قلق عليك انت . قلت لك واكررها : بحرية بخير ولست قلقاً عليها ،
- فاطمئن . والآن قل لي : ما الذي ستفعله انت بنفسك ؟
- لا ادري بعد . لم تتح لي فرصة للتفكير . اظن انني سأعود الى الوطن .
- لن تعود قبل انجاز اطروحتك . الوطن بحاجة الى متعلمين ايضاً لا الى مقاتلين
- فحسب .
- لا تنس انني فقدت عملي .
- ستدبر شيئاً في الفترة القليلة الباقية ريثما تتخرج من الجامعة .
- ربما . . .
- كنت اتمنى دعوتك للقامة معي ، لكنني لا اريد لك مصيراً مشابهاً لمصير بسام . . .
- انا رجل مندور للموت ، ولا مفر من قتلي في هذه المرحلة ، انا او اي شخص مثلي ما زال
- يؤمن بان لا خلاص لنا الا بالديمقراطية وحرية الفكر . على اية حال ، انت الآن منك ،
- وستتحدث فيما بعد حول ذلك وامور اخرى كثيرة . انهض الآن ونم . . .
- نسيت ان اخبرك عما اصاب صاحبنا بصر اليوم . .
- امره لا يهمني . قل لي اين خليل ؟
- ذهب الى ابنه في المستشفى ، وسيحضر الينا بعد حين .
- وزوجته ؟
- لا ادري . لم تكن معه حين التقينا في المحطة . . .
- ونهض نسيم واقفاً متأرجحاً وقد كاد يسقط ، وقال : يا الهي كم انا متعب . . . .
- لم يسمعه امير . كان يتحسس بيديه تمثال « المناضل » ، وتوقيع والده ، والسطر

( الممحي ) عنه ، وقد شرد بعيداً . . . كأنه دخل في ثقب القرش الفلسطيني العتيق الى نفق بعيد . . .

\*\*\*

صبيحة المليار . . .

منهكين عادا الى البيت . . مركبان دمرتها العاصفة بلهبيها الذهبي وقذفت بهما الى شاطئ التيه ، حطاماً وهباباً وبقياء اشرة . . .

الى النافذة جلسا ، وبدت جنيف في القاع عايدة ولا مبالية . . والبحيرة ساكنة كأن فناناً مجنوناً رسمها فوق صفحة الأرض . . وفكرت دنيا (إذن لم يقتله) وتأملها نديم دونماود (إذن لم تقتله) . .

مسح نديم رأسه بيديه ، وخيل الى دنيا ان اكوام الرماد تتناثر عن شعره واهدابه وتجايد خديه . . .

( كم هرمننا . . . هدرنا الزمن في ركضنا المجنون لتوفير الوقت واستعمال كل لحظة منه . لم نتوقف ثانية لتتساءل : لماذا ؟ الى اين ؟ ماذا بعد ؟ ) . . .

قال نديم : غريب امر الهاتف . . . اولئك الأثرياء جميعاً في جنيف ولا احد يتصل ليسألني عما حدث لرغيد . . وعما سيحدث لي . . .

همست دنيا : انا قطعت الاتصالات الهاتفية عن البيت ، وتخلصت من الشريط التلفوني . . خيط الجنون اليومي . . .

— لماذا ؟

— لأحدث اليك . لتتجاوز . لم يحدث لنا ذلك منذ زمن بعيد . . . اننا نتخاطب ولا

نتجاوز . . .

( ها أنا أركض في السباق . . . نديم يركض . . . رغيد يركض . . . الذين اعرفهم جميعاً يهرولون نحو جبل مكهرب من الذهب تتصاعد منه لهبة خفية صاعقة . . . نهرول ونلثت ونهتف باسم الملك ميداس . . . يضرب كل منا احب اصدقائه اذا سنحت الفرصة . ندوس كل من يسقط ونتابع السباق . يحدثني نديم وهو راكض كالمجنون . يصدر الأوامر . . خمسة ضيوف على العشاء «الأنتيم» ، واحرصي على دعوة الراقصة فلانة . ضيف على العشاء واحرصي على احضار « الشاعرة » فلانة فهو معجب بغنائها

ورقصها . بدلي ثوبك . قصي شعرك . ارتدي الفراء . الخاتم الماسي . العقد المذهب .  
 اركضي بسرعة . حاضر . اركض . اشتهي ان نجلس لحظة لتحدث . ارجوك هل  
 نستطيع ان نتبادل قبلة الى جانب الطريق . ان احديثك شيئاً عن قلبي وروحي  
 وحيرتي ؟ ... يصرخ بي : ذهب .. لا شيء غير الذهب ... سباق .. اسرعي ...  
 واسرعت واسرع ... وذهب مع الذهب ...  
 ولم يلحظ ان الرابع في هذا السباق يكرم بقتله ، وجائزته المرض والوحدة  
 والغربة ) ...

— ارجوك يا نديم ... ثمة امور يجب ان نقررها معاً ، كإنسانين متحضرين ، دونما  
 شجار .

— حسناً . ماذا تريدان ؟

— اريد ان تغادر سباق الفئران الذي نحياه منذ زواجنا .

— ونرحل الى اوستراليا ، ونشتري مزرعة ونربي الدواجن ونأكل ما نزرع ؟ انت

حقاء ... الا تعرفين مشاكلنا ؟

— هل نستطيع تبادل حوار واحد ، لمرة واحدة ، دون ان نقحم السخرية والشتائم ؟

— صعب ، لكنني سأحاول .

— ثمة أمر خطير اريد اطلعك عليه .

— ما هو ؟

— سرقت ... لأجلك .

— ماذا سرقت ؟

— الوثائق التي تدينك . سرقت الأوراق اياها . هبطت اليه لأحدثه .. لأتوسل

اليه ان يدعك وشأنك ، او لأهدده ، وربما لاقتله . لا ادري بالضبط ، وعلى اية حال

وجدته ميتاً ، فلم اتوسل ولم اهدد .. ووجدت الأوراق فحملتها وصعدت بها ..

— واين هي الآن ؟

— أتلفتها .. هناك .. قبل وصول الشرطة ...

صمتا طويلاً .

قال : اشكرك . انك سيدة نبيلة حقاً .. ثم اضاف بشيء من اللؤم : أليس هذا ما

ترغبين في سماعه ؟ حسناً . والآن ماذا تريدان مقابل ذلك ؟

- ان نخرج معاً سالمين من نار الذهب . . .
- لا جدوى يا دنيا . . مغامرتك كلها غير مجدية . هل تتوهمين رغيد احمق الى هذا الحد ؟ هل تظنين ان هذه الأوراق هي النسخة الوحيدة ؟ انه داهية . . لا ريب ان النسخة الأصلية في مكان ما ، بين يدي محام ما ، هي وسواها ، ومن المفترض أن تأخذ العدالة مجراها لحظة مقتله أو موته . . كان واثقاً من ان ثمة من يرغب في قتله ، وقد ينفذ ذلك ، وقد حرص دائماً على افهامنا جميعاً ان موته ليس نهاية متاعبنا ، بل البداية الأكيدة لها . . كان واثقاً من انه سيموت مقتولاً ، وقد رتب كل شيء انطلاقاً من ذلك . . لم يخطر بباله ولا ببالنا جميعاً انه سيموت كما يموت ملايين الناس كل عام . . كان يظن ميتته ستكون خاصة وتذكارية ، لا ميتة عادية . . .
- والنتيجة ؟
- هي انك قمت بخدمة لا مبرر لها . . ثمة وثيقة اخرى في مكان ما تدينني بذلك الاختلاس . . ولا مفر من السجن . . . الا اذا عملت مع قوي آخر يحميني . . .
- تعني رغيداً آخر ؟
- بالضبط . . .
- ولماذا لا تنتظر قليلاً ؟ ربما تكون هذه هي النسخة الوحيدة . . .
- ربما لا . . . وعندئذ لن استخدمني احد . . إذا سقطت تكاثرت السكاكين عليّ .
- تعرفين ان هذا شعار عالمنا . . . اما اذا كنت اعمل مع قوي آخر ، رغيد آخر ، فلدي فرصة لمساومة المحامي قبل وصول القضية ليدي القضاء السويسري الذي لا هرب منه . . .
- وماذا لو وصلت القضية الى القضاء ؟ سندفع المبلغ وتكون عقوبتك بالتالي قصيرة . . .
- ندفع المبلغ ؟ هل انت مجنونة ؟ لن افطر في فرنك او دولار واحد من ثروتي . . ثم انني اذا سجن ، خسرت سمعتي المهنية كرجل اعمال بارع . ولن استخدمني (ملياردير) بعدها ، وسنعود الى نقطة الصفر .
- وماذا في ذلك ؟ سنرجع الى بيروت ، الى بيت والديك ، نرمم ونرمم حياتنا معاً . . .
- الآن ؟ في الخامسة والأربعين من عمرنا ؟ هل نسيت انهم في بيروت ايضاً يحرقون الفقير ؟ رغم كل ما كان ، ما زال الشعار الأول : « معك قرش بتسوى قرش » . . حتى اذا

اضطرت للاختيار فاني سأختار السجن لا الفقر . . ولكنني لست مضطراً لخيار كهذا . .  
ولن نغادر الثراء الى جحيم الفقر والموت والقصف والتهجير . . .  
— ولكننا نعيش في جحيم . . .  
— تكلمي عن نفسك . . . لا عني . . .  
— انا شخصياً افضل ان نفقد ثروتنا ونذهب الى السجن مقابل عتقنا من هذا النير . . .  
— وانا ممتن لأفكارك النيرة . . والآن دعيني ارمم شريط الهاتف ، وامد جسري  
للناس . . العزلة في صبيحة كهذه جريمة . . .  
— انها فرصتنا للنجاة . . .  
— انها ما تزال ليلة المليار بالنسبة لي . . نصف اثرياء العالم هنا في جنيف ، والفرص  
كثيرة ، وانت تختارين هذا اليوم بالذات لعزلي ؟ تحاولين تدميري ؟ انك مجنونة ، مدمنة  
كحول ، عريضة . . لا تصلحين زوجة لرجل مثلي . . .  
قالت متهمكة : امرأة مثل كوكو تصلح زوجة لك .  
اجابها بجدية : اشكرك لأنك لفت نظري الى ذلك . . . وقد افعل ، وتبين انك  
لرعاية الأولاد ، وهي لرعاية الأعمال . . . كثيرون فعلوا ذلك ، والآن فقط ارى مدى  
حكمتهم . . . الزوجة الأولى تهترىء دوماً ريثما يصل زوجها الى القمة ، ويصير بالتالي  
بحاجة الى امرأة جديدة نضرة تقوى على ملاحقة ايقاع حياته .  
عاودها احساسها الهولي بذاتها . انها تتخبط من وعاء الى آخر ، ولا تعرف بالضبط  
ماذا تريد . كلمة تشجعها على كراهيته وطلب الطلاق وكلمة اخرى تقذف بها الى وعاء  
الغيرة وحب الامتلاك . . .  
( آه ، لقد فقدت حقيقي الداخلية ، ولم اعد واثقة من مشاعري المتقلبة ) . . .  
كانت احساسها تتلون بسرعة هائلة متنقلة بين الايقاعات كافة ، وداومتها نزوة طارئة  
ملحة الى ان تشغله بنفسها ، بأي ثمن ، ووجدت نفسها تقول : اريد الطلاق . . .  
اليوم .  
اجابها بفتور : آسف لا وقت لدي الآن اضيعة في تفاصيل كهذه . . علي الآن ان افق  
على قدمي ، وبدلاً من مساعدتي تحاولين تهديمي . . .  
— احاول انقاذ نفسي من تهديك لنا معاً . . . انت متزوج من سباق الجرذان لا مني ،  
والطلاق تم وانتهى على اية حال . . . لقد اعطيتك فرصة لتنجو ، لتنجو معاً . . سرقت



الوثائق لأجلك . . . ورضيت بالفقر شرط ان ترضى به . . السجن افضل من حياة بلا نقطة ضوء . . .

— اسكتي الآن . . لقد استيقظ (الأولاد) . . لا نريد تشويش حياتها بجنوننا . . .  
— حياتها ممزقة . . لم يعودا عرباً ، ولن يصيرا اوروبيين في أي يوم . . . الا تفهم ؟  
— ربما كان من الأفضل ان اتصل بالشيخ صخر واتفاهم وإياه . . . وأعود الى عملي القديم معه ، فالذي تعرفه خير من الذي تتعرف عليه .  
— لم تعد لك حقيقة صلبة انت ايضا . . . صرت نباتاً طفيلياً بحاجة للالتصاق بنبته اكبر . . .

— سأشرح له الأمر وسيصدقني . . سأقول له ان رغيد كذب عليه وارغمني على لعب دور كبش الفداء والدليل انتقام العناية الإلهية لي . سأثبت له براءتي من حكاية المدرسة . . انه طيب القلب ، ولعله في قرارة نفسه موثق من جرم رغيد . .  
— اولادنا بلا جذور . . وانت بلا جذور . . كائنات طفيلية تعوم في الهواء ذهبي الغبار ، وتحاول سرقة مكاسب الشعوب الأخرى ونعمها . .  
— اعتقد ان الوقت مناسب لذلك . . سأوهمه انني تلقيت عروضاً كثيرة ، لكنني افضل العودة اليه . .

— لن ننعم بديمقراطية لا نستحقها . . ولن ننعم بحرية لم ندفع ثمنها . . ان الاقامة في سويسرا لن تجعل منا سويسريين مهما كنا اثرياء . . لن ننعم بحياة سعيدة في أي مكان . .  
— سأتصل بكوكو . . كوكو الرائعة التي تصلح زوجة لرجل مثلي مصمم على النجاح دائماً . . اعجاب الشيخين بها ، صخر وصقر ليس خافياً . . لم يرها رجل إلا وبهرته . . . وقد اكون بحاجة اليها حين يغادر صقر مصحه . . .

— هل تستمع الى ما اقله ؟

— هل تسمعين ما قلت ؟ . . .

— انك لا تحاورني . . .

— سأذهب للقاء الشيخ صخر . . لا بد من التمسك به بعد سقوط رغيد . . . أوبأي مرادف مالي له . إذا لم اعد باكراً افرحي ، فهذا يعني انني وفقت في مساعي . . مات رغيد الأول ، عاش رغيد الثاني . .

— سأذهب لشراء ريشة وألوان زيتية ، وسأعود الى الرسم . . لا بد من التمسك

- بالشيء الوحيد الذي تبقى لي بعد انهيار كل شيء . . .
- اجل . . . سأذهب الى الشيخ صخر للتعزية وجس النبض . . .
- سأذهب الى بائع الألوان . .
- هل ترافقيني ؟
- هل ترافقني ؟
- ارافقك ؟ اني مشغول . ماذا قلت يا دنيا ؟ الى اين تريدان ان ارافقك ؟
- وانت ماذا قلت ؟ الى اين كنت ترغب في ان ارافقك ؟ . آه . . . دعنا نحاول . . .
- نحاول ماذا ؟
- ان يسمع كل منا صوت الآخر حين يحاوره . . . دعنا نجرب بناء حياتنا من جديد . . .
- دعنا نجرب . . .
- انك ثملة . . . عند المساء تصحين وتحدث . . . أو صباح الغد . . .
- هذه المرة لست ثملة . . .
- ماذا كنت تشيرين طوال الوقت في السيارة، ومنذ وصولنا، من تلك الزجاجة، دوغما افطار ؟ اسمعي يا دنيا . اعرف انني ارتكبت غلطة حين حملت اليك تلك اللوحة اللعينة في لحظة ضعف عاطفية نادرة . ولكننا دوماً ندفع ثمن هذا النوع من الاخطاء . . . وقد اتعبتني في الاسابيع الاخيرة . دعيني اصارحك : ربما كنت موهوبة فيما مضى وربما لا . . . ولكن ألا تفهمين، الموهبة ككل شيء، يصدأ اذا لم نستعمله ؟ ألا تفهمين انك لا تستطيعين الغاء عقدين من حياتك بقرار والعودة الى نقطة في الماضي احببتها ؟ بذرة الموهبة تموت ايضاً إذا لم نتعهدا بالرعاية . لم يعد في مقدورك العودة الى الماضي . انتهى . لا مفر لك من الهروب إلى الأمام . . . لن تقدرى على استعادة فتاة اللوحة فأنت قتلتها .
- سأحاول . . . على الاقل سأحاول . . . اما انت فترفض محاولة اي شيء . . .
- لقد تجاوزت المرحلة التجريبية منذ زمن بعيد . . . انا اعني معنى ان اكون على مشارف الخمسين من عمري . . . معناه : لا رجوع . . . لا أحد يبدأ من جديد في هذه السن . . .
- بوسع المرء ان يبدأ من جديد في أية سن . . . بوسعك ان تحاول . . . وسأحاول . . .
- خطب حماسية ، نظريات . كلامولوجيا . ما نفعله نكونه ، والباقى تبريرات لغوية . . . هل عدت لزيارة امير وأمثاله ؟

- اجل . . . فعلت وسأفعل . . .
- ماذا تجدين عند أحرق فقير كهذا ؟
- نقطة ضوء .

\*\*\*

ليلة المليار . . .  
وبدلاً من ان يلهو ، ها هو هنا شبه سجين . . . ليلة المليار ، الليلة الأولى لصقري في المصح ، وبلا كوكاين وقناع الشيطان . . .  
لقد وجدوا المخدرات في غرفة الضيافة الخاصة به في القصر وسيعاقب باصلاحه . . .  
ولن تجدي ملايين ابيه نفعاً هنا . . .  
ولكنه قتل رغيد . . قتله دفاعاً عن النفس لأن الآخر كان يغار منه . . لماذا لا يصدقه احد ؟ . . .  
لماذا يضطهدونه ويحتقرونه ولا يلحظون عظمتة السرية ؟ . . صحيح انه كنتم عن الجميع مدى خطورته ، ولكنه كان يظن الأمر واضحاً لا يخفى الى هذا المدى . . .  
لماذا يضطهدونه ويعذبونه ؟ . . لماذا يدعون انه يهلوس ويتوهم هذه الأفكار كلها بسبب «البنت البيضاء» ، مخدره الحبيب ، الذي يدعون انه حوله الى حطام ؟ أي حطام ؟ ألا يرون خلوده الآتي ومجده الحالي ؟  
لماذا تخلى عنه خليل ، ورفض القول ان المخدرات له هو ؟ أليست هذه وظيفة موظفيه ؟ ان يسجنوا عنه ويعذبوا عنه ؟ لماذا لا يقوم احد بعمله ؟ كان سيجزل له العطاء . . . لكن ذلك الحقير رفض وتخلّى عنه . . .  
سيغادر المصح ذات يوم . . . وسيقطع رزقه في اوربا . . . سيطارده ، وسيشتري كل مؤسسة يعمل فيها ليطرده منها . . . لن يهرب من انتقامه . . انتقامه . . انتقامه من . . .  
من اي شخص ؟ لقد نسي . . . نسي . . . لا يذكر غير انهم يعذبونه ويضطهدونه .  
يقيدونه . . يريد ان يمزق شيئاً . . اي شيء . . الوسادة . . الجدار . . . النافذة . . .  
الغيوم . . وجهه . . رقبته . . الحشرات تركض تحت جلده . . . ماث الحشرات السود تهاجم عينيه . . . يصرخ : النجدة . . . النجدة . . .

تغرس الممرضة ابرتها الحادة في ذراعه . . . تملأ منخريه المقرحين بمرهم مرطب . . .  
 يصرخ : لا اريد مرهماً . . . اريد «مسحوق الطيران» . . . اريد «الغبار الأبيض» ،  
 «غبار السعادة» . . دعوني اطير . لا تربطوني الى الأرض . . لا اعرفها . . لا اعرف  
 بشرها ومشاكلها وحكاياها . منذ ولدت وابي يطير بي بعيداً . . واريد ان استمر على  
 طريقي . . . واطير . . . اطير . . . النجدة يا كوكو . . انقذيني وسأعاقبك بقتلك وسيلد  
 لك ذلك ايها العاقلة الوحيدة . .

\*\*\*

ليلة المليار . . .

ودنيا تشمل وحيدة . . . وولداها يتحاشيان الاقتراب منها ثم يغادران البيت ، ونديم لم  
 يعد منذ الصباح ، وهذا معناه انه دبر امره والشيخ صخر أو سواه من الأثرياء . .  
 (وكوكو صارت لا تخلو من الوقاحة . لقد سألت عنه وتركت رقمها الهاتفي : رقم  
 الشقة الخاصة بزوجي . ولم تكلف نفسها عناء تحيّي او الاستفسار عني . تجاوزت اللياقات  
 وعاملتني كأنني غير موجودة . حفنة من رماد . ماض انتهى . سيسعدني ان ارقبها يوم  
 تتحول بدورها الى حفنة من رماد ) .

حاولت الرسم بعد الظهر . عجزت عن ذلك . كانت يدها ترتجف ، وأعماقها تهزول  
 مدعورة الى دهايز عميقة . صرفت خادماتها ، وسعدت بمغادرة ولديها للبيت ، وادارت  
 زر التلفزيون وجلست تلتهم الطعام بشراهة ولم تحس بشيء وهي ترقب موجز اخبار بعد  
 الظهر وتسمع نبأ مصرع ليلي السباك في حادث سير غريب ، إذ اصطدمت بشاحنة كبيرة  
 وهي مندفعة بأقصى سرعتها عكس اتجاه السير . . . ولم تبال بالتساؤل الذي طرحه المذيع :  
 ترى هل هو انتحار كما بدا الأمر لسائق الشاحنة ؟

لم تشعر بالشماتة ولا بالفرح ، وإنما باللامبالاة ، كأنما ازدحمت اعماقها بالمشاعر ولم تبق  
 امكنة لمشاعر جديدة . قامت الى فراشها ، ونامت ساعات واستيقظت وهاجس الرسم  
 يوجعها : سأحاول الآن ثانية وإذا فشلت يكون نديم على حق . . .

حاولت ثانية . . . وكان فشلها في صحوة ما بعد النوم اكيداً . . . احست بانها كمن  
 يفتش عن جوهرة في غابة لم يزرها منذ زمن غابر ، أو لم يزرها الا في حلم نصف منسي . . .  
 ( ها قد درت دورة كاملة ، وعدت الى حيث بدأت . . . بل انني اشعر الآن باحباط

اكبر ، ولم اعد الى حيث بدأت بل ضاقت الدائرة علي . . . كأنني درت بشكل حلزوني . . . دورة اخرى او دورتان ، وأصل الى مركز الحلقة ، وأدور حول نفسي كأني مجنون سقط في الهذيان . . . سأذهب الى امير . . . ) .  
سكبت كأساً اخرى من ماء النار وابتلعته دفعة واحدة .

( لا . لن اذهب الى امير . اعرف كل ما يمكن ان يقوله لي . احفظ عن ظهر قلب الكلمات التشجيعية كلها التي يمكن ان تقال في مناسبة كهذه . . . كأن يؤكد لي انني اقسو على نفسي كثيراً حينما اقارنها بالصبي التي كانتها في الأزمان الغابرة ، وسيؤكد اننا ننظر الى صبابنا بالعين ذاتها التي نستحضر بها موتانا . . عين الرضى . . . فنلغي عيوننا السابقة كلها ولا نحصي غير الحسنات . . . كلمات . . . كلمات . . . والحقيقة الوحيدة : اني تعيسة ) . . .

حين شربت دنيا محتويات الزجاجاة كلها ، نهضت كعادتها تنفقد ذاتها في لوحتها . . . ودهشت حين وجدت فتاة اللوحة قد اختفت منها كأنما غادرتها الى الأبد . . . ولو كان الشيخ وطفان حياً لاتهمته ونديم بتدبير هذا السحر المكبر . . .  
أضاءت النور . . . اقتربت من اللوحة . . . لاحظت ان صورة الفتاة ما تزال كما هي ، لكن طبقة كثيفة من الضباب الرمادي المبيض غطت اللوحة وحجبته . . .  
صعقت . انهارت في مقعدها دقائق طويلة وهي ترتجف بدهشة ، انتظرت ان تخاطبها الفتاة كعادتها فلم تفعل . . . وبدت نائبة نائبة خلف تلك السنوات الضوئية من الظلام والضباب المتحجر . . .

نهضت ، ولمست اللوحة باصبعها ، وذهلت حين وجدت طبقة من الدهان الرمادي المبيض تغطيها . . . كأن ثمة من رسم فوق اللوحة طبقة من ضباب كادت الفتاة تختفي تحته تماماً . . .

( هل يمكن ان اكون قد فعلت ذلك بنفسني وانا نائمة ؟ ) . . .  
ارتجفت اسى حين ومض في ذهنها خاطر مرعب يشبه يقين لحظة الرؤيا :  
لعلي ارى فتاة اللوحة للمرة الأخيرة ، وغداً صباحاً يبتلعها الضباب نهائياً . . .  
ولم يكن عليها ان تنتظر حتى صباح اليوم التالي ، لأنها حين حدثت في اللوحة من جديد لم تر احداً فيها . لقد اختفت الفتاة تماماً ، ولم تحلف وراءها بياض القماش قبل رسمه ، بل لوناً بين الأبيض والرمادي . . . يشبه البياض الموصخ الذي يخلفه طفل على ورقته المدرسية

بعدها عبث بها طويلاً بأقلامه ثم حاول اصلاح لهوه بالممحاة . .  
وغصت دنيا مذعورة .  
( اذن لا شيء يمحو خطايانا حقاً ، ولا يمكن اختراق حاجز الزمن حقاً والجسر الذي  
نهدمه خلفنا لا يعاد بناؤه ) .

لم يشعر خليل ان كابوس «ليلة المليون» انقضى الا لحظة أشار رامي بيده المكسورة والجبيرة البيضاء تحيط بها صوب اليابسة صارخاً : بيروت . . . بيروت . . . قبلها ، كان خليل يشعر ان الايام المتعاقبة بين طائفة جنيف الى لارنكا فالبحت عن مركب ، كلها ليلة واحدة طويلة طويلة . بدت تلك اليد الطفلة المضمدة ، كالسهم الأبيض الذي يشير الى وجهة السير . . . فادي كان مرمياً كالخرقة على ظهر المركب . دوار البحر استولى عليه ، وقد اسند رأسه الى ركبة امرأة لا يعرفها فحنت عليه فيما اسندت رأسها بدورها الى ركبة امرأة اخرى لا تعرفها مرمية مثلها فوق تلك الباخرة الصغيرة القادمة من قبرص والتي تتقاذفها الأمواج في الدرب الى بيروت . . . وقد تكوّم الناس بعضهم فوق بعض في باخرة المواشي تلك ، ذاهبين ربما الى الذبح اسوة بها . . . قبل ايام ، احترقت في الموضع ذاته باخرة هاربة بكل ركاياها . . هكذا كان يروي احدهم ، وفي عرض البحر لاحت باخرة اخرى خارجة من بيروت صوب قبرص ، وتأملها خليل دونما حسد . . .

( اين المفر ؟ هربت مرة مثلهم وانتهى الأمر . ركبت ذلك الاتجاه ، وهرولت صوب الشاطئ الآخر للعالم ، ولم اغادر حلقة الكوابيس . . كنت كمن تأرجح في المسافة بين كابوس وآخر . . . ) . . .

رامي يصرخ فرحاً وهو ما زال يشير صوب بيروت بذلك السهم الأبيض الحي . . . نبض قلب خليل بدفء عميق . استعاد حسه بالكرامة . . لن يكون لاجئاً . . مشرداً . . لن يتسول بعد اليوم عملاً وبطاقة اقامة وتأشيرة دخول . . ولن . . ولن . . وإذا وجد بيته مدمراً فسيقيم في خيمة فوق ارضه ريثما يعيد بناءه . . هنا البداية ، لا فوق مقعد في مقهى رصيف عاصمة اوروبية ، ولا في مستنقع رغيد . أو أمثاله . .

ظل ممتلئاً حماساً وفرحاً والباخرة تقترب . ترسو . دهر من الانتظار . زحام . هبوط .  
دموع . زحام .

اسئلة . اجوبة . دخول . تاكسي . استمتع بالمساومة حول اجرة الطريق رغم انه كان  
يملك ما يفيض عن الاجرة . لقد استعمل (هدية) هلال لنفقات العودة . . . وكان يشع  
سعادة وجوراً وهو يحدق في شوارع بلده المغسولة بالشمس والوجوه الأليفة ، حتى جاءت  
اللحظة الحرجة . . .

الحاجز الاسرائيلي . . .

كاد لا يصدق ان ذلك يحدث له حقاً .

للمرة الأولى في حياته يتوقف امام حاجز اسرائيلي في ارض وطنه (هنا حيث سبق  
وتقاتلنا فيما بيننا ارى الحاجز الاسرائيلي وقد احتل مكان الجميع . قبله كان ثمة حاجز محلي ،  
فأخر ، فأخر . . . وبعد كل اقتتال يتبدل رجال الحاجز وشعاراته وصور الزعماء المتشابهة التي  
تتوج براميله ، والآن ذهب الجميع ، والحاجز الاسرائيلي ينتصب كأنه الخاتمة لتلك الدراما  
كلها ) الخاتمة ؟ لا . لا . لا . . . للمرة الأولى يرى جندياً اسرائيلياً . كان جندي الحاجز  
فتى صغير السن ، يشبه الشبان جميعاً في مثل سنه . . . وربما لو التقى به في جنيف ، او لو  
داس على قدمه في لارنكا لاعتذر منه بكل تهذيب ولأشعل له لفافته . . . أما في تلك  
اللحظة ، فقد استولى عليه هاجس مروع : ولكن ، ماذا يفعل هذا الرجل هنا ؟

وحين تأكد من ماهية الحاجز دهشته مشاعر الذل والغضب . . . كان الجنود  
الاسرائيليون قد اكتفوا بربط خيط رفيع يكاد لا يرى يعترض الطريق . . .

لا عارضة خشبية . . لا براميل . . مجرد خيط رفيع موشخ ابيض من الطرف الأيمن  
للرصيف الى الأيسر . . وخلف هذا الخيط تقف ارتال السيارات . . . مئات منها متجهة  
صوب درب الحرب . . . والسيارة التي تقله وحدها متجهة صوب درب العودة . . . شعر  
خليل بالخيط الرفيع الذي ربطه الاسرائيليون حاجزاً يحيط بعنقه حاداً مسنناً  
ويخنقه ، ولم يعد في مقدوره ان ينطق ، وسائق التاكسي اجاب عن اسئلة جنود  
الحاجز ، ويده ناولته جوازات السفر كأنما انفصلت عن الرأس وبقيت الجسد ، وخليل يحنق  
وصدره يضيق وألم حاد يتفجر من اعماقه كما لو اغمد احدهم للتو خنجره في خاصرته . .  
والجندي يفتش السيارة للتأكد من خلوها من الطعام والماء احكاماً للحصار التموييني على من  
صمد من اهل بيروت . . .



( ارى مائة وسبعين مليون عربي مصطفين في الصحراء بعضهم خلف بعض ، وأنا بينهم ، وكلنا نقف جامدين امام خيط رفيع من القطن كخيط الحاجز هذا ، وكل الخيوط الواهية التي يقطبون بها الأزارار . . . نتشاجر فيما بيننا حول كيفية قطع الخيط . . . ينظر بعض خطبائنا حول اسلوب قصه ومتى واين يجب ان يقص . . . من الطرف الأيمن ام الأيسر أم الوسط . . . وإذا حاول احدهم قصه مباشرة افتعل بعض المندسين شجاراً وياه ، ليضيع في خضم الشجارات الأخرى . . . تختلط الأصوات . . . نبدأ الاقتتال فيما بيننا ونقص رقاب بعضنا بعضاً ولا احد يقص الخيط . . . وفي فترات الهدوء النسبية يأتي من يتحسس الخيط تمهيداً لاجراء دراسة استراتيجية حول الأمر ، وآخر يلقي خطبة عصماء مطلعها : يا خيط يا خيط . . . فتحمله بعض الجموع على اكتافها وتركض به وتعلو الهتافات : يسقط الخيط . . . يسقط الخيط . . .

وتمر جماعته باخرى لها هتافات مغايرة فيبدأ اطلاق النار لا على الخيط ولكن على بعضهم بعضاً ، ثم تقوم المعارك فيما بينهم ، والخيط حيث هو ، مجرد خيط رفيع لا اكثر . . . والنظريات كثيرة والخيط واحد ) . . .

الكل صامت في التاكسي . رامي وفادي حبسا انفاسهما . . . لقد اقتربوا من البيت . . . العيون تحرق من النوافذ . . . يرون الدمار . . . الدمار ، وآثار الحريق والانبيارات وبقايا المتاريس للشوارع المذبوحة على الهوية الدينية وسواها طوال سبعة اعوام من هستيريا الحرب . . . ( الأهلية؟ ) . . . اهذا ما يفعله الأهل حقاً بعضهم ببعض؟

للمرة الأولى يتذكر خليل لحظة اطلقوا الرصاص عليهم في المقبرة ولم يمت ويكاد يشعر انه ارتكب حماقة بالعودة الى بيروت . . . ولكن لا ، لن يقتل لبناني وآخر ، وعربي وآخر بعد اليوم في بيروت . . . غير ممكن بعدما حدث . . . ممكن؟ لا . نعم .

( ها هو الخيط الرفيع يقطع شوارع عاصمة عربية اخرى ولا احد يحرك ساكناً حتى الآن . . . فهل يتابع الخيط الرفيع غموه عبر شوارع مدن اخرى واخرى ويستحيل شبكة عنكبوتية تتخبط في عذاباتها؟ وإلى اي مصير اعود بأولادي؟ إلى أي وطن؟ ذلك الخراب كله ، الخراب الداخلي المرتسم في خراب الأبنية والأجساد ، هل يمكن ترميمه؟ . . . ألم أرتكب غلطة فادحة حين عدت بأولادي من جنيف؟ كان في مقدوري التفطيش عن عمل شريف متواضع ما دامت كفى هجرتي على اية حال ، والبقاء هناك بعيداً عن المأساة هنا ،

وعن امتدادها هناك في صخر وصقر ورغيد . . . فلماذا رجعت ؟ ) . .  
والسيارة تمضي وكهارب الدهول تتصاعد ، ويكاد خليل يغرق في بئر ندم مظلمة . . .  
( ماذا افعل وكل خطوة تقود الى خلل ؟ وإذا كان الهرب خطيئة ، أليست العودة الآن  
خطأ مميتاً ؟ ) . . .

وفوجيء بمشهد غريب . . .  
فوق الخرائب كلها ، بين البيوت المتهدمة ، شاهد خليل طائرة ورقية ملونة تطير وتعلو  
وتضيء تحت الشمس ببريق له وهج الذهب . . . وقد تدلى منها خيط ابيض له طعم البهجة  
لا الذل . . . كانت شيئاً غريباً وأليفاً ، راكضاً فوق صفحة الموات مثل طفل غادر رحم امه  
المحتضرة حياً . . . وشهق بصرخة الولادة لحظة انهيارها ذبيحة . .  
وتعلقت عيناه بالطائرة الورقية الملونة . . . وسمعوا صوت رصاصة وقال السائق . . لا  
تخافوا . . لا قنص . .

( اني اراهم . . يتجمعون . . يطلقون رصاصهم صوب الطائرة الورقية الملونة . .  
. . . يريدون اسقاطها بأي ثمن وسط ذلك الياس المحروق الشاسع ) . . .  
ولكن الطائرة الورقية الملونة تابعت تحليقها . . وظل خليل يتابعها بانظاره حتى احس  
بألم في رقبته . . وحين عاد بنظرته الى الأرض المحروقة ، خيل اليه انه لمح بحرية تركض بين  
خرائب البيوت بسرعة النار وعذوبة الطائرة الورقية الملونة . . تعدو والساحر وطفان يهرول  
خلفها وقد شبت النار في جسده . أم تراه كان واهما ؟

( سألني هنا . . . وليكن ما يكون . . إذا رحلنا جميعاً ، من يقص الخيط ؟ ) .

« تمت » ؟

بدأت كتابتها داخل رأسي يوم ٥ / ٥ / ١٩٨٣ .  
باشرت تسطيرها على الورق يوم ٩ / ١١ / ١٩٨٣ ،  
وتمت كتابتها كمسودة في ٢٥ / ١٢ / ١٩٨٣ .  
عدت للعمل عليها يوم ٣١ / ٨ / ١٩٨٤ ،  
وأنجزتها في ٢٥ / ٤ / ٨٥ الساعة ١٧ ، ٣ فجراً .



## اقرار باسماء المراجع

« التعاويذ السحرية » كلها في هذه الرواية نقلتها حرفياً عن أصولها في المكتبة الشعبية العربية ، من الكتب التالية :

- ١ - كتاب : النور الرباني في العلم الروحاني .  
تأليف : الاستاذ الكبير عبد الفتاح السيد الطوخي مدير عام معهد الفتوح الفلكي .  
الناشر : المكتبة الشعبية - بيروت .  
تاريخ النشر : غير مدون .

\*\*\*

- ٢ - كتاب : الجواهر اللامعة في استحضار ملوك الجن في الوقت والساعة .  
تأليف : الاستاذ الكبير الشيخ علي ابو حي الله المرزوقي .  
الناشر : المكتبة الشعبية - بيروت .  
تاريخ النشر : غير مدون .

\*\*\*

- ٣ - كتاب : تسخير الشياطين في وصال العاشقين .  
تأليف : الاستاذ الكبير عبد الفتاح السيد الطوخي مدير عام معهد الفتوح الفلكي .  
الناشر : المكتبة الشعبية - بيروت .  
تاريخ النشر : غير مدون .

\*\*\*

- ٤ - كتاب : اللؤلؤ والمرجان في تسخير ملوك الجن .  
عنوان فرعي : يشتمل على كثير من مهمات الفوائد الروحانية والعزائم والطلاسم وأبواب المعجزة وحل المربوط وعلى خلخلة الهوى الكبرى الصحيحة المجربة وخلاف ذلك والله أعلم .  
الناشر : دار العلم للجميع .  
اسم المؤلف : غير مدون .  
تاريخ النشر : غير مدون .

\*\*\*

- ٥ - كتاب : الكباريت في اخراج العفاريت (الطبعة الثالثة) .  
عنوان فرعي : يشتمل على القدرة الإلهية في المعالجة الروحانية ، ويليهِ : الحكمة الربانية في المعالجة الجنسية ، ويليهِ : كشف اللثام عن جعفر الامام - أسأل الله ان يتفج به العالمين آمين .  
جمع وتأليف : الاستاذ عبد الفتاح السيد الطوخي مدير عام معهد الفتوح الفلكي لمصر والاقطار الشرقية .  
الناشر : المكتبة الشعبية - بيروت .  
تاريخ النشر : ١٣٩٢ هجرية / ١٩٧٢ ميلادية .

مراجع عن المؤلفة صدرت عن  
دار الطليعة - بيروت

- غادة السمان بلا أجنحة (طبعة ثالثة) ..... د . غالي شكري
- غادة السمان الحب والحرب ..... د . الهام غالي
- دراسة في علم الاجتماع الأدبي
- قضايا عربية في أدب غادة السمان ..... حنان عواد
- تقديم البروفسور عيسى بلاطة
- تحرر المرأة عبر أعمال سيمون دو بوفوار وغادة السمان ..... نجلاء نسيب الاختيار
- التمرد والالتزام في أدب غادة السمان ..... باولا دي كابوا
- تقديم البروفسورة ايزابيلا كاميرا دافليتيو



عدا عن نسيجها اللغوي المميز الخاص بها، ما يذهلني هو خصوصية خيالها الذي لا ينضب. والخيال هو بدون شك العامل الأساسي الذي تدور حوله كل عبقرية الخلق للكاتب والتي، عند غادة السمان تصبح عبقرية منتشرة بالذكاء والثقافة. وثمة ما يقرب غادة من كاتب حديث وعبقري هو اينالو كالفيو لأنه كالكاتبة السورية هو ربما الكاتب الأكثر استخداماً للخيال واضعاً بينه وبين الواقع (وعي) الكاتب المرهف الحاد.

من دراسة بالاطالية  
د. ايزابيلا كاميرا دافيليتو

ربطت الكاتبة بشغافية مرهقة بين المستويات الوطنية والسياسية والإنسانية. كما أوضحت تكامل الأبعاد السياسية وتداخلها... هذه النظرة التكاملية هي أهم ما يميز أدب غادة السمان الذي يقف شاهداً خالداً على أن الأدب النسائي تجاوز بكثير اهتمامات المرأة التقليدية الضيقة وفرد أنجحته ليضم الوطن والإنسانية. ولكن هذا لا يلغي أبداً قدرة الكاتبة على تناول هذه الموضوعات من زاوية معينة أو حساسية مختلفة تعطي هذا الأدب لونه ونكهته المتميزتين.

د. بثينة شعبان

في «ليلة المليار» تبدو غادة السمان في حيوية كتابها الأول. وبعد كل هذه المسافة الشاسعة والوعرة تبدو خطواتها «الليلية» الأخيرة وكأنها في صباحها الأول. إنها حيوية الداخل، حيوية التفاتات على الذات وعلى العالم وعلى الأشياء، حيوية الانتصار على الزمن والانتصار له وبه. وهذا بالذات ما يحفظ لكتاباتنا على امتداد السنوات نكهة طالعة من نضارة التجربة المعقدة التي من فرط النفاقها بواقعها الزمني تخترق إلى ما هو أبعد وأكثر (جوانية)، إلى نقاط الداخل الحادة والمظلمة حيث العري الأول والموت الأول والزمن الأول.

بول شاوول



«ليلة المليار» واحدة من أهم الروايات العربية في حقبة الثمانينات.

د. رياض عجمي

في «ليلة المليار» تقف غادة السمان على قمة الزمن العربي، وتقبض على خارطة الهم العربي، وتنسج بليلتها إلى ضمير العقل العربي، وتتربع ملكة - تستحق التتويج - على عرش الرواية العربي.

فضل الأمين

«ليلة المليار» واحدة من أفضل الروايات العربية المعاصرة وأهمها.

د. محي الدين صبحي

مشهورات غادة السمان

